أبي العلاء المعري

دراسات

الصورة الفنية في شعر المعري وأثرها في المعنى

تحقيق

حياة أبو عافية

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

كلية: الآداب واللغات
قسم: اللغة والأدب العربي

الرقم التسلسلي : .....
رقم التسجيـــل : DL/ 03/ 10

أطروحة مكملة لنيل شهادة دكتوراه علوم في الأدب العربي

تخصص: أدب عربي

الصـــورة الفنيـــة في شعر أبي العـــلاء المعـــري وأثـــرها في المعـــنى

– دراسة إحصائية تحليلية –

إعـــداد الطالـــبة
حياة بوعافية

تاريخ المناقشـــة: 31-05-2016

أمام لجنـــة المناقشـــة المتكونة من السادة:

– أ.د. امحمد فورار	أستاذ التعليم العالي	جامعة محمد خيضر ببسكرة	رئيسا
– أ.د. فتحي بوخالفة	أستاذ التعليم العالي	جامعة محمد بوضياف بالمسيلة	مشرفا ومقررا
– د. حكيمة بوقرومة	أستاذ محاضر (أ)	جامعة محمد بوضياف بالمسيلة	ممتحنا
– د. صبيرة قاسي	أستاذ محاضر (أ)	جامعة اكلي محند أولحاج بالبويرة	ممتحنا
– د.خير الدين دعيش	أستاذ محاضر (أ)	جامعة محمد لمين دباغين بسطيف2	ممتحنا
– د. عبد الغني بن الشيخ	أستاذ محاضر (أ)	جامعة محمد بوضياف بالمسيلة	ممتحنا

السنة الجامعية: 2016/2015

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مقدمة:

شهد العصر العباسي تحولا مميزا وتطورا ملحوظا في كل المجالات، لاسيما المجال الأدبي، هذا المجال الذي ينير لنا دوما الطريق، ويساعدنا على الكشف عن وجه من أوجه الحضارة، والدراسة هذه لم تكن إلا لإماطة اللثام وإظهار بعض الجوانب الخفية، ومحاولة لتسليط الضوء على بعض الجوانب والمواضيع التي لم تحظ بعناية كافية من طرف الدارسين من مثل الصورة الفنية، خاصة عند أبي العلاء المعري ، فمن دون شك هذا الموضوع ألا وهو– الصورة الفنية – قد لاقى انتشارا ورواجا كبيرا بين الأدباء والنقاد، فتناولوه بالدراسة والتحليل والتعقيب، وهذا ما وجد في كتب النقد القديم ، فكانت جهودهم بارزة في هذا الشأن، ودراساتهم دراسة تأصيلية أثمرت آراء ًمتقاربة حول مفهوم الصورة وأنماطها المعهودة، لكن بالنسبة لأبي العلاء المعري وتخصيص الدراسة حول الصورة الفنية في أشعاره لم يسبق لهم أن تناولوها، ومن هنا آثرت الخوض في هذا المجال حول هذا الشاعر وشعره هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فقد جاء هذا البحث وفي مجال الشعر بالذات دون النثر، وهذا ما يعكس حبي الكبير للشعر وشغفي دائما به ومحاولة الاستماع والاستمتاع به فالميول الشخصية هي إحدى الأسباب الذاتية التي تدفع الباحث للخوض في موضوعه المختار فهي الدافع دوما إلى البحث عما هو جديد حتى يثبت ويوضح بحثه بالشكل الصحيح.

إضافة إلى طبيعة التخصص في مجال الأدب، الذي يفرض الموضوع مثلما هو مبين، فتخصص الأدب العربي القديم فرض موضوعا لشاعر يمثل فترة زمنية معينة ينحصر بين العصر الجاهلي والعصر العباسي هذا الأخير الذي يعتبر عصرا للشاعر المدروس .

لهذه الأسباب اتجهت إلى دراسة موضوع الصورة الفنية في شعر أبي العلاء المعري خاصة وأنّ هذه الدراسة سوف تمكننا من التعرف على ديواني المعري وهما اللزوميات بجزئيه وسقط الزند كما تساعدنا على التعرف على معظم الموضوعات التي تطرق إليها الشاعر في ديوانيه ومختلف المصادر التي استقى منها صوره، وتساهم في إثراء المكتبة الجامعية، وقد طرحت جملة من التساؤلات تشكل جوهر إشكاليته وهي:

ما معنى الصورة الفنية ؟ ماهي أغلب الآراء والأفكار التي طرحت في هذا الموضوع ؟ وما هي مختلف أنواعها ؟ هل صحيح أنها تراوحت بين الأنماط التقليدية المعروفة كالصور البيانية التي انحصرت بين الصور التشبيهية والصور الاستعارية والكنائية والصور المجازية، إضافة إلى الصور البديعية التي

تنحصر في الطباق والمقابلة والجناس ؟ أم أنها ابتدعت أنواعا أخرى بعيدة عن هذا القالب الفني؟ ما معنى الصور المرتبطة بالحواس؟ وما مدى تأثير هذه الأخيرة في تصويره ؟ وما هو النوع الذي آثره الشاعر في ديوانيه اللزوميات بجزئيه وسقط الزند ؟ وما مدى أهميتها ووظيفتها في إبداع النص الشعري؟ وما هي أهم العوامل التي حملت المعري على التصوير؟ هل هذه العوامل مرتبطة بشخصية الشاعر الحساسة والخجولة وبعميه، ومن ثم هي مرتبطة بذاتيته ؟ أم أنها مرتبطة بأفكاره وخبراته وأسلوبه؟ وكيف تجلى كل نوع في شعره ؟ وما مدى تأثير هذه الأنواع فيه، وما موقفه منها ؟ كيف سخّر لغته لهذا الموضوع ؟ وكيف عبّر عنه ؟

والإجابة عن هذه الأسئلة شكلت بدورها هذا البحث الذي سار وفق خطة تمثلت في: مدخل و أربعة فصول وهي كالآتي:

البداية كانت مع المدخل الذي وضحت فيه أهم النقاط المتعلقة بالصورة لغة واصطلاحا من طرف بعض النقاد والأدباء أمثال الزمخشري والراغب الاصفهاني والجاحظ وحازم القرطاجني، إضافة إلى التفصيل في أنواع الصورة الفنية التي تراوحت بين الصور البيانية، والصور البديعية، كما ظهرت الصور التي ابتعد فيها الشاعر عن الصناعة، فكانت أقرب إلى الحقيقة منها إلى التصنع سميت بالصور الحقيقية، كل هذه الأنواع لها أهمية في إبداع الشعر، وهذا ما وضح بالتفصيل، أما الفصل الأّول كان تحت عنوان أنماط الصورة الفنية في شعر أبي العلاء المعري ، ففي القسم الأّول تناولت أنماط الصورة حسب قالبها الفني و بها ثلاثة فروع و كل فرع به مجموعة من النقاط تفصل الموضوع المعالج، فعلى سبيل المثال الجزء الأول يتحدث عن الصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز، أما الجزء الثاني فيتكلم عن الصور البديعية من طباق ومقابلة وجناس.

أما الجزء الثالث والأخير، فتّم قصره على الصور الحقيقية سواء كانت خارجية أم داخلية يكون تصوير الشاعر فيها بعيدا عن الأنماط الأخرى المعروفة.

أما القسم الثاني من الفصل الأول فقد عنون بأنماط الصورة حسب إرتباطها بالحواس وفيه خمسة أجزاء كل جزء يتكلم على نوع من التصوير، فتنوعت الصور بذلك من صور بصرية ساكنة منها ومتحركة وملونة إلى صور سمعية و صور ذوقية وأخرى لمسية وشمية.

هذا عن الفصل الأّول، أما الفصل الثاني فقد ضّم موضوعات الصورة والعوامل التي أثرت في المعري لإخراجها فيه قسمان؛ الأول يتحدث عن موضوعات الصورة لدى المعري التي تراوحت بين

الاغتراب الذي عانى منه كثيرا منها ما تعلق بالمكان وهجرته هذا ما أدى به الى الحنين والشوق مثلما تبين معه وهو في العراق، فتذكر بلده المعرة كما ظهر عنده الاغتراب الاجتماعي ،حيث قرر الابتعاد والانعزال من المجتمع الذي لم ّمختلف الأجناس والأخلاط والأنواع من البشر فكذبهم وخداعهم وأنانيتهم ونفاقهم جعله يحس بالقهر والحزن كما شكل الزمان موضوعا آخر شكل وفقه ألفاظه، فبرع في تصويراته خاصة بعدما كواه بحوادثه ونوازله حتى مّل العيش متمنيا بذلك الموت والخلاص من هذه الحياة التي هي كلها في نظره تعب وهم، وهي كلها مواضيع كانت لها أهمية كبيرة في تكوين شعره، فقد أطال فيها التفكير والتأمل و التحدث حتى جاءت تأملاته وفلسفاته عميقة وممزوجة بحكم ومواعظ وأمثال وحكم ذات قيمة كبيرة، حاولت فيه تسليط الضوء على هذا النوع ولو كان مختصرا .

أما القسم الثاني فركزت الدراسة فيه على أهم العوامل التي أثرت في الشاعر وساهمت في تشكيل صوره منها فقدان بصره وتشاؤمه الذي غرس فيه خاصة بعدما صدم في فراق أهله وأحبابه وزهده الذي أعلنه لباسا له يقيه من زيف الدنيا وزيغها واعتزال الناس جراء اكتشافه لحقيقتهم.

وفي الفصل الثالث، أدرجت ثلاثة عناصر من مصادر المعري، وكانت البداية في هذا الفصل بالمصدر الديني الذي تمثل في القرآن والحديث النبوي الشريف، إضافة إلى المصدر الثقافي المتمثل في الشعر القديم، حيث كان الشاعر شديد الارتباط بالتراث العربي وحريص على توظيفه وتنوير شعره بتلك الإضاءات المشرقة فأحسن الشاعر توظيف أسماء الشعراء القدامى والمعاصرين أمثال امرؤ القيس والنابغة الذبياني والحطيئة وعبيد بن الأبرص ومعاصرين أمثال المتنبي وجرير، ولم يكتف المعري بتوظيف أسماء الشعراء بل تعداه الى انتقاء ألفاظ معاني الشعراء القدامى واستحضار النصوص القديمة الغائبة بين الفينة والأخرى، فعمد إلى النهل من ألفاظها ومن أسلوبها ومعانيها وتحويرها بحسب السياق، ويظهر ذلك أكثر في شعر المتنبي وجرير والفرزدق والأخطل وغيرهم ممن عاصروه، كما وظف التاريخ والأمثال المشهورة والمتداولة في ذلك الوقت.

أما العنصر الآخر، فيتناول المصدر الإنساني والذي تمثل في صور جاءت في هيئة إنسان وأعضائه فتعددت صور الانسان من طفل إلى امرأة وتارة أخرى تشخيص الأشياء وتشبيهها بالرضع، وصور لها علاقة بالحضارة كأدوات الكتابة والحروف وأشكالها، إضافة إلى تبيين مظاهر التمدن والعمران، وصور لها علاقة بالأدوات، فاتخذ من الآلات المستعملة من طرف الإنسان كمصدر من مصادر التصوير خاصة وأنّ هذه الأدوات لها قيمة كبرى عند العربي فأخذ يتغنى بها وبرموزها لتصوير

وصف الأشياء، ومن هذه الآلات ما يخص الحرب كتوظيفه لمصطلح السيوف، والدروع، والرماح والحسام، والسهام وغيرها، ومنها ما يتصل بأدوات مستعملة في المنزل كالحبال والكؤوس، والدلاء، كما وجدت صورا لها علاقة بالعلاقات البشرية المتمثلة في الكرم والوفاء والبخل وصورا أخرى مصدرها الزينة واللباس كتوظيفه لمصطلح الثوب والقماش والقميص وغيرها من الصور الموجودة في شعر أبي العلاء المعري.

أما القسم الثالث فيتناول المصدر الطبيعي الذي تمثل في نوعين من الطبيعة صامتة ومتحركة الأولى تمثلت في كل ما هو جماد من سماء وأرض، وتراب، وجبال، وحجر ورمال وغيرها من الكائنات الجامدة، أما الثانية وهي المتحركة فجسدها في حيوانات داجنة وأخرى متوحشة إضافة إلى الطيور والزواحف والحشرات كل هذه الأصناف والأشكال من الحيوانات ذكرت في شعر أبي العلاء المعري.

أّما في الفصل الرابع وهو الأخير فكان تحت عنوان سمات الصورة الفنية لدى المعري والذي شمل السمات اللفظية من حسن للرصف وكثرة للتكلف، إضافة إلى البنية الإيقاعية فتجسدت في الوزن الذي تمثل في مختلف البحور من بسيط إلى طويل وخفيف وغيرها من البحور والأوزان التي كثر استعمالها، والقافية التي تنوعت أكثر والتكرار الذي ظهر في أجناس مختلفة كتكرار الأحرف والمفردة، والتصدير، والتدوير، والتصريع، هذا في القسم الأول، أما في القسم الثاني فتناولت فيه السمات المعنوية لدى المعري وقد تمثلت في ظاهرة الوضوح والإبهام والمبالغة، إضافة إلى شعرية التعبير والتفنن فيه لدى الشاعر واستعماله للمماثلة، من تشبيه واستعارة وتمثيل وغيرها، وكذا الإجمال والتفصيل المتمثل في الجمع والتفريق، والطي والنشر، كما لا أنسى فن التوشيح والإضمار والتلميح الذي تمثل في التورية و التدبيج و التلميح و الإلغاز، وفي الأخير تفنن في إظهار المغايرة

وقد اقتضت طبيعة هذا الموضوع ألا وهي الصورة الفنية في شعر أبي العلاء المعري وأثرها في المعنى الاعتماد لإنجاز هذا البحث على المنهج الإحصائي التحليلي بالدرجة الأولى الذي ساعدني كثيرا في هذه الدراسة وهذا بالذات في الفصول الأربعة التطبيقية لذلك طبق في ديواني الشاعر ألا وهما اللزوميات بجزئيه وسقط الزند، فوجدت أنماطا عديدة للصورة في شعر أبي العلاء المعري منها الصورة البيانية كالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز أضافة الى الصور البديعية كالطباق والجناس والمقابلة، كما أَحصيت صورا أخرى بحسب الحواس كالصور البصرية و السمعية و الذوقية والشمية، إضافة إلى بعض الموضوعات التي تطرق إليها المعري في شعره كالغربة، والمرأة الموت والزمن وغيرها، كل هذه

الأنماط والمواضيع ظهرت نتيجة استعمال المنهج الإحصائي التحليلي لكن استعمال هذا المنهج وبصفة قوية في الدراسة لا يعني تجاهل المناهج الأخرى التي استعملت كالمنهج التاريخي الذي وظف في الدراسة ولكن بشكل يسير وبالضبط في الفصل التمهيدي الذي اقتضى منا تتبع موضوع الصورة عند الأدباء والنقاد والفلاسفة قديما وحديثا، فاستعماله القليل ومقارنته بالمنهج الإحصائي الذي كان هو الأساس في الدراسة هو ما جعل هذا الأخير يؤكد ويوضح أكثر وبالضبط في العنوان، مثلما ساعدتني الدراسات المتنوعة التي اعتمدت عليها وأفادتني في تجميع هذا الكم الهائل من المعلومات وفي هذا المجال بالذات، ومن بينها بعض الكتب البلاغية التي حكت عن هاته الأنواع ككتاب **علم البيان دراسة تحليلية لمسائل البيان** لبسيوني عبد الفتاح و**أسرار البلاغة** لعبد القاهر الجرجاني **والإيضاح في علوم البلاغة** للقزويني، و**الدليل إلى البلاغة وعلم العروض** لعلي جميل وحسن نور الدين **والبلاغة والتطبيق** لعلي مطلوب وحسن البصير **والإحاطة في علوم البلاغة** لزبير دراقي وعبد اللطيف شريفي **والبلاغة العربية** لسعد سليمان حمودة **والبلاغة العربية في ضوء منهج متكامل** لمحمد محمد بركات وكتاب **دروس البلاغة** لناصف وآخرون **والتلخيص في علوم البلاغة** حققه وشرحه عبد الحميد هنداوي **وجناس الجناس في علم البديع** لصلاح الدين صفدي وغيرهم كثير من أهل البلاغة، كما اعتمدت على بعض الكتب النقدية من مثل كتاب **الصورة الفنية في الخطاب الشعري** لعبد الحميد هيمة و**الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب** لجابر عصفور، **والصورة الفنية في النقد الشعري** لعبد القادر الرباعي، **والصورة الفنية في الشعر العربي مثال ونقد** لإبراهيم بن عبد الرحمن الغنيم إضافة إلى **بنية القصيدة الجاهلية** لريتا عوض و"**النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدّين**" لسناء خضر، وكتاب **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري** لسميرة سلامي، وجماليات القصيدة الإسلامية المعاصرة، الصورة، الرمز، التناص لرابح بن خوية، وأيضا كتاب **في سبيل موسوعة فلسفية، أبو العلاء المعري** لخليل شرف الدين وكتاب **أبو العلاء المعري رهين المحبسين** لجعفر خرباني، **وفلسفة أبي العلاء مستقاة من شعره** لحامد عبد القادر كما إعتمد على كتاب المجموعة الكاملة وتعريف القدماء بأبي العلاء المعري إضافة إلى كتاب يحكي عن حياته وشعره وهي كلها للمؤلف طه حسين، أما مصدري الأساسي في الدراسة ، فقد كانا ديواني المعري **سقط الزند** و**اللزوميات**، وبعض الشروحات من مثل

كتاب **المتغير الأدبي في شروح سقط الزند** لأبي العلاء المعري للمؤلف هشام القلفاط، وكذا **شروح سقط الزند، وشرح المختار** للبطليوسي وآخرون **وشروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند** لمحمد بنشريفة وكتب أخرى ومعاجم من مثل **لسان العرب** لابن منظور و **مختار الصحاح** تحقيق وشرح وضبط سعيد محمود عقيل **وأساس البلاغة** للزمخشري وغيرهم كثير من المعاجم والمصادر التي استقيت منها معلومات حول كل ما يخص المعري.

وأنا لا أنكر في أنّه واجهتني صعوبات جمة ومنذ البداية سواء كانت في اختيار هذا الموضوع، أو في فهم شعره خاصة وأنّ جل أشعاره كتبت بصبغة فلسفية، كما تجسدت الصعوبات في المعلومات المحصلة ممّا اضطرني إلى السفر إلى ولايات وجامعات ومكتبات أخرى وحتى إلى دول مجاورة من أجل جمع قدر من الكتب التي تحوي هذا الموضوع.

وكما ُوجدتْ بداية لهذا البحث المتمثلة في المقدمة كانت هناك نهاية متمثلة في الخاتمة التّي كانت عبارة عن خلاصة وحوصلة لأهم النّتائج المتحصل عليها في البحث، وكذا قائمة المصادر والمراجع المعتمدة .

وبفضل اللّه وتوفيقه استطعت أن أتغلب على الكثير من المشاكل والصعوبات التي كانت تعترض طريقي، كما لا أنسى دور الأستاذ المشرف علّي الدكتور "بوخالفة فتحي" الذي لم يبخل علي بالنصائح القيّمة، كما لا أنسى كل من قدّم إلّي يد العون سواء من قريب أو بعيد فإلى كل هؤلاء شكر وتقدير ومحبة وعرفان مني إليهم جميعا

وأخيرا وليس آخرا أتمنى من الله التوفيق فإن وفقت فذلك منه، فهو صاحب الفضل والجلالة وإن أخفقت فحسبي من نفسي أنني اجتهدت في هذا الموضوع الذي قد يقع تحت طائلة الخطأ والنقص والغفلة في بعض الأحيان.

فأسال الله العلي القدير أن لا أحرم أجر الاجتهاد وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين .

الفصل التمهيدي

ماهية الصورة الفنية ووظيفتها في إ بداع النص الشعري

أولا:مفهوم الصورة الفنية

ثانيا :أنواع الصورة الفنية

ثالثا :أهمية الصورة ووظيفتها

أولا: مفهوم الصورة الفنية

يعتبر موضوع الشعر من بين أهم الموضوعات التي تم التعرض لها عبر امتداد التاريخ ؛ << فهو صياغة جمالية للإيقاع الفني الخفي الذي يحكم تجربتنا الإنسانية الشاملة ،وهو بذلك ممارسة للرؤية في أعماقها ،ابتغاء استحضار الغائب من خلال اللغة>>[1] ؛فعالمه عالم جميل يموج بالحركة والألوان ، ولغته لا تعترف بالحدود والمنطق ،مثلما ذكر أدونيس في كتابه "مقدمة الشعر العربي"؛حيث قال : << أنّ الشعر يأتينا مفاجئا، غريبا عدو المنطق والحكمة والعقل ندخل معه إلى حرم الأسرار ويتحد بالأسطوري العجيب السحري >>[2].

والشعر لا ينقل الدلالات والمعاني بصورة رتيبة كما هي في الواقع ،إنما يحبذ إلى اكتشاف كنه الأشياء بالشعور والحدس لا بالعقل والفكر؛<< لأن الفكر لا يجوز أن يدخل العالم الشعري إلا مقتنعا غير سافر متلفعا بالمشاعر والتصورات والظلال ذائبا في وهج الحس والانفعال، ليس له أن يلج هذا العالم ساكنا باردا مجردا >>[3].

فالشاعر باستطاعته أن:<< يحول الأفكار إلى تجارب شعرية >>[4]؛ فهو لا يعبر بالكلمة المجردة مثل العالم والمفكر وإنما يجسد تجربته الشعرية بواسطة الكلمة والإيقاع والرمز والصورة،هذه الأخيرة ؛ أي – الصورة- احتلت مكانة كبيرة في الدراسات الأدبية والنقدية والبلاغية القديمة والحديثة وهو ما سوف يتحدد أولا على المستوى اللغوي ثم الاصطلاحي عند النقاد العرب وغير العرب قديما وحديثا .

---

[1]- إبراهيم رماني: الغموض في الشعر العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، (د،ط،د،ت)،الجزائر، ص:85.

[2]- علي أحمد سعيد: مقدمة للشعر العربي، دار العودة ، (د،ط)،1971، بيروت، ص:58.

[3]- سيد قطب: النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، ط5، 1983، بيروت، ص:58.

[4]- عبد الحميد هيمة: الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري، اتحاد كتاب الجزائريين ، ط1 ،2001، ص:55.

1 – مفهوم الصورة لـغة:

إذا نظرنا إلى بعض المصادر والمعاجم العربية باحثين عن معنى "الصورة" فإننا نجد مادة (ص، و، ر) تعني مثلا في معجم لسان العرب لابن منظور:<< الصورة في الشكل والجمع صور، وقد صوره فتصور،وتصورت الشيء توهمت صورته، فتصور لي،و التصاوير: التماثيل >>[1].

قال ابن الأثير:<<الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته، وعلى معنى صفته ، يقال صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته، وصورة كذا وكذا أي صفته>>[2].

كما يحدثنا "الراغب الأصفهاني"عن الصورة بأنها:<<هي ما ينتفش بها الأعيان،ويتميز بها غيرها،وذلك ضربان:-أحدهما محسوس يدركه الخاصة والعامة، بل يدركه الإنسان وكثير من الحيوان كصورة الإنسان و الفرس،و الحمار بالمعاينة.

-والثاني: معقول يدركه الخاصة دون العامة، كالصورة التي اختص الإنسان بها من العقل والروية، والمعاني التي خص بها شيء بشيء>>[3]،وعند الانتقال إلى مدلول الصورة في القرآن الكريم لوحظ أنها أعيدت فيه ست مرات تختلف دلالاتها من مصطلح إلى آخر؛ بحيث نجدها جاءت مرتين بصيغة الفعل الماضي.

الأول:(صَوَّرُكم) في قوله تعالى:﴿الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين﴾[4].

---

[1]- ابن منظور: لسان العرب، دار لسان العرب ،(د ،ط ،د ،ت) ، بيروت، مادة (صور)،ج2، ص :492.

[2]- ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف ،(د ،ط ،د ،ت) ، القاهرة ، (مادة صور)،ج4، ص :2523.

[3]- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة ،(د، ط ،د ، ت) ، بيروت،(مادة صور).

[4]- سورة غافر/ الآية 64.

ويقول "الزمخشري":﴿ فأحسن صوركم﴾ وقرئ: بكسر الصاد والمعنى واحد، قيل: لم يخلق حيوانا أحسن صورة من الإنسان، وقيل: لم يخلقهم منكوسين كالبهائم[1]،فصورة الآدميين هي صورة حسنة شكلها الله –سبحانه وتعالى – في أحسن تقويم وتشكيل.

والثاني الذي يظهر– أيضا- بصيغة الماضي نجده في القرآن الكريم بلفظة (صورناكم)؛ وذلك في قوله تعالى:﴿ولقد خلقناكم ثمّ صَوَّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾[2]؟ ويقصد بها الله تعالى أنّه بعدما خلق آدم سيد البشرية خلق بعده جميع المخلوقات وشكله ثم أمرها بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس، وقد بينها أكثر " أبو السعود" في كتابه " إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم " حين قال:<< خلق آباءكم آدم طينا غير مصور، ثم صوره أبدع تصوير، وأحسن تقويم سار إليكم جميعا >>[3].

كما وردت لفظة صورة بصيغة اسم الفاعل(المصور) وذلك في قوله تعالى:﴿هو اللّه الخالق البارئ المصّور له الأسماء الحسنى يسبّح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[4] .

فاللّه يخلق العباد ويصورهم في الأرحام كيفما شاء ، لأنه قادر على كل شئ، وهذا ما جسدته الآية الكريمة ؛حيث قال فيها الله تعالى:﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم ﴾[5].

مثلما هو واضح جاءت لفظة الصورة – هنا- بصيغة الفعل المضارع (يصوركم)، وقد فسرها "ابن كثير" في كتابه "تفسير القرآن العظيم" فقال :<< يخلقكم في الأرحام كما يشاء من ذكر و أنثى وحسن وقبيح وشقّي وسعيد>>[6].

---

[1]- محمود بن عمر الزمخشري : الكشاف، دار المعارف ،(د ،ط ، د ،ت) ،ج4 ، ص:176.

[2]- سورة الأعراف /الآية 11 .

[3]- أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة ،الرياض،ج2 ،ص:325.

[4]- سورة الحشر / الآية 24.

[5]- سورة آل عمران /الآية 6.

[6]- إسماعيل بن كثير: تفسير القرآن العظيم ، دار المعارف ، (د ، ط، د، ت) ،ج1، ص :46.

فكل هذه الأمور المتعلقة بالخلق تسير بإرادة اللّه وحده؛فهو وحده الذي يعلم الغيب وأمور وشؤون عباده ،فيحق له أن يوجد البشر كيفما شاء وهذا ما يفسره قوله تعالى:﴿ في أيّ صورة ما شاء ركبك﴾ [1].

و المستخلص من هذه الآيات السابقة،ومن كلام أئمة التفسير ممن حملوا على عاتقهم مسؤولية تفسير غريب القرآن وتحليله أنّ الصورة تعني الخلق والإيجاد والتشكيل والتركيب.

وإذا كان الحديث السابق انصب حول مادة (صور) في القرآن الكريم وما حملته من صيغ،فإنّه يجدر الإشارة إلىكلمة التصوير التي لها ارتباط وثيق بالصورة من حيث أنّه هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن؛<<فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيّلة عن المعنىالذهني، والحالة النّفسية ،وعن الحادث المحسوس،والمشهد المتطّور،وعن النموذج الإنساني،والطبيعة البشرية،ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها،فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة،فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة،وإذاً الحالة النفسية لوحة أو مشهد،وإذا النموذج الإنساني شاخص حي،وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية >>[2].

انطلاقا من هذا القول يتبين أنّ " التصوير" هو فن يعبر به عن حادث معين أو حالة نفسية فيشخصها ويجعلها أكثر حيوية،<<وهو تصوير باللون وتصوير بالحركة وتصوير بالتخييل،كما أنّه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل، وكثيرا ما يشترك الوصف والحوار، وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السياق في إبراز صورة من الصور>>[3].

---

[1]- سورة الانفطار / الآية 8.

[2]- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن ، دار المعارف ، ط10 ،(د ،ت)، القاهرة ،ص :34.

[3]- صلاح عبد الفتاح الخالدي:نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، المؤسسة الوطنية للفنون الطبيعية ،(د، ط) ،1988 ،الجزائر ، ص :33.

2- اصطلاحا:

2-1- الصورة الفنية عند النقاد العرب والغربيين:

إنّ الدارس للأدب العربي القديم لا يكاد يعثر على تعبير للصورة الشعرية بهذا الاسم في التراث النقدي والأدبي وبالمفهوم المتداول الآن ،لأنّ الدروس النقدية العربية القديمة كانت تحصر التصوير في مجالات البلاغة المختلفة كالمجاز، والتشبيه ، والاستعارة.

أما الصورة الشعرية –كمصطلح نقدي- الذي يعنى بجماليات النص الأدبي قد دخل النقد العربي في العصر الحديث متأثرا بالدراسات الأدبية الغربية، ومسايرة لحركة التأثير التي عرفتها الآداب العالمية.

ومع الإيمان التام بأنّ النقاد المحدثين قطعوا شوطا كبيرا في تعريف الصورة،وتحديد مدلولاتها، ومعالجة قضاياها، فإننا لا يمكن أن نغفل جهود القدماء ؛لأننا عندها<< نكون كالطائر الذي يرغب في أن يطير بجناح واحدة،ولن يتحقق له ذلك >>[1].

فالتقصي في كتب النقد القديم عن الصورة كان مقصورا على بعض آراء الذين كانت لهم جهودا بارزة في هذا الشأن فقط؛ فلو ذكرت كل تلك الآراء فإنّ المقام سوف يطول مع أنّ كل محاولاتهم هي بمثابة دراسات تأصيلية[2] أثمرت آراء متقاربة حول كلمة(الصورة) أو إحدى مرادفاتها أو مشتقاتها ، فوصلوا إلى أنّ " الجاحظ" هو أوّل من استخدم هذا المصطلح في نقد الشعر، وعباراته المشهورة في ذلك هي خير دليل على ذلك ؛حيث يقول:<< المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي و العربي و البدوي و القروي،و إنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة

---

[1]- إبراهيم أمين الزرزموني: الصورة الفنية في شعر علي الجارم، دار قباء للطباعة والنّشر والتوزيع، (د ،ط) ، 2000 ،ص: 92، 93.

[2]- من بين هذه الدراسات التأصيلية الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن2 علي البطل ، والصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي جابر عصفور، والصورة الأدبية تاريخ ونقد علي مصطفى صبح ، وبناء الصورة الفنية في البيان العربي كامل حسن البصير إضافة إلى مجموعة الكتب الأخرى التي درست الصورة وتعرضت لجهود النقاد القدامى منها.

الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك فإنما الشعر صناعة،وضرب من النسيج وجنس من التصوير>>[1].

فهذا النص يعتبر من أقدم النصوص التي تحدث فيها الجاحظ عن التصوير، وقد توصل إلى أهمية التجسيم وأثره في إغناء الفكر بصور حسية قابلة للحركة والنمو، تعطي الشعر قيمة فنية وجمالية لا يمكن للقارئ الاستغناء عنها، فحينما يكون الشعر جنسا من التصوير يعني هذا << قدرته على إثارة صور بصرية في دهن المتلقي، وهي فكرة تعد المدخل الأّول أو المقدمة الأولى للعلاقة بين التصوير والتقديم الحسي للمعنى>>[2].

إذن التصوير في الشعر يشبه إلى حدّ ما التصوير في الرسم وإن اختلفت الأدوات المستخدمة في كل منهما، فالرسام يصور باللون، والشاعر يصور بالكلمة،ففكرة الترابط بين الشعر والفنون الحسية التي تعتمد على التصوير كالرسم.. وغيرها ظاهرة من خلال ذلك القول للجاحظ،وقد سيطرت في أذهان جل من عايشوا القرن الثالث والرابع.

أما الصورة عند قدامه بن جعفر هي الوسيلة،أو السبيل لتشكيل المادة وصوغها، شأنها في ذلك شأن غيرها من الصناعات.

فتناول مقومات الصورة في الشعر وأوضح قدامه أنّ معيار الجمال ، ومقياس الجودة يرجع للشكل أكثر من المعنى،ويفصل الأشياء التي تعتمد عليها الصورة والمكونة لجزئياتها، فيقول:<< وأحسن البلاغة الترصيع، والسجع، واتساق البناء،واعتدال الوزن، واشتقاق لفظ من لفظ ،وعكس ما نظم من بناء، وتلخيص العبارة بألفاظ مستعارة، وإيرادها موفورة بالتمام>>[3].

---

[1]- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي، ط3 ،1969 ، بيروت، ص:417.

[2]- جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط3 ،1992 ، ص:316.

[3]- إبراهيم أمين الزرزموني: مفهوم الصورة الفنية بين القديم و الحديث، منتدى النقد التطبيقي و الدراسات النقدية، أفريل 2006 ،ج1. hemaz@hotmail.com.

ويعلق أحد الباحثين على أراء قدامه قائلا :<< نستطيع أن نقرر أصالة قدامه بن جعفر في إدارته لمصطلح الصورة متحدثا عن معاني الشعر وألفاظه >>[1].

ومجيء "عبد القاهر الجرجاني" في القرن الخامس وضّح أكثر معالم الصورة ويظهر ذلك بقوله: <<واعلم أنّ قولنا: الصورة إنّما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا،....وكذلك كان الأمر في المصنوعات،فكان تبيين خاتم من خاتم وسوار من سوار بذلك، ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا وفرقا عبرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا: للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك>> [2].

ويبلغ الجرجاني ذروة إبداعها الفني والنقدي في دراسته للصورة حينما نظر إليها نظرة متكاملة لا تقوم على اللفظ وحده أو المعنى وحده بل إنّهما عنصران مكملان لبعضهما،ويظهر ذلك جليا في قوله :<< ... فلما رأينا البينونة بين أحاد الأجناس تكون من جهة الصورة فكان بين إنسان من إنسان، وفرس من فرس بخصوصية تكون في صورة ذاك،ولبست العبارة عن ذلك بالصورة شيئا نحن إبتدأناه فينكره منكر،بل هو مستعمل في كلام العلماء، ويكفيك قول"الجاحظ": وإنّما الشعر صناعة وضرب من التّصوير.>> [3].

ويبين أحد النّقاد مدى الحس النّقدي المرهف الذي وصل إليه "عبد القاهر الجرجاني" على المستويين التنظيري والعلمي،فقال:<< لقد أدرك هذا البلاغي الفذّ أنّ الشعرية،أو البلاغة تتحقق بفضل التّصوير الذي يعترض المعنى،هذا التّصوير أو "وجوه الدلالة على الغرض "هو مجموع الأدوات التصويرية البيانية من تشبيه وتمثيل واستعارة وكناية،وهذا ما يختصره الجرجاني في عبارته التي يتحدث فيها عن القدماء وفهمهم للصورة:"إنّهم لا يعنون بحسن العبارة مجرد اللفظ،ولكن صورة وصفة وخصوصية تحدث في المعنى>>[4].

---

[1]- كامل حسن البصير: بناء الصورة الفنية في البيان العربي،مطبعة المجمع العلمي العراقي،(د،ط)،1987، بغداد ،ص:33.

[2]- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، ط3 ،1992، القاهرة ، ص:508.

[3]- المصدر نفسه: ص: 508.

[4]- ريتا عوض: بنية القصيدة الجاهلية، الصورة الشعرية لدى امرئ القيس، دار الآداب، ط 1، 1992 ،بيروت ، ص:65.

فالجرجاني لم يهمل الصياغة والتصوير الجيد لأنهما أساس الجمال، فقد تجلت الصورة في مذهبه الشعري مجازا وانطباعا حسيا ورمزا بما في ذلك من أشكال التعبير المختلفة مراعية في ذلك لما تمر به النفس البشرية من حالات قد تؤثر على مستوى الشعر،وما يتدرج الفكر فيه من مستويات[1] .

كما تطور مفهوم الصورة عند "حازم القرطاجني" فلم تعد مقصورة على الشكل فقط بل شملت كل ما يؤثر في المتلقي بتغيير مواقفه ، كما ربط بين الجانب الفني لمصطلح الصورة والجانب النفسي، وهذا ما أكده "جابر عصفور" في كتابه حين قال :<< أنّ الصورة لم تعد تشير إلى مجرد الشكل أو الصياغة فحسب،ولم تعد تحوم حول التقديم الحسي، وإنما أصبحت محددة في دلالة سيكولوجية خاصة تتصل اتصالا وثيقا بكل ما له صلة بالتعبير الحسي في الشعر>>[2].

وقد حرص "حازم القرطاجني" على الربط بين دلالة اللفظ ودلالة المعنى،فيقول:<< إنّ المعاني هي الصورة الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان، فكل شيء له وجود خارج الذهن وأنه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك منه،فإذا عبر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك،أقام اللفظ المعبر به هيئة تلك الصورة في أفهام السامعين وأذهانهم >>[3].

فهو يرى ضرورة تشخيص اللفظ للصورة الذهنية عند إدراكها بما يحقق الدلالة المتعارف عليها على مستوى العرف العام.

وعليه فالشيء الذي نستخلصه من خلال عرضنا لمختلف الأقوال والآراء النقدية حول مصطلح الصورة،هو أنّ هذه الأخيرة ؛أي— الصورة – تعرف قديما بهذا المفهوم بل كانت بحوثهم متمثلة في الأنماط البيانية كالتشبيه، والاستعارة، والكناية،والمجاز؛وهو ما عرف بعلم البيان،وهذا ما أشار إليه أحد النقاد المحدثين حين قال:أنّ النقاد القدماء إنما كانوا يصطنعون الذوق والانطباع طورا والأدوات

---

[1]– ينظر ريتا عوض: بنية القصيدة الجاهلية: ص:88

[2]– حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الكتب الشرقية ، (د، ط) ، 1966 ، تونس ،ص :18.

[3]– جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ،ص:361.

البلاغية التقليدية القائمة على الاستعارة والمجاز العقلي والكناية والتشبيه والمحسنات اللفظية بوجه عام، طورا آخر[1].

كما أشار علي البطل في معرض حديثه عن الصورة في الشعر العربي إلى أنّ القدماء وقفوا بمفهوم الصورة عند الصورة البلاغية في التشبيه والاستعارة والمجاز[2].

ولهذا لا يمكن أن نعثر على تعريف نقدي قديم لمصطلح الصورة لأنه لم يتبلور إلا في النقد الحديث ؛ حيث <<لم تعد الصورة البلاغية وحدها المقصود بالمصطلح،بل قد تخلو الصورة – بالمعنى الحديث- من المجاز أصلا ،فتكون عبارات حقيقية الاستعمال ومع ذلك فهي تشكل صورة ذات خيال خصب >>[3].

فالصورة الحديثة وفق منظور المحدثين هي ما سوف تكون محل الدراسة لاحقا،كما تسمح الفرصة للتطرق إلى تلك الصور البيانية التي كانت من اهتمام القدماء،ولكن ليس الآن وإنما في العنصر المسمى أنواع الصورة الفنية.

أما فيما يخص **تعريف الصورة عند المحدثين**؛حيث يلمح اهتمام النقاد بها في العصر الحديث كان واضحا وكبيرا ؛ فطوروا منها ووسعوا مجالاتها ؛ فجاءت مسايرة للفكر الإنساني ومنسجمة مع تلاحق العلوم والفنون الإنسانية ، فلم تعد الصورة الشعرية مقتصرة في نظر الكثير من النقاد والمفكرين على الذوق والانطباع والصور البلاغية التقليدية المتمثلة في الاستعارات، والتشبيهات، والمجاز، والكناية، والمحسنات اللفظية، فقد أضيف إلى ذلك ما يسمى بالصورة الذهنية والصورة الرمزية فأصبحت تعني الصورة في العصر الحديث :<<شيئا يجنح نحو تقريب حقيقتين متباعدتين >>[4].

---

[1]- ينظر عبد المالك مرتاض: الصورة الفنية في شعر عبد العزيز المقالح، مجلة الثقافة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية،(د، ت)، ع:90، الجزائر ، ص:175، 176.

[2]- ينظر علي البطل: الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ،دراسة في أصولها ،مجلة فصول، مجلد 4، ع4، 1984، ص:15

[3]- عبد المالك مرتاض: الصورة الفنية في شعر عبد العزيز المقالح ، ص:175، 176.

[4]- ينظر المرجع نفسه: ص: 176.

وهذه الصور في جملتها مرتبطة بفن البلاغة ، مما يجعل الصور البلاغية هي المهيمنة على بقية الصور المستحدثة ، فالصورة الشعرية الحديثة تلامس العقل والواقع ملامسة لينة وتتجاوزهما جانحة إلى الخيال لإنشاء عالم خاص مفعم برؤى وجدانية تتولد في ساحة الشعور، وعواطف صادقة نابعة من كوامن النفس؛ إنها ميلاد فني نتيجة معاناة صادقة يجسدها الشاعر في نسق لغوي خاص يؤمنه العمل المشترك بين مجموعة العلاقات اللغوية[1].

يتضح مما سبق أن الصورة الشعرية الحديثة هي صورة غير مباشرة يعتمد فيها الشاعر على الخيال حتى يتصف ذلك التصوير بالفنية الجمالية،وهذا ما وضحه أحد النقاد حين قال:<< يعد التصوير من خصائص الأسلوب الشعريقوم على التخيّل والمحاكاة ، وتقوم صوره على الظواهر البلاغية الخاصة من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز،ومن خصائص القول المنعوت بالشاعرية >>[2].

فإذن وضع النقاد في العصر الحديث تعريفات عدة للصورة وأشكالها ومن بين هذه التعريفات سوف يقع الاختيار تعريفا يتماشى مع ما ستدور عليه معالجتي للصورة الفنية في شعر أبي العلاء وهو ما خلص إليه أحد الباحثين بقوله:<< الصورة الفنية في الشعر هي مجموعة الوسائل التعبيرية التي تنجم عنها قيم فنية تنبه المشاعر وتوقظ الوجدان وتلفت نظر المتلقي إلى المعنى، فيتفاعل معه >>[3].

فالصورة هنا هي تلك الوسائل أو العناصر التي يؤلف منها الشعر يستعملها الشاعر للتعبير عما يدور في ذهنه معتمدا على الخيال الذي به يقرب المعنى المستكن في خيال الشاعر والذي هو صورة ما يراه من المحسوسات أو ما يتخيله مما لا وجود له ، ويقرب هذا المعنى إما عن طريق الحقيقة أو المجاز،فالمعنى واللفظ والخيال مع بعضها تعكس لنا جمال التصوير نفسه،لأنّ هذا الأخير هو:<< أجمل المعاني وأبدعها، بل هو رأس المعاني وسيّدها، والغاية الأخيرة منها >>[4].

---

[1]- ينظر رجاء عيد: فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، منشأة المعارف المصرية ،(د،ط،د،ت) ،ص ص:159،180.

[2]- محمد تحريشي: النقد والإعجاز ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ،(د،ط) ،2004 ، دمشق ،سوريا ،ص:63.

[3]- زيد بن غانم الجهيني: الصورة الفنية في المفضليات، الجامعية الإسلامية، رسالة دكتوراه ،ط1 ، 1465هـ ،المملكة العربية السعودية ،ج2 ، ص:47.

[4]- محمد تحريشي: النقد والإعجاز، ص:63.

لذلك فالنقاد المحدثين لا يختلفون عن القدماء في اهتمامهم بالصورة،فقد حظيت بمنزلة رفيعة مما أّهلها بأن تكون محل اهتمام منهم على ممر العصور، ووفق مختلف الثقافات واللّغات؛فهي عند الأستاذ " أحمد الشايب" هي:<< المادّة التي تتركب من اللغة بدلالتها اللّغوية والموسيقية، ومن الخيال الذّي يجمع بين عناصر التشبيه والاستعارة والكناية والطباقحسن التعليل>>[1].

فالصورة عنده هي عبارة عن مادّة محتواها مجموعة من الألفاظ لها دلالات عن أفكار ومعاني أرادها الشاعر وهذه الألفاظ لا تبتعد عن كونها تشبيه،واستعارة، كناية،وحسن التّعليل؛فهي كلها أركان وصور بلاغية عرفت منذ القدم.

أّما عند الأستاذ "علي صبح" الصورة الأدبية هي:<<التركيب القائم على الأصالة في التنسيق الفني الحي لوسائل التعبير التي ينتقيها الشاعر من عالم المحسوسات ليكشف عن حقيقة المشهد والمعنى في إطار قوي تام محّس مؤثر على نحو يوقظ الخواطر والمشاعر في الآخرين>>[2].

إضافة إلى الكثير من الآراء والتعريفات لمختلف النقاد المحدثين كالعّقاد ومحّمد غنيمي هلال وغيرهم كثير ممن حملوا على عاتقهم مسؤولية تحديد مصطلح الصورة وتبيين حدودها وخصائصها، فألفوا كتب و أطروحات تحوي في طياتها مضامين مختلفة حول الصورة ، ومهما كانت من تباين أو اتفاق في الآراء حولها من طرف المحدثين،تبقى الصورة ترجمان وللفكر،<< لأنّ الشاعر يفكر بالصورة ، والتعبير بالصورة لغة الشاعر التلقائية التي لا يتعلمها >>[3].

ومن الصعب الوصول إلى تعريف واحد وشامل للصورة،وقد احتلت الصدارة بين الأدوات والأنواع الفنية الأخرى لذلك نراها تتبدى في الدراسات العربية وحتى الغربية الأوربية واليونانية؛فنجدها عند "أرسطو" مثلا لا تبتعد عن كون الصورة هي:<< الشكل و الهيولي هي المادّة،وقد ضرب مثال

---

[1]- إبراهيم أمين الزرزموني: الصورة الفنية في شعر علي الجارم ، ص:99.

[2]- المرجع نفسه : ص:99.

[3]- عبد الحميد هيمة: الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري ، ص:97

المنضدة المشهور ليبيّن الفرق بين الصّورة و الهيولي فالمنضدة هيولها الخشب والغراء،وصورتها هي التركيب المخصوص الذي تألّف به الخشب والغراء حتى ظهر على هذا الشكل>>[1].

والناقد"دي لويس"كتب قائلا عن الصورة متأثرا بقول أرسطو:<< إنها رسم قوامه الكلمات >>[2] فقد جعل الصورة الفنية كرسم يقوم به الفنان مادته ليست الألوان وإنما الكلمات التي يعبر بها عن محتوى كلامه.

لذلك أولى الغربيون عناية خاصة بالصورة فتداولوها فيما بينهم وقد امتلأت الساحة الأدبية بأسماء لامعة أضافت إلى مجال النّقد و البلاغة و الأدب مفاهيم لا تقل أهمية عمّا أضافه النّقاد العرب في هذا المجال ومن أمثالهم " فريديمان نورمان" التي جاءت الصورة عنده لتعني<<كل شيء لكل النّاس>>[3]؛ فآفاقها واسعة وغير محدودة يمكن أن يستفيد منها كل إنسان سواء كان مثقف،أو جاهل، بدائي، أو متحضر،وقد تتألف من عناصر محسوسة كالألوان والحركة والخطوط يوحي بها الشاعر عن فكرة أو عاطفة وهذا ما وضّحه النّاقد "فان"؛حين قال:<< الصورة كلام مشحون شحنا قويا يتألف عادة من عناصر محسوسة،خطوط ،ألوان، حركة، ظلال،تحمل في تضاعيفها فكرة أو عاطفة وتؤلف في مجموعها كلاما منسجما>>[4]، فتأثيرها بالغ في النفس؛لأنها تنقل فكرة أو معنى أو تنقل لنا عاطفة صادقة اتّجاه موضوع أو فكرة معينة وهذا ما سعى إلى إبرازه " بوند" بقوله:<< الصورة هي ما ينقل عقدة فكرية أو عاطفية في لحظة زمنية>>[5].

---

[1]- مجموعة من الباحثين : قضايا النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق ندوة الصورة والخطاب، إشراف و تحرير محمد القاسمي والحسن السعيدي ،عالم الكتب الحديث ،2009، جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس، ص :271.

[2]- كامل حسن البصير :بناء الصورة الفنية في البيان العربي ، ص: 126 ،127.

[3]- عبد القادر الرباعي: الصورة الفنية في النقد الشعري، دراسة في النظرية والتطبيق، دار جرير للنشر والتوزيع ،ط 1 ، 2009، الأردن ، ص:118.

[4]- كامل حسن بصير : بناء الصورة الفنية في البيان العربي، ص:127.

[5]- إحسان عباس: فن الشعر، دار بيروت،(د ، ط) ،1955، ص:93.

ولكن لا يمكن للصورة أن تؤثر في النّفس وتهز شعور المتلقي إلا إذا قارب الشاعر بين شيئين مختلفينوهذا ما وضحه النّاقد "روفردي"بقوله:<< إن الصورة إبداع صاف يبدعه الفكر ولا يمكن أن تولد من التشبيه بل من التقريب بين حقيقتين متباعدتين قليلا أو كثيرا>>(1).

ورغم أهمية التّشبيه إلا أنّه لا يعتبر وحده كاف للإبداع في مجال التّصور بقدر ما يعتبر التّقريب بين حقيقتين متباعدتين داعيا للإبداع، فالشبه و التّشابه أو التقريب بين الأشياء كلّها معان تتطلب الدّقة والوضوح في تفسيرها وهذا ما لاحظه"سيفن أولمان"،حين قال:<< إنّ مصطلح صورة يحتوي في الاستعمال الشائع على معان ينبغي تمييز بعضها عن البعض الآخر بدقّة>>(2).

فمعانيها متقاربة وتحتاج من الباحث أو القارئ الدّقة في الفصل بينها لذا كثرت الدّراسات حول الصّورة لشرحها وتبيين حدودها والفصل بين معانيها،وهذا ما تبيّن في كتب عدّة أمثال كتاب "كارولاين سبيرجن" الذي أسسه في التكلم عن الصورة الفنية التطبيقية، إضافة إلى بعض الدراسات الأخرى التي قامت حول هذا الكتاب، كتاب " إدوارد آرمسترونج"، وكتاب "كلمن"، وغيرها من الدّراسات التي قامت بصدد الحديث عن الصّورة(3).

إذا مهما تعددت مفاهيم الصورة وتنّوعت الدراسات حولها سواء كانت العربية أو الغربية واليونانية إلاّ أنّه من السهل ملاحظة<<أنّهما يسيران في خطّين متعاكسين يبدأ الأوّل من المحسوسات وينتهي إلى الذهن ،ويبدأ الثاني من الذهن ويقف عند عالم المحسوسات>>(4).

وعليه برغم هذا التنوع والتعدد حول مفهوم الصورة،إلا أنه تمت محاولة ضبط مفهوم شامل وجامع للصورة؛حيث أنّها تعني:<<أيّ ـة هيئة تثيرها الكلمات بشرط أن تكون هذه الهيئة معبّرة،

(1)– محمد القاسمي: الصورة الشعرية دراسة في شعر أبي تمام، مطبعة آنفو ، ط1، أكتوبر2005، برانت، فاس، ص: 10 ،11.

(2)– فرانسوا مورو: البلاغة المدخل لدراسة الصور البيانية، ترجمة الولي محمد و جرير عائشة ، أفريقيا الشرق ،2003 ، ص:16.

(3)– ينظر عبد القادر الرّباعي:في تشكل الخطاب النّقدي، مقاربات منهجية معاصرة، منشورات الأهلية، ط1 ،1998، لبنان ،ص:147، 148.

(4)– كامل حسن البصير: بناء الصورة في البيان العربي ،ص:55.

وموحية في آن معا>>[1]، فمهما تعددت وتنّوعت مفاهيمها إلا أنها لاتحد من قيمة الصورة فتبقى ذات أهمية كبيرة.

ثانيـــا – أنـــواع الصورة الفنية :

تعدّ الصورة الفنية من القيم الأساسية في الأعمال الأدبية عامة،وفي الشعر خاصة ؛ لأنّها الوسيلة القادرة على إظهار التجارب الشعورية بكل ما تحويه من أفكار وخواطر ومشـــاعر وأحاسيس وبدونها لا يمكن أن نغوص في أعماق تجارب الأديب؛فهي إذن:<< بمثابة هيئة تثيرها الكلمات ، بشرط أن تكون هذه الهيئة معبّرة،وموحية في آن واحد >>[2].

لذلك أولاها النقاد – في هذا العصر– كل عناية،فاشتغلوا بتحديد مفهومها،وبيان أنماطها ودراسة مصادرها،وأثرها الفني ووظيفتها في الكلام ،كثيرا من دراساتهم ما زالت محل اجتهاد،ولاسيما دراساتهم لأنماطها ؛أي أنواعهابيد أنّه ومن خلال المطالعة لعدد من تلك الدراسات والبحوث،فقد تبين أنّ النقاد تحدثوا عن أنواع كثيرة منها، وهي ما سوف يتم حصرها في قسمين.

القسم الأوّل: تم التحدث فيه – حسب ما هو موضوع في الخطة – عن أنماط الصورة الفنية حسب قالبها الفني،وفيه ثلاثة أنواع من الصور؛فالنّوع الأوّل هو الصورة البيانيةوالنّوع الثاني هو الذي يحمل عنوان الصورة البديعية،وهناك نوع آخر من القسم الأول وهو الصورة الحقيقية .

أما القسم الثاني: فسوف تظهر فيه أنماط الصورة بحسب ارتباطها بالحواس التي تتمثل في الصور البصرية،والشمية، واللمسية، والذّوقية وغيرها، والبداية سوف تكون مع :

أ/أنواع الصورة الفنية بحسب قالبها الفني:

يتصدر هذا النمط ما عرف بالصورة البيانية، فهذا الصنف تحدث عنه النقاد كثيرا وتندرج تحته الصور التشبيهية، والصور الاستعارية ،و الصور الكنائية،و الصور المجازية.

---

[1]– عماد علي الخطيب: الصورة الفنية أسطوريا، دراسة في نقد وتحليل الشعر الجاهلي، تقديم عبد القادر الّرباعي، دار جهينة للنشر و التوزيع ،2006 ، ص:34.

[2]– عماد علي الخطيب: الصورة الفنية أسطوريا، دراسة في نقد وتحليل الشعر الجاهلي، ص:34.

1- الصورة البيانية:

إنّ دراسة الصورة في مجال علم البيان،يستدعي <<الوقوف على أسرار كلام العرب منثوره ومنظومه،ومعرفة ما فيه من تفاوت في فنون الفصاحة وتباين في درجات البلاغة التي وصلت إلى مرتبة الإعجاز في القرآن الكريم ،وقد حار الجن والإنس في محاكاته وعجزوا عن الإتيان بمثله >>[1].

ومن مسائله التشبيه،والاستعارة، والكناية ،والمجاز، وهي مسائل سوف أوجز مفاهيمها عند النقاد والبلاغيين.

1-1-التشبيه :

يعد التشبيه عنصرا من العناصر التصويرية في الشعر، <<والشاعر الحاذق هو الذي يستمد من التشبيهات طاقة فنية جديدة ، تمكنه من ارتياد عالم السحر والخيال وفتح آفاق واسعة أمام رؤياه >>[2]، وقد نال التشبيه اهتماما كبيرا من قبل المفكرين القدماء،فبحثوا في ضروبه وأدواته ؛ إدراكا لصلته الوثيقة بالتصوير في مجال الشعر، فهاهو " قدامه بن جعفر"على -سبيل المثال- يرى في كتابه "نقد الشعر": << أنّ أحسن التشبيه هو ما أوقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها ، حتى يدني بهما إلى حال الاتحاد >>[3].

كما نال التشبيه حظا وافرا عند أحد أعلام الأدب والنقد ألا وهو "المبرد" الذي قال إنّ :<< العرب تشبّه على أربعة أضرب ، فتشبيه مفرط وتشبيه مصيب، وتشبيه مقارب، وتشبيه بعيد يحتاج

---

[1]- عبد القادر محمد مايو : معالم اللغة العربية ، دار القلم العربي ،(د،ط) ، 2000، ص :25.

[2]- الطاهر حمروني: منهج أبي علي المرزوقي في نقد الشعر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، (د،ط) ،1985، وحدة رغاية ، الجزائر ، ص :182.

[3]- قدامة بن جعفر : نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، دار الكتب العلمية ،(د، ط) ،1948 ، القاهرة ، ص :124. وقد ذكر لنا مثالا عن التشبيه فقال ومما جاء من التشبيهات الحسان قول وسبن حجر يشبه ارتفاع أصواتهم في الحرب تارة وهمودها وانقطاعها تارة أخرى بصوت التي تجاهد أمر الولادة فقال: لها صرخة ثمّ إستكاتة كما طّرقت بنفاس بكر.

فإذا نظر إلى ذلك وجد الذي وقف بين الصوتين واحداً وهو مجاهدة المشقة والاستعانة على الألم بالتبديد في الصرخة وكثير من الأمثلة من أراد الاطلاع أكثر ينظر إلى المرجع نفسه، ص:125 وما بعدها.

إلى تفسير ولا يقوم بنفسه.... فمن التشبيه المفرط المتجاوز قولهم للسخّي هو كالبحر وللشجاع هو كالأسد وللشريف سما حتى بلغ النّجم >>[1].

وقد عرفه " المرزوقي" : << بأنّ أصدقه ما لا ينتقص عند العكس وأحسنه ما أوقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما ليبين وجه الشبه بلا كلفة >>[2].

ما يتضح من خلال كلامه هو أنّ أصدق التشبيه هو من لم يفقد قيمته عند العكس، وأحسنه ما اشترك فيه أمران في صفات مشتركة ، ووجه الشبه يدرك بالفطنة وحسن التبصر والتقدير فإيحاءات الصورة إذا وتأثيراتها الفنية على القارئ جعلاها من أهم وأرقى وسائل التعبير في الشعر العربي القديم والحديث، فهي طرف من أطراف التشبيه القصد منها توضيح المعنى وتأكيده في الذهن ، ولعل أبلغ وأبسط تعريف لها ما وجد في كتب البلاغة مثل قول البلاغي "عبد المتعالي الصعيدي" :<< أنّ التشبيه هو إلحاق أمر بآخر في معنى مشترك بينهما بأداة ، كالكاف ونحوها >>[3].

فإضافة إلى أنه فن من الفنون الأدبية <<يعد أسلوبه من أساليب التفهيم؛ لأنّه وسيلة لنقل الحقائق العلمية والمحسوسة الخاضعة للبرهان >>[4] .

و للتشبيه أربعة أركان هي: << المشبه و المشبه به وهما طرفا التشبيه ووجهه وأداته >>[5].

---

[1]– أبو العباس محمد بن يزيد المبرد :الكامل في اللغة والأدب ، مؤسسة المعارف ،(د، ط،د، ت)،ج2 ،بيروت ،ص :101.

[2]– عبد الله عبد الرحمن المرزوقي: شرح ديوان الحماسة ، نشره عبد السلام هارون ، أحمد أمين ، ط2 ،1967 ،ج1 ، القاهرة ، ص :9. للاطلاع أكثر عن التشبيه عند بعض النقاد القدامى أنظر: منير سلطان، الصورة الفنية في شعر المتنبي، منشأة المعارف ،(د،ت)،2007 ،ص:101 وما بعدها.

[3]– عبد المتعالي الصعيدي : البلاغة العالية ، علم البيان ، مكتبة الآداب ، ط1، 2000 ، ص:19.

[4]– صالح بلعيد : نظرية النظم ، دار هومة ،(د،ط) ، 2004 ، ص :47. فقد ذكر صالح بلعيد في كتابه أنّ التشبيه يستعمل كدليل إثبات الحقائق كقولك :(هو أبيض كالثلج) كما يمكن أن يستعمل لغرض التفهيم والتقرير من حال إلى حال كقولك (محمد كالحافر على الماء)، فقد أخرج المشبه من صورته المعقولة إلى صور مشابهة أو محسوسة .

[5]–سعد الدين التّفتازاني : مختصر المعاني ، مؤسسة التاريخ العربي ،(د، ط) ،2004 ، بيروت ، لبنان ، ص :188.

كما أنّ له أنواع كثيرة ظهرت بالصدفة أثناء الدراسة لهذه الأنواع ،وهذا ما سيتوضح في هذا الجزء من خلال إعطاء بعض الأمثلة التي تساعد في تبيينها و إزالة الغموض عنها،منها التشبيه المقلوب[1] و التشبيه الضمني[2] ،والعرب قديما كانوا يلجئون في دراساتهم لأصناف العلوم و المسائل البلاغية إلى كلام العربي سواء كان نثرا أم شعرا إضافة إلى الأمثال والحكم وكذا الحديث النبوي الشريف والقرآن الكريم،هذا الأخير الذي عدّ آية في احتوائه لأنواع من التشابيه البليغة ، وما كان على النقاد من حل إلا تناولها بالدراسة والتحليل[3].

---

[1]- ويسمى التشبيهتشبيها مقلوبا لأنّ فيه يجعل المشبه مشبها به ، فتعود فائدته إلى المشبه أتمّ وأكمل وأظهر وأشهر من المشبه به .انظر محمد أمين الضناوي ، معين الطالب في علوم البلاغة ، دار الكتاب العلمية ط1، 2000 ، ص: 113. ومن الأمثلة على ذلك قول "محمد بن وهيب الحميري مشبها تلألأ تباشير الصباح بوجه الخليفة حين يمتدح:

وبدا الصباح كأنّ غرّتـــه وجـــه الخليفة حين يـــمتدح

فأنت ترى هنا أنّ هذا التشبيه خرجعما كان مستقرا في نفسك من أنّ الشيء دائما يشبّه بما هو أقوى منه في وجه الشبه ،إذ المألوف أن يقال إنّ وجه الشبه أقوى من المشبه. وعلي الجارم ومصطفى أمين ، في البلاغة الواضحة ، ص:56.

[2]- والتشبيه الضمني هو الذي لا تذكر فيه أركان التشبيه صراحة، بل تلّمح من سياق الكلام.انظر عبد القادر حسين،القرآن والصورة البيانية ،عالم الكتب ، ط2 ،1985، بيروت،ص:105. ومن الأمثلة على ذلك قول أبو تمام :

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

أنظر إلى هذا البيت لأبي تمام فإنه يقول لمن يخاطبها : لا تستنكري خلّو الرجل الكريم من الغنى ،فإنّ ذلك ليس عجيبا لأنّ قمم الجبال وهي اشرف الأماكن وأعلاها لا يستقر فيها ماء السيل ، فقد شبه الرجل الكريم الفقير بقمة الجبل وقد خلت من ماء السيل ولكنه لم يضع ذلك صريحا بل أتى بجملة مستقلة وضّمنها هذا المعنى في صورة برهان،علي الجارم ومصطفى أمين ،البلاغة الواضحة ،ص :41، 44 .

[3]- فمن بين الأقوال التي اعتمدت على التشبيه في القرآن نذكر قوله تعالى :{ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد} سورة إبراهيم/الآية18 وقوله تعالى أيضا في سورة النور :{ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب} سورة النور/الآية 39، فقد شبه الله سبحانه وتعالى عباده الكافرين في السورة الأولى كالرماد الذي تذروه الرياح العاصفة فلا يبقى منه شيء ، كما شبه هؤلاء الكفار الذين يتخيلون نفع العمل وبأنهم في الطريق الخطأ بالسراب الذي يظنه العطشان ماءا ، فيذهب مسرعا ليروي عطشه وإذا به يجده سرابا ، فكذلك الكفار طريقهم غير صحيح.

وغاية القرآن الكريم من هذه التشابيه التي هي جزء بسيط من مجموع ما ذكر في آيات الذكر الحكيم هي تجسيد الصور المعنوية بالصور المرئية والمحسوسة حتى تبلغ العقول؛فتفهم وبالتالي ترسيخ العقيدة الصحيحة لدى الناس، وتثبيتها في نفوسهم.

1-2-الاستعارة:

إذا تم التنقل من التشبيه إلى الاستعارة فإنه حتما يلاحظ تعريفات متعددة ومختلفة عند المفكرين منهم البلاغيين والنقاد لها وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على سعة هذا المفهوم،منها من قال بأنها << هي ذلك اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي >>(1).

وقد حددها "عبد القاهر الجرجاني" بقوله :<<اعلم أنّ الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفا تدل الشواهد على أنّه اختص به حين وضع ،ثمّ يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلا غير لازم >>(2).

ومن خلال هذا الكلام للجرجاني يستطاع القول بأنّ الاستعارة هي أن تستعير للمعنى المراد التبليغ عنه لفظا غير لفظه وذلك بغرض المبالغة في التشبيه حتى يحدث امتزاجا بين اللفظ المستعمل والمعنى المراد تبليغه ، فهي إذن تعتمد اعتمادا كليا على التشبيه وهذا ما أكده لنا "عبد القاهر الجرجاني " في موضع آخر،حيث قال :<< اعلم أنّ الاستعارة تعتمد التشبيه أبدا >>(3).

ولكنها تمتاز عن التشبيه كضرب بلاغي في أنّ:<< وجه الشبه بين المشبه والمشبه به أكثر وضوحا،فقولك:(إنّ الإرهاب أعمى) وأنت تريد بالإرهاب الصورة المتوحشة،ما يخص المشبه به،وهو العمى >>(4) .

---

(1)- بسيوني عبد الفتاح : علم البيان دراسة تحليلية لمسائل البيان ، مؤسسة المختار، دار المعالم الثقافية، ط2، 2004، القاهرة ، ص :139.

(2)- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تحقيق خفاجي ، (د،ط ،د، ت)،ج2 ، ص :22.

(3)- المصدر نفسه:ص :28.

(4)- صالح بلعيد: نظرية النظم ،ص :49.

وهناك من يرى أنّ الاستعارة هي مبالغة في التشبيه،وهذا ما يظهر لنا من خلال كلام "الفخر الرازي" الذي قال:<< أن الاستعارة ذكر الشيء باسم غيره وإثبات ما لغيره له لأجل المبالغة في التشبيه >>[1].

إذن بالرغم من وجود تداخل بين التشبيه والاستعارة إلا أنّ هذه الأخيرة تختلف عنه اختلافا عميقا، لأنّها- الاستعارة- صورة مستقلة صادرة عن حركة فكرية مخالفة لحركة التشبيه.

وهذا ما وضحه"ر.والتز" حين قال :<< إنّ الاستعارة تبدو قاب قوسين من التشبيه ولكن الفرق بينهما في الحقيقة عميق، وليست الاستعارة تشبيها ملخصا موجزا، ولكنها صادرة عن حركة فكرية مخالفة له كل الخلاف، فعملية الفكر التي تتطلبها الاستعارة بل تفرضها فرضا، تتّسم بمزيد من الشدة والسّرعة >>[2].

وقد صنف أهل البلاغة صنفين من الاستعارة،استعارة مكنية وهي:<< التي لا يصرح فيها بلفظ المشبه به بل يطوى ويرمز له بلازم من لوازمه ويسند هذا اللازم إلى المشبه >>[3].

والأمثلة الدالة على هذا النوع كثيرة[4]ونوع ثاني يتمثل في الاستعارة التّصريحية :<< وهي التي يصرح فيها بلفظ المشبه به المستعار كقولنا:رأيت أسدا يخطب الناس،فالمعنى المراد وهو الرجل الشجاع>>[5].

---

[1]- رجاء عيد : فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور ، ص:111.

[2]- حمدان حجاجي:حياة وآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط2 ، 1982، الجزائر ص:317.

[3]- بسيوني عبد الفتاح : علم البيان دراسة تحليلية لمسائل البيان ،ص:153.

[4]- و الأمثلة كثيرة على الاستعارة المكنية منها ما قاله الحجاج في إحدى خطبه : إنّي لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها وإنّي لصاحبها. فإنّ الذي يفهم منه أن يشبه الرؤوس بالثمرات فاصل الكلام إني لأرى رؤوسا كالثمرات قد أينعت ،ثم حذف المشبه به فصار أني لأرى رؤوسا قد أينعت ،ورمز للمشبه به المحذوف بشيء من لوازمه وهو أينعت، علي الجارم ومصطفى أمين البلاغة الواضحة ، ص :69،70.

[5]- بسيوني عبد الفتاح : علم البيان دراسة تحليلية لمسائل البيان ، ص:151.

فقد استعير اسم الأسد للرجل الشجاع الذي لا يخاف من الأهوال ويركب الصعب ومن ثم حصلت الاستفادة منه وهي: << المبالغة في وصف المقصود بالشجاعة وإيقاعك منه في نفس السامع صورة الأسد في بطشه وإقدامه وبأسه >>[1].

والاستعارة كغيرها من الصور البلاغية اعتمد أهل البلاغة في تحليلها، وشرحها، وتحديد مفاهيمها على الصور الاستعارية الموجودة في القرآن،لأنه بمثابة مصدر يستندون عليه[2]؛حيث ارتقت إلى أعلى مستوياتها من البيان، فعبرت عن المعاني بقليل من اللفظ ، وبذلك أضفت على الأسلوب جمالا أخاذا وعلى المعنى قوة.

ولنا في القرآن صور استعارية كثيرة وملتمّ اختياره وتوضيحه في الهامش لا يقارن بما هو موجود فيه فبه تظهر معجزات القرآن لغويا وبلاغيا .

1-3- الكنـــاية:

تعتبر الكناية من العناصر البلاغية التي يستعملها الشعراء للتعبير عن المشاعر والأفكار وتقديمها في شكل فني لائق يعجب السامعين،فهي في اللغة أن نتكلم بالشيء وتريد غيره، يقال: << كنيت بكذا عن كذا إذا تركت التصريح به، فبابه: كنى يكنى كرمى يرمى >>[3].

---

[1]- عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة في علم البيان ،ص :24.

[2]- للاستعارة مزايا كثيرة ، ومن بينها أنها تؤدي بألفاظ قليلة ما تؤديه عبارات طويلة ، وهذا ما لاحظناه في تلك السور ما نجده ماثلا في القرآن الكريم ، حيث قال الله تعالى :{قال ربّ إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك ربّ شقيا } سورة مريم/ الآية4 .

فكلمة اشتعل الرأس هنا هي استعارة ؛ لأنّ الاشتعال خاص بالنّار، ولما كان الشيب يغزو الرأس فيظهر بصورة قليلة إلى أن يمتلأ الرأس شيبا هو في ذلك كالنار التي تتصاعد وتيرتها حتى تعلوا ، فتتطاير في السماء ، فالعلاقة واضحة بين ضوء النار في الليل وبياض الشعر الأسود الذي يلمع من شدة بياضه.

وكذا نجد قولا آخر في سورة التكوير:{ والصبح إذا تنفس } سورة التكوير/18، فالتنفس هنا مستعار؛لأنه خاص بالكائن الحي سواء كان إنسانا أو حيوانا أو نباتا، فكأن الصبح يتنفس كل يوم بطلوع الشمس بعد سبات عميق في الليل.

[3]- بسيوني عبد الفتاح فيوم : علم البيان، ص :199.

وهي: << نتاج مشاعر خاصة اتجاه الأشياء ، والشاعر قد يضع كناياته أو رموزه اللغوية حتى توسع الدائرة الوجدانية لدى المتلقي الذي يستطيع استشفافها من خلال السياق الفني،وقد تتداخل الصور الكنائية في بناء تجسيدي لتفجر دلالات رامزة يكون في دلالاتها المتآزرة مكونة وشائج متداخلة معبرة عن موقف متكامل للمشاعر>>[1].

فهذه الصور الكنائية التي يصنعها الشاعر ويلقي بها لدى المتلقي هي مجموعة صور متداخلة فيما بينها لها دلالات تفهم من سياق الكلام وهي في مجموعها تعبر عن موقف متكامل للمشاعر.

وبالرغم من أنّ المفكرين حددوامفهومها ، حيث بات يعني مصطلح الكناية بأنّه :<<كل لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع قرينة تجاوز إرادة المعنى الأصلي >>[2].

إلا أن من العرب قديما من أخلط بين الكناية والاستعارة،فاعتبر الكناية جزء من الاستعارة للتشابه الحاصل بينهما،إلا أنّ الاستعارة أعم والكناية أخص فكل كناية استعارة ،وليس كل استعارة كناية [3].

لذلك سارع "عبد القاهر الجرجاني" إلى توضيحها وتبيينها، فوضع حدا لها بقوله:<< الكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود ، فيومئ به إليه ويجعله دليلا عليه>>[4].

---

[1]- رجاء عيد : فلسفة البلاغة بين التقنية والتطّور ،ص:158.

[2]- عيسى علي العاكوب و علي سعد الشتيوي : الكافي في علوم البلاغة العربية ، دار الهناء، ط1 ،1993، ص :83.

[3]- صالح بلعيد : نظرية النظم ، ص:51.

[4]- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص:52.

وللكناية أقسام منها ما يكون فيها المكنى عنه عبارة عن صفة ومنها ما يكون فيها المكنى عنه موصوفا ، كما يكون المكنى عنه فيها نسبة[1].

وتتضح معالم الكناية أكثر إذا أخذت من كلام العرب،الذي يعد مصدرا أساسيا، ومادة أولية يستقي منها الأدباء والنقاد ما يحتاجوه من شعر ونثر، حتى يتسنى لهم فهمه.

والأمثلة كثيرة [2]، على ذلك وهذا ما أشرع في تبيينه في الهامش استنادا على أقوال العرب، وللكناية أيضا –إضافة إلى كلام العرب– حظا في القرآن الكريم.

1-4- المجـــــــــاز :

يعد المجاز من المقتضيات الضرورية في البلاغة،<< فهو في الأصل مفعل من جاز المكان يجوزه إذا تعداه نقل إلى الكلمة الجائزة ؛أي المتعدية مكانها الأصلي أو الكلمة المجوز بها على معنى أنهم جازوا بها وعدوها مكانها الأصلي >>[3].

---

[1]- بسيوني عبد الفتاح: علم البيان ،ص:202 ،203. فالكناية عن الموصوف لا تكون إلا إذا ذكر في الكلام صفة أو عدة صفات لها اختصاص ظاهر بموصوف معين ومن الأمثلة الدالة عليه نجد قوله وتعالى :"أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين "سورة الزخرف /الآية 18، حيث كنى عن المرأة بصفتين تختصان بها اختصاصا بينا وهما التنشئة في الحلية وعدم الإبانة في الخصام .أما بخصوص الكناية عن صفة فيكون بذكر صفة أو عدة صفات بينها وبين صفة أخرى تلازم وارتباط، بحيث ينتقل الذهن بإدراك الصفة أو الصفات المذكورة إلى الصفة المكنى عنها ومثال ذلك قولك:فلان طاهر الثوب ، ونقي الذيل ، فهي كناية عن العفاف والطهر ، بينما الكناية عن النسبة وذلك بأن يريد المتكلم إثبات صفة لموصوف معين أو نفيها عنه، فيترك إثبات هذه الصفة لموصوفها ويثبتها لشيء آخر شديد الصلة به كقولهم: مثلك لا يبخل، فهي كناية عن نفي البخل عنه وتأكيد هذا النفي بنفيه عن نظيره المشارك له في أخص صفاته .

[2]- ومن الأمثلة على الكناية ، قول العرب : "فلانة بعيدة مهوى القرط "، ومهوى القرط هي تلك المسافة من شحمة الأذن إلى الكتف، وإذا كانت هذه المسافة بعيدة لزم أن يكون العنق طويلا ، فكأنّ العربي بدل أن يقول :إنّ هذه المرأة طويلة الجيد ، فجاء بتعبير جديد يفيد اتصافها بهذه الصفة.والأمثلة كثيرة في كتاب لعي الجارم ومصطفى أمين ،البلاغة الواضحة ،ص:115 وما بعدها. أما بالنسبة لأقوال الشعراء التي نلتمس منها الكناية نجد قول الشاعر يكني عن الكرم بإذكاء النار :

يذكون نار القرى في كل شاهقة يلقى بها المندل الهندي محطوما

للمزيد أكثر انظر،علم البيان، بسيوني عبد الفتاح ، ص:199 ، 200.

[3]- سعد التفتازي:مختصر المعاني ، ص :218.

ويرتبط المجاز ببلاغة الشعر،وفصاحته،وبيانه،واستعمالاته،وضروبه،بما في ذلك التصوير في مجال الشعر الذي ينهل من جمالية المجاز وطرق القول لتعطي للمتكلم طواعية في التعبير وتوصل إلى المخاطب المعنى المراد، فللعرب مجازات في الكلام،كالاستعارة.

وقد عرف مصطلح المجاز تعريفات كثيرة،فمثلا عند "الجرجاني" يعني هو كل<< كلمة أريد بها غير ما وقعت له من وضع واضع لملاحظة بين الثاني والأول>>[1].

فالجرجاني هو الذي وضع المجاز في شكله المنضب، وقد عدّه << كنزا من كنوز البلاغة ومادة الشاعر الملفق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان والاتساع في طريق البيان>>[2].

فالجرجاني – إذن– هو من النقاد الأوائل الذين عرفوا قيمة المجاز، ودوره في الإبداع والاتساع.

كما فرق العلامة "ابن جني" بينه ؛أي– المجاز– وبين الحقيقة؛حيث قال:<< الحقيقة ما أقّر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة،والمجاز ما كان بضد ذلك >>[3]،انطلاقا من قول "ابن الجني" نرى أنّ المجاز هو تلك الألفاظ الموضوعة في غير معناها وقد عده " الجاحظ " مفخر العرب في لغتهم وبه وبأشباهه اتسعت [4]،فانطلاقا من أقوال هؤلاء اللغويون القدماء يتضح من أنهم أشاروا إلى أنّ المجاز هو ضرب من التوسع في الكلام.

أما عن المجاز في القرآن الكريم، فقد وجد في كثير من الآيات القرآنية[5]،وقد أخذ نصيبه كغيره من الصور بالشرح والتفسير والتحليل لبعض من الصور القرآنية التي تحمل مثل هذا النوع من الصور البلاغية.

---

[1]– منير سلطان: الصورة الفنية في شعر المتنبي، المجاز، منشأة المعارف ،(د، ط) ،2007 ، الإسكندرية، ص:110.

[2]– عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ،ص:287.

[3]– محمد مذبوحي: الأبعاد الكلامية في الدرس المجازي عند ابن جني، مجلة كلية الآداب، ع5، 2004، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، ص:108.

[4]– ينظر سعد سليمان حمودة: البلاغة العربية ،دار المعرفة الجامعية،(د،ط)،1969،مصر،ص:17.

[5]– ومن الأمثلة الدالة على المجاز في القرآن ، قوله تعالى: { يوم تشهد ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون } سورة النور/ 24. نجد المجاز في نفس السورة في قوله تعالى :{ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين} سورة النور/2. ففي الآيتين مجاز.

2- الصـــورة البـــديعيـــة:

تعد الصورة في مجال البديع الموضوع الثاني الذي سوف تتم دراسته ضمن عنصر أنماط الصورة الفنية بحسب قالبها الفني، حيث تم في هذا الجزء تناول كل ما يخص البديع،الذي هو علما من العلوم به << تعرف الوجوه والمزايا التي تكسب الكلام حسنا وقبولا بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال التي يورد فيها ووضوح الدلالة>>[1]،وهذه الوجوه التي تحسن من الكلام،وتوضحه،هي ضربان على حد قول " القزويني"<< ضرب يرجع إلى المعنى وضرب يرجع إلى اللفظ >>[2].

وقد استمر رجال البلاغة والأدب في البحث عن فنونه وضروبه ، فنظم بعض الشعراء قصائد عرفت بالبديعيات التي جاءت حافلة بأفانينه ، إضافة إلى<< ظهور بعض الدراسات التي ادعت التأصيل تارة والتجديد والتأصيل تارة أخرى>>[3].

ورحلة البحث والتنقيب عنه جعلت من أهل البلاغة يضيفون ما ليس موجودا حتى تضخّم بتفريعاته وأصنافه،فصعَّب إحصاؤه والإلمام به،ولكن مع كل هذه الصعوبة،إلا أنهتم التوصل – قدر المستطاع –إلى إحصاء بعض الأنواع المهمة والمعروفة في علم البديـــع كالطباق،والجناس،والسجع ، والمقابلة..... وغيرها من المحسنات البديعيـــة اللفظية و المعنوية.

2-1- الـطبـــــاق:

يعد الطباق من الصور البديعية ، فهو يعني :<< الجمع بين الضدين أو بين الشيء وضدّه في كلام أو بيت شعر>>[4].

و" عبد القاهر الجرجاني " اصطلح في تعريفه الكثير من النقاد منهم "أبو هلال العسكري" واللذان التقيا في تعريف واحد للطباق، وهي في مجملها لا تخرج عن التعريف البلاغي الأّول فعرفه "

---

[1]- الزبير دراقي وعبد اللطيف شريفي:الإحاطة في علوم البلاغة، ديوان المطبوعات الجامعية،(د، ط، د، ت)، الجزائر، ص:169.

[2]- أبو عبدالله بن زكريا القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة ، دار إحياء العلوم ، ط4 ،1998 ،ج1 ، بيروت، ص:317، وأيضا نفس التعريف عند عبد القادر محمد مايو ، معالم اللغة العربية ،ص:52.

[3]- جميل عبد المجيد : البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب،(د،ط،د،ت)،ص:203

[4]- عبد اللطيف شريفي و الزبير دراقي : الإحاطة في علوم البلاغة ، ص:172.

أبو هلال العسكري " بقوله :<< الطباق في الكلام هو الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة ،أو البيت من أبيات القصيدة،مثل الجمع بين البياض والسواد،والليل والنهار، والحر والبرد >>[1].

فالجمع بين الضدين يكون إما بين اسمين متضادين وهذا ما بينه "العسكري" في قوله،فكان بين البياض والسواد،والليل والنهار،والحر والبرد .

وتعريف "عبد القاهر الجرجاني" ليس بعيدا عن تعريف " أبو هلال العسكري "؛حين قال بأنّ: << التطبيق أمره بيّن،وكونه معنويا أحلى وأظهر؛فهو مقابلة الشيء بضده >>[2].

"فعبد القاهر الجرجاني" لم يخرج عن تعاريف من سبقه من النقاد والبلاغيين،فكان الطباق عنده هو مقابلة الشيء بضده وكونه من المحسنات البديعية المعنوية جعلته يبدوا أحلى وأوضح، هذا عن الطباق، أما إذا عّرجنا إلى نوع بديعي آخر كالجناس فإنه يكون ماثلا في كتب البلاغة جنبا إلى جنب مع المحسنات البديعية الأخرى وهذا ما سوف يتم تبيينه في هذا الجزء الخاص به.

2-2- الجنـــــاس:

إن مفهوم الجناس يعني عند البلاغيين ذلك التشابه الحاصل للألفاظ في النطق ولكنهما مختلفان في المعنى[3]؛فهو لفظة اشتقت منها العديد من الألفاظ كالتجنيس والمجانسة ،والتجانس، يقال: << تجانس الشيئان إذا دخلا تحت جنس واحد، ويقال: كلمتان متجانستان ؛أي شابهت إحداهما الأخرى ، فكأنه قد وقع بينهما مجانسة >>[4].

وللتجنيس دور بالغ الأهمية؛حيث يكسب الكلام رونقا وحسنا وجمالا خاصة إذا كان معنى اللفظتين المتجانستين قريب من العقل وموقعه منه موقعا حميدا،وهذا ما أكده "عبد القاهر الجرجاني"

---

[1]- أبو هلال العسكري :الصناعتين ، الكتابة والشعر ،تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العلمية ،ط1 ،1952 ، ص :339.

[2]- عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة ، ص:15.

[3]- ينظر أبو عبدالله فيصل بن عبدة قائد الحاشدي : تسهيل البلاغة ، دار القمة ودار الإيمان ،(د،ط،د،ت)، ص:99. وهذا ما يظهر في قوله تعالى :{ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون} سورة الروم/55.

[4]- بسيوني عبد الفتاح : علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع ،ص:235.

بقوله : <<أما التجنيس فإنّك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا >>[1].

والجناس نوعان: جناس تام:<<وهو ما اتفق فيه اللفظان المتجانسان في أربعة أمور: نوع الحروف،وعددها، وهيأتها، وترتيبها..>>[2].

وينقسم هذا الأخير بدوره إلى ثلاثة أقسام منها: المماثل والمستوفى وجناس التركيب، وكل نوع من هذه الأنواع يعرّف بشكل مختلف عن الآخر،- فمثلا- الجناس المماثل هو:<< ما اتفق ركناه وتماثلا لفظاً واختلفا معنى من غير تفاوت في تركيبهما واختلاف في حركاتهما سواء كان من اسمين أو فعلين أو من اسم وفعل أو من اسم وحرف وكانا من نوع واحد، وهو أكمل صورة للتجنيس >>[3].

أما الجناس المستوفى:<<فهو ما اتفقت فيه الكلمتان في نوع الأحرف وعددها وهيأتها،وترتيبها، واختلفتا في نوع الكلمة،بأن تكون إحداهما فعلا والأخرى حرفا، أو إحداهما اسما والأخرى حرفا>> [4]،ففي هذا النوع من الجناس يكون الاتفاق في الكلمتان في الأحرف، والعدد، والترتيب، ولكن الاختلاف حاصل في المعنى، بشرط أن تكون الكلمتان إحداهما إما اسما والأخرى حرفا،أو العكس، أو تكون واحدة فعلا والأخرى اسما .

---

[1]- عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة ،ص:4.

[2]- بسيوني عبد الفتاح : علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع ، ص:235.

[3]- ينظر حمدان حجاجي : حياة وأثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة ، ص:323.ومن ذلك مثلا قول البحتري:

إذا الخيل جابت قسطل الحرب صدور العوالي في صدور

فالمراد بصدور العوالي هو أعالي الرماح ، بينما صدور الثانية هي صدور الكتائب أي نحورها ، ونجده أيضا واقع بين فعلين كقوله :(فلان يضرب بالبيداء فلا يضل ، ويضرب بالهيجاء فلا يكل)، فالضرب الأولى بمعنى قطع المسافة والثانية بمعنى الحمل على الأعداء ، أما الجناس الحاصل بين حرفين كقولهم :(قد ينزل المطر شتاءا وقد ينزل صيفا)،فقد الأولى للتكثير والثانية للتقليل ، انظر بسيوني عبد الفتاح ، علم البديع، ص:336 ،237.

[4]- بسيوني عبد الفتاح : علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع ،ص:237.ومن الأمثلة على الجناس بين الاسم والفعل قول الشاعر:

وسمّيته يحيى ليحيا فلم يكن إلى ردّ أمر الله فيه سبيل

وآخر نوع من الجناس التام وهو الجناس المركب وهو: << ما كان كل لفظ من لفظيه مركبا أو أحدهما مركبا والآخر مفردا >>[1]،فسواء كان الجناس مماثلا أو مستوفى أو مركبا فكلاهم يدخلون ضمن دائرة الجناس التـام وهم مما لاشك فيه يضفون- إذا أحسن استعمالهم- تجاوبا موسيقيا أخاذا، يفتتن به السامع.

هذا عن الجناس التام أما عن الجناس غير التام- كما يسمى في بعض الكتب البلاغية ، وجدناه يعني: << هو كل ما اختلف فيه اللفظان في واحد من أربعة أمور: وهي عدد الحروف، أو نوعها،أو شكلها،أو ترتيبـها >>[2]، فالاختلاف في أحد الأمور الأربعة يورد أصنافا مختلفة للجناس غير التام ، كالجناس الناقص التي تختلف فيه اللفظتان من ناحية العدد ،<< فينقص بذلك أحد اللفظين عن الآخر بحرف أو حرفين ولا يكون النقصان بأكثر من ذلك >>[3].

---

[1]- المرجع نفسه:ص:237، 238. ومن الأمثلة على الجناس المركب قول أحد الشعراء:

طرقتُ الباب حتّى كل متنـــي فلماّ كّل متني كلمتني

فالجناس بين (كلمتني وكل متني)، أحدهما مفرد والآخر مركب، وقول آخر لأحد الشعراء يظهر فيه هذا النوع من الجناس:

سْل سبيـــلا إلى النجاة ودع دمـ ع عيني يجري سلسبيـــــلا

فالجناس في هذا البيت بين (سل سبيلا وسلسبيلا) الأولى مركبة ، والثانية مفردة.

[2]- أبو عبدالله فيصل بن الحاشدي : تسهيل البلاغة ، ص:99.

[3]- بسيوني عبد الفتاح: علم البديع ، ص:240 ،241 . ومثال ذلك من القرآن الكريم قوله وتعالى :{ والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق} سورة القيامة /ا لآية29، 30.فالجناس هنا بين (الساق والمساق)، فقد نقصت الأولى عن الثانية بحرف.

وهناك الجناس المصحف الذي يعني:<< أن يتحدد اللفظان في الرسم والشكل والعدد والترتيب واختلفا في النقط فقط >>[1].

فالتماثل في هذا النوع يكون في الرسم والشكل وعدد الحروف وكذا في ترتيبها ولكن يكون الاختلاف في اللفظ نتيجة الاختلاف في التنقيط .

والجناس المحّرف هو نوع آخر من أنواع الجناس غير التام وهو:<< الذي يختلف فيه اللفظان في هيآت الأحرف ؛ أي في الحركات والسكنات ، واتفقا فيما عدا ذلك من نـــوع الأحرف وعددها وترتيبها >>[2].

فما يلاحظ من خلال هذا التعريف الموجز للجناس المحرف الذي يعني كل تماثل للفظين في الحروف متغايرين في الحركات ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها ما ذكر في القـــــرآن الكريم[3].

ومنها ما ذكر في أقوال العرب منثوره ومنظومه ، كما وجد جناس القلب والذي يسميه بعضهم جناس العكس .

وهو:<< ما اختلفت فيه الكلمتان في ترتيب الحروف ، وهو إما قلب الكل ، وذلك إذا جاء أحد اللفظين عكس الآخر في ترتيب حروفه كلها،وإما قلب البعض وهو ما اختلفت فيه الكلمتان في

---

[1]- أبو عبدالله فيصل بن الحاشدي : تسهيل البلاغة ، ص:100. ومثال ذلك قوله تعالى :{ والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين} سورة الشعراء/79، 82، فالجناس بين (يسقين ويشفين ويحيين) فالاتفاق في الشكل والعدد والترتيب ولكن هناك اختلاف في التنقيط وهذا ما أدى إلى اختلاف في المعنى.وقوله تعالى:{قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا } سورة الكهف/103،104. فانطلاقا من هذه السورة يتضح أن الجناس المصحف متواجد في قوله (فيحسبون ويحسنون) فهما كلمتان متماثلتان رسما وخطا ومختلفتان نقطا.وقد قال أبو تمام بيتا من الشعر يمكننا من توضيح هذا النوع أكثر ، حيث قال :

رُبَّ خفض تحت الثرى وغناء من عناء ونضرة من شحوب

فالجناس في (غناء وعناء) وهو واضح ومن يهمه الأمر ويريد الإطلاع أكثر يرجع إلى الكتاب الذي أسسه البسيوني ،علم البديع ، ص:242،243.

[2]- بسيوني عبد الفتاح : علم البديع ، ص:241.

[3]- نحو قوله تعالى :{ ولقد أرسلنا فيهم منذرين فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين } سورة الصافات /الآية 72، 73. فالجناس المحرف في لفظتا (منذرين ومنذَرين) فرغم التوافق في كل شيء إلا أنّ الاختلاف في الشكل .

ترتيب بعض الحروف،وهناك أنواع أخرى تدخل في سياق الجناس المقلوب كالجناس المقلوب المجنح، والجناس المزدوج>>[1] .

3-2- السجـــع:

السجع هو لون -كغيره- من ألوان البلاغة ، أولاه البلاغيون اهتماما كبيرا، فدرسوه من كل النواحي فكان يعرف في اصطلاحهم بأنّه :<< هو اتفاق الفاصلتان في الحرف الأخير>>[2] ، ويكون الحرف الأخير الذي يحدث فيه الاتفاق والتواطؤ في الفاصلتين إما حرفا واحدا أو حرفين متقاربين أو حروف متقاربة [3].

وقد حدد البلاغيون السجع في أربعة أقسام،كل صنف يختلف عن الآخر وهي ممثلة في : المطـرف،والمرصـــع،والمتـــوازي،والمشطـــور؛ فالسجع الذي تختلف فيه الفواصل في الوزن وتتفق في

---

[1]-بسيوني عبد الفتاح : علم البديع ، ص:243،244، فالجناس المقلوب المجنح هو الذي وقع أحد المتجانسين في جناس القلب الكلي في أول الكلام وفي أخره كقول ذلك الشاعر:

لاح أنوار الهدى في كفه من كل حال

فالجناس كان في(لاح) و(حال) ، أما الجناس المزدوج فهو تتابع الكلمتان المتجانستان من أي نوع من أنواع الجناس المذكورة ، فسمي جناسا مكررا أو مرددا كقول أبي تمام :

يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب

[2]- ينظر أبي عبد الله فيصل بن عبدة بن قائد الحاشدي : تسهيل البلاغة ،ص:100.

[3]- فيكون تواطؤ الفواصل على حرف واحد من مثل قوله تعالى :{ والطور وكتاب مسطور في رقّ منشور والبيت المعمور} سورة الطور /الآية 1،4. وأيضا قوله تعالى"{ والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صُبحا } سورة العاديات /الآية1،3؛ فتواطؤ الفواصل كان على حرف واحد وهو الراء وهو في السورة الأولى ، بينما كان في السورة الثانية على حرف الحاء.

أما التواطؤ الذي يكون على حروف متقاربة ، فيظهر في قوله تعالى :{ قَ والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر فقال الكافرون هذا شيء عجيب} سورة ق/الآية1،2. وأيضا قوله تعالى :{ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلها واحدا إنّ هذا لشيءٌ عُجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إنّ هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة أن هذا إلاّ اختلاق} سورة ص/الآية 3،7.

فالدال والباء في الآية الأولى هما حرفان متقاربان ،أما في الآية الثانية فنجد الدال والباء والقاف كلها حروف متقاربة.

الحرف الأخير يسمى مطرفا [1]؛فهذا يعني أنّ الاتفاق يكون في الروي،بينما يكون الاختلاف في وزن الكـــــلام .

أما إذا كان في إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثره مثل ما يقابله من الأخرى وزنا وقافية فيسمى جناسا مرصعا،وله دور بينه الحريري بقوله: << إنه يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ويقرع الأسماع بزواجر وعظه >>[2].

فالسجع على حد قول الحريري ألفاظه كلها عبارة عن وعظ وإرشاد يزجر بها على أسماع الناس فيطبع في عقولهم كلاما يعده –صاحب القول– بمثابة جواهر ثمينة.

أما إذا كان الاتفاق وزنا وقافية في الكلمتين الأخيرتين فقط ، فيسمى جناسا متوازيا، وقد ضرب النقاد والبلاغيون أمثلة كثيرة ومتنوعة،كلها تشرح وتوضح هذا النمط[3].

3-3- المقابـــــلة:

تعد المقابلة –أيضا– من الأصناف البديعية التي ابتدع فيها البلاغيون وأولاها أهمية ولعل وجودها والتماسها بكثرة في أقوال العرب هو ما جعل إقبال أهل البلاغة عليها حتى يتناولوها بالشرح والتحليل،وهي أن يرد في الكلام معنيان أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب،وفي هذا المعنى

---

[1]– ينظر بسيوني عبد الفتاح : علم البديع ،ص:252. والأمثلة كثيرة على ذلك ويظهر ذلك في قول قول أبي تمام :

تجلى به رشدي وأثرت به يدي وفاض به ثمدي وأروى به زندي

(فرشدي ويدي)كلمتان مختلفتان في الوزن متفقتان في الروي، ونرى مثله في قول أحد البلغاء:

(الحُّر إذا وعد وفّى ، وإذا أعان كفى ، وإذا ملك عفا) فالسجع ظاهر في كل من (كفى وعفا)انظر، أبو عبد الله الحاشدي : تسهيل البلاغة ،ص:100 ،101.

كما يوجد هذا النوع ماثلا في القرآن الكريم في قوله تعالى:{ مالكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا } سورة نوح /الآية13 ،14. فالروي واحد وهو حرف الراء ولكنهما يختلفان في الوزن ، فوزن (وقارا) هو فعالا يختلف عن وزن (أطوارا) وهو أفعالا.

[2]– أبو عبد الله فيصل بن الحاشدي : تسهيل البلاغة ،ص:102

[3]– ينظر أبو عبد الله فيصل بن الحاشدي : تسهيل البلاغة ، ص:101، 102.ومن الأمثلة على السجع المتوازي كقول أحدهم :(وأودى بي الناطق والصامت ، ورثى لي الحاسد والشامت)، فالاتفاق في الحرفين الأخيرين من الكلمتين التاليتين(الصامت والشامت).

قال " أبو هلال العسكري" :<< المقابلة هي إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ، نحو قول الجعدي:

فتًى كان فيه ما يسرُّ صديقه على أنّ فيه ما يسوء الأعاديا >>[1].

فالمقابلة –هنا– واضحة، حيث وظف الجعدي جملة(ما يسر صديقه) وأتبعها بما يقابلها في الشطر الثاني وهي (ما يسوء الأعاديا).

وتعريف " القزويني" للمقابلة يشبه إلى حد بعيد عن تعريف " أبو هلال العسكري"،لأنها أيضا كانت تعني عنده بأنّها:<< أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ثم بما قابــلهما،أو يقابلها على الترتيب ، والمراد بالتقابل خلاف التوافق>>[2].

غير أنّ "صفي الدين الحلي " فرق بينها وبين المطابقة مبينا بتعريفه أهمية التعدد في ذكر المعاني وما يقابلها، لأنه سوف يوصلنا إلى مقابلات بليغة.وذلك بقوله :<< أن يأتي الناظم بأشياء متعددة في صدر البيت ثم يقابل كل شيء منها بضده في العجز على الترتيب أو بغير الضد لأن ذلك أحد الفرقين بين المقابلة والمطابقة والآخر التعدد في المقابلة والترتيب وكلما كثر عددها كانت أبلغ>>[3].

3- الصـــــور الحقيقيـــــة :

إنّ الصورة في هذا المجال ما كانت عباراتها وصفية وارتبطت ارتباطا وثيقا بألفاظ مستوحاة من الحقيقة واليقين بخلاف المجاز.

فتكون صورها مثبتة معلومة الدلالة واضحة المعاني، وهي في الاصطلاح قد تعددت وتنّوعت مفاهيمها، فكانت عند "عبد القاهر الجرجاني" الذي كان في مقدمة من اهتموا بالبلاغة تعني : <<كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضع وإن شئت قلت في مواضعة وقوعا لا يستند فيه إلى غيره؛ فهي حقيقة وهذه عبارة تنتظم الوضع الأّول وما تأّخر عنه كلغة تحدث في قبيلة من العرب أو في

---

[1]– أبو هلال العسكري : الصناعتين ، الكتابة و الشعر ، ص:339.

[2]– أبو عبد الله بن زكريا القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة ،ص:321،322.

[3]– عبد اللطيف شريفي والزبير دراقي : الإحاطة في علوم البلاغة ،ص:173.

جميع العرب أو فيجميع النّاس مثلا أو تحدث اليوم،ويدخل فيها الإعلام منقولة كانت كزيد وعمرو، أو مرتجلة كغطفان وكل كلمة استؤنف بها على الجملة مواضعة أو ادعي الاستئناف فيها >>[1].

فالحقيقة عنده لها شرط واحد ؛ حيث لا تستند إلى غيرها في الدلالة على معناها، أما عند " الجاحظ"؛فهي :<< استعمال اللّفظ فيما وضع له أصلا>>[2].

فإذن الكلام الحقيقي هو ذلك الكلام الموضوع موضعه الذي ليست فيه استعارة أو تشبيه أو مجاز،وهذا ما أقره "ابن جني "حين قال :<<الحقيقة ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة>>[3]، ويمكن تصنيف الصّورة الحقيقية إلى نوعين من الصّور:

1-صور وصفية خارجية : وهي الصور التي يغلب عليها وصف الأشياء والأحداث التي يراها الشاعر كوصف البلاد أو الفرس أو النّاقة وسائر الموصوفات المنفصلة عن الإنسان كقول "أوس بن حجر "واصفا النّاقة:

و أدماء مثل النّحل يومًا عرضتها لرحلي، وفيها جرأة وتقاذف
و عْنُس أمون قد تعللت متنها على صفة أو لم يصف لي واصف
علاة كنازِ اللّحم ما بين خفّها وبين مقيل الرّحل هوْل نفائف
جمالية للرّحل فيها مقدّم أمون وملْقى للزميل ورادف
يشيّعها في كل هضب و رملة قوائم عوج مجمرات مقاذف
يزلّ قتود الرّحل عن دأيات كما زلّ عن رأس الشجيج المحارف[4]

ينقل إلينا "أوس بن حجر" في هذا المشهد صورا حسية حية عن الناقة التي ارتحل عنها متنقلا عن موضع أميمة الداثر الذي حزّ في نفسه جراء التذكر والاستحضار لماضيه معها.

---

[1]- أحمد مطلوب وحسن البصير : البلاغة والتطبيق ،ط2 ،1999، جمهورية العراق، ص:320.

[2]- علي جميل سلوم وحسن نور الدين: الدليل إلى البلاغة وعلم العروض،دار العلوم العربية ،ط1 ،1990،بيروت ، ص:126.

[3]- أحمد مطلوب وحسن البصير :البلاغة والتطبيق ،ص:319.

[4]- عبد الكريم الرحيوي: جماليات الأسلوب في الشعر الجاهلي،مقاربة نقدية بلاغية في إبداع المدرسة الأوسية ، كنوز المعرفة ،الأردن ، ط1، 2014، ص ص:52 ،54.

ثالثا: أهمية الصورة ووظيفتها في إبداع النّص الشّعري:

الشعر من أحسن فنون الأدب عند العرب؛فقد كان يعدّ أحسن ممثل لأحاسيسهم ومشاعرهم وقبائلهم وأخبارهم لذلك عُدّ ديوان العرب،يعتمدون عليه ويحتكمون بحكمه ؛وعليه فإنّ الصورة هي عنصر من العناصر المهمة في بناء الشعر ومن ثمّ تشكل القصيدة بدلالاتها المتنوعة << فالصورة هي التي تبثّ بإيقاع ألوانها وموسيقا تراكيبها الدلالات المختلفة>>[1].

فإذن للصورة أهمية كبيرة في تكوين الصياغة الشعرية ؛ بل هي عماد الشعر وجوهره مثلما عدّها "محمد غنيمي هلال"؛ حيث رأى أنّ << الوسيلة الفنية الجوهرية لنقل التجربة هي الصورة.....فما التجربة الشعرية كلّها إلاّ صورة كبيرة >>[2].

لذلك يلاحظ أنّ النقاد القدماء والمحدثين قد استخلصوا هذه الأهمية للصورة من خلال فهمهم على أساس أنّها تقوم بكشف المعاني العميقة التي ترمز إليها القصيدة وتساعد على تقدير الوحدة الشعرية ومن ثم تكمن قيمة الصورة الفنية التي تأتي لتجسد تلك المعاني في شكل فني منمق يثير في النفس البشرية فتؤدي به وظيفة دلالية توحي به إلى مواقف متعددة خفية تعجز أي لغة عادية بعيدة عن التصوير الوصول إليه وبلوغه في كشفها للمعان وتأثيرها في النفس عن طريق قوّة البراعة وحسن السبك للألفاظ،وتستخدم أيضا الصور للإقناع وهذا ما يظهر في قول أبي تمام:

وإذا رأيت في الهلال نموّه أيقنت أن سيصير بدرا كاملا[3].

<< فالإقناع هنا ليس بطريقة غير حاسمة ،إذ ليس فيها قوة المنطق الذهني ، ولكن لها بعض القدرة على التأثير المقنع>>[4].

والنقد الحديث غير بعيد عن تصوره لقيمة الصورة وأهميتها من هذا المفهوم الذي جعل منها وسيلة من الوسائل الهامة التي يكشف ويدل بها عن مختلف المعاني الخفية فيعبر بها عمّا يختلج في

---

[1]–رابح بن خوية:جماليات القصيدة الإسلامية المعاصرة الصورة الرمز التناص،عالم الكتب الحديث،إربد الأردن،2013،ص:07.

[2]– فاطمة دحية: قراءة في جماليات الصورة الشعرية في القصيدة القديمة، مجلة المخبر ،ع10 ،2010 ، ص :10.

[3]– محمد رضا مرّوة : أبو تمام ، عصره ، حياته ، شعره ، دار الكتب العلمية ،(د، ط ، د، ت)، بيروت، ص:117.

[4]– إحسان عباس: فن الشعر ، ص:231.

نفسية الشاعر على حد قول"ابن زيدون" الشاعر المحدث الذي رسم صورة له كغيره من الشعراء وهو في سجن (ابن جهور)في قرطبة لكي يعبر به عن شعوره بالظلم والحيف عن إسراع الأسى والهرم إليه في هذه الصورة التي يقول فيها :

من يسأل النّاس عن حالي فشاهدها محض العيان الذي ينبني عن الخبر

لم تُطو بُرد سبـابي كبرة ، ورأى برق المشيب اعتلى في عارض الشعر

قبل الثلاثين ، إذ عـهد الصبا كثب وللشبيبـــة غصن غيـــر مـهتصر[1].

ومن هنا يظهر أنّ الصورة لها أهمية كبيرة في النقد العربي قديما وحديثا وقد تجلت في الكشف عن المعاني والتعبير عن المواقف النفسية ؛ومن ثم لها وظائف دلالية و إقناعية،تؤثر في نفس القارئ أو المستمع.

[1]- صالح أبو أصبح وهيثم سرحان ومحمد عبيد الله ويوسف ربابعة :ثقافة الصورة في الأدب والنّقد ، مؤتمر فيلادلفيا الدولي ، الثاني عشر ، منشورات جامعة فيلا دلفيا،2008، ص:179 ، 180.

الفصل الأول

أنماط الصورة في شعر أبي العلاء المعري

القسم الأول: أنماط الصورة حسب قالبها الفني

القسم الثاني: أنماط الصورة حسب ارتباطها بالحواس

القسم الأول: أنماط الصورة حسب قالبها الفني.

أولا: الصورة البيانية:

يعتبر<< علم البيان هو العلم الذي يقدرنا على التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه،فالوفاء والكرم والشجاعة والجمال يمكن التعبير عن كل منها بأكثر من تعبير واحد>>[1].

وعلم البيان مؤسس على التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز،وعليه ينبغي علينا أن نقف على أول محطة عني بها الدارسون العرب كثيرا،فعمدوا إلى تبيينها وتوضيحها،فتعرضوا لها بالدراسة والتحليل التي غالبا ما يلمحها المطلع على كتب الأدب والشعر واللغة والتفسير،ويرجع اهتمامهم به إلى شيوع هذه الخاصية وجريانها في كثير من فنون الكلام فضلا عن كثرتها في القرآن الكريم والحديث الشريف.
ومن هنا اجتهدوا في دراسته والكشف عن أسراره وخباياه،فقد ذهبوا في دراسته مذاهب عديدة وسلكوا في التعرف على أسراره مسالك شتى،والتشبيه واحد من الصور البيانية التي عني بها الباحثون عناية واضحة<< فكان جزءا من تكوين التجربة الشعورية عند الأديب وهي ملمح من ملامح العمل الأدبي الفني>>[2]،فتباينت آرائهم وكثر كلامهم ومن الخطأ أن يظن الدارس أنّه سوف يلم بكل ما جاء أهل البلاغة قديما،ولكن مهما تعددت الآراء واختلفت وجهات النظر؛إلا أنّه تمت محاولة إيراد أقوال لا تكاد تختلف في مفهومه،وبنيته، وأطرافه وإن اختلفت اختصاصاتهم الأساسية وتباينت مشاربهم؛فهاهو (المبرد) أقدم اللغويين الذين عّرفوا التشبيه اصطلاحا؛قال:<< واعلم أنّ التشبيه من أين وقع،فإذا شبه الوجه بالشمس والقمر،فإنّما يراد به الضياء والرونق ولا يراد به العظم والاحتراف>>[3].

وقد تتبّع (قدامة بن جعفر) خطى (المبرد) فيما ذهب إليه من حد التشبيه واضحا ما اقتبس منه في إطار منطقي قائلا :<< إنّ الشيء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات إذ كان الشيئان إذا

---

[1]- عبده عبد العزيز قلقيلة : البلاغة الاصطلاحية ، دار الفكر العربي ، جامعة طنطا ، ط3 ،1992، القاهرة ، ص:37.

[2]- فايز الداية :جماليات الأسلوب، الصورة الفنية في الأدب العربي ، دراسات أسلوبية ،دار الفكر، ط2، 2003، دمشق ، ص:94.

[3]- أحمد مطلوب وحسن البصير: البلاغة و التطبيق ، ص:262.

تشابها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما تغاير البتّة،اتّحدا فصار الاثنان واحدا؛فبقي أن يكون الشبه إنما يقع بين شيئين اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بها،وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه بصفتها>>[1].

وغيرهم كثير من الدارسين ممن أولو عناية خاصة بالتشبيه،فدرسوه واصطلحوا عليه بمصطلحات عدّة لا يتسع المقام لذكرهم جميعا.

وعليه فإنّ التشبيه برغم تنوع مشارب ومسالك الدارسين إلا أنه يظل مصطلحا تحت مفهوم واحد يعرفه الجميع؛حيث أنّه يعتبر هو:<< الدلالة على اشتراك شيئين في معنى من المعاني،وانّ أحدهما يسد مسدّ الآخر،و ينوب منابه، سواء كان ذلك حقيقة أو مجاز>>[2].

وطرفي التشبيه استدعائهما ضروري لإقامة هذا النوع من الصور؛حيث:<<يكون الإشراك بينهما في وجه وافتراقا من آخر،وأنّه لا يصار إليه إلا لغرض وأن حاله تتفاوت في القرب والبعد والتوسط والقبول والرد>>[3] .

فطرفي التشبيه هما من الأركان الأربعة القائمة على تأسيسه إضافة إلى الأداة ووجه الشبه؛فهو إذن لون من ألوان التعبير الجميل المؤثر والموحي بمعناه تعتمد عليه النفوس البشرية بالفطرة غالبا إذا ما دعاها إلى ذلك غرض من الأغراض التي يؤسسون بها قصائدهم،فقسموه إلى أنواع كثيرة قد ذكرتها في الفصل التمهيدي بالتفصيل.

فكل تلك الأنواع للتشبيه يمكن اختصارها في نوعين أو قسمين وهما:<< التشبيه المفرد الذي يكون فيه الوصف المشترك محققا في شيء واحد كقولهم:الحكمة شجرة تثبت في القلب وتثمر في اللسان،فالحكمة مشبهة بالشجرة في أنّ لها جذورا ضاربة في النفس فتخصب معدنها،وأنّ لها آثارا

---

[1]- أحمد مطلوب وحسن البصير: البلاغة والتطبيق ، ص:262.

[2]- زياد محمود مقدادي: من الصورة الفنية عند العرب، مجلة القدس، ع 6983، الجمعة 25 تشرين الثاني نوفمبر 2011، .

[3]- بدر الدين بن مالك: المصباح في المعاني والبيان والبديع ،حققه وشرحه حسن عبد الجليل، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميزت ، المطبعة النموذجية ،(د، ط، د، ت) ، ص:104.

حلوة في اللسان والشمائل وضروب السلوك كالثمار العذبة النابتة في منبت طيب،وهذا المعنى موجود في الشجرة من غير أن تكون محتاجة إلى شيء آخر>>[1].

ويقول الشاعر:

كأنّها روضة منّورة تجمع طيبا ومنظرا حسنا[2]

فالطيب والعبق في الروضة يجاوران المنظر الجميل لتنوع الألوان وغرابة بعضها في هذه الحديقة الزاهية.

وثاني نوع من التشبيه هو ما يسمى بالتشبيه المركب :<<حيث يكون المشبه أو المشبه به أو إحداهما غير مفرد ، ومثاله قول الشاعر :

وكأنّ أجرام النّجوم لوامعا درر نثرنا على بساط أزرق[3]

وعليه فإنّه هنا بالذات لم يتم التركيز على التقسيمات والأنواع المذكورة في التشبيه؛فالدراسة التي سوف تجرى حول ديواني أبو العلاء المعري وهما سقط الزند و اللزوميات بجزئيه تقتصر على تبيين التشبيه وأغراضه والتركيز أكثر على تأملات الشاعر الفلسفية وبعض آراءه دون الغوص فيما إذا كان التشبيه تمثيلي أو تضميني،أو بليغ وغيرها من الأنواع الأخرى التي باتت المعرفة بها من المسلمات البديهية ، وخلاصة القول أنّ التشبيه هو ضرب من الإبداع والتصوير لا تتأتى الإجادة فيه إلا لمن توافرت لديه أدواته وبراعة تامة في تشكيل صور مليئة بالحركة والحيوية،مما يمنحها جمالا وتأثيرا بالغا.

فإذا كان التشبيه هو:<< من أكثر الأساليب البيانية دلالة على مقدرة البليغ ومدى أصالته في فن القول>>[4].

فإنّ الصورة المشكلة من خلاله هي:<<التي يتجسم فيها المعنى على هيئة علاقة بين حدّين>>[5].

---

[1]– محمد أبو موسى: التصوير البياني ، دراسة تحليلية لمسائل البيان، جامعة الأزهر، مكتبة وهبة ، ط3 ، 1993، ص:26.

[2]– فايز الداية : جماليات الأسلوب ، ص:95.

[3]– محمد بركات حمدي أبو علي: البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل، دار النشر عمان الأردن ، ط1 ،1992 ، ص:38.

[4] – علي جميل سلوم وحسن نور الدين : الدليل إلى البلاغة وعروض الخليل ، دار العلوم العربية ، ط1، بيروت، 1990، ص:121.

[5] – زياد محمود مقدادي : من الصورة الفنية عند العرب ، مجلة القدس ،ع6983.

والمتتبع لديواني المعري سقط الزند و اللزوميات بجزئيه ما من شك فإنه سوف يوجد الكثير من الصور التشبيهية المبتدعة ولها كبير الأثر في مجال الأدب،وهذا ما سوف يوضح من خلال هذه الدراسة التي تطلبت القيام بإحصاء جميع الصور التشبيهية المتواجدة في ديواني المعري ، جُودت الكثير من الصور التي هي من هذا النوع؛لذا كان من الضروري بعد إحصائها جميعا واستخراجها من ديواني المعري أن يتم توضيح بعضا منها والتعرض لها بالدراسة والتحليل،خاصة أنّ المقام لا يتسع لذكر جميع تلك الصور الموجودة،كما أنّ الكثير منها مكرر هذا من جهة، ومن جهة ثانيةجُودت أصنافا أخرى تدخل ضمن الصور التشبيهية لها علاقة بمصادر أخرى،لذلك برُمجت لها فصولا ومباحث طويلة خاصة به؛ تتعرض لهذه الصور بالدراسة والتحليل والشرح سواء كانت في هذا الفصل الذي هو بين أيدينا أو في فصول لاحقة.

1- الصورة التشبيهية في شعر أبي العلاء المعري :

<< إنّ التشبيه في مفهومه الجمالي،تصوير يكشف عن حقيقة الموقف الشعوري أو الفني الذي عاناه الشاعر أثناء عملية الإبداع،كما يرسم أبعاد ذلك الموقف عن طريق المقارنة بين طرفي التشبيه مقارنة لا تهدف إلى تفضيل أحد الطرفين على الآخر،بل ترمي إلى الربط بينهما في حال أو صيغة،أو وضع يكشف جوهر الأشياء ويجعلها قادرة على نقل الحالة الشعورية،أو الخبرة الجمالية التي امتلكت ذات الشاعر>>[1].

ومن ثم تظهر صور الشعراء جوانب عدة يكشفون بها عن خفاياهم وتنقل تجاربهم وآراءهم في الحياة،فها هو أبو العلاء المعري مثلا لذلك،استطاع برسم صوره التي كانت خير دليل على عمق تجربته بالحياة وخبرته؛فحين يحكي المعري عن الدنيا-مثلا- يظهر وهو يصورها في صور شتى منها قوله مشبها إياها بالسراب:

دنياك مثل سراب إن ظننت بها ماءً فخدع وإن عضبا فتهويـل
والجسم للروح دار طالما لقيتْ هدما وحُقّ لرب الدار تحويـل
تُسول النفس آمالا وتسألهـا فالخبر سؤل وحسن الظن تسويل

[1]- جهاد رضا :التصوير الفني في شعر العميان،سلسلة الدراسات ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ،2011 ، دمشق ص:48 ، 49.

ُولت والمال مثل الفئ منتقل فليغد منك على عافيك تمويل

أخذت ميثاق أيّ ام غُررت بها وما على ذلك الميثاق تعويل

في قبضة اللّه أعمار مقسمة لها إذا شاء تقصير وتطويل[1].

خبر أبو العلاء المعري الدنيا وفهمها من خلال تجاربه فيها؛لذلك بات وهو متأكد من خلال هذه الأبيات،أنّ الدنيا ما هي إلا سراب يتراءى إلى الناس يحسبونها كالماء،فيفرحون بها ويستبشرون ويهللون للعيش فيها،ولكنهم مخدوعون فيها والإنسان له مستقر في الدنيا مثل الجسم للروح التي تسكنه تظل تهدمه وتخنقه حتى يغير مكان إقامته؛حين قال:(وحق لرب الدار تحويل) وهي هنا دلالة على الموت والابتعاد عن هذه الدنيا التي لطالما سولت نفوس البشر بالآمال والطموحات، ويظل يحسن الظن بها .

ويتابع المعري وصفه للدنيا؛ التي أبرم معها ميثاق، وهو ميثاق الأيام،و ياله من ميثاق قد غرر به فما عليه تعويل؛لأنّ الدنيا بطبيعتها خائنة وغدارة لا يمكن أن نثق بها وبمثاقها؛حتى يصل في نهاية المطاف إلى الاعتراف بحقيقة الموت؛فهو يدرك لا محالة أنّ الإنسان مهما أطال عمره أو قصر في هذه الدنيا،ويقول أيضا :

ويلقى المرء في الدنيا صحيحا كحرف لا يفارقه اعتلال

فأما أنت والآمال شتى فلقياك السعادة لو تنال[2].

والذي يظهر من خلال أبيات المعري السابقة أنّ المرء على حسب قوله يولد خيّرا بطبعه فلا تكاد ترى في نفسه خبثا وشرورا،ولا تكاد تجد في نفسه ضغينة ولا حقدا ولا حسدا على غيره،غير أنّ الدنيا تغيّره فيصبح كحرف لا يفارقه اعتلال،بعدما كان صحيحا وهذا لأثر الدنيا عليه .

لذلك أدرك أبا العلاء المعري حقيقتها؛ فشخّصها كأن جعلها شخصا متمرسا بفنون اللغة فهي تتقن لغات عدة لا تفصح بها دائما،كما أنها لا تخلص الود لأحد حتى لولدها الرضيع يطمع بحبها لكنها لا تبالي به،يقول:

---

[1]- أبو العلاء المعري: اللزوميات لشاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء ،حققه وأشرف على طباعته جماعة من الأخصائيين ، دار الكتب العلمية ،2001، بيروت، ج2 ، ص:187.

[2]- أبو العلاء المعري: سقط الزند، شرح وتعليق يحي الشامي ، دار الفكر العربي ، ط1 ،2004 ، بيروت ، ص:157.

غدوت على نفسي أُثرب جاهدا وأمشـالها لام اللبيب المثرب
إذا كان جسمي من تراب مآله إليـه ، فـما حظي بـأنـي مثرب
وما زالت الدنيا بأصناف ألسن تبيذن عن غير الجميـل، وتعرب
إذا أغربت يوما برزء على الفتى فليست على نفسي، بما حُمّ تُغرب
وجربتها أم الوليـد لـطامع ويـيأس من أم الوليد المـجّرب[1]

لقد فهم أخيرا أنّ وجود الدنيا لا يسمن ولا يغني من جوع مثلها مثل الفتاة التي لا تكون على طهارة ؛فهي لا تفيد زوجها ولا تستقيم له؛يقول:

ووجدت دنيانا تشابه طامثا لا تستقيم لناكح أقراؤها[2]

ويقول:

إنّ دنياك من نهار وليل وهي في ذاك حيـة عرمـاء
والبرايا حازوا ديون منايا سوف تقضي ويحضر الغرماء[3]

إنّ الدنيا التي هي عبارة عن نهار يطوى وليل يستنار ما هي إلا حية تخفي وراءها سموما قد تباغتك بها في أية لحظة لتلسعك وترديك قتيلا؛وهي حينا آخر تشابه الجيفة الميتة التي تعطر جو الدنيا بروائحها النتنة المستوحاة من الشرور والآلام والأحزان والسموم التي تبثها في النفوس وبنو البشر في نظر أبي العلاء المعري ما هم إلا كلابا تعاوت تريد أن تفترس تلك الجيفة؛فيأخذ كل واحد منها شطر؛وهنا إشارة إلى التسابق في هذه الدنيا والاستسلام لها ولشرورها أو قل عدم فهمها على حقيقتها؛فالكثير من الناس تخدعهم الدنيا بأيامها ولياليها،فتزينها له وتخرجها في أحسن حلة حتى ينصاع لها ويسير وراء شهواتها وملذاتها الفانية؛وهذا ما يظهره المعري بقوله:

أصاحِ هي الدنيا تشابه ميتة ونحن حواليها الكلاب النوابح[4]

---

[1]- أبو العلاء المعري: اللزوميات لشاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء ، حققه وأشرف على طباعته جماعة من الأخصائيين ، دار الكتب العلمية،2001 ، بيروت ،ج1، ص:93.

[2]- المصدر نفسه :ص:44.

[3]- المصدر نفسه: ص:46.

[4]- المصدر نفسه :ص:189.

ولكن بالرغم من أنّ المعري قد خبر الدنيا بمصائبها وشرورها وآلامها وخداعها حتى وجدناه يشبهها بسراب وبحية تعظ البشر وتسممهم بأذاها إلا أنه قد وجد في أبيات أخرى يجعل أذاها كعسل نحل لذيذ؛يقول:

وجدنا أذى الدنيا لذيذا ، كأنما جنى النحل أصناف الشقاء الذي نجني [1]

ويقول أيضا في نفس السياق:

وتظهر لي مقتاوأضمر حبّ ها كأني جهول ما عرفتُ شنارها[2]

فهنا أبو العلاء المعري من خلال هذين البيتين هو متأكد من حقيقة الدنيا المرة ومن أذاها حتى أنّه جعل طعم الأذىالذي يدركه منها كطعم النّحل،فالدنيا تنتج أصناف الشقاء الذي شبهه بعسل النّحل الذي تنتجه هذه الحشرات من الأشجار والورود.

كما أنه متأكد من أنها تكرهه ولكنه يعجب كيف أنه يحبها وكأنه لا يعلم حقيقتها وما فعلته به.

ومن الصور التي رسمها أبو العلاء المعري من خلال نصوصه الشعرية،صورة الدّهر بحوادثه وذنوبه فالمعري من بين الشعراء الذين أشواهم الدهر برزاياه لذا نجده ، يقول:

مدّ الزمان وأشوتني حوادثه حتى مللت ، وذمت نفسي العمرا[3]

لذلك جعله كفارس مقدام من القوة والجبروت ما يؤهله لقطع رؤوس البشر بسيفه، يقول:

مضى زمن والغربان رواقه عليه وسيف الدّهر عنه كهام

وما الدّهر إلا دولة ثم صولة وما العيش إلا صحة وسقام[4]

وقطع الدهر للرؤوس بسيفه؛يعد كمعادل للقوة والبطش والجبروت المسلط على البشر ولكن ليس جميعهم – فعلى حسب- قول المعري وإنّما تسلط الدهر حوادثه على ذوي النفوس الضعيفة الخائفة

---

[1]- أبو العلاء المعري : ديوان سقط الزند ، ص:184.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات،ج1، ص: 334 .

[3]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص:315.

[4]- المصدر نفسه : ص:196

التي لا تميل إلى هدر وسفك الدماء البشرية،وقد شبهها المعري بورد المدام للاشتراك الحاصل بينهما في الحمرة،يقول:

ولا يشوي حساب الدهر ورد له ورد من اللّم كالمدام
يعنيه البعوض بكل غــاب فريش بالجماجم واللّمام
بدا فدعا الفراش بناظريـه كما تدعوه موقدتـا ظلام
كأنّ اللّحظ يصدر عن سهيل وآخر مثله ذاكي الضرام[1]

إنّ المتأمل لهذه المقطوعة الشّعرية التي نسجها أبو العلاء المعري من خياله ونتيجة تأثره بهذه الدنيا الرزية،وحوادث الدهر المؤلمة يدرك لا محالة،ذلك الوصف البديع للدهر الذي صوّره بألوان من الدم فكادت أن تكون حقيقة تسر الناظر إليها،وعليه فالمعري نسج صورته في تشبيه الدهر الذي كان كفارس مغوار يحمل سيفا قاطعا بيده وكأنه أشوى النّاس بأفعاله الشريرة؛ فحدث أن حوّل ورد الماء الشروب إلى ورد دماء وقد شبّهه بورد المدام للاحمرار الحاصل بينهما؛وهو هنا دلالة على سفكه دم الضحايا من البشر؛ وزاد المعري في تصوير الورد بأن جعله قبلة للبعوض الذي يأتيه من كل فج حتى يلتهم تلك الجماجم المرمية في ذلك المورد.

وليس البعوض وحده من كانت قبلته ذلك الورد الذي تملأه الجماجم وأشلاء القتلى والدماء من كل جهة بل استطاع أن يستقطب بلونه الأحمر، وصورته الفراش فكأنّه دعاه إليه ليستمتع بذلك المنظر الذي سلبه النظر؛وهو هنا يشبهه بالموقد الذي كانت تقده العرب قديما في اللّيل لكي يستضاء بها،كدليل أيضا على كرم من أشعل النّار أمام بيته،فالفراش استدعاه الورد الملطّخ باللّم وجثث الضحايا كما تستدعي العرب الغريب لتكرمه وتنير له دربه.

فهنا يتضح أنّ أبا العلاء المعري قد برع في تصوير اللّهر وفتكه بالبشر في صورة جعلته كفارس بطل يحمل سيفا، فأردى به قتلى وجثث،شكل من دماءها وردا للشرب، فهذه الصورة الخصبة التي جعلت من الدهر كفارس له سيف،وقد أحدث ما أحدث بأفعاله تنم عن خيال أبي العلاء المعري وحيويته وقّوة بديهته،وجمال سبكه،وقدرته العظيمة على التصوير من أجل الوصول إلى هدف أو

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص:221.

غرض ينشده يؤكد به نظرته للدهر وما يفعلهبالنّاس؛ فهو كشاعر يتفّوه،ولكن ليس بكلام وإنّما بآفات وحوادث،يقول:

والدّهر شاعر أفات يفوه بها للنّاس يفكر تارات ويرتجل[1]

فهنا يشبه الشاعر الدهر بشاعر يتفّوه بالشّعر غير أنّ الدهر لا يتفوه إلا بالحوادث والرزايا والآفات التي تنزل على بنو البشر،فتارة تراه يتريث في حكمه ولا يستعجل الشر،وتارة أخرى تراه كذلك الفارس الذي سيق الحديث عنه يحمل سيفا متوجها به إلى البشر للتلذذ بدمهم؛لذلك أبو العلاء المعري لا يأمن هذا الدّهر؛فهو متغير،يقول :

لا تأمنن من الدهور تغيّرا حتى تكون ظباؤها كذئابها[2]

فالدهر دائم التغيير، فتراه يحّن عليك وتارة ينزل عليك بسيفه البتّار وقلبه المتوحش وسلطته المنيعة حتى يرديك ضحية من ضحاياه،وحاله كحال الدنيا فيه اللّئيم المخادع كالذئب وفيه الغبي الأحمق كالظبي، لذلك المعري لا يأمن على نفسه من هذه الأصناف حتى يتساوى اللئيم المخادع مع الغبي الأحمق ؛ وهو في نظره مستحيل وقوعه حتى تنقضي سنة الدّهر وتنتهي بهلاك مؤكد، يقول:

أجزاء دهر ينقضنني ولم يكن بيني وبين جميعهن جوار
يمضي كإيماض البروق ومالها مكثُ فيسمع أو يقال حوار[3]

فالدهر مهما تسلط على البشر بحوادثه إلا أنّه منقض وزائل على حد تعبير المعري؛فيمر على الإنسان كمرور البروق المتعالية لا تكاد تراها تمر من حولك دون أن تشبع نظرك بها؛ فهو هنا كأنّه يؤكد على حقيقة الصبر على ابتلاء الدّهر ما دام زائل أو اعتزاله والابتعاد عنه كما فعل هو، وهذا ما أكده بقوله:(ولم يكن بيني وبين جميعهن جوار) ؛فهنا إشارة إلىالعزلة والوحدة التي سنّها المعري على نفسه حتى تحميه من غدر الدنيا وحوادث الدهر ورزايا الزمان،فمآله إلى الزوال والانتهاء بعدما يكبر ويشيخ، يقول في ذلك:

---

[1]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ، ج2، ص:261.

[2]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1، ص:117.

[3]- المصدر نفسه : ص:310.

الدهر كالّربع لم يعلم بحالته هـــل عند ذي الدّار من سكانها خبر

وسوف يقدم حتى يستسربه سنا النّهار ويفني شرخــه الكبـــر [1]

والزمان حاله كحال الدنيا والدهر في شعر المعري وجدت الكثير من الصور التشبيهية وحتى الاستعارية التي سوف أوظفها لاحقا،كلها تحكي عن هذا الزمان الذي أعياه برزاياه وأتعبه كثيرا بحوادثه الكثيرة المتغيرة،وهو هنا يشبهه بقصيدة لم يضطر صاحبها إلى تكرار قوافيها،يقول:

وكأنّما الزمان قصيدة ما اضطر شاعرها إلى إيطائها[2]

فكلمة الإيطاء تعني عدم تكرار القافية لفظا ومعنى،وهي تعادل عدم تكرار الزمان لأيامه وحوادثه ولياليه، فالزمان يبدع بأبيات يشبهها بالشهب والكواكب،يقول:

ولقد غصبتُ الليل أحسن شهبه ونظمتها عِقدا لأحسن لابس[3]

فكأنه انتزع هذه الشهب والكواكب من الليل انتزاعا حين قال:(ولقد غصبتُ الليل أحسن شهبه)،لكي ينظم بها قصائد هي كالعقد الذي تلفه المرأة حول عنقها غير أنّ المعري يلف رقبة الزمان به حتى يقطع عنه الشّر الذي سوف يلحقه به وببقية البشر خاصة أنّه مولود على الفساد بالفطرة، يقول:

نهار وليل عوقبا أنافيهما كـأنّي بخطي باطل أتشبّـث

أظن زماني كونه وفساده وليدا بترب الأرض يلهو ويعبث[4]

فهو يلهو ويعبث بالبشر الذين غرسوا فيه كنبت وقد سقاهم الزمان بحوادثه ، يقول:

وما الناس إلا نبات الزما ن فليحصد القوم ما نبتو

فيا للنصارى إذا أمسكوا ويـا لليــهود إذا أسبتوا

وقد سئلوا عن عباداتهم فما أيـــــدوها ولا ثبتوا[5]

---

[1]-أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1، ص:288.

[2]- المصدر نفسه : ص:52.

[3]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص:52.

[4]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج1، ص:166.

[5]- المصدر نفسه: ص:144.

وهنا يظهر أنّ النّاس كنبت غرسه إليه في هذا الزمان،وكل واحد مسئول عما غرس فليحصد القوم ما نبتوا ،وهنا إشارة إلى أنّ كل إنسان مسئول على تصرفاته،لذلك سوف يتحمل ما سوف تغدقه حوادث الأيام له يقول:

وحوادث الأيام مثل نبــاتها تــرعى ويأمرها المليك فتنبت

وإذا الفتى كان التراب مآلـه فعلـى ما تسهر أمه وتربـــت

إن كانت الأحبار تعظم سبتها فـأخو البصيرة كل يوم مسبّـت

وتظل حبات القلوب زرائـــعا كالأرض والشهوات مزدرعـــاتها[1]

المتمعن في هذه الأبيات يدرك من أنّ المعري فعلا استوفى الزمان بمعرفته فأعطاه نصيبه من الشرح، والتصوير الرائع والمؤثر في النفس،فحوادثه كنبت قد زرعه الله(المليك) وأعطاه القدرة على النبت، فينبت ذلك الزرع ويحصد القوم ما أنبتوا بأيديهم مع قدرة الله.

ويتبع قوله بأنّ نهاية الزمان كنهاية النّهر والدنيا اللئيمة فالكل إلى ربه فان ولا يبقى إلا وجه الجلال و الإكرام، وهو هنا يتساءل ما دام الإنسان مآله الموت والتلاشي في هذا الزمان فلماذا تسهر عليه أمه وتربيه وتتمنى له دوام الصّحة والسّلام؟.

ويعود ليبرر ذلك بالرغبة في استمرار الحياة؛فهي من نوازع النفس البشرية التي اكتشفها المعري فرسمها بصورة أكدت ذلك بقوله:

تودّ البقاء النّفس من خيفة الردى وطول بقاء المرء سُمّ مجرب

وما الأرض إلا مثلنا الرزق تبتغي فتأكل من هذا الأنام ،وتشرب[2]

ويقول عن النفس البشرية مفسرا رغباتها:

والنفس في آمالها كطريدة بين الجوارح مالها أنصار[3]

فالناس في هذا الزمان أشباح حباب طاف فوق الماء،قد يظهر البعض منه فجأة وقد يختفي في هذا الزمان ، يقول:

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص: 140 ،142.

[2]- المصدر نفسه: ص:91.

[3]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج2، ص:632.

أشباح ناس في الزمان يُرى لها مثل الحباب تظاهر وتوارى

يُخلطن فيه بغيرهن فما مضى غير الذي يأتي وهزّ جواري[1]

والصبح فيه قد لاحى بتباشيره والليل جيش يستعد للتأهب والرحيل،يقول:

وأغدو، ولو أنّ الصباح صوارم وأسري ، ولو أنّ الظلام حجافل[2]

فهنا يلُمس الشاعر وقد جعل الصبح في هذا الزمان كالسيف إذا لاح،وهنا يعادل به القوة والحدة الموجودة في السيف مع البياض الذي يتمس في السيف،والليل عنده من شدة سواده وظلامه يشبهه بجيش لسواد سلاحه وكثرة الغبار فيه،فهو هنا قد عادل بتوظيف كلمة الجيش على الليل للتدليل به على الكثرة والغلبة والتقدم ،فهو يضطر إلى جمع أصحابه في الليل ليكّون بهم جيشا أسود ولكنه في النهار مع بزوغ صبح جديد يفارقهم كما يجمع الحاج جمار الرمي في الليل ثم يرمي بها مع الصباح ، يقول :

في معشر، كجمار الرّمي ، أجمعها ليلا، وفي الصّبح ألقيها إلى القاع[3]

أما الوقت فهو طائر يقطع المسافات البعيدة والحكمة في مسابقته إلى تحقيق الهدف المرجو قبل فوات الأوان، يقول:

وما الوقت إلاطائر يأخذ المدى فبادره ، إذ كل النّهى في بداره[4]

ويعتبر طيف حبيبته الذي يزوره في الليل دائما من أصحاب المعري الدائمين له ، يقول:

زارت عليها للظلام رِواق ومن النّجوم قلائد ونطاق[5]

فهنا أراد الشاعر من خلال هذا البيت الشعري أنّ حبيبته قد زارته مستترة بسواد الليل مشبها قلائدها التي تلبسها ونطاقها بالنّجوم،هذه الأخيرة التي تذكّره بها دائما كلما نظر إليها في السماء، لذا نراه يتبع كلامه –في بعض الأحيان– بتشبيهات تخص النجوم والليل على حد سواء،فيقول:

---

[1]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج1، ص:389.

[2]– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص:106

[3]– المصدر نفسه : ص:151.

[4]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص:217.

[5]– أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص:154.

أعن وخد الخلاص كشفت حالا ومن عند الظلام طلبت مالا

ودرا، خلت أنجـمه عليـــه فـهلا خلتهن بـه ذبـــالا

وقلت:الشمس بالبيداء تبـــر ومثلك من تخيّل ثم خـالا

وفي ذوب اللجين طمعت، لما رأيت سرابها يغش الرمالا[1]

فهنا يشبه الشاعر نجوم الليل التي تذكره بحبيبته بالدّر،كما يشبه شمس النّهار بالذهب، فتشبيه نجوم الليل بالدر قد عادل بها نفاسة الليل وقدسيته عنده خاصة وأنّ طيف محبوبته يستر به ولا يمكن له الظهور إلا في الليل،أما شمس الضحى فهي تبر فقد عادل بهاالضياء والنّور الموجودين في التبر.

ومثلما كانت النجوم تذكّر المعري بحبيبته، وجدنا البرق الذي يلمع في السماء يفعل نفس فعلة النجوم، يقول:

مثل السيوف هزّهن عارض والسيف لا يروع إن لم يُهزز[2]

فلمعان البرق الذي يذكره بالحبيبة وبالشوق شبيه بالسيوف إذا هزّت،لذلك تجده كثيرا ما يشكي طول السهاد والسهر بالليل جراء ذلك البرق المتعال.

يقول:

ألاح ،وقد رأى بـرقا مليـــحا سرى فأتى الحمى نِضوا طليحا

كما أغضى الفتى ليذوق غمضا فصـــادف جفنـــه قريـــحا [3]

فهنا يلُمح الشاعر وهو يشبه البرق بتتابع لمعانه في الليل برجل أراد أن ينام فوجد جفنه قريحا، فلم يقدر على إطباق جفنيه،ولم يستطع إبقاء عينيه مفتوحين،فيبقى ساهرا يطرف باستمرار،لذلك نجد المعري قلق، قد افتقر إلى المشاعر الجميلة؛ فحاول تعويضها في شعره،وهذا ما نتحسسه في قوله الذي يظهر فيه واصفا ليلته:

هرب النّوم عن جفوني فيها هرب الأمن عن فؤاد الجبان

و كأنّ الهـلال يهوى الثريـا فـــهما للـــــوداع معتنـــــقان

---

[1]-أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص:25.

[2]- المصدر نفسه :ص:88.

[3]- المصدر نفسه: ص:46.

قال صحبي، في لجتين من الحد دس والبيد إذا بـدا الفرقدان[1]

فليس الحبّ وحده هو الذي يلهب العاطفة،بل قد نجد الحرمان يثير ما أثار ذلك الحب بشكل أكبر، فيكون الشعر ترجمان الشعور بحق.

وهنا المعري جعل الوداع عناقا والنّوم يفّر هاربا مصورا حالته القلقة فنشعر بثقل همومه التي من أجلها فّر النّوم فغابت السكينة والاستقرار وانعدم هدوء النّفس.

خاصة وأنّ أبا العلاء المعري قد خبر الزمان بأيامه ولياليه التي تذكره بالأحزان والآلام، فلطالما مزقته الوحدة بأظافرها وأبكاه الحنين وأوحشه البرق؛فذكره بفقده من يحب،فوجد الزمان أعجما فظا غليظا لا يعامله معاملة ّندة ، وهو في حكمه جبّار وقاس،يقول:

ووجدت الزمان أعجم فظا وجبار في حكمها العجماء[2]

ومن العجب والسفاهة على حد قول أبي العلاء المعري أن يمضي المرء ضاحكا مسترسلا في سفاهته والزمان يحطمه بنوائبه ورزاياه ،يقول:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحُقّ لسكان البسيطة أن يبكوا

يحطمنا ريـــــب الزمان كأننا زجـاج ولكن لا يعـادله سبك[3]

فقد نسج أبو العلاء المعري صورة حاكى فيها الزمان الذي يحطم الإنسان بحوادثه ورزاياه وهو في ذلك شبيه بزجاج قد تكسر بفعل قوة مدمرة،فمن المحال أن يسبك من جديد.

فالحزن دائما موجود في عيني أبي العلاء المعري وكذا تجرعه للآلام فلا يمكن لضحكة يطلقها أو بسمة يرسمها على شفاه أن تغيّر ما في قلبه من أحزان إلا الأحزان،يقول :

فإني رأيت الحزن للحزن ماحيا كما خُط في القرطاس رسم على رسم[4]

فكأنّ الحزن الأول يذهبه حزن ثان،وهنا إشارة منه إلى أنه دائم الأحزان،متشائم لا يرى في الخير طريقا إليه ويذعن من حدة الشّر إلى أن جعله كلمة محرقة شبّت فما كادت أن تنطفئ،يقول :

---

[1]- المصدر السابق: ص:242.

[2]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ، ج1، ص:46.

[3]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج2، ص:151.

[4]- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص:190.

الخير كالعرفج الممطور ضرّمه راع يئـــط ولما أن ذكى خمدا

والشر كالنار شبّت ليلها مضى يأتي على جمرها دهر وما همدا[1]

فقد رسم المعري صورة جميلة عن الخير الذي شبهه بعرفج قد أصابه المطر فلاح بينه وبين مواصلة الاشتعال،فما كان له إلا أن خمدا،يعادل بها نقص الخير في هذه الدنيا التي تطبعها الشرور في أيامها ولياليها،فالشر عنده كالنار أذكى لهيبها وما زادت إلا اشتعالا في هذا الدّهر وما همدت، فبالرغم من تمني الشاعر لحصول الخير إلا أنه متأكد من عدم وجوده أمام ذيوع الشر،وهو في ذلك يقول :

و لن تلقى كفعل الخير فعلا ولا مثل المثوبة ربح نجـــر

توقع بعد هذا الغي رشـــدا فمن بعد الظلام ضياء فجر[2]

وهو مستمر، كيف لا وقد طبع عليه الناس فهم مجبولون باقترافه وهم في ذلك كنبت كثير الأذى ، يقول:

وما أنتم بالنبات الحميد ولا بالنخيل ولا بالعُشـــر

و لكن قتاد عديم الجناة كثير الأذاة أبي غير أشر

ويلـــكم أبدا مظلـــم فهل ترقبون صباحا جسر[3]

فالمعري قد حكم على الناس بحكم سّيء،لذلك نجده عبر هذه الأبيات يشبههم بنبات يملأه القتاد الذي لا فائدة تجنى منه غير الأذى،وقد عقد بينه وبين النبت الحميد أو النّخيل مقارنة كل هذا يبين به طريق الشر وظلاله وطريق الخير وأهله.

ويظل الزمان يطارده بأنباء وأحداث فيها الكثير من العبر، يقول :

تلك أنباء أرتنا عبـــرا معجبات كأحاديث السمر

في حياة كخيال طارق شغل الفكر وخلّاك ومْر[4]

---

[1]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ، ج1، ص:236.

[2]- المصدر نفسه : ص:376.

[3]- المصدر نفسه: ص:414.

[4]- المصدر نفسه: ص:411.

هذه الأنباء التي فيها الكثير من العبر قد شغلت الناس مثلما شغل خيال طارق بن زياد البشر عبر التاريخ ثم ترك ومّر بدون رجعة.

والموت واحد من الأنباء التي تحزن الإنسان وتشغل الفكر وتدمع العين،فهو بلية ورزية يجلبها الزمان للمرء ؛ليحطم به آماله ،يقول:

تجئ الرزايا بالمنايا كأنّـــما نفوس البرايا للحمام رهائن

تنطس في كتب التاريخ خائف منيته والمرء لابــد يائن [1]

لقد صور المعري المنايا التي تحملها الرزايا لتسقطها فوق رؤوس البشر،كأنها رهائن عندها تحتجزها لتخرجها فيما بعد حتى تساوم به على عيش المرء الذي يدركه الموت،فلا ينفعه في ذلك الوقت الناس ولا العزلة، فهو مقيد قابع تحت قبضة القضاء، يقول:

وإذا الحمام أتى فما يكفيكه نـفر الجبـان ولا حِياد الحيّد

ومقيّد عند القضاء كمطلق فيمـا ينوب ومطلق كمقيّـد [2]

كما أنّ الحُر الذي يتمتع بالحياة لابد له من تقييد في يوم ما،خاصة إذا كان العيش في هذه الحياة مثل السهاد فيها،فلابد له من الموت؛لأنّ فيها استراحة من شقاء الدنيا.

فهو يقول:

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ جسم فيها والعيش مثل السهاد [3]

فهنا برع الشاعر بأسلوبه وألفاظه؛حيث جعل حال الموت كحال النوم الذي يريح الجسم من العناء والشقاء الذي أصابه طول النّهار،والحياة بحال اليقظة،فمن هو يقض لا بدّ يدركه النّوم الذي هو دلالة على الموت عند المعري؛فيطبق عليه ويطوى كما تطوى الصحيفة على ما فيها .

وهذا ما فسره بقوله:

لأقضي هّم النفس قبل مجلة كأنّ عظامي الباليات بها خطّ [4]

---

[1]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج2، ص:346.

[2]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1، ص:261.

[3]- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص:198.

[4]- المصدر نفسه: ص302، 303.

والنّعش عنده كسفينة رمت بغرقاها في موج البحر ليأخذه بعيدا عنها،يقول:

وما النعش إلا كسفينة راميا بغرقاه في موج الردى المتراكب[1]

و المعري حين يقر بأنّ الموت رقدة يستريح بها الجسم ؛فهو هنا يشير إلى أنّ الحياة التي سوف يعيشهاالمرء بعد الموت إما جنّة أو نار،فهو متيقن من هذه الحقيقة لذلك تراه في أبيات أخرى يشبه الراحلون عن هذه الدنيا بشمس تغيب وتظهر من جديد يقول:

وبعض الظاعنين كقرن شمس يغيب، فإن أضاء الفجر عادا

ولكنّي الشباب ، إذا تـــولى فجهل أن تروم له ارتـــدادا[2]

ولكنه آثر هذه الحقيقة على نفسه، فشبه نفسه بالشباب الذي إذا فارق صاحبه لا يعود إليه ، فهو هنا قد أشار إلى أنّ الموت الذي يتمناه ليخرج به من الحياة وملذاتها،بل من الموت نفسه ؛لأنه كان يعتبر نفسه دائما ميتا كابتا لأحلامه وملذاته موصدا أبواب الخير، وعليه فالحياة عنده موت مؤكد ولا يمكن أن تجلب له إلا الفناء والاندثار.

وتراه يذهب بعيدا بخياله يسبح به موظفا بعض أفكاره التي ما زادت المعنى إلا وضوحا، واللفظ إلا بهاء، والنفس إلا أثرا على أثر؛ حين جعل لهذا الموت سيفا يضرب به حدّ الرؤوس ليسقطها، يقول:

كائنا للمنون، هارون في البعـ ث لموسى،عونا له ووزيرا[3]

فحدث أن جعل للمنون سيفا،فكان عونا له كما كان هارون عونا لموسى في البعث ووزيرا له؛ لذلك تهجم المنون على الأرواح بسيفها كأنها نمل صغير فترديها أرضا،يقول في هذا الشأن:

كأنّ المنايا جيش ذر عرمرم تخذن إلى الأرواح فيه مسارا[4]

فسيفه الذي يقطع به الرؤوس ويفصلها عن أجسادها،ويشرح بها الجسد تاركا أشلاؤه من وراءه لهو بالتأكيد سيفا قاطعا وهو من أمضى السيوف وهذا ما أخبرنا به المعري بقوله:

---

[1]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1، ص:103.

[2]- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص:116.

[3]- المصدر نفسه :ص:340.

[4]-المصدر نفسه: ص:126.

وسيف المنية أمضى السيوف وما سمعت منه أذن صليلا[1]

لذلك بات الشاعر متأكد من أنّ الحتف أو الموت مصير على كل البشرية لا يمنع منه أحد، يقول:

والناس بين إقامة وتحمـــــل وكأنــما أيامهم أسفـــار

والحتف انصفّ بينهم لم تمتنع منه الرّئال ولا نجا الأغفار[2]

فما يلاحظ هنا أنّ أبا العلاء المعري قد أكثر من التكلم عن الموت الذي يضفي بضلاله ليعم كل أرجاء المعمورة،فلا يترك حي إلا ويرديه ميتا أو قتيلا،وحال بنو البشر كحال مسافر لا يحل له موطن ولا يصح له المكوث في مكان ما،فيلبث متنقلا من مكان إلى آخر حتى يصل إلى مكانه المعهود الذي أراده وهو الموت الذي يبقيه جاثما في قبره بعد ذلك العناء الذي تكبده في تلك الحياة،فبالموت يكون قد رمى نفسه بسهم كما ترمى المطي في الصحراء،يقول:

ورميتُ أعوامي ورائي مثلما رمت المطي مهامه السّفار [3]

ومن خلال البيت يتبيّن أنّ أبا العلاء المعري قد مضى في هذه الحياة غير آبه بها فرماها وراءه بكل رزاياها وأحداثها،في إشارة إلى ورعه وتقواه وزهده في هذه الحياة،خاصة بعدما أدرك أنّ نهاية الحياة معروفة،فأهلها كأهل الممات قد أطالوا البقاء فيها والعذاب ولكن مصيرهم إلى الفناء أمر لا بد منه ، يقول:

أهل الحياة كإخوان الممات فأهــــ ون بالكماة أطالوا السُّمر والعذبا[4]

فمهما طال عمرهم وسهرهم،فإنه سوف يطول عذابهم وهم في ذلك كلّه كليلة عاشوها في هذه الحياة، يقول:

كـــأنّ حيـــاة الفتى ليلـــة يُرجى أخو اللب إسفارها

مضى المرء موسى وأضحت يهود تتلو على الدهر أسفارها[5]

---

[1]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج 2، ص:220.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص:312.

[3]- المصدر نفسه : ص:397.

[4]- المصدر نفسه: ص:84.

[5]- المصدر نفسه: ص:351.

لقد أشار أبو العلاء المعري بهذا النّص الشعري إلى أنّ الحياة مهما طال عهدها فإنها قصيرة، وهنا ضرب مثلا على عهد موسى واليهود،فداءها قديم ولا دواء له غير الموت يقول:

داء الحياة قديم لا دواء له لم يخل بقراط من سقم وأوصاب[1]

والحياة عنده غول بعدما ظنها الإنسان عروس،يقول:

ظن الحياة عروس، خلقها حسن وإنما هي غول خلقها شرس[2]

والحياة عنده لا ينتفع بأولها؛لأنها فترة صبا ولا ينتفع بأواخرها ؛لأنها فترة شيخوخة، يقول:

وكالنار الحياة، فمن رماد أواخرها وأولها دخان[3]

فقد شبه الحياة بنار أول ما يظهر منها الدخان الذي لا نفع فيه ،وآخرها بعد خمودها رماد، وهو أيضا لا نفع فيه،وإنما ينتفع بما هو وسطها بين الدخان والرماد.

إضافة إلى هذه الصور التي أطلعنا عليها المعري عبر نصوصه الشعرية وجدت نصوصا أخرى شبيهة إلى حدّ بعيد بتلك الصور التي رسمها المعري وجسدها في هيئة تناقضات صارخة لمسناه في شعره كالحياة والموت، الليل والنّهار، الشوق والحنين والفراق، وكذا الجسد والروح،هذا الأخير الذي جسده في شعره في هيئة صور مختلفة،يعكس بها عن أنّ النّفس سجينة في قبضة الجسد ،فهي رهينة عنده ، يقول:

فالنفس إن هي أطلقت البنان لعلة كالنقص في أبهامها والخنصر[4]

فقد سجنها الجسد فقطع عنها الأنفاس والاستمتاع بالملذات،فظلت رهينة جدران بيته حبيسة لآلامه وعميه،وهو هنا يشير بهذا البيت إلى العزلة التي يضر بها على نفسه والوحدة الصارمة التي فرضها على نفسه جراء ما لاقى من متاعب في هذا الزمان الذي أشواه بحوادثه وأتعبه بناسه الذين كانوا عنده عنوانا للغي والجبروت،والظلم الحقد و الحسد،والكذب،و الخداع لذلك فرض على نفسه هذا الطوق

---

[1]-أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1 ، ص:107.

[2]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ، ج2 ، ص:876.

[3]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص:47.

[4]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1 ، ص:385.

الذي يحميه من الدنيا وألاعيبها خاصة أنه جد مدرك لحقيقتها التي تتمثل في مفارقتها الأكيدة للروح، يقول:

النّفس عند فراقها جثمانها محزونة لدروس ربع عامر

كحمامة صيدت فثنت جيدها أسفا لتنظر حال وكر دامر[1]

فهي هنا كحمامة اصطيدت ووقعت في الشباك،وهي كمعادل للموت ومفارقة الحياة والنفس كالحصان الجامح والعقل كاللّجام ،فإن أبت اللجام كبحت ، يقول:

والنّفس كالجامح، فليثنها لــبّ أوابي لجمة تكبح[2]

وتارة أخرى هي كالحبل الممدود؛فإن ترك طال وإن حاول كفه ولفه قصر، أوهي كامرأة لم تكن تملك أدوات الزينة فما إن حصلت على قرط طلبت العقد والخلاخل،يقول :

والنفس كالسبب الممدود تجمعه فيستكشف وإن أرسلته طالا

كذات شنف،أرادت بعده خدما ونظم درّ،وكانت قتل معطالا

وقد شربت نميرا فاجتزأت به فلّم حملت من الصهناء أرطالا[3]

والمعري شاعر فيلسوف يقدس النفس والروح أكثر من الجسد الذي لا يقيم له وزنا حتى أنّه شبهه بثوب بال لم يعد ينفع، يقول:

لا تكرموا جسدي ، إذا ما حلّ بي ريب المنـــون فلا فضيلة للجسد

كالبرد كان علـــى اللوابس نافقا حتـى إذا فنيت بشاشته كســـد

أرواحنا ظلمت، فتلك بيوتـــها دُنس خوني من الضغائن والحسد[4]

وهي أيضا كطائر في سجن من يملكه، يقول :

يا نفس يا طائرا في سجن مالكه لتصبحن بحول الله مسروجا[5]

---

[1]- أبو العلاء المعري اللزوميات: ،ج1: ص:386 ،387.

[2]- المصدر نفسه: ص:336.

[3]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج2، ص:210.

[4]- أبو العلاء المعري : اللزوميات،ج1، ص:529.

[5]- المصدر نفسه :ص :196.

ففي هذا البيت ينادي أبو العلاء المعري نفسه،فيقول:(يا طائرا) ورمزية الطائر للنفس مشهورة في بيئات ثقافية عديدة، ثم تراه يكمل كلامه؛حين يجعل الجسد سجنا من خلال كلامه:(في سجن مالكه)،فهو هنا ينادي نفسه كما ينادي طائرا مرفرفا في سماء سجنه الذي هو الجسد ولكنه مسجون بأمره هو فهو مالك الجسد؛ فهو يدرك أنّه محبوس ولا سراح له إلا بأمر مالكه أيضا.

إضافة إلى بعض الصور التشبيهية المتناثرة هنا وهناك أهمها الخمر الذي يشبهه بالسيوف في حدتها ولونها،يقول :

إنّ كؤوس المدام تشبهها السـ يوف والموت في مضاربها
شموسها سمش باطل شرقت فلا يكن فوك من مغاربها
وكل ما أذهب العقـــول وإن خالفها فهو من أقاربـــها
جرّبها عـالم بشيمتـــــها ويذهب اللب في تجاربـها
إن شربت راحها زنـــت وجنت فلتتق اللّه في مشاربـــها[1]

فمن خلال هذه الأبيات يستنتج أنّ المعري عرّج حاكيا عن الخمر واصفا إياه ومدى خطره على الناس إذا شربوه؛فقد شبهه إضافة إلى السيوف في بياضها بشموس أيضا ولكن هذه الشموس باطلة قد تشرق من جهة لتضئ عقل الإنسان وتغّره بأفعالها،إلا أنّها باطلة كبطلان الشمس من جهة الغروب،فيما يذهب العقل ويكون المرء عبدا لشهواته،فيزني ويجني على نفسه الويلات والمر،لذا تحريمها واجب واتقاء الله ضروري على حد قول المعري.

والخيل أيضا أخذ نصيبه في شعر المعري،فأخرج نصوصا شعرية،فوصفه وصفا مبينا ويظهر ذلك في قوله:

صاغ النّهار حجوله ، فكأنما قطعت له الظلماء ثوب الأدهم
مثل العرائس ما انثنت من غارة غـــــلا مخضبة السنابك باللّم[2]

فقد صّور المعري هذا الفرس من خلال بيته بقوائم بيضاء كأنها قطعة مأخوذة من النهار، وسائر جسمه أسود كأنّه اخذ من ظلام الليل،ومضى في تشبيهه لهذا الخيل بالعرائس المخضبة بالدم بعد

---

[1]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1، ص:121.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص:73.

الغارة، وليس الحناء التي تضعها العروس،وهنا تظهر إشارة واضحة على قوة الممدوح وجبروته في ساحة المعركة الذي شبهه بخيل له قوائم بيضاء يقف عليها وهي جسد أسود وهي معادل هنا إلى النور الذي يضئ به في ساحة المعركة والانتصار المحقق من بعد السواد والظلمة الذي يرمز به إلى الألم والحزن والتعب.

والدليل على الانتصار والشهامة هو تلك القوائم المخضبة بدماء العدو رفسها الخيل رفسا في إشارة إلى القوة والإصرار على ركب المجهول والتحدي ومواصلة السير في هذه الدنيا التي امتلأت بالأحزان وغيمت الجو بالسوادفيأتي بذاك النّهار مع بزوغ الخيل بقوائم عربية بيضاء.

والشعر عنده كحسناء تعشق في صباحا ، فإذا كبرت وشابت جفت وهجرت، يقول:

وأردت وِرد الوصل من قمر فصدرت عنه كوارد الآل

وطلبت عندك راحة ، وعلى قدر اعتقادي كان إدلالي[1]

فهو هنا قد شبه الشعر الذي يحلو في جدته وإذا طال عليه الأمد ذهبت بهجته مثله مثل الحسناء تعشق وتخطب في صغرها وما إن تكبر حتى يذهب بريقها فتجفى وتهجر فيتبع قوله بأنه أراد وصال الحبيبة ولكنها بعيدة عنه كما هو بعيد عن القمر،فكان كمن ورد السراب،ليشرب فصدر عنه وابتعد وهو عطشان لم ينتفع بشئ مثله الشعر،فإن لم يتذوق منه في ساعة خروجه لم ينتفع منه فيما بعد.

والحق عنده كسارق متلصص يقتنص الفرص ليتصيد فرائسه في هذه الدنيا ، يقول :

غدا الحق في دار تحرز أهلها وطفت بهم كالسارق المتلصص[2]

فتارة يظهر ويطفو إلى العيان هذا الحق؛ فيكون دليلا على الاستقامة و الهداية والعدل وتارة يختبئ في جحره تاركا الساحة للباطل فيغزوا ويملأ الدنيا بشروره وآلامه،فهو جوهرة متلألئة قد اختبأت في قاع بحر مظلم .

يقول في هذا الصدد:

سألت عن الحقائق وهي سر ويخشاك المخبّــر أن تنمى

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص:176.

[2]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج2، ص:67.

وهنده لو أمنتك على أمـــر مـــن الجـــمال غيّـبه مُكّم
لعمرك ، ما أسر بيوم فطر ولا أضحـى ولا بغـدير حّم
وما زال الزمان بلا ارتيـاب يعد الجـدع للأنـف الأشم
سألت عن الحقائق وهي سر ويخشاك المخبّـر أن تنمي
وكيف يبين للأفهـام معنى لـــه من ربه قدر معمـي
أحثّ الخلق من ذكـر وأنثى على حسن التعبد والتأمي[1]

<< فإثبات الحق عسير المنال والحصول عليه طريقه شائك،كأنه أشبه باللؤلؤ،والمعري واحد من الشعراء العميان الذين يحاولون تشخيص المجردات وبث المعاني فيها >>[2].

والتجارب عنده طير ، والغيّ نجم وللحق وجه،يقول :

إنّ التجارب طير تألف الخـــمرا يصيدها من أفاد اللب والعمرا
كم جزتُ شهرا وكم جرمت من سنة ومـا أراني إلا جـــاهلا غمرا
والغيّ كالنّجم عريانا ، بـــلا ستر وللحقوق وجـــوه ألبست خمرا[3]

فقد سخّر الطيور،والأشجار،والخمائل،والنجوم لرسم صورته التي هدف من ورائها إلى تخليص تجربته؛فوظف بذلك تلك العناصر واستوحاها من الطبيعة لإسداء الحكمة أكثر من إثارة الإعجاب واستخدامها كأداة لتحقيق المعنى المراد،والمعري وجد في بني البشر صورة مخيفة نتيجة تجربته وإحساسه بغدر الخلان والأصحاب وقهر الأحباب ،فصورهم في صورة حيتان ضخمة في بحر من أذى،يقول:

والخلق حيتان لُجّة لعبـــت وفـــي بحار من الأذى سبحوا
لا تحلفن هجومهم ومدحـهم فـــــإنما القوم الكلب نبّـحُ
ولا تهـــــب أسدهم إذا زاروا وقـــل:تداعت ثعالب ضبح[4]

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص:325 ، 326 .

[2]- هادي العلوي: المنتخب من اللزوميات، نقد الدولة والدين والناس، دار المدى للثقافة والنشر، ط1 ،1990، سورية، لبنان، العراق ، الأعمال الكاملة (10) ، ص:176.

[3]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج2 ، ص :667.

[4]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص:367.

ففي الأبيات السابقة لم يلجأ المعري للتشبيه من أجل الزينة أو لعقد مقارنة بليدة؛وإنما ليدل على اشتراك في دلالة معنى هام يريد تقريره على بني البشر،ولكي يعمق الفكرة التي أرادها،ومن ثم يحقق البلاغة التي أرادها من التشبيه.

وبعض الرجال عنده يشبهون القبر الذي يضم أعزّ إنسان ولكن لا يعرف قيمته فلا يرد إليه إحسانا يقول:

بعض الرجال كقبر الميّت ، تمنحه أعزّ شيء ، ولا يعطيك تعويضا

والسّمح في العدم مثل الصخر في ديم يخضر شيئا ، ولا يسطع ترويا[1]

ويقول الشاعر أيضا في أبيات أخرى مشبها الناس بالخيل والدهر بنبات له أشواك، فرأى نفسه كبذرة ضعيفة تصارع ما يحيط بها من أشواك، يقول :

والناس كالخيل ، ما هجن بمعطية في مريها ، كعطايا آل حلاب

دهري قتاد ، وحالي ضالة ضؤلت عما أريد ، ولوني لون لبلاب

فدار خصمك إن حق أنـــار له ولا تنازع ، بتمويه و إحـــلاب[2]

فكشف المعري حاله يعد نقلا للصراع الذي كان يعانيه،فيكون بذلك قد أضفى على الصورة حيوية أكسبتها رونقا زائدا وجمالا أخاذا.

وحينما أراد تبليغ الشباب المستهتر غايته وجد في المصباح علاقة بكلامه؛لكي يقنع سامعيه، يقول:

رأيت الفتى شبّ حتى انتهى وما زال يغنى إلى أن هَمَدْ

كمصباح لـــيل بـــدا يستنير ثـــم تنـــاقص حتى خمـــد[3]

والأماني لصوص عند المعري ، يقول :

وإنّ دنـــــياك هذي ، مثـــــل قائبة وسوف يقطع منها ربها القـــــوبا[4]

فاحذر لصوص الأماني ، فهي سارقة ردّت، عن الدين، قلب المرء منقوبا

---

[1]- أبو العلاء المعري :اللزوميات ،ج2 ، ص:970.

[2]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1 ، ص:180.

[3]- المصدر نفسه:ص:533.

[4]-المصدر نفسه:ص:139.

إذن من خلال ما استضيف من صور تشبيهية اتضح أنّ أبا العلاء المعري قد وظفها توظيفا حسنا مستشهدا بشواهد مأخوذة مما يحيطه ؛فتبين كيف تكلم عن الدنيا وشبهها في غدرها وخياناتها بسراب ليس منه فائدة،ونهارها وليلها كحية مسمومةوالدهر بحوادثه يتصيّد الإنسان كفارس يحمل سيفا من حديد، والزمان بأيامه ولياليه يبث رعبا في أوساط البشر ويطلق سهوم المنون حتى يرديهم صرعى وقتلى والناس فيه على شر، والشر كالنار يتطاير لهيبه على ممر الدهور،والموت فيه حق وواجب يبتلى به أيا كان ولا يستعفى منه لا طائر ولا هام ولا إنسان،وغيرها من الصور التي أنشأها المعري وكانت قائمة على التشبيه،وهذا إنما يدل على قوة الخيال واتساعه لمثل هذه الصور والتشبيهات ، كما يدل على البراعة التامة له وايجادته في هذا الميدان.

علما أنّ التصوير في هذا المجال لم تكن له حدود وإن وظف كله مثلما وجد في ديوانيه لما اتسع المقام للحديث عن صور أخرى؛لذلك تبدى بأن توضح أغلب الصور المكررة وأهمها فقط،أما باقي الصور التي برمجت ولم يسعف الحظ في ذكرها سوف تذكر جميعا في جدول إحصائي يبين رقمها في ديوانيه ، وتكرارها حتى لا يضيع الجهد أو يفهم بنقصان.

2-الصورة الاستعارية : تعتبر الاستعارة فنا من فنون التعبير، ومحسنا كلاميا ينمق به اللفظ ويزيد المعنى وضوحا وتبيانا <<فهي حاملة للفكر>>[1]،حالها كحال التشبيه؛فهما مظهران لنفس الأدلة ألا وهي الصورة؛لذلك عند بعض أهل البلاغة لا يمكن أن نفصل بين التشبيهات عن دراسة الاستعارات.

وإذا قيل صورة في مجال التشبيه أو الاستعارة<< فالحضور المستمر لنفس الموضوع تحت هذا الشكل الاستعاري أو ذاك الشكل التشبيهي لا يمكن إلا أن يكون علامة على ثابت تسلطي،أو علامة على اتجاه أسلوبي جدير بالعناية >> [2].

---

[1]- gf,warren shibles,analiysis if metaphor in the light of .w.m urbans,s theoriers ;p.100-101.

[2]- فرانسوا موروا: البلاغة المدخل لدراسة الصورة البيانية ، أفريقيا الشرق ،www.wadod.org. 1982

وهذا ما يتعرض له في بعض الأحيان،مما يضطر إلى أن يغُلب الموضوع الرئيسي الذي يعدّ محورا للكلام ويفصل فيه حول ما إذا كانت الصورة عبارة عن تشبيه أو استعارة أو كناية أو مجاز خاصة وأنّ الكثير من النصوص الشعرية تأتي فيها ممتزجة في صورة واحدة .

ولكن هذا لا يعني أنه لا يغلّب كفة على كفة،ويجعل من كل الصور في صورة متكاملة ،وهذا ما وضح بالفعل؛لذلك تراءى- قبل الدخول في هذا النّوع-التعريج ولو قليلا إلى مفهوم الصورة الاستعارية،وأهم النقاط التي تساعد فيما بعد على معرفة خبايا الصورة ونوعها؛ولذلك من يتتبعها يلاحظ أنّ "الجاحظ" هو من الأوائل الذين التفتوا إليها ، فعّرفها وحدد مفهومها ؛ فهي عنده :<< تسمية الشيء باسم غيره إذا أقام مقامه>> [1].

إضافة إلى ما جاء به "فخر الرازي "رحمه الله حين قال :<< هي جعلتك الشيء للشيء للمبالغة في التشبيه >>[2]،وإذا كانت الاستعارة هي :<< تشبيه حذف أحد طرفيه وأداته ووجه الشبه ؛ فهي إذن من المجاز اللغوي >>[3]، وقد أخبرنا "القاضي الجرجاني " منذ القديم ، بأنه يعّول عليها :<< في التوسع والتصرف وتزيين اللفظ وتحسين النظم والنثر>>[4].

أما النقاد اليونان ؛ فقد اعتبروا :<< أنّ امتلاك ناصية الاستعارة كان ولا يزال من أعظم الأشياء ؛ لأنها الشيء الوحيد الذي لا يلقن وهي أيضا سمة العبقرية الأصيلة>>[5].

فإذن الاستعارة ذات أهمية كبيرة تساعد في إيصال المعنى،وهي تعنى بنقل دلالة الألفاظ إلى غير ما وضعت له في الأصل عن طريق تجريد المحسوسات،وتشخيص المجردات في كائنات حية تحّس وتتحرك،وهي كلها توضح وتفصح عن المعنى المنشود وتصل إلى أعماق السّامع وتؤثر فيه ، وهذا ما

---

[1]- علي جميل سلوم وحسن نور الدين : الدليل إلى البلاغة وعروض الخليل ، ص:139.

[2]- صفي الدين الحلي: شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع ، تحقيق نسيب نشاوي ، دار صادر ، ط1 ، 1982 ، بيروت، ص :126.

[3]- مصطفى أمين وعلي الجارم : البلاغة الواضحة ، دار المعارف ، ط16 ،(د، ت) ، ص :77.

[4]-عبد القاهر الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق وشرح أبو الفضل إبراهيم علي البيجاوي،منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ،(د، ط ، د، ت) ، بيروت ، ص :428.

[5]- محمد مصطفى أبو الشوارب : جماليات النص الشعري ، قراءة في أمالي القالي ،(د، ط، د، ت) ، ص :122.

يفسره قول " أبو هلال العسكري " مبينا غرضها:<< إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إلية بالقليل من اللفظ،أو تحسن المعرض الذي يبرز فيه >>(1).

وتلخص تعريفات البلاغيين جميعا في قول "د عتيق" الذي أقرّ بأن الاستعارة هي:<< ضرب من المجاز اللغوي علاقته المشابهة دائما بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي >>(2).

والغاية من الاستعارة،هي المبالغة في التشبيه، كقولهم :<< إذا أصبحت بيد الشمال زمانها>>(3).

فقد أثبت الشاعر اليد للشمال، والغرض من ذلك المبالغة في تشبيهه بالقادر فأصل الاستعارة هو تشبيه أحد طرفيه ، إضافة إلى وجه شبهه وآداته والمشبه هو المستعار له أما المشبه به مستعار منه كقول الله تعالى﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلىالنّور ﴾(4).

ففي هذا المثال<< المستعار له هو الضلال والهدى والمستعار منه هو معنى الظلام والنور ، ولفظ الظلمات والنور يسمى مستعارا >>(5).

و للاستعارة أنواع كثيرة،وهذا ما ذكر في الفصل التمهيدي بالتفصيل مع ذكر الأمثلة والشواهد ، وما يهم الآن ليست هذه التقسيمات و الأنواع التي اصطلح عليها أهل اللغة والبلاغة ؛وإنما تحقيق المعنى من وراء الصورة الاستعارية خاصة ما يتعلق بالطابع الفلسفي التأملي للشاعر وهذا ما يصبى إليه؛ فاللفظ لا يفسر على حقيقته،وإنما يحمل على معنى أراده الشاعر،ومن خلال الدراسة التي أقيمت على ديواني المعري سقط الزند و اللزوميات بجزئيه، جُود أنّ "أبو العلاء المعري" قد استعمل أيضا هذا النوع بكثرة مثله مثل التشبيه،إضافة إلى وجوده في خضم فصول أخرى؛ لذلك تمت المحاولة على تبيين ما ليس له علاقة بتلك الفصول والمباحث التي يكون هذا النوع جزءا منه.

---

(1)- أبو هلال العسكري: الصناعتين الكتابة والشعر، ص:295.

(2)- علي جميل سلوم وحسن نور الدين : الدليل إلى البلاغة وعروض الخليل ، ص :139.

(3)- المرجع نفسه : ص :139.

(4)- سورة إبراهيم/الآية1.

(5)- ناصيف وسلطان محمد:دروس البلاغة ، عني به أحمد السنوسي أحمد ،دار ابن حزم ،ط1 ،2012، لبنان، بيروت ص:94.

وعليه فاستعارات المعري كثيرة وتصب كلها –تقريبا– حول الزمان، والليل والدهر، والدنيا، والمنايا، والأيام، وغيرها من المواضيع التي تشكل صورا استعارية.

لننظر إليه وهو يشخص الزمان،يقول :

وكان في كف الزمان بنوره قطرا تعم بنشره الأقطار[1]

ويقول أيضا :

وما كتبته يـــــــد الزمان فعـــن يده مرة يمتحي[2]

فقد صور المعري هذا الزمان وشخصه في هيئة إنسان له كف يملأ الأقطار بنوره ،ويكتب بيده القضاء و الأقدار، التي مهما طالت في هذا الزمن،سيأتي يوم وتمحى فيه ما كتبته تلك اليد العجيبة.

كما جعل له جيب كجيب الإنسان الذي يملأه بالنقود ؛غير أنّ جيب الزمان مليء بالآفات والشرور ، يقول :

جيب الزمان على الآفات مزرور ما فيه الا شقي الجدّ مضرور

والخير والشر ممزوجان ما افترقا فكل شهد عليه الصاب مذرور[3]

يبدو أنّ الشاعر هنا ساخط على زمانه مستاء من حياته وربما لا يستطيع الأخذ بظاهر الأبيات بل نمدّ أعيننا إلى ما وراء حروفه لنتمعن فيه؛فحروفه تمثل مضمونا شعوريا نفسيا قد أقلق المعري؛لأنّ آمال نفسه كثيرة ولكنه لم يستطع تحقيقها،فقد وقف هذا الزمان برزاياه وآفاته التي يبثها فيه فأثقل كاهله مما جعله يحس بوزر تلك الهموم وبيته هذا أوحى به إلينا على عمق معاناته على ذلك النحو الذي شعر به وأشعرنا إياه.

وقد تمثله الشاعر أعجميا ليس من العرب ولا يتقن لغتهم .

يقول :

ووجدت الزمان أعجم فظاج وجبار في حكمها العجماء[4]

---

[1]– أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1، ص:305.

[2]– المصدر نفسه : ص:201.

[3]– أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج2 ، ص:576.

[4]– أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1 ، ص:46.

لكن وبالرغم من العجمة الموجودة في هذا الزمان الذي منعه من الفهم والتيسير في التعامل مع بنو البشر، إلا أنه صوره في صورة أخرى،فهو بمثابة أحسن واعظ يعظ الناس ويرشدهم بحكمه ويعلمهم بحوادثه وأيامه وتجارب الإنسان فيه،يقول :

وعظ الزمان فما فهمت عظاية وكأنه في صمته يتكلم[1]

فالزمان شخص واعظ سواء كان خطيبا ومحدثا بارعا أو كان صامتا، فهو يريد إيصال المعنى من كل كلامه وإشاراته وتلميحاته وهذا ما أكده في قوله:

فإن يكن الزمان يريد معنى فإنك ذلك المعنى المراد[2]

وإنه لمن البراعة والتعجب أن ترى الزمان يمتطي خيولا سماها بخيول الزمان، يقول :

أغارت عليهم خيول الزمان كـأنّ خيولهم لم تُغـــر

وقد كـــــان يركبها طفلهم حليف الرّضاع ولم يتغيّ ــر

لقد غرني أمل في الحيـــاة كـأني بما يفعل الدهر غِر[3]

فخيول الزمان الذي مدحه في إشارة إلى نفسه تبلغ من القوة والجبروت والجلال والعظم ما يؤهلها لأن تخوض زمام الحرب،فتجدها تغور فلفظة الإغارة التي استعملها دليل على المباغتة والاستمرارية والتأهب والدخول في مساحة المعركة،لتهزم خيولا أخرى أقل شأنا منها والدليل على ذلك أنّ قائد الخيل الخصم كان يركبه (طفلهم) وهو معادل هنا للتحقير والتقليل من الشأن للعدو.

كل هذا التصوير الذي أجاد فيه أبو العلاء المعري لخيله التي تدخل الوغى تقاتل وتبرز مهارتها ،ما هو إلا محاولة منه للوصول بهذه الصور إلى مبتغاه الذي يريد أن يوصله إلى الأذهان وهو أمله وطموحه في امتطاء الأعالي هو الذي جعله يتصور الزمان على ذلك الحال يمتطي فرسا قوية يقاتل ويدافع بها حتى يصل إلى ما كان يصبوا إليه.

ولكن هيهات أن يصل المعري إلى مبتغاه في هذا الزمن الفاسد ؛ فهو يقر بذلك في قوله :

فسد الزمان فلا رشاد ناجم بين الأنام ولا ضلال منجـــم

---

[1]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج2 ، ص:716.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص:41.

[3]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :417.

أسرج وألجم للفرار فكلهم فيما يسودك مسْرج أو ملْجـم

ضحكوا إليك وقد أتيت بباطل ومـتى صدقت فهم غضاب [1]

فالمعري من خلال صوره المعروضة تارة يجعل الزمان كشخص يتولى الخطبة،فيبث في الناس هداية ورشدا ويعلمهم بخباياه،وتارة أخرى نراه يصوره في أبشع صوره؛فهو كإنسان فاسد لا يصلح لشيء لا رشاد فيه ولا حكم والناس فيه في ضلال كبير.

فهذا التنوع في الأسلوب وتصوير الزمان بهيئات مختلفة وصور متنوعة لا ينم إلا على الإبداع الكبير للشاعر والمخيلة الواسعة له التي تزن كل هذه الصور بألفاظها ومعانيها وكذا تظهر قدرته العجيبة في التركيب والتشبيه والتحليل للوصول إلى المعنى المراد الوصول إليه.

ولكن مهما بلغ من تناقض لهذا الزمان إلا أنّ المعري يؤمن بحقيقة قد أكدها كثيرا في أشعاره وهي حقيقة الموت ، لذلك جعل الزمان يسير بالإنسان إلى القبر، يقول :

سار الزمان بهم إلى أجداثهم وكذا الزمان بأهله سيّار

ما للفتى عقرت حجاه ومالــه حمراء صافية فقيل عقار[2]

مياُ تلمس من خلال أبياته أنّ المعري جعل الزمان يرافق الموت إلى قبر الإنسان فهو يسير به إليه؛حتى يريحه من عناء الدنيا وشقاءها،وهذا ما جعل أبو العلاء المعري يصبوا إلى الحمام ويتمنى مجيئه بفارغ الصبر.

يقول :

أيفكني هذا الحمام تفضلا فالعيش أوثقني وشدّ رباطا[3]

فقد صّور المعري الموت كمْقض وهذا ما نستشفه من لفظة (أيفكني)؛ فهو يستفهم حول مجئ الحِمام لينشله من ظلمة الدنيا وتعبها وتعاسة العيش الذي أوثقه برباط متين.

كما يتلُمس صورا إستعارية لا تبتعد كثيرا عن إطار الزمان بأحداثه ومصائبه لينقلنا إلى الحديث عن الّدهر الذي أّرقه هو أيضا بسننه وأيامه ولياليه يقول عنه :

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج2، ص :287.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج1، ص: 315.

[3]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ، ج2، ص: 76.

شرور الدّهر أكثر من بنيه فقبل سطتْ على أمم وبعد[1]

فلم يكتف الشاعر بتصوير حوادث الزمان وخطوب الدنيا في الكثير من الصور التي مرت علينا، بل راح يعددها في الدهر وشروره،فآلامه التي سببها له هذا الأخير قد تفوق ما فعلت به الدنيا والزمان بحوادثه،لذلك عمد إلى التصوير من جديد للدّهر وزاد عليه حتى جعله في هيئة سارق يسطو على الأمم على ممر العصور،فيسرق آمالهم وطموحاتهم عن طريق ما يفعله بحوادثه ، يقول :

ويصمى الفتى سهم من الدهر صائب وإن صرفت عنه سهام الزوالج[2]

ويقول :

يـــؤدبك الدّهر بالحادثـــات إذا كان شيخـــاك ما أدبا[3]

فالقوة في التعبير، والجودة في السبك ، وحسن التركيب، لتلك الألفاظ واضحة من خلال هاتين البيتين؛ فحدث أن جعل الدّهر يطلق سهاما كسهام الصياد يستعملها الأعادي ويؤدبه بحوادثه.

ولكن ما من حيلة يستعملها المعري ويوصى بها أمام تسلط الدهر إلا الصبر عنه يقول :

وإن هاجك الدهر فاصبر له وعش ذا وقار كأن لم تهج

فكم جمرة خمدت فانقضت وكـــان لها منذ حين وهـج[4]

فهنا يوصي البشر بالتحلي بالحكمة والصبر على المر كأنّه لم يكن ، وأكد كلامه في بيته الثاني بالجمرة التي هدأت وخمدت نارها بعد أن كانت في وقتها ملتهبة لذلك على الإنسان الصبر والتصبر والتحكم حتى يستطيع العيش بسلام خاصة وأنّ الدهر نهاية معروفة هو الآخر فقد يوصلك إلى الموت يعدك بإنجازات كثيرة ولا يحققها كما لن يطيل عنك بالرد في أحيان أخرى، يقول المعري:

سرى الموت في الظلماء والقوم في الكرى وقام على ساق ونحن قعود

وتـــــلك لعمر الله أصعب خطة كـــأنّ حدوري في التراب صعود

و إنّ حيـــاتي للمـــــنايا سحابـة وإنّ كـــلامي للحـــــمام رعـــود

---

[1]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ، ج1، ص: 226.

[2]- المصدر نفسه : ص: 171.

[3]- المصدر نفسه: ص:99.

[4]- المصدر نفسه: ص: 179.

ينــجز هذا الدهر ما كان موعدا و تمطل منه بالرجـــاء وعـــود[1]

فقد رهن حياته للموت فجعل منه سحابة ماطرة تنفس بها عن ضيق عيشه والكدر الذي ألم به،وللسحابة الماطرة تسحب معها الرعود وهي كلها صور يؤكد بها عن الموت والنهاية المؤلمة للكائنات ، وهذا ما أكده بقوله أيضا في موقع آخر من ديوانه .

يقول :

وكم قيّد اللّهر من دالــف وقد كان كالسابق الجائل

جميع الذي نحن فيه النقاق وتلحق بالذاهب الزائـــل

ولو لم يكن حولك العاذلون بكيت على المنزل الحائل [2]

فهو يتمنى أن يبكي على الراحلين قبله ولكن مدرك من أن مصيره كغيره ممن سبقوه ،فهو معهم يتساوى في المصير.

إلا أنّ المعري ليس كغيره ممن لا يرحب بفكرة الموت بل نراه دائم التطلع إليها وكأنّها حلم يريد أن يطوله وآمال يجب أن يحققها ؛لأنها خلاص له من كل الهموم والمآسي خاصة أنه كان من بين البشر الذين عانوا من مّر العيش حتى بدا له وكأنه حرب، يقول :

والعيش حرب لم يضع أوزارها إلا الحمام وكلنا أوزار[3]

فهنا يشخص الشاعر العيش ويجعله في هيئة شخص يحمل معدات الحرب يدخل بها ميدان المعركة ليحارب،والحِمام هو من خطّط لهذه الحرب؛لذا النهاية من وراءها معروفة ؛وهو الموت والفناء المؤكد ، كم أنّ شجرته مليئة بالرزايا ، يقول :

شجر العيش معدن للرزايا أودت الطير فيه بالتّوكير[4]

---

[1]- المصدر السابق :ص:98.

[2]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج2 ، ص:258.

[3]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1 ، ص:312.

[4]- المصدر نفسه : ص:406.

ولم يكتف بهذا التصوير الذي نمّق به ألفاظه وزادها وضوحا في المعنى،فذهب إلى أبعد من ذلك؛ حين جعل الزمان في صورة مخاطب حِنقْ ينطق بصروفه ويخطب في الناس،ليرشدهم إلى الحلول وكذا يصمت في بعض الأحيان،وفي هذا يقول:

لو نطق الدهر في تصرفـــه لعـدنا كلنا من التفـث[1]

ويقول :

والدهر يخطب أهل اللب مذ عقلوا ما خاف عيا ولا أزرى به العصر[2]

ويقول في نفس السياق:

الدهر يصمت وهو أبلغ ناطق مـــن موجز ندس ومــن ثرثار[3]

فكل هذه الأبيات التي ساقها أبو العلاء المعري تصبّ في موضوع واحد إلا وهو قدرة هذا الدهر وقوته وبلاغته التي يوصلها إلى الناس عن طريق حوادثه وأيامه التي يلقى بها عليهم فيتعظ البشر من أفعاله ويستفيد من التجارب التي قدمها إليهم على ممر العصور.

فإضافة إلى قدرته في النطق والصمت،يصوره المعري في صورة شاعر ينظم قصائد من ذهب ولكنها سرعان ما تزول وتندثر مثلما يزول الإنسان ويفنى بعد حياته .

يقول :

كم ينظم الدهر من عقد وينثره وليس عقد ثريـــاه بمنثـــر

وطال وقت على ماض فغادره بـــــلا جـــهار و لا أثـــر

نشكو نفوسا إلينا غير محسنة ما إن تحنّ على أقدامنا العثر[4]

فالدهر له القدرة على نظم الدّرر الغالية والعقد النفيسة التي تحكي عن أيام ولياليي وأحداث البشر،وحتى إن كان فيها ما يشوهها إلا أنّ الشاعر جعل للدهر القدرة العجيبة على تبرئة ذمته من كل ما يشوبه،وهذا ما يقوله :

---

[1]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1 ، ص:168.

[2]- المصدر نفسه: ص:289.

[3]- المصدر نفسه: ص : 398.

[4]- المصدر نفسه: ص:364.

لو تراءى لناظر بان في وجهه الكلف وهــو بــرئ إذا حلـــف[1]

وهذا ما أكدته الليالي بقولها :

إنّ الليالي قالت وهي صامتـة ما أبلغ الّدهر لا من يدعى اللّسنا

سبحان خالق هذي الشهب دائبة ســارت وأسرت فلا أيْنا ولـا وسنا

والشمس تغمر أهل الأرض مصلحة ربــتْ جسوما وفيها للعيون سنا[2]

فهنا المعري يشرع في تصوير الليالي مشخصا إياها في هيئة شخص عاقل راشد واعي لما يقوله فزاد في تصوير بلاغتها حين قّولها وهي صامتة،فحكمت على قدرة وبلاغة الدهر في إيصال الموعظات إلى الناس وإرشادهم و هدايتهم،كما جعل الليل يبكي كطفل صغير متأسفا على حاله في هذه الدنيا، يقول :

وقد أغتدي والليل يبكي ، تأسفا على نفسه والنّجم في الغرب مائل[3]

فهذه الصورة الاستعارية التي كّونها في خضم حديثه عن الليل،فربطه ببكاء طفل صغير يصرخ من شدة الهول، وذلك أن الليل لما شرف على الزوال والنهار قد أخذ في الطلوع، شبهه بطفل صغير يبكي وهو مشرف على حتفه،فهو يبكي على نفسه؛لأنّ الليل يشبَّه أثناء إقباله بالشاب المقتبل الشباب وعند انقضائه بالشيخ المشرف على الهلاك وهي انعكاس على صورة المعري،ذلك الإنسان الضرير الذي طال أنينه في وسط ليل مظلم ، فأسلوبه الذي اتبعه في نظم هذا البيت وجودة سبكه جعلت من الصورة أبلغ وأجمل؛حيث كل من يقرأه يتأمل في الطريقة التي كتب بها بيته هذا الذي نقل عن طريقه معاناته مع الليل التي تعكس معاناته النفسية من جراء الحوادث، كما صوره في هيئة إنسان يتعجب من السرور والفرح وهو مهموم ، يقول :

عجب الليل من سرورك فيه وأتى العين ثاكلا في سِلاب[4]

كما وصف الليل بطوله وامتداده وتثاقله،فخاف أن ينهزم فيعّير بذلك ، يقول :

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج2 ، ص :122.

[2]- المصدر نفسه : ص :360.

[3]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 108.

[4]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1 ، ص: 122.

وليل خاف قول الناس لما تولى سار منهزما ، فـــعادا
دجا فتلهب المريخ فيـــه فألبس جمرة الشمس الرمـادا
كأنّك من كــواكبه سهيل إذا طلــع اعتزالا وانفــرادا[1]

فمن شدة خوفه من الانهزام عاد مسرعا مخافة أن يعيّره الناس، وهي صورة حقا رائعة برع فيها الشاعر بألفاظ جميلة ومعان براقة يهدف بها إلى إيصال ما كان يريد من تصويره لليل بطوله وتثاقله ، فكأنه المعري في عتمة الليل المظلم متواجد بكل ثقله في هذه الحياة المتعبة أرقته وأثقلت كاهله.

وتصويره لليل خائف من الانهزام،فيه إشارة إلى طلوع الفجر الذي يرمز به الشاعر إلى الآمال التي كانت تحدوه وتغريه،ولكنه عاد واستكان حين تأكد من أنّ الليل بسواده لن يزول ولن يتلاشى وسواد الليل وظلمته هي معادل للحوادث والآفات والآلام التي لم تفارقه قط ،وزاد على هذه الصور بصورة أخرى رسم فيها صورة لليل ، وهو يحارب من أجل تلك الآمال التي يهدف بها إلى الوصول إليها ، يقول :

كأنّ الليـــل حاربها ففيـــه هلال مثل ما انعطفه السنان
ومن أم النّجوم عليــه درع يحاذر أن يمزقها الطّــعان
وقد بسطت إلى الغرب الثريا يــدا غلقت بأنملها الّرهان
كأنّ يـــداها سّرقتك شيئــا و مقطوع على السرق البنـان[2]

فقد وظف صورا لها من الغرابة والطرافة ما يثير في نفس المتلقي من تعجب،إذ صّور الليل في هيئة فارس يحارب،فكأنه إنسان وخشي خيل الممدوح، فأعدّ العدّة لمحاربتها فأشرع سنانا من هلال ، ولبس درعا من النّجوم،كما صور الثريا بكف مبتورة لأنها سرقت شيء ما عوقبت عليه.

فصورة الليل وهو يحارب تعادله وهو يحارب من أجل الوصول إلى أحلامه،أما السيف الذي يحمله ذلك الفارس عادة ويدخل به دائرة الوغى هو قد أخذ نصيبه من شعر أبي العلاء المعري؛حيث وصف حالته في البر والبحر معا وصوره في هيئة محموم قد حُمّ من شدة الطعان واليأس،يقول :

من كل أبيض مهتز ذوائبه يمسي ويصبح فيه الموت مسؤوتا

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :48.

[2]- المصدر نفسه: ص :52.

ترى وجوه المنايا في جوانبها يـخلـن أوجـه جِنـــــان عفاريا
بـر وبحر مبيد لا تحس بـه ضبّ العِـــرار ولا ظبيا ولا حـوتا
وحفّرتْ فيه ركبـــان الردى فُقرا حـــفر ابن عاد لايـــراد هراميتا
كأنّهـــن إذا عرين في رهـــج يُعرين بالورد إرعـــادا وتصويتـا[1]

ما يلاحظ هنا خلال هذه الصورة أنّ المعري قد عمد إلى توظيف صورا كثيرة في هذه الأبيات منها التشبيه؛حين شبه السيف مثل البر في سرابه وخلوه من البلل وصّوره مثل البحر خضرة وصفاء واستعمل الطباقات في قوله (يصبح ويمسي) كما أنّ هذه الأبيات فيها صورا مستعارة للسيف حين جعله يخاف ومن شدة خوفه اهتز كالمحموم .

وما نّوه إليه هو أنه تمت مصادفة الكثير من الصور من هذا النوع التي تمتزج فيها جل الصور البيانية والبديعية وحتى صور الحواس.

ولكن الميل دائما يكون إلى تغليب الكفة التي بها تقام هذه النصوص عليها،فتظهر حينا استعارية،فيتم بذلك توظيفها في مجالها وحينا آخر تشبيهية وكنائية وغيرها، فالتعارض بين الصور والتداخل موجود،وهذا لا يمنع من تقسيم هذه الصور وتصنيفها بحسب الهدف المنشود،لذلك جاءت أبيات المعري الأخيرة في مجال الصورة الاستعارية وهو تصوير تعجبي أتى به الشاعر ليدهش به السامع ويزيد في توضيح معناه ، و الأيام أكسبها حركة ، فجعله كوحش يتحرك ليلتهم البشر، يقول:

وتأكلنا أيامنا فكأنما تمر بنا الساعات وهي أسود[2]

وتارة أخرى يصورها في هيئة فارس باسل متمرس ، يسدد على الرغم من غفلته سهامه فيصيب بها الهدف المنشود.

يقول :

وما زالت الأيام وهي غوافل تسدد سهما للمنية صائبا[3]

---

[1]- المصدر السابق:ص:23 ،24.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص:210.

[3]- المصدر نفسه : ص: 128.

إذن ما يستشف هو أنّ أبا العلاء المعري قد عول على هذا النوع من التصوير إلا وهي ـ الاستعارة ـ للتعبير بها عما يختلج في نفسه من آلام وأحزان،فيستجيب بها لطبيعة شخصيته،لأنّه شخص يميل إلى الاستغراق في حالته النفسية،ووصفها وتشخيصها كما ينبغي حتى تتراءى للناس مثلما يريد؛فالاستعارة هي أقدر على استيعاب حالته النفسية والتعبير عنها بكلام مختصر ومفهوم لذلك حازت على نصيب من شعره.

3- الكنايـــة:

تعتبر الكناية كغيرها من الصور التابعة لعلم البيان؛فهي أسلوب من أساليبه التي لا يقوى الوصول إليها ولا استعمالها إلا كل بليغ عالم بخباياها متمرس عليها،<< وميزة الكناية أنها تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها والقضية في طيها وبرهانها>>[1].

وقد قسموها إلى اعتبارات ذاكرين أنواعا عدة لها منها:<< التلويح،و الإشارة والرمز، والتعريض،والتلطيف ، فهي تقوم على تنوع وتعدد الوساط بين حدّي الكناية >>[2].

فكل هذه الأنواع لها دلالة واحدة، وهي تحقيق البلاغة من الكلام، وهذا ما أقره "الجرجاني" بقوله : << لقد أجمع الجميع على أنّ الكناية أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح >>[3].

وهنا تذكر جملة مركزة لعبد القاهر الجرجاني الذي كان صاحب الفضل في فهم الصورة الكنائية،وعنه أخذ البلاغيون شواهده المتبلورة ؛حيث قال :<< أولا ترى أنّك إذا قلت :هو كثير رماد القدر، أو قلتَ: طويل النّجاد، أو قلتَ في المرأة،نئوم الضحى فإنّك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ،ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره ثم يعقل السامع من ذلك المعنى ـ على سبيل الاستدلال ـ معنى ثانيا هو غرضك كمعرفتك من كثير رماد القدر أنّه مضياف

---

[1]- علي جميل سلوم وحسن نور الدين : الدليل إلى البلاغة وعلم الخليل ، ص:167.

[2]- بلقاسم حمام : الكناية هروب من اللغة ، هروب من الذات ، هروب من الآخر ، مجلة الأثر ،ع5 ، مارس 2006 ، جامعة قاصدي مرباح ، ورقلة ، ص :76.

[3]- علي جميل سلوم وحسن نور الدين : الدليل إلى البلاغة وعلم الخليل ، ص:168.

ومن طويل النّجاد أنّه طويل القامة ومن نئوم الضحى في المرأة،أنّها مترفة مخدومة لها ما يكفيها أمرها>>[1].

ومنه يستخلص القول،بأنّ الكناية:<<هي فن من الفنون الجميلة التي تمس حياة النّاس وأذواقهم وتطورهم الثقافي والاجتماعي،وهي تحتاج إلى حس لغوي مرهف،ذكي يختار المعنى ثم يخفيه مشيرا إليه بأحد المعاني المنبثقة منه، المترتبة عليه،اللازمة له لزوما منطقيا،أو عرفيا،أو ابتكاريا،من صنع الفنان نفسه >>[2].

وعلى هذا الأساس و بالنّظر إلى ديواني المعري تم إحصاء جميع كناياته التي وظفها وتعقبت بالدّراسة والتحليل،دون التدقيق في الأنواع والتقسيمات مع التركيز على الأفكاروالتّأملات الفلسفية التي تستقى من كلام أبي العلاء المعري،وهذا هو المراد.

فكما التفت الشاعر إلى التشبيه و الاستعارة،التفت أيضا إلى الصورة الكنائية ولكنها قليلة عنده إذا ما قورنت بالنّوعين السابقين،وقد ظهرت كناياته عادة عن الدنيا والخمر والسيوف والمشيب وساحة الحرب،وعن الموت والليل والنهار والقيامة والظلام والريح وغيرها من الكنايات التي لمست في نصوص المعري الشعرية.

وأوّل صورة كنائية تظهر في شعر المعري من خلال ديوانيه سقط الزند و اللزوميات بجزئيه،هي صورة الدنيا؛فهو لم يكتف بتشبيهها بالسراب وبالغدر وبالكلاب؛وإنّما راح يكني عليها بألفاظ وأسماء صارت معروفة إذا ما وجدت في الديوان اقتبست معانيها من دلالة الدنيا وأفعالها وشرورها؛ فحدث أن سماها بأم دفر ، يقول :

ولم أر إلا أمّ دفرٍ ضعيفة تحبّ على غدر قبيح وتفرك[3]

ويقول في ديوانه سقط الزند :

على أمّ دفر عفينة اللّه لأجدر أنثى أن تخون وأن تخني[4]

---

[1]- فايز الداية : جماليات الأسلوب ، الصورة الفنية في الأدب العربي ، ص :141 ،142.

[2]- منير سلطان: الصورة الفنية في شعر المتنبي ، الكناية والتعريض ، منشأة المعارف ، ط 2002، الإسكندرية ، ص :101 .

[3]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج2 ، ص :152.

[4]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :152.

ويقول أيضا :

تخوّفنـــا من أّم دفر خديـعة ومكرا فلم تـذر اللّموع ولم تُذر

عدمناك دنيانا على السّخط والرضا فقد شفّنا زرع تلّون من بـــذرِ

وإنّا لعـذريون فيك مـن الهـوى ولسنـا بعذريين فيك من الغدر[1]

ويقول مواصلا تصويره للدّنيا مكنيا إيّاها بأم دفر :

إذا خشيتْ أّم دفر على ابن منية فيا أّم دفر قد أمنت على دفر[2]

ويقول في موقع آخر من الديوان :

نصحتكم أهينوا أّم دفـر فما يبقـى لكم منها نصاح[3]

ويقول :

عرفتُ من أّم دفـر عجبا دلّتْ على اللؤم وهي العنف بالخدم[4]

ما يلاحظ أنّ كل هذه الصور تصب في منحى واحد؛حيث أراد أبو العلاء المعري تصوير الدنيا في أسوء حالاتها والتعبير عنها وعما يحّسه اتجاهها هذه الصور الكنائية المكررة في ديوانيه سقط الزند و اللزوميات بجزئيه،فلم يكتف بالتشبيهات والاستعارات؛فحسب بل راح يستخدم الكناية في صوره لإثبات المعنى المراد الوصول إليه وتوضيحه.

إذ تعدّ الكناية ملمحا من ملامح الإشارة يعتمده المبدع عادة للتعبير عما يريده بشكل غير مباشر عندما لا يريد الإفصاح عن معنى قبيح أو موقف مؤلم جرى له في حياته وتقل وظيفتها عن وظيفة الاستعارة والتشبيه؛لأنّ قدرتها على الإيحاء أدنى وأقل لذا لم يعتمد الشاعر عليها كثيرا.

ومع ذلك يستخدم الكناية في أبياته السابقة للتعبير عما يجول في نفسه من مشاعر وخواطر دون الإفصاح عنها بشكل مباشر مثلما لوحظ سابقا؛ حينما كنى أبو العلاء المعري عن الدّنيا بأّم دفرٍ

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات، ج1 ، ص :354.

[2]- المصدر نفسه : ص :356.

[3]- المصدر نفسه: ص :192.

[4]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج2، ص :318.

للؤمها وعنفها وغدرها وخيانتها للبشر،فكل تلك الأبيات ساقها المعري لتوضيح حقيقة الدنيا عند البشر حتى لا يتبعوها مثلما فعلوا فيغرقوا في بحر من الظلمات.

وجعل للفظة "ابن اليتيمة "إشارة عن الدّنيا أيضا يقول :

ومذ قال إنّ ابن اللئيمة شاعر ذوو الجهل مات الشعر والشعراء[1]

فهو هنا يشير إلى الدّنيا الذي ذهب بريقها وعزّها ،كما نراه يكني عليها في مواضع أخرى بأم الوليد يقول :

وجّربتها أم الوليد لطامع وييئس من أّم الوليد المجّرب[2]

فقد جربها أبو العلاء المعري ولم يلقى قيها غير الإساءة والشر و الآلام؛ لذلك هو جد متأكد من كل الحقائق التي أقّر بها في أشعاره عنها ، ففيها اللؤم والغدر والخيانة حتى لأولادها التي أنجبتهم ، يقول :

وأم دفر لعمري شّر والـــدةٍ وبنتها أم ليلى شر مولودة

فاجلد أخاك عليها إن ألّم بها فإنّها أخذت واللّب مجلودة[3]

فهي شر والدة لا ترحم حتى أولادها تغدر بهم وتخونهم كما تخون البشر عموما حتى كأنّها أنجبت بنتا سمتها أّم ليلىفقد كنى بها على الخمر الذي سلب العقول وعقوبته الجلد إذا ألمّ بها .

فهنا المعري قد نجح في تصوير الدنيا بأم ولكنها ليست مثالية بل هي أما شريرة لم تنجب إلا الشر وأعظمه تمثّل عند المعري في احتساء الخمر، لذلك يقول :

فإن هلكتْ خروسك أم ليلى فما أنا من صحابك واللّمات[4]

ويقول أيضا:

ولا تدْن للصهباء، بنتا لأبيض ولا تقرب الحمراء من ولد الزنج[5]

---

[1]- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص :11.

[2]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ، ج1، ص :66.

[3]- المصدر نفسه : ص: 239.

[4]- المصدر نفسه: ص :158.

[5]- المصدر نفسه : ص: 178.

فقد لمح أبو العلاء المعري عن الخمرة من خلال البيتين السابقين وذلك من خلال قوله (بنتا لأبيض) التي يشير بها إلى الخمرة المعتصرة من العنب الأبيض، وقوله (ولا تقرب الحمراء من ولد الزنج) يشير بها إلى الخمرة المستنبطة من العنب الأسود وقد كان هدفه هو الابتعاد عنها وذلك ما يفسره قوله (لا تدْن) ،فإشارة النهي تؤكد ما أراده الشاعر من أهل زمانه ،فقد أجاد الشاعر بأقواله في وصف الخمر وهذا ما أكده بقوله :

أوالي نْعتِ الّراح من شعف بها كأنك خال للمدامة ، أّم عّم[1]

فوالي هي نعت للراح كنى بها عن إجادته في وصف الخمر وهذا ما ظهر لنا من خلال أقواله ؛ لذلك نراه في بيت ثان يوكد معناه بضرورة هجر الخمر.

يقول :

توخّ بهجر أم ليلى، فإنّها عجوز أضلت حي طسم ومارب[2]

ويقول :

فكنّوا صبوحية الشرب أم ليلى ومـكـــة أّم القـــرى

وقالو بدا المشتري في الظلام فيا ليت شعري ماذا اشترى[3]

فهنا أشار إلى الخمرة بأم ليلى وبالعجوز،أيضا لخبرتها الطويلة في إضلال القبائل والحواضر العربية؛فهو لم يكتف بالتوصية فقط بل يتعجب لحال الناس الذين يحتسون هذه الخمرة لإيذاء عقولهم يقول :

عجبتُ له بزجاج راحٍ دُوين العقل سُداً من حديد[4]

فالمعري ينبذ الخمر وتعجب من محتسيها لما لها من أضرار على العقل الذي يجعل بينه وبين الشخص سدا من حديد من أثر السّكرِ.

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص:235.

[2]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ، ج2 ، ص:51.

[3]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ، ج1 ، ص:58.

[4]- المصدر نفسه : ص :259.

فإذن يكون الشاعر قد لمح سابقا عن غدر الدنيا حين سماها بأم دفر وعن الخمر بأّم ليلى وعدم إفصاحه عن المعنى القبيح الذي خرج به عن الدنيا هو ما زاد الصورة بهاء وجمالا؛فهو لم يقصد به الوصول إلى المعنى الجميل واللفظ البديع ولكنه قصد الوصول إلى غاية نبيلة هي معرفة حقيقة الدنيا وحقيقة ما حّرم الله من خمر، فكأنه يوصي المرء بعدم الانسياق وراء الدنيا والابتعاد عن شرب الخمر.

ويقول مكنيا عن الموت والزوال :

والحـــّي لابدّ راكب سفـــــرا وتارك من ورائه ثقله

لا يسلم الغادر المخدم في النّيق ولا أّم غفـــرة البوقلة[1]

فقد قصد أبو العلاء المعري بقوله (راكب سفرا) الموت و الزوال الذي سوف يلقاه الحّي في الدنيا ؛لأنها محطة لابد من العبور عليها للوصول إلىآخر ضفة من النّهر، وهي الموت المؤكد، و يقول في موضع آخر من ديوان سقط الزند :

فرمْته ، على جانب الكُر سي ، أّم اللّهيم ، أخت النّاد[2]

فقد كنى عن الموت بلفظة (أّم اللّهيم)؛لأنه يلتهم كل الأشخاص ولا يترك أحدا في هذاالدنيا حيّا.

ويظهر مكنيا عن الفراق الذي يسببه الموت ، يقول :

إذا هبّت النّكباء بيني وبينكم فأهمو شيء ما تقول العوازل[3]

فقد كنى عن الفراق بلفظة النّكباء التي تحدث بينه و بين من يحبّ كأمه، وعينه وحتى أصحابه المقربون.

ولم يكتف الشاعر بالتكنية على الدنيا والخمر والموت والفراق،بل كنى حتى عن صغر نفسه وحقارتها على نحو ما نرى في قوله :

ما لنفسي بين النفوس ُهنا ة إذا لم تفز بطوق وسلس

لو ينادى في كل سوق،عليها ما اشتراها أخو رشاد بفلس[4]

---

[1]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ، ج2، ص:647.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص:201.

[3]- المصدر نفسه: ص:106.

[4]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص:51.

فالشاعر هنا ناقم على الدنيا وساخط على نفسه الحقيرة التي إذا ما قارنها بنفوس البشر وجدها أقل شأنا منهم وفي مرتبة دونية ما دام أنه لم يحقق مبتغاه ويصل إلى أماليه بقيت نفسه معلقة بالآمال تجري وراء الأوهام و الأحلام من دون فائدة،وهذا ما زاد في سخطه وتذمره من نفسه حتى رآها ركيكة ذليلة لا تساوي شيء إذا باعوها في السوق؛فهو يؤكد من أنه لن يشتريها منه أحد بفلس لحقارتها وهوانها،فأبو العلاء المعري أوصل معاناته وإحساسه وآلامه من خلال هذا النص الشعري مكنيا به عن ذل واحتقار وهوان لنفسه.

فأّم لهيم، وأّم دفر، و أّم ليلى،كلها كنايات عن أشياء قبيحة لم يشأ المعري تشبيهها إلا بالإشارة عليها على هذا النحو، ومثلها أبو سعد التي لمحتها في ديوانيه مكنيا بها عن الهرم والكبر ، يقول :

مرحت كالفرس الذبال آونة ثم اعتراك أبو سعد فقد شكلك[1]

ويقول عن الشيخوخة أيضا :

طويت الصبى طّي السجل وزارني زمان له بالشيب له حكم و إسجال[2]

والليل أيضا أخذ نصيبه من كنايات أبو العلاء المعري، يقول :

أبـــّل به الدجى من كل سقم وكوكبه مريض، ما يعاد[3]

فالشاعر صور الليل الذيغابت عنه النّجوم والقمر،لأنها مريضة قاربت الموت فالضمير هنا في (به) وفي (كوكبه) يعود على الليل، وقوله أيضا (أبّل به الدّجى) كنى به عن شدّة سواد الليل جراء غياب القمر والنجوم.

وسواد الليل هنا هو إشارة إلى سواد الدنيا والحياة في عين المعري فلا يوجد ما يضيئه و ينّور دربه وطريقه،فهي شديدة السواد حالكة لا أمل فيها للنجاة من مصائبها ورزاياها.

ويقول مكنيا عن شدة الظلام :

وأثبت الناس قلبا في ظلام سرى ولا ربيئة إلا مسمع الفرس[4]

---

[1]-أبو العلاء المعري :اللزوميات ،ج2،ص :606.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ،ص:248.

[3]- المصدر نفسه:ص :67.

[4]- المصدر نفسه: ص : 140.

ويقول مكنيا عنه في مواضع أخرى ولكن ليس للسواد وإنما لطوله:

قد ركضنا فيه إلى اللهو ولما وقف النجم وقفة الحيران[1]

ويقول في نفس السياق :

قدماه وراءه وهو في العجـــ ز كساع ليست له قدمان[2]

ويقول:

سرى نحوه ، والصبح ميت ، كأنما يسائل بالوخد البر عن زمامه

ونكبّ إلا عن قويـــق ، كأنّـــه يظن سواه زائدا في أوامـــه

بعيس تجوب الدهر ، حِونا كأنها مفتشة أحشاؤه عن كرامـــه[3]

فقد صور أبو العلاء المعري صورة الصبح وهو ميت فكنى به عن طول الليل أو أنه قد أشار إلى ما يعتقده العامة من الناس أنّ الشمس تبيت تحت الأرض والصبح من الشمس،فإذا غاب الصبح؛ فهو بمثابة المدفون.

وتارة أخرى يكني عن سرعة الليل وإبطائه وعن طوله وقصره مع بعض على حد نحو قوله :

ليست لياليه محسّة كائن وصفت بسرعتها ولا إبطائها[4]

ما يستشف من خلال أبيات أبو العلاء المعري هو وصفه لليل؛فتارة بالسواد الحالكفيغيّب النجوم والقمر من سماءه،وتارة أخرى يوظفها ولكنها بطيئة في سيرها،فكأنها لا تسير من مكانها ، وهنا نلاحظ أنها كناية عن طول الليل الذي أرّقه وأسهر عيناه فلم يعد يعرف للنوم طريقا يظل الشاعر مع نفسه متفكرا آلامه وأحزانه وفقده لمن يحب متحسرا على حالته التي وصل إليها نابذا نفسه، ناقما من مجتمعه ومحيطه،كارها للدنيا التي ألمت به مصائب جمة وأطلقت عليه وابلا من البلايا والرزايا المتنوعة.

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ،ص :90.

[2]- المصدر نفسه :ص :91.

[3]- المصدر نفسه:ص :101.

[4]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ،ص :52.

كل هذا جعل أبو العلاء المعري يحس بطول الليل وثقله حتى كأنه لا يسير ، فلكم تمنى طلوع فجر يوم جديد ليضيء به عتمته وسواد ليله ولكن هيهات ، ولكم تمنى أن يجد أحدا مثله يحس بما أحس ويسهر مثله .

وهذا ما أقّره بقوله :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السّمر لعلّ بالجزع أعوانا على السّهر[1]

فهو هنا ينادي البرق بقوله (يا ساهر البرق) أيقظ صاحبي الذي رقد في السهر لعله يساعدني على السهر، فهنا إشارة إلى سهره بخلاف صاحبه الذي نام والناس في سمر وهو دليل على راحة باله واستقراره عكس المعري الذي شاب رأسه من شدة سواد الليل ورهبته،يقول:

وأبصرتِ الذوابل منه عدلا فأصبح في عواملها اعتدالا[2]

ويقول مكنيا عن فقدان النوم :

باتت عُرى النوم عن عيني محللة وبات كوري ،على الوجناء مشدودا[3]

ففي هذا البيت كناية إضافة إلى تلك الاستعارة المتمثلة في جعل النوم بعرى واضحة،وهذا ما رواه الخوارزمي في شرحه للبيت؛حين قال :<<تحليل عرى النوم ، كناية عن فقدان النوم رأسا>>[4].

فقد حرص أبو العلاء المعري على إظهار معنى خفي كامن في باطنه فأفضى به باستعمال العرى للنوم.

حتى الصحراء أصبحت من شدة سوادها كأنها شامة سوداء ، يقول:

وُجح يملأ الفودين شيبا ولكن يجعل الصحراء خالا

أردن أن نصيد به مهاة فقطّعت الحبائل و الحبالا[5]

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :36.

[2]- المصدر نفسه: ص :27.

[3]- المصدر نفسه:ص:224.

[4]- هشام القلفاط: المتغير الأدبي في شروح سقط الزند لأبي العلاء المعري ، عالم الكتب الحديث ، ط1 ،2009 ، إربد ، الأردن ، ص:149.

[5]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص:27.

وهو يكني عن الليل والنهار معا بلفظة (ابنا سمير) ، يقول :

سامرتكم دهرا وفارقتـــكم عن هجرة ما سمر ابنا سمير

إنْ أقمر الليل على وفدكم وجدتكم من قمـر أو قميـر[1]

وهو في مكان آخر يكني عن النهار بكلمة (اليوم طفل) ، يقول :

طلعت عليهم واليوم طفل كأنّ على مشارقه جسادا[2]

ولم يكتف أبو العلاء المعري بتوظيف صور كنائية عن الليل في سواده وطوله وعن النهار في عظمته وإشراقه،بل ينتقل من تصوير إلى آخر معددا إياه بحسب الأغراض والأهداف التي يريد إيصالها، لذا يظهر في مواضع أخرى يكني عن الشمس في بردها وذهاب حدتها ، يقول :

متى نصبح وقد فتنا الأعادي نقم حتى تقول الشمس روحا[3]

فقوله (حتى تقول الشمس روحا) كناية عن البرد وذهاب حدة الشمس،فصورها في هيئة إنسان وهو يأمرنا بالمسير؛لأنه لا فائدة منه ، فالحر الذي كنا ننتظره منها والنور الذي كنا نستضاء به قد ذهب واندثر،و هنا قد يرمز الشاعر بها إلى ذهاب معنى الحياة عنده فبعدما كانت الأمل والراحة باتت عنده موطنا للألم والحزن والتشاؤم؛لذلك لا فائدة من وجود أبو العلاء المعري فيها فكأنه يرفض المكوث فيها أكثر؛فينتظر موعد الرحيل منها بفارغ الصبر.

وقد نّوع المعري في تصويره وأبدع ؛فنكاد نراه ينتقل من صورة لأخرى، وهذا ما يدل على أنه يمتلك الإبداع والقدرة والاطلاع الكثير ما يؤهله للخوض في مجال التصوير بكل أنواعه.

و ينتقل من تصويره للدنيا والخمر والليل وطوله والموت المحتم إلى يوم القيامة وساحة الحرب وغيرها كثير؛لذا تراه يقول :

إنْ ظهرت ناركما كما خبروا في كل أرض فعلينا العفاء

تهوي الثريا ويلين الصفا من قبل أن يوجد أهل الصفا[4]

---

(1)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج1، ص:413.

(2)- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص:116.

(3)- المصدر نفسه: ص:58.

(4)- المصدر نفسه: ص :54.

فهو يشير إلى يوم القيامة وما يقع فيها من أهوال وأخبار متناقلة عنها وما توظيفه لأهل الصفا الذين هم أهل الإخلاص إلا دليل على قدوم يوم الساعة.

ويقول :

يقولون أنّ الدّهر قد حان موته ولم يبق في الأيام غير ذماء

وقد كذبوا ما يعرفون انقضاؤه فلا تسمعوا من كاذب الزعماء[1]

ويكني بالبحر عن ساحة الحرب ، يقول:

يخوض بحرا ، نقعه ماؤه يحمله السابح في لبده[2]

والملاحظ من خلال هذا البيت الأخير أنّ أبا العلاء المعري قد صور فرسه وهي تجري إلى ساحة المعركة لتحارب،وكأنها تسبح في بحر؛ففي البيت ما يشير به إلى قوة فرس الممدوح وسرعتها ما أهلها للدخول إلى الحرب بدون خوف،وإذا تأملنا هذا البيت تأملا فلسفيا وفكريا وجدنا أنّ أبا العلاء المعري قد أسقطه على حاله ،فصور نفسه فرس يخوض الحرب، في إشارة إلى الحياة بكل معنى الكلمة ،فصور سيره ووصفه بالسريع مشبها إياه بالسباحة في البحر.

والفرس يصور كمعادل على الإقدام والإصرار في الدخول إلى الحرب أو المقاومة لذلك فهي تعادل ما أراده الشاعر،فمقاومته الحياة التي تكالبت عليه برزاياها وإصراره في حين آخر على تحقيق هدفه المنشود في الدنيا هو الذي دفعه إلى تصوير هذا البيت الذي عكس به عن طموحه وأفكاره.

إضافة إلى نوعين آخرين وجدتهما في ديوانيه،ويظهر من خلال قوله مكنيا به عن انتهاك حرمة، قال :

تُحلّ إذا استربت بك اهتضامي وأنت فعلت أفعال المريب[3]

و لمحت صورة كنائية أخرى تحكي عن المحبرة،يقول :

مستقي الكفّ من قليب زجاج بغروب اليراع ماء مداد[4]

---

[1]-أبو العلاء المعري : اللزوميات، ج1 ، ص :50.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص: 208.

[3]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :124.

[4]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :201.

فالشاعر هنا يصف حالته واشتغاله الدائم بالكتابة،فيغرف الحبر من المحبرة التي كنى بها عليها من خلال لفظة (قليب زجاج) فكأنه يغرفها من بئر بواسطة دلو عظيمة.

وهناك كناية عن الكرم تظهر من خلال قوله :

النار في طرفي تبالة ،أنؤر رقدت فأيقظها لخولة معشر[1]

فالنار هناك عظيمة حتى أنها لتقوم مقام نيران كثيرة،وهي هنا كناية عن كرمهم،حيث كانوا يوقدون النيران ليراها الضيوف فيقصدونهم.

ومنه يستخلص أنّ أبا العلاء المعري قد استعان بالكناية حتى يشير بها إلى بعض المعاني القبيحة التي لا يريد الإفصاح عنها بألفاظ واضحة،فاكتفى بالتلميح و الإشارة عن طريق توظيف بعض الرموز مثلما فعل مع الدنيا حين كنى عنها بأم دفر،والخمر بأم ليلى،والهرم بأبي سعد وغيرها مما ذكرت في هذا المبحث.

4-الصورة المجازية:

يعتبر المجاز أسلوبا من أساليب البيان التي تعرض إليها أهل البلاغة ، فحاولوا شرحه وتبيينه وتحديد حدوده،من ذلك ما أقّر به "الجاحظ "مثلا حين قال:<< هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له،لعلاقة مع قرينه مانعة من إرادة المعنى الحقيقي،وبناء على ذلك يقول الجاحظ ": إذا قالوا أكله أسد فإنما يذهبون إلى الأكل المعروف،وإذا قالوا أكله الأسود،فإنّما يعنون النهش و اللذغ و العظ فقط وهو المجاز >>[2].

وكما اشتهر عند أهل البلاغة وجدناه قد شاع عند أهل الدين و الأئمة الذين عرفوه وتمرسوا عليه ،فقالوا عنه مؤكدين حقيقة وجوده :<< ولو كان المجاز كذبا،وكل فعل ينسب إلى الحيوان باطلا كان أكثر كلامنا سدىلأنّا نقول: بنت البقل ، وطالت الشجرة ،وأينعت الثمرة ، وأقام الجبل ، ورخص الشعر >>[3].

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص :228.

[2]- علي جميل سلوم : الدليل إلى البلاغة وعلم الخليل ، ص :126 ،127.

[3]-عبد العظيم إبراهيم محمد: المجاز عند الإمام ابن تيمية وتلاميذه بين الإنكار والإقرار، مكتبة وهبة ،ط1 ،1995، ص:50 .

إذن كل هذه الألفاظ المستعملة هي بمثابة صور مجازية نستعملها للدلالة بها عما نريد، وكاد أن يطبق البلغاء على أنّ المجاز أبلغ من الحقيقة والتصريح ،لأنّ<<الانتقال فيه يكون من الملزوم اللازم،فهو كدعوى الشيء ببيّنة وأنّ الاستعارة أبلغ من التشبيه لأنها نوع من المجاز>>[1].

وقد أقر العرب فوائد عدة من استعمال المجاز يجنيها صاحب الفكرة والمتلقي فذكروا أنّ :<< استعمال اللفظ المجازي دون الحقيقة قد تكون لاختصاصه بالخفة على اللسان أو لمساعدة في وزن الكلام نظما ونثرا والمطابقة والمجانسة والسّجع وقصد التعظيم والعدول عن الحقيقي للتحقير إلى غير ذلك من المقاصد المطلوبة في الكلام >>[2].

إذن ما لوحظ أنّ المجاز قد تحّول إلى قضية فلسفية بين الأئمة وأهل اللغة أساسها الحقيقة المجردة ،والتجوز لن يغير من الحقيقة ،وإنما يساعد في الكشف عنها والظهور بمظهر غير مصّرح به.

وقد قّسم البلاغيون المجاز إلى ثلاثة أنواع :<< مجاز لغوي وهو الاستعارة وهو ما ذكرناه سابقا يقوم على التشبيه،ومجاز مرسل لا يقوم على التشبيه،ومجاز عقلي يقوم على إسناد الشيء إلى ما ليس له>>[3].

وذكر هذه الأنواع المجازية كان للتذكير فقط ؛ فدراسته وغيره من الصور كانت لتخطى بها ذلك الرسم العادي للأبيات إلى رسم تأملي فلسفي مبني على التخيل والإحساس والمطابقة والإبداع. إذا كان استعمال الشاعر للكناية باعتبارها صورة من صور البيان قليل فإنّ استعماله للمجاز كان أقل وهذا ما ظهر لي من خلال دراستي وتفحصي لديواني المعري سقط الزند واللزوميات،وقد يكون السبب أنّ أبا العلاء المعري لا يمكن أن يوجز في كلامه بقدر ما يحبّ أن يطرد فيه شارحا إياه ناصبا أفكاره مكررا لأقواله،وهذا ما لمحته في العديد من المواضيع المطروقة في ديوانيه.

وبالرغم من قلته في ديوانيه إلا أنهتم التوصل إليه والاستناد عليه؛فوجد في شكل مقطوعات أو أبيات متناثرة هنا وهناك ، وأول صورة مجازية وجدت في شعره، حين قال:

---

[1]- أبو عبد الله بن زكريا القزويني : التلخيص في علوم البلاغة ،حققه وشرحه عبد الحميد هنداوي ،دار الكتب العلمية ، ط2 ،2009 ، لبنان ، ص :85

[2]- محمد بدري عبد الجليل: المجاز وأثره في الدرس اللغوي، دار النهضة العربية ،(د،ط) ،1986 ، بيروت، ص: 135 ،136.

[3]- منير سلطان : الصورة الفنية في شعر المتنبي ، المجاز، ص :131.

إنّ التجـــارب طير تألف الخمـــرا يـصيدها من أفـــاد اللب و العمرا

كم جُوت شهرا وكم جرّمت من سنـــة ومـــــا أراني إلا جـــاهلا غمرا

والغيّ كالنّ ـــــجم عريانا بلا ستـــــــر وللـــحقوق وجوه ألبست خُمرا[1]

لقد أبدع المعري في رسم صورته هذه، فحاول إزاحة المعنى الحقيقي إلى دلالته العقلية على نحو ما رأينا،فسخر كل ما هو موجود في الطبيعة من الطيور والنجوم والخمائل لرسم صورته التي يهدف بها إلى تلخيص تجربته وإسداءللنصيحة والنّصح أكثر من التنميق والزخرفة؛فحين قال(إنّ التجارب طيرا) نراه كلاما قد حمل محمل المجاز؛فقصد به النصح و الإرشاد الذي قدمه باعتباره صاحب تجارب في الحياة ، فالصورة الحسية التي قدمها أبو العلاء المعري معروفة وهي (التجارب طير) ولكنه عبّر عنها بأسلوب غير مباشروهذا ما أكسب النّص الشعري عند سماعها جمالا أخاذا سلب العقل وشد انتباهه إليه لمعرفة حقيقته، فإذا كان :<< المجاز معيار للإبداع ، وكشف عن حقيقة مستترة >>[2] والتعبير عنه بصور حسية مدركة من أجل الوصول إلى المعنى الخفي ،فإنه يتلمس من خلال كلامه الآتي:

قد أورقت عُـمُد الخِيـــام، وأعشبت شُعب الرّحـــال ، ولون راسي أغبر

ولقد سلوتُ عن الشباب، كما سلا غيري ولكـــن للحزيـــن تذكّـــــر[3]

فهنا يلاحظ أنّ أبا العلاء المعري قد جاء بصورة رسم حدودها حين قال:(أورقت عمد الخيام وأعشبت شعب الرحال)؛فكلامه خرج مخرج المجاز؛ فعبّر بكلام حسي معروف (كأورقت، وأعشبت) ولكنه أراد به معنى غير ظاهر وهو أنّ المطر قد هلّ وكثر وعمّ الخصب،فقوته في التعبير عما يريد جعلت بيته منمقا له أثر إذا ما سُمع.

وأبو العلاء المعري يعتبر من بين الشعراء الذين عانوا كثيرا في حياتهم فكان يتسم بطبيعة قلقة ونفسية مضطربة وحزينة وكذا بعقل مشوش بأفكار سوداء لا تنم إلا عن سواد الدنيا وحزنه فيها حتى عرف بالتشاؤم ،بل أصبح ميزة من مزاياه.

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :335.

[2]- جهاد رضا : التصوير الفني في شعر العميان ، ص :63.

[3]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :229.

ولكنه وبرغم قلقه وتشاؤمه يظهر في مرات عديدة يرسم أبياتا ينهي فيها عن هذا التشاؤم وكأنّه في قرارة نفسه يرفضه ،إلاأنّه طبيعة متأصلة فيه لم يستطع الحياد عنها وهذا ما لوحظ بقوله:

فإنّ قرون الخيل أولتك ناطحا وإنّ الحسام الغصب لقاك أعضبا [1]

لقد رسم الشاعر صورة من قرون الخيل التي كان يقصد بها الرماح التي دخلت في مواجهة عنيفة مع الحسام العضب؛أي المكسور، فوجدته مكسورا أيضا والكسر للرماح أو السّيف كانت تعبر عنه العرب قديما بالقرون المكسورة ،وهي مبعثة للتشاؤم؛ لذلك نهاه المعري عن التشاؤم الذي لا خير فيه،وقوله :

لعمري لقد أدلجت والركب خالف وأحييت ليلي والنجوم شهودا [2]

فهنا مجاز عن طول السهر في الليل حتى أنّ النجوم شاهدة على ذلك،كما صادفتني صورة مجازية أخرى أخرجها المعري في ديوانه اللزوميات؛حين قال :

والفقر موت غير أنحليفه يُـرجى له بتمّول إنشار

ونرى مباشرة التراب مهانة وإليه ترجع هذه الأشيار[3]

لقد أخرج أبو العلاء المعري صورة استوحى ألفاظها من العالم الحسي، فعمد إلى وصف حادثة من حوادث الدنيا التي تصيب الإنسان إلا وهو الفقر فشبهه بالموت؛ لأن السير بعد الفقر في هذه الحياة كالحياة بعد الموت لا تعتمد إلا على النشور،وهذا ما أوحى إليه بلفظة (إنشار) فهم يتمنون أن يمّول هذا الفقير أمواله ويحييها وينشرها من جديد؛أي يبعث بها الحياة التي فقدت منها بعدما استكانت؛ لذلك استطاع المعري كشف المعنى الذي يريد من خلال لفظة (إنشار) التي تعني إحياء الميت،وبذلك يكون قد رسم البيت الذي اعتمد فيه على المجاز وذلك عن طريق التشبيه فاستطاع أن يصل به إلى المعنى الخفي والمراد.

وأيضا من تجليات هذا الضرب قوله :

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :82 ،83.

[2]- المصدر نفسه: ص :220 .

[3]- المصدر نفسه: ص:303 .

سرتْ به فيه ناجيات مياهها تجّم إذا ماءُ الرّكاب غارا[1]

فقد وظف المعري بيته وأسسه على المجاز وهذا ما أكده "البطليوسي" << من خلال عبارة (جموم الماء)فبنى معناه على المجاز وتجلى ذلك في ذكر المثل الذي يكون(جموم الماء وغؤوره)،فقد نفى به عن المعنى الحقيقي عن لفظ الماء في البيت؛إذ ليس هناك ماء في الحقيقة ومن ثم يكون ذكر الماء جاريا على المعنى المجازي وزاد الأمر تفصيلا حين استعمل كاف التشبيه وصاغ العبارة على أساس المشابهة القائمة على تشبه كثرة السير بالماء الجّم >>[2].

ونراه في بيت آخر يقول :

هل تسمع القول دار غير ناطقة وفقدها السمع مقرون إلى الخرس

لأنسينك إنْ طـــال الزمان بنـــا وكم حبيـب تمادى عهده فنســـَي

يا شاكي النوب انهض طالبا حلبـا نهوض مضنى لحسم الداء ملتمس[3]

فالشاعر هنا أراد بقوله أنّ الديار لا تسمع وإن جاهرتها بالتكلم؛ لأنها صّماء،والدليل على ذلك أنّها خرساء ولا خرس إلا وهو مسبوق بالصمم،فكان ذكر الخرس في بيت أبي العلاء المعري مبنيا على تشبيه الدار بالإنسان الأصم الأخرس ، وهي على سبيل المجاز.

وقد شرح البطليوسي هذا البيت، فقال:<< أنكر على نفسه مخاطبة الدار فذكر أنها قد عدمت النّطق والّسمع،فهي لا تسمع من كلّمها ولا تجيب من سألها >>[4]،ويلُمس قولا آخر واقع في حدود المجاز بقوله :

ليمت وليل اللائمين تعانق حتى الصباح وليلها الأعناق

ما الجزع أهل أن تردد نظرة فيه، وتعطف نحوه الأعناق

لا تنزلي بلوى الشقائق فاللّوى ألوى المواعد والشقيق شقاق[5]

---

[1]– أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص:76.

[2]– هشام القلفاط : المتغير الأدبي في شروح سقط الزند لأبي العلاء المعري ، ص: 127 ،128 .

[3]– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :100.

[4]– هشام القلفاط : المتغير الأدبي في شروح سقط الزند لأبي العلاء المعري ، ص:137.

[5]–أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :139.

فقد جعل الليل يعانق على سبيل الإسناد المجازي والمبالغة،فأصل الكلام هو قول الشاعر ليل اللائمين متعانق إلى غاية الصباح،فوصل حدث التعانق في الليل بزمن حدوثه،فأسند التعانق إلى الليل وإلى فاعله ومن هنا يبدوا أنه قد أكسب مبالغة مستمدة من الأعناق الذي يعد ضربا من السير السريع للدواب في وسط الصحراء.

فالمجاز إذن :<< هو محسن من المحسنات البيانية التي تهدي إليها الطبيعة لإيضاح المعنى ،إذ به يخرج المعنى متصفا بصفة حسية تكاد تعرضه على عيان السامع،لهذا شغفت العرب باستعمال المجاز لميلها إلى الاتساع في الكلام وإلى الدلالة على كثرة معاني الألفاظ،ولما فيها من الدقة في التعبير فيحصل للنفس به سرور وأريحية>>[1].

لذلك نلمح المعري من بين شعراء العرب الذين حملوا كلامهم على المجاز، فيقول :

تعالى الله فهو بنا خبيـــر قد اضطرت إلى الكذب العقول

نقول على المجاز وقد علمنا بـــأنّ الأمر ليس كما نقول[2]

فالإفصاح لا يعني بالضرورة الوضوح والشفافية،فالكلام مبني على الغموض والإبهام لا سيما وأنه يتكون من عبارات مجازية لا يجوز فهمها بالمعنى الحرفي،لكن الاحتمال وارد في أحيان أخرى أن يحمل كلامه على الحقيقة وأن يساء فهمه،لذلك تجده يحذر من السقوط في التأويل الخاطئ أو المتعسف.

يقول :

لا تقيّد علّي لفظي فإنّي مثل غيري تكلمي بالمجاز[3]

ويقول أيضا:

وليس على الحقائق كل قولي ولكن فيه أصناف المجاز[4]

---

[1]- السيد أحمد الهاشمي:جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، ص :249.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص:189.

[3]- المصدر نفسه : ص :10.

[4]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج2 ، ص :8.

<< فهناك إلحاح على التمييز بين المجاز الذي استعمله الشاعر في شعره وبين الحقيقة التي يتحراها ، فما هي إذن الحقيقة ؟ و ماهي أهم الصور المتعلقة بها في شعره؟>>[1].

		مقاطع تحتوي على الصور البيانية				
النوع التسلسلي	الديوان	الصورة التشبيهية	الصورة الاستعارية	الصورة الكنائية	الصورة المجازية	
1	اللزوميات ج2	دنياك مثل سراب...	...وللحقوق وجوه ألبست خمرا	ولم أر إلا أم دفر ضعيفة...		
2	سقط الزند	... كحرف لا يفارقه اعتلال	وقد أغتدي والليل يبكي تأسفا	على أم دفر عفينة الله...	قد أورقت عمد الخيام وأعشبت	
3	اللزوميات ج1	...وأمثالها لاما للبيب المثرب	أغارت عليهم خيول الزمان...	تخوفنا من أم دفر خديعة	إن التجارب طير تألف الخمرا	
4	اللزوميات ج1	ووجدت دنيانا تشابه طامثا	سار الزمان بهم إلى أجداثهم...	...فيا أم دفر قد أمنت على دفر	فإن قرون الخيل أولتك ناطحا	
5	اللزوميات ج1	وهي في دنياك حية عرماء	شرور الدهر أكثر من نبيه...	نصحتكم أهينوا أم دفر	... وأحييت ليلي والنجوم شهود	
6	اللزوميات ج1	أصاح هي الدنيا تشابه ميتة	يؤدبك الدهر بالحادثات	عجبت له بزجاج راح دوين العقل	و الفقر موت يرجى له بتمول انتشار	
7	سقط الزند	...كأنما جنى النحل أصناف الشقاء	وليل خاف قول الناس لما.....	ومذ قال أن ابن اللئيمة شاعر	... وفقدها السمع مقرون إلى الخرس	
8	اللزوميات ج1	...كأني جهول ما عرفت شنارها	ويصمى الفتى سهم من الدهر صائب	ولا تدن للصهباء بنت الأبيض		
9	سقط الزند	...وما العيش إلا	كأن الليل حاربها	أوالي نعت الراح	ليمت وليل اللائمين	

[1]- عبد الفتاح كيلوطو: أبو العلاء المعري أو متاهات القول ، دار توبقال للنشر، ط1 ،2000، ص :50.

		صحة وسهام	ففيه...	من شعف بها	تعانق
10	سقط الزند	...له ورد من الدم كالمدام	ترى وجوه المنايا في جوانبها	...أم اللهيم أخت الناد	
11	اللزوميات ج2	والدهر شاعر أفات يفوح بها	وعظ الزمان فما فهمت غطاية...	عرفت من أم دفر عجبا	
12	اللزوميات ج1	... تكون طباؤها لذئابها	سره الموت في الظلماء والقوم في...	وجربتها أم الوليد لطامع	
13	اللزوميات ج1	يمضي كإيماض البروق ومالها	هاجك الدهر فاصبر له	ويئيس من أم الوليد المجرب	
14	اللزوميات ج1	الدهر كالربع لم يعلم بحالته	ينجز هذا الدهر ما كان موعودا	وأم دفر لعمري شر والدة	
15	اللزوميات ج1	وكأنما الزمان قصيدة	ولا عقل للدهر فيما أرى...	فإن هلكت خروسك أم ليلى	
16	سقط الزند	...ونظمتها عقدا لأحسن لابس			
17	اللزوميات ج1	...كأني بخيطي باطل أتشبث	والعيش حرب لم يضع أوزارها	فكنوا صبوحية الشرب أم ليلى	
18	اللزوميات ج1	وحوادث الأيام مثل نباتها	فاحذر لصوص الأماني ، فهي سارقة...	قدماه وراءه وهو في العجز	
19	اللزوميات ج1	...مثل الحباب تظاهر و تواري		مستقي الكف من قليب زجاج	
20	سقط الزند	... ومن النجوم قلائد ونطاق	فإن يكن الزمان يريد معنى فإنك	إذا هبت النكباء بيني وبينكم	
21	سقط الزند	مثل السيوف هزهن عارض		سرى نحوه و والصبح ميت كأنما	

22	سقط الزند	كما أغضى الفتى ليذوق غمضا		أبل به الدجى من كل سقم	
23	سقط الزند	وقلت: الشمس بالبيداء تبر		يخوض بحرا ، نقعه ماؤه	
24	اللزوميات ج2	...كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك	وما كتبته يد للزمان فعن يده	توخ بهجر أم ليلى فإنها عجوز	
25	سقط الزند	... كما خط في القرطاس رسم على رسم		...ولا ربيئة إلا مسمع الفرس	
26	اللزوميات ج1	الخير كالعرفج الممطور ضرسه	وكان في كف الزمان بنوره...	...عن هجرة ما سمرا بنا سمير	
27	اللزوميات ج1	والشر كالنار شبت ليلتها مضى	ووجدت الزمان أعجم فظاج...	تهوي الثريا ويلين الصفا	
28	اللزوميات ج1	... ولا مثل المثوبة ربح بحر	وما الأرض...فتأكل من هذا الأنام وتشرب	يقولون أن الدهر قد حان موته	
29	اللزوميات ج1	... معجبات كأحاديث السمر	شجر العيش معدن للرزايا		
30	اللزوميات ج2	... كأنما نفوس البرايا للحمام هائن	جيب الزمان على الآفات مزرور	لا يسلم الغادر ولا أم غفرة الوقلة	
31	سقط الزند	ضجعة الموت رقدة يستريح الجسم فيها		... وقف النجم وقفة الحيران	
32	سقط الزند	... كأنما عظامي الباليات فيها		وأبصرت الذوابل منه عدلا	

33	اللزوميات ج1	وما النعش إلا كسفينة راميا	الدهر يصمت وهو أبلغ صامت		
34	سقط الزند	وبعض الظاعنين كقرن شمس		... ولكن يجعل الصحراء خالا	
35	سقط الزند	كأن المنايا جيش ذر عرمرم		طلعت عليهم واليوم طفل	
36	اللزوميات ج1	أهل الحياة كإخوان الممات ...	لو نطق الدهر في تصرفه		
37	اللزوميات ج1	كأنما حياة الفتى ليلة....	والدهر يخطب أهل اللب مذ عقلوا		
38	سقط الزند	وكالنار الحياة فمن رماد		يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر	
39	اللزوميات ج1	... فكأنما في شخصها لم تحصر	كم ينظم الدهر من عقد وينثره		
40	اللزوميات ج2	والنفس كالسبب الممدود تجمعا	أيفكني هذا الحمام تفضلا...	... ثم اعتراك أبو سعد فقد شكلك	
41	اللزوميات ج1	إن سيوف المدام تشبهها السيوف			
42	سقط الزند	... فكأنما قطعت له الظلماء ثوب الأدهم		باتت عرى النوم عن عيني محللة	
43	اللزوميات ج1	...كأنما أيامهم أسفار			
44	اللزوميات ج2	... وطفت بهم كالسارق	فسد الزمان فلا رشاد ناجم...		

		المتلصص			
45	اللزوميات ج1	و الخلق حيتان لجة لعبت			
46	اللزوميات ج1	والناس كالخيل ما هجن بمعطية			
47	اللزوميات ج1	كمصباح ليل بدا يستنير...			
48	اللزوميات ج2		إن الليالي قالت وهي صامتة		

ومنه نظرا لهذا الجدول الذي يمثل مختلف الصور البيانية الموجودة في ديواني أبي العلاء المعري سقط الزند واللزوميات بجزئيه تظهر مختلف الصور المتمثلة في التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، ومنه نستطيع جمع هذه الصور في هذا الجدول.

مجموع	الصور التشبيهية	الصور الاستعارية	الكنائية	المجازية	المجموع الكلي
	48	31	35	07	111 صورة بيانية

إذن ما لوحظ انطلاقا من هذا الجدول الذي يجسد مجموع الصور المستعملة من طرف المعري وهي نسب تقريبية،فمهما اجتُهد في ضبطها إلا أنه قد توجد صور أخرى قد استعملت من طرف الشاعر ولم يتم ذكرها،إلا أنه تبقى هذه الصور مجسدة وممثلة للبيان الذي اعتمد عليه المعري.

فالملاحظ أن الصور التشبيهية طرقت واستعملت بكثرة في شعر المعري وهي لم تخرج عن نطاق الدنيا والزمن والدهر الذي استحوذت عليه ديواني المعري.

وتارة يشبه الدنيا بسراب قد يسر الناظر لما يراه ولكنه في الحقيقة ما هو إلا سرابا لا قيمة ولا وجود له في هذا العالم،وتارة أخرى يشبهها بطامث قد فسد صيامها ولم تجز صلاتها،مثلها مثل الدنيا التي قد تغدق عليك فتحسسك بالأمان،ثم ما تكاد تغير الوجهة فتصفعك حتى تتذوق مختلف

الأحزان والآلام،وهي في ذلك كحية عرماء تتلون بتلون الأزمان والأماكن،والعيش فيها لا يكاد يبتعد في مفهومه عن الصحة والسقام،والخير عرفج ممطور والشر كالنار سرعان ما ينشر لهيبه الإنسان في أرجاء المعمورة ،فتصيب بها كل من كان حولها ، خاصة وأنّ الإنسان يولد خيرا بطبعه فلا تكاد ترى في نفسه شرورا و آثاما ،ولا حقدا ولا حسدا ولا أذية،لكن الدنيا تغيره فتطبعه بطابعها الخبيث حتى يصبح كحرف معتل لا يفارقه الاعوجاج بعدما كان صحيحا مستقيما،لذلك جعلها المعري كشخص متمرس يتقن فنونا مختلفة تطبقها على الأشخاص،كما أنها لا تخلص للإنسان ولا تمت له بودّ وحب لرضيعها الذي يبقى محتاجا لذلك العطف من الأم المخادعة غير أنه لا يجده فيها،لأنها تفتقد في حقيقة الأمن،لذلك الإحساس والحب الجميل والود الطيف،فهي في ذلك مثلها مثل الفتاة التي لا تكون على طهارة ؛ فحينئذ لا تفيد زوجها في ذلك الوقت .

والدهر شاعر ينظم قصائد هي كالعقد الجميل يلبسه الناس الذين أنبتهم الزمان فغرس فيهم مختلف الطبائع والأخلاق،من دون أن ينسى المعري الأيام التي تفجع بحوادثها فتمطر بها على الناس،كما أنها في حين آخر تشابه الجيفة الميتة تعطر الجو بروائح نتنة مستخلصة من الشرور والآثام والأذى تبثه في الإنسان،كما أنّ هذا الأخير ما هو إلا كلبا يعوي مع بقية الكلاب حول تلك الجيفة كل واحد يريد اخذ نصيبه منها،وهنا إشارة إلى التسارع والتسابق في هذه الدنيا والاستسلام لها وعدم فهمها.

كما لم ينس المعري النجوم التي شبهها بالقلائد التي تلبسها حبيبته في جنح الليل، فكلما نظر إلى النجوم في السماء تذكر محبوبته، مثلما يفعل البرق المتعال فيه،والشمس بالبيداء، والشوق للمحبين بالسيوف إذا هزت، وفي الأخير توصل المعري إلى حقيقة الموت،فهو واحد من الأنباء التي تحزن الإنسان وتشغل فكره وتدمع عينيه ولكنه آمن به برغم حقيقته المؤلمة، وشبهه برقدة تريحه من عناء الحياة.

كما أنّ نعشه يشبه السفينة التي ترمي الناس في البحر ليأخذه الموج بعيدا عنها،وحدث أن جعل الشاعر المنون التي تستل الأرواح بسيف قاض تهجم به على الأنفس، فكأنها في ذلك نمل صغير، خاصة وأنّ هذه الحياة لا قيمة لها عنده،فمهما طال عهدا فإنها قصيرة ،وهي في مرات عديدة تشبه غولا يريد التهام البشر بعدما ظنها الناس عروسا، فلا ينتفع بأولها ولا بآخرها الذي يمثل الشيخوخة .

فهذه الصور التشبيهية وغيرها كثير ممنلم يسع الوقت لتناولها كلها،وهي كلها بينت قدرة الشاعر في التشبيه والتصوير الذي وصل به إلى حدود(48) صورة متواجدة في ديوانيه،أما الاستعارة،فهي لا تقل أهمية عن التشبيه نظرا لاستعمالها الواسع الذي بلغ حدود(31)مثلما كان مبين في الجدول أعلاه، فقد تعددت أوجهها فكانت أيضا تحكي عن الزمان الذي كانت له يد يفتك بها وخيولا تغور على الأعداء؛ فتسير بهم إلى أجداثهم لترديهم قتلى وضحايا، وهو في كثير من الأحيان يعظ الناس بعظات لا يفهموها ، وفي أحيان أخرى يصمت و ينجز وعودا قد أعطاها.

أما الدهر،فهولا يختلف عن الزمان كثيرا فقد يصنع الحدث بشروره،فيضطر إلى أن يؤدب الإنسان بحوادثه التي ينزلها عليه،فيدمع عينه ويؤلم قلبه ويحزنه،وما على الإنسان على حد قول المعري إلا الصبر و التحلي بالحكمة .

والليل عنده كإنسان يبكي و يتألم متأسفا على حاله، وهو في كثير من الأحيان يحارب كفارس مغوار،فيجتهد أن لا يزول،والعيش حرب وشجره معدن للرزايا والبلايا التي تسقط على رأس البشر ، فتصيبهم بسهامها،وفي كثير من الأحيان يصوره في هيئة شخص محارب يحمل معدات حربية يدخل بها ساحة المعركة ليحارب،والموت هو من خطط لمثل هذه الحروب،لكن هيهات الحرب نهايتها معروفة وهو الموت والفناء المؤكد،وفي مرات عديدة يظهر المعري براعته في التصوير ، فيجعله كشخص خائف من الانهزام وغيرها من الصور الاستعارية الجميلة التي لها من الغرابة و الطرافة ما يثير في النفس من تعجب وهي ما تنم عن أسلوب رائع و معاني جميلة وتعبير دقيق.

أما الوجه الثالث من الصور الكنائية،فتجسد في أشعار المعري بنسبة (35)،حيث عمد من خلالها إلى التكنية على الدنيا بأم دفر وذلك للرائحة الكريهة التي تخرج منها لدناءتها وشرورها،فهي شر والدة لا ترحم،كما أنها عفينة وخديعة الله مستمرة في الكذب على الإنسان والتغرير به .

أما الموت فكنى عنه بأم اللهيم التي تلتهم كل ما تجده أمامها،فتحدث الفراق الذي سماه وكناه بالنكباء،كما سماها بابن اليتيمة التي ذهب بريقها وعزّها،والخمر ما هو إلا أم ليلى وأم الوليد، يتعجب الشاعر لحال الناس الذين يحتسونها،لأنها مجرد إيذاء لعقولهم، لذلك المعري ينبذها، والهرم بأبي

سعد،وتلمح بعض الصور التي يكني فيها الشاعر عن الليل لشدته وظلمته وطوله ،ويكني عن النهار بالطفل .

كما وصف الشاعر حالته وانشغاله الدائم بالكتابة ، فيغرف الحبر من المحبرة التي كنى بها عليها من خلال لفظة قليب زجاج،فكأنه يغرف من بئر عظيمة وغيرها من الصور التي تبين مدى استعانة المعري بالكناية التي أشار بها إلى بعض المعاني القبيحة التي كانت تدور بداخله ، فحاول التلميح إليها بألفاظ واضحة عن طريق توظيف بعض الرموز مثلما رأينا سابقا، وهذا ماتمّ شرحه بالتفصيل أثناء الدراسة.

أما المجاز فلم يبخل المعري باستعماله في ديوانيه إلا أنه قليل جدا إذا ما قارناه بمختلف الصور الأخرى،فكان في حدود (7) صور وهي نسبة ضئيلة، وعمد إليه الشاعر للدلالة به على كثرة وإيضاح المعنى،وهو لم يخرج عن نطاق الليل الذي يكثر فيه السهاد من شدة الشوق والحنين للأحبة و قرون الخيل المكسورة التي رسم بها صورة عن الرماح،والتجارب التي عايشها حاول تقديمها في شكل صور مجازية والفقر الذي يعد حادثة من حوادث الدنيا التي تصيب الإنسان، فشبهه بالموت،لأنّ السير بعد الفقر في هذه الحياة كالحياة بعد الموت لا تعتمد إلا على النشور، وهي كلها صور حية تنم عن صدق المعري وإحساسه بها و شغفه بإيصال المعاني وإيضاحها،وهذا ما عكسته لنا جل الصور في ديوانيه سقط الزند و اللزوميات بجزئيه.

ثانيا – الصورة البديعية:

إنّ الصورة البديعية مستوحاة من البديع وتعدّ علما من علوم البلاغة كغيره من علوم البيان والمعاني.

وقد عرف "القزويني "علم البديع بقوله:<< هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدّلالة ، وهذه الوجوه ضربان، ضرب يرجع إلى المعنى، وضرب يرجع إلى اللّفظ>>[1].

[1]- أبو عبد الله بن زكريا القزويني : الإيضاح في علوم البلاغة ، ص:317.

فهو إذن ضروب منها ما يتعلق باللفظ كالطباق والمقابلة والجناس وغيرها من الأنواع الأخرى المتباينة إلا أنّ هذا التباين في الأوجه و الأضرب لم يمنع من أن تحقق بكل أنواعها مغزى عام << فتورث اللغة حسنا في الألفاظ وحلاوة في مخارج الكلام،حتى تحول في العيون عن مقادير صورها، وتربى على حقائق أقدارها بمقدار ما زينت وعلى حسب ما زخرفت، وحتى تكون هذه الزيادة بعينها فيما لها من قوة الهوى والعشق>>[1].

وعليه أول نوع هو الطباق الذي يعدّ عنصرا من عناصر البديع ، تناوله أهل البلاغة واهتموا به كغيره من العناصر البديعية الأخرى،فحاولوا تحديد مصطلحه ومعناه وبيان حدوده وأنواعه ، فالتقوا جميعهم في معنى واحد من ذلك ما قاله " أبو هلال العسكري:<< بأنّ الطباق في الكلام هو الجمع بين الشيء وضدّه في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت من أبيات القصيدة مثل الجمع بين البياض والسواد، والليل والنهار، والحّر والبرد>>[2].

و أيا كانت مدلولاتهم الاصطلاحية لكلمة الطباق، فإنّ النصوص القرآنية قد نقلت إلينا شواهد حملت هذا الفن من البديع من مثل قوله﴿تولج الليل في النهار و تولج النهار في الليل وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب﴾ [3]،<< ففي العطف بقوله تعالى:﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾دلالة على أنّ قدر تلك الأفعال العظيمة على أن يرزق بغير حساب من شاء من عباده ، وهذه مبالغة مشحونة بقدرة الإله>>[4].

ومهما بلغ الطباق من تعريفات ورسم للحدود وذكر للأمثلة؛ فإنّ ما يهم الآن هو التعريج إلى هذا النوع البديعي كصورة من الصور المستخدمة عند الشاعر بالنظر إلى ديوانيه سقط الزند واللزوميات بجزئيه،لمعرفته وتبيين الغرض منه خاصة؛وهذا ما سوف يظهر في هذا البحث.

لذا وظف أبو العلاء المعري البديع ليخدم ديوانيه خاصة لزومياته وأفكاره أيضاواتّسم بديعه بالعفوية و السّلاسة،كما سيطر على شعره عنصر الطباق، ويرجع ذلك لتجاربه وخبراته التي مّر بها في

---

[1]- مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب ، دار ابن الجوزي ، ط1 ،2009 ، ج1، القاهرة ، ص :255.

[2]- أبو هلال العسكري : الصناعتين ،الكتابة والشعر، ص :339.

[3]- آل عمران /الآية 27.

[4]- أحمد مطلوب وحسن البصير : البلاغة والتطبيق ، ص : 442.

هذه الحياة المتناقضة،فطباقه لم يكن صنعة زخرفية تكلّف فيها،ولكنه كان طباقا فكريا فلسفيا جامعا بين أضداد عدّة متجذرة في نفسيته .

لذلك مثّل العنصر الأساسي في بناء صوره البديعية وتشكيلها على نحو ما نرى في قوله عن الدنيا :

ولم نحلل بدنيانا اختيارا ولكن جاء ذاك على اضطرار[1]

فقد أقام أبو العلاء المعري صورة بديعية عن طريق ألفاظه (اختيارا واضطرارا) ليرسم عن طريق طباقه صورة مفادها أنّ الإنسان في هذه الدّنيا مسيّر بإرادة اللّه وليس مخيّرا هذا ما يستدعي منه الإيمان بالقضاء والقدر الذي سلّطه اللّه عليه بدون سخط أو تذمّر خاصة إذا كان متأكد من أنّ الملك لله وحده وليس لهذه الدّنيا،يقول :

والملك لله والدنيا بها غَيــــر خير وشر وإعدام وإيجاد

والناس شتى ولم يجمعهم غرض شدّ وحلّ واتهام وإنجاد[2]

من خلال هذه الأبيات يستشف أنّ أبا العلاء المعري قد وظف طباقا مزدوجا من خلال ألفاظه (خير وشر) و(إعدام وإيجاد) و(شد وحل) و(اتهام وإنجاد)، كل هذه الطباقات المتداخلة في نصه الشعري تنّم عن عمق التناقض الصارخ المنبعث من نفسيته عن الدّنيا المؤلمة حتى يصل بها إلى هدفه المنشود،وهو يبين حقيقة الدنيا للناس التي لم يرى فيها المعري غير التناقض من خير وشر وإعدام وإيجاد والناس فيها بين شدّ وحلّ واتهام وإنجاد لذلك ينبغي عدم تعليق آمال عليها خاصة أنّها بيد اللّه وهو الذي يسيّرها؛لذلك نراه يوصي الناس بترك الدنيا والابتعاد عنها .

وهذا ما نمثله بقوله :

ذر الدنيا إذا لم تحْظ منها وكُنْ فيها كثيرا أو قليلا[3]

من خلال هذا البيت استطاع المعري رسم وتحديد صورة بهدف ترك الدنيا وملذاتها حين قال (ذر الدنيا) وإذا تُتبع مساره في الحياة لوجد تاركا للدنيا صادا عنها زاهدا فيها وهذا ما أراده المعري

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :381.

[2]- المصدر نفسه ، ص :223.

[3]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص:268 .

،لأنه وجد فيه راحة ومتعة أراد أن يتنعم بها الجميع؛لذلك استعمل لفظة(كثيرا أو قليلا) وهو طباق جمّل به صورته عن الدنيا من أجل الوصول إلى المعنى المراد.

فالمعري كان يريد أن يتمنّع الإنسان عن هذه الدنيا ولا ينساق وراءها، فيكون كثير أو قليل للتقوى والزهدوالتعبّد، المهم هو ترك ملذات الدنيا والتقرب إلى الله ؛ فهي كالغول تقدم وتؤخر وتؤنس وتوحش ، يقول :

كالغول غالتك بتلوينها بين تقد يها وتْبنيسها

كم آنستني بعد إيحاشها وأوحشتني بعد تأنيسها[1]

فقد أقام أبو العلاء المعري عن طريق طباقه (تقديها وتبنيسها) وبين (آنستني وأوحشتني) صورة رسمها من تناقضات الدنيا،وتلك الصورة ممزوجة بتشبيه واضح؛حين جعل الدنيا كغول أو وحش يفترس،تتبدل وتتغير وتقدم وتؤخر وتؤنس وتوحش، كل هذا من أجل الوصول إلى حكمة أرادها المعري وفلسفة مفادها التعريف بحقيقة الدنيا الخادعة ولم يبق فيها إلا ما هو نحس يتعس المرء ويدخله في دوامة من الأحزان على حدّ قوله :

إلا إنّما الدّنيا نحوس لأهلها فما في زمان أنت فيه سعود

يُوصي الفتى عند الحمام كأنه يـمّر فيقضي حاجة ويعود[2]

فقد دخل أبو العلاء المعري في تشاؤم شديد حتى اسوّدت الدنيا عليه، و<< غربت من سماء الدنيا كل كواكب السّعد ونجومه، ولم يبق إلا نجوم النّحس مطلة على الوجود ، وكأنّ أحدا لا يستطيع إنقاذ الناس من كوارث هذا النّحس وشره المستطير >>[3].

فبات متعجبا من وجه الفتى الضاحك بعد هذا السواد الذي ألمته الدنيا به ، يقول :

ويبدي لدنياه الفتى وجه ضاحك وما فتئت تبدي له وجه عابس[4]

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص:50.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص:211.

[3]- شوقي ضيف : فصول في الشعر ونقده ، دار المعارف ، ط3 ،(د، ت) ، ص :115.

[4]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص:471.

لقد رسم أبو العلاء المعري صورة أساسها التطابق الحاصل بين (وجه ضاحك) الذي أعطاه للفتى و(وجه عابس)ميّز به الدنيا، فهذا التناقض بين المرء ودنياه هو ما أحس به المعري لذلك سعى إلى تجسيده بأبيات شعرية تخدم غرضه وتوصله إلى الهدف المنشود مع إضفاء نغم من خلال التطابق بين الألفاظ والعبارات مما يؤثر في أذن السامع أو المتلقي.

فصحيح دعا المعري في الكثير من الأحيان إلى التصبر و الإيمان بقضاء الله وقدره ولكن هذا لا يعني عنده أنّه يفرح لمصائب الدنيا خاصة بعدما قابلته بذلك الوجه العابس الذي يرمز من خلاله إلى كل ما هو سّيء من ألم وحزن وتشاؤم وسواد،لذلك نراه يتعجب من حال المرء وهو يقابلها بوجه ضاحك ، فحال الناس عنده لا يُسِّر فتجد منهم السعيد والشقي وهو بالتأكيد من صنيع الدّنيا ، وهذا ما أقّر به أبو العلاء المعري قائلا:

وتنقل منها فالسّعيد مكّرم بما هو لاقٍ والشقّي مشذب[1]

فالدنيا تكرم السعيد وتهين الشقي ولا تكتفي بهذا فقط بل قد تفقر المرء وتغنيه يقول :

ويا بلادا مشى عليها أولــوا افتقارا وأغنياء
إذا قضى الله بالمخازي فكل أهلــيك أشقياء
كم وعظ الواعظون منّا وقام في الأرض أنبياء
فانصرفوا والبلاء بــاق ولــم يزل داؤك العياء
حكم جرى للمليك فــي ونحن في الأصل أغنياء[2]

فالمعري هنا ينادي تلك البلاد التي ملئت بالمخازي والعصيان بالرغم من انتشار الوعاظ ومجيء الأنبياء،ولكنهم انصرفوا عن الوعظ والإرشاد وإتباع تعاليم الدين إلى التعب والشقاء،وهذا ما أكده بقوله (انصرفوا) و(لم يزل داؤك العياء).

يناديها المعري بانيا بيته على أساس الطباق بين (افتقار وأغنياء) ليصل به إلى التحسيس بحالة الناس في الدنيا.

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص:64.

[2]- المصدر نفسه: ص:41.

فالمعري استطاع تبليغ ما يعانيه من آلام وحسرة ، من خلال هذه الأبيات التي بنى أولها على الطباق ، فقد أحسسنا بما أحسّ به وبلغنا التحسر على ما روى .

فعلا استطاع الشاعر تحقيق هدفه المنشود من خلال هذه الأبيات المبنية على التطابق إضافة إلى النغم الذي يحدثه ذلك التطابق في الألفاظ والعبارات وما يحدثه في نفس السامع أو المتلقي من أثر قوي،بل نراه في بيت آخر من لزومياته يؤكد على حقيقة الفقر للبشر وينفي الغنى عن الأنام،فمن سبقه ذوقته الدنيا فقرا وغنى،ولكن من عاش في عصر المعري لم يذق طعم الغنى، فكأنّه لا وجود إلا للفقير ،يقول :

وجدت الل كلهم فقير ويُعدم في الأنام الأغنياء[1]

ويقول :

إنّ الغنى لعزيز حين تطلبه والفقر في عنصر التركيب موجود[2]

و الفقر والغنى الذي تحدّث عنه المعري ليس غنى المال فقط وفقرها منه،بل هو فقر من الرشاد و الهداية ،على نحو ما قال :

أغناهم الله من مال وأفقرهم من الرشاد فما استغنوا بل افتقروا

ويحقرون أخا الإعدام بينهم وإنّ أفضل منهم للذي احتقروا[3]

ويقول أيضا :

وإنّ الغنى والفقر في مذهب النّهى لسيان بل أعفى من الثروة العدم[4]

فالأبيات مبنية على التطابق بين (أغناهم وأفقرهم) و(يحقرون ،وإنّ أفضل منهم) للدلالة بها على الناس الذين هم ليسوا بسواء ،والدنيا هي المسئولة على التفريق بينهم فتفقر هذا من ماله وتغني ذاك برشاده وتحتقر وتفضل حينا آخر،فهذا العالم مليء بالتناقض والأضداد غنى وفقر وتحقير وتفضيل وخير وشر،هذا الأخير الذي قال عنه أبيات من مثل قوله:

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :42.

[2]- المصدر نفسه: ص:221.

[3]- المصدر نفسه:ص :290.

[4]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :235.

والخير والشر ممزوجان ما افترقا فكل شهد عليه الصّاب مذرور[1]

ويقول :

والشّر مشتهر المكان معرّف والخير يُلمح من وراء خمار[2]

فقد بنى بيتيه على التضاد الواضح بين ثنائية الخير والشر،فقد خلقا مع بعض فهما ممزوجان ما افترقا ، والشر مكانه معروف والخير بيّن واضح حتى وإن أردت إخفائه .

فقد هدف أبو العلاء المعري إلى تبليغ حكمة من وراء الخير والشر فكأنه يوصي الخلق بعمل الخير وترك الشر الذي لا خير فيه.

وبذلك يكون قد أسس طباقه من خلال قوله (فقير ،أغنياء) وزاد تأكيده باستعمال لفظة (وجدت) التي توحي بخبرة المعري وتجربته في الحياة التي حملته مثل هذا المعنى وزاد عليه حين نفى الغنى على كل الأناموحمّل الفقر على الجميع بقوله (الناس كلهم).

ومن هنا يتبيّن أنّ أبا العلاء المعري قد خبر الحياة فعلا وهو متأكد من حقيقة الدنيا لذا أراد إيصال حكمه وفلسفته التي خرج بها إلى البشر حتى يكتشفوا ما لم يكتشفوه،فيأمنوا شرها وخداعها الذي طالما مارسته عليهم فيبتعدوا عن تصديقها وإتباعها خاصة أنّها غررت بهم .

فقال :

رويدك قد غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء

يحرّم فيكم الصّهباء صبحا و يشربها على عمد مساء[3]

فقد بنى أبياته على صورة طباقية يملأها التناقض بين (الصبح) الذي يمثل النور والضياء والحلال وبين المساء الذي يجسد الظلمة والسواد والحرام حتى يصل إلى هدف واضح وهو أنّ الدنيا خادعة وأغرت بوعظها المرء ،لذلك نراه في كل مرة يوصيه بالتحلي بالصبر والتمهل،وهذا ما عكسته لفظة (رويدك) التي تنم عن الاندفاع القوي الذي رآه المعري في أعين البشر اتجاه الدنيا وخداعها باعتبارها

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :293.

[2]- المصدر نفسه:ص :392.

[3]- المصدر نفسه: ص :48.

صاحبة حيلة وطبعا حتى يتوصل إلى إقناع المرء بحقيقتها ضرب مثلا للخمر التي تحرمه في الصبح ولكنها تحلله في الظلام حيث لا يراها أحد.

فحقا إنّها دنيا عجيبة جعلها المعري كإنسان يعظ ولكن عظاته بها نوع من الخداع والتحايل لذا وجب عدم إتباعها.

وحال المعري فيها لا يبتعد عن حال البشر فقد عانى آلاما حادة فمزقته الدنيا تمزيقا بقواطعها القوية أحزنته وأفقدته أحبائه وخلانه وحتى بصره وكل ما يملك،لذلك نراه كثير التشاؤم منها عيونه لا ترى إلا السواد الذي خلفته،و لكن المعري وجد الحّل الأمثل في اعتزال الناس والدنيا بما فيها؛لأنه وجد راحته في البعد والانفراد، يقول مؤكدا هذه الحقيقة :

بعدي من الناس برء من سقامهم وقربهم للحجى والدين أدواء[1]

فقد رسم المعري صورة على أساس الطباق بين (بعدي وقربي) حتى يبين لنا أنّ الناس في جهالة وضلال وبعده عنهم شفاء له،ولا يتحسن حالهم إلا إذا اقتربوا من اللّه واتبعوا تعاليم الدّين على حقيقتها والابتعاد عن ذلك الزيف الذي لاحظناه في الأبيات السابقة الذي يجعل المرء يحلل الحرام و يحرم الحلال،وهنا لا يكون حاله إلا كما قال المعري بين (مفتضح) و(مخف) على نحو قوله:

عدمتك يا دنيا فأهلك أجمعوا على الجهل طاغ مسـلم و معاهد

فمفتضح يبدي ضمائر صدره ومخف صمير النفس فهو مجاهد[2]

لذلك يكون المعري قد وصل إلى قناعة أراد إيصالها إلى المتلقي وهي ضرورة الاعتزال والزهد في هذه الدنيا التي لا خير فيها وفي عبادها الذين أجمعوا على الجهل فلم يخرجوا عن نطاقه،فعبر عنها بهذه الأبيات المتناسقة وبألفاظ براقة ومفهومة ومعنى مؤسس على تطابق واضح أيضا،فلا حياة عند المعري في هذه الدنيا التي تضرب البشر بشرورها ، يقول:

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :40.

[2]- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1 ، ص: 208.

على الدنيا السلام ، فما حياة إذا فارقتكم ، إلا نعي[1]

يظهر المعري من خلال هذا البيت الذي بناه على التطابق بين (الحياة) التي تدل على الاستمرارية ومواصلة العيش وبين (النعي) الذي يرمز به إلى الموت والتوقف والفناء.

والحياة والموت ضدان إذا حضر واحد غاب الثاني،لذلك نرى المعري يؤمن بحقيقة الموت بعد توقف الحياة،وهو مستسلم لهذه الحقيقة ومؤمن بها،وهذا واضح من خلال عبارته(على الدنيا السلام) الذي يرمز بها إلى قطع الأمل في العيش والبقاء لطالما فارقتنا هذه الحياة،وأسمعتنا نعيا ونحيبا على ممر العصور إذا تعلق الأمر بمفارقة الأصحاب والخلان، يقول:

أما الصحاب فقد مروا وما عادوا و بيننا بلقاء الموت ميعاد

يسران ضدان من روح ومن جسد هذا هبوط وهذا فيه فيه إصعاد[2]

فالهبوط والصعود كلام يحمل معنى التطابق والتناقض،فهذا تصعد روحه إلى السماء فيموت وذاك يهبط إلى الأرض، فيولد ويكتب له عمر جديد،فصورة الحياة وما يملأها من تناقض بين العفة والفتنة، وصورة الموت وما فيها من جنة ونار مصير كل البشر، يقول:

وهي الحياة فعفة أو فتنة ثم الممات فجنة أو نار[3]

فقد بنى بيته على متناقضات عدة بين العفة والفتنة التي نراها في الحياة وبين الجنة والنار وهي مصير المرء بعد الممات.

وهو كلام منطقي ومقبول استوحاه من الدين وتعاليمه ومن خبرته في الحياة وبذلك يكون المعري بمفهومه قريب إلى كل الأذهان؛حيث لم يأت بما يتعارض مع أفكارهم بل جاء بما يؤكد ما

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص:259.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج1 ، ص: 222.

[3]- المصدر نفسه:ص: 316

يعلمون ،ولكن بصورة جميلة مليئة بالطباق الذي يوقع من دون شك في نفس المتلقي أثرا بليغا ، خاصة إذا كان متأكدا بما يقوله المعري من أن الحياة الدنيا هي دار شرور والآخرة دار سرور، وهذا ما أوحى لنا به المعري بقوله:

عدت دار الشرور ونحن فيها فمن يهدي إلى دار السرور[1]

فإذن المعري ونظرا لمعاناته من هذه الدنيا تبين أنه صورها كثيرا في أشعاره فعدد صورها باثا من وراءها الحكمة والفلسفة التي خرج بها منها.

وهي ليست وحدها من عانى منها المعري،بل نراه في أحيان أخرى يصيب بسهامه الدهر الذي لا نفرقه عن الدنيا في إيذائه له ، وأول صورة رسم فيها حقيقة الدهر وبناها على أساس التطابق ما نرى بقوله:

عرفت سجايا الدهر أما شروره فنقد و أما خيره فوعود

تسير بنا الأيام و هي حثيثة و نحن قيام فوقها و قعود

فما خشيت في السير ذلة عاثر ولكن تساوي مهبط وصعود[2]

لقد خبر المعري هذا الدهر بسنينه وأيامه ولياليه، كما خبر قبلها الدنيا والحياة فوجد فيه الشرور فوجه النقد وعدم الرضا والسخط،وأما خيره فهي مجرد وعود (فالشرور والخير) للدهر شكلت لنا صورة رسمها المعري ليبين حقيقة الدهر مثلما بين حقيقة الدنيا من قبل،فكأن الخير مفقود لطالما هو مجرد وعود ،والشر متجذر في الإنسان متأصل و باق، وقد عقد أبياته إضافة إلى الطباق الحاصل في (فوقها و قعود) وبين (مهبط وصعود) مستعيرا فعلا لسير للأيام التي تفعل ما يفعله الإنسان تسير بهم وهم قيام و قعود و في مهبط وصعود،فكأنه أكسب الدهر وبالضبط الأيام فعل الحركة الدائم

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1،ص: 378.

[2]- المصدر نفسه: ص :212.

يحركه في كل اتجاه حتى يصل بنا إلى فهم الدهر و حركة الأيام فيه،و في مرات أخرى يتعجب من الدهر فلا جديد فيه أوله كآخره،يقول:

أعجب بدهرك أولاه وآخره إن الزمان قديم سنه حدث

أودى رداه بأجيال فكم حفرت أجداث قوم ولم يحفر له جدث[1]

ما يستكشف من خلال بيتي المعري أنه متعجب لحقيقة الدهر،فلا فرق بين أول الدهر وبين آخره (فأولاه و آخره) متناقضان أسس عليهما المعري بيتاه،ولأن الدهر عديم الفائدة، فوجوده كعدم وجوده في نظر المعري،لذلك نراه يتعجب منه وهو يحفر قبورا للقوم ولا يحفر قبره بيديه، وحدث أن شخص الدهر وجعله كإنسان يتمنى المعري له الموت والفناء خاصة إذا أسهمه بصروفه ورزاياه،يقول:

أما رأيت صروف الدهر غادية على القلوب بتبغيض وتحبيب[2]

ويقول في نفس المعنى:

يأتي على الخلق إصباح وإمساء ولكنا لصروف الدهر نساء[3]

فهو يرى صروف الدهر أمام عينه فأراد أن يحسسنا بها بقوله(أما رأيت)، فصروفه تنزل على المرء ، فتحببه إذا أعطته شيئا جميلا وتنفره منها إذا أذته و آلمته.

ففي طباقه بين (اجلس وقم) تجاوز أبو العلاء (لعبة الدهر) في الحدود المتعارف عليها هادفا إلى التجديد وذلك عندما طرق موضوعا هزليا ممزوجا بالجد،فغلفه بظلال من الحزن والأسى من لعبة الدهر التي تأمره بصوتها أن قم واجلس.

---

[1]- المصدر السابق: ص: 116.

[2]- المصدر نفسه: ص :112.

[3]- المصدر نفسه : ص: 39.

و نراه كثير التكلم عن حاله في هذا الدهر وعن الناس من حوله ،كقوله:

وإن مدحت بخير ليس من شيمي حسبتني بقبيح الذم فريت[1]

هنا يتضح أن الشاعر يبني بيته على الطباق الحاصل بين (مدحت بخير) وبين (قبيح الذم) حتى يبين للخلائق أخلاقه وفضائل نفسه،فهي لا ترضى أن تمدح بما ليس لها، فمدحه بما ليس فيه كذمه، والمادح عنده كمن هجاه،يقول:

سيان عندي مادح متخرص في قوله وأخو الهجاء إذا ثلب[2]

والساكت كالمكثار يقول:

بيني وبينك من قيس وإخوتها فوارس تذر المكثار سكيتا[3]

لقد رسم المعري صورة بيته وبين غيره على أساس التطابق الحاصل بين (المكثار سكيتا)، فهناك حد بينه وبين الذي يكثر الكلام كالحد الذي وضعته قبيلة قيس على الفوارس العديان.

فهنا يبني بيته على أساس التناقض الحاصل بين الصمت والتكلم هادفا به إلى تفضيل السكوت عن الكلام الذي لا فائدة منه،خاصة إذا كان فيه نوع من الكذب والبهتان يقول:

على الكذب اتفقنا فاختلفنا ومن أسنى خلائقك ا لصموت

و قد كذب سمي وليدا يعيش وبر من سمي يموت[4]

---

[1]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1،ص :134.

[2]- المصدر نفسه: ص: 125.

[3]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :296.

[4]- أبو العلاء المعري :اللزوميات ،ج1 ، ص :139.

فالمعري يظهر من خلال نصه هذا أنه يمقت الكذب متعجبا من المرء الذي سمي نفسه وليدا، وهو رمز للحياة والعيش ويبرأ من سمى نفسه (يموت)،ومن هنا أراد أن الحياة كذب و العيش والموت فيها حق،فصفة الكذب التي لمحها المعري في أجناس البشر جعلتهم لا يقتربون من الصورة المثالية التي رسمها على الناس وحالهم،فوجد فكره مناقض لما رأى في الوجود، فقد ابتعد الأنام عن العلا الذي رسمه المعري في باله،لذلك هو حريص يخافهم ويترقب أفعالهم ، يقول:

وجدتكم لا تقربون العلا كما أنكم لا تبعدون عن النسب

أرى اللب مرآة اللبيب ومن يكن مرائيه الإخوان يصدق ويكذب[1]

فقد وجد الطباق في (لا تقربون ولا تبعدون) وفي البيت الثاني (يصدق ويكذب) وفي هذا كله دلالة على عدم الائتمان من الناس،لذلك نراه يحذر منهم ،بقوله:

فاحذر الإنس أدناهم وأبعدهم وإن لقوك بتبجيل وترحاب[2]

ما يلاحظ هو أن أبا العلاء المعري يخاف ويرهب من الناس سواء كانوا من أقربائه أو من لا تكن لهم به صلة،وهذا ما أدرجه بقوله (أدناهم و أبعدهم)،فأراد بذلك التحذير من الأقارب والأباعد حتى وإن جاملوك على حد قوله مستعملا عبارة (وإن لقوك بتبجيل وترحاب)،فلن تصدقهم.

فالمعري هنا أسس بيته على الطباق الذي أظهرته مفسرا به على ضرورة الحرص والحذر من الناس جميعا؛لأنه لا يؤتمن لهم جانب وهنا يكون قد عكس لنا خبرته وتجربته من الحياة وما تحيط به من أفراد ومعاملات ،لذلك حرص على تأكيدها للناس حتى لا يقعوا في الخطأ الذي وقع فيه وأعده عيبا على نفسه مفسرا ذلك بقوله:

عيوبي إن سألت بها كثير و أي الناس ليس له عيوب

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 : ص :100.

[2]- المصدر نفسه: ص :110.

و للإنسان ظاهر مـا يراه و ليس عليه ما تخفي العيوب[1]

فالظاهر وما تخفيه العيوب متطابقان استعملهما المعري في أبياته؛ليبين بهما أن الإنسان مهما بلغ من أخلاق رفيعة إلا أنه معرض للخطأ واقتراف العيوب .

واستفهامه بقوله (وأي الناس ليس له عيوب) دليل على تأكيده على أن العيب سمة من سمات البشر فترى للعيان كالظاهر حتى وإن اجتهد المرء في إخفائها.

وقوله هذا ينقص من قدره بل يزيده وقارا لأنه مقر بحقيقة نفسه التي لا تختلف عن حقائق البشر، فإرادة المرء وتحديها هي من تصنع مجده وتعليه،فلا يهم إذا أخطأ المهم إذا تخطاها،ليعلوا ويكبر من بعد صغره ووضاعته ، يقول:

وقد ينمي كبير من صغير وينبت من نوى القسب اللبان[2]

لقد رسم المعري لوحة مميزة تكشف عن جمال الألفاظ التي بناها على طباق تمثل في (كبير وصغير) مشبها نمو الإنسان وعلوه بالقسب الذي يستخرج من اللبان وهو النخيل، فهدفه كان من خلال توظيفه للطباق والتشبيه هو شحن الهمم وبث الإرادة في نفوس البشر حتى لا يبقى الوضيع وضيعا ولا يبقى الصغير الحقير صغيرا،فبإمكان الحقير أن يصبح جليلا مثله مثل التمر اليابس الذي يخرج من النخيل، وبإمكانه تحقيق السعادة التي حلم بها في هذه الحياة وانتزاعها من الشقاوة المسخرة إليه، حتى وإن طعم السعادة عند المعري ناقص،فإنه سوف يظل ينشدها كوسيلة من وسائل الراحة ، يقول في ذلك:

وإن سعدت فما تنفك في تعب وإن شقيت فمن للجسم لو همدا[3]

---

[1]- المصدر السابق:ص :75.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :49.

[3]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :139.

فالسعادة و الشقاء أساس الطباق في هذه الصورة،مثله الرشد و الغي الذي وظفهما لبناء نص شعري آخر يقول فيه:

إن لم يكن رشد الفتى نافعا فغيه أنفع من رشده[1]

حين خبر المعري الحياة وجد فيها تناقضات جمة كالصدق،والكذب،والإخلاص،والخداع والسعادة،والشقاء،والكبر،والصغر،والمدح،والذم،والرشد،والغي أيضا،كل هذه الألفاظ المتناقضة لمحها المعري في محيطه ما يدل على وجود تناقض في المجتمع وقد تأصل في قضية المعري،مما أدى به إلى رسم و بناء صور ليخبرنا بما رأى من تناقض فها هو الرشد و الغي سيان إذا لم يحقق المرء به المنفعة مثلا كان الصدق والكذب والمدح و الهجاء وغيرها من المتناقضات التي تأكد المعري من أنها لا تفترق عن بعض ونظريته هنا تبين يأسه من الحياة ومن تناقضات العباد فيها،وما كلامه هذا إلا استسلاما منه لهذه الحقائق التي أتعبته و أرقته حتى وصل إلى الإيمان والاستسلام لإرادة الموت ،يقول:

ولا يبالي الميت في قبره بذمه شيع أم حمده[2]

فالحي لا يبالي بتلك التناقضات و الميت أيضا لا يبالي إذا كان قد ذم في تشييعه إلى قبره أم مدح ، فالمدح و الذم لم يعد ينفع بشيء ، فالذي ينفعه بالتأكيد هو حقيقة عمله في قبره و حالته في وسطه ، يقول :

فيا قبر واه من ترابك لينا عليه وآه من جنادلك الخشن[3]

فقد وقف المعري هنا في بيته هذا مناديا و مناجيا القبر الذي سوف يؤول إليه ؛ فهو مصير محتم عليه وعلى جميع البشر، و قوله (واه و آه) لدليل قاطع على تحسره و تأسفه على ذلك المصير

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :207.

[2]- المصدر نفسه : ص :207.

[3]- المصدر نفسه: ص :240.

المؤلم الذي شبهه بجنادل خشن قد وضعت مفروضة على الميت و كأنها مانعة له من القيام، أما التراب فهو لين يدل به المعري على حسن حاله في قبره .

و هكذا فخلاصة القول هو أن أبا العلاء المعري قد وظف الطباق في شعره بكثرة فجمع بين الأضداد، مثلما جمعت نفسه متناقضات الحياة من فرح وسرور وسعادة وشقاء وصدق وكذب وحمد و كبر ومدح و ذم، وغيرها من الصور التي وظفها التي تنم عن الطباق الفكري والفلسفي الذي يحويه عقله.

2- المقابلة :

المقابلة شأنها شأن باقي المحسنات البديعية الأخرى التي عرفت سابقا من خلال بعض الدراسات اللغوية والأدبية كالطباق والسجع والجناس وغيرها، و قد توارد معناها عند أهل البلاغة، فحددها القزويني" بقوله:<<هو أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ثم بما يوافقها أو يقابلها على الترتيب و المراد بالتقابل خلاف التوافق >>[1].

أما أبو هلال العسكري يعرفها بأنها:<< إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى و اللفظ نحو قول الجعدي :

فتى كان فيه ما يسر صديقه على أن فيه ما يسوء الأعاديا>>[2]

وقد وردت في القرآن الكريم نحو قول الله تعالى:﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾[3]؛فقد خربت بيوتهم وخويت مقابلة لظلمهم وكفرهم، <<فإذا كانت المقابلة هي إيراد الكلام ثم المقابلة بمثله

---

[1]- أبو عبد الله بن زكريا القزويني :الإيضاح في علوم البلاغة ، ص :321 ، 322.

[2]- أبو هلال العسكري: الصناعتين، الكتابة و الشعر ،ص :339.

[3]- النمل/ الآية52.

في المعنى و اللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة>>[1]، فإنها عند المعري كذلك وتظهر من خلال استعماله لها في نصوصه الشعرية.

فأكثر الصور التي لحظتها من خلال دراستي لديوان المعري سقط الزند و اللزوميات بجزئيه هي تلك الثنائيات القائمة على العناصر المتقابلة،ليكشف بها عن ذلك الارتباط الوثيق والخفي بين علاقات النصوص المتقابلة وبين مواقفه وفلسفته في الحياة،كمشاكل الوجود ومختلف الظواهر المتناقضة في بيئته و محيطه .

لذلك يستعمل المقابلة كمحسن بديعي ثان بعد الطباق،لتصوير تلك الحقائق المتعلقة بالبشر، و من بين الحقائق التي اضطر المعري أن يقابلها في صورة ،هي حقيقة الموت الذي قال عنه:

أيرجون أن أعـود إليهم لا ترجـوا فإنني لا أعـود

ولجسمي إلى التراب هبـوط ولروحي إلى الهواء صعود

و علـى حالها تدوم الليالي فنحوس المعشر أو سعود[2]

فقد صور أبو العلاء المعري حقيقة الموت وحتميتها على البشر؛حين قال (لا ترجوا فإنني لا أعود) فهو متأكد من عدم عودته للحياة مجددا،فلا يستطيع الميت أن يخرج من التراب الذي هبط فيه ولا الروح تستطيع المجيء بعد الصعود إلى السماء، وتراه يقيم صورة تقابلية يقدم فيها بشعة للموت حينا وصورة جميلة حينا آخر، يقول:

وما أعدل الموت من آت واستره فيهيجني فإني غير مهتاج

العيش أفقر منا كـل ذات غنـى والموت أغنى بحق كل محتاج

---

[1]- أبو عبد الله فيصل بن عبدة قائد الحاشدي : تسهيل البلاغة ، دار القمة ودار الإيمان،(د ، ط ، د ، ت)، الإسكندرية ، ص :114.

[2]- أبو العلاء المعري :اللزوميات ،ج1 ، ص :234.

إذا حيــاة علينا للأذى فتحت بابا من الشر لا قاه بارتاج[1]

فكأنه أراد بتصويره هذا الذي أسسه على المقابلة بين (العيش و الموت)،وكذا بين(أفقر وأغنى) أن يثبت أحقية وأفضلية الموت على الحياة ؛لأنه ستر له من مشقات العيش.

فاستخدامه لذلك التقابل بين ثنايا عناصر أبياته ما هو إلا إبداع أراده المعري و تحراه في ألفاظه ومعانيه،فجاءت الصورة أكثر عمقا؛لأنها تحاكي العقل فقد وجد في الموت راحة ورحمة،وهذا ما أكده بقوله:

إن الذي الوحشة في داره تؤنسه الرحمة في لحده[2]

فكل من (الوحشة، تؤنسه) و(داره، لحده) كلاهما ثنائية تحوي تقابلا واضحا من تقابلات الحياة ،فالوحشة في دار الدنيا تتحول إلى أنس في القبر الذي يمثل دار الآخرة.

فقد بنا المعري بيته على أساس التقابل من أجل تحقيق المعنى المراد المتمثل في أفضلية الموت؛ لأن فيه من الرحمة ما فقد في الدنيا كما فقد أشياء أخرى وضحها المعري بقوله:

قد فقد الصدق ومات الهدى واستحسن الغدر وقل الوفاء[3]

من خلال هذا البيت يلُمح أنّ المعري قد رسم لوحة شعرية قائمة على تقابلات عدة استوحى مفاهيمها من الحياة التي عاش فيها، وأسسها على تقابل واضح من خلال ألفاظه (فقد واستحسن) و(الصدق، الهدى، الغدر، الوفاء)،فهي كلها عناصر افتقدها المعري في الناس فأراد تبليغنا بها حتى يبين حقيقة البشر وتعاملهم،لكي لا ينخدع أحد فيهم يكشف به عن تفضيله للموت عن الحياة ،

---

[1]- أبو العلاء المعري : أبو العلاء المعري ،ج1 ،ص :180.

[2]- أبو العلاء المعري :سقط الزند ، ص :209.

[3]- أبو العلاء المعري : أبو العلاء المعري ،ج1 ، ص : 54.

فالحياة بمناقضاتها كانت سببا في تنفير المعري منها و تمنيه للموت، ذلك الشبح الذي لم يعد ليرعب المعري؛لأنه اكتشف حقيقته وآمن بها ، يقول:

وجدت الناس ميتا مثل حي بحسن الذكر أو حيا كميت[1]

لقد خبر الحياة حقا وآمن بالحقائق التي وصل إليها،وهذا ما يفسره قوله (وجدت) فلولا الخبرة ومجاراة الأحداث والتجربة العميقة ما استطاع أن يوظف مثل هذه اللفظة.

فقد خبر الحياة فوجد أن الحي فيها كميت، فلا فرق عنده إذا مات الإنسان لأنه أصلا ميت في نظره ،لذلك نراه يفرح لساعة موته أضعاف أفراح من ساعة ميلاده، يقول:

إن حزنا ، في ساعة الموت ، أضعا ف سرور ، في ساعة الميلاد[2]

(فساعة الموت، ساعة الميلاد) و(الحزن، السرور) إنه لمن حسن البديع أن وظف المعري مثل هذا التقابل الجميل؛حتى يصل به إلى معناه المنشود وتحقيق تناغم وجمال أخاذ وأثر في النفوس ،وقوله:

وإن عاش لاقى ذلة واختياره وفاة عزيز ، لا حياة ذليل[3]

فالموت تحفظ كرامة الإنسان التي فقدت في هذه الدنيا فغطاها الذل والهوان،لذلك يفضل المعري الموت بعزة وكرامة على البقاء في الحياة ذليل، فالحياة مليئة بتناقضاتها وسوادها المأخوذ من عتمة الليل وظلمته، يقول:

إذا رأيت سواد الليل فانصلتي وإن رأيت بياض الصبح فانصاعي[4]

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1،ص :162.

[2]- أبو العلاء المعري :سقط الزند ، ص :197.

[3]- المصدر نفسه :ص :213.

[4]- المصدر نفسه: ص:149.

فسواد الحياة والدنيا في وجهه قد أخذه من سواد الليل وبياض الصبح عكس به عن أوجه الحياة من شرور وخير وصلح وهداية وكرم وشح وصدق وكذب وغيرها من التقابلات التي ترسخت في ذهن المعري،فأراد أن يبينها بأشعاره ويوضحها في ظل غياب العقل وتسلط الطبع .

وبهذا يكون أبو العلاء قد أبدع في صوره أيما إبداع، فجاءت بذلك صوره معبرة بدقة وإحكام عن مواقفه في الحياة وتأملاته الفلسفية إزاء الدنيا والوجود بعيدا عن الخيال فقد تحرى الصدق وعاهد نفسه إلا يضيع فيها إلا ما يعتقد أنه الحق وأنه من الكذب بريء وهذا ما أكده في مقدمة لزومياته (توخيت صدق الكلمة ونزهتها من الكذب).

وهذا ما أكده الدكتور شوقي ضيف؛حين قال (وكان حظ شعره في هذا الطور من الخيال قليلا لأنه في هذا الطور عاش فيلسوف يتأمل الكون والحياة، ويدرس حقائق الأشياء وجوهرها)؛ لذلك جاءت صوره التي بناها على التضاد والتقابل صادقة ومعبرة وموحية تنم عن صدق أفكاره ومشاعره؛ فهي كترجمان لما تحويه نفسه وعقله من أفكار.

3 – الجناس:

يعد الجناس كغيره من ألوان البديع ، فهو محسن من محسناته اللفظية التي يدركها العفو ويأتي بها الطبع والسليقة،أما إذا أصابه التكلف بدا ثقيلا ونفرت عنه النفوس وعافته الأذواق،ومن ثم حقيقته تكمن في تشابه اللفظان في النطق و اختلافهما في المعنى.

وهذا ما أكده "الجرجاني" بقوله:<< أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا و لم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا>>[1].

وهو عند "أبي هلال العسكري" أيضا:<<أن يورد المتكلم كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها على حسب ما ألف الأصمعي في كتاب الأجناس>>[2].

---

[1]– بسيوني عبد الفتاح فيود :علم البديع ، ص :234.

[2]– أبو هلال العسكري : الصناعتين ، الكتابة والشعر ، ص :554.

وقال "الرماني "أيضا محددا الجناس:<< هو بيان المعاني بأنواع من الكلام يجمعهما أصل واحد من اللغة>>[1].

و قد ورد كثيرا في القرآن الكريم و الحديث الشريف مثل قوله تعالى فأما﴿اليتيم فلا تقهر و أما السائل فلا تنهر﴾[2]، فقد اختلف اللفظان (تقهر، تنهر) في حرفي القاف والنون، كما ورد في الحديث الشريف :<<اللهم أستر عوراتنا و آمن روعاتنا>>[3]و غيرها من الأقوال المليئة بالجناس، وقد أولاه الشعراء والكتاب عناية خاصة فتشبعت فروعه وكثرت أنواعه و تعددت مصطلحاته من جناس و تجنيس و مجانسة وتجانس، فكلا الألفاظ قد اشتقت من مفهوم واحد و تؤدي غرضا واحدا وهو اكتساب المعنى قوة ، و الأسلوب روعة ،واللفظ حسنا ،فيطرب السامع أو القارئ متأثرا بما جاء به و من هنا يحقق المبدع الغرض .

و الذي يهم الآن ليس تلك الأنواع والتقسيمات المملة المتداخلة، وإنما الجناس في شعر الشاعر و أثره المستوحى منه،فلا ينظر إلى الجناس كنوع؛وإنما ننظر إليه كإبداع راق قد يحقق الشاعر به هدفه و يصل إلى مراده.

و لذلك يتضح أنّ الشاعر قد نهل منه الكثير موظفا إياه في أشعاره واصلا به إلى ما كان يصبوا وهذا ما يظهر في خضم تحدثه عن الصبا و المشيب؛ فيقول :

وليس صبا يفاد وراء شيب بأعوز من أخي ثقة يفاد[4]

---

[1]- صلاح الدين الصفدي : جنان الجناس في علم البديع ، مطبعة الجوانب ، ط1 ،1299، قسطنطينية ، ص :15.

[2]- أبو عبد الله فيصل بن عبدة الحاشدي : تسهيل البلاغة ، ص :353.

[3]- بسيوني عبد الفتاح فيود:علم البديع ، ص :234.

[4]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :64.

لقد أراد المعري من خلال المجانسة بين لفظين (يفاد،يفاد)،فكأنه أراد بتلك المجانسة الوصول بمعناه إلى أن مرحلة الصبا ما منها فائدة بعد مشيب الإنسان و قربه إلى المصير المحتوم، وهنا إشارة إلى عدم التعلق بمرحلة الشباب و التحسر عليها و تذكرها والبكاء عليها .

فاستعماله للجناس في هذا البيت دل على تمكنه من المفردات أشد تمكن،حتى تلاعب بألفاظها و معانيها خاصة إذا كانت الألفاظ واحدة ك(يفاد، يفاد) المستعملة و هذا ما أظهر قدرته الفنية في تقليب وجوه المعاني و دلالاتها .

و التأهب لمرحلة بعد الشيخوخة هو ما لمح له بقوله :

ومن لم يأت دارك مستفيدا أتاها في عفاتك مستميحا[1]

ففي هذا البيت يلاحظ أن المعري قد جانس بين لفظة (مستفيدا) التي قصرها على حياة الدنيا و(مستميحا) التي يهبها الله بعفوه إلى عباده في دارة الآخرة،وقوله :

لا يصبرون فقير تحت فاقة إن السباريت جابتها السباريت[2]

فهنا يعز على القارئ فهم معنى البيت الذي أراده المعري من خلال المجانسة بين لفظتي (سباريت وسباريت) ، و لا يتجلى معناه إلا بفتح رموز تلك الألفاظ المتجانسة، فاستعماله لسباريت الأولى كان قاصدا بها هي تلك القفار من الأرض و السباريت الثانية عنى بها الصعاليك .

و من هنا يتبين من خلال هذه المجانسة أن المعري أراد بها الوصول إلى أن الفقير من الناس لا تأوه إلا أرض و ما علم من يحيط به إلا الصبر معه و تحمله،فكيف لا والصعاليك قد أوجدتها القفار الخالية فأخذتها كمرتع لها،وهنا نرى المعري قد تلاعب بألفاظ و معاني هذا البيت لتمكنه من مفرداته،والإحسان عنده واجب و مطلوب أوصى به فمثلما تفعل يفعل بك على حد قوله :

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص:63.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص :134.

عليكم بإحسانكم إنكم متى تَكبتوا غيركم تُكبتوا[1].

فقد جانس المعري من خلال توظيفه (تكبتوا) و (تكبتوا) في سياق الحديث عن الإحسان الذي يعد خصلة شريفة فيقول عليكم به؛ أي بالإحسان فمتى امتنعتم عن إسدال النعمة على غيركم فإنكم سوف تلاقون نفس المصير فتمنعوا منه وتتعرضوا إلى الإساءة وما أشدها في وقت المعري، لذلك نراه يبرئ نفسه كثيرا خاصة وأنه تعمد في الكثير من الأحيان عن طريق رسم صوره تبين حقائق متعلقة بالأخلاق و الحياة،فهو برئ إذا لم يتخذوا منها مثال و حكمة تنير دربهم أو إذا أخطأ في حق الله ،و هذا ما جاء به في قوله:

برُيت للأمر لم أعرف حقائقه فليتني من حساب الله برُيت[2]

فقد وظف في بيته ألفاظا متجانسة و متناغمة في (بريت) الأولى التي كان يقصد بها ؛ أي أنه يرى الله هو المسئول في خلقه و هو بريء منها، و بريت الثانية هي من أبراه أي سامحه .

و الزمان أيضا كان مصدرا ألهم المعري به شعره ،فاستقى صورا عديدة منه ساقها على أساس التجانس من مثل :

بت الزمان حبالي من حبالكم أعزز علي يكون الوصل مبتوتا[3]

فالتجنس حاصل بين (بت و مبتوتا) ، و يقول مواصلا عن صروف الزمان و رزاياه :

ولكن لقيت صروف الزمان و باشرتها مقنبا مقنبا[4]

---

[1]- أبو العلاء المعري :اللزوميات ،ج1، ص :144.

[2]- المصدر نفسه :ص :134.

[3]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :26.

[4]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :98.

فقد عمد الشاعر إلى المجانسة بين (مقنبا ومقنبا) على سبيل الجناس التام،وهذا ما عكس قدرته الفنية في تقليب وجوه معانيها بحسب الغرض المنشود .

و الدهر كالزمان عانى منه ؛لأنه بلاه بحوادثه و أيامه، يقول :

والدهر يشتف أخلاءه كأنما ذلك منه اشفاء[1]

فالدهر يشتف لأصحابه،فكأنه أراد أن الدهر يقتص من أحبابه و يعذبهم لأنهم أحبوه ، هي هنا على سبيل التجنيس الحاصل بين (يشتف ، اشفاء) و يلمح التجنيس عند المعري في قوله :

وليس قضيب الهند إلا كنابت من القضب في كف الهدان المعرد[2]

فالتجانس قائم بين(قضيب و القضب)،وعمد البطليوسي إلى شرح لفضتي القضيب والقضب فقال<< القضيب: السيف القاطع، وهو القاضب و القضوب أيضا و القضب هو ضرب من النبات يقال له الرطبة و الفصفصة >>[3].

و قد أراد به هنا سيف الممدوح القاطع ،فشبهه و هو في كفه كنبات القضب يلين في كل اتجاه و هو في إشارة إلى خفة الممدوح و حدة سيفه و تمرنه على القتال.

و المعري من الأشخاص الذين عانوا كثيرا من هذه الحياة ، فتألم و عكر عيشه حتى ظن أنه لن يصفوا ، و هذا ما أكده بقوله :

عكر العيش في إنائي وهل يؤ مل من صفوه وقد فات عكر[4].

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ،ص :54.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :52.

[3]- هشام القلفاط : المتغير الأدبي ، ص :187.

[4]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :322.

ما يلاحظ أنّ أبا العلاء المعري قد جانس بين ألفاظه في كل من (عكر و عكر) على أساس الجناس المماثل التام ،فاستخدم عكر الأولى للدلالة بها على كدره وعدم صفاء عيشه، و عكر الثانية قصد به ذلك القطيع الضخم من الإبل الذي يصل إلى حد المائة .

و لعل الشاعر قصد من بيته بأنه لا يأمل في صفو إناء عيشه و قد مضى من عمره الكثير، فلقد ولع المعري بالتجنس لذا وجد في ديوانيه بكثرة مما قد يُصّعب علي دراسته وشرحه جميعا .

و عليه يظهر وهو يواصل تجنسه في أبياته بقوله :

تقول أنت امرؤ جاف مغالطة فقلت : لا هومت أجفان أجفانا[1].

فأجفان الأولى جمع جفن و هو غطاء العين،والثانية اسم تفضيل بمعنى أكثرنا جفاء، فقد نجح في توظيف الجناس بين (أجفان و أجفانا) للوصول به إلى الرد على معاتبة الحبيبة له بجفاءها، فقصد من ذلك أنه لم يبتعد و يجفيها،وجفن العين كان شاهدا على ذلك في إشارة إلى السهر في تفكرها و الاشتياق إليها،ويقول مواصلا تجنيسه:

أســوان أنت لأن الحـي نيتهم أسوان أي عذاب دون عيذاب

والعقل يسعى لنفسي في مصالحها فما لطبع إلى الآفات جذاب[2].

فالمعري بيّن من خلال هذه الأبيات المنسوجة التجانس الحاصل بين(أسوان الأولى)والتي عنى بها الأسى والحزن،وأسوان الثانية التي تعني بلدة في مصر.

ويقول مستعملا أكثر من جناس:

بدن بلا بدن يعيش وكم طوى جسد سنيه و ما عليه جساد

---

[1]- بسيوني عبد الفتاح فيود :علم البديع ، ص :236.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :110

و من المعاشر من يظل كأنه ضمن الفؤاد يساد حين يساد[1]

فقد استعان المعري بتجانسات عدة أولها كان في البيت الأول بين بدن الأولى التي عنى بها الجسد وبدن الثانية التي أشار بها إلى الدرع التي يلبسها فتغطي بدنه.

وفي البيت الثاني وظف لفظة (سياد وسياد)،فالأولى تعني السيادة والثانية من السواد،و هو داء يصيب الكبد،ولعله قصد أنه يوجد من الناس الذين تعاشرهم من يبقوا متسيدين في القلب إذا أحببتهم ، فحتى وإن أصابوك بداء فإن مكانتهم محفوظة في القلوب.

وعن الفناء يقول:

هلكت سعود في القبائل جمة وأقام في جو السماء سعود[2]

فقد رسم المعري صورة استوحاها من حقيقة وجدت في واقعه وهي حقيقة الموت والفناء للقبائل،فقد هلكت (سعود) و هي قبائل سعد جميعا كسعد و تميم و قيس وغيرهم فلم يبقى إلا سعود النجوم،وقوله أيضا:

نوائب إن جلت تجلت سـريعة وإمـا توالت في الزمـان تولّت

ودنياك إن قلّت أقلت وإن قلَت فمن قلت في الدين نجـت و علّت

غلت و أغالت ثم غـالت وأوحشت وحشت وحاشت واستمالت وملّت[3]

فقد وظف المعري عدة تجانسات في هذه المقطوعة التي ظهرت في(جلت، تجلت) و(توالت، تولت) وفي البيت الثاني (قلت، أقلت) وفي البيت الثالث (غلت ،أغالت) و(حشت ، حاشت)

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :229.

[2]- المصدر نفسه: ص : 230.

[3]- المصدر نفسه:ص :149.

و (استمالت،ملت) وهي كلها جناسات أكدت على قدرة المعري الفنية في سياقة واشتقاق ألفاظ من ألفاظ ، وهي كلها دالة على أنّ نوائب الزمان تظهر إلى العيان بسرعة وتتوالى بتوالي الأيام في هذا الزمان ،والدنيا عنده مصدرا للقلق ومبعثا للألم،فهي الغارة والمخادعة الموحشة والحقيرة.

فهذه الصفات أخذت من جناساته المتعددة ،وبذلك يكون المعري قد حقق به رونقا خاصا ونغما موسيقيا من أثر توالي وتجانس الأصوات،فأكسب الأبيات جمالا أخاذا ومعنى ملائما.

وإذا شئت أن تنعم بالسعادة في هذه الدنيا ، فما عليك إلا أن تجعل دنياك تظفر بالذي أردت فتصبح لك وسيلة تمتطيها لتحقيق غرضك لا أن تجعلك هي وسيلة،وأول شيء يجعلك تنعم بالراحة وهو تعبدك لله وعدم الامتثال لأوامر الدنيا الخبيثة،وهذا ما أراده المعري من خلال الأبيات المتجانسة التي يقول فيها :

إن شئت أن ترزق الدنيا ونعمتها فخل دنياك تظفر بـــالذي شيتا

أنشأت تطلب منهـا غير مسعفة و مـا لها أيها الإنسان أنشيـتـا

فاخش المليك ولا توجد علـى رهب إن أنت بالجن في الظلماء خشيتا

فـإنـمـا تلك أخبـار ملـفـقـة لخدعة الغافل الحشوي حوشيتا[1]

فقد وظف الشاعر في هذا المقام مجموعة من العناصر المتاجنسة من مثل(شئت،شيتا) و(أنشأت، أنشيتا)،(فاخش، خشيتا)،(الحشوي،حوشيتا) وهي مجتمعة حققت الغرض المنشود إضافة إلى تحقق تناغم موسيقي وأثر ورونق خاص والإنسان بطبعه لا يزال طامعا في البقاء في هذه الدنيا ، غير أن الدنيا ترفض ذلك .

يقول:

ودنيانا التي عشقت وأشفت كذاك العشق معروفـا شقاء

[1]- المصدر السابق: ص :145.

سألناها البقاء على أذاها فقالت عنكم خطر البقاء[1]

فقد وظف الجناس في قوله (البقاء، البقاء) فالأولى يقصد بها المعري الاستمرارية في الحياة والعيش في كنفها ، أما البقاء الثانية فهي عكسها ؛ لأنه ربطها بكلمة حظر ما يعني ممنوع البقاء ومن ثم الموت.

فالمعري يثبت بأبياته هذه حقيقة غابت عن أعين الكثير وهي حتمية الزوال والفناء حتى وإن رغب الإنسان في المزيد ، فإنه سوف يفنى ولن يعود لأنه سوف يؤول إلى يوم الميعاد ، يقول:

وانتهى اليأس منك ، واستشعر الواج د بأن لا معاد ، حتى المعاد[2]

فقد استعمل الجناس في (معاد ، المعاد) فالأولى قصد بها الرجوع ، والمعاد الثانية هي يوم القيامة.

إذن فالموت مؤكد ولابد على الإنسان من سكر ساعة تريحه من عناء الدنيا وقهر الزمان وحوادث الدهر المؤلمة ، يقول:

ولابد للإنسان من سكر ساعة تهون عليه ، غيرها السكرات[3]

(فالسكر ، السكرات) جناس أضفاه على البيت ، ليؤكد به على حقيقة الموت.

فهنا يتبين أن الشاعر يتلاعب بالألفاظ،فيوظفها بشتى الأشكال ليحقق بذلك إضافة إلى غرضه نغما موسيقيا من أثر تلك الجناسات وتوافقها الصوتي.

---

[1]- أبو العلاء المعري:اللزوميات ،ج1،ص :42.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :202.

[3]-المصدر نفسه: ص :212.

كما لوحظ أن المعري قد جاءنا بالجناس في خضم نصوصه الشعرية ، فلم يعتمد التكرار إلا قليلا ، هذا ما جعل أبياته المتجانسة متناثرة تفتقر إلى ذلك النسيج الذي كنا نراه أثناء تحدثه عن حقيقة معينة قد رآها مجسدة في محيطه ، كحقيقة الليل الذي طالما حدثنا عنه خاصة و أنه يذكره بآلامه و بمحبوبته ، يقول مجانسا به :

إذا جن ليلي جن لبي ، وزائد خفوق فؤادي ، كلما خفق الآل[1]

فالتجانس موجود بين (جَنّ، جُنّ) فالأولى يعني بها دخول الظلام وجن الثانية يعني بها شدة الاشتياق قاصدا به إلى أنه كلما يسود الليل ويدخل الظلام يتذكر محبوبته ويشتاق إليها ويخفق قلبه عليها لخفقان ذلك النجم في السماء.

ويقول أيضا:

سرى حين شيطان السراحين راقد عديم قرى ، لم يكتحل برقاد[2]

فالسراحين الأولى هي جمع سرحان وهو الذئب وشيطان السراحين أخبثهم، وفي قوله (سرى حين) و (السراحين) جناس التركيب،فقد تجاوز المعري بهذا الجناس حدود الربط بين لفظتين من ألفاظ البيت إلى المجانسة بين كلمة(السراحين) من جهة الفعل (سرى) متبوعة من جهة ثانية بظرف (حين) ، ولذلك نراه قد أحسن في التجنيس و أبدع فيه، وأيضا يظهر التجنيس على هذا الشكل في قوله:

مطا ، يا مطايا ، وجدكن منازل منى زل عنها ، ليس عني بمقلع[3]

فالتجنيس بين (مطا،مطايا)فمطا الأولى وهي هدّ ، ومطايا جمع مطية وهي ما يمتطى ويركب.

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 248.

[2]- المصدر نفسه : ص :32.

[3]- المصدر نفسه:ص :287.

وكذا جناس التركيب في (منازل) و(ومنى زل) التي تعني القدر، وفي هذا كله معنى مراد وهو أن القدر قد أبقى بقية من هذه المطايا استطاع الوصول بها إلى منازل الأحباب، أما أنا (يقصد المعري) فإن القدر لن يقلع عني حتى لا يبقى مني بقية.

والهم يعتصر قلوب البشر منتشر في أوساطهم غير آبهين بالمواعظ والنصائح المقدمة حتى لا يدخلوا في نطاقه ، يقول:

الـهـم منتشــر و لكـن ربــه يوما يصير إلى الثرى فيصار

و المعصرات من الخراد عواصف كالمعصرات صبيغها إعصار

كم يسمع الناس العظات وكم رأوا غير الجميل فغضت الأبصار[1]

فقد ساق المعري عدة جناسات بقوله(يصير،يصار) المعصرات الأولى التي قصد بها الجواري إذا قاربن الحيظ،والثانية تعني السحاب والإعصار،كل هذه الجناسات التي شكلها المعري أكسبت الأبيات رونقا خاصا ومعنى مميزا وأثرا عميقا في النفوس إذا ما تتبعناه.

وهكذا لو عرضت كل التجانسات التي وجدت في ديوانيه وحللت لما وسع المقام لكثرتها، لذلك وجب ضبط الجهد وقصره على بعض منها فقط والجزء الباقي سوف يعرض أثناء تحليل الجدول الإحصائي.

ومن هنا يتبين أن المعري قدم لنا الجناس أو بما يسمى التجنيس وهي عنده كآلة عمل تساعدنا في فهم آليات البيت وهيكله ، كما تعرفنا على مدى قدرة المعري الفنية وتحكمه بالألفاظ وتلاعبه به.

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص: 304 .

جدول إحصائي يبين الصور البديعية

			نوع الصور البديعية			
الرقم التسلسلي	المفردات في البيت الشعري	نوع الديوان	الطباق	المقابلة	الجناس	المجموع الكلي
1	اختيارا واضطرار	اللزوميات ج1	x			
2	خير و شر	اللزوميات ج1	x			
3	وفاة عزيز لا حياة ذليل	سقط الزند		x		
4	ميتا مثل حي أو حيا كميت	اللزوميات ج1		x		
5	إعدام و إيجاد	اللزوميات ج1	x			
6	كثيرا أو قليلا	سقط الزند	x			
7	مستفيدا و مستميحا	سقط الزند			x	
8	آنستني بعد إيحاشها	اللزوميات ج2	x			
9	نحوس لأهلها ... فيه سعود	اللزوميات ج1	x			
10	وجه ضاحك ، وجه عابس	اللزوميات ج2	x			
11	فقير، ويعدم في الأنام الأغنياء	اللزوميات ج1	x			
12	الغنى لعزيز و الفقر موجود	اللزوميات ج1	x			
13	إن السباريت جابتها السباريت	اللزوميات ج1			x	
14	ولجسمي إلى التراب هبوط ولروحي إلى الهواء صعود	اللزوميات ج1			x	

15	والشر مشتهر والخير يلمح من وراء خمار	اللزوميات ج1	x				
16	أغناهم من مال وأفقرهم من الرشاد	اللزوميات ج1	x				
17	مفتضح ومخفي ضمير النفس	اللزوميات ج1	x				
18	فما حياة إلا نعي	سقط الزند	x				
19	هذا هبوط و هذا فيه إصعاد	اللزوميات ج1	x				
20	يحرم فيكم الصهباء صبحا ويشريها ... مساء	اللزوميات ج1	x				
21	هي الحياة أو فتنة...	اللزوميات ج1	x				
22	دار الشر و دار السرور	اللزوميات ج1	x		x		
23	أما شره فنفذ وأما خيره فوعود	اللزوميات ج1	x				

24	أعجب بدهرك أولاه وآخره	اللزوميات ج1	x			
25	بتبغيض و تحبيب	اللزوميات ج1	x			
26	وإن مدحت بخير حسبتني بقبيح	اللزوميات ج1	x			
27	فوارس تذر المكثار سكيتا	سقط الزند	x			
28	وجدتكم لا تقربون العلا كما أنكم لا تبعدون عن النسب	اللزوميات ج1	x			
29	أن أعود إليهم ،لا ترجو فإنني لا أعود	اللزوميات ج1		x		
30	العيش أفقر والموت أغنى	اللزوميات ج1		x		
31	وقد ينمى كبير من صغير	سقط الزند	x			
32	لا يبالي الميت بذمه شيع أم حده	سقط الزند	x			

33	الحمد والكبر ضدان	اللزوميات ج1	x			
34	الحشة في داره تؤنسه الرحمة في لحده	سقط الزند		x		
35	قد فقد الصدق واستحسن الغدر	اللزوميات ج1		x		
36	سواد الليل وبياض الصبح	سقط الزند		x		
37	متى تكبتوا غيركم تكبتوا	اللزوميات ج1			x	
38	متأنقين في المكارم متألقين بسؤاد وعفاف	سقط الزند			x	
39	بت الزمان ...مبتوتا	سقط الزند			x	
40	و باشرتها مقنبا مقنبا	سقط الزند			x	
41	و الدهر يشتف أخلاءه أشقاء	اللزوميات ج1			x	

42	وليس قضيب الهند من القضب	سقط الزند				x
43	عكر العيش في إنائي وقد فات عكر	اللزوميات ج1				x
44	كم أرقمي ... في حلة الأرقم	سقط الزند				x
45	أسوان أنت ... أسوان	اللزوميات ج1				x
46	بدن بلا بدن يعيش	اللزوميات ج1				x
47	هكت سعود ... في جو السماء سعود	اللزوميات ج1				x
48	و إما توالت في الزمان تولت	اللزوميات ج1				x
49	فاخش المليك ، خشيتا	اللزوميات ج1				x
50	بأن لا معاد حتى المعاد	سقط الزند				x
51	سألتها البقاء ... خطر لبقاء	اللزوميات ج1				x
52	من سكر ساعة ... غيرها السكرات	سقط الزند				x
53	إذا أجاز خنازير خنازير	اللزوميات ج1				x
54	إذا جن ليلي جن لبي	سقط الزند				x

55	سرى حين شيطان السراحين	سقط الزند			x	
56	مطا ، يا مطايا	سقط الزند			x	
57	يوما يصير إلى الثرى فيصار	اللزوميات ج1			x	
مجموع كل صورة		سقط الزند	23	08	26	57 صورة متنوعة

وهكذا يلاحظ من خلال ذلك الجدول الإحصائي أن أبا العلاء المعري استعمل هذا النوع من الصور ألا وهو البديع،كما استعمل من قبل البيان،فتجده يوظف مختلف الألفاظ التي توضح الطباق، و المقابلة، والجناس، وهذا ما تبيّن من خلال هذه الجداول.

فانطلاقا من هذا الجدولتمّ التعريج إلى المقاطع الضرورية التي تحتوي على المفردات المفتاحية فقط،وهذا لضيق المكان وعدم اتساع المقام؛حيث لا يمكن ذكر البيت كله كما أن ذكره كله بالتفصيل فيه شيء من التكرار ، فقد تم التفصيل في الأبيات جميعا وتبيين المواطن المطلوبة وتوضيح مختلف الصور سابقا.

فالجدول لم يزد إلا توضيحا لبعض الأبيات التي لم تذكر من قبل ،كما ساعد في الحصول على المجموع لكل نوع من الصور البديعية،ومن ثم تبيّن المجموع الكلي لها وهذه النسب هي بالتقريب فقط.

فتراءى أن مجموع الصورة الطباقية كانت بمعدل (23) صورة كلها كانت تدور في إطار الدنيا وتناقضاتها من (خير وشر)،(و شد وحل)،(و إعدام وإيجاد)،(و الأنسة والإيحاش)،(و الفقر والغنى) (و القلة و الكثرة للزاد و المال و الحظ)، (النحوس و السعود) لبني البشر، وغيرها من الصور التي بنيت على التناقض والتضاد الموجود في هذه الدنيا و الدهر و الزمن، لمسه المعري وأراد تبيينه للناس،أما الصورة التقابلية فوجدت بمعدل (08) صور،كلها كانت تدور حول حقيقة الموت المرة ومدى تعلق البشر بكفة العيش في المقابل لها،إضافة إلى بعض التقابلات التي استوحى المعري معانيها من الحياة التي عاش فيها كالفقد والاستحسان،والصدق والهدى ،والغدر والهدى، والحزن والسرور كل هذه الصور وغيرها مما عرض داخل الفصل كان تحت غطاء تقابلي جميل؛حيث كانت فيه تلك المفاهيم في تقابل مع بعض أراد أن يعكس الشاعر بها عن التقابلات الموجودة في هذه الحياة ، والصورة التجانسية كانت بمعدل (26) صورة تدور في مجال الصبا و الشيب و الزمان والموت وغيرها

مما كان له الأثر الكبير في إيضاح المعنى وتجليته؛ومن هنا يتبين أن أبا العلاء المعري قد استعمل الطباق و الجناس بشكل كبير لأنهما يساعدان على فهم آليات البيت الشعري و توضيحه،كما أردف بشكل آخر وهو التقابل ولكنه كان بشكل مبسط.

ومن ثم كان المجموع الكلي لتلك الصور حوالي (57) صورة كلها تعكس مدى قدرة المعري الفنية وتحكمه بالألفاظ وتلاعبه بها مما مكنه من إنجاز ذلك النوع من الصور.

ثالثا– الصورة الحقيقية:

إذا كانت الصورة الحقيقية أو كما تسمى الصورة التقريرية هي:<< الصورة التي لا تحتوي تشبيها أو مجازا وهذه الصورة ليست عملية تذكر كما تقول التجريبية بل هي عملية حضور لتجسيم المعنى>>[1].

فإذن هي تثبيت للمعنى وإقراره والتأكيد عليه من دون تفنن وتصنيع.

وإذا ما تبع شعر المعري لوجد هذا النوع بقدر ما وجدت الصور البلاغية التي تتمثل في الصور البيانية والصور البديعية سابقا.

ونظرا للإحصاء الذي أقيم على ديوانيه سقط الزند و اللزوميات بجزئيه جُودت هذه الصور التي مثلت بألفاظ حقيقية هادفة وعبارات وصفية موجودة بكثرة وقد تراوحت جلها بين وصفه للممدوح وللخمر و للشمعة وللدرع ووصفه للدهر وبطشه وغيرها من الصور الخارجية التي سوف تتعرض إلى الدراسة والتحليل.

فأول صورة لمحت هي وصفه للمدوح ، فيقول:

متى يذمم ، على بلد ، بسوط فقد أمـن المثقفة النهالا

إذا سقت السماء الأرض سجـلا سقاها، من صوارمه، سجالا

و يضحـي و الحديد عليه شلك و تكفيه مهـابته النـــزالا

[1]– كامل حسن البصير: بناء الصورة الفنية في البيان العربي ، ص :182.

فيفني الدرع لبســـا ، و اليمـاني صحابا ، و الرديني اعتقالا

إذا سئمـت مهنـــده يميـن لطول العمل ، بدله شمـالا

أفـــاد المرهفات ضياء عزم فصـار على جواهرها صقالا

و أبصـــرت الذوابل منه عدلا فأصبح في عواملها اعتدالا[1]

فقد صور أبو العلاء المعري الممدوح الذي إذا أعطى العهد لأهل بلده أمنوا من التعرض لهم ، وقد أسقى بسيفه الأرض بدماء أعدائه أكثر ما تسقيه السماء بالمطر.

وقد صوره وهو لا يلبس السلاح إلا للزينة أو لفرط محبته للحرب وللسلاح الذي هو من أدواته، ولكنه مستغن عن هذا السلاح،لأن مهابته تمنع أي أحد على مقابلته ومنازلته.

ويواصل وصفه في البيت الرابع دوام ملازمته للحرب لدرجة فناء سلاحه لكثرة استعماله له.

كما وصفه بنفاذ عزمه ومضاء همته حتى أن سيوفه استفادت ذلك منه،فما يرى على وشيها من الضياء إنما هو مستمد من توقد عزيمته واشتعالها ، وقد رأت الرماح في سيرته عدلا واستقامة فاستوت عواملها واعتدلت كأنها اقتفت في ذلك سيرته.

إذن صور المعري الممدوح تصويرا رائعا بألفاظ حقيقية وعبارات وصفية لشجاعته وعزمه ولفرط محبته للحرب والدوام عليها، وهي كلها صور حقيقية بالرغم من عدم خلوها من بعض الصور البلاغية التي زينت اللفظ ووضحت المعنى ولكن الطابع العام تصوير حقيقي وصورة الحرب التي وقعت بين المسلمين والروم كانت أيضا صورة حقيقية عبر بها المعري عن تلك الواقعة واصفا إياها وأهوالها .

يقول:

لقد آن أن يثني الجموح لجـام وأن يملك الصعب الأبي زمـام

أيوعدنا بالروم نـاس ، و إنمـا هـم النبت ،والبيض الرقاق سوام

كأن لم يكن بين المخاض وحارم كتائـب يشجين الفلا و خيـام

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :120.

ولم يجلبوها مـــن وراء ملطية تصدع أجبـال بهـا و إكـــام

كتائب من شرق و غرب تألبت فرادى ، أتـاها الموت و هـي تؤام

غرائب در جمـعت ثم ضيعت وقـد ضم سلك شملها وتطام[1]

فهو هنا يثني على كتائب المسلمين الذين اجتمعوا ليهزموا الروم دون أن يثنوا رؤوسهم مثلهم مثل الفرس الجموح الذي لا يثني رأسه لأحد في صورة تنم عن تعال وكبرياء زائد لهزم الأعداء قرب نهر المخاض الذي هو قريب من معرة النعمان،فتلحق بهم الموت في يوم تطاير فيه الغبار وأضحت جثث الضحايا تتطاير معه كأنهم سكارى قد أريق عليهم بقايا كؤوس المدام .

يقول:

بيوم ، كأن الشمس فيـــه خريدة عليها، من النفع إلا حمّ الشام

كـــأنهم سكـرى أريـق عليـهم بقايا كؤوس ملؤهن مدام

فأضحوا حديثا كالمنام وما انقضى فسيـــان منه يقظة و منام

محل بأرض الشام يطرد أهله ولكنهم ،عمـــا يقول، نيام

وقـد تنطق الأشياء وهي صوامت وما كل نطق المخبرين كلام

كفى بخضـاب المشرفية مخبرا بأن رؤوسا قـد شقين و هام

فإن قعدت عنه الحوادث حقبة فهاهي ، فيما لا شياء قيام[2]

إلى آخر القصيدة التي يصف فيها المعري واقعة جرت بين المسلمين والروم في أرض قريبة من الشام وهذا ما يفسره قوله(محل بأرض الشام يطرد أهله) شر طردة حتى لوثت أجسادهم بدمائهم ، كأنهم خضاب ورؤوسهم قد فصلت عن أجسادهم في منظر مريب، وهي كلها صور حقيقية عبر بها

---

[1]- المصدر السابق : ص :119.

[2]- المصدر نفسه:ص :120.

المعري بألفاظ بسيطة مفهومة بعيدة عن المجاز والتأويل والراح عنده قد أخذت نصيبها في مجال التصوير الحقيقي ، فنجدها ماثلة بقوة في شعره؛حيث يقول عنها:

هي الراح أهلا طول الهجاء وإن خصها معشر بالمدح

فلا تعجبنك عروس لمدام ولا يطربنك مغن صـــدح

و من يفتقد لبه ســاعة فقد مات فيها بخطب فـدح

قبيح بمن عد بعض البحار تغريقه نفسـه فـي قدح[1]

فنراه هنا يصف الخمر ويخصها بالهجاء بدل المدح؛لأنها أهل له،فيوصي بعدم الإعجاب بها وبمغنيها وشاربيها؛ لأنها مفسدة للدين و مذهبة للعقل.

وهذا ما يؤكده المعري بقوله:

والخمر تخمير العقل فاجف ضاربة ترمي الحجا في ضراء الورد والخمر

يعلل الحــي نفســا غير بـــاقية حتـى يقصر عنه الليل بالسمـر[2]

من يشربها يعاقب بالسوط والسيف ويحد عن الجماعة، ولكن المعري وجد في هذا العقاب غير كافي معللا ذلك بتقرب الناس لاحتسائها و شرابها حتى في وجود العقاب ،يقول:

تقرب النـــاس بالمـدام و عندنا على كل حـال أن شاربها يحـد

وما كفهم عن شربها سوط ضارب ولا السيف إن السيف في سوطه أحد[3]

والعقوبة المسلطة من الله لا تكفي وحدها للحد منها،بل عمد المعري في وصفها وشبهها بريح نتنة وبلون أسود في مظهر أظهر فيه الخمر بصورة منفرة ، يقول:

و لهذه الراح ريـح عصفت بهشيم اللب في ريح و صر

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :203.

[2]-المصدر نفسه : ص :363.

[3]- المصدر نفسه: ص :267.

لـؤمت كــرميـة تشــربها و ندا ماك حصور و حصــر

ألوين اللــيل تمري قهــوة و ملاحـي الثريــا تعتصـر

أيضر الخمر فـي أخلاقهـا حالب يحتلب الغاوي المصـر

عش نقي العرض أن تتركـها و إذا مت فــللرحمة صر[1]

فالمعري يصف الخمرة بسوادها للتنفير منها حتى لا يشربها الغاوون، ولم يكتف بذلك بل راح في نهاية المقطوعة يوصي بتركها حتى يعيش المرء نقي طاهر العرض شريف الأخلاق.

و في سياق آخر يكون بشعره بعيدا عن الممدوح والحرب والخمر؛حيث يصف شمعة في قصيدته (صفراء لون البشر)، يقول:

وصفراء لون التبر مثلـي جليدة على نوب الأيام و العيشة الضنك

تريك ابتســـاما دائمــا و تجلدا وصبرا على ما نابها وهي في الهلك

و لو نطقت يوما لقالت أظنكم تخالون أني مـــن حذار الردى أبكي

فلا تحسبو دمعي لوجد وجدته فقد تدمع الأحداق من كثرة الضحك[2]

إن المتأمل في هذه الأبيات التي وصف فيها الشمعة يبقى منبهرا من ألفاظ المعري وأسلوبه ونسجه للأبيات التي تناسقت فيما بينها؛ لتبيين تلك الشمعة وخدماتها التي تقدمها للإنسان.

فقد وصفها بتبيين لونها الأصفر الذي تشابه به لون الذهب،فجعلها وهي تمدنا بإشعاعها، فتنور الليل الحالك بضوئها البراق مبتسمة ضاحكة.

فيعرضها متعجبة وهي ترى الحيرة في وجوه البشر من حالتها وهي تذوب، فذوبانها ليس بكاء وخوف من الموت الذي هو انتهاء الشمعة،وهذا ما قدره بقوله(تخالون أني من حذار الردى أبكي)، ولكنه دمع من كثرة الضحك ، فهي تدمع وتذوب من أجل غرس الابتسامة والأمل في نفوسنا ،فلو

---

[1]- المصدر السابق:ص :411.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :310.

كنا أمام صور بلاغية لقلنا ربما كان يقصد بها الحياة بنورها وإشعاعها بعد تلك الظلمة الحالكة التي تصيب الإنسان فتسّود عيشه بالآلام والأحزان،ولكننا أمام صور حقيقية راعت المعري و أعجبته فلم يملك نفسه أمامها.

إنها الشمعة بنورها وضياءها التي استهوته بمنظرها الجميل وفائدتها العظيمة،فكتب عنها مصورا إياها.

فهنا كان وصفه للشمعة وصفا متتابعا يوجه فيها نظر الإنسان إلى مزاياها وتفاصيل تخصها، فكان وصفه <<عملية بصرية تحليلية سريعة تقوم على التعداد>>[1].

أما الليل بسواده ونجومه فقد أخذ مكانا عنده ويظهر ذلك من خلال قوله:

ليلتي هذه عروس من الزنج عليها قلائد من جمان

هرب النوم عن جفوني فيها هرب الأمن عن فؤاد الجبان

وكأن الفؤاد يهوى الثريا فهما للوداع معتقان

وسهيل كوجنة الحب في اللون وقلب المحب في الخفقان

يسرع اللمح في احمرار كما تسـ رع في اللمح مقلة الغضبان[2]

<<ولشد ما يصدق هذا القول في أبي العلاء ووصفه هذا، فقد استطاع أن يرى ببصيرته ما لا يستطيع غيره أن يراه ببصره ،وإذا كان الوصف قوامه الحركة واللون فإن الأبيات تزخر بهما، فتبدو الحركة في هرب النوم ،ومن الهلال والثريا، وقد تعانقا ، وفي اضطراب النجم سهيل،كأنما هو قلب عاشق ، وفي رفيقه ولمحه كأنما هو عين إنسان،أما الألوان فتبدوا في الليل الحالك، وكأنه عروس من

[1]- نعيم الباقي: تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث ، منشورات إتحاد كتاب العرب ،(د ، ط ، د ، ت)، ص: 26

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :79.

نبات الزنج، وفي النجوم متلألئة كأنها قلائد ، وسهيل يتوقد كخد الحبيب ويختلس النظر في احمرار كمقلة الغضبان >>[1].

وما زاد في بهاء هذه الصور أن يعبر عنها تعبيرا شعريا غاية في الانسجام والسلاسة والوضوح في الألفاظ والإبانة في معانيها؛حتى وإن تخللته بعض الصور البلاغية إلا أنه ظل مميزا بصور حقيقية تعكس ليل المعري الطويل، ففاض جمالا وبهاء حتى بلغ به الأوج في دقة تصويره.

والدرع واحدة من الأشياء التي شعر بها المعري وبأهميتها باعتبارها وسيلة من وسائل الحرب آنذاك،لذلك تراه كثير الوصف لها ، من ذلك ما قال على لسان رجل كان يصف درعين في قصيدته (ذات سرد تهين رسل المنايا) يقول:

صنت درعي إذ رمى الدهر صرعي بما يترك الغني فقيرا

كالربيعين ،خلت أن الربيعيـ ن أعاراهما سرابا غزيرا

كل بيضاء منهما ، تمنع الفا رس أن يجعل الفرار يضرا

لجهلت ما أنا الصوارم و الخر صان لما غدوت فيها ضميرا

ليس يبتاعها التجار و لو أعط يت بالحلقتين منها بعيرا

و كأن الظليم من غرقي التر كة ألقى على الكمي حبيرا

لا يروعنك ، خدنها ظمأ الحر ب رويدا فقد حملت غديرا

أجبلت ما على السنان ، ولو را م يسواها أماه فيها حقيرا

ذات سرد ، تهين رسل المنايا كلما فارقت إليها حقيرا

إن تردها القناة فهي قناة نمرا صادفت لا نميرا

و قرت شيبها فلاقى مشيب الـ سيف ذلا أن مس منها قتيرا

[1]– عبد الرؤوف دقاق: أمراء الشعر العربي، أبو العلاء المعري، مراجعة محمد كمال ، دار ربيع للنشر،(د، ط ، د، ت) ،سوريا ، ص: 16.

لو أتاها الحسام كالـمقرم الـوا رد مـا أصدرته إلا عقيـرا[1].

فهنا يتبين من خلال هذه الأبيات أنّ المعري شرع في وصف الدرع،فجعل لها شيبا مثلها مثل السيف ،وهو دليل بياضها وبمجرد لبسها يأمن المرء، فلا يلجأ إلى الفرار؛لأنها تحفظه وتصونه، كما يصان السر في الصدر.

ويواصل مسترسلا في وصفها باللين حتى لو ألقيت في سهل لظلت تجري وتسيل حتى يمنعها مرتفع من الأرض ولها لمعان خاص كلمعان الغدير، و هذا ما أكده بقوله:

و مثكل فرسـان الوغـى كـل نثـرة يـود خليـج راكـد لـو يكونهـا

إذا ألقيت في الأرض ، و هي مفازة إلى الماء،خلت الأرض يجري معينها

و تبغي علـالقاع السـوي تثبتا فيمنعهـا مـن أن تثبت لينـهـا

وما برحت في ساحة السهل ، يرتمي موجـها حتـى نهتهـا حـزونهـا

غدير، و شته الريح و شيته صانع فلم يتغيـر حيـن دام سكـونها[2]

ويواصل في قوله مشبها الدرع بالغدير، فلا يسلم فيها حيوان البر إلا إذا لاذ بشاطئ أو سفينة ومن يراها يتوهمها غديرا،فيصغي بأذنه ويرنوا بعينه لعله يسمع نقيق الضفادع أو يرى حوتا يلعب، وفي هذا يقول:

كأن الدبى غرقى بهـا غير أعين إذا رد فيها نـاظر يستبينها

وما حيوان البر فيهـا بسـالم إذا لم يغثه سيفها، أو سفينها

وتصغي و ترني كل خلق ، لعلها تنق ضفاديها ، و يلعب نونها

فلو لـم يضعها عنه للسلم فارس لخلد ما دامت عليها غضوبها

و لـو علمت نفس الفتى يوم حتفه ولاقته فيها لـم تحنها منونها

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :334 ،335 .

[2]- المصدر نفسه:ص :179.

أموت،إذا أودعت نفسك حـــرزها و لاقيت حربا لم يحتك أمينها[1].

فهي إضافة إلى كل تلك الأوصاف لو لبسها الفتى لحمته من المنون ؛لأنها تحصنه من أن تصل إليه الأسنة.

و الدهر عنده يبطش تارة بأرباب المجد ويتصرف تارة أخرى بالناس تصرفا معاكسا للعدل، فيرفع اللئيم ويخفض من قيمة الكريم ويحرم الفقير ويرزق الفتى المكتفي،وهذا ما أقره المعري في صورة يصف فيها الدهر تصويرا حقيقيا خارجيا،يقول:

حوادث الدهر مـــا تنفك عادية على الأنام بإلباس وتلبيس

ألوت بكسرى و لم تترك مراز به و بالمناذر أودت و القوابيس

زارت حسينا و حست بالردى حسنا وواجهت آل عباس بتعبيس[2]

و هكذا يستنتج مما سبق أنّ أبا العلاء المعري قد وظف الصور الخارجية المتعلقة بالوصف سواء كان الليل،أو الدهر،أو الدرع والحروب والممدوح،إضافة إلى الخمر والشمعة وغيرها من الصور الوصفية الخارجية التي استعمل المعري فيها ألفاظا حقيقية وعبارات وصفية واضحة جلية المعنى، وهذا النوع من التصوير الحقيقي بعيد عن التصوير البياني والبديعي حتى وإن لوحظت بعض الصور الحقيقية قد مزجت ببعض الصور البلاغية إلا أنها لم تنقص من قيمتها،بل زادتها وضوحا وجمالا.

أما صور المواقف والأحداث ،فتتجلى أول صورة في الحنين إلى الوطن (المعرة) قائلا :

سرى برق المعرة بعد وهن فبات برامة يصف الكلالا

شجا ركبا و أفراسا و إبلا و زاد فكاد أن يشجو الزحالا

بهـا كانت جيادهم مهارا و هـم مردا و بزلهم فصالا[3]

---

[1]- المصدر السابق :ص :180 .

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :124.

[3]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 28، 29 ، البزل : جمع بازل وهو الميت من الإبل و الفصال : جمع فصيل وهو ولد الناقة ، شجا : أحزن

فالمعري هنا يرسم صورة حقيقية تمثل حنينه إلى وطنه المعرة؛حيث أكد أنه بعدما صار (برامة) لمع برق المعرة في الشام بعد طائفة من الليل،فوصل ذلك البرق إليه ضعيفا لبعد المسافة بين المعرة ورامة،فلما لمع برق المعرة في هذه الأخيرة ذكر الركب والأفراس والإبل بأوطانهم فأحزنه وزاد هذا البرق؛ فكاد أن يحزن حتى الرحال التي لا تحس و لا تشعر.

فالمعري هنا في هذه الأبيات يصف لنا حالته وحزنه العميق نتيجة تذكره لبلده وهو ما جسده بشعره، كما حن إلى ماء بلاده ، وفي ذلك يقول.

ماء بلادي كان أنجع مشربا ولو أن ماء الكرخ صهباء حريال

إلى أن يقول:

فيا وطني إن فاتني بك سابق من الدهر ، فلينعم لساكنك البال

فإن أستطع في الحشر آتك زائرا و هيهات لي يوم القيامة أشغال

وكم ماجد في سيف دجلة لم أرشم له بارقا والمرء كالمزن هطال[1]

فهنا أصابه ذلك الحنين الذي أصابه وهو برامة غير أنه هذه المرة ببغداد فحن إلى وطنه،وهذا ما أكده في قصيدته (لقد زارني طيف الخيال فهاجني) ، يقول:

طربن لضوء البارق المتعالي ببغداد ، وهنا ، مالهن و مالي

سمت نحوه الأبصار حتى كأنها بناريه ، من هنا و ثم صوالي

إذا طال عنها سرها لو رؤوسها تمد إليه في رؤوس غوال

تمنت قويقا و الصراة حيالها تراب لها من أنيق و جمال

إذا لاح إيماض سترت وجوهها كأني عمرو ، و المطي شعالي[2]

فالبرق دائما يذكر المعري بمعرة النعمان سواء كان في رامة أو في بغداد، فيغرد بصوته المتعال يحدوه الشوق والحنين إلى وطنه وهو بعيد عنها.

---

[1]-أبو العلاء المعري : سقط الزند ،ص: 248.

[2]- المصدر نفسه: ص :248.

غير أن هذا الشوق إلى المعرة سرعان ما تلاشى حين غادر بغداد،فتحول شوقه للمعرة إلى حزن على توديع بغداد التي كان فيها يقول:

أودعكم يـا أهل بغداد ، والحشـا على زفرات ، ما ينين من اللذع

و داع ضنى، لـــم يستقل و إنما تحامل من بعد العثار ، على ضلع

إذا أطّ نسع ، قلت و اللوم كاربي أجدّكم لـــم تفهموا طرب النّسع

فبئس البديل الشأم ، منكم وأهله على أنّهم قومي ، و بينهم ربعـي

إلا زودونـــي بشربة و لـو أنني قدرت ، إذن أفنيت دجلة بالجزع

و أنّى لنا من ماء دجلة نغبة على الخمس من بعد المفاوز والربع[1]

فصورة الوداع لأهل بغداد بهر ذلك التآلف والانسجام وما خلفه ذلك الوداع من ألم الفراق وحزن على الأحباب،هي صورة تعكس موقفا أو حدثا حدث للمعري ترك له بصمة أثرت في نفسه، فحاول التأثير بها عن طريق أشعاره التي كانت ترجمانا لواقعه ونفسيته وآلامه؛حتى أنه اتخذ توديع الأصدقاء و الأماكن خلا و يتساءل من يودع هذا الخل أيضا يقول:

كـــم بلدة فـا رقتها و معـــاشر يذرون ، من أسف علّي دموعا

وإذا أضاعتني الخطوب، فلن أرى لوداد إخوان الصفـاء مضيعا

خاللت توديـــع الأصـــادق للنّوى فمتـــى أودّع خلـــي التوديعا[2]

وصورة الموت والرثاء كانت من بين الصور التي أخذت حظها في شعر المعري لاسيما إذا كان الميت أمه التي رثاها بأبيات موجعة في قصيدته(مضت وكأني مرضع)،يقول:

خلّو فـــؤادي بالمودة إخـــلال و إبلاء جسمي في طلابك إبلال

و لي حاجة عند المنية فتكها بروحي و الأهواء ، مذ كنّ أهوال

---

[1]- المصدر السابق : ص :263.

[2]- المصدر نفسه:ص :309.

إذا متّ لم أحفل : بالشام حفرة حوتني أم ريم بريمان منهال

على أنّ قلبي آنس أن يقال لي إلى آل هذا القبر يدفنك الآل

دعا الله أما ليت أني أمامها دعيت ، و لو أنّ الهواجر آصال

مضت وكأني مرضع وقد ارتقت بي السنّ حتى شكل فودي أشكال

أراني الكرى أنّي أصبت بناجذ إلا إنّ أحلام الرقاد الضلال[1]

فتأثر المعري بموت أمه واضح وجلي حتى أنه تخيل أن موتها ما هو إلا حلم يريد أن يستفيق منه ليرى بأنه ليس بحقيق،وإنما هو نوم ولكنه شبه بالموت وذلك ما أقره بقوله مواصلا في نفس القصيدة:

أجارتي لمظمى تشبّه ساهيا بسين لها في ساحة الغم أمثال

و بين الرّدى و النّوم قربى و نسبة و شتان برء للنفوس و إعلال

إذا نمت لاقيت الأحبة بعدما طوتهم شهور في التراب و أحوال[2]

فجارته العظمى هي أمه الحبيبة، كما جعل نسبة وقربى بين النوم والموت و لذلك سمى الله تعالى النوم وفاة في قوله﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ [3]،و قول المعري (إذا نمت لاقيت الأحبة) يريد بذلك ملاقاتهم في الحلم.

2- صور داخلية (نفسية):

و أول صورة نفسية داخلية تحكي عن معاناة المعري، فتصف ألمه وحزنه وهي صورة الصبا التي ظهرت في ديوانيه ومنها قوله:

في قصيدته (ما وجدت لأيام الصبا عوضا) قوله:

---

[1]- أبو العلاء المعري:سقط الزند، ص :311.

[2]- المصدر نفسه:ص :312.

[3]- سورة الزمر/الآية 42.

و ليلة سرت فيها ، وابن مزنتها كميّت عـاد حيـا، بعدمـا قبضا

كأنما هي ، إذ لاحـت كواكبها خود من الزنـج تجلى وشحت فضضا

كـأنما النسـر قد قصت قوادمه فـالضعف يكسـر منه كلمـا نهضا

والبدر يحتث نحو الغرب ، أينقه فكلما خاف من شمس الضحى ركضا[1]

فالمعري هنا يتكلم عن أيام صباه التي لا تعوض،فهي كليلة سار فيها تشع بهلالها بعد ذلك السواد الذي كان يعانقها وبكواكبها تلوح في الأفق كفتاة زنجية سوداء تلبس وشاحا أبيض،ولكن أيام الصبا قد تمر و تموت و تتلاشى وهذا ما يحز في نفس المعري و يجعله حزينا،يقول:

لقد مات في الصبا منذ برهة و تأبى عقاري القلب غير مرود[2]

فالصبا مرتبط إذن بمرحلة الشباب التي نلمحها كثيرا في لزومياته.

فقد صورها بقوله:

إنّ الشبيبة نـار إن أردت بهـا أمرا فبادره إنّ الدّهر مطفئها

أصـاب جمري قـرّ فـانتبهت لـه والنّار تدفئ ضيفي حيـن أدفئها

ألقى عليها جليسي في الدجى حممـا فقـام عنهـا بأثواب يرفئهـا[3]

ويقول:

إذا ما جنت نار الشبيبة ساءني ولو نص لي بين النجوم خياء[4]

فهنا يشبه المعري الشباب بنار قد يطفئها الدهر في أي لحظة و إذا همدت لم ينفعك شيء ، فيسير بك إلى حيث لا تعلم وفي هذا يقول:

سار الشباب فلم نعرف له خبرا و لا رأينا خبـالا منه منتابا

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :131.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :246.

[3]- المصدر نفسه :ص :40.

[4]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ،ص :35.

و حق للعيس لـو نالت بنا بلدا فيه الصبا لون عود الهند أقتابا[1]

لذلك نُرى كثير التكلم عن فقد الشباب، فيلُمح مودعا له متأكدا من حقيقة فقده حتى وإن حاول الخروج بمظهر الشباب الفتي .

يقول:

ينافي ابن آدم حال الغصون فهاتيك أجنت و هذا جنـى

تغيـــــر حنـــاؤه شيبـــه فهل غير الظهر لما انحنى[2]

فقد رسم المعري لوحة حقيقية يصف فيها حاله مؤكدا على الشيب وتقدمه في العمر الذي دليله انحناء الظهر بالرغم من محاولة الخروج بمظهر الشباب الفتي، ويقول في موضع آخر:

نمنا على الشيب فهل زارنا طيف لأصل الشرخ منتاب

هيهات لا تحمله نحونا سروح أفـــراس و أقتاب[3]

ويقول مواصلا وصف الشيب ، مخاطبا إياه ، يقول:

أيها الشيب لا يريبك من كفـ ـي مقص ولا يواريك خطر

إن نهيت النفس اللجوج عن الإثـ م وطابت فإنما أنت عطر

لحت مثل الكافور كفـر ذنبا فلتبرد إن كان أغلـي قطر[4]

فالمعري هنا يرسم لوحة حقيقية مصورا الشيب كأنه إنسان يناديه و يوصيه بعدم الخوف من مظهره؛لأنه دليل على الوقار الذي يتسم به الإنسان الشائب،ينهاه عن فعل المنكرات،رائحته طيبة كرائحة العطر يجمل المرء به نفسه ، مثله الشيب يجمل الإنسان.

فعمد كثيرا إلى وصف الشيب قائلا:

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :87.

[2]- المصدر نفسه: ص:61.

[3]- المصدر نفسه:ص :78.

[4]- المصدر نفسه : ص :321.

الشيب أزهـــار الشباب فما له يخفى وحسن الروض بالأزهار

ود الذي هوي الحسان لو اشترى ظلمـــاء يمته بـــألف نهـار[1]

فقد جعل الشيب في الرأس بمثابة الأزهار التي تزين الروض، كما أنه لا يعكس دائما التقدم في العمر، بل نراه أحيانا لا يمثل الكبر دائما،لأنه يمكن أن تجد شائبا ولكنه صغيرا في السن،أو تجد عجوزا و لكنه لم يشب وفي هذا يقول:

ارجع إلى السن فانظر ما تقادمها فاحكم عليه ولا تحكم على الشعر

فكم ثلاثين حـولا شيبت و مضت ستون و الشيب فيها غير مستعر

و ليس ذلك إلا صبغة جعلت طبعا وإن قيل شاب الرأس للذعر

تمضي الحياة و مالي إثرها أسن رددت أن معير العيش لم يعر[2]

فهنا يلُمح المعري وهو يغطي عن مشيبه وذهاب شبابه ويوصي بالحكم على العمر وليس على الشيب،خاصة بعدما عابت الفتيات عن ذلك المشيب، فنفروا منه وابتعدوا وهي الصدمة التي لم يتحملها المعري وفي شعره ما يؤكد هذا القول:

حـــي من أجـــل أهلهن الديـارا وابك هندا، لا النؤي و الأحجارا

هي قالت ، لما رأت شيب رأسي و أرادت تنـكـــــرا و ازورارا

أنا بدر ، و قد بدا الصبح في رأ سك و الصبـح يطرد الأقمارا

لست بدرا و إنمـا أنت شمس لا ترى في الدجى وتبدوا نهارا[3]

هذه الأبيات تعكس صورة من الصور الداخلية للمعري؛حيث نقل لنا من خلالها ما دار بينه وبين تلك الفتاة الشابة،وهي أبيات تحكي كيف أن الشاعر عابه الشيب والفتاة ترفض الارتباط به

---

[1]- المصدر السابق: ص :390.

[2]- المصدر نفسه: ص:367.

[3]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :129.

لهذا السبب،فعلى حد قولها الشيب في رأسه صار كالصبح ، وهي كالبدر، و الصبح و البدر لا يمكن أن يجتمعا.

ويقول في موضع آخر عن الشيب الذي أدى به إلى كره الفتيات له متسائلا عما يعيبه إذا شاب ، فليس له ذنب في مشيبه على حد قوله:

خبريني إذا مـا كرهت من الشيـ ـب فلا علم لي بذنب المشيب

أضياء النهـار ، أم و ضح اللؤ لـؤ أم كونه كثغر الحبيب

واذكري لي فضل الشباب وما يجـ مع من منظر يروق ، وطيب

غدره بـالخليـل ، أم حبـه لك غني أم أنـه كدهر الأديب[1]

ويقول في ديوان اللزوميات في نفس السياق:

و من فقد الشبيبة فالغواني لـه عند الورود مصردات

هواجر في التيقظ أو عواص وفي طيف الكرى متعهدات

إذا سهدنـه بطويل هجـر فـمـا أجفـانهن مسهدات

خواطئ غير أسهمها خـواط لكـل كبيـرة متعمـدات[2]

فالشيب سبب له هجرا من طرف الفتيات حتى وإن تأخر عنه ولم يبلغه إلا بعد الخمسين إلا أنه يبقى يعيبه، يقول:

تـأخـر الشيب عني مثل مقدمه على سواي ووقت الشيب ما حفرا

وكم تعدت يبيس الأرض راعية مـن السوام و رامت عينها الخضرا

وأطول الحين يلفى مثل أقصره فاسـأل ربيعة عمـا قلت أو مضرا[3]

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص:412.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :137.

[3]- المصدر نفسه :ص :338.

ويقول:

إذا طلع الشيب الملـــم فحيـه و لا ترض للعين الشباب المزورا

لقد غاب عن فوديك خمسين حجة فأهلا بـه لمـا دنا و تســورا

فمن عثرات المرء في الـرأي أنـه إذا ما جرى ذكر الخضاب تشورا[1]

فالمعري لم يملك بعد السخط والتأفف على ظهور المشيب المتأخر إلا الرضا به ،فكأنه يصارع نفسه التي تأبى الشيب تارة و تضره بالتقدم في السن وتارة أخرى تربط بالشعر دون العمر،ولكنه في النهاية استسلم له واستقر حاله بعد ذلك التصادم الذي عاشه فرضي به خاصة بعدما تجاوز الخمسين ، فقال:

وما العيش إلا لجة باطلية و من بلغ الخمسين جـــاوز عمرها

وما زالت الأقدار ذا النهى عديما وتعطي منيـة النفس عمــرها[2]

لأنه دليل ضعف وهرم وكبر، يقول:

لونان من ليل وصبح لونا شعري وأضعفني الزمان الأيد[3]

ويقول متأسفا على ضعفه:

آه لضعفي كيف بي هابطا في الواد أو مرتقبا في العقاب[4]

فزوال الشباب وظهور الشيب وانحناء الظهر وضعف البدن كلها مؤشرات على التقدم في سن المعري ،وهي صور نفسية حقيقية تجسد حقيقة وواقع المعري المر ونفسيته المتأزمة ومعاناته.

والإيمان بكبره لم يجر له إلا الإيمان بالموت وانتظارها يائسا من هذه الحياة يقول:

إذا كنت قد جـاوزت خمسين حجة ولم ألق خيــرا فالمنية لـي ستر

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص:331.

[2]- المصدر نفسه: ص : 333.

[3]- المصدر نفسه:ص :228.

[4]- المصدر نفسه :ص :129.

و مـــا أتوقـــى الخطـــوب كثيرة من الدهر إلا أن يصل بي الهتر

أحاديث عـن قيل في عتر و رهطه رويدك مـــا قيل و والده عتر

غدت أمـنـــا الـدنيـا مسيئـــة لها عندنا من كل ناحية وتـر

ونحن كركب الموج ما بين بعضهم و بين الردى إلا الذراع أو الفتر[1]

فالعيش بعد ذلك العمر ليس فيه خير؛ لأن الخير كالزئبق يتحول بتحول الناس ، يقول:

من عاش سبعين فهو في نصب وليس العيش بعدها خيره

والخيـــر مـن زئبـق شكـله و إنـمـا يرغب مروء غيره

لا يتطيـــر بنـاعب أحـد فكل مـا شهد الفتـــى طيره

رؤيتك الميت في الكـرى سبب يقول مـن يفقد الحياة يره

هل سار في الناس أول بتقى فيتبع النـاس بعده سيره[2]

فالمعري بعد تلك الرحلة في عالم الدنيا وجد الخير قد انقطع والناس فيها قد تغيروا فصعب العيش،لذلك تمنى الموت ولم يكتفي بتمنيه، بل زهد في الحياة واعتزل الناس وفي هذا يقول:

قد شاب رأسي ومن نبت الثرى جسدي فالنبت آخـر مـا يعتوبـه الزهر

إذا ركبـت الإدراك العـــلا سفنـــا فالبحر يحمل ما لا يحمل النهّر[3]

ويقول:

من عاش تسعين حولا فهو مغترب قـد زايل الأهل إلا معشرا جددا

و شاهد النـــاس من كهل و مقتبل ودالف الخطو لا يحصي لهم عددا[4]

---

(1)- المصدر السابق: ص :280.

(2)- المصدر نفسه: ص :348.

(3)- المصدر نفسه: ص :291.

(4)- المصدر نفسه:ص :237.

فالمرحلة التي قطعها من عمره خبر فيها المعري أحوالهم وأدرك فناء كل الأجناس لذلك تمنى الموت وكتب قبلها على نفسه العيش في عزلة ووحدة،ففيها الراحة خاصة بعد تجاوز الأربعين، فكانت حياته كموت،وهذا ما أقره بقوله:

حيــاتي بعد الأربعين منية ووجدان حلف الأربعين فقـود

فمالي وقد أدركت خمسة أعقد أبيني و بين الحـادثات عقود

كأنا من الأيام فوق ركائب إذا فقدت الانضاء فهي تقود

فدل هجير فـي زمانك أنه سخائم فــي أحشـائه و حقود[1]

فالعزلة كانت مآله في حياته مثل موته ، وفي قصيدته(لقد شركتك في أساك مشاطرا) يقول:

يــا راعـــي الــود الذي أفعــاله تغني ، بظاهر أمرها عن نعتها

لو كنت حيا ما قطعتك ، فاعتذر عنــي إليــك لــخلة بأكملهـا

فالأرض تعلـم أنني متصرف من فوقها ، و كأنني من تحتها

غدرت بـي الدنيا و كل مصاحب صاحبته ، غدر الشمال بأختها

شغفت بوامقها الحريص وأظهرت مقتي لما أظهرته من مقتها[2]

يظهر المعري هنا من خلال هذه المقطوعة اعتزاله للناس،فاعتبر نفسه كالميت وهذا ما أكده بقوله (لو كنت حيا) وقوله (وكأنني من تحتها) فكأنه ميت مدفون فيها.

وقد برر سبب اعتزال الناس في بيته الرابع نتيجة غدر الدنيا له،فهي تحب من يحبها وتمقت من يمقتها، والمعري من بين الناس الذين يمقتون الدنيا؛لذلك تمقته هي ونتيجة حتمية أن يفقد آخر أمل فيها يائسا منها ومن تصرفاتها.

لذلك تجده وحيدا في هذه الدنيا لا يحتاج فيها لأحد، صابرا على مر العيش فيها ومن قوله:

إن هاجك البارق فاهتاجي لا يمنع الرزق بإرتاج

---

[1]- أبو العلاء المعري:اللزوميات ،ج1، ص :211.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :210.

أصبح في لحدي على وحدتي لست إلى الدنيا بمحتاج[1]

ويقول:

وما سرني رب الخيال بشخصه فيطلب مني النوم طيف خيال

و هـون أرزاء الحوادث أنني وحيد أعانيهـا بغيـر عيال[2]

فالوحدة التي طالت المعري لم تكن من أثر اعتزاله الناس ومقته للدنيا و لمآسيها فقط بل كانت ناتجة أيضا عن عدم ميله للزواج وإنجاب أولاد يؤنسونه،وهذا ما فسره قوله (وحيد أعانيها بغير عيال)، فالشاعر زاهدا الدنيا بما فيها، ناكرا لها ولمتعها وملذاتها،وهذا ما فستره أقواله التي تحاكي ما يختلج في نفسه وما يتكبده من ألم يعصر قلبه ومعاناة وحسرة،فيصبر على ألم الوحدة والنوى والغربة ويتمنى الموت وتوديع أيام المشيب مثلما ودع أيام شبابه سابقا

يقول:

أأذهب فيكم أيام شيبي كما أذهبت أيام الشباب[3]

فهو يستفهم للتأكيد على أنه سوف يودع تلك الأيام التي طالت المعري في شيخوخته مثلما ودع أيام صباه ،ومن الصور النفسية الأخرى التي جادت بها أشعار المعري هو حزنه الناتج عن حب المحبوبة وفراقه عنها، وفي ذلك يقول:

أمـــا وفـــؤاد بـالغرام قريح و دمع بأنواع الهموم سريح

أليلى وكل أصبح ابن ملوح ولبنى وما فينا سوى ابن ذريح

و ليس لنا في مدة العيش راحـة فكيف يموت مـن أذاك مريح

وتعقد سلوان الفتـى عنك نفسه بأذيال بـرق أو دوائب ريـح

و ما زال في بلواك مذ يوم وضعه عليك إلى أن عاد رهن ضريح

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :185.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص :229.

[3]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :115.

طلبت شفاء منك واهتجت سائـلا بذاك أبا سلمان و ابـن بريح[1]

من الواضح أن أبا العلاء المعري قد عانى معاناة حقيقية مع الحب الذي أضناه و قرح فؤاده وأسال دمع عينه من كثرة الهموم التي أصابته بفقد حبيبته، و هو في ذلك مثل ابن ملوح و ابن ذريح في حبهما لليلى و لبنى التي اشتهروا بها في العشق و الهيام .

فهو لا يزال مبتلى بحبه لها إلى أن يغادر هذه الدنيا و لعل فراقه على من أحب هو الذي أغلق قلبه على حب أخرى و تزوجها فعهد يائسا من النساء كارها لهن نافرا منهن موصيا بعدم الزواج.

فحزنه واضح من خلال تلك المقطوعة الشعرية التي ترجمت أحاسيس المعري اتجاه حبيبته بصدق.

فحبه لها جعله يترقب مجيئها في كل لحظة متذكرا طيفها وطامعا في وصالها، كما وجدت صورة أخرى داخلية نفسية لطالما وجد في ديوانه يقول فيها:

أيا جـــارة البيت الممنع جـــاره غدوت ، و من لـي عندكم بمقيل؟

لغيري زكاة مـن جمال ، فإن تكن زكاة جمـال ، فاذكري ابن سبيل

و أرسلت طيفا خـان لما بعثته فـلا تثقـي مـن بعـده بـرسـول

خيـــال أرانـــا نفســـه متجنبـا وقـد زار من صافى الوداد ، وصول

نسيت مكان العقد من دهش النوى فعلقـته، مـن وجـنـة بمسـيل

و كنت لأجل الســن شمس غدية و كأنهـا ، للبين شمـس أصـيل

أســرت أخانا بالخـــداع و إنــه يعـد إذا اشـتد الـوغـى بقبـيل

فـإن تطلقيه تملكي شكر قومه و إن تقتليـه تؤخـذي بقتـــيل[2]

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص :199.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :213.

فطيف محبوبته قد أسر خياله و استعبده،فإن أطلقت سراحه شكرت من قومه و إن قتلته من شدة الأسر و الوجد،فإنها تتعرض لعقوبة و تتبع بدم القتيل و هو المعري، فالطيف يأسر قلب المعري يطرق بابه في كل حين خاصة بالليل، يقول:

لو أنني سميت طيفك صادقا لدعوته غضبـــان أو عتابا

قال الخيال كذبت لست بطارق ليـلا و لـم أك زائـرا منتابا

فأجبته كـم مـن كتـاب زائر فاهتاج يحلف ما بعثت كتابا

لا تثبت الأقلام زلـة راقد إن كنت بت بحلمه مرتـابا

لم يعف ربك عن مصر مـارد لكن تجاوز عـــن مسيء تابا[1]

لقد رسم المعري لوحة رائعة تنم عن صدق أحاسيسه و مشاعره الدفينة اتجاه الحبيبة حتى عاد يتذكرها بطيفها في كل حين، فصور من خلالها ذلك الخيال في هيئة إنسان يطرق باب المعري في الليل و هو متأكد من هذه الحقيقة غير أن الخيال نفى ذلك،فبرره المعري بكثرة الكتابات واستعماله للأقلام،فكلما هاجت عواطفه و تذكر طيفها أفرغ شجونه في كتب ملأت تحكي عنه و عن ألم الفراق .

فكيف لم يزره الخيال وقد لمحه ببصره ؟ فتمنى أن يبصره الرجال حتى يتأكدوا من وجوده،يقول :

إن كان طيفك برا في الذي زعما فإن قومك مـا بـرو الهم قسـما

إلى أميرك لا يسري الخيال لنـا إذا هجعنا فقد أسرى ومـا علـما

و كم تمنت رجـال فيك مغضبة أن يبصروه فلم يظهر لهم سقما

نســوف من آل هند بـارقا أربـا كأنما فض عن مسك وما ختما

إذا أطل على أبيـات بـادية قام الولائد يستقبسنه الضـرما[2]

و رهافة حس جواده جعله يحس بطيفها وهي قادمة ، يقول :

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص:93.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :203.

و نم بطيفها الساري جواد فجنبنـــا الزيـارة و الوهـــالا

و أيقظ بالصهيل الركب حتى ظننت صهيله قيلا وقـــــالا

و لـولا غيـرة مـن أعوجـي لبات يرى الغـزالة و القزالا

يحـس إذا الخيـال دنا إلـينا فيمنع من تعهدنا الخيـــالا[1]

فقد أراد هنا أن هذا الجواد عجل بالصهيل لذلك لم يره جمال حبيبته الذي منع من الدخول، فشبه جمالها بالغزالة وهي(الشمس) لبهائها،فهو من عادته الصهيل كلما أحس بدنو الخيال، فيمنع لقائه مع حبيبته،فطرقه للباب ولمحه من بعيد وصهيل الفرس،كلها صور أبعدت الخيال منعته من الدخول بالرغم من أن المعري متأكد من حقيقة وجوده و ظهوره.

فإذن ما يستنتج أن أبا العلاء المعري قد استخدم الصور الحقيقية بنوعيها الخارجية؛ حين أراد وصف الممدوح والفرس والليل وغيرها،أما الصور الداخلية فقد عبر بها عن صدق مشاعره وأحاسيسه اتجاه الحبيبة و طيفها والبكاء على أيام الشباب والتشكي من حاله و ضعفه وهرمه كل هذه الصور عمد إليها الشاعر معبرا بها عن عمق مأساته الحقيقية و حزنه و ألمه الشديد .

جدول إحصائي يبين الصور الحقيقية

		مقاطع من الصور الحقيقية			
		الصور الخارجية		الصور الداخلية	المجموع الكلي
الرقم التسلسلي	نوع الديوان	صور وصفية	صور المواقف والأحداث		
1	سقط الزند	متى يذمم ، على بلد بسوط	سرى برق المعرة بعد وهن...	وليلة سرت فيها وابن مزنتها	
2	سقط الزند	لقد آن أن يثنى الجموح لجام	ماء بلادي كان أنجع مشربا		

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص :28.

3	اللزوميات ج1	ولهذه الراح ريح عصفت...		لقد مات جنى الصبا منذ برهة	
4	سقط الزند	وصفراء لون التبر مثلي جليدة	طريق لضوء البارق تعالي		
5	سقط الزند	صنت درعي إذ رمى الدهر صرعي	أودعكم يا أهل بغداد والحشا		
6	سقط الزند	محل بأرض الشام يطرد أهله	كم بلدة فارقتها ومعاشر		
7	اللزوميات ج1	هي الراح أهلا لطول الهجاء		إن الشبيبة نار إن أردت بها	
8	سقط الزند	و مثكل فرسان الوغى كل نثرة	مضت وكأني مرضح وقد ارتقت		
9	سقط الزند	كأن الدجى غرقى بها غير أعين	إذا نمت لاقيت الأحبة بعدما		
10	اللزوميات ج1	حوادث الدهر ما تنفك عادية		سار الشباب فلم نعرف له خبرا	
11	اللزوميات ج1			إذا ما جنت نار الشبيبة ساءني	
12	اللزوميات ج1			تغير حناؤه شيبه	
13	اللزوميات ج1			نمنا على الشيب فهل زارنا طيف...	
14	اللزوميات ج1			أيها الشيب لا يربك من كفي	
15	اللزوميات ج1			الشيب أزهار الشباب فماله...	

16	اللزوميات ج1			ارجع إلى السن فانظر ما تقادمها	
17	سقط الزند			هي قالت لما رأت شيب رأسي	
18	سقط الزند			خبريني إذا ما كرهت من الشيب	
19	اللزوميات ج1			ومن فقد الشبيبة فالغواني	
20	اللزوميات ج1			تأخر الشيب عنيمثل مقدمه	
21	اللزوميات ج1			إذا طلع الشيب الملم فحيه	
22	اللزوميات ج1			وما العيش إلا لجة باطلية	
23	اللزوميات ج1			لونان من ليل وصبح لونا	
24	اللزوميات ج1			آه لضعفي كيف بي هابطا	
25	اللزوميات ج1			إذا كنت جاوزت خمسين حجة	
26	اللزوميات ج1			غدت أمنا الدنيا مسيئة...	
27	اللزوميات ج1			من عاش سبعين فهو في نصب	
28	اللزوميات			قد شاب رأسي ومن	

	ج1			نبت الثرى جسدي	
29	اللزوميات ج1			من عاش تسعين حولا فهو مغترب	
30	اللزوميات ج1			حياتي بعد الأربعين منية	
31	سقط الزند			غدرت في الدنيا وكل مصاحب	
32	اللزوميات ج1			إن هاجك البارق فاهتاجي	
33	اللزوميات ج2			وهون أرزاء الحوادث أنني	
34	سقط الزند			وأرسلت طيفا خان لما بعثته	
35	اللزوميات ج1			قال الخيال كذبت لست بطارق	
36	سقط الزند			ونم بطيفها الساري جواد	
37	اللزوميات ج1			أما وفؤادي بالغرام قريح	
38	لزوميات ج1			أأذهب فيكم أيام شيبي	
مجموع كل صورة		10	7	32	49

إذن و بعد هذه الإطلالة يلاحظ أنّ الصور الحقيقية الموجودة في ديواني المعري سقط الزند واللزوميات بجزئيه،قد استعملت كغيرها من الأنواع الأخرى السابقة،فكانت صوره متفاوتة حيث

وجدت بالدرجة الأولى الصور الداخلية التي تعكس عن مدى تألم المعري وحزنه خاصة من قضية الشيب والبكاء على شبابه الضائع وهذا ما ظهر في قصيدته المسماة "ما وجدت لأيام الصبا عوضا"مثلا التي تحدث فيها عن أيام شبابه وحزنه على انقضاءها وهي ليست الوحيدة التي تكلم فيها المعري عن صباه بل غيرها كثير ذكرت أشطر منهم في خضم الحديث عن هذا النوع سابقا وكذا ذكره للطيف و تعلقه به خاصة إذا كان الشخص عزيز عليه كأمه و محبوبته التي لم تحترم حبه لها فركزت عن مظهر الشاعر الذي أبداه كبيرا شائبا مما ساهم في تنفيرها منه،وهذا ما جعل المعري يكتب واصفا ألمه وحزنه على ما جرى له معارضا تارة على هذه النظرة وتارة أخرى مستسلما قانعا بما أصابه من شيب وكبر وعجز.

لذا تواترت في ديوانيه بمعدل (32) صور داخلية،أما الصور الأخرى فقد تفاوتت في ما بينها فظهرت الصور الوصفية التي كان يصف فيها المعري الدرع الذي كان يلبسه مدركا أهميته ؛ لذا كان

كثير الوصف له من لين وبياض وقوة وغيرها من الصور التي وصف فيها الشاعر هذه الدرع وكذا الرمح أو السيف الذي يدخل به المعارك إضافة إلى وصفه للمعارك وساحات الحرب و إلى الممدوح في حد ذاته هذا الأخير الذي كان إذا دخل البلدة أمنت وإذا دخل المعركة انتصر لشدته وقوته وبطشه ومهابته وغيرها من الصور الحقيقية الخارجية التي ذكرها المعري مستندا في ذلك على الملاحظة وقوة البصيرة ، لذا أدرجت بمعدل (10) صور كلها تحاكي الواقع المعاش بعيدا عن نفسه وآماله.

أما الجزء الثاني من الصور الخارجية ألا وهو صور المواقف و الأحداث فقد جسده بمعدل(07) صور وسواء كانت صورا خارجية أم داخلية ،إلا أنها تبقى صورا حقيقية استعملها المعري معتمدا في ذلك على صدقه ووضوحه وعدم مبالغته واجتهاده مبتعدا عن التكلف والصنعة الذي أحدثهما سابقا في الصور البيانية والبديعية،فكل هذه الصور لجأ إليها المعري معبرا بها عن عمق مأساته الحقيقية وحزنه العميق.

القسم الثاني: أنماط الصورة حسب ارتباطها بالحواس.

إنّ << الصورة هي استعادة ذهنية لإحساس أنتجه إدراك فيزيقي >>[1]، وتظهر جليا إذا حاول المرء تذكر ما رآه في الواقع،فتكون الصورة نسخة ظاهرية لما هو التقطه؛فهي مجرد انعكاس للمدركات.

كما يمكن للذهن أن ينتج صورا عندما لا يعكس مدركات فيزيقية مباشرة،ويحدث هذا عندما يحاول المرء تذكر بعض الأشياء التي أدركها في وقت بعيد ولم تعد موجودة في مجال الإدراك المباشر.

أما << الصورة الأدبية فإنّها تستخدم في مجال الأدب على وجه التشخيص لتشير إلى الصور التي تولدها اللغة في الذهن،بحيث تشير الكلمات أو العبارات :إما إلى تجارب خبرها المتلقي من قبل أو إلى انطباعات حسية فحسب >>[2]؛ لأنّ هذه الانطباعات الحسية تعتبر مادة أولية لكل إبداع ، << خاصة وأنّ الحسّ هو أساس المعرفة >>[3] ؛ لذلك من الضروري في دراسة أيّ صورة أن نأخذ بعين الاعتبار هذه الحواس.

وقد اهتم النقاد منذ القديم بعمل الحواس في بناء الصورةالفنية بل أعطوها النّصيب الأوفر، "فابن طباطبا" يوقف تقسيمات التشبيه على إطار حسي، فيقول :<< هو تشب،ومنها تشبيهه به صوتا ،وربما امتزجت هذه المعاني بعضها ببعض ، فإذا اتفق في الشيء المشبه بالشيء معنيان أو ثلاثة معان من هذه الأوصاف، قوي التشبيه وتأكد الصدق فيه >>[4].

و هكذا فقد أوقف " ابن طباطبا " نجاح الشعر على الحواس ، فهو مرهون بها في كل تشبيهه.

وطبع الإنسان دائما يميل إلى تحكيم ما يقع تحت طائلة حواسه ، في حين يتنكرون للأمور الغيبية،وهو ما وضحه " الجرجاني "بقوله :<< إنّ أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي ،وتأتيها بصريح بعد مكنى،وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى آخر ، هي بشأنه أعلم ، وثقافتها به في المعرفة أحكم ،نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس...لأنّ العلم المستفاد من طرف

---

[1]- مصطفى صادق الجويني : البيان فن الصورة ،(د، ط ، د ، ت) ، ص :173.

[2]- المرجع نفسه: ص :173.

[3]- جهاد رضا : التصوير الفني في شعر العميان ، ص :76.

[4]- محمد بن طباطبا العلوي: عيار الشعر ، تحقيق عباس عبد الستار ، دار الكتب العلمية ، ط1 ،1982، بيروت ، لبنان ، ص :23.

الحواس،أو المركوز فيها من جهة الطبع...يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام وبلوغ الثقة إلى غاية التمام ، كما قالوا : ليس الخبر كالمعاينة >>[1] .

فهذا الأمر ينطبق على جميع الأشياء بما فيها تلك الصورة الفنية،<< فمادتها هي جزئياتها التي تكونها وتحدد معالمها وتوضح خصائصها >>[2].

فهي نتاج لعمليات مركبة تتم بواسطة الحذف والتعديل والتركيب،وهذا ما وضحه "كوفن "، بقوله:<< أوضح الصور الفنية وأكثر الأشياء المرئية ثباتا في الذهن...دائما أشياء كتلك التي نستطيع أن نبصرها، ونلمسها، ونشمها،ونتذوقها .... وعليه فالصور نتاج لعمليات مركبة بواسطة الحذف والتعديل والتركيب والانتخاب>>[3].

وانطلاقا من هذا القول أيضا تظهر جليا تقسيمات للصورة،تكون على أساس الحواس الخمس؛ << لأنّ الصورة الشعرية تثبت العلاقة بين اللغة وحواسنا الخمس؛ فحواسنا هي وسيلتنا للاتصال بالعالم الخارجي، واللغة باعتبارها وسيلة هذا الاتصال تقوم بدور الوسيط بين خبراتنا الذاتية ومعلوماتنا الموضوعية التي نحصل عليها من تجاربنا وخبراتنا اليومية >>[4].

فما يحصل عليه من العالم الخارجي من معلومات وتجارب يصل عن طريق الحواس الخمس كالرؤية والسمع والشم والذوق واللّمس.

<< فالحواس بهذا المعنى تكون بمثابة الجسر الذي يوصل بين العالم الخارجي وبين إحساساتنا الداخلية >>[5].

---

[1]- سعود فطيمة وسعود مريم: أنماط الصورة الفنية في قصة القميص ، سورة يوسف ، مجلة دراسات ،العدد ب ،13 مارس 2010 ، جامعة الأغواط ، ص :142.

[2]- إبراهيم بن عبد الرحمن الغنيم: الصورة الفنية في الشعر العربي، مثال ونقد ، الشركة العربية للنشر والتوزيع ،(د، ط ، د ، ت) ، ص :87.

[3]- نعيم الباقي : مقدمة لدراسة الصور الفنية ، منشورات وزارة الثقافة ،1982 ، دمشق ، ص :74.

[4]- دلال هاشم كريم الكناني : الصورة الشعرية في الغزل العذاري ، دار الحوار ، ط1 ، 2011 ، ص :109.

[5]- عدنان خالد عبدالله : النقد التطبيقي التحليلي، دار الشؤون الثقافية العامة ، آفاق عربية، ط1 ،1986، بغداد ، ص :30.

فإذن الصورة الحسية هي من الصور المستعملة في الشعر؛ ففيها :<< يعمد الشاعر إلى الاقتباس من الطبيعة بعض المظاهر الواقعية ، يلتقطها ويختارها بحدسه وانفعاله، وإن كانت تبدو ظاهرا، وكأنّها صور فعلية حسية >>[1]

وقد قسمت الصورة حسب ارتباطها بالحواس الخمس إلى:صورة بصرية، وسمعية،وذوقية و لمسية وشمية، وهذه التقسيمات لا تعني أنّ الصورة الواحدة مختصة بما نسبت إليه من الأنواع،فقد تشترك عدة عناصر في تكوين الصورة الواحدة،فتكون بصرية متحركة أو ساكنة ملونة وطويلة،أو تكون بصرية وفيها أثر للحاسة السمعية وغيرها من الصور المتداخلة فيما بينها لكن عند التمثيل لأنواع الصور سيتم التركيز على أبرز عنصر مكّون للصورة وأصنفها على إثره.

أولا- الصورة البصرية:

إنّ حاسة الأبصار تلعب الدور الأول في إمدادنا بالصور،والابتداء بها لا يعني أنّها تمثل وحدها الصورة الحسية؛ فالمرئي حسي ولكن الصورة الحسية ليست دائما هي الصورة المرئية فقط؛فهي نتاج لكل الحواس الأخرى.

وقد وجدت الدراسات الحديثة أنّ نسبة المعلومات المستمدة عن طريق الإبصار تبلغ تسعين بالمائة ،أما ما تأخذه العين والأذن يبلغ نسبة ثمان وتسعين في المائة ، وتبقى درجتان لبقية الحواس [2].

ويظهر من خلال هذا القول أنّ حاسة البصر من أظهر الحواس وأكثرها أهمية ؛ وهذا ما جعل الإفادة منها تكون بشكل أكبر؛ فبواسطته يبصر الإنسان طريقه ويحدد معالمه ويفرق بين الكائنات من جمادات ، وأحياء ، ويعرف مواقعها، وأشكالها، وألوانها، وأحجامها وحركاتها ؛<< فللبصر أهمية في تكوين الصورة الفنية؛وذلك بأن ينقل الشاعر ما يراه إلى المتلقي ؛ ذاكرا أوصافه وأحواله المرئية،أو يبرز أمرا عقليا في صورة آخر مرئي ويذكر صفاته الشكلية واللونية>>[3].

---

[1]- إيليا الحاوي : في النقد و الأدب ، دار الكتاب اللبناني، ط2 ،1986 ، بيروت ، ص:249.

[2]- بتصرف محمد حسن عبد اللّه : الصورة و البناء الشعري ، دار المعارف ، مكتبة الدراسات الأدبية ،(د،ط) ،1981 ، القاهرة ، ص : 30.

[3]- إبراهيم بن عبد الرحمن الغنيم : الصورة الفنية في الشعر العربي مثال ونقد، ص:89.

فإذن الصورة البصرية هي تشكيل فني يظهر لنا ما يدرك بحاسة البصر من هيئات ورسوم وألوان وحركة وأبعاد وغيرها ومن خلال دراسة هذه الصور ظهر لي أنّ الصورة البصرية تنقسم إلى ثلاثة أقسام هي: **الصور البصرية الساكنة:**

وهي كل صورة اعتمدت في جزئياتها على حاسة البصر لكنها خلت من الحركة ، كتشبيه ناقة بالصخرة لصمودها أو تصوير قوة الناقة وصلابتها بمطرقة الحدادين التي لا تتأثر بكثرة طرقهم وعملهم بها ،أو تشبيهها بالرمح لتقوسها أو بعرجون نخلة، وهذا الأخير –مثلا–ما يعكس كثرة أسفارها، كما نجد الصور البصرية الساكنة تكثر في وصف الخيل الأبيض الذي يشبهه بالرمح لقوة سرعته وغيرها من الصور التي سوف تظهر معنا .

ومن خلال دراسة ديواني المعري وهما اللزوميات بجزئيه وسقط الزند ظهر أنّ الشاعر أبا العلاء المعري لم يبتعد في التقاطه لعناصر التشبيه في شعره عن باقي الشعراء ؛فوظف بدوره صورة للناقة والتي هي << صورة لحيوان مستأنس في شكل أقرب إلى الوعي الواقعي بحكم معايشتها للإنسان ومشاركتها في حياته >>[1].

فهي أداة للوصول وحبل للنجاة ورفيق فقي السفر،بها يقطع الفيافي ويجوب الصحراء ، وهذا ما أكده الشاعر لنا واصفا حالة الناقة التي كانت قبل السفر كالنخيل في سمنها وعظمها ولكنها صارت بعد ذلك كالعرجون في تقوسها ونحولها وهذا من شدة السفر، فرقت بذلك جلودها حتى صار الماء يُرى للعيان وهو نازل في رقابها، فنراه يقول:

وكانت كالنخيل ، فظل كل ومشبهه ، من الضمر،الإهان
تخيّلت الصباح معين ماء فما صدقت، ولا كذب العيان
فكاد الفجر تشربه المطايا وتُملأ منه أسقية شنان
وقد دقت هواديهنّ، حتى كأنّ رقابهن الخيرزان
إذا شربت رأيتُ الماء فيها أُزيرق ليس يستره الجران

[1]– علي البطل: الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها ، مجلة فصول، العدد الرابع ،1984، المجلد الرابع ، ص:226.

سترجع عنك وهي أعزّ إبْـــل إذا إبـــــل أضرّ بها امتـــهان[1]

ونراه في أبيات أخرى يؤكد على الحال الجيدة للإبل قبل أن يضنيها السفر ويهلكها ، فقال:

حلمنا بأسنان الكهول ، وهذه شوارف تـــــزهاها حلوم إفال[2]

ترى العود منها باكيا، فكأنّـــه فصيل حماه الخلف ربٌّ عيال

وواصل قوله عن النياق التي رقت جلودها في نظره حتى عاد الماء يرى للعيان وهو نازل في رقابهن يقول:

وقد دقّت هواديهن ، حتى كـــأنّ رقابهن الخيزران

إذا شربت ،رأت الماء فيها أُزيرق ليس يستره الجران

سترجع عنك وهي أعزّ إبل إذا إبـل أضربها امتهـــان[3]

فالجمل قد هزل من شدّة السفر حتى أصبح بإمكانه الإيلاج في ثقب إبرة ، ويظهر ذلك واضحا في قوله:

و كـــلّ وجيهي كـــأنّ رؤالـــه تـحدّر من عطفيه فوق حزامه

و أعْيس لو وافى به خُرْتُ مخيط لأنقـــــذه من ضمره وانهضامه

يراقب ضوء الصبح من كل مطلع ولـــا ضوء،الا ما بدا من لغامه[4]

وتارة أخرى يصف لنا عيونها التي غارت من شدة الهزال ، وهذا ما بينه بقوله :

ألفتِ خوص المطايا ،إنّ منكرة إلف الغزال ، مقاليتا ، مقاليتا[5]

---

[1]- أبو العلاء المعري: سقط الزند ، ص:47.الهوادي:جمع هادي ، وهو العنق و الجران:هو باطن العنق أما الإهان ،فهو العرجون الذي شبه به المعري ناقته بها لنحولها وتقوسها.

[2]- الشوارف: جمع شارف وهي الناقة المسنة ، أما الإفال هو جمع أفيل وهو الصغير من الإبل ، أنظر أبو العلاء المعري ، سقط الزند ، ص:238 ،239.

[3]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :233.

[4]- المصدر نفسه : ص:228.

[5]- المصدر نفسه: ص :294.

وهو في سياق آخر يشبه الجمل في ضموره بأطراف المداري وهذا ما ينم عن وجود صورة بصرية ساكنة أخرى،حيث استطاع أبو العلاء المعري من خلالها تشبيه هذه الجمال بأمشاط رقيقة وطويلة وهذا ما يدل على نحافتها بالفعل .

حيث يقول:

بعيس مثل أطراف المـــداري ، يخضن من الدّجى ، لمما جعــادا

علام هجْرتَ شرق الأرض حتى أتيـــت الغرب تختـــبر العبـــادا[1]

فمن شدة الهزال تساوكت أي اضطربت ، يقول:

يا أخت نضلة ! هل يسوءك أننا بـــات المطي بنا إليك يسوك

مُسّي البياض لعل شرخا عائد أو علّ نشرك بالمشيب ، يصوك

إنّي إذا دلكت بـــراحٍ قبضتها بالـّراح كيما لا يكون ذلـــوك [2]

والسبب في هزال الناقة ونحافتها لا يكمن في السفر وحده بل يلمس في أبيات أخرى من شدة الخوف من الله حتى أصبحت هذه الناقة كالقوس في اعوجاجها ، وذلك يظهر في قوله:

من خوف بارئك امتطيتُ نجيبة عادت بسيرك مثل قوس الباري

فإذا وردت مني فغايات المنى ملقى جرائم في الحياة كـــبار [3]

وهكذا نلاحظ أنّ أبا العلاء المعري قد وظف صورا كثيرة للناقة،قد لاحظها بالبصر عكست حالتها؛فتارة نجدها نحيفة غائرة جلودها رقيقة تشبه القوس في اعوجاجه،وتشبه المداري في رقتها ولكنه لم يكتف بهذه الصور البصرية الساكنة التي فسرت حالة الناقة التي غالبا ما تكون نحيفة بل تعداه إلى المنايا ، فجعل لها حواطب من خشب ، فقال :

صرفت كأسها فلم تسْق شربا مّره خالصا وأخرى قطيبا[4]

فالجسم بعد فراق الروح كالمدر لا فائدة منها وهذا ما يظهر في قوله :

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص:157.

[2]- المصدر نفسه:ص: 376.

[3]- المصدر نفسه ص: 376.

[4]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :95.

والمرء ينكر ما لم تجْرِ عادته فالجسم بعد فراق الروح كالمدر[1]

وفي سياق آخر نجده يوظف لنا صورا لها علاقة بالسيف ، يقول :

إنّ كؤوس المدام تشبهها الســ يوف والموت في مضاربها
شموسها شمس باطل شرقت فلا يكن فوك من مغاربها
ونملها إن تدبّ في جســـد أضر للنفس من عقاربـــها[2]

حيث جعل الموت ساكنا في كؤوس المدام كما هو ساكن في السيوف،فكلاهما لديه في الموت سكن ، كما أنّ الدّهر في حدته كالصل يفتك بالإنسان .

قال:

والدّهر أرقم بالصباح وبالدجى كالصّل يفتك باللّذيغ إذا انقلب[3]

كما جعل الصبح كالسيف ،فقال :

وكأنما الصبح الفتيق مهنّد للقهر ماء فرنـــده مـــوّار
قد ذرَّ قرن ثم غاب فهل له معنـــى أجل هو للنفوس بوار
إن غار بيّت آمنا في ليله فإذا يغور فثـــائر مـــغوار[4]

فالدّهر وكؤوس المدام والصبح كلها صور لها علاقة بالسيف في جماله ونحوله ورسومه، وهذا ما يظهر بقوله :

ولولا ما بسيفك من نحول لقلنا أظهر الكمد انتحالا
سليل النار ، دقّ ورقّ حتى كأنّ أباه أورثه السلالا
مُحلى البُرد تحسبه تردى نجوم الليل وانتعل الهلالا
مقيم النّصل في طرفي نقيض يـكون تباين منه اشتكالا
تبيّن فوقه ضحضاح مـــاءٍ وتبصر فيه للنّار اشتعالا

---

[1]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1 ، ص: 361.

[2]- المصدر نفسه : ص :116.

[3]-المصدر نفسه: ص: 125.

[4]- المصدر نفسه:ص :310.

غراره لسانـــا مشرفـــي يقول غرائب الموت ارتجالا[1]

هذه الأبيات تأتي كمقدمة قبل التكلم عن الصبح وتشبه بالسيف وكؤوس المدام والدّهر فعشقه له جعله يشبه الدهر والمدام والصبح به،لذلك وصف عشق سيوفه للأعناق والدليل على عشقها لهذه الأخيرة هو نحولها ،لأنّ النّحول دليل العشق،ويعني هنا بسليل النار أنّه نشأ فيها عند طبعه ،فتراه دقيقا رقيق الشفرتين، وكأنّ والده أورثه داء السّل الذي ينخر الجسد وقد حُلي غِمدُ هذا السيف بحلية من فضة ،فمن يراه يظنه قد لبس رداءا من نجوم الليل وجعل في أسفل الغمد نعل من فضة ، فمن يراه يظنه لبس نعالا من هلالها ونصل هذاالسيف جمع نقيضين الماء والنّار،فهو في صفائه ولمعانه يحكي الماء وفي تألقه وتوهجه يحكي النارفالتباين والتنافر الطبيعي بين الماء والنّار يصبح في نصل هذا السيف تشاكلا وائتلافا، وقد جعل للسيف لسانا فجعله يفعل أفعالا تحدث غرائب الموت من غير تكلف .

فوصف هذا السيف وحالته بهذه الطريقة والتغني بجماله ورسمه كما لو أنه موجود أمامنا لا يمكن أن يتحقق إلا بحاسة البصر، فجاءت هذه الأبيات مليئة بالصور البصرية الساكنة التي تخص السّيف.

ومن ثمّ أجري الإحصاء على كامل ديواني المعري وهما سقط الزند و اللزوميات بجزئيه،ولمعرفة ذلك وإثباته علميا ستتركز الدراسة على بعض الكلمات المفتاحية التي عن طريقها شكلت هذه الصور وعدد تكراراتها في قصائده من خلال الجدول الآتي:

	الصور البصرية الساكنة
الكلمات	التكرار
الناقة	5
الجمل	1
العيس	1
الدهر	1
كؤوس المدام	1

[1]- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص :32.

المنايا	1
الصبح	1
الجسم	1
المجموع	12 صورة ساكنة

جُمعت أبيات كثيرة تدخل ضمن دائرة الصورة البصرية الساكنة التي تكون فيها الحركة غير مرادة أو أنّ الصورة قد خلت تماما من الحركة منها ما له علاقة بالناقة أو الجمل والعيس،حيث صور لنا الناقة قبل السفر وبعده،فقد أضناها السفر وأتعبها حتى نحلت وهزلت ولم يكتف بهذا فقط بل شرع في التركيز على نحافتها، فصّورها بعيون غائرة وجلد رقيق يبين قطرة الماء،وهي في ذلك من شدة الهزال والنحافة فبات بإمكانها الدخول في ثقب إبرة ؛فهي كلها صور بصرية ساكنة، فقد شبه الناقة لهزالها وضمورها بأطراف مداري وبقوس معوج وبحروف، كما لم ينسى التحدث عن الدهر، والمدام، والصبح ، وكلها تشبيهات للسيف في حدته، ورشاقته ،و جماله.

هذا فيما يخص الصورة البصرية الساكنة ،أما النوع الثاني فهو ما يدخل ضمن دائرة: **الصورة البصرية المتحركة** :وهي كل صورة بصرية غلبت الحركة على أجزائها وتركيبها كوصف حصان وهو يمشي أو مسرع،أو وصف حركة الماء وهي تسير في الأنابيب أو في الجداول والحقول،وغيرها من الصور البصرية المتحركة.

ولقد أشاد الإمام "عبد القاهر " بالتشبيه الذي يأتي ممثلا للحركة ، فقال عنه<< إنّ مما يزدان به التشبيه دقة وسحرا،أن يجئ في الهيئات التي تقع عليها الحركات >>[1]؛ لأنّ اقتران التشبيه بالحركة يزيد من قدرته على التأثير في النفس و<<التقاطها أي (الحركة) وهي جادة في حركتها واضطرابها دليل القدرة والوعي وقوة الملاحظة ، ثم تصويرها وهي تتحرك أعني المحافظة على هذه الحركة الحسية الباعثة للنّفس والتي تنفي عنها ملل الجمود ملكة أخرى >>[2].

[1]- محمود بن عمر الزمخشري : أسرار البلاغة، ص :29.

[2]- محمد حسنين أبو موسى: التصوير البياني، مكتبة وهبة ،(د، ط، د، ت) ، ص :52.

وفي شعر أبي العلاء صور متحركة <<نابعة عن رصد الحركة الخارجية للمصوغات >>[1]، فنجده مثلا قد صّور لنا حركة المنايا وهي تمشي إلى من سوف تلقفه وذلك بقوله :

يكاد محين لاقى المنايا بسيفك لا يكون له معاد[2]

فهذا الذي حان حينه يلاقي المنايا وتلاقيه ،فهو يمشي إليها راغبا أوكارها وهي تمشي إليه راغبة طامعة ،ويقول أيضا في نفس السياق :

إذا ترنّم شاد لليراع به لاقى المنايا بلا خوف ولا خرق[3]

ويقول :

وكنت إذا أشعرتها الجسم لم أخف نـجيدا ولاقـت المنية منجدا

وقلبت كفا تحسب الرمح خنصرا وإنسان عين تحسب النّقع إثمدا[4]

فالموت سار في كل بقاع الأرض وانتشر ،فقال :

رأيت الحتف طّوف كل أفق وجــاب من مضر وكفر

وكيف يثمر الإنسان وفرا ولم يخرج من الدنيا بوفر

ولم أر مثل أيامي سِراعـا خيول فوارس وركاب سفر[5]

فهو تارة يسعى للإنسان ويظهر بقوله :

ومن اليمن للفتى أن يجيء الـ موت يسعى إليه سعيا مريحا

لــم يمارس السقام طويـــلا ومضـى لـم يكابد التبريحا[6]

ويقول :

---

[1]- سيسيل دي لويس: الصورة الشعرية ، ترجمة أحمد نصيف الجنابي ومالك الميري وسلمان حسن إبراهيم ، مراجعة عناد غزوات إسماعيل ، دار الرشيد للنشر ،1982 ، سلسلة الكتب المترجمة ، العدد 121 ، ص :56.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :41.

[3]- المصدر نفسه : ص :140.

[4]- المصدر نفسه: ص :50.

[5]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص :375.

[6]- المصدر نفسه: ص :197.

ورأيت الحمام يأتي على العا لــم من قاهر ومن مقهــور[1]

وادعوا للمعمرين أمــورا لستُ أدري ما هنّ في الشهور

وتارة أخرى يجري الموت مهرولا إلى الإنسان لكي ينقض عليه .

يقول :

وجرى الحتف بالفضاء فما يسـ لم ليث ولا غزال ربيب

يطلع الوافد المبغض والعيـ ش إلى هذه النفوس حبيب

خبّ بتها عليه نكد الرزايا فنبا عن قلوبــها التخبيب[2]

كما جعل للزمان حركة مثل الموت يسير بالناس إلى قبورهم وفي أيّ اتجاه ،يقول :

سار الزمان بهم إلىأجداثهم وكذا الزمان بأهله سيّار

كُنْ حيث شئت بلجة أو ربوة أو وهدة سينالك التيار[3]

ويقول :

أأنكرها ومنيتها فؤادي وكيف تناكر الأرض القتادا

و لما أن تجهمني مرادي جريت مع الزمان كما أرادا

وهونت الخطوب علّي حتى كأني صرت أمنحها الودادا[4]

فبعد أن طاوع إرادة الزمان الذي جرى معه ،صار ذو دربة برزاياه ومصائبه ومن هنا لم يكن مباليا بما يرى منه، بل صار يمرح ويصول ويجول،فيقول :

إنّ زماني برزاياه لي صيّرني أمرح في قدّه[5]

---

[1]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1 ، ص:405.

[2]- المصدر نفسه : ص :79.

[3]- المصدر نفسه: ص :314.

[4]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :42.

[5]- المصدر نفسه: ص:65.

فقد صّور مدى سرعة هذا الزمان أمام عين صاحبه وخروجه من بين يديه، لتحل محلها لحظة أخرى فتترك صاحبها في لحظة الشاهد الذي لا خول له ولا قوة ،خاصة وأنّ غريمه صاحب قوة وجبروت، فهنا يقول:

طويتُ الصّبا طيَّ السّجل وزارني زمان له بالشيب حكم وإسجال[1]

والزمان بحوادثه وهذه الحوادث هي بمثابة إنسان يمشي ،يقول :

تمشي علينا الحادثات ووطؤها كسنا البوارق ليس فيه عثار

أظننت دهرك عن خطابك صامتا وإذا أبـــهت فإنّه مكثـــار[2]

فإذن الحادثات تمشي لتسقط على الإنسان ومن سقطت عليه بدا كأنه جمل كسر سنّه وتناثر ذنبه من شدة الهرم و الضمر،يقول :

وجدت مدى الحوادث واقعات بلـ ّات المثلب والحوار[3]

ولحوادث الأيام والليالي نصيب من التصوير ،فنجده يتكلم عن الأيام ،يقول :

هي الأيام أعينها روان إلى الإنسان من حُول وشُتر[4]

وعن الليالي وأحقية السير فيه يقول :

سرينا وطالبنا هاجع وعند الصباح حمدنا السُّرى

بنو آدم يطلبون الثرا ء عند الثريا وعند الثـــرى[5]

فيطير الشرار الذي يحرق الليل بثوبه المظلم ، نتيجة السرعة الفائقة للإبل في جوف الليل ،يقول:

فحّرقن ثوب الليل حتى كأنّني أطرتْ بها ، في جانبيه شرارا

وباتت تراعي البدر وهو كأنّه من الخوف لاقى بالكمال سرارا[6]

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 152.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص :308.

[3]- المصدر نفسه : ص :379.

[4]- المصدر نفسه: ص :372.

[5]- المصدر نفسه:ص :57.

[6]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :76.

ويواصل في سياق آخر قوله بأنّ كثرة حركة الإبل ناشئة عن توهمها أنّ أزمتها أزمة حيات فهي تحاول تجنب لذغها بكثرة حركتها، فيقول:

يحاذرن من لذغ الأزمةلا اهتدى مخبّرها أنّ الأزمة أصلال[1]

وهو في أبيات أخرى من ديوان سقط الزند ، يشبه سيرها الذي تخطو فيه بأعناق واسعة بالسيف القاطع وذلك لخفتها، فيقول :

جُوازُك ناب ، إنْ ضربت به السُّرى ورحلك ليلا ، فوق ناب، تُواعس

فرتْك أواذي الفـــرات صبـــــابة وأبلستَ ، لـما أعرضتْ لك بالس[2]

ولكن هذا السير للإبل في وسط الفيافي قد أزعج أبو العلاء المعري ، يقول:

تزعجني ذات وجيف رتّاب تخط في الأرض سطور الكتاب[3]

كما أعطى المعري صورة جميلة عن سير الإبل التي جعلها على هيئة أمنّة النعال التي تشدّ به الرحال، وهذا ما أوضحه من خلال قوله:

وكادتْ قَلوص حُمّلتها، حقيبـة يبـــــضُ بمـاء كورها ونسوعـها[4]

فقد صنع من خلال هذا البيت صورة جميلة ؛ حينما أراد أن يصف سرعة الإبل الناجيات حين تقدح بأخفافها الحجارة ،فيطير الشرار الذي يحرق هذا الثوب الذي استعاره لهذه الظلمة.

وامتدادا لجعله الليل ثوبا يرتديه وهو الظلام جعل الشهب والكواكب من ضمن ملبوسات الليل ، ثم يجعل الليل يخلع كواكبه حين يمر على بلادهم خشية أن يسلبه أحد إيّاها ، يقول :

أَو ما رأيت الليل يلقى شهبه حتى يجاوزها بحلة عاطل

لا تأمنن فوارسا من عامر غلا بذمة فارس من وائل[5]

---

(1)- أبو العلاء المعري: سقط الزند ، ص:153.

(2)- المصدر نفسه: ص: 386. و الجراز هو السيف القاطع، بينما نواعس هي من المواعسة و الإيعاس وهو ضرب من سير الإبل في مد أعناق واسعة.

(3)- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1 ، ص :129.

(4)- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص:392.

(5)- المصدر نفسه : ص: 185.

لذا أوصى أبو العلاء المعري بامتطاء تلك الإبل السريعة ، في قوله :

خدتْ بسواك الناقلا تُك في الضحى بمشْي سواك لا تجدُّ ولا تمطـو
إذا ما عصتْ حكم العصا، فأعادها لـها ضارب كانت إجابتها النّحط
أمْن أرب في حمل خدرك ، دائمـا تـثاقل حتى لا يُـلّم به حـــط.[1]

فانطلاقا من هذه الأبيات يظهر أبو العلاء المعري وهو يوصي بامتطاء مثل تلك الناقة السريعة والتي لا تضاهيها أي ناقة أخرى، وتظهر مسرعة أكثر إذا استعمل معها العصا فتجعلها تصدر من شدة السرعة زفيرا،وهو ما أشار إليه بلفظة النحط،غير أنّ سرعتها لا تمنع من ظهورها وهي متثاقلة في سيرها_في بعض الأحيان_ تجنبا لحط الّرحل عن ظهرها وهي تحمل الخدر لثقله.

وتارة أخرى يحّول كلامه إلى الفرس، فيصفه وهو يفر مسرعا من الرزايا، التي يحس بنزولها،وقد جعل لها وطئا تنزل به على الفرس،يقول:

يُحسُّ وطء الرزايا وهي نازلة فينهب الجرى نفس الحادث[2]

فأبو العلاء المعري – هنا- وصف فرسه فجعله يفرُّ متى أحس بنزول الرزايا ، فهو فرس صادق الحس يحس بحوادث الدهر حين تنزل عليها صورة جميلة عن فرسه، فجعله يحس ويدافع كما جسد لنا الرزايا ،فجعل لها وطئا وهي نازلة على هذا الفرس الأدهم الذي زينه الدجى ، فقد يكون هو نفسه المعري الرجل المغوار الذي يلبس لباسا أسود مثله مثل الليل؛ وهو دليل على تشاؤمه وحزنه وألمه من شدة المصائب التي سقطت عليه من كل صوب فأرقته وأرهقته.

ولم يكتف الشاعر بالتحدث عن الزمان برزاياه وعن الليل بظلامه وسواده بل تعداه إلى ضرب صور أخرى عن الدنيا وسرعتها.

يقول :

وتجري دفا ربها جدّها بمثـل ظلام فإذا ما جرى
كأنّ بصاق الدبى فوقها إذا وقـدت في الأوف البُرا
وذلك من حّر أنفاسهـا يضاعفه حّر يوم جـــرى

---

[1]- أبو العلاء المعري: سقط الزند ، ص :300. ، النحط: الزفير.

[2]- المصدر نفسه: ص :89.

تلوم على أمّ دفر أخـاك وراءك إن هوى قـــد ورى[1]

فالدنيا تسير بسرعة مذهلة بالإنسان بدون إرادته والشخص الذي تسير به هو عنده بمثابة طائر كسر جناحاه ، فلا يستطيع الطيران ، يقول:

لا تعذلاني فالذي أبتغي مـن هذه الدنيا يسيـر
بِتّ أسيرا في يدي برهة تسير بي وقتي إذ لا أسير
كطائر قيل ألا تغنـــدي فقـال أنّى وجناحي كسير[2]

كما تكلم عن مراحل عمرية يمر بها الإنسان من الحبي إلى المشي على الأرجل ومن الشباب إلى المشيب،في قالب يحمل الكثير من الصور التي ترى بالعين وتجسد عنصر الحركة ، فيقول :

سار الشباب فلم نعرف له خبرا و لا رأينـا خيالا منه منتابـــا
وحقّ للعيس لو نالت بنا بلـــدا فيه الصبا كون عود الهند أقتابا
ألقى الكبير قميص الشرخ رهن بلى ثم استجد قميص الشيب مجتابا[3]

فهنا تكلم أبو العلاء المعري بحرقة عن سير الشباب وقدوم المشيب ، فالصورة حركية بحتة صّور فيها الشاعر مروره من الشباب إلى المشيب،هذا الأخير الذي جعله ينتقل إلى مرحلة الحبي وهو المشي على اليدين والبطن .

يقول :

حبا الشيخ لا طامعا في النهوض نقيض الصبا إذا ما حبـا
ولم يحبني أحـــد نعمـــــــة ولكن مولى الموالي حبـا
نصحتك فاعمل له دائمـــــا وإن جاء موت فقل مرحبـا[4]

بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين صور لنا خطوات المرأة السمينة التي تشبه خطوات القطا ؛فقال :

قصار الخطى يدْرِ من أو مشية القطا فكيف إذا ما سرن في الحلق الدرم

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :57.

[2]- المصدر نفسه : ص : 412.

[3]- المصدر نفسه: ص :87.

[4]- المصدر نفسه: ص : 99.

هززن لتقليـــــب الذوابـــــل أذرعـا نـــــوافر من هزّ المثقفة الصّـــم[1]

والمعري لم يخرج من خلال تصويره عن سابقيه في تصوير المرأة السمينة والدليل على سمنتها من خلال بيتيه هو استواء كعبها مع الساق.

والمرأة الممتلئة الجسم<< كانت تشكل صورة مهمة لتحقيق الشروط المثالية التي تؤهلها لوظيفة الأمومة والخصوبة ،وهي صورة شائعة لا يكاد يخلو منها شعر شاعر >>[2].

ومنه يتجلى بعد هذه الإطلالة حول هذا النوع من الصور أنّ<< الصورة الحركية ليست مما يسهل تصويره ونقله، ولعلها وقف على ملكة المبدع أكثر من اعتمادها على الرؤية البصرية ،وربما كانت عند الشاعر الأعمى كالمعري مثلا أيسر إبرازا وأسهل تصويرا لأنه لا يعتمد على رؤية الأشياء في تصويرها بل يدركها إدراكا جماليا تحدد أبعاده الخبرة والتجارب والثقافة معا>>[3].

فشعره يضج بمثل تلك الصور التي تنبض حيوية وتخلق أبعادا وظلالا ، تجعل المتلقي يحسّ بحركة الجوامد ، يقول :

كان كالأفق حين همّتا به الشمـ س تنادت نجومه بالميسر
يا لها نعمة وليس ببدع أن تحوز الشموس رقّ البدور
قد أتاك الربيع يفعل ما تـــأ مـــره فعل عبدك المـــأنور
وكسا الأرض خدمة لك يا مو لاه دون الملوك خُضُر الحرير
فهي تختال في زبرجدة خضراء تـــغدى بلـــؤلـــؤ قصيـــر
وغدت كلّ ربوة تشتهي الرّقـــ ص بثوب من النبات قصير
ردّ أرواحهم فلولا حذار اللـــه قـــامو من قبل يوم النشور[4]

وقد يتجلى عنصر الحركة على نحو من التصوير يجمع الشاعر فيه بين صورتين تحمل كلا منهما عناصر مختلفة، لكنها تتفق في المضمون الحركي الواقعي ، ففي قول المعري يظهر ذلك :

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :394.

[2]- علي البطل : الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن (2) الهجري، دراسة في أصولها وتطورها، ص:225.

[3]- جهاد رضا : التصوير الفني في شعر العميان ، ص :104.

[4]- أبو العلاء المعري: سقط الزند ، ص :85.

وكم ساعٍ ليحبر في بناء ولم يرزق بما يبنيه حبرا
كـأّم القّز يخرج من حشاها ذرى بيت لها فيعود قبرا
لعلك منجزي أغبار دينـــي إذا قمنا من الأجداث غبرا
وحافر معدن لاقى تبـــارا وكـــان عناؤه ليصيب تبرا[1]

فهنا يتكلم عن الإنسان الذي يريد أن يحقق هدفا ولكنه لا يسعد إذا حصل عليه مثله مثل القّز الدءوب إذ لا يمكن أن يحقق من بيته المنسوج إلا قبرا لها.

وقد أجري جدولا إحصائيا يوضح مجمل الكلمات أو المفردات التي تشكل صورا بصرية متحركة إضافة إلى عدد تكراراتها في ديوانيه فوجد ما يلي :

	الصور البصرية المتحركة
تصوير كلمة	التكرار
الزمان	3
الحوادث	2
الموت	3
الحتف	1
المنايا	1
الحمام	1
الإبل	3
الفرس	1
المرأة	2
الليل	2
الشباب	2

[1]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1 ، ص :342.

الشيب	2
الدنيا	2
المجموع	25

إذن بعد الدراسة التي أُجريت حول شعر المعري المتمثل في ديوانيه سقط الزند و اللزوميات بجزئيه لوحظ أنّ أبا العلاء المعري أدرج نوعا آخر يدخل ضمن الصور البصرية ألا وهو الصور البصرية المتحركة، فحاول بذلك تغليب الحركة على أجزاء وتراكيب الصور وعمد إلى جعل الزمان كإنسان يتحرك ويسير بالناس إلى قبورهم وحوادثه تسقط على الإنسان ؛ فيغدوا كأنّه جملا كسر سنه وتناثر جلده من شدة الهرم والضمور و الإنسان يسير لديه مجبرا في هذه الدنيا دون أن يتدخل في إرادة الخالق ،فقد صوره كطائر قد كسر جناحاه بدونهما لا يستطيع التنقل،والموت يسعى الإنسان لالتهامه كما تسعى الحيّة لفريستها للانقضاض عليها،كما لم ينس المرأة و خطواتها وكذا الجمل والفرس وغيرها من الصور التي برع فيها الشاعر، وهي لا يمكن أن تلاحظ إلا بالبصر ، فقد أعطاها نفسا حيا زادها بهاء وجمالا، وهناك نّوع ثالث من أنواع الصور البصرية وجدته في أشعار أبي العلاء المعري ممثلة في ديوانيه سقط الزند و اللزوميات بجزئيه ويتمثل في:

صور بصرية ملونة :

فللون تاريخ طويل يبدأ مع بداية الإنسان وعالمه المرئي الواسع،إذ قام بدور حسي في التنبيه والتأثير ، ثم تطّور بتطور حياته الذهنية والعاطفية وكذا بتطور ثقافته وحضارته،ولا يقف تأثير اللّون على إمتاع البصروراحة النّفس ورياضة الذوق فحسب،بل يمتد إلى أبعد من ذلك، فللون سلطانه للشامل على النّفس والطبع والمزاج،فهو كاللّحن الموسيقي يسمو بالّروح ويغذي الأعصاب ويريح الإحساس[1].

فإذن وظيفة اللّون لا ترتبط بالحسّ الخارجي فحسب،بل تتعداه إلى<<ما وراء الذهن وتميّز اللون خاصية بصرية نتيجة لتأثير شبكة العين >>[2].

---

[1]- سيسيل دي لويس : الصورة الشعرية ، ص :60.

[2]- المرجع نفسه : ص :107.

<< وللون منزلته في عالم الأحلام قديما وحديثا بما يرمز إليه من دلالة>>[1]، ومن بين دلالات الألوان اللّون الأحمر الذي << له معنيان:المعنى الأول إيجابي يدل على الحب والحياء والجمال مجسدا في حمرة الخدود والورد ، وكما يدل على اللذة المجسدة في الحمرة والمعنى الثاني سلبي يدل على الموت والفراق والدماء المراقة في الحروب والألم الشديد >>[2].

وخير دليل على المثال الأول في قول الشاعر "جميل "الذي جعل فيه الورد معادلا للخدين في احمرارهما .

يقول :

ومفروشة الخدين وردا مضّرجا إذا جّمشته العين عاد بنفسجا

شكوت إليه طول ليلي بعبـرة فابدت لنا بالغنج درا مفلّجـا[3].

أما اللون الأحمر الذي يعني الموت والفراق ،فنجده ماثلا في قول المتنبي :

كم قتيل كما قُتلت شهيدا ببياض الطُلى وورد الخدود[4]

فالمتنبي يتحدث عن صرعى الغواني الذين استشهدوا في ميادين الهوى ويضفي عليهم صفة الشهادة ،وما كان استشهادهم غلا بسبب تلك النحور البيض الطويلة والخدود المتوردة.

أما <<اللون الأصفر أيضا له معنيان سلبي يدل على خريف الحياة والحزن والموت والاضمحلال والذبول والألم والعذاب وفناء الحياة والحقد والاستهزاء والتشبث وعدم التركيز >>[5] .

ومثاله قول الشاعر :

فلما تقضي الليل وإنجابجنحـــه رأيــت صباها يصبغ النّبت بالتبر

تشوب اخضرار الروض صفرة ساطع من الضوء مثل الغيد في حلل خضر

---

[1]- يوسف حسن نوفل : الصورة الشعرية والرمز اللوني ، دراسة تحليلية إحصائية لشعر البارودي ونزار قباني وصلاح عبد الصبور ،كلية البنات ، جامعة عين شمس ، دار المعارف ، (د، ط ، د ، ت) ، ص :20.

[2]- أودو كلترمان تورت باد : مجلة فكر وفن أسرار الألوان ، عدد 14 ،19 ،1969 ، ص :24.

[3]- دلال هاشم كريم الكناني : الصورة الشعرية في الغزل العذري ، ص :116.

[4]- الوصيف هلال الوصيف إبراهيم : التصوير البياني في شعر المتنبي ، مكتبة وهبة ،2006 ، ص :298.

[5]- أودو كلترمان تورت باد : مجلة فكر وفن أسرار الألوان ، ص :24.

كما تينع الأثمار شاب اخضرارها لدى النّضج لون في غلائلها الصفر[1]

أما المعنى الايجابي الذي يدل على الأنوثة والدفء العاطفي والمودة ، فنجده في قول المعتمد الذي أضفى به جمالا وبهاء لا مثيل لهما، يقول :

لجاءتك صفراء عند المنـــا م تسري من الأفقالأبعد

وعلّتك بالّريق لـــو أنّـــه أتيح لذي الّزهد لم يزهدا[2]

فهو هنا أما اللون الأبيض فيدل على الطهارة والنقاء والإيمان وعلى الصفاء و الخلوص من الشوائب، وهو أيضا لونالضياء الدنيوي والنّور الإلهي، كما يشير إلى النظافة، ومن أمثلة ذلك قول "كثير عزة " عن محبوبته التي رسمها في خياله ولا يريد أن يتنازل عنها حتى وإن ابتعدت شيئا قليلا عن صورة محبوبته ، فهو مصّر على أنّها بيضاء، يقول :

هجان اللون واضحة الُمحيّا قطيع الصوت آنسة كسول

وتبسم عن أغر له غروب فرات الريق ليس به فلـول

كأنّ صبيب غادية بلصب تشـــج به شآمية شمول

على فيها إذا الجوزاء كانت محلقة وأردفها رعـــيل[3]

فيرى أنّ<< الشاعر قد ركز في هذه الأبيات على اللون الأبيض تركيزا واضحا من خلال المفردات (هجان اللون واضحة المحيا،أغّر، صبيب غادية الّرعيل)،فصار هذا اللون المعين الذي يمده بمعطيات جمالية ويزيد في استرساله في وصف القيم الجمالية للمحبوبة وهو سبيل وصوله إلى صورة شعرية مؤثرة.

إلى اللون الأزرق والأسود ، فمن أمثلة اللون الأزرق ، قول ناجي :

أزرق العين هادئ هدأة البـ حر بعيد الرضى بعيد القرار[4]

---

[1]- نعيم الباقي : تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث ، ص : 222.

[2]- أود وكولترمان تورت باد: مجلة فكر وفن أسرار الألوان ، ص :24.

[3]- دلال هاشم كريم الكناني: الصورة الشعرية في الغزل العذري ، ص : 110 ،111.

[4]- نعيم الباقي: تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث ، ص : 224.

إضافة أما دلالات اللون الأسود ؛فهي واضحة يدل على الحزن و الألم ونوائب الدّهر ومصائبه وعلى الظلمة القاتمة ، ومن أمثلة هذا الأخير نجدها في قول الشاعر متحسرا على أحوال الراحلين عن ديارهم:

كم بتّ بعدهم بليل لم يلح من بعده صبح ولم يتبلّج

طالت غياهبه فلم يفتر عن قلق لذي أرق ولم يتفرج[1]

فذلك الليل الأسود الطويل وتلك الغياهب المظلمة التي لم تسمح للصبح بالبزوغ ملائمة للأحزان، وهناك ألوان أخرى لها دلالات ورموز ولكن جل ما قمت بتبنيه هو ما عرض في أشعار الشعراء؛ لذلك حاولت تركيز الضوء على الألوان الظاهرة والمستعملة لدى الشعراء فقط .

والملاحظ هو أنّ الصورة البصرية الملونة هي ما يغلب اللون على جزئياتها،فكان هو المراد منها ومن ثم كان لبعض الألوان نصيب من شعر أبي العلاء المعري،وهذا ما سأشرع في تبيينه من خلال أشعار أبي العلاء المعري ،فظهرت قليلة يسيرة،ولكن بالرغم من ذلك إلا أنني سوف أحصي هذه الصور، فتظهر لنا أول صورة وتتمثل في تشبيه المعري للدرع السلسة في بياضها كأنها دفعة من المطر الأولى ، يقول:

إبلا ، ما أخذتَ بالنثرة الحصْـ داء، يا خُسْر بائع محروب

وهي بيضاء، مثل ما أودع الصيـ ف حمي الوهد نطفة الشؤبوب

فإذا ما نبذتها في مكـــــان مُسْتـو، همَّ سردها بالدبيب[2]

فإضافة إلى بياض المطر الذي شبه به الدرع السلسة في ملمسها، نجد بياضا آخر لا يكاد يختلف عن الأول وهو بياض الملح الذي شبه به السيف الذي يكون للفارس كالملح للطعام ، يقول:

ومشتهرات، أشبه الملح لونها ولستُ بغير الملح آكل زادي [3]

كما يولي أهمية لفرسه الذي جمع بين الشقرة والبياض، فلذلك شبهه بالشمس في شقرته وبالقمر في بياضه ، فقال:

---

[1]- إبراهيم بن عبد الرحمن الغنيم : الصورة الفنية في الشعر العربي مثال ونقد ، ص :91.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص:361.

[3]- المصدر نفسه: ص:322.

من كل أزهر لم تأثر ضمائره لَلثْم خدّ ، ولا تقبيل ذي أُشر
لكن يقبل فوه سامعي فرس مقابل الخلق بين الشمس والقمر
كأنّ أذنيه أعطت قلبه خبرا عن السماء بما يلقى من الغير[1]

ويقول :

ولما لم يسابقهن شيء من الحيوان سابقن الظلالا
ترى أعطافها ترمي حميما كأجنحة البزاة رمت نُسالا[2]

استعان المعري في هذه المقطوعة باللون الأبيض، ليصف عرق الخيل، فجعل من طائر الباز الأبيض وجها للشبه ليرسم صورة لونية.

وهو لم يقصر تصويره البصري على الكائنات الموجودة كالدروع والفرس والنار وغيرها من الصور التي عالجناها وإنما تعداها إلى تشبيه أشياء غير ملموسة كالخيال مثلا الذي شبهه بالشموس في حسنها، يقول:

ونحن، بمستن الخيالا ت هجّد وهنّ مواض: من بطئ ومسرع
شموس، أتت مثل الأهلة موهنا فقامت تراغى بين حسرى وظلع
وألقين لي دُرّا، فلمـــا عددته غنى، مسخته شقوة الجدّ أدجى[3]

وهو لم يكتف بهذا بل راح يصبغ حمائم الموت باللون السماوي، ويظهر ذلك بقوله:

يجيب سماويات لـون، كأنّمـــا شكرن بشوق ، أو سكرن من البْتع
ترى كلّ خطباء القميص ، كأنما خطيب تنّمى في الغضيض من الينع[4]

إضافة إلى الخيالات وهي شيء معنوي عمد إلى تشبيه الشرور بالسحابة والغيوم،وذلك للسواد الحاصل بينهما،فالإنسان الشرير نفسه مليئة بالحقد والسواد مثله مثل السحابة في السماء قبل أن

---

[1]- أبو العلاء المعري ، سقط الزند، ص 41. الأزهر هو المشرق الجميل .

[2]- البطليوسي وآخرون: شروح سقط الزند، إشراف طه حسين ، تحقيق جماعة من الأساتذة ، جامعة الكويت ، ط3 ،1986 ، ص :46 ،47.

[3]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص 285.

[4]- المصدر نفسه : ص 261. أراد بالبتع نبيذ العسل.

تمطر، والّسرور قد شبهها بالبرق الذي لا يبقى،فلحظات الفرح والسرور معدودة وقليلة مثلها مثل البرق الذي لا تكاد تبصره العيون ويتضح هذا في قوله :

إنّ الشرور لكا لسحابة أثجمت لاكِ السرور كأنّه برق خلب[1]

وأما صنيع الشاعر ، فهو قبيح مذموم ، يقول :

ولي عمل كجناح الغراب أو جنح ليل إذا ما رتـبْ

فإن كان يكتبه كاتـــب فقد سّود الصبح مما كتب[2]

فوصف جناح الغراب بالسواد لم يكن ليخلق هذا الإيحاء الذي حققه لو لم يدخل اللون في علاقة صورية ، مثّل بها قبح فعله ،فجعل له لونا يوحي بمدلول ما يريد ، فاستطاع ابتكار صور جميلة من شيء قد لا يكون جميلا في حدّ ذاته ،<< فهذا الربط المتنوع سواء كان عن وعي أم غير وعي فإنه قد حقق جوانب إيحائه ، تحقق المرام في معظم الصور اللونية وتطلعنا على بعض مكنون النفس وتعكس حالته الفكرية >>[3].

وأخلاق الفتى تتراوح بين الأبيض والأسود، فالإنسان الخّير يمثل اللون الأبيض والشرير يمثله اللون الأسود القاتم الذي يرمز للحقد والكراهية والظلم والاستعباد والجبروت.

يقول :

إلا إنّ أخلاق الفتى كزمانه فمنهّن بيض في العيون وسود[4]

ويقول :

وابيضّ ما اخضّر من نبت الزمان بنا وكّل زرع إذا ما هاج محصود[5]

وخطوب الدهر كثيرة منها ما هو مبشّر برمز اللون الأبيض، ومنها ما هو بلاء حطّ على عاتق البشر وهو ما يمثله اللون الأسود ، فيقول :

---

(1)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :133 .

(2)- المصدر نفسه: ص :210

(3)- جهاد رضا : التصوير الفني في شعر العميان ، ص :117.

(4)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص : 210.

(5)- المصدر نفسه : ص : 219.

خطوب اللّهر من بيض وسود عصفن بكل ذي بيض وصُفر[1]

إذا أوتيت ملْء يـد طعامـا فـأطعم من عراك ولو كظفر

والفتى في هذا الدهر يتناقص عمره مثل المصباح،يبدأ لينير ذلك الليل بضوء متوهج واضح وجميل وينتهي بتناقصه إلى أن ينطفئ عمره،يقول :

رأيت الفتى شبّ حتى انتهى وما زال يفنى إلى أن خمد [2]

ولم يكتف الشاعر الأعمى الذي أبهرن بالاستخدام الصحيح للألوان، بل تعداه إلى أنواع عديدة في مقطوعة منها قوله :

أهاجك البرق بذات الا معز بين الصّراة والفرات يجتزي

مثل السيوف هزهن عارض والسيف لا يروع إن لم يهزز

بدت لنا حاملة أغمادهـا حمائل من الدجى لم تخرز

في بلدة نهارها ليـل سوى كـواكب إلى النهار تعتزي

كأنها سرب حمام واقـع في شبك من الظلام ينتزي

جردت الحيات فيها لبسها وطـرّحت للريح كل معوز

ويطلع الفجر وفوق جفنـه من النجـوم حلية لم تحرز

والبدر قد مدّ عماد نـوره والليـل مثل الأدهم المقفز

بالله يا دهر أذق غرابـها موتـا من الصبح بباز كّرزٍ[3]

ففي هذه المقطوعة نجد صورا متتالية أساسها اللونان الأبيض و الأسود، وهما ممثلان في النور والظلام، فالبرق اللامع بين السحاب الأسود سيوف تهجر حمائلها،والليل القاتم يشقه نور البدر البهي فرس محجّل،بل هو غراب فّر هاربا ليصبح طريد طائر الباز الأبيض، هي إذن صور متلاحقة تعلن عن صراع حاد يدور داخل نفس الشاعر التي تجد في الأبيض والأسود متنفسا لها، فالأبيض لديه هو بمثابة الأمل،و الأسود هو ذلك الحلم فهو السراب بعينه.

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :377.

[2]- المصدر نفسه : ص :270.

[3]- المصدر نفسه: ص :270.

فالجمع بين الأضداد على نحو جمالي في الألوان صفة بارزة في أبي العلاء المعري يبين من خلاله الصراع القائم في نفسه ، فالأبيض والأسود هنا يمثلان حقيقة نفس الشاعر وهذان اللونان يحملان من الدلالة النفسية أكثر من كونهما تقليدا أو تحديا ورغبة في الإبداع لاسيما إذا كانا متقابلين متتاليين، على حد قول المعري :

عللاني فإنّ بيض الأمانـي فنيت والظلام ليس بفـان
ربّ ليل كأنه الصبح في الحسـ ن، وإن كان أسود الطيلسان
قد ركضنا فيهإلى اللهو لما وقف النجم وقفة الحيـران
فكأني ما قلت والبدر طفـل وشباب الظلماء في عنفوان
ليلتي هذه عروس من الزنج عليها قلائد من جُمـان
قال صحبي في لجتين من الحنـ دس والبيد إذ بدا الفرقـدان
نحن غرقى فكيف ينقذنا نجـ مان في حومة الدجى غرقان[1]

فهو هنا جمع بين الأضداد على نحو جمالي،ومن خلاله كشف عن نفسيته والصراع القائم فيها ، ففناء الأماني البيض الذي كان متشبثا بها وبقاء الظلام سرمديا وعسعسة الليل البهيم وتنفس الصباح وخروج عروس زنجية وضعت قلادات من النجوم الزاهرة ،هي كلها صورا جمعت بين الأضداد أضفت تناسقا وانسجاما كبيرا، يصور من خلاله نفسه والصراع القائم فيها على نحو ما فعل في هذه الأبيات:

ليلي كما قُصّ الغراب خلالـه برق يرنق دأب نسر حـائم
ترك السيوف إلىالشنوف ولم يزل يُضوى إلى أن قلت نقش خواتم[2]

الملاحظ هنا أنه لم يصور الطبيعة نبل صور نفسه بواسطة الألوان وغاص فيها ؛ فهو مبدع بارع وقد وصلت براعته إلى حد التلاعب بالألوان.

ويظهر ذلك في قوله :

لا تسدني قبيحا إن هممت بـه وافعل جميلا فإنّ الخير يغتنم
إن فارقتني حياتي خلتني صنمـا ولا يراع لكسر الهامة الصنم

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :241 ،242.

[2]- المصدر نفسه :ص : 225.

فاجعل عظامي قِ رى غبراء مظلمة أو قوت حمراء نار ضوءها سنم

سوى على الجسم خضر ، حوتها جشع بعد الممات وخضر زرقها تنم[1]

فهذا اللعب بالألوان يساعد في الكشف عن معنى كان يريد إبلاغه وبالتالي يعين الشاعر المبدع في توضيح الصورة.

فإذن << اللون عند الشاعر الأعمى موروث اجتماعي سمعي لا يستطيع تمثله إلا بغيره، كمعظم البصريات والمرئيات ، وقد أتت جل الألوان>>[2].

والآن سوف تعالج تلك الصور في جدول إحصائي:

التسلسل	رقم القصيدة	عدد أبياتها	الصورة البصرية الملونة
1	226	20	1
2	07	04	1
3	30	04	1
4	118	05	1
5	11	36	1
6	133	10	1
7	17	09	1
8	137	11	1
9	175	06	1
10	110	03	1
11	145	06	1
المجموع			11صورة بصرية ملونة

أما فيما يخص الجدول الإحصائي لديوان سقط الزند ، فهو كالآتي:

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص :281.

[2]- جهاد رضا : التصوير الفني في شعر العميان ، ص :117.

التسلسل	عنوان القصيدة	عدد أبياتها	الصورة البصرية الملونة
1	يا ساهر البرق	74	1
2	نبي من الغربان	57	1
3	تحية كسرى	64	1
4	مثل وشي الوليد	27	1
المجموع			4

وإذا ما جمعت تلك الجداول الإحصائية التي تخص الصور البصرية الملونة في اللزوميات بجزئيه والجدول الإحصائي الذي يخص سقط الزند نجد أن:

الصورة البصرية الملونة	
مجموع الصور في اللزوميات	11
مجموع الصور في سقط الزند	4
المجموع الكلي	15 صورة بصرية ملونة

انطلاقا من هذه الجداول يتبين أنّ الشاعر قد استعمل (15) صورة ملونة منها (11) صورة بصرية ملونة في ديوانه اللزوميات بجزئيه و(04) صور فيما يخص سقط الزند وهي كلها كانت منصبة على بعض الصور التي لها علاقة بالألوان، فتمنى لو أنه بدر أو شمس بلونها الأصفر البهي وراح يسبح بعيدا حين شبه الخيالات بالشمس والفرس لسواده.

ثانيا– الصورة السّمعية:

يعتبر الصوت عنصرا من العناصر التي تشكل الصورة الشعرية ،وخاصة السمع الذي يعدّ الحاسة الوحيدة التي تخرج عن سيطرة الإنسان ، فلا يمكن التحكم فيها على خلاف المرئيات التي لا تدرك إلا بتوافر الضوء.

<< وهناك من الصور السمعية ما تقوم على (التوهم نتيجة للقلق والخوف أو إسباغ جو الرهبة والمخاطرة الكثيرة التي يتعرض لها الإنسان في مسيرة وسط الصحراء المترامية الأطراف الشاسعة الأبعاد، وهو يشق طريقه فيها لأغراض شتى>>[1].

فالإنسان قديما وهو يقطع الفيافي كثيرا ما كان يسمع عزيفا للرمال توهمها عزيفا للجن والعزيف يدخل ضمن دائرة المسموعات .

ومما يقام على التوهم هو الخوف سواء من الجن أو الأعداء في حالة حرب،وهذا ما وضحه الشاعر بقوله :

<<**في كل يوم يسنون الحراب لكم لا يهجعون إذا ما غافل هجعا**

فصورة الأعداء وقد انكبوا على الحراب يسنونها بغية إثارة قومه، ليكونوا على أهمية الاستعداد وتحذيرهم من عدوهم>>[2]؛ لأنّ للسيف صوتا،وللتجمع حركة وصوتا مما يبعث كل هذا على الخوف، وفي مقطوعة أخرى برزت لنا الصورة السمعية بصياح الطائر المتوحش داخل المقبرة ،فينطلق الصوت للثأر بعد أن تسلطت المنون التي أدت إلى هذه النتيجة، وهذا الصوت يبعث الخوف في النفوس ويحفز أهل القتيل ولا يهدأ الصوت حتى يثأر أهله .

يقول :

في كل وادٍ بين يثـــــ رب فالقصور إلى اليمامة

تطريب عانٍ، أو صيا ح محرّق أو صوت هامه[3].

فصوت الحراب وهي تسن والعزف في وسط الصحراء وصياح الطائر المتوحش داخل المقابر،إضافة إلى صور أخرى كثيرة ظهرت في أشعار العرب منذ الجاهلية، ولكن لم يتسع المقام لذكرها كلها.

---

[1]- صاحب إبراهيم خليل : الصورة السمعية في الشعر العربي قبل الإسلام ، دراسة من منشورات اتحاد كتاب العرب ، 2000 ، ص :114.

[2]- المرجع نفسه:ص :116.

[3]- المرجع نفسه:ص :121.

كل هذه الصور تبعث في الذهن إشارات لإعادة تشكيل الأحداث والمدلولات في صور سمعية، وللخيال السمعي أهمية كبيرة في إدراك عناصر الإثارة الصوتية، ولما كان لهذه الحاسة أهمية كبيرة فإنّ الشعراء العميان قد أدركوا تلك الحاسة بالنسبة إليهم،فهي بمثابة حدقة الرؤية الحدسية،فقد أحلها العميان محل البصر لتقوم بأكثر من وظيفة ، وقد صرحوا بذلك، ومثال ذلك "بشار بن برد"،يقول :

إنّ سليمى ، والله يكلؤها كالّسكر تزداده على السَكر

بلغتُ عنها شكلا فأعجبني والسمع يكفيك غيبة البصر[1]

وقوله :

يا قوم أذني لبعض الحّي عاشقـــة و الأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا:بمن لا ترى تهذي ؟ فقلت لهم الأذن كالعين تؤتي القلب ما كانا[2]

بالأذن التي تؤدي وظيفة السمع عند الشاعر تتشكل لديه عاطفة جياشة محاها تلك الألفاظ المسموعة،وهذا ما أكده علماء وظائف الأعضاء حين قالوا:<< أنّ الحاسة البصرية باب الإدراك وأوتار السمع مزدوجة الوظيفة،فكما تنقل المسموع تفرز ما بين المسموعات من الفروق الجمالية الدقيقة ، وتستطيع بهذا الفرز أن تكون سببا في تكوين العاطفة>>[3].

فإذن بعد هذا العرض المبسط حول الصورة السمعية يستنتج أنّ الصورة هي ما اعتمد الشاعر في رسمها وتشكيلها على حاسة السمع،وتتمثل عادة في أصوات للإبل، والحرب ،والغناء ،وتقارع السلاح وغيرها من الصور، وهذا ما سأشرع في توظيفه في هذا المبحث.

لا يخفى أنّ أبا العلاء المعري هو من بين الشعراء العميان،ولعل فقد البصر استدعى منه تسخيرا كبيرا للحواس الأخرى سواء كانت سمعية أو لمسية أو ذوقية أو شمية واستغلالها بطريقة ذكية. فكثف المعري بصفته أعمى اهتمامه بالتقاط كل المعلومات غير البصرية ، فبيّن بأنّ للسمع أهمية كبيرة،فهو<<واحد من منافذ إدراك الأشياء وتصورها والإحساس بها والانفعال لها وتصويرها>>[4].

---

[1]- نجيب عطوي : بشار بن برد ،حياته وشعره ،دار الكتب العلمية ،ط1 ،1990 ، بيروت ، لبنان ،ج1 ، ص :44.

[2]- المرجع نفسه :ص:106.

[3]- حمزة مختار : سيكولوجية المرضى وذوي العاهات ، دار المعارف ، ط2، 1964 ، القاهرة ، ص :123.

[4]- الوصيف هلال الوصيف إبراهيم : التصوير البياني في شعر المتنبي ، ص :308.

وللصوت جاذبية لا تقاوم وهذا ما جعل الشاعر يهتم به ويوصي بآداب الكلام ومعرفة حدود اللفظ والصوت ، يقول :

فاخفض حديثك للمحدث جاهدا فذميمة الأصوات مرتفعاتها[1]

فهنا الشاعر يجعل الصوت ماثلا أمام الأعين ،يحسه بالأيدي فتحدد أبعاده وحدوده وارتفاعه أو انخفاضه،وقد وجد المعري في كلام بعض الناس لؤلؤا ،وهذا ما استدعاه إلى الاهتمام به والدعوة إلى سماعه كسماع الفأل .

يقول :

لا تفرحنّ بفأل إن سمعت بـــه ولا تطيّر إذا ما ناعب ونعــبا

فالخطب أفضع من سرآء تأملها و الأمر أيسر من أن تضمر الرعبا[2]

إذن أوحى الشاعر بالصورة السمعية من خلال لفظة (الفأل) الذي يعني الكلام الجميل الذي يبعث الهمة والنشوة والسرور في نفس الإنسان،ولكنه سرعان ما ذكر النقيض وهو سماع صوت الغراب الذي يتطيّرون به.

فالشاعر من خلال المقطوعة أقّر لنا بتحبيذ سماع الفأل الذي يمثل الصوت الجميل والهادئ والمبشر للناس، ولكنه أقّر حقيقة أخرى مفادها عدم التشبث بسماعه لطالما وجد النقيض الذي يدعوا إلى التطيّر.

ويردف بصورة سمعية أخرى في هذا المجال ، يقول :

من الناس من لفظه لؤلؤ يبادره اللقط ،إذ يلفظ

وبعضهم قوله كالحصى يقال فيلغى ولا يحفظ[3]

فما كان يريده المعري بعيد عن وصفه لتلك الترددات والموجات الصوتية ، ولكنه أراد أن يصف من خلال البيتين أثر ذلك الصوت سواء كان كلاما نفسيا أو تطيّرا في نفسه ونفس كّل من يسمعه ولا تظهر قيمته إلا بعد أن تتلقاها الأذن.

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :142.

[2]- المصدر نفسه: ص :84.

[3]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص :81.

فللصوت تأثير خاص على المتلقي خاصة إذا كان أعمى،لأنّه –لا محالة– سوف يسخر فكره للسمع دون الرؤية،فصوت حديث المرأة أو غناءها يفعل في نفس الأعمى فعل الخمرة،وهذا ما حدث لأبي العلاء المعري لما طرب لسماع صوت وحسن حديث المغنية سكر لمجرد شربه الماء الذي –من المفروض– لا يفعل مهما لذّ وطاب فعل الخمرة ،ولكنه أراد تصوير مدى فتنته بالصوت، يقول :

أطربتنا ألفاظه طرب العـــا شق للمسمعات بالألحان

فاغتبقنا بيضاء كالفضة المحْـ ض وعفنا حمراء كالأرجوان[1]

وقد شكل لنا الشاعر صورة سمعية من غناء الجارية مفادها على حد قوله :

مغنية هذي الحمامة أصبحت تغني على ظهر الطريق بلا جذر

أرامت من الله الثواب أم انبرت تؤمل بالسجع التخلص من نـذر

لقد أكثرت حتى حبست مقالها وإن كان معدوم السقاط من الهذر

تخوفنا من أم دفر خد يعـة ومكـــرا فلم تذر الدموع ولم تُـذر[2]

والصورة السمعية تسعف طالبها حتى في تحديد مقدار الحب،فجميع متاعب الحب ومشاقه عند أبي العلاء المعري تجري مجرى الغناء خفيفه وثقيله، فهو مستحسن كله عنده ، يقول :

وهواك عندي كالغناء لأنّه حسُن لديّ ثقيله وخفيفه[3]

فبرغم تأثر الشاعر بصوت المغنية التي أطربتهم بألفاظها وألحانها المتناسقة إلا أنه يبقى متخوفا من هذه الدنيا التي لا تستقر على حال، فهو معرض لأن تقلب مسراته واستمتاعه بالحياة إلى ألم وحزن،وهذا مستوحى من عمق تجربته بالحياة لذا تجده يتأفف منها حتى وهو في عز الاستمتاع يتذكرها دائما ويخاف من غدرها ، يقول :

أفٌّ لهم ما أقلّ فطنتهـــم لـــذوا أكيلا وإنما سئتوا

غنوا من الجهل في محافلهم ولو دروا ما تحملوا نأتوا[4]

---

[1]– جهاد رضا : التصوير الفني في شعر العميان ، ص :79.

[2]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :354.

[3]– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 137.

[4]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :144.

فمعرفته بحال الدنيا وخبرته في الحياة جعلته يتأفف منها ويسخر من الذين يجهلونها ولوا علموا بحالهم فيها لأصدروا صوتا من صدرهم كالزفير وهو ما عبّر عنه بلفظة (نأتوا) والزفير عادة ينم عن عمق المعاناة والتحسر وشدة الألم في النفس.

ويقول في نفس السياق :

وتغنّت الدنيا بصوت واحد لا تحسن الربداء غير زمار

ومن المجرب والمدى متطاول عدّت كواكبك من الأغمار[1]

وتظهر صورة سمعية أخرى ممثلة في قوله :

فإنّ أغاني الليالي نباحة ومنها بسيط مقتضى ونشيد[2]

فخبرته بالحياة ومعرفته بغدر الدنيا ومكرها وتقلبها يدرك لا محالة،بأنّ الليالي متقلبة أيضا؛ ففيها المظلمة الحالكة وفيها التي ينبعث منها بريق الأمل،فيها الحزينة وفيها المبشرة ،وهي في ذلك كصوت كلب ينبح وهي من دون شك صورة سمعية أوحى بها من لفظة (النبح) التي تستعمل للكلاب التي تصدر صوتها في كل حين ومن دون فائدة .

كما أنّه شبّه صوت الأشخاص بصوت عواء الكلب، وفي ذلك يقول :

رويدك أيّها العاوي ورائي لتخبرني ، متى نطق الجماد

سفاهُ ، ذاد عنك النّاس حِلم وغّي ، فيه منفعة رشاد

أأخمل ، والنّباهة فيّ لفظ وأقتر، والقناعة لي عتاد[3]

فالشاعر رسم لوحة تنّم عن وجود صورة سمعية لها دلالات من خلال الألفاظ المستعملة،حيث شبّه صوت من يغتابه بصوت كلب عاوي؛فهو يعوي كما يعوي الكلب.

ويكمل صورته بمخاطبته لذلك العاوي وراءه ليخبره متسائلا متى جرت العادة بأن ينطق الجماد، فتكون أنت من الناطقين؟ ومتى تكلّم الأموات فتكون من المتكلمين؟، وبعدها اعتذر الشاعر لنفسه

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :392.

[2]- المصدر نفسه : ص :214.

[3]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :65.

لما نسب العواء إلى عدوه، فقال له:إذا لم تستطع الذود عن نفسك غلا بالسفه فذاك حلم ، وإذا جّر الغي والنميمة إليك منفعة؛ فهو رشاد.

فعواء الناس وامتهان الغيبة والنميمة وممارسة طقوس الكذب والخداع كلها صفات جعلت من المعري شخصا يحب العزلة ويشجع على الابتعاد على الأشخاص التي تأصلت فيهم هذه الخصال على حد قوله:

إذا أنتَ لم تهرب من الإنس فاعترف بطلس تعاوى أو ثعالب تضبح

ومارس بحسن الصّبر بلواك إن هُم أتوا بقبيح فالذي جئت أقبـــح[1]

فعلى حدّ قول أبي العلاء المعري هروب الإنسان من أخيه جائز ومفروض و إلا سوف يجد الذئاب تتعاوى والثعالب تضبح،(فعواء الذئاب وضبح الثعالب)كلمات شكل بها المعري لوحة تعكس بصدق الصورة السمعية مع وجود دلالات على صورة بصرية متحركة وهي ما يفسرها فعل (الهروب).

وكثيرا ماجُودتْ أثناء دراسة ديواني المعري سقط الزند واللزوميات بجزئيه تشبيهات لأصوات الأشياءالجامدة أو الحية بأصوات الحيوانات على غرار ما فعل حين شبّه الغيبة والغي بالعواء والضبح. ونجده في نفس السياق يشبه وقع الأسنة على الدروع بصوت نقيق الضفادع في الغدير يقول:

غدير نقّتِ الخرصان فيه نقيق علاجم ، والليل داجٍ[2]

وكذلك فإنّ صوت تكسر الرماح في ساحة الحرب يشبه صوت صياح الضفادع ، يقول :

وسمر كشجعان الرمال ، صياحها إذا لقيت جمعا صياح ضفادي

وعزّ على قومي إذا كنت حاسرا ركوبي إلى أعدائهـم لطـــراد[3]

ويشبهه بصوت ثعالب إذا صاحت ، يقول :

إذا قاربتها، للرماح ثعالـــب ضعت ، فتنادى ،القوم تلك الهجارس[4]

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص :65.

[2]- المصدر نفسه : ص :30. الخرصان جمع مفرده خُرص وهي الرماح.

[3]- المصدر نفسه: ص : 61. و العلاجم جمع مفرده علجوم وهو الضفدع.

[4]- المصدر نفسه:ص :381. أما الهجارس فهي أولاد الثعالب.

وتارة أخرى يشبه تحطم الرماح على الدرع بصياح الطير ، يقول :

تصيح ثعالب الُمّان ، كربا صياح الطير ، تطرب لابتهاج[1]

وفعل (الصيح) قد خص به الطير؛فهو دلالة على وجود صورة سمعية،والدم الذي ينبعث عادة من أثر الطعنة بالرمح قد شبهه بشخير نائم ، فقال :

هدْرها يُسكت البليغ ، ولو زا د ،على المصعب الأعز ،هديرا

كالقليب النّزوع في القلب ،لا تنـ بط إلا الدم الغريض زبيرا

أسهرته وأهله،وهي كالمغـ مور نوما تحس منها شخيرا

فرسته فرس الهزبر وما تسـ ـع زأرا ، ولكن هريرا[2]

فقد توالت الصور في هذه المقطوعة بداية من صوت الجريح المطعون بالرمح في ساحة المعركة، فأنينه يشبه هدير الكلب الذي يصدره من شدة البرد،وهي هنا صورة سمعية ولكن أدخل عليها صورة ذوقية تخص السائل الأحمر (الدم) الذي يخرج بغزارة من المطعون.

ولكنه سرعان ما عاد إلى توظيف الصورة السمعية، فهي الأساس هنا ؛لأنّ البداية كانت بها فشبه انبعاث الدم بشخير نائم يقوى ويضعف،وهو بهذا يكون قد رسم لنا صورا حسية طبعت في النفس صورة للمعركة وما دار فيها من جرحى وقتلى و تهاطل دم وأنين كلها شكلت صورة سمعية.

وفي أبيات أخرى نجده قد شبه لنا صوت حمار الوحش بصوت السّيف، يقول:

طريقة موت ، قُيّد العير وسطها لينعم فيها بين مرعى ومشرع

كأنّ الأقبّ الأخدري ، بأنـ ـه سمّي له ، في آل أعوج مُلّع

إذا سحلت في القفر نكان سحيله صليلا يريق العزّ من كل أخدع[3]

فصورة حمار الوحش تمثل دائما الكفاح ضد الطبيعة والخطر الخارجي من أجل البقاء وقد وظفه فأحسن توظيفه حين شبهه بالسيف الذي يدل على القوة والصرامة ، فحدة حمار الوحش وكفاحه بدون استسلام إذا أصّر البقاء هو من دون شك نفس ما يفعل السيف إذا وضع على الأعناق.

---

[1]- المصدر السابق:ص :323.

[2]- المصدر نفسه:ص :338، 339. والهدير هو صوت الكلب وهو دون النباح من قلة صبره على البرد.

[3]- المصدر نفسه:ص :290.

وقد أوحى لنا بصورة سمعية أخرى مشبها فيها صوت الجياد بصوت الذباب ،يقول :

وأجابت جيادنا صوت زُقٍّ ، شـــواد

ذلك ديني ودينهم ، جير ، حتى التنادي

إن عدتهم فوارسي فعدتني العـــوادي[1]

وشكل الشاعر صورة سمعية أخرى من تشبيهه لأصوات فراخ الطير الموجودة في الصحراء بأصوات طائر يسمع ولكن لا يفهم .

يقول :

إدخال فؤادي ذات وكر، هوى لها من الطير أقنى الأنف محلبه سلط

تحثّ جناحا من جـــذار مغاور صباحا فقبض يجمع الريش أو بسط

تذكر ،أن خافت من الموت أفرخا بـيهماء ، لم يمكن أصاغرها اللقط

تجاوب فيها الزّغب من كل وجهة سُحيرا ، كما صاح النبيط أو القبط

تبادر أولادا وتـــرهب مـــاردا يـهون عليها ، عند أفعاله السّحط[2]

فقد وصف الشاعر المنطقة التي توجد فيها هذه الطيور وهي مكان خالي لا ماء فيه ولا يسمع فيه صوت،وهو سماه(باليهماء) وهذه الحمامة كانت تحث أجنحتها على الطيران بسرعة وقد صاحت مثلما تصيح الطيور التي تسمع ولا تفهم ما تقول لها كطائر النبيط والقبط.

وبالرغم من وجود صورة بصرية تمثلت في وصف المنطقة الخالية إلا أنه ركز اهتمامه أكثر على الصور السمعية المتمثلة في تشبيهه لصوت الحمامة بصوت النبيط والقبط والإبل عنده قد سئمت من المشي في الليل حتى رجت أن تسمع صوت الديك الذي يبشرها بالصبح لتستريح من عناء السفر ، يقول:

فيا من لناج أن يبشر سمعه بإسفار داجٍ ، رَبُّ تاج مرصّع[3]

والزمان عنده هو بمثابة شخص يصيح كما يصيح الضأن ، يقول :

---

[1]- أبو العلاء المعري:سقط الزند،ص :350. الزُّقُّ: وهو الذباب الذي يصوت في الأرض الخصبة.

[2]- المصدر نفسه:ص :303. وقد عني بذات وكر القطاة أو الحمامة ، وبأقنى الأنف: الصقر .

[3]- المصدر نفسه: ص :288.

صاح الزمان فعاد الجمع مفترقا كالضان لما أحست صوت رئبال[1]

لقد أوحى من خلال لفظة (صاح) التي تعني إعطاء دفعة قوية للخروج بالصوت،ويكون نتيجة فزع أو خوف مثلما حدث مع الزمان الذي هو بمثابة إنسان يفزع فيصيح لما يتقدّم به العمر ويوشك على الانتهاء مثله مثل الضأن الذ ي يصيح إذا ما أحسّ بوجود رئبال،كما يبكي الليل حينما يوشك على الانصرام أسفا على حاله حين بدا النهار في الإقبال مثلما يبكي الإنسان أسفا وحرقة ، يقول :

وقد أغتدي والليل يبكي تأسف على نفسه والنّجم في الغرب مائل[2]

وقد أعجب(البطليوسي) بهذه الصورة فقال عنها<< وصفه الليل بأنّه يبكي على نفسه تأسفا من بديع الاستعارة ومليح الإيماء والإشارة ، وذلك أنّ الليل لما كان قد أشرف على الزوال والنهار قد أخذ على الإقبال،شبه الليل بالذي قد أشرف على حتفه ، فهو يبكي على نفسه>>[3].

وليس الليل وحده من يبكي ؟ بل سليمى أيضا تبكي وقد شبهه بالحنين حين قال :

تهِنّ سليمى أن أصـــاب بعيـــرها هزال ، فما إن بالسنام هنانه

ولو أبصرت شخصي غدّوا ، لشبهت بما أبصرته نابت الشبهانة

كظبية سهل ، في السرارة ، مرضع ترود ، ومأواها إلى علجانه[4]

فهنا قد زاوج المعري بين الصورة البصرية والصورة السمعية لوجود ترابط بين الأحداث؛فقد وصف لنا ناقة "سليمى" التي هزلت وهي صورة بصرية،فسرها أكثر وجود لفظة (أبصرت) ووهنها أدى بها إلى الموت ، ما جعل سليمى تبكي تأسفا على حال ناقتها وبكاءها يشبه ذلك الحنين الذي تملك الظبية لصغارها وهي بعيدة عنهم ، وهي هنا صورة سمعية.

ومثلما وجدت مقطوعات يشير إلى فعل البكاء والحنين وهي صورة سمعية لمحت صورة أخرى هي من تنظيم المعري متمثلة في ذلك الصوت الذي يصدره الغراب وهو (غاق غاق)،إما تأسفا على مضي الشباب مثلما قال :

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص :236.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ،ص :108.

[3]- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ، ص:539.

[4]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :359.

وما أصيح بغربان الشباب قعى ولا أنادى غراب الرأس لا تطر[1]

ففعل المناداة وفعل الصياح هو ما يؤكد على وجود صورة سمعية لها أثرها في النفس كما لها غرض، وإما يصيح الغراب ونعيبه يرثي به الميت ، يقول:

ونعيبـــها كنحيبها وحـــدادها أبــدا ، سواد قوادم وخـــواف
لا خاف سعيك من خفاف أسحم كُسحيم الأسدي،أو كخفــاف
من شاعر للبين قال قصيـــدة يرثي الشريف على روي القاف
جوف كنبت الجون يصرخ دائبا ويميس في برد الحزين الضــافي
عُقرت ركائبك ابن دأية غاديــا أي امـــرئ نُطق وأيّ قــواف
نبتت على الإيطاء ، سالمة من الإقواء والإكفـاء والإصــراف
حسدته ملبسه البُزاة ومن لهــا لما نعاه لـها ، بلبس غُـــــداف
و الطــير أغربة عليه بأســـرها فُنُخ السراة وساكنات الصّــاف[2]

فالشاعر هنا وصف حالة الغراب الأسود الذي نعى بصوته الطيور موت الشريف بقصيدة على روي القاف.

كما حزنت جميع الطيور حتى إنّ (البزاة) وهي طائر يوصف بالبياض حسدت الغراب على لونه الأسود وتمنت أن تكون ملابسها سوداء؛لأنّ الأسود يمثل الحزن والتشاؤم والألم وهو مطلوب خاصة في مثل هذه المواقف التي تتطلب الحزن والبكاء على المرثي وكغيرها القصيدة لم تخلو من تداخل الصور الحسية،فإضافة إلى الصورة السمعية التي تعتبر الأساس،لأنّ الشاعر كان هدفه هو تشبيه نعيب وصوت الغراب برثاء ميّت عزيز كما توجد بعض الصور البصرية ممثلة في ذكر الألوان كالأسود والجون و الأبيض.

وليس الغراب من يصيح وحده على الميت تأسف وحزنا ، بل حتى البعير يصدر صوته (الرغاء) كأنه رعد أطلق في السماء بقوة عجيبة، يقول:

---

(1)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :365.

(2)- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :252. الجون :هو الأسود اليحمومي ، وبنت الجون هي نائحة من كندة كانت مشهورة في الجاهلية.

رغت الرعود وتلك هدّة واجب جبل الهوى من أل عبد مناف

بخلت ، فلما كان ليلة فقــده سمح الغمام ، بدمعه الذّراف[1]

فصوت البعير الذي ينوح على المرثي وهو من قبيلة أل عبد مناف كأنه صوت جبل انهدّ وسقط على الأرض،فصورة الرعد الذي شبه بصوت جبل هي صورة سمعية،وتليها صورة أخرى تحكي على المطر الغزير الذي تهاطل عندما مات ذلك الشخص خاصة وأنّ القوم قد منعوا من المطر لسنين طويلة ، فكأنها السماء تبكي عليه.

إذن شبه المطر ببكاء من السماء وهي صورة أخرى؛ فهذه الصورة قريبة من الذهن؛لأنّ المطر معروف وهو عماد الحياة في البادية العربية ولكن توظيفه في مثل هذا السياق هو ما جعل في النص جمالا وتناغما أخاذا،<< وقد ارتبطت به ممارسات سحرية شتى كطقوس الاستمطار وأطلقوا على المطر:الغيث والحياة والشاعر يستمطر السماء على قبور أحبائه، أو على قبور الذكريات المتمثلة في الإطلال>>[2]، فصورة الغيث الذي يصدر أصوات بمجرد سقوطه، وهذه الأصوات تشكل لنا صورا سمعية ممتازة ، يقول:

تصل الوقود ولا خمود ولو جرى باليمِّ صوب الوابل الغرّاف[3]

وفي حالات أخرىنجد الحِمام نفسه يبكي تأسفا وحزنا يقول :

فلا تجزعنّ إذا ما الحِمام صاح بوفد الضنا هي بي[4]

فصياح الحِمام(الموت) دليل على قرب أجل الإنسان كما جعل الحِمام يهتف والعود (الجمل المسّن) ينوح كما ينوح الإنسان، يقول :

ما سّر غاوينا الجهول وإنّما هتف الحِمام به وناح العود

كأساته الملأى وعزف قيانه للحادثات بــوارق ورعــود [5]

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :250.

[2]- علي البطل: الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ، دراسة في أصولها وتطورها ، ص : 228.

[3]- أبو العلاء المعري: سقط الزند ، ص :256. الغراف الشديد الغرف وهو الغيث الكثير الصوت.

[4]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :123.

[5]- المصدر نفسه: ص :235.

وعندما أراد المعري أن يؤكد حقيقة الله وانحراف المسلمين عن تعاليم الدين،وجد في صليل السيف صورة سمعية مناسبة لردع المنحرفين .

يقول:

أقـــروا بإلاه وأثبتـــوه وقالوا لا نبـــي ولا كتـــاب

ووطء بناتنا حلّ مبـــاح رويدكم فقـد بطل العتـــاب

تمادوا في العتاب ولم يتوبوا ولوا سمعوا صليل السيف تابوا[1]

فجعل كل من هو موجود على الأرض يسبّح لله حتى الصرصار والغراب يسبحون بأصواتهم، يقول :

كلّ يسبّح فافهم التقديس في صوت الغراب وفي صياح الجدجد[2]

فكأنّ صوت الغراب(غاق غاق) وصوت الصرصار(الصفير) فيه تسبيح لله،والإسلام علمنا أسسا كثيرة منها الصوم والحج والزكاة والصّلاة،هذه الأخيرة التي يؤديها المسلم خمس مرات في اليوم بمجرد سماع صوت المؤذن، فالآذان دليل على وجوب الصلاة في وقتها وهذا ما أكده المعري حين استعار الآذان إلى الجنادب (الحرباء)،فصريرها كأنّه آذان يمهد للقيام إلى الصلاة ، وفي ذلك يقول :

إذا الحرباء أظهر دين كسرى فصلّ، والنهار أخو الصيام

وأذنت الجنادب في ضحاهـا أذانا غير منتظر الإمام[3]

وهكذا ما استخلص بعد هذه الدراسة التي طالت ديواني المعري سقط الزند واللزوميات بجزئيه،بأنّ المعري كثيرا ما شبه أصوات أشياء وكائنات حية بأصوات حيوانات استوحاها من محاكاته للطبيعة، وهي كلها شكلت لنا صورا سمعية وتراسلت في نسق واحد لتؤدي وظيفتها،مع وجود تداخل بين الصور كوجود صور ذوقية أو بصرية داخل نسج الصور السمعية ، وقد حاولت تمثيل كامل هذه الدراسة بجدول إحصائي يبينها ويوضحها أكثر.

---

(1)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص : 72.

(2)- المصدر نفسه : ص :261.

(3)- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :266.والحرباء معروف عليه أنّه يستقبل الشمس ويدور معها أينما دارت وهذا البيت شبيه بقوله في اللزوميات:

تمّحص حرباء الهجير وحوله رواهب خيط والنعام يهود ، مأخوذ من كتاب اللزوميات ،ج1 ، ص :211.

ثالثـا :الصورة الذوقيــة :

إنّ حاسة الذوق كغيرها من الحواس وجدت في الشعر العربي القديم، وعند أغلب شعراءه وله أثر كبير في إدراكه (الذوق) و الإحساس به وتصويره، << فمن شعر بالظمأ والعطش أدرك متعة تذوق الري والماء وإطفاء الظمأ ،ومن أحسّ بلذع الجوع أدرك متعة تذوق الطعام وإشباع البطن >>[1].

وطعم هذه المدركات الذوقية تختلف منها المر،والحلو، والحامض،والمالح ،والسيئ والطيّب، والشاعر يستطيع بعد إدراكه لهذه الأشياء أن يوظفها في شكل صورة تشبيهية تسمى بصورة ذوقية كما في تشبيه ريق المحبوبة بالعسل والزنجبيل أو بالخمرة على نحو قول الحطيئة حين قال مشبها ريق محبوبته بالخمرة :

إذ ذقت فاها ذقت طعم مدامة بنطفة جون سال منه الأباطح [2]

<< فنعت الريق بالخمرة عتّقتْ في الدنّ زمنا فصارت رائحتها أقوى وتأثيرها أشد وقد خلطت قبل الشرب بماء المطر الصافي العليل ليخف فعلها>> [3].

والشاعر حين يشبه ريق محبوبته بالعسل تارة والزنجبيل تارة أخرى وبالخمر في أحيان أخرى، فهي كلها مواد تختلف في تركيبها ولكنها تتفق في غرض واحد وهو إحداث متعة من نوع خاص في نفسية المتلقي للشعر،وقد يأتي التشبيه بحاسة الذوق في صورة جميلة كما في قول المتنبي :

ضنى في الهوى كالسُّم في الشهد كامنا لذذتُ به جهلا وفي اللذة الحتف[4]

فالشاعر يتحدث عن تجربة الحب الذي أضناه وأسقمه مع أنّه يجد فيه لذة الهوى وحلاوة الوجد والشوق وصّورها بصورة العسل ولكنه مملوء بالسم القاتل،يجسد به لذة المذاق وحلاوته مع أنّ حتفه فيه.

---

[1]- الوصيف هلال الوصيف إبراهيم : التصوير البياني في شعر المتنبي ، ص :314.

[2]- حنا نصر الحتي : شعراؤنا ديوان الحطيئة ، برواية وشرح ابن السكيت ، دار الكتاب العربي ،2004 ، بيروت ، ص:128.

[3]- عبد الكريم الرحيوي : جماليات الأسلوب في الشعر الجاهلي ، ص :132.

[4]- الوصيف هلال الوصيف: التصوير البياني، ص :315.

<< إنّ حاسة الذوق عند الأعمى ترفد الثروة المعرفية عنده ،إذ تضيف إلى وعيه وإحساسه مقدارا ليس كبيرا من العالم المحيط حوله،ذلك أنّ التعرف الذوقي إلى المحسوس يتطلب من الحاس تماسا مباشرا ، وتجربة عملية ، ليتحقق لهم فهم المادة المذوقة >>[1].

فإذن الصورة الذوقية هي تلك الصورة التي تعتمد على حاسة الذوق ولا يمكن فهم وإدراك الذوق إلا بإدراك المواد المكّونة له ، وأكثر ما نجد هذه الصورة في شعر أبي العلاء المعري وهذا ما سوف يوضح الآن.

لقد حاول المعري ربط علاقة حسية بين طرفي الصورة الذوقية ، فأنتج صورة يكون فيها الممدوح حلو الشمائل والصفات كالشهد، يقول :

هو الشهد مجّته الخطوب مرارة وقد فغـــرت أفـــواهها لالتهامــه
تهاب الاعادي بأسه وهو ساكن كما هيب مسّ الجمر قبل اضطرامــه
وُربّ جُوّاز يُتقى وهو مغمـــد ولج تُهـــال النفس دون اقتحـــامه
إذا ضحكت عُجبا به ، كلّ بلدة بكى مالـــه من ظلمة واهتضـــامه[2]

ففي هذه الأبيات جعل المعري للخطوب فما ولكثرة سوءها تمّج الشهد مجا لمرارته فالشهد بطعمه الحلو أصبح مرا من سئم الخطوب.

<< وهذا امتداد لقلب الحقائق وضياع العدل الذي يلح عليه أبو العلاء المعري دائما في علاقته بالوجود،فجاءت صورته على نحو استعار فيه الفم للخطوب، مما رشّح لها ذلك أن تمّج الشهد وتلتهمه التهاما>>[3].

فهنا كان الشهد برغم حلاوته مرا من أثر الخطوب التي تتهاطل على الإنسان فتغرقه آلاما وحزنا ، كما يكون في حالات أخرى الشهد مرا إذا كان عصارة لشجر مّر وهنا شبّهه بالصاب ، يقول :

لا أستقيل زماني عثرة أبدا ما شاء فليأت إنّ الشهد كالصاب[4]

---

[1]- جهاد رضا: التصوير الفني في شعر العميان ، ص :97.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :104.

[3]- شعيب خلف : التشكيل الاستعاري ، ص :327.

[4]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :111.

فليأت الزمان بما شاء من أحداث وخطوب ، فهي لا تهم عند الشاعر ما دام أصلها مر ورأينا هذه النظرة السوداوية كثيرا في أشعار المعري منها ما يطبق على الذرية،فالأولاد لذة الحياة وأنسها ، ولكن في نظره أصل خروجهم شر،فالإنس مهما كان شريرا بطبعه ولا يمكن أن يخرج بذرة خيرة.

وعليه فالإنس كالشجر عنده يثمر أما مرا أو حامضا ، يقول :

و الإنس أشجار ناس أثمرت مقرا وأكثر القوم شاك يفقد الثمرا

وما التقـــي بأهـــل أن تسميه بّرا ولو حجّ بيت الله واعتمرا[1]

فلا حلاوة في هذه الدنيا ، وهو ما أكده المعري ، بقوله:

أنت ابن وقتك والماضي حديث كرى ولا حلاوة للباقي الذي غبـرا

ويعبـــر الحّي بالخـــالي فيعبـــره وكم رأى ذات ألوان فما اعتبرا[2]

والليالي في هذه الدنيا قد يسقي الإنسان عسلا ،فتطيب حياته ويهنأ باله ويستقر حاله وماله وإما تسقه مُرا ما يؤدي به إلى الصبر وفيه يقول :

لئن سقْتكَ الليالي مّرة ضربا فكم سقتك على مر الزمان مقر[3]

والليالي تسقي الحتف و الأجل ، يقول :

إنّ الليالي تُسقي الحتف ساكنها قيلا وصبحا وفي الظلماء والجشر

وتلهم النّحل جمع الأري جاهدة حتى إذا جّم قالـــت للعديم شِـــر[4]

فالحياة مهما كانت هي في نظر المعري بطعم مر والردى (الموت) فيها أشد أنواع المر،فهو سم قاتل لا محالة،يقول :

استرد الحياة منك لعمر الله مـــــن كان للحياة معيرا

ربما تدرجين في أول النمـــ ل إذا ما عدون عيرا فعيرا

وتحلين قرية فسقاك الـــ موت كأسا كما سقاها البعيرا

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1،ص :336.

[2]- المصدر نفسه : ص :337.

[3]- المصدر نفسه: ص :407.

[4]- المصدر نفسه :ص :364.

أترجين من إلهك عفـــوا وتخافين في الحسات السّعيرا

لعنّ الحِرْص كم تحكرتِ قوتا ثم خلفـــتُ بُرّه والشعــيرا[1]

ويقول:

حياةٌ مُرّة وردى ذعاف كأنّا منه في مدّ وجزر[2]

فقد عدّ المعري الموت سّم جامد يقتل الإنسان وهو مّر إذا ما سقط على الناس وهم على غفلة، لينتزع منهم مسراتهم وأفراحهم،ولكنه في أحيان أخرى يمثله كشراب جميل يستلذ بشربه، يقول:

ما أطيب الموت لشرابه إن صحّ للأموات وشك التقاء[3]

والموت لا يستلذّ به في هذه الحالة إلامن تشبّع بالمرار، وعانى من آلامها وحوادثها التي كانت تسقط بل وتتهاطل عليه كتهاطل المطر على الزرع،فيعزل الناس ويزهد في هذه الدنيا مثلما فعل المعري، فيتعلق بأمل الفراق والموت، فهو المنجي من تلك البلاد التي انتشر فيها الألم وشاع الحزن ومزقت الحسرة قلبه.

فالموت يحرره من البلد الذي كل شيء فيه كان عذبا أصبح سُما ،حتى النبت بات سقما ومرضا على حدّ قوله :

لقلت تلك بلاد نبتها سَقَـــمُ وماؤها العذب سم للفتى ذابا

هي العذاب فجدّوا في ترحلكم إلى سواها وخلّوا الدار إعذابا[4]

والماء فيها تغيّر طعمه ،فبات لا يشرب ، يقول :

نؤمـــل خالقنا إنّنـــا صُرينا لنشرب ذاك الصّرا

سواء علّي إذا ما هلكت من شاد مكرمتـــي أوزى[5]

لينتزع منهم مسراتهم وأفراحهم ،وهذا ما تحدث عنه أبو العلاء المعري بقوله :

---

[1]- المصدر السابق:ص:349.

[2]- المصدر نفسه:ص :373.

[3]- المصدر نفسه:ص :53.

[4]- المصدر نفسه: ص :88.

[5]- المصدر نفسه:ص :59. الصّرا وهو الماء المتغير طعمه.

أبيتُ ، فلم أطعم نقيع فراقكم مطاوعة ،حتى غُلبت على النّشع
فناديتُ عنسي من دياركم :هلا ! وقلت لسقبي عن حياضكم هِلْع
صحبت إليكم كلّ أطلس شاحب ينوط ،إلى هاديه أبيض كالّرجع [1]

فالفراق والابتعاد لم يكن بإرادته،ولكنه بإرادة القدر، فقد أُجبر الشاعر على تحمله مثلما يتحمل المريض الدواء المر إذا ما أجبر عليه، والمعري من الشعراء الذين استعملوا لفظة الراح في رسم صورهم ، فقال:

عجبتُ للمرء إذ يسقي حليلته سلافة وهو منها تائب صـــاح
كأنها إذ تحسّتْ ثـــم أربعــة أو خمسة شردت عنه بصحصاح[2]

فقد رسم أبو العلاء المعري لوحة تشكلت بصورة سمعية مفادها أنّه متعجب من المرء الذي يسقي زوجته خمرا في حين هو تائب منها، وقد أوحى بصورة سمعية أخرى من خلال قوله :

وشربتُ كأسا في الشبيبة سادرا فوجدت بعد الشيب فرط خمار
ما بال هذا الليل طال وقديُ ـــرى متقاصرا عن جلسة الُسمـــار
أتروم فجرا كالحســـام ودونـــه نجم أقام يمـــكن المسمـــار[3]

فهنا تلمح صورة سمعية يفسرها فعل الشرب للخمر،وهو هنا لم يصب اهتمامه فقط على الشرب بل تعداه إلى وصف لليل الذي طال بعدما كان قصر في جلسة الخمر وهم يتسامرون، فهي من يجعل مر العيش حلوا على حد قوله :

والراح تجعل مرُّ العيش عندهم حلوا وقد ذكرتهم أوّل المقر
تخـــالسوا لذة منها معجّلـــة و لم يبالوا بما يلقون من سقر
وأغنت الشرب الا من جميل نُهى من يفتقر منـه يوجـد شر مفتقر[4]

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :265. نقيع : سّم نقيع وناقع ومنقوع وهو الذي ينقع في الماء وما يجري مجرى الماء من المائعات وأراد بالنقيع هنا الدواء المر الطعم.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :200.

[3]- المصدر نفسه : ص :392.

[4]- المصدر نفسه:ص :362.

فإعجاب الشاعر بها وبالمذاق الذي تتركه في الفم والنشوة التي ترسمها في شاربها هو ما جعل الشعراء يتغنون بها يذكرونها في أشعارهم حتى أنهم عمدوا إلى تشبيه أشياء بها كما فعل المعري حين شبه الروح بالخمر.

يقول:

وأرواحنا كالراح إن طال حبسها فلا بدّ يوما أن تكون سباء[1]

فقد شبه هنا روح الإنسان المحبوسة في جسد إلى أن يكون الفراق بالخمر التي مهما طال حبسها لابدّ لها أن تغادر هذا الحبس، ونجده في بيت آخر يشبه دم الإنسان بالخمر ،يقول:

وأنّي لا يغيّر لي قتيـــرا خضاب ، كالمدام بلا مزاج

منعت الشيب من كتم التراقي ولم أمنعه من خطر العجاج[2]

ويردفها الشاعر بصورة سمعية أخرى مثل قوله :

خمور الريق لُسن بكل حال على طلابهن محرمـات

ولكن الأوانس باعثـــات ركابك في مهالك مقتمات[3]

فقد أوحى بصورة سمعية من خلال لفظة(خمور الريق) ، فريق محبوبته كأنه خمر جميل بطعم حلو.

وفي صورة أخرى شكلها المعري ،جعل من المدام شبيه بدم الغزال في سيلانه ولونه ،يقول :

وأبّر من شرب المدامة صنفت في عسجد شرب الرثيئة في العلب

جاءتك مثل دم الغزال بكأسها مقتولة قتلتك فاله عن السلـــب[4]

وكثيرا ما أراد الشاعر تشبيه الدروع بالعسل الأبيض لوجه الشبه المشترك بينهما وهو الحلاوة ، يقول:

ماذية أبت الجوارس قربهـــا لكـــن قوارس فُللت بوقاعـــها

ضربية، وكأنما هي في الوغى ثقل على الاسياف عند مصاعها

---

(1)-أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :37.

(2)- أبو العلاء المعري:سقط الزند، ص :323.القتير: رؤوس مسامير حلق الدروع ويستعار بالقتير لأوائل الشيب، والخضاب :الدم شبهه بالمدام وهي الخمر.

(3)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :157.

(4)- المصدر نفسه: ص :125.

يزنية ،الخرصان لا هذلية الـــ أخراص يغدو شائر بمتاعـــها[1]

ويتبعها بأبيات أخرى في نفس السياق :

تلك ماذية ، وما لذباب الـــ صيف والسيف عندها من نصيب

ولدات لها توهم غـــــرا أنّ حمر العياب خضر الغــروب[2]

لقد شكل المعري صورة سمعية من خلال لفظة (ماذية) التي تعني بيضاء وهي تطلق عادة على العسل وقد شبه الدرع بالعسل الأبيض للينها كهذا العسل .

ويقول أيضا في درعيته (دقت وما رقت) مبينا حلاوة الدرع كأنها عسل :

ماذية ، هّم بها عاسل من القنا لا عاسل من هذيل

دقت ، وما رقت ولكنها جاءت كما راقك ضحضاح غيل[3]

ويقول :

من الماذي ، كالأذي أردى عواسل غيرطيبة المجاج[4]

وقد تجتمع أكثر من حاسة لتقدم صورة يريدها الشاعر،يقول:

أما يرى الإنسان في نفسه آيـــات ربّ كأنها غر

في فمه عذب وفي عينه ملـح وفي مسمعه مر

يكّر موتانا إلى الحشرات إن قال لـــهم بارئهم كروا

يخلف منـــا آخـــر أولا كـــأننا السنبل والبـر[5]

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :391.

[2]- المصدر نفسه :ص :369.

[3]- المصدر نفسه:ص :376.

[4]- المصدر نفسه: ص :326. الماذي لفظة مشتركة توصف بها الدروع البيض البراقة ، ويوصف بها العسل الأبيض. و العواسل هي لفظة مشتركة توصف بها الرماح التي تعسل والنحل الذي يصنع العسل، أما المجاج هي لفظة مشتركة يراد بها ما تمجه النحل من عسل.

[5]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج1 ، ص :323.

فهنا يظهر تراسلا للحواس والصور حاسة تلو الأخرى،فقد بدأ أبياته بصورة بصرية فسرها كل من (يرى الإنسان، يكر،عينيه)،ففعل الرؤية لا يكون إلا بالبصر؛لذلك تكون بصرية بحتة،وأعقبها بلفظة (في فمه عذب)،وهو دلالة على الذوق وإدراك المواد المركبة للصورة من عذب وملح ومر،ومن ثم تعتبر صورة ذوقية، إضافة إلى الصورة السمعية ممثلة في لفظة (مسمعه).

كما يظهر تراسلا لحاسة الذوق واللمس من خلال قوله :

يلقاك بالماء النّمير الفتى وفي ضمير النفس نار تقد

يعطيك لفظا لينا مسّــه ومثل حدّ السيف ما يعتقد[1]

رابعا :الصورة اللّمسية:

هي كل صورة اعتمدت في بنائها على حاسة اللّمس،<< التي تستطيع أن تحدد حجم الشيء الملموس وطبيعته وماهيته>>[2].

فالفنان المبدع هو من يحاول استثمار هذه الحاسة في تصوير لمجمل المدركات اللّمسية التي تكمن في (الخشونة، والنّعومة، الرطوبة، الطراوة، الليونة، اليبوسة، والرقة والغلظة وغيرها) من الصفات التي يمكن أن ينسج الشاعر عن طريقها صوره.

ولحاسة اللمس أهمية كبيرة كغيرها من الحاسات خاصة عند الأعمى،فهي تمكنه من الشعور بالإحساسات الفنية واستيعاب المادة التي حوله،وهذا ما أكده "بشار بن برد" بقوله :

أمامة قد وصفت لنا بحسن وإنّا لا نراكِ فألمسينا[3]

بيد أنه لابد من التنبيه إلى أنّ هذه الحاسة محدودة العطاء،فهناك أشياء لا يمكن أن نلامسها كالشمس والسحاب والسراب والأفق،كما أنّ هناك أشياء وكائنات صغيرة موجودة على الأرض تقتضي الضرورة التكلم عنها وتكوين صورة بخصوصها من دون أن نلمسها كبعض الحشرات الصغيرة وحيوانات كبيرة جدا كالفيلة والخنازير وغيرها من الكائنات.

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :531.

[2]- جهاد رضا : التصوير الفني في شعر العميان ، ص :86.

[3]- محمد الطاهر بن عاشور : ديوان بشار بن برد ،(د، ط، د، ت) ،ج4 ،ص:228.

والمعري واحد من الشعراء العميان اقتضت عليهم حالتهم تعويض حاسة البصر بالسمع واللمس وغيرها.

فهل المعري استعمل الصور اللمسية في ديوانيه مثلما فعل مع باقي الصور ؟ وإذا كانت موجودة مامدى نسبتها؟

كل هذه المعلومات سوف نتعرف عليها من خلال الدراسة التي أجريت على ديوانيه سقط الزند واللزوميات بجزئيه،وما لاحظته أثناء دراستي لديواني المعري في مجال الصورة اللمسية وجدت أنّ أبا العلاء المعري قد استعمل مثل هذه الحاسة التي عوضته مثلما عوضه السمع عن حاسة البصر باعتباره أعمى،فحاسة اللمس قد << تطلعنا على ناحية جمالية لا تستطيع العين وحدها أن تطلعنا عليها؛ أعني النعومة والرخاصة والملامسة>>[1].

فجميع الصور التي استعملها المعري كانت تصبي داخل القالب الخاص بالصورة اللمسية فكثيرا ما وجدته يحكي عن سلاسة أو خشونة الدروع على نحو قوله :

خانني ملبسي أبوكِ ، فحُلّي صفادي

بدلاص كأنها بعض ماء الثمـــــاد[2]

ففي هذين البيتين وصف الشاعر فيهما ليونة الدّرع،ويقول في موضع آخر من الديوان نفسه :

تلك في الطيّ ، قدر مشرب ظمآن ،صاد

ثّم في النّشر غسل أشمط ، مفني المزاد

أخضلت كل شخصه دون رأس وهـــاد

وتدانى من الّربى ، لبطون الوهـــــاد

كضعيف السيول من ولية ، أو عهـاد[3]

فالدرع في هذه الأبيات ظهرت لينة ومن كثرة ليونتها سالت ، ويقول :

يحلف أن يقتل الكّمي ، وقد فات إليه ، حمامه ، وشأى

---

[1]- جهاد رضا : التصوير الفني في شعر العميان ، ص :89.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :348.

[3]- المصدر نفسه:ص :349.

ودونــه نـــثرة مضاعفــة ما وجدت عندها الرماح ثأى[1]

وقد شبهها في اللين بشعر البحتري ، وقد سماها الوليد مثال يحتذى به في تمام الصنعة مثل شعر أبي تمام مكنيا عنه باسم الحبيب ،يقول :

مثل وشي الوليد لانت وإنْ كا نت من الصّنع مثل وشي الحبيب[2].

وتظهر الدرع في أبيات أخرى سبرية باردة ، وبحرية وشمسية ، يقول :

سبرية في مسّها ، بحرية بمياهها ، شمسية بشعاعها[3]

وقد شكل صورا لمسية تخص الدرع، ولكن هذه المرة من ناحية صلابتها، فشبهها بنوى التمر اليابس، يقول :

كنوى القسْبِ ،كدْتَ تسمع في الآ خر منها ، للموت ، مثل القسيب

خلتها شاهدت وقائع ، في السا لف ،عشت سيوفها بالعيوب[4]

كما صوّر إضافة إلى صلابة الدرع خشونة ملمسها ، يقول :

قضّاء ، تحت اللمس ، قضاءة غير قضاء السيف واللهذم[5]

فالمعري يجعل ملمس الدرع الخشن يفتك بالعدو أكثر من فتك السيف، يقول :

من يشتريها ، وهي قضّاء الذيل كأنّها بقية من السيل[6]

ويواصل مشبها إياها بالحصى الصغيرة المتكسرة، ويعود ذلك لخشونة الملمس ، فمن جدتها لم تنسحق بعد ، وقد سماها بالقضّاء وهي مشتقة من القِضّة، يقول :

فلا يطعمك في الغمرات وِردي فإنّي ربّة الُمرِّ الأجاج

فإن تركد بغمدك لا تخفنــي وإن تهجم علّي فغير ناج

---

[1]-أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :399.

[2]- المصدر نفسه : ص :379.

[3]- المصدر نفسه:ص : 388.

[4]- المصدر نفسه:ص :363.

[5]- المصدر نفسه: ص : 327.

[6]- المصدر نفسه :ص : 333.

متى ترّم، السلوك الرزايـــا تجد قضّاء مبهمة الرتاج

يردّ حديدك الهندي ســردي رفاتا كالحطيم من الزجاج[1]

وقد اجتمعت مع الصورة اللمسية التي أوحيت لنا من خلال لفظة(قضاء) ،فقد وجدت أيضا صورة ذوقية يفسرها كل من (يطعمك، المّر) وتراسل الحواس و اجتماعها مع بعض بالرغم من الاختلاف الحاصل في المدركات الحسية إلا أنّه يضفي جمالا خاصا على النص الشعري خاصة إذا اتحدت تلك الحواس المجتمعة لتؤدي معنى وغرض واحد لذلك النّص.

والمعري لم يكتف بتصوير الدروع وتشبيهها في ملمسها أو صلابتها وخشنها بأشياء أخرى وإنما رسم لنا صورا أخرى متفرقة منها ما يخص الرماح فشبهت في صلابتها بالقسب أيضا؛أي التمر اليابس ، وهذا ما يعكس خشونتها وقساوتها .

يقول :

تناجيني ، إذا اختلف العوالي أتدري، ويب غيرك من تناجي

كأنّ كعوبـــها متنـــاثرات نوى قست يرضخ للنـــواجي[2]

ومن الصور اللمسية المستعملة ، يقول :

فالظبية الغيداء صبحها الردى أدماء ترتع في البنات الأغيد

قدر يريك حليف ضعف أيـدا ويردّ قرن اليـــد ضدّ مؤيــد[3]

فالظبية من كثرة ليونتها انثنت وهي تسرح وتمرح في النبات اللين،فهي صورة لمسية أحسّ فيها الشاعر بالمدركات من حوله، وترجمها في شكل صورة لها دلالاتها الخاصة بها.

وقد أوحى بصورة لمسية أخرى يحكي فيها عن ذلك الفتى الذي يخدمك ويبدوا راض ولكنه في ضميره تشتعل نار الحقد والغيرة والكراهية،حتى أنه يلين معك بكلام جميل ليّن، وقد شبهه بحد السيف يكون لينا رقيقا غير صلب عما سواه .

يقول :

---

[1]- المصدر السابق: ص : 324. الرتاج : الباب العظيم وقيل هو الباب المغلق.

[2]- المصدر نفسه :ص : 325.

[3]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :262.

يلقاك بالماء النّمير الفتى وفي ضمير النفس نار تقد

يسعطيك لفظا لينا مسّه ومثل حدّ السيف ما يعتقد[1]

وقد رسم صورة أخرى عن المعركة وحال الشخص فيها ، يقول :

والشخص في الغبراء غُبّر فانثنى وكأنما هو للغبار غبار[2]

كما شكل المعري صورة لمسية، وقد اجتمعت معها صورا أخرى، وهذا ينّم على قدرة الشاعر على خلق وتركيب الصور ، يقول :

رأين الورد في الوجنات حيما فغادين البنان معنّمات

وشنفن المسامع مع قائلات وكلمن القلوب مكلمات[3]

ففي هذه المقطوعة نجد الشاعر بدأها بصورة بصرية صريحة ممثلة في (رأين الورد في الوجنات)، وواصل حديثه فذكر لفظة (معنمات) وهي لفظة توحي بصورة لمسية.

وأكمل البيت بصورة سمعية ؛ حين قال (وشنفن المسامع ، قائلات ، كلمن ، مكلمات) وهذا ما جعل المقطوعة تعنى بغرض الشاعر وإيصال معناها إلى الناس.

خامسا :الصورة الشمية:

إنّ الشّم حاسة من الحواس الخمس وسيلتها الأنف،<< وهي نافذة من نوافذ الإدراك الحّسي التي تثير لدى الشاعر إحساسا معينا اتجاه الأشياء التي تصور من خلال ارتباطها بهذه الحاسة>>[4] .

وللناس أذواق ومذاهب في تمييزهم بين الصور الشمية وهذا بسبب اختلاف أذواقهم وتركيباتهم الفيزيوجية، والصور الشمية أنواع منها (المثيرة ،والحارة، والطيبة والزكية وغيرها من الروائح)، وهذا ما فسره قول أحدهم :<< فالأراييح مثل الألوان ،منها حارة أو لطيفة معتدلة ،ومنها رطبة أو مثيرة أو ثقيلة أو سامة ، وربما شفي بها المريض وأنعش البلد وفرح المكروب>>[5].

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1،ص :268.

[2]- المصدر نفسه :ص:309.

[3]- المصدر نفسه:ص :156.

[4]- الوصيف هلال الوصيف إبراهيم : التصوير البياني في شعر المتنبي ، ص :311.

[5]- علي شلق: الشم في الشعر العربي ، دار الأندلس ، (د، ط، د، ت) ، ص :05.

وهدف الشاعر من خلال توظيف المدركات الحسية في تشكيل صوره اللمسية هو تحقيق اللذة الفنية والمتعة الوجدانية،لذا نجد المتنبي يعبر عن تجربته الشعرية من خلال توظيف بعض المثيرات اللمسية وتشكيلها تشكيلا حسنا،حيث تظهر فيه بصورة واضحة رائحة المحبوبة وقد فاقت رائحتها المسك من غير أن تمس طيبا ، يقول :

بما بين جنبي التي خاض طيفها إلىالديباجي والخليّون هجع

أتت زائرا ما خامر الطيب ثوبها وكالمسك من أردانها يتضّوع

<< فالشاعر يتحدث عن رائحة الحبيبة الغالية التي تبعث بعطرها الفّواح الذي أثمله،لقد زارته ووجد رائحة المروج تتضّوع من إرادتها وتملأ الجّو بأريجها وتنفذ إلى أعماقه فتحرك فيه ما كمن>>[1].

والأعمى كالمعري يمكنه تحقيق هذه الحاسة بعناية أكبر من المبصر لعدم انشغاله بالعناصر المكونة التي لها دلالة باللون والحجم والأبعاد، فيركز اهتمامه أكثر على العناصر المكونة لحاشة الشم كالرائحة الطيبة والخبيثة وغيرها ، ونتيجة للدربة والممارسة التي يضطره إليها وضعه الصحي (أعمى) يتبع حاسة الشم عنده أوجها ،فتذوب وتنصهر ذاته مع الموضوع ، فينتج لنا أشعارا من هذا النوع .

ومنه قوله :

لفعالك المذموم ريح حوابس ولفعلك المحمود ريّا تفعـــم

والطّبع أحكمه المليك ، فلن ترى حجرا يقول ، ولا هزبرا يبغم

أيكون رفع للشرور فينتهـــي غاوٍ ويقنع بالنبات الضيغم[2]

فهنا أراد المعري التمييز بين فعل الشر والخير ، فجعل للأول وهو الشر ريحا خبيثة تشبه الرائحة المنبعثة من الزقاق الذي حبس فيه الماء ،وهو ما عبّر عنه بلفظة (ريح حوابس) في حين العمل الحميد والخير له ريح طيبة تملأ الأنوف وقد مثلها بقوله (ولفعلك المحمود ريا تفعم)،فتصوير المفارقة بين الخير والشر على هذا النحو جعل للمعنى وقعا أعمق في النفوس، ويقول في موضع آخر مشبها جليس الخير ببائع المسك:

---

[1]- وصيف هلال الوصيف إبراهيم : التصوير البياني في شعر المتنبي ، ص : 311.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص :291. يبغم : يرسل صوتا كبغام الظبية ، وهو صوت رقيق تدعو به ولدها ، وتفعم رائحة عطرة.

وجدت الناس كالأرضين شتـــى فمن دمث يريع ،أو حرار.
جليس الخيـــركالداريّ ألقـــى لـــك الريّا كمنتسم العرار
هذا ،ولكن ضده في الربع ، قين أطار إليك ، مفترق الشرار[1]

فقد صور جليس الخير،فرائحته كرائحة المسك الذي يبيعه العطار بينما ضده فهو جليس سوء وصاحب فساد رائحته نتنة وقبيحة، فتمكن من خلال هذه المفارقة بين جليس الخير وجليس السر بتصوير جميل أوضح المعنى أكثر وزاده جمالا وتألقا.

ويقول :

جسمي أنجاس فما سرنـــي أنّي بمسك القول ضُمـــختُ
من وسخ صاغ الفتى ربّـــه فـــلا يقـولّن توسخـــت
والبختُ في الأولىأنال العُلا وليـــس في آخـــره بخـت[2]

لقد توسل بتشبيهه،ففيه مفارقة بين جسمه الذي شبهه بنجاسة يحمل من الروائح الكريهة ما يحمل،وبين حسن قوله، فشبهه بالمسك الذي يتطيب به ويقول مبديا تناقضا صريحا وواضحا بين الرزء الذي يبدي كرمه، فتنشر روائحه العطرة بين الناس ولكنه في حقيقة الأمر عنوانا للشر،وهذا ما جعل الشاعر ينبهه بزجر نفسه المسيئة والعمل جاهدا على تبديلها إلى الأحسن، وتظهر هذه الصورة في قوله :

والرزء يبدي للكريم فضيلة كالمسك ترفع نشره الأفهار
فازجر عزيزتك المسيئة جاهدا واستكف أن تتخيّر الأصهار[3]

أما فيما يخص الصور المتعلقة بالزمان يتبخر ، فنجده يقول :

وكأنّ في كفّ الزمان بنـوره قطرا تُعم بنشره الأقطار
متمطرين إلى الخيانة والأذى وهم السّحائب مالها إمطار
ومن الفضيلة للجـــوامد أنّها لا تحس يتبعها ولا أوطار

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :380. الداري هو بائع المسك .

[2]- المصدر نفسه: ص :143.

[3]- المصدر نفسه: ص :314.

تخذ الغراب على المفارق موقعا ولقـد علمت بأنّه سيطار[1]

فالزمان في كفه عود يشعله ليتبخر وتنشر روائحه عبر الأقطار، واستعماله للفظة (كف) يعني أنه استند إلى صورة لمسية،فهو عنصرا من عناصر اللمس، كما أنه استعمل الصورة الشمية المتعلقة بالعود الذي يتبخر، فيبعث بروائحه العطرة فروائح الزمان يعكس من خلالها الشاعر كل الآمال والأحلام الوردية للإنسان في هذا الزمان.

ولكنه يعقب كلامه بإظهار كل الصفات الموجودة في هذا الزمان من خيانة وأذى،أما الفضيلة والأخلاق فلم تكن ملكا إلا للجوامد التي حذف إليه من قلوبها الإحساس،وكأنّه هنا يقول للإنسان بأن لا يغتر لتلك الروائح التي يبعث بها الزمان، لأنّ فيه من الخيبات و الآهات والآلام ما ينسيك تلك الروائح العطرة للعود،فحتى الرزايا والمصائب في بعض الأحيان التي تقع على عاتق الإنسان في هذا الزمان فيها ما تغريك بمسك فيّاض ينسيك أنّ الذي زكاك برائحة طيبة هو الزمان برزاياه، يقول :

ومن الرزايا ما يفئ لك العــلا كالمسك فاح بموقع الأفهار

أسنيت من مرِّ السنين ولم أرِد أسنيت من ضوء السنا البهار[2]

فالدنيا التي يعيش فيها الإنسان لن تتغيّر رائحتها النتنة ، يقول :

تطل بمسك أو تضمخ بعنبر أرى أم دفر ما عدانا ابنها دفر

وما القبر غلا بمنزل نفرت له كذوب المنى ثم اطمأن بها النفر[3]

فالشاعر متأكد من حقيقة الدنيا التي لا تتغير رائحتها ، فمهما حاول الإنسان من التطيب بالمسك وطلاء العنبر دلالة بهما على عمل كل ما فيه خير وفضيلة وأخلاق.

إلا أنّه لن يفلح في تغيير تلك الروائح النتنة للدنيا ، فقد سماها بأم دفر، والدفر هو الرائحة السيئة ونهايته في هذه الدنيا يكون الموت المؤكد والوصول إلى القبر لا محالة.

---

[1]- المصدر السابق: ص :305.

[2]- المصدر نفسه: ص :391.

[3]- المصدر نفسه: ص :277.

فهنا الشاعر عمد إلى توضيح أصل الدنيا وحقيقتها وقد ربطها بروائح نتنة ، وهو أصلها وأخرى طيبة مثلها في المسك والعنبر وهما من صنيع البشر بيد أنه هذا الصنيع سيكون من دون فائدة ، لأنّ الدنيا وجهها ومظهرها محسوم.

وقد شبهها بلباس يبلي الجسوم ،فحتى وإن كان لها طِيب ، فمؤكد من أنّه بدون رائحة، يقول:

إياك والدنيا فإنّ لباســها يبلي الجسوم وطيبها لا يعيق

ولها هموم بالنفوس لوابق وسرورها بصدورنا لا يليــق[1]

فهي خالية حتى ولو طيبتك بمسك أصهب ، يقول :

تضوع دارك مسكا وهي خالية مثل القسيمة بعد الأصهب العطر

كأنّما الروض لما طلّ باكرها من كل قطر بمشبوب من القطر[2]

ويقول المعري :

وفي هذه الأرض الركود منابت فمنها علندي ساطع وكباء[3]

ويقول:

كأنما الأرض شاع فيها من طيب أزهارها بخور[4]

فكل هذه الصور التي نسجها المعري حول الزمان والدنيا والرزايا فيها وحتى الأرض شكل من خلالها دلالات وأعطاها صبغة شمية بروائح زكية.

وبين المرأة والطيب ودّ جميل و قديم ، فهي الورود والرياحين والخزامى،يقول :

كأنّ الخزامى جمعت لك جلّة عليك بها في اللون والطيب سربال

عجبت ،وقد جزت الصّراة رفلة وما خضلت مما تسربلت أذيال[5]

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص :132

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :365.

[3]- المصدر نفسه :ص :35.

[4]- المصدر نفسه: ص :296.

[5]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :150.

<< فطرازها لم يحكه الحائك من خيوط حريرية فاخرة ، ولم ينسجها الناسج من صوف أو جلد وغيرها مما دأب الجميع على استخدامه، وإنما صنع في مخيلته الشاعر بخيوط من زهر الخزامى >>[1].

وهي في هذا السياق تمثل صورة شمية ،لم يكتف بتشبيهه لباسها بزهر الخزامى فحسب بل راح يصفرائحة حبيبته القوية وهي في ذلك كرائحة الخمر حين يتخمر،فيقهر مديره بتلك الرائحة القوية .

يقول :

غدتْ تحت راح يجذب الستر مثلما تنّسم راح ، بالمدير لها تسطــو

وقد ثمِل الحادي بها من نسيمها كأنّ غاله ، من كرم بابل اسفنط[2]

فقد عقد المعري صورة شمية ربط فيها بين المرأة ذات الرائحة الجميلة وبين الخمر ذو الرائحة القوية.

كما أنّ طوقها الذي تلبسه بلون أسود شبهه بمسك ذوا رائحة طيبة، وذلك بقوله:

وتحسدك البيض الحوالي قلادة بجيدك فيها من شذا المسك[3]

فهو هنا أراد بالقلادة هو الطوق الذي تكسبه المرأة للتزيين كأنّه طوق حمامة ،وعندما ذكر طوق الحمامة أراد به لونه الأسود،فشبهه لسواده بمسك أسود،ولم يكتف المعري برسم صورة للمرأة الحية الموجودة أمام نصب عينيه وتشبيه رائحتها بالمسك،ولكنه تعداه إلى تذكر طيف محبوبته، فجعل هذا الطيف كأنه إنسان برائحة زكية وطيبة.

يقول :

إن كان طيفك برّا في الذي زعمــا فـــإنّ قومك ما بروا لهم قسما

آلي أميرك ،لا يسري الخيال لنــا إذا هجعنا ، فقد أسرى وما علما

وكم تمنّت رجال ، فيك ، مغضبة أن يبصروه ، فلم يظهر لهم سقما

نسوف من آل هند ، بارقا أرجـا كأنّما فُضّ عن مسك وما خُتــما

---

[1]- جهاد رضا : التصوير الفني في شعر العميان ، ص :93.

[2]- المرجع نفسه: ص: 299 ، 300.

[3]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :246.

إذا أطّل على أبيـــات باديـــة قام الولائـــد يستقبسنه الضـرما[1].

وقد زاره طيف محبوبته بريحته الزكية والقوية في المنام قائلا :

حملت، من الشامين ، أطيب جرعة وأنزرها ، والقوم بالقفر ضـــلال

يلوذ بأقطـــار الزجاجة ، بعدمـــا أريقت ، لما أهديت في الكثر أمثال

فسقيا لكأس من فم مثل خاتـــم من الدّر ، لم يهمم بتقبيله خـــال[2]

فقد شكل صورة شمية أوحى لها بها من خلال لفظة (أطيب جرعة وأنزرها)،وهو يريد بها أن طيف محبوبته قد زاره في المنام برائحة عطرة فقيل فمها قبلة قصيرة،إضافة إلى عقده صورا شمية عن الحرب وساحة المعركة ،حيث قال :

فوارس حرب ، يصبح المسك مازجا به الركض نقعا ، في أنوفهم الشّم

فهذا ، وقد كان الشريف أبوهـــم أمير المعاني ، فارس النثر والنظم[3]

ما يلاحظ أنه وصف من خلال هذين البيتين الفوارس داخل المعركة متطيبين بالمسك،فتمزج رائحته مع نقع الغبار،وهذا يدل على أنهم في حرب وحالة الحرب معروفة يكون الغبار فيها متطاير من شدة وكثرة الجري بالخيل في ساحة المعركة ، كما تكثر جثث الضحايا وجراحهم ولكن الشيء الغريب أنّ هذه الجراح التي تشكلت من أثر الطعنات بالخناجر والرماح تفوح منهم رائحة زكية،يقول :

كأنما الضرب يفري من كلومهـــم أكباد سرب رعين النّور في الكنس

سالت تضوّع ، حتى ظنّ جارحهم قسمة المسك جرح الفارس النّدس[4]

فقد شبه هنا رائحة الدّم المنبعثة من أجراح الضحايا كرائحة أكباد ظباء رعت الزّهر، كما أنّ لضربة السيف ريحا كريح العنبر الزكي،يقول :

هُم القوم سافوا عنبرا بمعاطس فخافوا وسافوا بالصوارم عنبرا

ما عاش كالظبي لم يفـــــد بدنياه إلا أن يعـــال ويكبرا

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :148. السّوب : القطيع من النساء و الطير و البقر و الضباء .

[2]- المصدر نفسه :ص :243.

[3]- المصدر نفسه: ص :193.

[4]- أبو العلاء المعري :اللزوميات ،ج1 ،ص :141.

ولم يدر لماّ أن أتـــاها ولا درى إلى أين يمضي فاستكان مدبرا[1]

كما شكل الشاعر صورا شمية من تشبيهه للسلام بشمس الضحى في أولها وفي آخرها بالنار، ويفوح هذا السلام كريحة العنبر إذا ما طيّرته الرياح ، يقول :

سلام ، هو الإسلام زار بـــلادكم ففاض على السني والمتشيّع
كشمس الضحى أولاه في النّور عندكم وأخراه نار في فؤادي وأضلعي
يفوح ، إذا ما الّريح هبّ نسيمـــها شآمية ، كالعنبر المتضـــوع[2]

فكلمة السلام من وحي تعاليم ديننا تستعملها كل المذاهب منها على حد قوله،السني والشيعي وقد شبهها بالشمس التي تطلع في وقت الضحى، وفي آخرها بالنار، وهي دلالة على أنّ التوديع بالسلام ليس كاللقاء يكون وقعه أكبر وأشد خاصة إذا كان فيه فراق لأحبته، وقد شبهه كما ذكرت سالفا بريحة عنبر يذروها الريح من كل جهة، فهذه الصورة التي شرح فيها السلام من بدايته إلى نهايته،قد ربطها بحاسة الشم من خلال لفظة (الريح، نسيم ، العنبر)، وهي كلها دلالات على صورة شمية.

وقد وجدت الصورة الشمية عند العميان وبالضبط عند المعري الذي يمثلهم باعتباره محل الدراسة ، تشارك في معظم الأغراض الشعرية،ولكن دون أن تدل على وجود ابتكار في المعاني،لذلك نجد المعري يستعمل كل ما هو جمالي من رائحة للورد والعنبر والمسك.

ويجعله يصلح لمختلف الأغراض كالوصف والرثاء والغزل، كأن يجد الشاعر في ريح المسك والكافور أريجا يمكن أن يحمل تحية عبقة يرثي بها أمه.

يقول :

فيا ركب المنون أما رسول يبلـــغ روحها أرج الســـلام
ذكيا يصحب الكافور مـــنه بمثل المسك مفضوض الختام[3]

ويقول أيضا :

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :331.

[2]- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص:125.

[3]- جهاد رضا : التصوير الفني في شعر العميان ، ص :96.

أودى فليت الحادثات كفاف مال المسيف وعنبر المستاف[1]

فهي بمثابة المال للذي ذهب ماله ، وبمثابة العنبر بالنسبة للشخص الذي تعّود على شم رائحة العنبر، ولما أراد أن يصف ليلة زفاف ممدوحه راقه أن يصّور سحر العطر وفتنة الأريج المتنوع في مثل تلك الليلة:

للطيب في حندسها سورة مناخـــر البدر بهت فعـم
حتى بـــدا الفجر به حمرة كصارم غيّر منـــــه الدم
مضمخا ينظـر في عطفه كأنّ مسكا لونـــه الأسحم
نال شبابا منه مستقبـــلا تهرم دنيـــاه ولا يهـــــرم
وانتشرت في الأرض ريح له يسوقـــها المنجد والمتهـم
عطر لمن شـــم ، ولكنـــه فزارك الناشئ والقشعـــم
وانشقت عرفك طير المـــلا غير الذي جاءت به منشـــم[2]

<< فهذه الصور التي يعتمد فيها الشاعر على ذكائه ومهارته في ربط أطراف صورته تمتعنا بدقة السّبك أكثر ما تمتعنا بشاعريتها >>[3].

كما استعان بلوحات كثيرة لرسم صورة واحدة تخص الدرع ، فتارة يشبهها بالمسك قائلا :

كأنّ ُضا بها مسك شنين على راح ، تخاط ماء شنّه
فلا تستكثر الهجمات فيها فإعراس بتلك دخول جنّة
إذا قبلتها قابلت منهـــا أريج النّور، في زهر مغنّـــة
تغنت من غني مال وصبر وأما بالقريض ، فلم تغنّـه
وليست بالمعنة في جدال وإن جدلت كما جدل الأعنة[4]

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :250.

[2]- المصدر نفسه:ص :201، 202.

[3]- جهاد رضا : التصوير الفني في شعر العميان ، ص :96.

[4]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :251.

وهذا المسك مزيج مع الماء فيكف الدرع فإذا اقتربت منها شممت أريج الزهر فيها، وتارة أخرى يوصي بأن يجعل شعار الدرع بالمسك بدل البعر المتعفن (الكّرة) ، يقول :

أشعريها بديل كرتها ، المســـ ك ، إذا مـا الدعـاء صار كريرا

وأصبحيها ا لبان الزكّي، فمـــا أر ضى، لعرضي، من السليط ثجيرا

هي حصني ، يوم الهياج ، فعلّيـ ها عن الآس ، واستعدي العبيـرا[1]

فقد شكل صورة شمية ،فربط فيها بين الدرع والعنبر أو المسك الذي وصى بأن يكون شعارا لها بدلا من البعر المتعفن،كما أوصى بإعداد العبير بدل الآس وهو الرماد، كما أوحى بصورة جعل فيها النار طيبة الرائحة ، يقول:

طابت لطيب الموقدين ، كأنّما سمر، تروح به الحواطب، مجمر

يتهللون طلاقة ، وكلومهـــم ينـــهل منهن النّجيع الأحمـــر[2]

فالصورة الشمية تكمن في (طابت لطيب الموقدين، مجمر)، فهذه ألفاظ توحي بوجود صور شمية ،حيث شبه فيها النار برائحة طيبة ،حتى ولم توقد بعود والسبب حسبه يكمن في طيب موقديها وكأنها تكسب طيبها منهم، كما جعل النار التي يحرق أهل الهند بها موتاهم أطيب من الكافور نفسه ، يقول:

فاعجب لتحريق أهل الهند ميّتهم وذاك أروح من طول التباريح

إن حرقوه فما يخشون من ضبع تسري إليه ولا خفي وتطريح

و النار أطيب من كافور ميتنا غِبـا واذهب للنكراء والريح[3]

وهكذا تنتهي الصورة الشمية،كما أُنهيتْ الصور الأخرى ،وهذا ما يستدعي تبيينها عن طريق جدول إحصائي يثبت استعمال المعري لمثل هذه الصور جميعا .

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :337.

[2]- المصدر نفسه :ص : 228. المجمر هو العود الذي يتبخر وهو أيضا ما يحرق به العود.

[3]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج1، ص :200.

جدول إحصائي يبين الصور الحسية

الرقم التسلسلي	نوع الديوان	مقاطع الصور الحسية المتبقية			
		الصورة السمعية	الصورة الذوقية	الصورة اللمسية	الصورة الشمية
1	اللزوميات ج1	...فذميمة الأصوات مرتفعاتها	...ما شاء فليأت إن الشهد كالصاب	فالظبية الغيداء ، صبحها الردى	...لك الريا كمنتسم العرار
2	اللزوميات ج1	لا تفرض بفأل إن سمعت به	وتلهم النحل جمع الأري جاهدة	يعطيك لفظا لينا مسه	فما سرني أني بمسك القول ضمخت
3	سقط الزند	وهواك عندي كالغناء لأنه...	هو الشهد مجته الخطوب مرارة	...بدلاص كأنها بعض ماء الثماد	كأن الخزامى جمعت لك حلة
4	اللزوميات ج2	من الناس من لفظه لؤلؤ			لفعالك المذموم ريح حوابس
5	اللزوميات ج1	مغني هذي الحمامة أصبحت	لئن سقتك الليالي مرة ضربا	والشخص في الغبراء غبر فانثنى	كالمسك ترفع نشره الأفهار
6	اللزوميات ج1	وتغنت الدنيا بصوت واحد	والإنس أشجار ناس أثمرت مقرا	فغادين البنان معنمات	قطرا تعم بنشره الأقطار
7	اللزوميات ج1	غنوا من الجهل في محافلهم	حياة مرة وردى ذعاف		كالمسك فاح بموقع الأفهار
8	اللزوميات ج1	فإن أغاني الليالي نباحة	ما أطيب الموت لشرابه		تطل بمسك أوتضمخ بعنبر
9	سقط الزند	رويدك أيها العاوي ورائي...	أبيت ، فلم أطعم نقيع فراقكم	تلك في الطي قدر مشرب ظمآن صاد	تنسم راح بالمدير لها تسطو
10	سقط الزند	نقيق علاجم ،والليل داج	... خضاب ، كالمذاب بلا مزاج	سبرية في مسها ، بحرية بمياهها	بجيدك فيها من شذا المسك
11	سقط الزند	تصيح ثعالب المران كربا	ماذية أبت الجوارس قربها	قضاء تحت اللمس قضاءة	
12	سقط الزند	وأجابت جيادنا صوت زرق شواد	تلك ماذية ، وما لذباب الصيف	مثل وشي الوليد لانت وإن...	مال المسيف وغير المستاف

13	اللزوميات ج2	صاح الزمان فعاد الجميع مفترقا			ولفعلك المحمود ريا تفعم
14	سقط الزند	جوف كنبت الجون يصرخ دائبا	ماذية هم بها عاسل		
15	اللزوميات ج1	هتف الحمام به وناح العود	لقلت تلك البلاد نبتها سقم		فمنها علندي ساطع وكباء
16	اللزوميات ج1	في صوت الغراب وفي صياح الجدجد	... صرينا لنشرب ذاك الصرا		من طيب أزهارها بخور
17	سقط الزند	باليم صوب الوابل الغراف	من الماذي كالأذى ، أردى	من يشتريها وهي قضاء الذيل	فوارس حرب يصبح المسك مازجا
18	سقط الزند	رغت الرعود وتلك هدة واجب		تجد قضاء مبهمة الرياح	قسمة المسك جرح الفارس الندس
19	سقط الزند	وأذنت النادب في صحاها		نوى ...، يرصخ للنواجي	هم القوم سافوا عنبرا بمعاطس
20	اللزوميات ج1		وشربت كأسا في الشبيبة سادرا		والنار أطيب من كافور ميتنا
21	اللزوميات ج1		والراح تجعل مر العيش عندهم		

إذن وانطلاقا من هذه الجداول الإحصائية التي تمثل بالضبط الصور الحسية التي كانت تتراوح بين الصورة البصرية بأنواعها والصورة السمعية و الصورة الذوقية و اللمسية وحتى الشمية، يظهر لي بعد إدراج تلك المقاطع الشعرية التي تبين المفردات المفتاحية الحاملة للصورة عموما المجموع الكلي لهذه الصور وهو ما سوف أوضحه بجدول آخر:

	مجموع الصور الحسية				
الصورة البصرية	اللمسية	السمعية	الذوقية	الشمية	المجموع الكلي
55	12	20	17	18	122

وعليه بلغ مجموع الصور البصرية بأنواعها الساكنة،والمتحركة،والملونة سواء كانت الموجودة في ديوان سقط الزند أو في اللزوميات بجزئيه، معدل (55) صورة كلها كانت تحكي عن حال الناقة أو الإبل قبل و بعد السفر،فشبهت بالعرجون،لتقوسها وبالمداري أو المشط لنحولها،حتى رقت جلودها وصار الماء الذي تشربه يرى بالعين،أو صار بإمكانها الإيلاج في ثقب إبرة لضعفها، وقد رجح المعري سببا آخر لنحافتها لا يتعلق بالسفر وحده مثلما وضحه من قبل ؛بل رآه في خوف هذه الناقة من الله واضطرابها منه حتى عادت كالقوس في اعوجاجها ،وهذا ما ظهر في أبياته الملقاة هنا وهناك هذا إضافة إلى بعض الصور التي كانت تصف سرعة الناقة وبطئها،كما وظف في هذا الإطار صورا لها علاقة بالسيف،حيث جعل الموت ساكنا في كؤوس المدام كما هو ساكن في السيوف وتارة أخرى يرى الموت وهو يمشي أو يسعى أو يهرول إلى الإنسان لقبض روحه و الدنيا و الزمان هو مثله يتقن المشي والسير والقفز،ليسقط على الإنسان بحوادثه،فيبتليه بها ويحزنه، والليالي لها نصيب من التصوير فقد ألبسها لباسا أسود يتطاير بشراره،ليحرق بثوبه المظلم كل من حوله كما عمد إلى ذكر بعض الصور الذي ميز فيها المعري الألوان،هذا إضافة إلى تلك الصور التي كان يحاكي فيها المعري الألوان ، فيظهر بياض الدرع الذي يشبهه ببياض المطر ، وشقرة الفرس الذي يشبه الشمس وحمائم الموت التي لا تبتعد عن اللون السماوي وغيرها من الصور البصرية المستعملة في أشعار المعري ، إضافة إلى ذلك بلغت الصور السمعية بمعدل (20) صورة،فيستعمل المعري فيها الصوت كبديل عن البصر خاصة إذا كان الصوت جذابا،فهو يوصي بضرورة الإحساس به، لتحديد أبعاده وحدوده وارتفاعه وانخفاضه ،لذا تراه يجد في كلام بعض الناس لؤلؤا كالفأل وحديث المرأة أو غناءها الجذاب، مما لا شك أنه يدعوا الناس لسماعه و الاهتمام به على عكس الأصوات المنفرة كصوت الكلاب التي تنبح في كل حين ومن دون سبب وهي في ذلك كحال الدنيا وتقلبها ؛ففيها الحزن وفيها السرور وفيها التشاؤم وفيها التفاؤل،كما كان لصياح الطيور نصيب حين شبه تحطم الرماح على الدرع بها و وشبه صوت تكسر نقيق الضفادع ،وشخير النائم الذي شبه به ذلك الدم الذي ينبعث من أثر الطعنة بالرمح وأنين الجريح كهدير كلب يصدره عادة من شدة البرد،كما أعطى صورا أخرى لحمار الوحش وتشبيه صوته بصوت سيف قد استل في ساحة المعركة وصوت الجياد وهي تقاتل تشبه صوت الذئاب، والغراب فلا تكاد تراه إلا وهو يصدر صوتا مميزا يتأسف به على مضي وقت الشباب والفرقة عن الخلان والأحباب، ووجد في صوت الصرصار تسبيحا لله ،وفي صرير الجنادب آذانا ينادي لإقامة

الصلاة ،أما عن الزمان فقد أظهره أيضا وهو يصيح كالضأن ،لخوفه وهلعه لما يتقدم به العمر ويوشك على الانتهاء،والليل عنده يبكي تأسفا وحزنا على زوال الظلام وإقبال النهار وغيرها من الصور التي ذكرت في هذا المجال ،أما عن الصور اللمسية ،فهي بمعدل(12) صورة كلها كانت تصب داخل قالب سلاسة أو خشونة أو ليونة أو صلابة الدرع، أما الذوقية فكانت (17) صورة تحكي عن الذوق الحلو كذوق الشهد الذي شبه به شمائل الممدوح والليالي التي قد تسقي البشر عسلا ، فتطيب حياته ويهنأ باله ويستقر حاله وإما تسقه المر، فتتعكر حياته وتسود الدنيا في وجهه ، كذلك لمحت أذواق أخرى شكل المعري بها صوره كالذوق الحار والبارد وغيرها مما كان له الدور الكبير في إبرازها في شعر أبي العلاء المعري.

أما الصورة الشمية التي رسمها المعري في أبياته قد أولى لها عناية خاصة أكبر من المبصر حتى تذوب وتنصهر فيه،فينتج أشعارا من هذا النوع مربوطة برائحة المسك والعطر كجليس الخير الذي شبهه بهذه الرائحة الزكية التي ما فتات أن زادته جمالا وحسنا، وجليس الشر الذي أعطاه رائحة مغايرة نتنة وكريهة حاله كحال الدنيا الذي لن يتبدل مهما عاش الإنسان، والزمان عنده يتبخر وتفوح رائحته عبر الأقطار كرائحة العنبر ، كما أن لرائحة الخمر نصيب في شعر أبي العلاء المعري حين شبه طيف محبوبته الجميل برائحة الخمر القوية التي تفيق النائم وغيرها من التشبيهات التي لها علاقة بالشم فقد كان لها الدور البارز في إظهار مثل هذه الصور التي تعدت(18) صورة.

ومنه بلغ مجموع جميع هذه الصور الحسية المختلفة ما يعادل (122) صورة وهي كلها موضحة في الجدول أعلاه.

الفصل الثاني

موضوعات الصورة والعوامل التي أثرت في المعري لإخراجها

القسم الأول :موضوعات الصورة

القسم الثاني :العوامل التي أثرت في المعري وساهمت في تشكيل صوره

القسم الأول : موضوعات الصورة في شعر أبي العلاء المعري

أولا– الاغتراب:

يعد مفهوم الاغتراب من أكثر المفاهيم التصاقا بالإنسان،« فهو من طبيعته، بل يمكن القول أنه دافع من دوافعه الأساسية يختلف من إنسان إلى آخر،ومن مجتمع إلى آخر،ذلك لأنه يتلون بطبيعة صاحبه و بالمجتمع و ما يحكمه من أنظمة و مؤسسات وبطبيعة العصر بما يحتويه من قيم وأعراف ومعارف » [1]،وقد استخدم بطرق مختلفة و معاني عديدة حتى أصبح يعاني من الغموض الشديد[2].

نادرا ما يتفق الباحثون على تحديد مفهومه،«فهم يذهبون مذاهب مختلفة في تعريفه فلا يستطيعون تحديد أنواعه ومصادره ونتائجه السلوكية على الأفراد و المجتمع،فيقعون في الخلط مما يزيد غموض هذا المصطلح و ضبابتيه »[3].

و بالرغم من هذا الغموض الحاصل إلا أنه سوف يسعى قدر الإمكان لتبيين معنى الاغتراب لغة واصطلاحا، ومن وجهة عربية وغير عربية ،لتبيينه و تحديد مفاهيمه ودلائله عند طوائف من العلماء .

ففي مجال اللغة ورد « لفظ الاغتراب في المعاجم العربية بمعنى العزبة عن الوطن»[4] ،فقد جاء مثلا في لسان العرب لابن منظور في مادة غرب :« غربت الشمس تغرب غروبا ومغيربانا: غابت في المغرب،والغُرْبُ:الذهاب والتنحي عن الناس، وقد غرب عنا،يغرب،غربا وغرب وأغرب وغربه

---

[1]– عمر بوقرورة : الغربة و الحنين في الشعر الجزائري الحديث ،(1945 ،1962)، منشورات جامعة باتنة ،(د، ط،د،ت) ،ص :13.

[2]– ينظر سميرة سلامي : الاغتراب في الشعر العباسي 4هـ ، دار الينابيع ،ط1 ،2000، دمشق ، ص :13.

[3]– صبار نور الدين: الاغتراب بين القيمة المعرفية و القيمة الجمالية،مجلة الموقف الأدبي ، ع355، اتحاد كتاب العرب ، 2003، دمشق . www.a wu .dam.org

[4]– صالح زامل: تحوّل المثال، دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط1 ،2003، بيروت ، ص :11.

وأغربه:أي نحاه و الغربة والغرب،النزوح عن الوطن والاغتراب، واغترب الرجل نكح في الغرائب و تزوج في غير أقاربه أغرب الرجل:جاء بشيء غريب ، و أغرب عليه و أغرب به ،صنع به صنعا قبيحا»[1].

و توجد المعاني نفسها في "مختار الصحاح" في مادة غرب تقول:« تغرب واغترب بمعني فهو غريب وغرب بضمتين والجمع الغرباء والغرباء أيضا الأباعد واغترب فلان إذا تزوج إلى غير أقاربه وفي الحديث: اغتربوا لا تضووا وتفسيره مذكور في ض و ي والتغريب النفي عن البلد واغرب جاء بشيء غريب واغرب أيضا صار غريبا، وأسود غربيب يوزن قنديل أي شديد السوار فإذا قلت: غرابيب سود كان السود يدلا من غرابيب،لأن توكيد الألوان لا يتقدم الغرب والمغرب واحد وغرب بعد، يقال أُغْرب عني أي تباعد وغربة الشمس وباهما دخلو(الغُبّ) بوزن الضرب الدلو العظيمة و(غُرب) كل شيء أيضا حده و الغارب ما بين السنام إلى العنق ومنه قولهم حلك على غاريك: أي اذهب حيث شئت» [2].

ويشير الأزهري في معجمه" تهذيب اللغة"إلى هذا المفهوم؛أي البعد عن الوطن يقال «الغرب الذهاب والتنحي ويقال أغربته وغربته إذا نحيته والغرب هو التنحي عن حد الوطن ويقال غرب الأمير فلانا إذا أنفاه إلى بلده»[3]،أما في " أساس البلاغة" للزمخشري:« غ رب كففت من غربه أي من حدته واقطع عني غرب لسانه ، وإني أخاف عليك غرب الشباب وأغرب الفرس في جريه والرجل في ضحكة إذا أكثر منه ونهي غن الاستغراب في الضحك و هو أقصاه.... »[4].

---

[1]- ابن منظور: لسان العرب، الدار المتوسطة للنشر والتوزيع ، ط1 ،2005 ، الجمهورية التونسية ، مادة غرب.

[2]- فخر الدين الرازي: مختار الصحاح، تحقيق وشرح وضبط سعيد محمود عقيل ،دار الجيل ، (د.ط) ، 2002، بيروت ، لبنان مادة (غرب).

[3]- أشرف علي الدعدور: الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة ، دار نهضة الشرق ،ط1 ، 2002 ،جامعة القاهرة ، ص: 17 ،18 .

[4]- محمود بن عمر الزمخشري : أساس البلاغة ، مادة (غرب).

« ولكن الاغتراب في نفس الوقت مقوله غير محدودة المعالم يختلف معناها باختلاف استعمالاتها،فهناك الاغتراب بالمعني الحقوقي »[1]الذي يعد من بين أنواع الاغتراب التي ظهرت بين الناس، وقد قصد به « تحويل أو نقل ملكية شيء ما ، من شخص إلى آخر أو جعل شيء ما منتميا إلى شخص آخر» [2].

و خلال عملية الانتقال التي تتم يصبح الشيء مغتربا عن مالكه الأول إذ يدخل في حيازة المالك الجديد[3].

فإذن الاغتراب بالمعنى الحقوقي يجعل الإنسان مغتربا إذا ما حصل الانتقال من مالكه الأصلي إلى مالك جديد .

كما تعني في الطب الاضطرابي العقلي الذي يجعل الإنسان غريبا عن ذاته ومجتمعه،أما في الفلسفة فتشير إلى غربة الإنسان عن جوهره»[4].

وانطلاقا من هذه الأقوال نلاحظ أن استعمالات الاغتراب تتعدد، ولذلك نجد معناه يختلف في القانون و الطب و الأدب.

أما اصطلاحا فنجد مفهوم الاغتراب يحظى باهتمام كبير من طرف طوائف من العلماء ، و قد خلصوا إلى أنه كفكرة يقوم على أساس التميز بين وجود الإنسان و جوهره وعلى أن وجود الإنسان بصورته التي نراه عليها في المجتمع لا يتفق مع جوهره أو هو من حقيقته،وإنما هو يختلف عنها بل ويتعارض معها،فما هو كائن لا يتفق مع ما ينبغي أن يكون، والإنسان المغترب (aliention) هو

---

[1]- سناء خضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة و الدين ،دار الوفاء ، ط1 ، (د، ت) ،الإسكندرية ، ص:98 .

[2]- سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي ، ص :32.

[3]- ينظر يحي العبد الله: الاغتراب، دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط1 ،2005 ، بيروت، ص :22.

[4]- سناء خضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري ، ص : 98.

الإنسان الذي لا يحس بفاعليته ولا أهميته و لا وزنه في الحياة ،و إنما يشعر بأن (aliented) العالم (الطبيعة و الحزن بل و الذات) على عكس ذلك غريب عنه [1].

من خلال هذا يمكن القول أن الإنسان المغترب يفقد قيمته ووزنه في المجتمع لذلك يحس بالغربة والانفصال و البعد:« وهذا كله ناتج عن الظروف المادية والأسباب الشخصية والعامة المؤدية إلى الغربة و المعاناة الدائمة »[2].

فمن دون شك الظروف المحيطة بالإنسان سواء كانت المادية أو المعنوية تؤثر فيه وتجعل معاناته بارزة وكذا تعمق إحساسه بشتى أنواعها .

و إذا اعتبر مفهوم الاغتراب إشكالية كبيرة واجهت الدراستين في تحديد مفاهيمه وضبط زواياه وذلك بالنظر إلى الغموض الذي كان يكتنفه فإن أشكاله و أنواعه كانت أكثر منه غموضا وتعقيدا « لأنه ليس هناك شيء يسمي بالاغتراب الشامل الذي يجمع سائر الأنواع معا ، وليس هناك شيء يسمي بالاغتراب "س" والاغتراب " و" غير أن هناك أنواعا من الاغتراب لا تعد ولا تحصى كانت موجودة ولا تزال موجودة وسوف تأتي إلى الوجود بدون شك مع استمرار المغامرة الإنسانية في السير في دروب الوجود المتعددة والمتباينة ولعل علماء الاجتماع والفلاسفة الاجتماعيين يحسنون صنعا إذا وجهوا اهتمامهم إلى هذه الأنواع ،وذلك لأنها تشتمل على العديد من أهم الإمكانات التي يمكن أن تظهر على طريق الدراما المستمرة للحياة والتجربة الإنسانية »[3].

والمعري عاني من بعض هذه الأنواع التي سوف أتعرض إليها مبينة مداها وخصوصياتها و أول نوع هو الاغتراب الزماني ؛حيث عاني سنة بعدما أشواه بحوادثه ، فهو الذي قال :

---

[1]- عزت حجازي: الشباب العربي ومشكلاته، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ،سلسلة عالم المعرفة ، 1985 ،ع 6، الكويت، ص : 72 .

[2]-عزيز السيد جاسم : الاغتراب في حياة وشعر الرضى، دار الأندلس، ط1 ،1986، بيروت ، لبنان ،ص :11.

[3]-ريتشارد شاخت : مستقبل الاغتراب مع دراسة بعنوان المشروع الفلسفي عند ريتشارد شاخت ، ترجمة وهيبة طلعت ،منشأة المعارف ،(د، ط ، د ، ت) ، ص :59 .

مد الزمان و أ شوتني حوادثه حيث مللت وذمت نفسي العمرا[1]

فقد شكا من حوادث الزمان التي جعلته يمل العيش ويتمني الموت والخلاص من هذه الدنيا التي هي كلها مصائب ومشاكل لا ينفك الإنسان أن يخرج من مشكل ومطب حتى يقع في مطب آخر، ولكن بالرغم من أن الزمن وحوادثه كانا سببا في إيذاء المعري إلا أنه لا يلقي في بعض الأحيان باللوم عليه،و إنما يلقيه على أهل هذا الزمان؛أي على البشر الذين حق على الزمان أن يشكوهم لو استطاع تكلما ، وهذا ما بينه المعري بقوله :

نبكي وتضحك والقضاء مسلط ما الدهر أضحكنا ولا أبكانا

نشكو الزمان وما أتى بجناية ولو استطاع تكلما لشكانا[2]

ألقى هنا باللوم على أهل زمانه،فكل ما لحقه من حوادث وآلام ومشقة كانت بسبب البشر،وهذا ما استدعاه إلى ذمهم ثم اعتزالهم،و الإنسان في هذا الدهر لا يستقر على حال، حيث قال :

الدهر كالشاعر المقوى ونحن به مثل الفواصل مخفوض ومرفوع[3]

وما دام أنه يلقي باللوم على الناس في المجتمع استدعاه إلى فضح فسادهم وما اتصفوا به من نفاق وجهل وذمهم،ومن بين الفئات التي ذمتها أبو العلاء المعري فئة أهل الدين، والنساك ولخطباء؛ حيث قال :

ما أجهل الأمم الذين عرفتهم و لعل سالفهم أضل و أتبر

يدعون في جمعا تهم بسفاهة لأميرهم فيكاد يبكي المنبر[4]

---

[1]- أبو العلاء المعري :سقط الزند ، ص :315.

[2]- ينظر عزيز السيد جاسم :الاغتراب في الحياة و شعر الشريف الرضى، ص :30، 31.

[3]- أبو العلاء المعري :اللزوميات ،ج2 ، ص:526.

[4]-أبو العلاء المعري :اللزوميات ،ج1، ص: 299.

نعم يكاد يبكي المنبر من ضلالات هؤلاء الخطباء الذين يخدعون الجماعات ويصورون الوضع على غير حاله.

كما هاجم المعري إضافة إلى أهل الدين الدجالين من المتصرفة، فهو يقول في هذا الشأن :

تزينوا بالتصوف عن الخداع فهل زرت الرجال أو اعتميت

وقاموا في تواجدهم فداروا كأنهم ثمـــال من مكيت[1]

فقد هاجم أبو العلاء المعري الدجالين من الناس الذين ادعوا التصوف وهم بعيدون عنه فتزينوا به لخداع الناس والوصول إلى قلوبهم و غاياتهم، فمعاشرته للناس في زمانه جعلة يتأكد من أن الناس لا يؤتمن جانبهم ، لأنهم لا يظهرون ما يخفون ، فهم منافقون حيث يقول:

والناس كالنار كانوا في نشاءتهم يستضوأ السقط منهما ثم ينتشر

والدهر كالربع لم يعلم بحالتـــه هل عند ذي من سكانها خبـــر[2]

ولم يكتف أبو العلاء بمهاجمة أهل الدين والمتصوفة،بل ذهب إلى أبعد من ذلك إلى حيث الأدب والشعراء، فعنفهم لأنهم أخلوا بوظيفة الريادة، فباعوا نفوسهم وسلكوا طريق المكر و الخداع من أجل التكسب .

حيث يقول :

بني الآداب غرتكم قديـما زخارف مثل زمزمة الذبـــاب

وما شعراؤكم إلا ذئـــاب تلصص في المدائح والسباب

أضر لمن تود من الأعادي و أسرق للمقال من الزبـــاب

أقارضكم ثناء غيـر حق كأنا منه في مجري سبـــاب

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :162.

[2]- المصدر نفسه : ص :288.

وما سم الحبـاب لديّ إلا كنظم فيل في آل الحبـــاب[1]

كما كان للنساء نصيب وافر من ذم المعري ونقد والابتعاد عنهم حيث قال :

أقل الذي تجني الغواني بتـرج يرى العين منها حليها و خضا بها

فإن أنت عاشرت الكعاب فصادها وحاول رضاها واحذرن غضابها

فكم بكرت تسقي الأمر حليلها من الغار إذا تسقى الخليل رضابها[2]

وهو يوصيها بالزواج بالرغم من أنه يكرهه لأنه يحفظها من الزلل، يقول :

ما حفظ الخريدة مثل بعل تكون به من الحرمات

يحوط ذمارها من كل خطب ويمنعها مصاعب مقرمات[3]

هذا إضافة إلى الجهل الذي ساد في عصره حتى أصبح الناس يصدقون ما ترفضه العقول.

حيث قال :

قد صدق الناس ما الألباب تبطله حتى لظنوا عجوزا تحلب القمرا

أ ناقة هو أم شاة فيمنحـــها عسا تغيث به الأضياف أو غمرا[4]

كما اشترت الغيبة في المجتمع و قد أعابها المعري في خطابه فقال :

رويدك أيها العاوي ورائي لتخبرني ، متى نطق الجماد[5]

---

[1]- المصدر السابق :ص :114 ، 115.

[2]- سميرة سلامي : الاغتراب في الشعر العباسي ، القرن الرابع الهجري ، ص :172.

[3]- عائشة عبد الرحمن : مع أبي العلاء المعري في رحلة حياته ، دار الكتاب العربي، ط1 ،1972 ،بيروت، ص: 270.

[4]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :335.

[5]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :65.

<<فقد أنكر أبو العلاء هذه الحياة من حوله، ودعا إلى إصلاح المجتمع وتغيير المنكر فيه >>[1]، وهذا ما جعله ينأى ويغترب عن المجتمع، لذا سمي بالاغتراب الاجتماعي وقد جسده ديواناه اللذان يعكسان اغترابه عن مجتمعه، فوجدت فيه نغمة التلهف والتحسر والشكوى، كما وجدنا السخرية والرفض والثورة على هذه الأوضاع،وهذا التناقض الحاصل في الحياة الاجتماعية والاقتصادية <<فإذن كان طبيعيا، وهذا حال عصر أبي العلاء، أقل" زمانه"أن نراه يعاني من اغترابه فيه ونقول فيه لأنه لم يشأ أن يرحل عنه إلى بلاد غير بلاده ، ومن ثم كانت معاناته الدائمة وعذابه المقيم ، كما جاء في قوله :

إنّ زماني برزاياه لي صيرني أمرح في قده>>[2]

و<< أيا كانت نوعية ذلك المرح المقيد ،أو القيد كان طبيعيا أن يغترب أبو العلاء وأن يحدثنا عن صور اغترابه التي هي في حقيقتها إدانة لعصره ، وكشف عما به من زيف وانحطاط >>[3].

وعلى اعتبار أن الإحصائيات التي أُجريت في هذا الموضوع لديوانيه سقط الزند و اللزوميات بجزئيه غالبا ما تتعدى الكلمة مثلما قال "عبد الكريم حسن ": <<لا تقود إلى حقائق نهائية، فالموضوع يتعدى الكلمة غاليا بشموليته وامتداده >>[4].

فإنه يتم الاكتفاء هنا ببعض الكلمات التي ذكرت في ديوانيه بشأن هذا الموضوع وترددت كثيرا منها: شر،غواة ،رياء ،حيلة ،مكر ،لؤم ،ذباب ،ذئاب، بؤس ، داء ، أدناس، أذيات ،دنايا ،ضلال، كلاب ،ظلم ،جهل ،الغي ،العاوي، مغرور ، مارد ،وغيرها من الكلمات المستعملة في كلام المعري.

---

[1]- مصطفى البشير قط : قراءات في النقد والأدب ،مكتبة الآداب ،ط1 ،2008 ،القاهرة ،ص :82.

[2]- عبد القادر زيدان : قضايا العصر في أدب أبي العلاء ، دار الوفاء ، ط1 ،2004 ، ص :187، و أبو العلاء المعري : سقط الزند ،ص :207.

[3]- المرجع نفسه : ص :187.

[4]- عبد الكريم حسن : المنهج الموضوعي ، نظرية و تطبيق ، دار شراع للدراسات و النشر و التوزيع ، ط2 ،1996 ،دمشق، ص :51.

إذن – وحسب ما يلاحظ – أنّ هذه الكلمات تعكس نظرة المعري إلى من حوله وهي نظرة كلها تشاؤم وحيرة خاصة و أنهم في نظره ما هم إلا وشاة و مكرة يميزهم الظلم والجهل واللؤم والشر والغدر.

فالمعري ولأنه وجد صورا مختلفة في مجتمعه تعكسها تصرفات الناس من حوله كالجهل والظلم والفساد والانحلال الخلقي والشرك إضافة إلى نقص الثقة والفقر اللذين سادا بدرجة كبيرة في المجتمع كل هذه التصرفات جعلت المعري يعتزل المجتمع مخافة أن تلتصق هذه السلوكات به وتجعله واحدا منهم، فهروبه واضح من خلال أشعاره ، فهو يحاول دائما أن ينعزل عنهم وأن لا يبدوا مثلهم في تعامله مع الناس وفي تصرفاته التي يحرص من دون شك على تحصينها من كل الآفات وتهذيبها إن أخطأت ، فاغترابه عن قيم مجتمعه وعاداته السائدة واضحة من خلال ديوانيه .

وقد عاش أبو العلاء المعري في عصر سادت فيه الاضطرابات والفتن وهذا الانحلال الخلقي والفساد والتحليل من المعايير والاضطرابات في الأوضاع والقيم الإنسانية، هي كلها صفات ومميزات لذلك العصر الذي عاش فيه المعري، وقد تجسد أكثر ما تجسد في الملوك و الأمراء و الوزراء والولاة وغيرهم من رجال الدولة الذين مارسوا أبشع الطرق المتمثلة في الجور و الاستغلال للرعية والظلم ، وقد عبر الشاعر عن اغترابه السياسي بأساليب مختلفة و طرق شتى و ذلك لأنه << أديب حساس وشاعر عميق التفكير وفيلسوف حر ذو نظرة نافذة ،رأى وطنه نهبا للأهواء والشهوات،ورأى البلاد العربية و قد انتهت إلى ما انتهت إليه من الضعف والاضطراب والفوضى، بديهي أن يؤثر ذلك في أدبه و أن تشيع روح السخرية في هذا الأدب وأن يقسو قسوة مرة على من يظهرون بصورة من ملائكة الرحمان بينما هم أبالسة >>[1].

فالمعري له رأي واضح في السياسة ، يظهر من جراء قوله :

و إذا الرئاسة لم تعن بسياسة عقلية خطئ الصواب السائس[2]

[1]– ابن العديم : أبو العلاء المعري، دار سعد للطباعة والنشر ،(د، ط)،1945 ، مصر ، ص :173.

[2]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص :464.

فالسياسي يجب أن يمتلك عقلا كبيرا يسير به أمور الدولة،لكي تكون سياسة صائبة و عادلة ، و لكن هذا لم يتوفر في رجال الدولة و حكام عصره، هذا ما عمق اغترابه عنهم وجعله يتأفف منهم فهو يقول :

يسوسون الأمور بغير عقل فينفذ أمرهم و يقال : ساسة

فأف من الحياة و أف مني ومن زمن رئاسته خساسة[1]

<<فالملوك أصبحوا عبيدا لشهواتهم ،أما الشعب الضعيف، فتفرض عليه الغرامات وتسلط عليه الديون من كل صوب، يقول :

وجدت الناس في هرج و مرج غواة بين معتزل و مرجى

فشان ملوكهم عزف و نزف و أصحاب الأمور حياة حرج>>[2]

وبعد هذه الحوصلة التي قدمت حول موضوع الاغتراب السياسي تراءى بعد القيام بالإحصاء استنادا إلى ديوانيه سقط الزند و اللزوميات بجزئيه بعض العبارات التي تميز وتخدم هذا الموضوع من مثل:أمير سوء ، أف من زمن رئاسته خساسة،أف من الحياة خطى الصواب السائس، فشأن ملوكهم عزف ونزف، أصحاب الأمور جباة، غواة بين معتزل و مرجى، وهي كلها تدور حول الحكم الفاسد و الأوضاع المتردية بين الناس .

فهذه الأوضاع التي عرفها الناس في هذا العصر من انحلال و فقر وغرامات جعلت المعري يفكر في الهجرة لأي بقعة أخرى تخلوا من الفساد، ولكنه لم يجد لهذا المأزق الذي تورط فيه من دون قصد ، فكل البلدان العربية تقريبا تعاني ما يعانيه المعري في بلده يقول :

كيف التخلص والبسطة لجة والجو غيم بالنوائب يسجم

فسد الزمان فلا رشاد ناجم بين الأنام و الإضلال منجم [3]

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص :466.

[2]- ابن العديم : أبو العلاء المعري ، ص :177.

[3]- المرجع نفسه: ص :174.

فقد اعتاد السفر و الترحال من بلد إلى آخر،وهذا ما جعل المعري يعنف نفسه عن كثرة أسفاره حيث قال :

أعن وخد القلاص كشفت مالا ومن عند الظلام طلب

و درا خلت أنجمه عليـــه فهلا خلتهن به ذبالا[1]

فهو ينكر عليها ما توهمته من إمكان نيل المال من عند الظلام،فليس الظلام موضعا لطلب المال ،كما نجده في قصيدته " كم بلدة فارقتها ومعاشر" كيف أنه تنقل بين البلدان والأقوام الذين اعتاد توديعهم ، يذرفون الدموع عليه ويأسفون لرحيله ،يقول :

كم بلدة فارقتـــها و معاشر يذرون من أسف علّي دموعا

و إذا أضاعتني الخطوب فلن أرى لوداد إخوان الصفـاء مضيعا

خاللت توديع الأصادق للنوى فمتـى أودع خلـي التوديـعا[2]

كما أنه في موضع آخر من سقط الزند، يتكلم عن المناطق التي مر بها للوصول إلى هدفه ، فهو يقول مثلا بأنه وفد إلى هذه البلاد أول الفجر بعد أن سار طيلة الليل في قفار لا يسكنها إلا الذئاب والبقر الوحشية ، وذلك يظهر في قوله :

وبلاد وردتها ، ذنب السر حان بين المهاة والسرحان[3]

فهذا البيت يدل على ترحاله و تنقله .

وقد كانت هناك أسباب جعلت المعري يرحل عن بلده سواء من أجل المال أو لطلب العلم أو هروبا من الوضع الذي ساد، فمهما كانت وجهات نظر المؤرخين واختلافهم حول أسباب رحيل المعري وابتعاده عن بلده إلا أننا بالتأكيد سوف نتفق في أمر ما، يتمثل في أن الحياة التي كان يعيشها

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :21.

[2]- ن رضا : شرح ديوان سقط الزند ، منشورات دار مكتبة الحياة ،(د، ط) ،1987 ، بيروت ، ص :190.

[3]- ابن العديم : أبو العلاء المعري ، ص :177.

المعري في بلده هي التي جعلته يهجر بلده وينأى عنها << فحين ثقلت عليه حياته في المعرة آثر أن يرحل إلى بغداد >>[1]، فقد ضاقت عليه بلده وذلك لسببين هما :

1-اضطراب الحياة السياسية في بلاد الشام .

2-طموح أبي العلاء الذي لا يُحد وتصميمه على أن يبرهن للمبصرين والمتربعين على عرش الحياة والعلم ،أنه ليس دونهم كفاية ومقدره هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لإرضاء نفسه و إقناعها بأن مثله لا يقعده عمي مادي .

هذا إذن عن موضوع الاغتراب المكاني الذي اكتسب طبيعته وأبعاده من واقع الشاعر المعاش وتفاعله معهما ، فبالتالي انعكس على لغة ديوانيه وعلى فضائه المعجمي .

وقد أجري الإحصاء كالمعتاد حول موضوع الغربة والاغتراب على ديواني الشاعر فوجد الآتي :

[1]- عبد الله التطاوي : القصيدة العباسية قضايا و اتجاهات، دار غريب للطباعة و النشر والتوزيع ،(د، ط ، د ، ت) ،القاهرة ، ص :344.

الكلمة	التكرار
غربة	2
اغرب ، اغربة ، اغتراب	05
غريب ، متغربوه، متغربيه	15
يتغرب ، تغرب ، مغرب	10
مغترب	01
غرباء	02
النوى ،نأت	05
الفراق، التفرق	04
تباعد ، بعيد ، بعاد ، بعد	08
غائب	02
نزح ، تزح ، نازح	03
هجرات ، هجيرا ، هجر	06
اعتزال ، اعتزل ، اعزل	06
عزل ، معزول ، تعزل معزل	15
مرتحل ، ا رتحال، يرتحل، مرتحل	02
توديع ،أودع ، التوديع	04

يبين الجدول أغلب الكلمات التي تدور في الحقل الدلالي لموضوع الاغتراب،فيظهر هنا استعمال الشاعر لفظة غربة ومشتقاتها التي تدور في فضائها المعجمي مثل:النوى،الفراق، البعد،البعاد، الاعتزال والارتحال... الخ من الكلمات التي لها نفس المعنى مع لفظة غربة، والتي استعملت في مواضيع مختلفة ومتباينة،وهو بصدد المدح،أو الوصف أو الغزل أو الرثاء ...الخ من الأغراض، وكأن تلك الكلمات تفرض نفسها على الشاعر فيفك عقالها لكي يستريح من الضغط الذي يولده له الاغتراب .

فلو أريد إحصاء لفظة (غربة) مع مشتقاتها: اغتراب، غريب مغترب، اغترب اغرب وغيرها ، لوجدناها ترددت (35) مرة في شعر المعري، ومن هنا تصبح هذه اللفظة مع من يدخل في حقلها الدلالي أكثر تكرارا بين ألفاظ المجموعة، فهي مفردة صاحبة شحنة عاطفية ، تحمل في مدلولاتها طابع الأسى وتثور الأشجان بمجرد سماعها .

إنه عندما تلقى نظرة على الكلمات التي تنتظم وفق معجم الاغتراب المكاني وانطلاقا من الجدول وبالاعتماد على الإحصاء، نجد أنّ منها ما يتخللها مد مثل اغتراب ، فراق اعتزال ، ارتحال ، نوى ، بعاد ، هجران ، وهذا المد يسمح بإخراج قدر كبير من الأحزان والآلام والآهات بما يشبه التأوه والتوجع ، أما النسبة المتبقية فنجد بعض ألفاظها على وزن اسم فاعل مثل غائب ، نازح إضافة إلى وجود بعض الألفاظ ساكنة الوسط مثل غربة أو البعد .

فهذا إذن عن موضوع الاغتراب بأنواعه عند أبي العلاء المعري ،أما فيما يخص المواضيع الأخرى التي تناولها الشاعر في ديوانيه فإنه يلاحظ وجود موضوع الزمان والموت وتأثيرهما في شعره وهذا ما أعمد إلى شرحه .

ثانيا – موضوع الزمان:

إنّ الزمان أو (الدهر) هو موضوع قديم شغل الإنسان العربي منذ القدم، وكذا لم يغفل الشعر والشعراء عن هذه المسألة فعالجوها وعبروا عنها أحسن تعبير، وهذا ما نلاحظه في قول " **زهير بن أبي سلمى** ":

بدا لي أن الناس تفنى نفوسهم وأموالهم ولا أرى الدهر فانيا[1]

فزهير هنا يقف حائرا مشغول الذهن أمام حتمية الفناء التي لا بد منها، فالإنسان مهما طال عمره، فهو بدون شك يقطع طريقه إلى الزوال والانتهاء، فكلما زاد الإنسان عمرا تقلصت فرصه في العيش والحياة، فحتمية الفناء تقابلها أبدية واستمرارية الدهر فهذه المفارقة في الحياة بين حتمية الزوال واستمرارية الزمان وبقائه جعلت زهيرا وغيره في عداء كبير مع الدهر وما يحكم به من مصائب

(1)–محمد يوسف فران: زهير ابن أبي سلمى،حيلته وشعره ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان، ط1 ،1990،ص: 140.

ومشاكل وآفات، هذا ما جعل " امرئ القيس" يعتبره غولا يخون العهود ولا يوفي بها ويلتهم الرجال فيقول:

ألم أخبرك أنّ الدهر غـول ختور العهد يلتهم الرجـالا(1)

وقد جاء القرآن الكريم بآيات محكمات توضح إحداها نظرة الإنسان العربي القديم إلى الزمان وموقفه منه بقوله:﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾(2).

« ويقول الأعشى:

لعمرك ما طول هـذا الزمـن على المرء إلا عـناءٌ معـن

يظل رجيـما لريب المنـون وللسقم في أهله والحـزن

فالآية القرآنية تنسب إلى الدهر– من وجهة النظر الجاهلية – قوة الفعل والتأثير على الإنسان وهلاله، والأعشى يشير إلى هذا المعنى نفسه، خاصة إذا عرفنا أن الجاهليين لم يفرقوا بين الدهر والزمان والمنون والمنية والحتف والآجال وما أشبه في المعنى» (3)ثمّ بعد ذلك تبلور مفهوم الزمن وأصبح واضحا فتمثّلوه«بأنّه مظهر وهمي يَخْلُق بنا فيتجسد فينا، وفي الأشياء التي تحيط بنا» (4).

ويظهر هذا من خلال ملامسته في واقعنا المعاش،«وهو بوصفه تجربة يتميز في جوهره بالتواتر والتكرار فهو ينطوي على دورات متعاقبة للأحداث،للميلاد، وللموت والانحلال،بحيث يعكس دورات الشمس والقمر والفصول والوقت المناسب لأداء الأشياء يأتي مرة تلو الأخرى على فترات منتظمة>>(5)، وكما يوجد عند الشعراء العرب القدماء يوجد عند الغربيين،حيث اهتم الكثير من

(1)– ليلى توفيق العمري :امرؤ القيس بن حجر،رحلته إلى الشرق أو إلى الغرب، دار غيداء للنشر والتوزيع ،ط1 ،2009 ،ص: 150.

(2)– سورة الجاثية /الآية 24.

(3)– عبد القادر عبد الحميد زيدان: التمرد و الغربة في الشعر الجاهلي،دار الوفاء، ط1، 2003،ص:186.

(4)– عبد المالك مرتاض:الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور، دار هومة ،(د،ط)، 2005، ص:182.

(5)– مجموعة من المفكرين المتخصصين: فكرة الزمان عبر التاريخ، ترجمة: فؤاد كامل، مراجعة شوقي جلال، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة عالم المعرفة، يناير1978، ع 159 ،الكويت،ص: 12.

الشعراء والفلاسفة الغربيين بموضوع الزمن والزمان، فنجد مثلا أرسطو<<الذي حاول أن يربط الزمان بالحركة والمتناهي واللامتناهي و بالخلاء و العلل ...الخ>>[1].

كما يمثل الزمن عند (برجسون) تجربة نوعية لا كمية حين يكون زمنا مسقطا على المكان أو المسافة، لا بد أن يستعاد لا متقطعا على أنه لحظات عاشها المرء، وإنما لا بد من بعث الروابط التي تصل بين تلك اللحظات[2].

هذا عن مفهوم الزمان عند الفلاسفة والشعراء الغربيين والعرب منذ العصر الجاهلي إلى غاية العصر العباسي، العصر الذي سوف نحاول اكتشافه من خلال شعر أبي العلاء المعري كنموذج.

وموضوع الزمان هو كغيره من المواضيع الأخرى قد أخذ قسطا وافرا من الاهتمام والمعالجة لدى شاعرنا أبو العلاء المعري، وهذا ما يستشف في أشعاره المتناثرة هنا وهناك.

نزول كما زال أباؤنا ويبقى الزمان على ما ترى

نهار يمر وليل يكـر ونجم يغور ونجم يرى[3]

« فأبو العلاء يحدثنا عن الزمان، فيذكر لنا زمانين: أحدهما زمان أبدي سرمدي والآخر زماننا؛ أي عمرنا، وأيضا عمر النجوم والكواكب والنهار والليل وكل مظاهر الطبيعة، هذا الزمان الأخير يبدأ وينتهي في حركة دائرة مستمرة هو الآخر، في داخل الزمان السرمدي الأول » [4] .

ويقول الشاعر في لزومياته:

أعجب بدهرك أولاه وآخـره إنّ الزمان قديم سنه حـدث[5].

(1)- عبـد الـرزاق قسـوم: مفهـوم الزمـان في فلسـفة ابـن رشـد، المؤسسـة الوطنيـة للكتـاب، 3 شـارع زيغـود يوسـف، 1986، الجزائر،ص: 52.

(2)- ينظر: إحسان عباس:اتجاهات الشعر العربي المعاصر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، 1988، عدد 2، الكويت ، ص:68.

(3)- طه حسين: المجموعة الكاملة أبو العلاء المعري، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، ط2، 1983، ص :270.

(4)- عبد القادر زيدان: قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري، ص: 171.

(5)-أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 166.

فالزمان على حد قول المعري قديم قدم الإنسان،ظهر ومنذ الأزل بظهور الإنسان والحياة،فهو يتعجب من هذا الدهر منذ بدايته إلى نهايته،وقد توالت الأيام فيه وتعاقبت من صبح وإمساء ،وهذا ما لاحظه المعري وعبر عنه بقوله:

يأتي على الخلق إصباح وإمساء وكلنا لصروف الدهر نُسَّاء

إلى أن يقول:

خسست يا أُمّنا الدنيا فأف لنا بنو الخسيسة أوباش أخسَّاء[1]

والدهر عند المعري ليس سوى ثلاثة أيام متمثلة في الماضي والحاضر والمستقبل؛ فهو يقول:

ثلاثة أيام هي الدهر كله وما هن غير الأمس واليوم والغد[2]

« وقد نسب العرب إليه كل غدر وعاهة ومصيبة تلم بالإنسان كما أنهم لا يبرحون يعاتبونه ويبثون شكواهم من أقداره المستبدة الظالمة » [3].

والحياة عنده كلها تعب ومشقة، وهذا ما يظهر في قول الشاعر يتعجب من الذين يريدونها باستمرار ويطلبون العيش فيها ويتمنون البقاء فيها إلى آخر العمر رغم كل ما فيها من مكر وخداع وزيغ وغش ومتاع وغيرها من الصفات والخصائص التي تميز الحياة الدنيا عن غيرها من الحياة،فهو يقول:

تعب كلها الحياة، فما أعجـ ب إلّا من راغب في ازدياد [4]

فهو يرى أنّ ما يظنه الناس نعمة وخير إنما هو نقمة وشر تقذفنا به الدنيا،وليس في الحياة شيء من خير، وإنما هي كلها مصائب وعيشها شقاء وآلام.

يقول:

(1)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص: 39.

(2)- أبو العلاء المعري:سقط الزند، ص :75.

(3)- إيليا الحاوي: في النقد والأدب، مقدمات جماعية عامة مقطوعات من العصر الإسلامي والأموي، دار الكتاب اللبناني ، ط5، ج2، بيروت ، ص: 37.

(4)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص:197.

إنما هـذه الحيـاة عنـاء فليخبرك عن أذاها الـ عيان[1]

ويقول:

فما وجدنا فيهـا غير الشقاء وقد بلونا العيش أطوار[2]

ويذهب المعري بعيدا عن هذا فيرى أنّ الشقاء يسيطر على كل نواحي الحياة ويسدّ ثغراتها وهو يعبر عن هذه الحسرة .

فيقول:

لا أزعم الصفو مازحا كـدرا بل مزمعي أنّ كلّه كـدر[3]

ففي هذا البيت يؤكد المعري خلو الدنيا من كل خير وصفو ونعيم والشقاء فيها دائم وأكيد، والمصائب لا تنفك أن تطارد بني البشر بسمومها وويلاتها لذلك يطلب عدم المزيد من الحياة الدنيا وذلك بقوله:

فلا تطلب الدنيا وإن كنت ناشئا فإنّـي عنها، بالأخلاء،أُربأ

وما نوب الأيـام إلا كتائـب تبت سرايا أو جيوش تُعبّـأ[4]

ومن خلال تتبع ديواني وأشعار المعري يظهر وهو يتكلم تارة عن الزمن وتارة عن الدهر، بقوله:

مضى زمن و العزّ بان رواقه عليه ،وسيف الدهر عنه كهام

وما الدهر إلا دولة ثم صولة وما العيش إلا صحة وسقام[5]

وتارة أخرى نجده يحكي عن الأيام وتعاقب الليل والنهار في الدهر،وهذا ما يظهر جليا في قوله:

نهار وليل عوقبا أنا فيهمـا كأني بخيطي باطـل أتشبّـث

(1)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2 ، ص: 782.

(2)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص : 370.

(3)- المصدر نفسه:ص :324 .

(4)- المصدر نفسه: ص :38 .

(5)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص :120.

أظن زماني كونه وفساده وليدا بترب الأرض يلهو ويعبث[1]

ومازال يتحدث عن الليل وكيف يرجو أن يطول شبابه؛ أي يدوم ويستمر ولكنه من شدة هول ما في هذه البلاد شاب قبل وقت المشيب ؛فيقول:

رجا الليل فيها أن يدوم شبابه فلما رآها شاب قبل احتلامه[2]

كما أصبح خياله يتمنى استدامة الظلام لفرط شغفه به؛لأن الخيال لا يظهر عادة إلا في الظلام،وبالإضافة إلى ظلام الليل يتمنى الخيال زيادة سواء القلب والبصر؛ لأن القلب الحزين هو الذي يستدعي طيف حبيبه عادة هذا ما يظهر في قوله:

يود أن ظلام الليل دام له وزيد فيه سواد القلب والبصر[3]

ولكنه في أبيات أخرى يصف كيف أن الممدوح يبيت يقضانا في الليالي المظلمة في معارك دائمة تكاثرت فيها الأهوال حتى هاب الليل منها فدعا خالقه أن يعيد عليه ضوء الصباح،لينجو مما هو فيه من الأهوال،بقوله:

يبيت مُمَهَّدًا والليل يدعو بضوء الصبح خالقه ابتهالا[4]

فواقع الليل يعكس آلام المغترب النفسية ويحكي جانبا من معاناته الإنسانية [5]،ففي هذا البيت ضرب من ضروب البلاغة حيث تلمح استعارة الشاعر لصفة الدّعاء من الإنسان والتصاقها باللّيل الذي يدل على الزمن، «وله مدلولات كثيرة تختلف من شاعر لآخر اختلافا ينبع من الحالة النفسية التي هو عليها وبالتالي يحمل الليل باستمرار رموز متنوعة مختلفة » [6].

(1)- أبو العلاء المعري:اللزوميات، ج1، ص :166.

(2)- أبو العلاء المعري:سقط الزند،ص: 103.

(3)- المصدر نفسه :ص : 36 .

(4)- المصدر نفسه:ص :27.

(5)- ينظر مي يوسف خليف: ظاهرة الاغتراب عند شعراء المعلقات، دار الثقافة للنشر والتوزيع ،(د،ط،د،ت)،ص: 24.

(6)- عبد القادر عبد الحميد زيدان: التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، ص:172.

إذن بعد هذه الرحلة مع أبي العلاء المعري في غربته الزمانية يظهر جليا كيف أن المعري لم يلق باللوم على الزمن أو الدهر بقدر ما ألقى اللوم على أهل زمانه،ويرجع ذلك إلى النظرة الوجودية والعقلية والتي لا تلقي بالاتهام على الزمن،وإنما على البشر الذين حق على الزمان أن يشكوهم لو استطاع تكلما، وهذا ما يبينه المعري ،بقوله:

نبكي ونضحك والقضاء مسلط ما الدهر أضحكنا ولا أبكانا

نشكو الزمان وما أتى بجنايـة ولو استطاع تكلما لشكانا[1]

فقد ألقى هنا اللوم على أهل زمانه،فكلما لحقه من حوادث وآلام ومشقة كانت بسبب البشر،فهم المسؤولون عنها،لذلك حاول الاعتزال عن أهل زمانه،وهذا ما يتبدى في قوله:

ولا أعاشر أهل العصر إنهـم إن عوشروا بين محبوب وممقوت[2]

ويقول أيضا مفضلا الخمول والاعتزال:

و أصبح واحد الرجلين إمـا مليكا في المعاشر أو أبيـلا

ولو جرت النباهة في طريق الـ خمول إلّي لاخترت الخمـولا[3]

فقد وجد في العزلة والوحدة التي فرضها على نفسه الراحة العظمى المرجوة لمثله في دنياه، والطهارة من دنس العصر ولؤم أهله:

هـذا زمـــان ليس لأهلـــه إلا لأن تهجـــره أهـــــل

حان رحيل النفس عن عـالـــم ما هو إلا الغـــدر والجهـــل

في الوحدة الراحة العظمى فأخي بها قلبا وفي الكون بين الناس إثقال

ويقول في موضع آخر:

(1)- ينظر: عزيز السيد جاسم:الاغتراب في الحياة والشعر الشريف الرضى، ص:30 ،31.

(2)- أبو العلاء المعري:اللزوميات،ج1، ص :152.

(3)- أشرف علي دعدور:الغربة في الشعر الأندلسي، ص: 47.

طهارة نفسي في التباعد عنكم وقربكم يجني همومي و إدناسي[1]

هذا البيت دليل على أنّ المعري،قد وجد في أهل زمانه كل الصفات و السلوكات القبيحة والمستهجنة التي جعلته يتأكد من أنّ مخالطته إياهم وعدم البعد عنهم يدنّسه مثلهم ويجعله يكتسب ما فيهم من عيوب وصفات،لذلك وجد في البعد والنوى والوحدة والاعتزال عن هذا الزمان وأهله حلا لائقا،خاصة وأنه يرى نفسه بعيدا كل البعد عنهم في صفاته وسلوكاته،فنجده يحس بمكانته ويبالغ في الاعتزاز بنفسه ويتعمق في فهم واقعه النفسي، فيظهر في قصيدته (ألا في سبيل المجد) بأنه رجل حازم تدفعه الجرأة إلى تسجيل التفرد لنفسه في زمانه وما قبل زمانه، فيظهر شجاع يتفوق على الآخرين من فصل القول ورفعة الشأن في وقت ساد فيه الجهل والذل والهوان والظلم؛فهو يقول:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام، وحزم، ونائل !

أعندي، وقد مارست كُلَّ خفية يُصدّق واشٍ أو يُخيَّب سائل ؟

أقل صدودي أنني لك مبغض؛ وأيسر هجري أنّني عنك راحل

إذا هبت النكباء، بيني وبينكم؛ فأهون شيء ما تقول العواذل

تعد ذنوبي، عند قوم كثيرة ولا ذنب لي، إلا العلى والفضائل

.....

وإني، وإن كنت الأخير زمانه، لأن بما لا تستطعه الأوائل

وأغدوا ولو أن الصباح صوارم؛ وأُسري، ولو أن الظلام جحافل

وإني جواد لم يُحَلَّ لجامه، ونصل يمان أغفلته الصياقل

ولي منطق لم يرضى لي كنه منزلي على أنني بين السماكين نازل[2]

ولما رأيت الجهل، في الناس فاشيا؛ تجاهلت، حتى ظُنَّ أني جاهل

(1)- عائشة عبد الرحمن : مع أبي العلاء في رحلة حياته،ص:198، 199.

(2)- طه حسين: أبو العلاء المعري حياته وشعره، دار النفس للنشر (د، ط، د، ت)، ص: 95.

فواعجبا؟كم يدعي الفضل ناقص، ووا أسفا !كم يظهر النقص فاضل

إلى آخر الأبيات، فالقصيدة طويلة « وهي تطرح خلاصة رؤية وفلسفة حياة من خلال ما امتلأت به نفس صاحبها من إحساس بتضخم كيانه، أسهم في زيادته لديه تلك الغربة التي فرضها على نفسه بعيدا عن مجتمعه، وكأنّه لا يريد أن يأبه به بعد أن عجز عن فهم حقيقة مكانته كما فهمها هو نفسه »[1].

في خضم الشاعر و علاقته بموضوع الزمان، أجريت إحصاء لكلمة الزمان وتواترها في ديوانيه اللزوميات بجزئيه وسقط الزند،إضافة إلى ما يدور في حقلها الدلالي من ألفاظ سواء باعتبار الاشتقاق أو الترادف أو القرابة المعنوية، فوجدت تكرارا لبعض المترادفات التي لها علاقة بالزمان .

و التكرار له دوافع تبرره لما له من « دلالات فنية ونفسية يدل على الاهتمام بموضوع ما يشغل البال سلبا أم إيجابا، خيرا أم شرا، ويستحوذ هذا الاهتمام على حواس الإنسان وملكاته » [2]، ولمعرفة ذلك وإثباته علميا سنتأمل الجدول التالي الذي يوضح العناصر المكررة في هذا الموضوع ؛ أي الشاعر في مواجهة أحداث الزمان.

الكلمة	التكرار
الزمان + الزمن	211
الدهر	262
الدنيا	185
الحياة	122
الدجى + الليالي + الليل	197
الأيام	110
الشهور	05
الخطوب	34

يمثل هذا الجدول قائمة لبعض الكلمات التي تدور في نطاق مقولة واحدة والذي يبدو منه أن كلمة (دهر) هي الأكثر تواترا بين المجموعة المختارة ، وقد تكمن علة ذلك في كون « لفظ الدهر من

(1)- عبد الله التطاوي: القصيدة العباسية قضايا واتجاهات،ص:349.

(2)- عبد الحميد جيدة: الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة نوفل ، ط1، 1980 ، بيروت،ص:67.

أكثر الألفاظ دورانا في كلام الجماعة العربية » [1]،أو ربما لأنها تحمل شحنة عاطفية ووقع خاص لا يتوفر في غيره.

ويتوسع حيز هذا الموضوع أكثر عندما تضاف إلى الكلمة السابقة لفظتا الزمان والزمن وهما اسم للقليل أو الكثير من الوقت فلفظة الّزمان يتخللها المد الذي يسمح بانسياب آلام المعري معه عند ما يتذكره لذلك تكرر (184) مرة في حين لم يتكرر لفظ الزمن سوى (27) مرة فضلا عن كلمتين أخريتين قامتا_ تقريبا_ مقام الدهر والزمان وهما الليالي والتي تكررت (86) مرة، والليل والذي تكرر (73) مرة، والدجى والذي تكرر (38) مرة، والأيام تكررت (110) مرة، والشهور تكررت (5) مرات فقط، فهذه الألفاظ أقل اطرادا إذا ما قارناها بالدهر والزمن، وذلك راجع ربما للأثر الوجداني الذي يخلفونه كما قد تصادفنا بعض الكلمات التي تنم عن كثافة الأحداث المؤلمة مثل خطوب، رزايا، صروف...

ثالثا–الموت:

« يعتبر الموت موضوعا بالغ الصعوبة، وترجع الصعوبة إلى عوامل كثيرة: فالموت من ناحية، موضوع ينطوي على كثير من المفارقات والمتناقضات وهو من ناحية ثانية موضوع كريه مزعج لا يشجع على التفكير أو الحديث ؛أما أنه ينطوي على كثير من المفارقات فهذا واضح من مجرد النظرة العابرة إلى طبيعته: فطبيعة الموت هي الكلية المطلقة فجميع البشر فانون ولا محالة » [2]،فكل من هو علىالأرض سوف يذوق طعم الموت وهذا ما يبيّنه اللّه تعالى في الآية الكريمة: إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثم إلينا ترجعون﴾[3].

ومن الطبيعة المتناقضة للموت أيضا مثلما أقر الكاتب في كتاب (الموت في الفكر العربي) أنه يجمع بين اليقين وعدم اليقين، فأنا أعرف بالضرورة أنني سأموت، لكني لا أعرف مطلقا متى سيكون

(1)–كريم زكي حسام الدين: الزمان الدلالي، دراسة لغوية لمفهوم الزمن وألفاظه، في الثقافة العربية، دار غريب ، ط2، (د،ت)، القاهرة، ص:120.

(2)– جاك شورون: الموت في الفكر العربي، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة إمام عبد الفتاح، سلسلة عالم المعرفة، يناير 1978، ع 76، ص: 9.

(3)– سورة العنكبوت/الآية 57.

ذلك كما قال (بسكال) بحق:«أن كل ما أعرفه هو أنه لا بد لي أن أموت عما قريب،ولكنني لا أجهل شيئا قدر ما أجهل هذا الموت الذي ليس لي عليه يدان،فأنا على يقين من شيء واحد فحسب هو أنه إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، أما متى يجيء الأجل فعلمه عند الله، ومن طبيعة الموت أيضا أنّه الحد النهائي الذي يتحدى القيم ويكذب شتى مزاعم الإنسان، ويقول أبيقور:" ليس للموت وجود بالقياس إلينا لأنه طالما كنا أحياء فليس ثمة موت، وبمجرد ما يوجد الموت فإننا لن نكون أحياء "» [1].

ولا يكفي قول أن الإنسان هو الموجود الوحيد الذي يموت بمعنى الكلمة؛وإنما ينبغي أن نقول أيضا أنه الموجود الوحيد الذي يملك يقينا مزعجا عن حقيقة الموت،وكما قال الفيلسوف الرواقي سفيكا:«إذا أردت ألا تخشى الموت فإن عليك ألا تكف لحظة عن التفكير فيه، وغريزة الخوف من الموت متأصلة في الإنسان من طفولته حتى تسلّمه إلى القبر، وكثيرا ما تتصادم هذه الغريزة مع الغرائز الأخرى كالغضب وحب الابتكار والاستطلاع »[2]فمثلما وجدت الحياة وجد الموت فكلٌّ منّا خلق ولكن لا يوجد واحد من بيننا سوف يخلد فكلّنا فانون والى القبور لاحقون .

« فالموت إذن حادث من نوع مختلف تماما، إنه حادث عنيف يكسر إيقاع الحياة الرتيب نسبيا وليس هذا فقط بل إنه يوقف دورتها ويجعلها تقف جامدة عند تاريخ يستحيل أن تتحرك بعده.

فإذا كانت في الحياة الدنيا للإنسان حوادث مهمة، فإن الموت آخرها وأهمها ومنهيها، ليس قبله حادث أهم وليس بعده حركة منظورة ولا توقعات قريبة ولا آمال عريضة، ليس ثمة بعده أعمال تكتسب ولا ذنوب ترتكب، وكل ذلك علمه عند ربي >>[3]؛حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وما أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[4].

(1)- جاك شورون:الموت في الفكر العربي، ص :09.

(2)- سناء خضر:النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة و الدين ، ص:250.

(3)-أحمد محمد عبد الخالق: قلق الموت، المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب،سلسلة عالم المعرفة، 1998،ع 111 ، الكويت، ص: 16.

(4)-سورة الإسراء /الآية 35.

فمشكلة الموت إذن مصدر قلق للبشرية على اختلاف العصور وبالمقابل له نجد الخلود كحلم يراودها عبر التاريخ إلا أن هذا الحلم بالبقاء والخلود يبدده الواقع باستمرار لأن كل خطوة يتقدمها الإنسان في عمره هي في الحقيقة خطوة نحو النهاية وهذا ما يتبين في قول حاتم الطائي بقوله:

يسعى الفتى، وحمام الموت يدركه وكل يوم يُدنّي للفتى الأجـل[1]

فكل يوم يزيد في عمر الإنسان ينقص من إمكانية عيشه ويقرب إليه ساعة النهاية والفناء، فكلما اكتسب الإنسان سنين معاشه خسر مثلها، فيصبح هنا المكسب قرين الخسارة، لأن الارتقاء في العمر هو قرب من الأجل ودنو منه وهذا ما يظهر لنا في حقيقة الأمر في حياتنا ومن خلال الواقع المعاش، وهي حقيقة أكيدة ومسلم بها عند الخاص والعام فلا تحتاج إلى دليل بحكم المعايشة لها في هذه الحياة.

وقد أكدها الكثير من الشعراء من بينهم زهير بن أبي سلمى بقوله:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبلـه ولكنني عن علم ما في غد عَمٍ » [2]

ويقول:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنـه وإن يرق أسباب السماء يسلـم[3]

فالموت حق على الجميع لا يسلم منه أحد، فهو نهاية لحياة علمنا طرفا منها ولكننا نجهل الطرف الآخر المتعلق بالحياة الأخرى، فالإنسان يعلم ماضيه الذي مّر به وحاضره المعاش، ولكنه يجهل مستقبله لأنه في علم الغيب.

فإذن هذه مختلف الرؤى حول حتمية الموت لزهير وحاتم الطائي ومختلف الغربيين الذين تم الاستدلال بهم لإثراء هذا الموضوع الشيق، فما هي حقيقة الموت عند أبي العلاء المعري ؟وكيف تجّسدت عنده ؟ وما موقفه منها ؟.

(1)-حاتم الطائي: الديوان ،شرحه وقدم له محمد رشاد ،دار الكتب العلمية ،ط1 ،1986 ،بيروت ،ص :93.

(2)- زهير ابن أبي سلمى: الديوان، ص:110.

(3)- عبد القادر عبد الحميد زيدان: التمرد و الغربة في الشعر الجاهلي، ص:7 14.

لقد تم التطرق فيما سبق إلى أن أبا العلاء المعري قد سئم من الحياة ومل العيش فيها لما لها من آثام وشرور فهي نقمة على الإنسان ودار بلاء، كل شيء فيها جعل المعري يمقت منها ومن ناسها وهذا ما جعله يريد ويفضل الموت، احتقارا أو كرها لها_للدنيا_ فقد تمثلها غولا بعكس الآخرين الذين تمثلوها عروسا ، بقوله:

ظن الحياة عروسا خلقها حسن وإنما هي غول خلقها شرس[1]

ولكن هناك صراع يعيشه المعري بين حب الدنيا ومقتها، بين الفزع من الموت والترحيب به، فالموت هو الحقيقة التي لم يشك فيها بعد إيمانه ورغم ذلك فهو يخافه بل ويستغيث منه فيقول:

أنبانا اللب بلقيا الردى فالغوث من صحة ذاك النبأ[2]

وهناك من يرجع سبب خوف المعري من الموت إلى جهله وخوفه مما وراء الموت.

والشيء الملاحظ أن المعري كان يكره حقيقة الموت في القديم ربما لأنه لم يتوصل إلى كره الحياة وذم العيش فيها،فقد كان لازال في شبابه مفعم بالحركة والحماس متفاعلا تواقا إلى العيش أكبر قدر لكي يحصل فيها أعلى المراتب وأسماها من علم ووجاهة إذ لم تضنه الحياة وتتعبه بمشاكلها ومصائبها، فلم يتوصل بذلك إلى الشقاء الذي بات يتكبده والمعاناة التي كان يتجرع مرارتها كل يوم وليلة مثلما وصل إليه في شيخوخته فيقول:

قديما كرهت الموت والله شاهد وقد عشت حتى اسمحت لي قرونتي

وأحسبه لو جاءني لأبيته و من عند ربي نصرتي ومعونتي

إذا أنا واراني التراب ، فخلني وما أنا فيه قدُ كفيت مؤنتي[3]

ثم لا تلبث أن تجد المعري مشتاقا إلى الموت لأنه سئم الحياة وملها،فبات مؤمنا به تواقا لملاقاته،وقد تمناه بعد الخمسين من عمره، فيقول:

(1)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 457.

(2)-سناء خضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري، ص:251.

(3)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 149، 150.

إذا كنتُ قد جاوزت خمسين حجة ولم ألق خيرا فالمنية لي ستُر

وما أتوقى والخطوبُ كثيرةٌ من اللّهر إلا أن يحلّ بي الهتُر[1]

فهو بذلك بعد هذا السن يدعوا ربه بأن يرحله لأنه أطال البقاء في هذه الدنيا يقول:

رب متى أرحل عن هذه الـ دنيا فإني قد أطلت المقام

ويقول:

يا رب أخرجني الى دار الرضى عجلا فهذا عالم منكوس[2]

فهو هنا يطلب من الله أن يعجل في رحيله من دار الدنيا إلى دار الآخرة ،فإذن هو يتمنى الموت، ويرى أنه هو الراحة من عناء الحياة حيث قال:

ما بعد ذين سوى الحِمام، وإنني لأخال أن الهجر في طويل.

وفضيلة النوم الخروج بأهله من عالم هو بالأذى مجبول[3]

وقال:

ما أوسع الموت يستريح به الجسم المعنّى ويخنث اللّجب [4]

ويقول:

إنْ يقرب الموت مني فلست أكره، قربه

من يلقه لا يراقب خطبا ولا يخشه كربه[5]

ويقول في موضع آخر:

---

(1)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ،ص :280.

(2)- سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري ،ص:213.

(3)- عمر الفروخ:حكيم المعرة، دار لبنان، بيروت، لبنان، (د، ط، د، ت) ، ص: 3.

(4)- عزيز السيد جاسم:الاغتراب في حياة و شعر الشريف الرضى، ص :40.

(5)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 96.

ضجعة الموت رقدة يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهاد[1]

ويقول:

لولم تكن طرق هذا الموت موحشة مخشية لاعتراها القوم أفواجا

و كان من ألقت الدنيا عليه أذى يؤمها تاركا للعيش أمواجا

كأس المنية أولى بي وأروح لي من أن أكابد إثراء وإحواجا[2]

فالشاعر يتكلم في هذه الأبيات الأخيرة عن الموت وطرق الوصول إليها فلولا الصعوبة والمشقة في الوصول إليها-بحسب رأيه- لذهب إليها كل الأقوام للخلاص من هذه الدنيا،كما أكد على أحقية الموت بالنسبة له للاستراحة من هذه الحياة التي أتعبته وأرّقته من دون شك.

وهو يقول في هذا المعنى أيضا:

يدل على فضل الممات وكونه إراحة جسم أن مسلكه صعب[3]

وقد فضل أبو العلاء المعري الموت على الحياة لأسباب عديدة منها: إحساسه بخواء الحياة وعبثيتها، وانعدام المنطق والخير فيها،جعله يرى أنه لا سند يرتكن إليه الإنسان سوى الموت، بل إن الموت هو الأمل والمرتجى لأنه المخلص من العذاب، إضافة إلى أن الموت هو الحقيقة الوحيدة والمؤكدة في حياة الإنسان المليئة بالمعاناة [4].

فهي فرض على الإنسان سوف يصل إليها ويذوق منها لا محالة وهذا ما يؤكده قول الشاعر:

تباركت إن الموت فرض على الفتى ولو أنه بعض النجوم التي تسري

ورب امرئ كالنسر في العز والعلا هوى بسنان مثل قادمة النسر [5]

(1)- حنا الفاخوري: منتخبات الأدب العربي، منشورات المكتبة البوليسية ، ط5 ،1970 ، بيروت، ص: 360 .

(2)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 177.

(3)- طه حسين: مع أبي العلاء في سجنه، دار المعارف، ط10، (د، ت)، مصر، ص :91.

(4)- ينظر سناء خضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري، ص: 252.

(5)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 351.

والشيء الذي يهون على الإنسان ويجعله يتقبل حقيقة الموت هو أنه عابر سبيل في هذه الدنيا ولا محالة هو زائل وراحل منها إلى حياة أخرى حتى وإن كان بدون رضاه فإنه ونتيجة القهر الذي يركبه من هذه الدنيا يهون عليه الأمر ويتقبله بقوله:

وهّون ما نلقى من البؤس أننا بنو سفر أو عابرون على جسر

وما يترك الإنسان دنيا راضيا بعز ولكن مستضاما على قسر [1]

ويقول أيضا في هذا المجال مبينا حتمية الموت على الإنسان بدون اختبار بعد أن تمعن في الحقائق جميعا ووجد أن حقيقة الموت أكيدة ومحتمة على الإنسان وهي واقعة لا محالة، ومن دون شك، فلذلك تساءل عن البلاد التي تحوي قبره.

بقوله:

سألت عن الحقائق كل يوم فما ألفيت إلّا حرف جحد

سوى أني أزول بغير شك ففي أيّ البلاد يكون لحدي[2]

فالحياة علة دواؤها الموت وهذا ما يظهر في قوله :

وما العيش إلا علة برؤها الردى فخلّى سبيلي أنصرف لطياتي[3].

ولأنّ الموت إزالة من هذه الحياة فهو عيد بالنسبة له، ويمثل له رمز للسعادة والفرح،وهذا ما يظهر في قوله [4]:

أنا صائم طول الحياة و إنما فطري الحمام و يوم ذاك أعيد[5]

(1)-أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1 ، ص: 351.

(2)- المصدر نفسه : ص :257.

(3)- سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص :213 .

(4)- عائشة عبد الرحمن : مع أبي العلاء في رحلة حياته، ص: 201.

(5)- يوسف فرحات:كتاب الموسوعة الفلسفة الإسلامية وأعلامها، دار النفائس،ط1، 1986، ص : 41.

ولكن أية راحة وأية سعادة يتحدث عنها أبو العلاء المعري ؟ هل رأى فيه النهاية والفناء لحياته في الدنيا، ومن ثمة الخلاص من الشقاء ؟

أم أنه بداية لحياة أخرى ملؤها النعيم والسعادة خالية من الشرور والآثام ؟ وهذا ما يتبين في أشعار أبي العلاء.

حيث يقول:

وقد بلونا العيش أطواره فما وجدنا فيه غير الشقاء

تقدّم الناس فيا شوقنا إلى إتّباع الأهل والأصدقاء

ما أطيب الموت لشرا به إن صحّ للأموات وشك التقاء[1]

فهو يشتاق إلى الأهل والأصدقاء الذين ارتحلوا عنه ويشتهي الموت ويراه عذبا طيبا في حالة واحدة هي حالة اللقاء بهم.

لقد كره أبو العلاء ما حوله من عالم وضاق به، ورأى أن الحياة كما يفهمها هؤلاء لا تساوي شيئا فنزع إلى حياة أخرى، يستطيع فيها الاندماج مع البشر على أساس من النقاء والصفاء والمحبة والطهر ولم يجد هذا ممكنا إلا في الحياة الآخرة، حياة الخلود التي يجتمع فيها الأطهار الصالحون ويتضح هذا في قوله:

إن كان نقلي عن الدنيا يكون لي خير وأرحب فانقلني على عجل

وإن علمت مالي عند آخرتي شرا وأضيق فاسأ ربّ في الأجل[2]

فهو هنا يتمنى الموت بعجل إذا كان مصيره الجنة؛حيث يمكن خلاصه فيها من الاغتراب والانفصال والشقاء، أما إذا كان مصيره جهنم فهو يرجوا التأجيل والتأخير، ولذلك قال مشتاقا للدار الآخرة:

متى أنا للدار المريحة ظاعن فقد طال في دار العناء مقامي

(1)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 53 .

(2)- سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص :213 ، 214.

وقد ذقها ما بين شهد وعلقم وجّربتها من صحة وسقام[1]

« وقد ارتبط تفضيله للموت بالتشاؤم، وتشاؤمه يرجع إلى اعتقاده أن الشر في الوجود غالب على الخير، وأن طبيعة الإنسان مبنية على الفساد، والحياة تنطوي على تناقض مفجع، وهو ما يمكن أن نسميه بمسألة الوجود، وفي نهاية حياة الإنسان القصيرة والمليئة بالآلام لا يجد إلا شيء واحد هو الموت والعدم»[2].

وهذا ما يستشف في أقواله:

إذا غدوت ببطن الأرض مضطجعا فثم أفقد أوصابي وأمراضي [3]

وعلى ما يبدوا إذا ما تتبعنا أشعار المعري وجدنا بأن فقدانه لأهله وأخلّائه إلى الأبد بين الفينة والأخرى كان عاملا حاسما ساعد في تعميق اغترابه وتضخيم شعوره بالوحدة والضياع.

ومن بين الذين تأثر بموتهم وفجع بهذه الكارثة التي حلت وحدثت له وهو في ديار الغربة موت أمه وهو ببغداد، فقد قال فيها:

سمعت نعيها !صمى صمام وإن قال العواذل لا همام

وأمتّني إلى الأجداث أم يعز علّي أن سارت أمامي

و أكبر أن يرثيها لساني بلفظ سالك مجرى الطعام

كأن نواجدي ُدِيت بصخر و لم يمرر بهن سوى كلام

مضت و قد اكتهلتُ فخلت أنّي رضيع ما بلغت مدى العظام [4]

فموت أمه صم أذنه عن السمع من شدة الصدمة فعز عليه أن يفقدها وهو الذي مازال يحتاج إليها برغم كبره،إلا أنه مازال كالرضيع الذي فطم.

(1)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص :743.

(2)- سناء خضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري، ص: 252.

(3)- عزيز السيد جاسم: الاغتراب في حياة الشعر الشريف الرضى، ص :40.

(4)- عائشة عبد الرحمن: مع أبي العلاء في رحلة حياته، ص :159.

ويواصل في رثاء أمه فيقول:

فيا ركب المنون أما رسول يبلغ روحها أرج السلام

سألت متى اللقاء فقيل حتى يقوم الهامدون من الرجام[1]

يحاول المعري في مرثيته هذه أن يبعث لها رسولا يبلغها السلام،ولشدة اشتياقه لها وحبا في الملاقاة بها يسأل عن زمن اللقاء.

هذا بالإضافة إلى موت أبيه وصاحبه المفضل،فكل هذه الأحداث والأحزان من فقد الأحبة يوما بعد يوم ساعدت في إحساسه بالوحدة في هذا العالم فهو كالغريب لا أب له ولا أم ولا صاحب يستند عليه.

« وقد ربط المعري بين ثنائية الموت والألم واللذةّ ، حيث يقول:

إن حزنا في ساعة الموت أضعا ف سرور في ساعة الميلاد

وهنا يتضح من أنّ المعري يسعى لإبراز فلسفته في اللذة والألم من حيث أن السعادة أو اللذة قد يعقبها ألم أكبر منها بكثير، كما أن الألم قد يعقبه لذة.

كما يتضح أنه قد ربط بين الموت والحرية، فقد انتهى إلى نتيجة استراح إليها وهي أن الموت على الرغم من كره الإنسان له إلا أنه يحمل معه الحرية التي يتمناها الإنسان، ففي الموت انعتاق من الدنيا وآفاتها فقد أدرك عبثية الحياة وأن الخلاص بالموت،فيقول:

موت يسير معه رحمه خير من السير وطول البقاء

وقد بلونا العيش أطواره فما وجدنا فيه غير الشقاء

ويوجد في مواضع أخرى وهو يربط بين الموت والأخلاق ، فيقول:

(1)- علي شلق: أبو العلاء المعري و الضبابية المشرقة، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، ط1، 1981، ص :25.

وقد علمنا بأنا، في عواقينا إلى الزوال، ففيم الضغن والحسد »[1]

ومن هنا يستخلص أن المعري كغيره من المسلمين آمن بحقيقة الموت ولم ينكرها، فهو حتمية وفرض على الإنسان سوف يجتاز طريقه كل فرد في هذا الوجود، إلا أن المعري في كثير من الأحيان بالرغم من الخوف الذي كان يعتريه بين الفينة والأخرى كان تواقا إليه مشتاقا للقائه وذلك اعتبارات عدة منها كرهه للحياة.

وهكذا بعد هذه الدراسة لموضوع– الشاعر والموت– تم إحصاء أحصي ديوانيه سقط الزند واللزوميات بجزئيه،وقد وجدت كل هذه الكلمات التي تندرج تحت لفظة (موت) وتحمل نفس المدلول معها والتي وضعت في الجدول التالي.

الكلمة	التكرار
الموت	120
المنية ،المنايا، المنون	99
الحمام	62

يبدو من هذا الجدول أن لفظة (موت) باعتبارها الموضوع الرئيسي أكثر تواترا بين المجموعة، ويرجع ذلك لكثرة طلبه لأنه كان يتمنى الموت ويشتاق إليه فهو المخلص من العذاب الذي كان يعيشه والشقاء الذي يتكبده.

إضافة إلى لفظة موت التي استعملت تحت تسمية المنية كمفرد؛حيث كررها(6مرات) واستعملها بصيغة الجمع والتي تمثلت في لفظة (المنايا) المكررة (74) مرة، والمنون المكررة ب (19) مرة، كما لا وجدت لفظة (الحمام) التي عوض بها الموت والمنايا؛فقد كررها(62) مرة، وذلك لأهميتها وقيمتها عنده.

فإذن يظهر جليا أن المعري من أولئك الذين شعروا وهم داخل أوطانهم بنوع من الانفصال والضياع والتمزق،وذلك راجع إلى عوامل كثيرة جعلته يحس به منها زمانه،خاصة وأنّ هذا الزمان بات

(1)– سناء خضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري، ص :253 ، 255.

لا يرحم وهو ملم بالكثير من المصائب و الآفات التي قد تضر بالإنسان، فهي تعكس مميزات الناس في هذا الزمان المر الذي طالما اشتكى منه المعري فقد أذاقه مرارة العيش لما لاقاه منه من ويلات وآهات جعلته يؤمن بفكرة كانت أقل تقدير بعيدة كل البعد عن تفكيره ومخيلته ألا وهي الموت، فهذا الأخير الذي بات يتمناه ويطلبه ليل نهار من رب السماوات لكي يريحه من تعب الحياة ومشقاتها خاصة بعد كبره ونفاذ كل فرص لحياة من تحقيق أمال والوصول إلى مراتب عليا وسامية في هذه الدنيا التي كره العيش فيها خاصة بعدما علم حقيقتها لأنها لا تبعث على خير فهي مصدر لكل شر، والعيش فيها مأثم وظلم.

والزمان و الموت عنصران أو موضوعان كانت بصماتهما واضحتين من خلال ديوانيه سقط الزند و اللزوميات بجزئيه، وقد عبرت عنهما مختلف الكلمات التي تدور في حقل دلالي واحد مثل الدهر،والزمان،والزمن،والأيام،والخطوب،هذا إضافة إلى الموت،والمنايا،والمنية ،والمنون ،ومختلف الألفاظ الأخرى التي تحمل نفس المعنى.

القسم الثاني : العوامل التي أثرت و ساهمت في تشكيل صور المعري

أولا –فقدان بصره و عدم تكيفه مع المجتمع :

لابد من أنّ شخصية الإنسان تتأثر في تكوينها بعوامل جسدية وفيزيولوجية واجتماعية ونفسية و حتى أخلاقية .

وفقدان البصر يعتبر من بين الأسباب و العوامل التي تؤدي إلى اختلال في السلوك و من ثم التأثير في الشخصية،ففقدانه للبصر يؤدي يورثه عجزا عن الرؤية الذي يجعله يحس بأنه أقل من المبصر الذي يرى بعينيه ، فيضيق عالمه الخاص به لنقص خبرته في هذا العالم الذي يعيش فيه،وإدراكه بعجزه يجعله دائم الرغبة في الخروج منه إما بالاندماج و التكيف مع عامته .

و هذا ما أشار إليه "مصطفى فهمي"؛حيث يقول<< و لما كان التكيف الاجتماعي يستند إلى عملية تعديل ذاتي أكثر مما يستند لمحاولة تعديل العالم الخارجي ، فقد توجب على الفرد الذي

يرغب في أن يكون عضوا في الجماعة أن يعدل سلوكه ، لأن التكيف مهمة الفرد لا البيئة>>[1]، أو يكون بالانعزال الذي يشعر الكفيف بالراحة والأمان .

و المعري من بين الشعراء المكفوفين الذين عانوا من العمى،فأصابهم العجز جراء فقدانه البصر؛ حيث نراه يهاجم المجتمع ويلومه لأنه نظر إليه ومن مثله على أنه عبء،فاتخذ المجتمع موقفا صنفه العالم النفساني"سومرز"في خمسة أنواع في « القبول إنكار الوجود؛أي أثر للعاهة والتدليل والحماية المسرفة الإعراض المقنع و النبذ الظاهر»[2].

و عليه و بالرغم من محاولات المعري للاندماج في هذا المجتمع و تحدي عاهته وعجزه ،إلا أنه لم يستطع التكيف « لأنه لم يستطع تعديل ذاته التشاؤمية، تلك الذات التي نظرت إلى المجتمع نظرت بغض و كراهية،لأن الشر هو الذي يجتذب أخلاق ساكنيه وأفعالهم في رأيه>>[3].

فقد أراد أن ينسى عاهته ويشغل نفسه بأشياء تلهيه،وقد بلغ به الأمر لحد الافتخار ببصيرته التي حياه الله بها دون سواه بالرغم من حرمه البصر .

يقول :

تلف البصائر و الزمان مفجع أدهى و أفجع من ترى الأبصار

بلغ الفتى هرما فظن زمانه هرما و لام تقَادم الأعصـــار[4]

و يقول :

أعمى البصيرة لا يهديه ناظره إذ كل أعمى لديه عصا هـــــاد

وقد علمت إذا شهدت من حذر أن ليس ينفي خطوب الدهر تسهاد[5]

(1)- مصطفى فهمي: مجالات علم النفس، دار مصر للطباعة ،(د ،ط،د ،ت)،القاهرة ،ص:42.

(2)- مختار حمزة :سيكولوجية المرضى وذوي العاهات ، ص :104 ، 105 .

(3)- طه حسين : مع أبي العلاء في سجنه ، ص :60.

(4)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص :393.

(5)- المصدر نفسه : ص :255.

فبصره لا يهديه إلى النظر و لا يمكنه من الرؤية كباقي الأفراد و لكن عميه هذا لم يمنعه من أن يهتدي إلى الأشياء ببصيرته،و هذا ما وضحه بقوله: (إذ كل أعمى لديه عصا هاد)، و يقول أيضا :

كُمْه البصائر لا يبين لها الهدى أو مبصر أبدا بعيني أرمد

حسد يعذب في الحياة حسبته مستشعرا حسد العظام الُهمد

إن السيوف تراُح في إغمادها و تظل ُ في تعبٍ إذا لم تُغمدِ

من لي بجسمٍ لا يُحَس رزية لكن يعد كشربة أو جلمد

روح إذا اتصلت بشخص لم يزل هو و هي في مرض العناء المكمد

إن كنت من ريح فيا ريح اسكني أو كنتِ من لهب فيا لهب اخمد[1]

و لم يكتف المعري بالفخر ببصيرته، بل راح يفخر بنفسه عموما منكرا لتلك العاهات يقول:

و أغدو و لو أن الصباح صوارم و أسري و لو أن الضلام حجافل

و إني جواد لم يُحَل لجامه و نضو يمان أغفلته الصياقل[2]

رسم أبو العلاء المعري لوحة فنية مفتخرا فيها بنفسه و يلُمح معها حزنا عميقا أوحت به بعض المفردات التي استعملها،و ذلك بقوله (أغدو، وأْسري) فهو لا يدرك الزمن بتفاصيله من جراء فقدانه البصر،و ما يدركه ما هو إلا نتاج سماعه.

ويظهر في سياق آخر وهو يسوي بين الأعمى والمبصر من باب النهاية التي يؤول إليها كليهما فالفناء يتحقق للجميع و لا فرق بين مبصر و أعمى،يقول :

أرى كل خير في الزمان مفارقا فلا تأسفن فيها لقلة خيركا

ودنياك سارت بالأنام معذةً فلا فرق فيها بين سيري وسيركا

أصاحٍ أتدري كيف يعدك حالها أجل مثل ما شاهدته بعد غيركا

(1)- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1 ، ص :255.

(2)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص :160.

فإن كـنت لا تستطيع للنفع كثرة فلا تعدمنك النفس قلة خيركـا[1]

وقد بالغ حين جعل المرض الذي بدأ في عيشه فأفقده إياها؛حين جعله مجرد اكتحال بسواد الحندس،يقول :

إن ينظر أعينا ُرمدا فما رمدا و لا بغير سواد الحندس اكتحلا[2]

خاصة إذا عـُ لم أنّ العمي ليس آفة عنده بقدر ما هو ظاهرة إيجابية يستحق أن نحمد الله عليها حسب رأيه، يقول :

الحظ لي و لأهل الأرض كلهم ألا يراني أخرى الدهر أصحابي

و شِقْوة عشيتْ وجهي بنظرته أُبر لي من يغيم جر إشحابـي

حابي كثير و ما نبلى بصائبة وكيف لي في مراميهن بالحالي

قد كنت صَعيل ولكن أرهفت غير حتى تبين كل الناس أصحابي[3]

فقد تحميه من التيه والضلال والضياع، يقول:

طفئت عيون الناظرين وأشرقتعين الغزالة بانها عـُ ـوار

ويكون للزهر الطوالع منتهى يذوين فيه كما ذوي النوار[4]

ويقول:

إذا طفئت في الثرى أعين فقد أمنتْ من عمى أورمد[5]

فحسن العين عند المعري من أمنت من العوار و العمي والرمد،وقد تحميه من النظر إلى الصحراء ،وما تحويه يقول :

---

(1)- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج2 ، ص : 158.

(2)- المصدر نفسه: ص: 158.

(3)- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1 ، ص :110.

(4)- المصدر نفسه: ص: 312.

(5)- المصدر نفسه:ص :270.

ذهاب عيني صان الجسم آونة عن التطرح في البيد الأماليس

وإن أبيت سمير الكدر في بلـد تطوي فلاه بتهجير و تعليس

أهوى الحياة و حسبي من معانيها روم أني أعيش بتمويه وتدليس[1]

و لكن وبالرغم من افتخاره بنفسه و عماه إلا أنه يعده سجنا في أوقات أخرى ، يقول :

أراني في الثلاثة من سجنوني فلا تسأل عن الخبـــر النبيث

لفقد ناظري و لزوم بيتـــي وكون النفس في الجسد الخبيث[2]

فكان أول سجونه هو فقدانه للبصر و هذا بينه، بقوله فعميه حرمه من الحب و الزواج والتنعم بالأولاد،فأكسبه قلقا وملأه حيرة في أمور دينه ودنياه، يقول :

عمي العين يتلوه عمي الدين و الهدى فليلتي القصوى ثلاث ليالي

وما أزمت نفسي البنان على التي إذا أزمت عفتْ بشوك سيال .

و لا قصرت لي أم ليلى بشربها حنادس أوقات علّي طيال

.....

و ما سرني رب الخيال بشخصه فيطلب مني النوم طيف خيال

و هون أرزاء الحوادث أننـــي وحيـد أعانـها بغير عيال

فدعني وأهوالا أمارس ضنكها وإياك عني لا تقف بحياتي[3]

إذن فقده للبصر قد أفقده النوم فذاق مرارة عماه بالرغم من انشغاله عنه في كثير الأحيان بالأدب والرحلات،إلا أنه بينه وبين نفسه ما هو إلا عورة يخفيها عن الآخرين، يقول :

(1)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :229.

(2)- المصدر نفسه : ص :167.

(3)- أبو العلاء المعري: اللزوميات،ج2 ، ص:229.

وما بي طرقٌ للمسير و لا السُبل أني ضرير لا تضئ لي الطرق

أغربانك السحم استقلت مع الضحى سوانح أم مرت حمامك الورق

رحلت فلا دنيا و لا دين نلتـــــه وما أوبتي إلا السفاهة والخرق

متى يخلص التقوى لمولاه لا تغض عطايـاه من صلى وقبلته الشرق

أرى حيوان الأرض يرهب حتــف و يفرعه رعدا و يطعمه بــرق[1]

رسم المعري بهذه الأبيات، ووضح من خلالها حالته التي لا تفرق عن حالة العميان،فهو لا يستطيع حتى السير في الطريق كباقي المبصرين،ولا يملك إلا الصبر على هذا السواد متمنيا انغشاؤه وزواله بمجيء صبح جديد يريحه بنوره يقول :

و لطالما صابرتُ ليلا عاتما فمتى يكون الصبح و الإسفار

يرجوا السلامة ركب خرق متلف و من الخفير أتاهم الإخفار[2]

وهو لا يتوانى في طلب النور الذي يخرجه من ظلمة الليل و سواده و يريحه من ذلك الضيق الحاصل له من الله ،ويقول :

نرجوا من الله رحبا إثر ضيقة من الأمور، ونورا بعد إظلام

له الممالك قد بانت دلائلها للمفكرين برايات و أعلام[3]

كيف لا يدعوا الله أن يفرج همه و يرسل إليه نورا ليضيء له ذلك الظلام خاصة أنه ساوى بين ظلام آفته و ظلام القبر ووحشته ، يقول:

و إذا ظلام العين بعده ظلمة الثرى فقل في ظلام زيد فوق ظلام[4]

(1)- أبو العلاء المعري :اللزوميات،ج2 ، ص:123.

(2)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج1 ، ص :313.

(3)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص :322.

(4)- المصدر نفسه: ص:315.

فقد عانى المعري كثيرا من هذه الآفة ،فأحس بآلام شديدة نتيجة فقده للملذات بسببه كالرؤية والاختلاط و الزواج و غيرها من النعم التي حرم منها بسبب عماه،حتى عد العيش داء، فتمنى الموت للاستراحة منه ،و يقول:

والعيش داء و موت المرء عافية إن داؤه بتوارى شخصه حسما

أنفاسه كخطاه و البـــقاء له مسافة فهــو يفنى كلما إنتسما

منازل الأنفس الأجساد يظعنها وقد الحمام فكم من منزل طسما[1]

فالعزلة ليست وحدها كافية لتجاوز مثل هذه المحن والموت المنقذ الوحيد لخلاصه من عاهته وتجاوزها .

ثانيا – الزهد في الحياة و النزعة التشاؤمية:

« لقد كان ظهور الزهد انتكاسا لظاهرة اللهو والمجون و تأييدا للجانب الجاد من الحياة الاجتماعية وتوكيدا للتوبة التي كانت انعكاسا صادقا من الذين نفروا من الحياة العابثة الماجنة التي تسود المجتمع »[2].

وكلمة زهد هي كلمة مأخوذة عن« كلمة يونانية بمعنى الرياضة و هي تعني العفة بوصفها فضيلة أساسية التي تهدف إلى إخضاع الشهوات و الغرائز لضبط العقل»[3]،وقد ينبثق الزهد وينبعث من ديانات متعددة فترى الزهد المسيحي و الزهد المنبعث عن الإيمان النصراني و زهد إسلامي، هذا الأخير الذي « يهون من أمر الدنيا و بريقها الزائل »[4].

والمعري من بين الشعراء الذين زهدوا في هذه الحياة،فهون أمر الدنيا في نظره وعبر عن عمق مشاعره الدينية وتعلقه بالإله وابتعاده عن هذه الحياة التي أرقته،فكان يتمنى الرحيل عنها لو كان الأمر باختياره وعدم البقاء فيها حتى أنه كان يتشاءم و يتضايق ممن يدعوا له بطول البقاء فيها يقول :

دعاني بالحياة أخو وداد رويدك إنما تدعو عليا

(1)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص :303.

(2)- عروة عمر:الشعر العباسي وأبرز إتجاهاته وأعلامه ، دروس ، ديوان المطبوعات الجامعية ،(د، ط)،2010 الجزائر ، ص:15.

(3)- سناء خضر:النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة و الدين ، دار الوفاء ، ط1 ، ص :107.

(4)- عروة عمر:الشعر العباسي وأبرز اتجاهاته وأعلامه :15.

و ما كان البقاء لي اختيارا لو أن الأمر مردود إليا[1]

فانصرف بذلك عن كل زخارف الدنيا وزينتها،وكأنه« رأى أنه بمقدار ما يحرم نفسه من اللذات ومتاع الحياة يكون هدوء ضميره و أمن قلبه ورضا فؤاده.

لذا يقول :

لا تشرفن بدنيا مُهْرضة فما التشرف بالدنيا هو الشرف»[2]

وزهد لمجرد معرفتنا و معرفة الناس فيها ،و هذا ما يتلمسه من خلال قوله الأتي :

وزهدتي في الخلق معرفتي بهم و علمي بأن العالمين هباء

ويقول :

حوفرت في كل مطلوب هممت به حتى زهدت فما خليت و الزهدا

فالحمد لله صابي ما يزايلنـي ولست أصدق إن سميته شهدا

وما أضن جنان الخلد يدركها إلا معاشر كانوا في التقى جهدا

يمضي النهار فما أنفك في شغل و لا أطيق إذا جن الدجى سهدا[3]

« فقد كان راغبا في الدنيا ثم رغب عنها وكان قادرا في الحالتين كان إنسانيا بين الأناسي من أجل إنسانيته كيلا تضيع أو تهان »[4].

لذلك أبى على نفسه طيب الطعام و لين الثياب يقول :

يكفيك طعم جنسه واحد أطعمه ضرت بتجنيسها

والثوب في أرقك من وحشها يغنيك عن أثواب تنسيها[1]

(1)-أبو العلاء المعري : اللزوميات،ج2 ، ص :873.

(2)- شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده ، ص:112.

(3)-أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج1، ص :36.

(4)- المصدر نفسه: ص :237.

فهو لا يمانع إذا شارك الفرس في الشعير الذييأكله إن علا و ارتفع ثمن الُبرِ ،كما أنّ تحليته بالزبيب والشرب في الفخار بدل إناء العسجد ،يقول:

و إذا غلا الُبر النقي فشارك الـ فرس الكريم وسار وطرفك تُمجد

واجعل لنفسك من سليط ضيائها أدما و نَزْر حلاوة من عنجـــد

وارسم بفخار شرابك لا تُرِدْ قدح اللجين و لا إناء العسجــد

يكفيك صيفك من ثياب ساتر و إذا شتْوت فقطعة مــن برجد(2)

وهو لم يكتف بهذا،بل راح يمنع نفسه من أكل اللحوم و البيض والأسماك والعسل، فتراه يقتصر على النباتات رحمة بالحيوانات، يقول :

غدوت مريض العقل والرأي فالقنى لتعلم أنباء الأمور الصحائــح

فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالما ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح

و لا بيض أمات أرادت صريحه لأطفالها الغوانـــي الصرائــح

ودع ضرب النحل الذي بـَكَرتْ له كواسب من أزهار بنت فوائــح

.....

فما أحرزته من كل هذا فليتني أبْهْتُ لشأني قبل شيب المسائح

هذه الأبيات من قصيدة طويلة دعا فيها المعري « عليل العقل والذين ليخبره بالصحيح من الأمور،وينصح بعدم أكل ما يخرج من الماء إلا وهو كاره ،وكذلك بعدم أكل غريض الذبائح اجتنابا

(1)- خليل شرف الدين: في سبيل موسوعة فلسفية، أبو العلاء المعري، دار مكتبة الهلال ،(د، ط) ،1995، ص :90.

(2)- رمضان محمود كريم : شعر المعري من منظور القراءة والتأويل، أطروحة مجلس ابن رشد ،(د ، ط) ،2002 ، جامعة بغداد ، ص :110.

لا يلامها في أثناء ذبحها و ينصح بعدم شرب اللبن لأنه يرى أنه لأطفال البهائم التي تشرب لبنها »[1]،وهو لم يكتف بتحريم لحمه بل حتى تحريم ضربه ،يقول :

يا ضارب الَعوْدِ البطِيئ ، و ظهره لا وِزْر يحمله كوزرِ الضارب

أُرْفُقْ به فشهدت أنك ظالـــم في ظالمين أباعدٍ و أقـارِبْ[2]

و يقول :

لقد رابني مغذي الفقير بجهله على الَعير ضربا ساء ما يتقلد

يحمله ما لا يطيق فإن ونـى أحـال على ذي فترة يتجـلـد

يظل كزانٍ مفتقر غير محصنٍ يقام عليه الجد شفعا فيجلـد[3]

فقد راعه ضرب البعير،فهو من فصيلة الحيوانات من دون ذنب،فمن دون شك سوف يتألم هذا البعير مما يلقاه من ضرب وأذى من الإنسان،وهذا ما أكده بقوله السابق، و يرغب في حمايته من الإنسان، يقول :

تصدق على الطير الغوادي بشربة من الماء و اعددها أحق من الإنس

فمـا جنسها جان عليـك أذيتـه بحال إذا ما خِفت من ذلـك الجنس

لقـد عرفتنـا قـدرة أزليـــة فعشنا وعدنا راجعين إلـى القنس[4]

لذلك يستنكر تعذيبه،يقول :

فطر إن كُنت يوما ذا جناح فـإن قوادم البـازي يهضنـه

وكم طُير قُصِصْنَ لغير ذنب وألزمن عليه السجون فما نهضنه

(1)- محمد بك عبد الحميد : عدد خاص عن أبي العلاء المعري ،مجلة الهلال ،مجلد 46 ،1938 ،ج8 ،ص:880.

(2)- أبو العلاء المعري: اللزوميات،ج1، ص :119.

(3)- المصدر نفسه: ص :207.

(4)- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج2 ، ص :34.

متى عرضً الحجا لله ضاقت مذابحه عليـــه و إنْ عُرِضنه[1]

إنك لترى كم بلغ المعري من رأفة و حنية على الحيوان عموما، فتراه يتحسسه ويحس بألمه ويرغب في حمايته من كل أذية، فقد صمم على هجر اللحوم،لأن الوصول إليها تسبب ألمالها،فهو يطلب من الإنسان أن يرحم بحال الحيوان المستضعف،يقول:

لا أُشرك الجَدْيَ في كَريعيش به و لا أروع بنات الوحش و الضان

و إنْ كهمت فأمري لله أكهمني و إن أمضيتُ فأمري لله أمضاني[2]

ويقول موصيا بالرحمة بالحيوان بعدم التعجيل في ذبحه :

روح ذبيحتك لا تجعله ميتته فتأخذ النحض منه و هو يختلج

هذا فتبيع وعلمي غيُر متسق بما يكون و لكن في الثرى ألج

والناس من أجل هذا الأمر في ظلم و ما أومل أن الفجر ينبلج[3]

فقد أعفى نفسه عن كل هذه الأمور فعاش زاهدا قانعا بما لديه،فما أراد بذلك أن يجمع مالا أو جاها أو مجدا أو ملكا،يقول:

من مذهبي ألا أشد بفضة قدحي و لا أصغي لشرب معوج

لكن أقضي مدتي بتقنع يغني و أفرح باليسيـــر الأروج

هذا و لست أود أني قائم بالملك في ثوبي أغـر متوج [4]

و قد كان شديدا على نفسه حازما،عازما ،ومتحديا،يكلفها من الآلام ما لا يطيق،فنراه يغسل بالماء البارد في الشتاء، يقول :

(1)- أبو العلاء المعري: اللزوميات،ج2 ،ص :366.

(2)- المصدر نفسه : ص :390.

(3)- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1، ص :172.

(4)- المصدر نفسه: ص :183.

أجاهد بالطهارة حين أشتو وذلك جهاد مثلى و الرباط

مضى كانون ما استعملت فيه حميم الماء ما قدم يا سباط

تشابه أنفس الحشرات نفسي يكون لهن بالصيف ارتباط

لقد رقد المعاشر في ثــراهم كما هبت الجعاد ولا السباط[1]

و يكون بذلك قد استغنى عن ملذات الدنيا ، يقول :

و قال الفارسون حليف زهد و أخطأت الظنون بما فرسنه

و لم أعرض عن اللذات إلا لأن خيارها عنـــي خنسنه [2].

فمن يقرأ قول المعري الذي تأفف فيه عن الدنيا و استغن عن ملذاتها يظن أنه كان«على مذهب أبيقور الذي حرم على نفسه اللذات لما يعقبها من آلام ترجحها و عاش معيشة زهد و قناعة ،وليس في بيت أبي العلاء المعري ما يفهم منا الزهد الأبيقوري المتفلسف، إنما فيهما ما عرف به من تواضع شديد، فهو لا يريد أن يدل على الناس من حوله بزهده،ولذلك يزعم أنه زُهْدٌ لا حرية فيه »[3].

فإذن زُهْده انطلاقا من قول" شوقي ضيف " نابع عن اختيار المعري له و رغبته في الدخول فيه و الخوض في مضماره ، يبتعد فيه عن أي اضطرابات ، فهو زهد إيجابي ابتعد فيه المعري بالكثير من الصراعات الموجودة في نفسه التي تدعوه للتلذذ و ما كان عليه إلا أنه كبح جماح النفس وقيدها مبتعدا عن اللذات والأهواء محكما في ذلك عقله الذي كان دوما يسعى به لإثبات موقف اتجاه الحياة و رفضه لأحداثها و أهوائها ولكن زهده بالرغم من الإيجابيات التي فيه إلا أنني وجدته مقترنا بالتشاؤم في كثير من الأحيان،فهو أصل ثان من أصول فلسفته في الحياة «تشاؤم يمتد ضلاله بل ظلماته على جميع مناحي الحياة و قد رأيناه يعرض بعض مناحيها السياسية والاجتماعية عرضا قائما

(1)- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج2 ، ص :74.

(2)- المصدر نفسه: ص :390.

(3)- شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده ، ص :113.

، ليس فيه أي بريق من الأمل بل فيه اليأس المضني الذي اجتاح الأمة و جعلها تنغمس انغماسا في حمئة الشر ،يقول :

هو الشُر قد قد عم في العالم بين أهل الوهاد و أهل الذرا »[1].

فالشر منتشر في كافة أنحاء العالم لا يكاد يرى المعري غيره في الوجود، لذا نراه متشائما مندفعا في تشاؤمه شديد السواد يقول :

ألا إنما الدنيا نحوس لأهلها فما في زمان أتت فيه سعود[2].

« فقد غربت من سماء الدنيا كل كواكب السعد و نجومه، و لم يبق إلا نجوم النحس مطلة على الوجود، و كأن أحدا لا يستطيع إنقاذ الناس من كوارث هذا النحس وشرها المستطير ومن أجل هذه الكوارث، يمتنع أبو العلاء المعري عن الزواج، و أن يرزق الولد ويشعر أن ذلك جناية خطيرة أن يجلب إلى عالم السوء والنحس الذي يعيشه مولودا يعرض لشروره »[3]،لذا يعترض عن الزواج و النسل حتى تتوقف وتتحطم الحياة البشرية،يقول :

لو أن كل نفوس الناس رائية كرأي نفس تناءت عن خزاياها

وعطلوا هذه الدنيا فما ولدا ولا اقتنوا و استراحوا من رزاياها[4]

فهو ينصح الناس بإخلاص بأن يتبعوا سياسته،فيكفوا عن الزواج حتى لا يأتي الأولاد، فتمتلئ الدنيا بهم، ومن ثم يسود الشر ويعم أرجاء العالم ،خاصة إذا علمنا أن المرأة في نظره قد وقعت في فساد نتيجة الاختلاط،وهذا ما جعله لا يفكر في الاقتران بها،يقول:

أشد يديك بما أقـول فقول بعض الناس در

لا تـدون من النسـاء فإن غِب الأري مـــر

(1)- شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده ، ص :114.

(2)- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1، ص :211.

(3)- شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده ، ص :115

(4)- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج2 ، ص :857.

و الباء مثل الباء تخـ فض للدناءة أو تجـر

سل الفؤاد عن الحيا ة فإنـــها شر وشـر

قد نلت منها ما كفـا ك فما ظفرت بما يسر

صدف الطبيب عن الطعا م و قال مأكلـه يضر

كل يا طبيب و لا خلا ص من الردى فلن تغر[1]

أما "طه حسين" فقد علل حالته بأن المعري يبحث عن الخير لنفسه والولد، والخير رآه هو في الابتعاد عن النسل « فهو مصدر ألم و شقاء للوالد و الولد فذمه و زهد فيه» [2].

و يقول معرضا عن النساء الحور متبعا لمعالي الأمور :

و ما جبل الريان عندي بطائل و لا أنا من حور الحسان بريان[3]

وقد فسر" يسري سلامة " رفض أبو العلاء المعري للزواج قائلا بعدما فسرها في البداية بتأثره بالفلسفة الصوفية التي تدعوا إلى التجرد يقول:« إن نظرة أبو العلاء المعري للمرأة وموقفه منها لم يكن نتاج فلسفة خارجية ، و إنما كان جريا على فساد الرأي العام للعصر بالنسبة للمرأة ، كما كان ناتجا عن موقفه النفسي الخاص إزاء عزمه عن ممارسته الحياة الطبيعية من حب ومطارحة غرام أو زواج »[4] ، ففساد العصر الذي أدى إلى فساد المرأة وموقفه النفي إزاءها هو من منعه من الزواج.

فإذن الشر متأصل في هذه الحياة و الهم موجود و الشقاء باق طالما الإنسان موجود فهو مفطور على الفساد، لذلك جعل المعري المرأة مصدر شر،يقول :

فليت حواء عقيم غَلَتْ لا تلد الناس و لا تحبل

(1)- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1 ، ص :220.

(2)- طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء ، دار المعارف ، ط6 ،1963 ، القاهرة ، ص :281.

(3)- أبو محمد بن السيد البطليوسي: شرح المختار من لزوميات المعري ،حققه وقدم له حامد عبد المجيد ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة مزيدة ومنقحة ،1991 ،القاهرة ،ص :251.

(4)- يسرى سلامة : النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء المعري ، دار المعرفة ،(د ،ط ،د ،ت)، الإسكندرية، ص:238.

و ليت شيئًا و أبانا الذي جاء بنا أهله المهبل [1]

فقد تلهي المرأة الرجال عن أعمالهم و تصرفهم عن العبادة والتقرب إلى الله،لذا كثيرا ما يدعوا إلى تجنب النساء وعدم إنجاب المزيد من الناس حتى لا يتعذبوا في هذه الأرض، يقول :

إذا دَرجتْ في العــالمين قبيلة فخيٌر لها من أن تئث خروجها

فمــا أمنت نسوان قوم أعــزة على أن تستبــاح فروجــها

وما تمنع الخُود الحصان حصونها و لو أن أبراج السماء يروجها [2]

فالسعادة غابت منذ أن جاءت حواء على وجه الأرض؛ لأنها عنوان للشر، يقول :

آلات الظلم جئن بشر ظلمٍ وقد واجهتنا متظلمـــات

فوارس فتنة أعلام غـــي لـقينك بالأساور معلمـــات

وسام ما اقتنعن بحسن أصل فجئنك بالخضات موسمات

رأين الورود الوجنـــــات فغــادين البنــان معنمات

و شنفن المسامع قائـلات و كلمن القلوب مكلـمـات

أزمن لجهلهن حصا بـَـدْر غرائب لم يكن مثلمـــات[3]

و بناء على ما تقدم سوء حالة المعري النفسية والمادية وتشاؤمه من الحياة وشرها جعله إنسانا زاهدا عابدا متنسكا،كارها للحياة و ملذاتها،وهذا ما أظهرته من خلال أشعاره المتنوعة،فقد أساء المعري كثيرا للمرأة بكثرة شكوكه وعزوفه عن الزواج بها و خوفه على نفسه من الوقوع في الرذيلة يقول :

نصحتك لا تنكح ، فإن خِفْتَ مأثما فأعرس و لا تنسل فذلك أحزم

(1)- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج2 ، ص :197.

(2)- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1 ، ص :171.

(3)- المصدر نفسه:ص :165.

أضنك من ضعفٍ بلبك غاديا يحلك من عقد الزواج المعزم [1]

فهو يخاف النسل وما يتجرعه من آلام نتيجة الفساد الحاصل في المجتمع؛لذا يلح على عدم الزواج،وإن حصل فيتحرى الابتعاد عن الإنجاب،ففيه مفسدة لهم و للمجتمع،فهو خيانة يقترفها الآباء في حق أبناءهم كخيانة والده عليه، فهو يقول مؤكدا ذلك :

هذا جناه أبي علي و ما جنيت على أحد [2]

ثالثا : اعتزال الناس :

لقد تمكن الشاعر في هذه المرحلة من إرسال دعائم مغايرة لكثير من المفاهيم التي جاء بها من قبل، فهذه المرحلة جوهرية ومهمة في حياة أبي العلاء المعري لما فيها من نضح فكري وسعة خيال وتمثيلا للأدب العربي؛فهو صادق حين قال :

لعمرك ما غادرت مطلع هضبة من الفكر إلا وارتقيت هضابها[3]

لذلك تراه وهو ينتهج منهجا خاصا في نظمه للشعر جسده في إبداع اللزوميات بقيودها من حيث الشكل،أما من ناحية المضمون؛فتراه يبتعد عن الأغراض التقليدية المتمثلة في المدح والغزل والهجاء وغيرها، فقد انصب جل اهتمامه في عزلته على تلك القضايا الكونية والفلسفية والإنسانية التي استهوت فكره وقد صب هذه الهواجس والأفكار في قوالب شعرية رائعة جسدت آراءه وأماله وأفكاره، و الشاعر قد خير الدنيا بشرورها مثلما لوحظ سابقا ، لذا لا تكاد تراه إلا وهو يوصي بالابتعاد عنها و عن أنجاسها، لأنّ في البعد عنها طهارة، يقول :

طهارة مثليفي التباعد عنكم و قربكم يجني همومي و أنفاسي

عداوة الحق أعفى من صداقتكم فابعد عن الناس تأمن شرر الناس

(1)- أبو العلاء المعري :اللزوميات ،ج2 ، ص : 270 .

(2)- أبو العلاء المعري :اللزوميات ،ج1 ،ص:145.

(3)- المصدر نفسه:ص : 93 .

قد آنسوني بإيحاشي إذا بعدوا و أوحشوني في قرب بإينـــاس[1]

«لذلك نجده يلزم بيته،فلبث تسعا وأربعين سنة في محبسه بالمعرة لم يغادر إلا مرة واحدة، لم تتكرر حين حمله قومه على الخروج؛ليشفع لهم لدى أسد الدولة " صالح بن مرداس "صاحب حلب » [2].

فهو إذن دائم الجلوس في بيته لا يبرحه إلا نادرا، فاعتزل الناس بعد أن أحس بذلك الانقسام الحاصل بينه وبين مجتمعه؛فكتب إليهم مخبرا إياهم عن قرار العزلة،يقول« باسم الله الرحمان الرحيم هذا الكتاب إلى السكن المقيم بالمعرة شملهم الله بالسعادة من أحمد بن عبد الله بن سليمان ... أما الآن فهذه مناجاتي إياهم منصرفي عن العراق مجتمع أهل الجدل،وموطن بقعة السلف بعد أن قضيت الحداثة فانقضت،وودعت الشبيبة فمضت وحلبت الدهر أشطره وجربت خيره وشره،فوجدت أوفق ما أصنعه في الحياة عزلة وبادرت أعلامهم ذلك مضاعفة أن يتفضل منهم متفضل بالنهوض إلى منزل الجارية عادتي بسكناه،ليلقاني فيه فيتعذر ذلك عليه فأكون قد جمعت بين سمجين سوء الأدب وسوء القطيعة » [3].

فإذن هذه الأسطر التي كتبها المعري لأهله وناسه في المجتمع ممن عرفوه يدل بها على قطيعته وبدء العزلة يوم دخوله للمعرة .

وقد دفعته إلى هذه العزلة أسباب كثيرة،أولها هذه الغريزة التي ذكرها مرارا ودل عليها بشعره فدفعته إلى الوحدة والانعزال خاصة وأن المعري:« كان رقيق الحس،شديد الفطنة،كثير الشك، وحشي الغريزة ،إنسي الولادة مما أدى به إلى الابتعاد عن الناس محببا لنفسه العزلة » [4]،و هذا ما أكده بقوله :

(1)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص:469 ،475.

(2)- عائشة عبد الرحمان: مع أبي العلاء في رحلة حياته ،دار الكتاب العربي ، ط1، 1972 ، بيروت ، لبنان ،ص: 175

(3)- محمد الحبيب حمادي: المعري و جوانب من اللزوميات ، الدار التونسية للنشر ، النشرة الثالثة ، مارس 1984 ، ص: 46

(4)- محمد سليم الجندي : الجامع في أخبار أبي العلاء ، ج1 ، ص : 280 ،281.

إن صح عقلك فالتفرد نعمة و نوى الأوانس غاية الإيناس [1]

وربما عامل الغريزة الذي دفع به إلى الوحدة ليس كاف وحده؛فهناك من يحمل السبب في تحبيب العزلة لأنها تعزله عن النفاق على نحو ما نرى في قوله :

تخيرّ فإما وحدة مثل ميتة و إما جليس في الحياة منافق

أردت رفيقا كي ينالك رفقه فدعه إذا لم تأت منه المرافق[2]

و قوله :

إذا نفرد الفتى أمنت عليه دنايا العين ، ليس يؤمنها الخلاط

ويقول :

الحكم لله فالبث مفردا أبدا ولاتكن بصنوف الناس مختلطا[3]

ففي هذا التفرد وقاية من الاختلاط ودناياه،و(طه حسين) يؤكد أن« مزاج أبي العلاء هو الذي حمله على الوحدة ولزوم البيت،لأن ما لقيه من أذى الدهر و لؤم الناس بغّض إليه الاجتماع وحبب إليه الانفراد » [4] .

في حين يرى"حامد عبد القادر"أن :« تجاريه و إخفاقه في تحقيق مساعيه قد حمله على العزلة »[5] تلك العزلة التي وفرت لديه الوقت الكافي للتفكير في الكون و قد أراحته راحة عظمى، يقول:

في الوحدة الراحة العظمى فأحي بها قلبا و في الكون بين الناس أثقال[6]

(1)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص : 483 .

(2)- المصدر نفسه: ص : 165 .

(3)- أبو العلاء المعري :اللزوميات ،ج2 ،ص: 165.

(4)- طه حسين :تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص ،152 ،153.

(5)- حامد عبد القادر: فلسفة أبي العلاء مستقاة من شعره ،مطبعة لجنة البيان العربي،(د ،ط،د ،ت) ،ص:73.

(6)- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج2 ،ص:512.

إضافة إلى فقدان بصره وعدم تواصله مع الناس ومن سخرياتهم، وفقد أمه وأحبابه كلها أسباب جعلت المعري يعتزل الناس وينفر منهم.

فإذن مهما تعددت الأسباب،فالنتيجة واحدة وهي إقراره العزلة والتفرد والابتعاد عن الناس وقد جسد عزلته بقول جامع لكل الأقوال:

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيـث

لفقد ناظري و لزوم بيتي وكون النفس في الجسد الخبيث[1]

فالشيء الظاهر من خلال هذا القول هو أنّ:<< أبا العلاء قد سجن نفسه سجنين آخرين إضافة إلى السجن الذي فرضته الطبيعة عنه وهو فقد ناظره، ففرض سجنين أحدهما ظاهر وهو البيت الذي لزمه أبو العلاء المعري وفرضه على نفسه وتعهد بعدم الخروج منه مهما بلغته من ظروف وسجن ثالث هو سجن فلسفي تخيّله كما يتخيّل الشعراء واشتقه من حقائق الأشياء كما يفعل الفلاسفة،هذا السجن الخيالي الفلسفي هو الجسم الذي أكرهت النفس عليه >>[2].

ولكن عزلته لم تكن ميسورة كما شاء أبو العلاء << فالتف حوله الطلاب واشتغل بالتعليم والتأليف ،فما باختياره كان يلقى زّواره ،فاقتحموا عليه عزلته ،فشغلوه وشغلوا به على كره منه>>[3].

فعزلته جعلته يتفرغ لأشياء كالتأليف والتدريس،إذ بلغ عدد هذه المؤلفات العشرات من الكتب والرسائل والدواوين،كما شغل نفسه بتسبيح وتمجيد الله وهذا ما يتبين من قول المعري:<< لزمت مسكني منذ سنة أربعمائة واجتهدت أن أتوفر على تسبيح الله وتحميده إلا أن أضطر إلى غير ذلك فأملتني أشياء ،..... و هي على ضروب مختلفة منها ما هو في الزهد والعضات وتمجيد الله سبحانه وتعالى من المنظوم والمنثور >>[4] .

(1)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :167.

(2)- طه حسين :مع أبي العلاء في سجنه ،دار المعارف ،ط10 ،(د ،ت) ،مصر ، ص:33.

(3)- جعفر خرياني: أبو العلاء المعري رهين المحبسين،دار الكتب العلمية ، ط1 ، 1986 ،بيروت ، ص:52.

(4)- طه حسين :تعريف القدماء بأبي العلاء ، الدار القومية للطباعة والنشر، 1965،القاهرة ،ص :38 .

وهنا يتبيّن أنّ العزلة بالرغم من أنّها كانت سجنا فرضه المعري على نفسه إلا أنها عادت عليه بالخير الكثير في مجال التأليف والإبداع ، وهذا ما وضحه المعري فطلب المكارم والمعالي في غير اللغة والأدب، فما انقادت له فعكف معتزلا في بيته ، مفجرا لمواهبه وطاقاته الإبداعية، فخلف ما شوهد من روائع في الشعر والنثر ، وهذا ما أكده بقوله :

رضيت ملاوة فوعيت علما و أحفظني الزمان فقل حفظي

إذا ما قلت نثرا أو نظما تتبع سارقو الألفاظ لفظـي[1]

إذن ما لُمح من خلال هذه الإطلالة المتفحصة والمتعمقة في أشعار المعري تبين أن هذا الأخير استعمل مواضيع عديدة تمت معالجتها من قبل بالتفصيل كموضوع الاغتراب عن الدنيا بملذاتها ،لأنها –في نظره– ما هي إلا دار شرور وبؤس، وشقاء، لا ينعم الإنسان فيها بالراحة ولا يهدأ له بال ولا يحس بالاستقرار،لأنه يعتبرها دار مرور إلى حياة أخري آمنة مستقرة ،وكذا الاغتراب عن المجتمع الذي ساد فيه الجهل، والغي، والفساد، والفتن، والانحلال الأخلاقي، و الاغتراب عن السياسة التي تجسد أكثر في الملوك، والأمراء، والوزراء، والولاة، وغيرهم من رجال الدولة الذين استغلوا ضعف الرعايا فمارسوا عليهم أبشع الأساليب؛لقهرهم وإذلالهم بعد وعدهم والتغرير بهم،لذلك وجد المعري في هؤلاء الفسق، والفجور، والتعدي، والجور، و الاستغلال ،هذا ما دعا إلى خلق فجوة بينه وبين من مثلوا المجتمع والدين والسياسة .

هذا وقد حظي موضوع الزمان في شعر المعري بمثل المكانة التي حظي بها الاغتراب خاصة إذا كان هذا الزمان قد أشواه وكواه بناره وأسهمه وحوادثه التي أطلقها عليه ؛فسبب له حزنا عميقا في نفسه حتى مل العيش وسئم الحياة التي هي في نظره كلها تعب،هذا ما شجع فكرة الموت على الظهور عنده والتي اعتبرت كموضوع مهم عنده فبه يتم الخلاص من هذه الدنيا التي سببت له الكثير من المتاعب و به ينتقل من حياة الدنيا الزائفة إلى حياة الآخرة،تلك الحياة التي باتت حلما يراود المعري يريد به الخلاص،كما أنه المنفذ الوحيد لرؤية من فارقهم في دنياه كأمه وأصحابه ممن يعز عليه فراقهم.

(1)- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج2 ،ص:83.

فهذه المواضيع وغيرها كانت تشكل أشعار المعري في ديوانيه سقط الزند و اللزوميات بجزئيه وقد ساهمت في إخراج مثل هذه المواضيع وغيرها بعض العواملمثل التي عُرج إليها سابقا كفقدان بصره الذي ساعد إضافة إلى العوامل الأخرى المذكورة سابقا في إذكاء لهيب الاغتراب والانعزال عند المعري،فعميه جعله ينأى عن المجتمع كله مخافة من السخرية،إضافة إلى زهده وورعه الذي كان عاملا مساعدا على الانفصال عن الناس،كما كان له كبير الأثر لدى المعري؛لأنه كان واحدا من الأسباب التي جعلت الشاعر يغدق في إخراج الأشعار والدواوين والرسائل في تلك الفترة .

فبعد هذه الإطلالة حول ما يتعلق ببعض المواضيع والعوامل المساعدة لإخراجها، فما هي يا ترى المصادر التي استقى منها صوره؟أهي من وحي خياله أم أنها مستوحاة من منابع عدة؟ هذا ما سيبن لاحقا.

الفصل الثالث

مصادر الصورة الفنية لدى المعري

القسم الأول : المصدر الديني والثقافي

القسم الثاني : المصدر الإنساني

القسم الثالث :المصدر الطبيعي

يستمد الشعراء المادة الأولية لصورهم التي يصنعونها من مصادر شتى،فيكون بعضها من الدين وتعاليمه،فينهل ألفاظا وعبارات وحتى معاني من القرآن والحديث الشريف، كما قد يعتمد على بعض ما جاء في الشعر القديم خاصة و أنّ الشعر هو ديوان العرب فيه أنسابهم وأصلهم ووقائع حروبهم وتاريخهم، كما يقتبس الأمثال والحكم والأساطير والألغاز، فهي كلّها مصادر ثقافية تساعد الشاعر في تكوين صوره.

وبعضها يأتي ممّا يعيشونه في بيئتهم كالطبيعة التي تحيط بهم و الناس الذين يتعاملون معهم، والحيوانات التي يربيها الإنسان أو يصطادها.

كما يأتي بعض هذه المصادر من فعاليات الحياة الإنسانية التي ينغمسون فيها والأنشطة التي يقوم بها المرء في حياته كاللعب والجدل والطعان والفروسية والرماية و الجري وغيرهما، وبعض مصادرها من الأدوات التي يصنعها الإنسان كالرماح والسيوف والدلاء و السفن و بعضها من الأنشطة الفكرية و الحضارية كالكتابة و الّرسم و غيرها من المصادر .

فالمصدر إذن على هذا الأساس هو مادة تغذي الشاعر بموارد الإبداع فتمده بالصّور وعلى قدر شاعرية الشاعر يستطيع استغلال ما حوله من تلك المصادر، فيستنبط منها أدق الصّور.

سوف تُعرض في هذه الصفحات أهم مصادر الصورة التي تنتمي إليها في ديواني المعري سقط الزند و اللّزوميات بجزئيه ،و قد صنفت بحسب الميادين التي تنتمي إليها.

وأّول مصدر نسج على منواله المعري أو أخذ بعض أجزائه هو المصدر الديني والثقافي، الذي يتم تناوله الآن.

القسم الأول: المصدر الديني و الثقافي

يعتبر الموروث الديني رافدا مهما من روافد ومصادر التجربة الشعرية لدى أبي العلاء المعري ، فقد هيمنت تلك الرؤية الشعرية المنبثقة عن ذلك الموروث الديني على مساحة كبيرة من نصوصه الشعرية،فأصبح النص الديني بما يحتويه من<< نص قرآني و حديث نبوي شريف و تفسير وسيرة نبوية

وما حيك حول الرسول من أخبار و لا سيما في متأخر العصور>>[1]،بؤرة فنية فيها الكثير من الإيحاءات و الأفكار المولدة و الاقتباسات،و يعود ذلك لأمرين:<< أحدهما أن الموروث الديني منهل ثرّي عذب يزّود الشاعر بألفاظ و تراكيب عجيبة،و ثانيهما اعتقاد أبي العلاء بأنّ الاقتباس والتضمين أو استلهام القرآن خاصة و الموروث الديني عامة ، بالغ الأثر في الانتقال بشعر الشاعر من مصاف الشّعراء المغمورين إلى مدارج الشعراء المتميزين بشعرهم>>[2].

والأخذ من الموروث في مجال الدين ومجالات أخرى هو ما يسمى بالتناص،<< فهو عملية إبداعية لسانية مشروعة كلما تداخلت بنصوص تداخلا تلقائيا،و هي ظاهرة لسانية لا مناص منها بغية تقديم جرع من الأوكسجين للنص المراد إنشاؤه ، ومحاولة إعطائه دفعات أمامية بمستويات خلقية اعترضت على حين غّرة أفقيته البريئة>>[3].

و" كريستيفا" كانت أّول ملبورة لفكرة التناص بعدما أشار إليها " باختين" في العشرينات من القرن الماضي،معرفة إياه بأنه<< تبادل النصوص في فضاء نص ملفوظات كثيرة مقتبسة من نصوص أخرى تتقاطع و يبطل أحدهما مفعول الآخر>>[4].

فانطلاقا من هذا القول لجوليا كريستيفا يتبدى بأنّ التناص لا يتعلق بالسرقات الشعرية أو الانتحال،وإنما هو العثور داخل النص على آثار نصوص أخرى سابقة ومقاطع مختارة قديمة وحديثة شعرا أو نثرا ،وتكون منسجمة انسجاما تاما مع بعض لكي يدل على الفكرة التي يقدمها المؤلف أو الحالة الّتي يتحدث عنها.

لذلك يظهر أنّ المعري قد أكثر من هذه التناصات في مجال الدين و التراث الإسلامي ككل في شعره من خلال ديوانيه:(سقط الزند، واللزوميات بجزئيه) حتى أنّها لا تكاد تخلو قصيدة من مثل هذه التناصات سواء كانت تتعلق بالقرآن أو الحديث الشريف،أو السير و قصص الأنبياء و غيرها.

---

(1)- محمد عجينة :موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية و دلالاتها ، دار محمد علي للنشر، الطبعة الأولى ،1994، ص :83.

(2)- إبراهيم مصطفى اللّهون :التناص في شعر أبي العلاء المعري عالم الكتب الحديث ، 2011 ، إربد ، الأردن ، ص :117.

(3)- عبد الجليل مرتاض: التناص ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 2011 ، ص:6.

(4)- المرجع نفسه : ص 13.

وقد تراوحت الأبعاد في مجال التناص الديني بين الاقتباس تارة سواء كان للنص كاملا أو مجزئا بتوظيف لألفاظ و مفردات دينية و بين الإشارة إليه تارة أخرى.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الدراسة سوف تتوقف على مدى حضور القرآن الكريم في معانيه ومفرداته وتراكيبه وجمله في شعر أبي العلاء المعري وتهدف أيضا إلى الوقوف على مجمل الأحاديث النبوية ومدى استفادة الشاعر منها إضافة إلى التركيز على استخدام الشاعر لأسماء شخصيات دينية ، وتوظيف قصص الأنبياء والصحابة إن وجدت،وهذا ما سيشرع في تبينه من خلال هذه الدراسة.

أوّلا –القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف:

يحتل القرآن الكريم مرتبة عالية في نفوس الشعراء والأدباء؛ لأنّه غني بآيات محكمة وأسلوب رفيع معجز، وبلاغة مشرقة، إضافة إلى احتوائه على قيم فكرية وتشريعية؛ فهو دستور ومنهاج عظيم للأمة.

و يعد القرآن في اللغة العربية رافدا ومصدرا مهما لأغلب الشعراء ،فهو تاج أدبها وقاموس لغتهم ومظهر بلاغتها لذلك تلاحظ الشعراء و الأدباء قد استقوا منه إبداعاتهم وتجاربهم الشعرية والنثرية.

فوظيفته جلية وواضحة تكمن في تأسيس نصوص جديدة بلغة جديدة مشحونة بطاقة وأفكار عظيمة مستوحاة من عمق التراث وسيره المتمثلة في القصص أو الأحداث وأهم الشخصيات، وعليه فحينما تقرأ شعر أبي العلاء المعري تلحظ جليا تأثير القرآن في شعره ؛فهو مصدرا مهما استلهم منه الشاعر صوره وأشعاره وليس هذا غريبا على شاعر مثله لأنه نشأ في بيئة محافظة ورثته حفظ القرآن فأتقن قراءته و تفسيره انطلاقا من بيته الذي علمه أصول الدين وصولا إلى أشهر العلماء والفقهاء الذين كان لهم ضلوع مباشر في تعليمه.

وهذا ما انعكس على شعره الذي فاض بمختلف المفردات و التراكيب المقتبسة من القرآن، من ذلك قوله:

كاد الفتى يَعْبُبُّ فيها جـرعا يحسبها تسْعى ، و ليستْ تسعى

كما تسيُر، في الكثيب الأفعى ضِقْتِ بأحداث الزمـــان ذرعـــاً

لا والذي أطْبقتُهنَّ سبـــعاً ، أشتري بـــالسَّرد يوماً ضَرعـــاً[1]

فقد استثمر أبو العلاء المعري النّص القرآني في شعره معلنا به عن فكرة السموات السبع التي خلقها الله في ستة أيام ،و قد عبر الشاعر عن ذلك مستفيدا من النص القرآني إذ يقول تعالى﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ﴾[2].

وهكذا يأتي نص أبي العلاء متوافقا مع النص القرآني،فالنصين متلاحمين و ممتزحين مع بعض ، فمنحا بذلك هذا الشعر بعدا جماليا و فنياو يتابع أبو العلاء استثماره للنّص القرآني في شعره فقال:

و إذا تلّها الفتى ، بسراةِ الـ ـتّـ ـل ، سالت ، حتّى تبّن السّريرا [3]

لقد استغل أبو العلاء المعري بنية النص القرآني وصاغها في شعره ، وذلك من خلال تناصه من قوله تعالى:﴿ فلما أسلما و تلّه للجنين﴾[4]، فقد اقتبس من خلاله لفظة (تلها)؛ليعبر بها عن الدرع التي تسيل إذا رماها الفتى من أعلى التل حتى تستقر في أسفل الوادي، ويواصل القول بأنّ الدرع المسرودة هي من عمل داود عليه السلام حين قال:

فلاح للنّاظر ، في سردها آثار داود ، و لم تُظلم. [5]

وهي مأخوذة من قوله تعالى:﴿ لقد آتينا داود منّا فضلا يا جبال أوبي معه و الطير وألنّا له الحديد، أن اعمل سابغات و قدّر في السّرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير﴾ [6].

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 378.

[2]- سورة نوح /الآية 15.

[3]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص 336.تلها: صرها ، سراه التل :أعلاه.

[4]- الصافات /الآية 103.

[5]_أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص: 328.

[6]_ سبأ /الآية09 ،11.

فالله في سورة سبأ يقر بأنّه فضّله على النّاس سخر الحديد له و هذ ا ما جعله يسرد الدروع التي هي أساسا من حديد ،فمن خلال هذا الاقتباس حصل ما يسمى بالبعد الجمالي و الفني نتيجة التطابق بين مفردات الشعر و بعض مفردات النص القرآني .

كما تظهر هذه الاقتباسات من خلال نصوص أخرى من القرآن الكريم من مثل قول المعري:

نكّسْ تِ قُرطيكِ تعذيبا وما سَحراً أخلْتِ قُرطيك هاروت وماروت[1]

إنّ المدقق للنّص الشعري السابق سرعان ما يستحضر قوله تعالى:﴿ وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾[2]،فقد استوحى الشاعر من خلال توظيف أسماء هاروت وماروت التي جاءت في القرآن بمعاني منها ضرورة أخذ الشخص للعقاب إذا ما عصى ربه مثلما فعل مع هاروت وماروت بعد ارتكابهما لفعل المعصية للخالق،فخيّرا بين عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا فنكسها الله على رؤوسهما معلقين ببابل إلى يوم القيامة.

وتوظيف الشاعر لهذين الاسمان و استكشاف قصتهما لدلالة كبيرة على فهم المعري وهضمه لقصص وتعاليم الدين.

ومن بين أروع توظيفات النص القرآني في شعر المعري ما نقرأه في قوله:

إلهنا الله ، ملكٌ أوّل، أحدٌ تٌطيعه من صنوف النّاس آحاد [3]

فقد عبّر المعري عن طريق شعره عن إيمانه بالله موحدا له سبحانه و تعالى، و قد أثبت ذلك من خلال اقتناصه لقول الله تعالى:﴿ قل هو الله أحد الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤًا

---

[1]_أبو العلاء المعري : سقط الزند ،ص :20.

[2]_ سورة البقرة /الآية 102.

[3] – إبراهيم مصطفى محمد الدهون : التناص في شعر أبي العلاء المعري، ص: 121.

أحد﴾[1]؛حيث يشير النص القرآني لوحدانية الله وربوبيته وينفي تعدد الآلهة وهكذا يأتي نص أبي العلاء متوافقا مع النص القرآني حاثا الناس على طاعته و توحيده .

كما وظف مفردات سورة الناس في شعره،فقال :

أبلستُ من وسواس حلّي خلتُه إبليس وسوس في صدور الناس[2]

فقد كشف هذا البيت الشعري عن إعادة كتابة ألفاظ ومفردات سورة الناس؛حيث قال:﴿ قل أعوذ برب الناس،ملك الناس،إله الناس،من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس﴾[3]،<<و المتصفح لآيات سورة الناس،يلحظ أنّها جاءت تفريعا للشيطان وأفعاله ووسوسته، وتحذير النبي البشر من أن يقعوا في مكائده،لأنّه قضى حياته مغريا بالإنسان وجالبا للشر>>[4]، وقد استغل المعري هذه الآيات ووظفها ضمن سياق كلامه؛حيث صّرح بأنّه وقع في وسوسة الشيطان ومدلولها يتكشف من خلال لفظة (أُبلستُ) ويتابع أبو العلاء استثماره للقرآن ويظهر ذلك في قوله:

و بَعدها لا أريد الشُربَ من نهر ، كأنّما أنا من أصحاب طالوتا [5]

فتكشف مفردات هذا النص الشعري عن اقتباس وإعادة للنص القرآني الذي يقول فيه تعالى:﴿فلما فصل طالوت بالجنود قال إنّ الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنّه مني غلا من اغترف بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم..﴾[6].

---

(1) – سورة الإخلاص/الآية1 - 4.

(2) – أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج2، ص: 48.

(3) – سورة الناس /الآية 1-6 .

(4) – إبراهيم مصطفى محمد الدهون: التناص في شعر أبي العلاء ، ص: 123.

(5) – أبو العلاء المعري :سقط الزند ، ص: 296.

(6)_ سورة البقرة / الآية 249.

فنص القرآن يحث فيه الله سبحانه وتعالى بضرورة إتباعه وإتباع طريقه فضرب مثلا بطالوت وجنوده حين أمرهم بعدم الشرب من النهر،لأنه من شرب منه لا يعد من جنود طالوت.

فكأنّ المعري هنا بصياغتهلذلك البيت أجاب على طالوت فأكد له، بعدم شربه من النّهر ومن ثم هو من أصحابه و جنده.

و يأتي قوله موظفا للفظة(الرحيق) الذي قال عنه الله:﴿ يسقون من رحيق مختوم﴾ [1].

متناسقا مع قول المعري:

فدونك مختوم الّرحيق ، فإنما لتشرب منه كان يحفظ بالختم[2]

وتجده وقد وظف ألفاظا و مفردات جاءت في سورة المسد على نحو قول المعري:

تنافس قومٌ على رتبة كـأن الزمان يُـديم الُرتب

ودنياك غُرَّ بها جاهل فتبّتْ على كل حال و تبْ[3]

فمفرداتها مأخوذة من سورة المسد ؛حيث يقول تعالى:﴿تبّت يدا أبي لهب وتبّ ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد ﴾ [4].

وقوله:

وإذا الأرضُ وهْي غُواءُ صارت مِنْ دَم الطعن وردة كالدهان[5]

فقد استثمر أبو العلاء المعري الألفاظ التي لها علاقة بيوم القيامة،بما فيها من مظاهر الهول والفزع مستلهما هذه المعاني من النص القرآني الذي عبر فيه الله عن هول يوق القيامة في سورة الرحمن

---

[1]_ المطففين / الآية 25 .

[2]_ أبو العلاء المعري: سقط الزند ، ص: 195.

[3]_ أبو العلاء المعري :اللزوميات ،ج1، ص :130.

[4]_ سورة المسد /الآية 1.

[5] – أبو العلاء المعري: ديوان سقط الزند ، ص :244.

فقال:﴿ فإذا انشقت السّماء فكانت وردة كالدهان﴾[1]؛حيث تكمن العلاقة بين نص المعري ونص القرآن في ذلك المشهد الذي يجمد يوم القيامة وموقف النّاس الناظرين له وحالتهم فيها،فكثف الشاعر بذلك دلالات الهول والفزع من خلال توظيف مفردة (وردة كالدهان)،بالإضافة إلى إكثاره من مفردات المرادفة للموت(كالدم ،الطعن)، كما وظف مفردة (كالعهن) في قوله:

فيا ليت شعري هل يخفُّ وقارُهُ إذا صار أُحْدٌ في القيامة كالعهن[2]

ومرجعية الشاعر هنا مرجعية قرآنية وظفها بشكل مباشر بواسطة اقتباسه للآية الكريمة التي يقول الله فيها:﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ [3].

فهذه المقطوعة من الشعر رسمها المعري لرثاء والده الذي بدأها بقوله(فيا ليت شعري)،كما حاول إبراز صفات والده المحمودة فكان شديد الوقار ولكنه يحدث نفسه فهل يخف هذا الوقار الذي رسمه لوالده يوم القيامة حين يفقد كل مخلوق تماسكه حتى الجبال تصبح كالعهن المنفوش.

وبعد هذه الدراسة يظهر من أن النصوص الشعرية المقتبسة من النص القرآني فهي كثيرة وإن حاولت بدراستها والتعريج إليها بالكامل – رغم المحاولة– فلم يسع المقام لذكرها ككل ولكن لا عليه سوف تُدخل كل هذه الاقتباسات في جدول إحصائي.

ولم يكتف أبو العلاء المعري باستعمال النصوص القرآنية وتوظيفها لإخراج نصوصها الشعرية، بل تعداه إلى توظيف لمختلف المصطلحات لها علاقة مباشرة بأصول الدين من مثل قوله عن الصلاة:

وعند ضياء الفجر صليت الضحى وعند غروب الشمس صليت العصر

و ما يجعل التقصير في كل موطن و لا كلّ مفروض الصّلاة له قصر[4]

---

[1]– سورة الرحمن/الآية37.

[2]– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 237.

[3]– سورة القارعة /الآية 5.

[4]– أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1، ص: 278.

ففي هذه الأبيات أراد المعري أن يبين أهمية الصلاة التي أقّرها الدين الإسلامي فهي ركن من الأركان الخمسة،فذكر نوعين من أنواع الصلاة ، صلاة الضحى التي توجب بعد ضياء الفجر، وصلاة العصر التي تقام بعد غروب الشمس .

كما أكّد في البيت الثاني وجوب الصلاة وعدم التقصير فيها مادامت مفروضة على الإنسان غير القاصر تؤدى في وقتها مع التسبيح و الاستغفار، يقول :

وكـأنّ تسبيحا هديل حمامة في مجد ربّـك ألفت سجعاتها

و ترى الصّلاة على الغوي ثقيلة مثل الهضاب تؤوده ركعاتها [1]

ويقول المعري عن الاستغفار وفوائده:

استغفر الله واترك ما حكى لهم أبو الهذيل وما قال ابن كلابي

فالدّين قد خسّ حتى صار أشرفه بازا لبازين أو كلـبا لكـلاب[2]

فيتكشف من خلال النص الشعري الأّول أنّ المعري قد وظف تلك المصطلحات الدينية المستوحاة من تعاليم الدين،فأقر بالتسبيح لله بقول(سبحان الله) بعد الصلاة تمجيدا لقدرة الخالق وتعظيما لشأنه،وهو في ذلك شبيه بهديل حمامة بصوتها الغناء تطلق سجعاتها في مجد وسبيل الله.

و في النص الشعري الثاني أشار إلى ضرورة استغفار الله عن كل الذنوب الصغيرة والكبيرة،فبه تفتح الأبواب و تبعث الأرزاق و تغفر الذنوب، وهي كلّها مستوحاة من معرفة المعري بأصول وتعاليم هذا الدّين.

ووجد في سياق آخر قد استعمل لفظة (الحمد لله، إضافة إلى كلمة نبي)وهي تعابير خالصة من وحي ديننا،يقول:

الحمد لله ما في الأرض وداعة كلّ البريــة في هم و تعذيب

---

[1] – أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1، ص: 142.

[2] – المصدر نفسه: ص: 109.

جاء النبي بحق كي يهذبكم فهل أحسّ لكمطبع بتهذيب[1]

فتأدية الصلاة والتسبيح والاستغفار وحمد الله على كل شيء هي من الشمائل الحسنة التي وصّانا بها وقد ذكرها في قوله:

أتحملني إلى الغفران عيسى على نص الوجيف مؤجدات

و لا تخشى الخطوب مسجّات بعزّة ربّــهن ممجــدات

أرى حسن الشمائل ضك حثت عليه الأيمن المتوسدات[2]

فمعرفته بحسن الشمائل وإقرارها جعلته يتقي الله و يتحاشى إغضابه بارتكاب ما حّرم الله ويدخل في نها السيّ اق امتناعه عن شرب الخمر، يقول:

لو كانت الخمر حلاّ ما سمحت بها لنفسي اللّهر لا سّرا و لا علناً

فليغفر الله كم تطغى مآريـــــنا وربّ نا قد أحلّ الطيبات لنــا [3].

لقد استفاض أبو العلاء المعري قوله في ذم الخمر،فرفضها رفضا مطلقا بعد إقراره بتحريم الإسلام لها كونها تذهب العقل وتجعل شاربها فاقدا لوعيه وإدراكه مما يقوده إلى التهور والطيش،فرأى الشاعر من الحكمة والفطنة تركها و الابتعاد عنها،وهو يسخر ممن ينأى عن الطيبات التي أحلها الله.

و تمحور تناص أبي العلاء المعريّ (وربنا قد أحل الطيبات لنا)،مع خطاب الله بقوله:(قل أحّل لكم الطيبات)فقد وظف المعري النّص القرآني السابق ببراعة و الهدف منه يهم المجتمع وهو نبذ الخمر، لأنّه مفسدة و هلاك للبشر، كما استفاد المعري من تعاليم الدين من مثل النصاب في الزكاة،فيقول:

إذا وهب الله لي نعمــة أفدتُ المساكين مّما وهبْ

---

[1]– المصدر السابق: ص: 112.

[2]– المصدر نفسه:ص :139.

[3]– إبراهيم مصطفى محمد الدهون :التناص في شعر أبي العلاء المعري ،ص :132.

جعلتُلهم عُشر سقي الغمام أعطيتهم ربُع عشر الذهب

وإلاّ فليس على قـــادح إذا ما كبا الزّند دفع اللّهب

ولو أرسِلت في المهب الجنوب لما عجزت عن سلوك المهب[1]

فمعرفته بتعاليم الدين وتوظيف بعض المصطلحات فيها جعلته يتمكن من معرفة الأحكام المتعلقة بتلك الألفاظ،خاصة إذا ما تعلق بركن من أركان الإسلام كالزكاة،وهذا ما جعله يقّر بحقيقة النّصاب.

كما اعتمد المعري في شعره المستشف من خلال ديوانيه سقط الزند و اللزوميات بجزئيه،إضافة إلى توظيف مفردات مستهلة من النّص القرآني ومصطلحات دينية مأخوذة من عمق الوحي الإلهي في تركيب أبياته الشعرية على بعض أعلام القصص القرآني،وهي جميعها تدخل ضمن التناص القرآني.

فأعلام القصص القرآني كثيرة و متنوعة وقد استغلها المعري لتأكيد وإنماء دلالته وتوثيقها من ناحية أخرى ،ومن هذه الأعلام " سليمان" عليه السلام و قصته مع الصلاة، يقول:

مثل ما فاتت الصلاة سليما ن، فأنحى على رقاب الجياد[2]

فسليمان هو نبي الله،ويشير أبو العلاء إلى قوله تعالى:﴿إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد فقال إنّي أحببتُ حُبَّ الخير عن ذكر ربي حتى توارتْ بالحجاب ردوها علّي فطفق مسحا بالّسوق والأعناق﴾، ويقول:﴿ و لقد فتنا سليمان و ألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب﴾سورة (ص) [3].

فالجسد هو ولُدُ ولِد لسليمان،و لما ولدا اجتمعت الشياطين وقال بعضهم لبعض إنْ عاش له ابن لم نفك ممّا نحن فيه من البلاء،فتعالوا نقتل ولده،فعلم سليمان بذلك فأمرا الريح حتى حملته إلى

---

[1]- أبو العلاء المعري:اللزوميات ،ج1، ص :130.

[2]- أبو العلاء المعري:سقط الزند ،ص :201.

[3] –سورة (ص)/الآية 34،31.

الّسحاب وغدا ابنه في الّسحاب خوفا من مضرة الشياطين،فعاقبه الله بخوفه من الشياطين،فلم يشعر إلاّ وقد وقع على كرسيه ميتا.

فهنا وظف الشاعر اسم سليمان مع لفظة الجياد الموجودة في النص القرآني،ليعكس بها كيف أنّ النبي سليمان قد فتن بالخيل فانشغل بها عن صلاة العصر،مما أحزنه الأمر،فجعل يضرب الخيل التي أنسته ضالته.

و يتابع أبو العلاء استثماره للنص القرآني في نفس السياق يقول:

وهو من سُخرت له الإنس و الجـ نّ ، بما صحّ من شهادة صاد[1]

فهو يشير بها إلى ما ورد في الآيات(36-37-38) من سورة (ص)،يقول:﴿ فسخرنا له الريّح تجري بأمره رخاء حيث أصاب و الشياطين كل بناء وغواص،وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ [2].

ووظف اسم هارون الرشيد،ذلك البطل الإسلامي الذي رسم شخصية مميزة في التاريخ، يقول عنه:

تسّمى رشيدا من لؤي بن غالب أمير وهْل في العالمين رشيد[3]

كما وظف فقهاء ورواة مشهورين آنذاك، يقول :

يا سعدُ إنّ أبا سَعدٍ لحادثة أمسى الحمام يسمى عنده فرجا[4]

و" أبو سعد" هو زيد بن مناه بن تميم أشهر الفقهاء،والإمام علي بن أبي طالب كان له حظ ونصيب في شعر أبي العلاء المعري فذكره و ذكر قبره و أشاد به،يقول :

وما صحّ للمرء، المحصّل أنّـــه بكوفان قبٌر للإمام يُزار

---

[1] – أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :201.

[2] – سورة (ص) / الآية 36 ،37، 38.

[3]– أبو العلاء المعري:اللزوميات ،ج1، ص :214.

[4] – المصدر نفسه: ص: 176.

أخو الدين من عادى القبيح وأصبحت له حجرة من عفة و إزار[1]

فالإمام الذي قبره ما صح له أن يزار هو علي بن أبي طالب تلك الشخصية البارزة في التاريخ الإسلامي، كما استخرج من شعره كل ماله علاقة بالأنبياء يقول :

طال وقوفـ ي وراَء جِسر وإنّـما ينظر العبـــور

إنّ ابن آسى مضى و لكن دلّ على فضله الزبـــور

كتاب محمد و كتاب موسى وإنجيل ابن مريم و الزبور

نهت أمما فما قبلت وبارت نصيحتها فكّل القوم بور[2]

ففي هذه الأبيات استطاع الشاعر أن يوظف أسماء بعض الأنبياء والرسل، فقد استهل حديثه بالنبي داود الذي هو رمز للسيطرة والنفوذ من خلال لفظة (ابن آسى) ويقر بفضله في المجيء بالزبور.

وواصل بالتحدث عن محمد نبي الله ورسوله و إمام المرسبين المبشر والمنذر والحامل لدين الله وفاتح الرسالة الإسلامية كما ذكر كتاب موسى كليم الله.

فهي كلها توظيفات لأسماء أعلام لها وزنها في التاريخ الإسلامي وهذا ما يعكس عمق الثقافة الإسلامية التي تشرب بها أبو العلاء المعري.

ويتخذ من أعلام القصص القرآني قصة موسى كليم الله الذي كره الموت ، و يزعم بأن يوشح رآه في المقام فقال: كيف وجدت الموت يا نبي الله ؟ فقال كشاة تسلخ وهي حي ويظهر هذا بقول المعري:

وما استعذبته روح موسى و آدم وقد وُعدا ، من بعده جنتي عَدن [3]

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، 286.

[2]- المصدر نفسه: ص: 297.

[3]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 185.

ويستطيع القارئ الجيد المتفحص لشعر أبي العلاء المعري أن يكتشف شخصية النبي(إبراهيم) في مواضع متعددةوهي شخصية كانت رمزا للنّسك والورع والطاعة،فضلا عن صفة التحدي الموجودة لديه، فكثيرا ما كان يجابه من يعبدون الأصنام والأزلام،فها هو المعري يكتب مرثية يرثي فيها أبا إبراهيم العلوي و يخاطب أولاده،يقول:

إذا قيل نُسْكٌ فالخيل بن آزر و إن قيل فَهْمٌفالخيل أخو الفهم

أقامت بيوت الشّعر تحكم بعده بناء المراثي وهي صور إلى الهدم

نعيناه حتى للغزالة و السُّهى فكــل تمنى لوفداه من الحتم[1]

وينطوي على معان داخلية،حيث حاول الشاعر الربط بين صفات(أبو إبراهيم) المتوفى وأولاده، و ملامح شخصية سيدنا إبراهيم.

كما نجد اهتمام المعري واضحا بشخصية النبي عيسى في إطار حديثه عن مشي النّساء بلين ولطف،يقول:

أعُمْتِ إلينا أم فعال ابن مريم فعلْتِوهل يعطى النبّوة مكسال[2]

يوظف أبو العلاء معجزة النبي" عيسى"فيصف مشيهُ على الماء بخفة وهدوء ، لإبراز صور مشي المحبوبة الناعمة المدللة بقوله: أطُفْتِ فوق الماء كما يطوف السّابح ؟ أم مشيتِ على الماء كما فعل عيسى عليه السلام؟

غير أنّه يؤكد لها بأنّها حتى وإن فعلت كما فعل " عيسى" ومشيت على الماء فإنّها لن تنال النبوة ، لأنّ النبوة للرجال فقط دون النساء وهذا ما فسّره قوله في الشطر الثاني من البيت (و هل يعطي النبوة مكسال؟).

ويوظف أيضا شخصية النبي" سليمان"،يقول:

---

[1]– أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص :218.

[2]– المصدر نفسه: ص: 150.

وُجند سليمان رأى السَّيف حولها فحاذر نَمل كَبَّ فيه من الحطم [1]

فهنا إشارة إلى قوله تعالى من سورة النمل:﴿ حتى إذا أتوا على واد النملقالت نملة يا أيّها النّمل أدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم يشعرون﴾[2].

فإذن المعري استحضر الكثير من الشخصيات القرآنية ومزجها مع نصوصه الشعريّة و قد وظفها بشكل كبير حتى صعب علّي ذكرها كلّها ؛لأنّ المقام لا يتسع لذلك،ولكن مهما يكن فإنّ التداخل بين نصوص المعري الشعريّة و النصوص القرآنية يكشف عن براعة المعري،كما يعرفنا بقدرة الشاعر ومعرفته بالقرآن الكريم وإعجازه وشخصياته وقصصه.

هذا بالنسبة للقرآن الكريم ، أمّا فيما يخص المصدر الثاني بعد القرآن الذي استعمله المعري واستند عليه ألا وهو الحديث النبوي الشريف الذي يعدّ رافدا مهما من روافد التشريع الإسلامي يأخذ منه المسلمون سلوكياتهم و صفاتهم و تشريعات إسلامية كثيرة.

<< وهناك من الأحاديث النبوية الشريفة ما يتصل بالواقع الموضوعي من عبادات ومعاملات،وما يمكن أن يندرج تحت مصطلح الإنشاء عند البلاغيين،ولكن من الأحاديث ماله صلة بالكون وأسراره ، ومبدئه وصورته ولا سيما الجانب اللامنظور منه>>[3].

ويشكل الحديث النبوي الشريف في شعر أبي العلاء مادة خصبة ومصدرا أساسيا من المصادر التي اعتمد عليها في تجربته الشعرية؛حيث وظف أسلوبه ونوره توظيفا مناسبا ومتداخلا مع نصه الشعري وهذا – طبعا- للتعبير به عن مجمل القضايا الإنسانية والفكرية والحضارية .

و تبدأ الدراسة بتوضيح استلهام واقتباس الشاعر من الحديث الشريف،حيث احتلت شخصية الرسول التي بقيت راسخة لمزاياها الحسان في أذهان الناس،فقدم لوحة فنية يمدح ويثني فيها المعري على شخص الرسول.

---

[1]– المصدر السابق:ص :212.

[2]– سورة النمل/ الآية 18.

[3]– محمد عجينة:موسوعة أساطير العرب ، ص:96،95 .

يقول:

دعاكُم إلى خيرِ الأمور محمّد و ليس العوالي في القنا كالسّوافل[1]

كما يزخر شعر أبي العلاء المعري بالكثير من القيم والمثل العليا والفضائل التي استقاها المعري من أحاديث النبي وأقوالها منها ماله علاقة بالنساء،فيوصي بالمحافظة عليهن والتعامل الجيد معهن ؛ لأنهن في رقتهن وليونتهن ونعومتهن كالزجاج الذي ينكسر بسرعة إذا ما تعرض لقسوة أو خدش حيث يقول المعري:

زُجاجٌ إن رَفقتَ بـــه و إلاّ رأيتَ ضروبه متقصّمات

وصُن في الشرخ نفسك عن غوان يزرن مع الكواكب معتمات[2]

وهو في بيته هذا يكون قد استلهم معناه من الحديث النبوي الشريف وتوظيف معطياته؛حينما قال (ص):<<رويدك بالقوارير>>[3]،التي تنطوي على دلالات كضرورة التعامل برقة وليونة دون خشونة مع النساء.

فهو بذلك يكون قد مزج بين نصه الشعري ونص الحديث وعامل الاشتراك في تلك الكلمات التي وظفها المعري في سياقه(زجاج) الذي يدل على الرقة و(رفقت) من الرفقة وعدم استعمال الخشونة،وأيضا(متقصمات) الذي يدل على الانكسار والجرح والانقسام،وهي كلها تتداخل مع كلمات الحديث الشريف ممثلة في لفظة (قوارير)،كما أشار أبو العلاء المعري بقوله:

و لستُ بالنّاس غيثا ، همى إلى السِّماكين و لا المرزم[4]

فهو يريد بقوله هذا أنه لا ينسب الأمطار إلى الأنواء، كما يفعل العرب،و في الحديث أنّ النبي (ص)قال في قوله تعالى:﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ قال: يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا.

---

(1)– أبو العلاء المعري: اللزوميات ، ج2: 476.

(2) – أبو العلاء المعري : اللزوميات، ج1، ص :161.

(3) – أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري ، دار إحياء التراث (د، ط ، د، ت) ، حديث رقم 5809.

(4) – أبو العلاء المعري:سقط الزند، ص: 331.

ومن نماذج استدعاء أبي العلاء المعري للنّص النبّوي والأخذ من معانيه وألفاظه ما روي عن خروجه إلى(صالح بن مرداس) عندما دخل المعرة،وأخذ يرميها بالمنجنيق،فخرج له أبو العلاء بعدما كان معتزلا الناس؛ليشفع له ولأهل المعرة،فقال بيتين في ذلك هما :

نجّى المعاشر من براثن صالح ربُّ يُفرج كلّ أمر معضل

ما كان لي فيها جناح بعوضة و الله ألبسهم جناح تفضل[1]

فقد اقتبس المعري في بيته الثاني ألفاظه ومعانيه من الحديث الشريف،حين قال :<< لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ما >>[2].

وهذا يعني أنّ الدنيا مثلما رسمها المعري بصورة سوداوية لا يوجد فيها شيء يعجب؛فهي لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وهذا دليل على احتقار الدنيا والانتقاص من وزنها والاستخفاف بها، وهو في هذا اقتبس مفرداته من ذلك الحديث النبوي الشريف.

فمفردات التي وظفها المعري في شعره المتمثلة في(ما كان لي فيها جناح بعوضة)تتقاطع مع مفردات الحديث النبوي الشريف في قوله عن الدنيا (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة)، ومهما كان من تداخل بين النصوص؛فإن الشاعر يوظف نصه المستوحى من الحديث النبوي الشريف ليؤكد على موقف وغرض يريد الوصول إليه وهو هنا التأكيد على رفض (صالح بن مرداس) لمعطيات الدنيا و ملذاتها من جاه ومال وشهرة ؛ لأنّ الدنيا لا تساوي عنده شيء،وهذا لكي يجعل(صالح بن مرداس) يعفو عن قوم المعرة و يصفح عنهم خاصة بعد مدحه له.

و لطالما أوحى(المعري) بالرفق بالحيوان والإنسان ومن بين الأشخاص الذي يستدعي أن نرأف بهم هم الوالدين، وخاصة الأم يقول:

العيشُ ماضٍ فأكرم والديك به و الأُم أولى بإكرام وإحسان

---

[1] – أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج2، ص :247.

[2]– أبو بكر عبد الله بن محمد العبسي: مصنف بن أبي شيبة في الأحاديث والآثار، دار الفكر ،1989، بيروت،حديث رقم 23،.

وحسبها الحمل والإرضاع تدمنه أمران بالفضل لا كل إنسان[1]

فالإحسان إلى الوالدين ضروري خاصة الأم التي تتفضل علينا بفضائل جمة لا يستطيع الإنسان ردها مهما حاول؛لعظم ما قدمت لنا كالحمل الذي يتعب ويرهقها،والإرضاع الذي ينقص من طاقاتها،إضافة إلى السّهر والتربية كل هذه الأشياء جعلت المرأة كفؤا بأن نحسن إليها،وهو في هذا يأخذ المعنى واللفظ من الحديث الشريف الذي قال فيه الرسول لرجل حين جاءه؛ليسأله عن أحقية الناس بصحبته ؟ قال له: أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أبوك ثم أدناك أدناك)[2].

فقد كرر الحديث لفظة الأم لما لها من تفضل علينا في نتيجة الحمل والإرضاع وهي متداخلة مع ما جاء في حديث النبي للصحابة ممثلة في (أمك ،أمك، أمك) وما تكرار النبي للفظة الأم أكثر من مرة إلا دليل على أحقية الأم بالصحبة و التذلل لها وبرها.

فبه رسم المعري صورة جميلة تعكس الارتباط الوثيق بالوالدين من طرف الأولاد ومهما يكن هذا التداخل بين نص المعري ونص الحديث النبوي،فإنّه لا يهم بقدر ما يهم الغرض الذي صيغت من أجله القصيدة خاصة وأنه مستوحى من كلام النبي ألا وهو الدعوة إلى الإحسان إلى الوالدين والبر بهما،كما دعا إلى ضرورة العناية بالأم أكثر من الأب لما لها من فضل علينا نتيجة الأسباب التي ذكرتها سابقا.

كما حاول الشاعر في سياق آخر أن يقتبس من كلام النبي ما يلاءم غرضه و كلامه،فقال :

لعْبتَ بسحرنا و الشّعر سحر فتبنا منه توبتنا نصوحا[3]

فالعرب كانت تسمي كل ما يستميل النفوس من كلام وغيره سحرا،وقد أخذ الشاعر لفظة (سحرا ،سحر) من كلام رسول الله حين سمع كلام عمرو بن الأهتم فقال له:(إنّ من البيان لسحرا ، و إنّ من الشعر لحكمة)[4].

---

(1)– أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج2، ص:387.

(2)– ينظر أبو محمد حسين بن مسعود البغوي: شرح السّنة ، المكتب الإسلامي ، ط2 ،1983، بيروت ،ج4 ، ص:13.

(3)– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :62.

(4)– مسلم بن الحجاج : صحيح مسلم ،دار طيبة ،(د ،ط ،ت) ، ج2 ،رقم 1065.

وهو في هذا يكون قد وافق نصه الشعري لنص الحديث واشتراكهما في إيصال معنى واحد مفاده أنّ الكلام الذي يستميل ويصل إلى القلب بسهولة وبدون قيود،هو كالسحر يتملك الإنسان ويسيطر عليه.

ومثلما كان أبو العلاء المعري رفيقا بأمه يذكر أنّه كان رفيقا بالحيوان لا يتجرأ على الإساءة إليه، ممّا دفعه إلى عدم التفكير في ذبحه و استباحة أكله كما يفعل البشر،لذا أحب الحيوان وأحب أن يعامله بإحسان إلى يوم الدين،فأوصى بعدم ذبحه وأكل لحمه،ولكن الناس لم يأخذوا بنصيحته فأدرك ذلك وإدراكه لعدم الانصياع لكلامه وعدم الامتثال والاكتراث بها جعله يوصي بالرأفة بها حتى وهي تذبح ويكون ذلك بسن الآلة حتى لا يتعذب الحيوان في الذبح، ولا يصرع الذبيحة بعنف، ولا يجرها بشدة ، وأن يسرع في ذبحها وإخفاء الآلة عليها حتى لا ترتعب وتخاف، وهذا ما أشار إليه في قوله:

رّوح ذبيحك لا تُعجله ميتته فتأخذ النّحض منه وهو يختلج[1]

وهي في ذلك يكون قد استند على نص الحديث الديني بقوله(ص) :<< إنّ الله عز وجل كتب الإحسان على كّل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليُحِدَّ أحدكم شفرته ، ثم ليريح ذبيحته>> [2].

فقد أشار الحديث إلى قضية أساسية تمثلت في الإحسان إلى كل شيء،حتى على الذبيح والقتيل، وقد تمحورت ألفاظه ومعانيه حول آداب الذبح التي تلخصت في كل من (رّوح ذبيحك،لا تعجله، يختلج)،وهي موافقة لما جاء في نص الحديث ممن خلال كل من (إذا ذبحتم ، أحسنوا الذبح، ليحد شفرته ، ليريح ذبيحته) ،وهي كلها مظاهر للرفق بالحيوان.

ومن خلال هذه التناصات في مجال الحديث تراءى أنّ المعري قد تأثر تأثرا بليغا لحديث نبينا محمد ،لذا استلهم مضامينه ومعانيه،ووظف ألفاظه في كثير من السياقات التي لوحظتا سابقا،وهو في

---

[1]– أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 309.

[2]– محمد ناصر الدين الألباني: غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال و الحرام، المكتب الإسلامي، ط3 ،1985 ، بيروت ، حديث رقم 38، ص: 40 .

ذلك استعمل الإيماء، والإيحاء، والإثارة، والاقتباس، والتضمين، وغيرها من الأساليب التي تنم عن عمق فكره وتشربه بالقرآن، وأحاديث نبينا الكريم.

وانطلاقا مما سبق يتضح أنّ تناص المعري مع النصوص الدينية ممثلة في القرآن من توظيف لألفاظه ومعانيه،إضافة إلى ذكر بعض المصطلحات الدينية وأهم أعلام قصاصيها،وكذا استخدام الحديث الشريف كانا واضحا في شعره،حيث تعتبر هذه النصوص الدينية مصدرا مهما لصياغة النصوص الشعرية وتركيبها،وبرغم أهميتها إلا أنّها ليست وحدها مسؤولة في تشكيل وبناء النص الشعري لدى المعري،بل استند في ذلك إلى روافد ومصادر أخرى كتعلقهم بالشعر القديم،وأخبار العرب وأنسابهم وتاريخهم.

ثانيا: الشعر القديم

إضافة إلى المصدر الديني الذي كان متمثلا في القرآن الكريم و الحديث الشريف يوجد مصدر آخر لا يقل أهمية عن المصدر الديني ألا وهو المصدر الثقافي ويقتصر على<< المادة التي يجري الإلهام بها، فهي نتاج قراءاته القديمة و تأملاته>> [1].

وعليه فإنه لا يمكن لأي عملية إبداع أن تقوم بدون روافد تساعد على مولدها ووجودها وتشكيلها فهذه المؤثرات ضرورية وتأثيرها واضح على المبدع.

ومن هنا تعد المصادر الثقافية أمرا مهما تساعد على الإلهام فمنه يستمد الشعراء في حالات كثيرة صورهم من الثقافة كالأخبار التاريخية التي اطلعوا عليها، والأشعار القديمة ،والحكم ،والأمثال التي يسمعونها والأساطير التي طالما ترددت على مسامعهم.

والمعري واحد من الشعراء الذين تشربوا بالثقافة ففهم مقولاتهم واستوعب أشعار العرب وعباراتهم وخبر طرائفهم في تصبح الشعر،حتى أنه في أحيانا كثيرة اقتفى أثرهم ونظم على طريقتهم وفي مواضيع متنوعة.

---

[1]- محمد الدسوقي:البنية التكوينية للصورة الفنية ، درس تطبيقي في ضوء علم الأسلوب، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع ، جامعة طنطا، كلية الآداب ،2009 ، ص :128.

فإلمامه بالشعر العربي و معرفته بالتراث العربي جعل منه إنسانا مثقفا؛فجاءت بذلك تجاربه الشعرية موحية ومفيدة قدر الإمكان.

ومن خلال دراسة شعر المعري يتم الدخول إلى نصوص الشعرية بحثا عن تجليات التناص والاقتباس من النصوص الشعرية الأخرى القديمة ابتداء من الشعر الجاهلي وصولا إلى العصر الأموي وانتهاء بالشعر العباسي،وهو شعر عصره،فهي كلها نصوص قد تكون سببا في تشكيل نصوص أخرى للمعري من خلال ديوانيه سقط الزند و اللزوميات بجزئيه.

لذا ولأهمية الشعر القديم عند المعري تراءى أنّه استعمل كثيرا نصوصا مرجعياتها تعود إلى الشعر القديم خاصة الجاهلي،وهذا ما ظهر مع شخصية(امرؤ القيس)،فهي نموذجية استلهم الشاعر منها الكثير وما هذه الدراسة إلا محاولة لاستثمار هذه الشخصيات،وتجاربهم الشعرية القديمة،وعلاقتهم بشعره.

وهذا ما يلمح في شعر المعري و استفادته من امرؤ القيس في واحدة من مزايا الشعر قديما،وهي الوقوف على الأطلال والبكاء عليها متشبها بمن قبله ألا وهو(ابن حذام)،وهذا بشهادة النقاد القدامى ، يقول المعري مؤكدا هذا الكلام:

ألم تر لامرئ القيس بن حُجر بكى متشبها بفتى حِذام[1]

وهذا يتطابق تماما مع امرئ القيس :

عُوجا على الطلل المحيل لأنّنا نبكي الديار كما بكى ابنُ حِذام[2]

فقد جسد المعري من خلال قوله السابق ظاهرة البكاء على الأطلال التي لم يأت بها حسب رأيه امرؤ القيس،بل سبقه إليها الشاعر(ابن حذام) ويكون بذلك قد اقتبس أبياته منها وبالضبط في شطر بيته الثاني الذي يقول فيه(بكى متشبها بفتى حذام)،قد أخذه من قول امرؤ القيس في حد ذاته

---

[1]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج 2، ص :329.

[2]– الكندي امرؤ القيس بن حجر: ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف، ط 4 ،1958 ، القاهرة ، ص:114.

حين قال(نبكي الديار كما بكى ابن حذام) مع وجود بعض التحويل في الألفاظ التي تحمل معنى واحد كتبديله لمصطلح (نبكي الديار كما بكى) واستبدالها بلفظة لها نفس المدلول،وذلك بقوله (بكى متشبها).

وقد أوحى المعري من خلال هذا التناسق و التداخل الحاصل بين نصه و نص امرؤ القيس إلى وعيه التام بحقيقة الطلل والبكاء عليه يجسد فكرة الموت والبكاء على الدنيا الزائلة،كما رسم المعري لوحة أخرى تكشف عن عمق التداخل الموجود بين نصه الشعري ونص امرؤ القيس،فظهر فيها واصفا لبلدته ،يقول:

في بلدة مثل ظهر الظبي بتّ بها كأنني فوق روق الظبي من حذر

لا تطويا السّر عني يوم نائبــة فــإنّ ذلك ذنب غير مغتـــفر[1]

فهنا صور أبو العلاء المعري تلك البلدة الذي كان يشبهها في استوائها وليونتها ونعومتها بظهر الظبي،ولكن كثرة الهموم والمخاوف من الهلاك فيها وطنت في نفسه حتى عاد يحس وكأنّه فوق قرن الظبي وهو ما عبر به بلفظة (روق)،وهو في هذا وقع ضحية للتشبيه بين نصه وما جاء به امرؤ القيس حين قال:

ولا مثل يوم في قُدران ظلته كأنّي و أصحابي على قرن أعفرا[2]

فهنا امرؤ القيس يشبه الهموم والقلق الذي يحيط بالإنسان وما يشعر به من أسى بصورة ذلك النائم على قرن أعفر إيحاءا منه على الشخص البائت ليلته قلقا حزينا.

فالتشابه حاصل بين النصين في المفردات والعناصر المكونة للبيت،وهذا ما جعل بيت المعري يتمتع بإثارة في الأسلوب وإحكام وإتقان في الصنعة.

وقد استثمر أبو العلاء المعري نص امرؤ القيس في سياق آخر ليعبر به عن ذلك الإحساس بالغربة والعزلة نتيجة فقده لبصره وخلانه وهو في بغداد ، يقول:

---

(1)– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 88.

(2)– امرؤ القيس بن حجر: ديوان ، ص: 70.

بنازلة ، سقط العقيق بمثلها دعا أدمع الكندي في اللّمن الُسقط

نجل عن الرهط الأمائي غادة لها من عقيل في ممالكها راهط[1]

حين قال :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللّوى بين الدخول وحومل[2]

فهنا الملاحظ أن المعري في بيته قد ذكر الموضع الذي أشار إليه امرؤ القيس وهو(سقط اللوى) غير أنّ المعري حاول تقديم لفظة على أخرى وتحويرها،فذكرها بـ(في اللّمن سقط)،وهذا المكان له أهمية عند امرؤ القيس؛فهو يذكر بالموضع الذي كان يلتقي فيه امرؤ القيس مع محبوبته غير أنها سافرت إلى مكان بعيد إلى أن نزلت في وادي يقال له (العقيق) وتذكر مثل ذلك المكان كان دائما يثير أشجان الشاعر الكندي ؛ لأنه يذكره بحبيبته مثلما يثير المعري فيتذكر محبوبته، فقد استحوذت فكرة البكاء على محبوبة فارقتهما؛ لأن امرؤ القيس فارقته امرأة حقيقية تختلف عن محبوبة المعري وهي نعمة العين والنظر التي فارقته ؛ فالعين بالنسبة للمعري و المرأة بالنسبة لامرئ القيس يمثلان المحبوبة، وقد ذكر لفظة (السقط) في مجال آخر قال:

مضى الواقف الكندي والسقط غابر وصاحت ديار الحي أين لبيد

تولى ابن حجر لا يعود لشأنــه وطالت ليال و المعالم بيد[3]

ومن خلال استقراء ديواني المعري(سقط الزند واللزوميات بجزئيه) لوحظ أنّه قام بالاقتباس من نصوص شعرية أخرى لشعراء غير امرؤ القيس،وهذا ما يعكس الثقافة الواسعة والاطلاع الواسع على مؤلفات الشعراء،ومن بين الشعراء المقتبس من أشعارهم نجد "عبيد بن الأبرص" الذي قال عنه:

سرحوب عمن سرى الله مبتعثا وحناء في الكور أو في السّرح سرحوبا

في لاحب يعودُ السالكــون بـه مثل ابن الأبرص لمــا عاد ملحوبــا

---

(1)– أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 106.

(2)– ليلى العمري: امرؤ القيس بن حجر، رحلة إلى الشرق أو إلى الغرب ، ص :13.

(3) – أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص: 213.

فالأبرص في الشعر الأول هو عبيد بن الأبرص ذلك الشاعر الجاهلي الذي لقيه النعمان في المنذر يوم بؤسه فقدم إليه لقتله،وأمره بأن ينشد له شعر،فقال له (عبيد):(حال القريض دون الجريض)؛ فقال أنشدني مرة ثانية أقفر من أهله ملحوب، فقال له عبيد:

أقفر من أهله عُبيد فهو لا يبدي و لا يعيد[1]

وإذا أريد تحليل قول المعري الذي ذكر فيه(عبيد بن الأبرص) نجده يعتبر إقرارا منه بأنّ الحياة تنتهي طريقها بالموت مثلما انتهى الأبرص ؛لأنّه سلك طريق لم يعد منها،وهذا الطريق قد سلكه الكثيرون قبله ولم يعودوا كلهم، ومثله ماجاء به (عبيد بن الأبرص)؛حين قال:

أقفَر من أهله ملحوب فالقُطبيات فالذنوب[2]

وهنا يوجد إشراكا واضحا بين بعض ألفاظ المعري وألفاظ عبيد منها (لاحب، ملحوبا)،فقد تناص مع شعر عبيد بن الأبرص لفظا ومعنى،وهي إشارات واضحة عن الموت،وهذا ما أكده المعري بقوله:

فإن عبيدا وابن هند وتُبّعا وأسرةكسرى للمليك عُبيد[3]

فمصير الأقوام التي خلقها الله تعالى كمصير من سبقها كقوم عمرو بن هند وقوم تبع وملوك كسرى،فكل هذه الأقوام أبيدت،فكل من فيها فان ولا يبقى إلا وجه الجلال الإكرام (الله)؛فالهدف من هذا البيت الذي نسجه المعري هو التأكيد عل فناء البشرية و نهاية الحياة،وهو في هذا يكون قد اقتبس كلامه من شعر(عبيد بن الأبرص) السابق،فما هذا إلاّ تأكيدا على كلامه.

ولقد اتخذ المعري من أشعار النابغة الذبياني وأفكاره محورا رئيسيا دارت حوله معظم أبياته منها قوله:

عُرفت جدود إذْ نطقتَ وطالما لغطَ القطا فأبان عن أنسابه[4]

---

(1)– أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1،ص: 89.

(2)– عبيد بن الأبرص: الديوان، شرح أشرف أحمد عدرة ، دار الكتاب العربي ، ط1، 1994، بيروت، ص: 19.

(3)– أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1، ص: 213.

(4)– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 21. لغط : صّوت . القطا :ضرب من الحمام البري.

أشار المعري من خلال هذا البيت إلى أن الممدوح قد عرف نسبه وأجداده من خلال الكلمات التي نطق بها،وهو في هذا مثل القطا التي يعرف نسبها بمجرد إصدار الصوت.

كما اتفق المعري مع النابغة في شعره؛حين شبه الممدوح بالشمس لكثرة عطائه وكرمه،يقول:

أنت شمسُ الضحى فمنك يفيد الـ صُبح ما فيه من ضياء ونور

وكسا الأرض خدمة لك يـــامو لاه دون الملوك،خطر الحرير[1]

و في بيته هذا يكون قد اقتبس من شعر النابغة الذي قال:

فإنّك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب[2]

فالنابغة أراد بهذا البيت أن يقدم صورة مثالية للممدوح، فشبهه بالشمس،فجاء المعري بعده واقتبس(فإنك شمس)؛فقد أعاد كتابة هذا النص ولكن بصيغة جديدة مع الاحتفاظ بنفس المعنى.

كما وقف الشاعر يستكشف شعر (لبيد بن ربيعة)،فأراد استثمار أقواله ليستفيد من تجربته الشعرية ، يقول :

ولا أدّعي للفرقدين بعزة ولا آل نعشٍ ما ادّعاه لبيد

وكم ظالم يتلذذ شهدا كأنه ظليم تراه بالفلاة هبيـد[3]

وهو موافق لما جاء به لبيد بن ربيعة قبله حين قال :

فهل نُبئتَ عن أخوين داما على الأيام إلاّ ابني شمام

وإلاّ الفرقدين و آل نعشٍ خوالد ما تحدث بانهدام[4]

---

(1)– أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص:85.

(2)– النابغة الذبياني: الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ،دار المعارف ، 1977 ، القاهرة ،ص:74.

(3)– أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص:213 .

(4)– لبيد بن ربيعة : الديوان، شرح الطوسي قدم له ووضع هوامشه وفهارسه حنّا نصر الحتي ، دار الكتاب العربي، ط1، 1993 ، بيروت ،ص: 259 ،260.

فالمتتبع لبيت المعري يجده قد اقتبس منه لفظه(الفرقدين) وكذا(آل نعش)،ولكنه أعاد توظيفها وبصيغة معكوسة على ما جاءت عليه في بيت (لبيد)،فتجد (الفرقدين،آل نعش) في شعر (لبيد) لها دلالة على الخلود المستنبطة من لفظة (خوالد) في بيته ودالة على المجابهة والتصدي والبقاء،فجاء المعري بنفس الألفاظ ولكنه وظفها في معنى مغاير؛حيث تعني عنده على الانتهاء والانهدام وهو هنا يكون قد طابق بكلامه ما جاء به (لبيد) على مستوى الألفاظ ولكن المعنى يختلف؛ فقد نفاه باستعمال لفظة(ولا ادّعي، ما ادّعاه لبيد) وهي دالة على نفي ما جاء به (لبيد بن ربيعة)؛لأنّه لا شيء يبقى في الكون وكلام (لبيد) غير صحيح.

وثمة إشارات كثير للمعري وتناص عديد له مع الشعراء السابقين خاصة الجاهليين والإسلاميين وعلى الشاكلة نفسها تجده يقتبس من شعر (جرير).

فقال:

وثّرا خلت أنجمه عليه فهلّا خِلْتهن به ذُبالا[1]

ومثيله ما جاء به جرير عندما أخذ يهجو الأخطل قال:

سرى نحوكم ليلٌ كأنّ نجومه قناديل فيهن الذّبال المُفتل[2]

فقد شبّه جرير كعادة العرب قديما النجوم التي تضوي الليل الحالك،كأنّها مصباح أشعل لينير الطريق وقد استغل المعري فكرة تشبيه النجوم بالذبال،وهي الفتائل المشتعلة وطرحها في شعره عن طريق التناص مع شعر جرير بألفاظ صريحة وواضحة بعيدة عن الإيماء و الإشارة.

فقد فجّر المعري من خلال ألفاظ جرير المتمثلة في(كأنّ نجومه،قناديل،الذبال المفتل) طاقات إبداعية هائلة،وقد نسجها في شعره من خلال المفردات التالية(أنجمه خلت،خلتهن،ذبالا) وهو يعبر

---

(1)– أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 166.

(2)– جرير بن عطية: الديوان ،تحقيق نعمان محمد أمين طه ، دار المعارف ،1969، القاهرة ،ج1 ، ص :141.

من خلاله عن تعنيف نفسه، لأنّه لم يصل من خلال سفره إلى مبتغاه،فحمله الظن الفاسد إلى أشياء لم يتوقعها،فشبه ذلك بالنجوم التي توهمها دررا متسائلا عنها بلفظ (هلا).

فبرغم التقارب السابق بين نص المعري وجرير وأسبقية جرير،لرسم الصورة الفنية وتكوين ملامحها وانتقاء ألفاظهم القديمة،إلاّ أنه يظل لأبي العلاء دورا أساسيا في تحوير الألفاظ وجعلها تتلاءم مع سياق القصيدة .

ويبدوا أن أبا العلاء المعري شديد الارتباط بالتراث العربي وحريص على توظيفه وتنوير شعره بتلك الإضاءات المشرقة،فلم يكتف المعري بما جاء من أشعر منتقاة ألفاظها ومعانيها من أشعار القدامى،وإنما استمر باستحضار النصوص الغائبة ،فعمد إلى النهل من ألفاظها ومن أسلوبها ومعانيها و تحويرها بحسب السياق،و يظهر ذلك أكثر في التناص مع المتبني،وذلك من خلال قوله :

إن يكن عيدهم بغير هلال فـالهلال المنير وجه الأمير

راقهم منظرًا وهابوه خوفًا فهو مك العيون،مك الصدور[1]

فقد شبه أبو العلاء المعري ممدوحه بالهلال وهي صورة من صور الطبيعة،فلا يمكن أن يحتفل الناس بالعيد إلّا بعد رؤية الهلال فوجوده ضروري لكسر الصيام والفرحة بيوم العيد مثله كمثل وجه الأمير الذي يشع نورا،فهو كالهلال منظره جميل وهيئته مستقيمة تدخل في النفوس الخوف و الهيبة.

وهذا البيت في تشبيهه للمدوح بالهلال نحو بيت أبي الطيب المتنبي،حين قال في مادحا(محمد عبيد الله العلوي):

شمس ضحاها هلال ليلتها درٌّ تقاصرها زبرجدها[2]

فالمتنبي استعمل مفردات(هلال ليلتها)،فشبه الممدوح بشمس الضحى وهلال يضيء الليل وقد جاء المعري بمثل تلك المفردات .

---

[1]– أبو العلاء المعري: سقط الزند،ص :55.

[2]– أبو الطيب المتنبي: الديوان ، شرح أبو البقاء العكبري، وضبطه كمال طالب، دار الكتب العلمية ، ط1 ،1997، بيروت ،ج1، ص :311.

كما اقتبس منه صورة أخرى للممدوح،حيث ظهر فيها الممدوح رمزا للعطاء،والكرم،ومثالا للقوة والسيطرة ضد أعداء الدين،يقول:

إذا سقت السماء الأرض سجلا سقاها من صوارمه سجالا

ويضحى و الحديد عليه شاك وتكفيه مهابته لِلاّ ـــزالا[1]

لقد وصف المعري الممدوح وقوته،وجبروته،ونفاذ عزمه،فتحدث عن الأرض التي سقتها السماء بالسجل(الماء)،ولكن بعد مجيء الممدوح سقاها دما(سجالا)،وهذا يدل على شراسة العدو وقوته واستبساله بسيفه،وحين يتأمل هذا البيت للمعري يجده قد أخذ بعض المفردات من شعر المتنبي الذي كانت مثالا على قوة وعزم الممدوح،فقال يمدح سيف الدولة الحمداني :

هل الحَتَثُ الحمراء تعرفُ لونها و تعلم أيّ السّاقيين الغمائم

سقتها الغمائم الغّر قبل نزوله فلما دنا منها سقتها الجماجم[2]

فقد صّور المتنبي ممدوحه،وهو سيف الدولة بعزيمة كبيرة،وإرادة قوية،وهمة كبيرة،وهو ما جعله يحول ساحة(الحدث) بعدما سقيت بماء المطر إلى دماء كبيرة نتيجة لعدد القتلى الكبير الذين أوقعهم سيف الدولة بسيفه حتى فاقت نسبة الدماء ماء المطر الذي نزل قبله .

والملاحظ لكلا الشعرين يجد أن المعري قد استفاد من كلام المتنبي في وصف ممدوحه،فجاءت النصوص الشعرية متطابقة في المعنى غير أنه (المعري) أعاد سبك البيت بمفردات أخرى لها نفس الدلالة ؛ حيث استعمل المعري مفردة (سقت السماء) فبدلها بمفردات (سقتها الغمام) ، فالسماء بدل الغمام في شعر المعري، كما صّور تركيب المتنبي الذي قال فيه (فلما دنا منها سقتها الجماجم) إلى تركيب خاص به،وفحواه قوله (سقاها من صوارمه سجالا)،فالسجالا التي تعني الدم في مكان الجماجم التي تدل على حالة الحرب التي تكون فيها الجماجم متطايرة و الدم ينهمر انهمارا.

---

[1]– أبو العلاء المعري: سقط الزند،ص:168.

[2]– أبو الطيب المتنبي: الديوان ، شرحه أبو البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان، ضبطه وصححه مصطفى السقا و آخرون ،دار المعرفة ،بيروت ،1978،ج3، ص: 380 ،381.

فهنا يمكن القول أنّ أبا العلاء المعري استطاع أن يضفي على أشعار المتنبي أسلوبا رنانا وجمالا فنيا رائعا،وهناك نوع آخر من الاقتباس بعيد عن الألفاظ وهو تناص المعاني؛حيث يأخذ المعنى من شعر من سبقه من الشعراء كقول المعري:

و الشيء لا يكثر مدّاحه إلاّ إذا قيس إلى ضدّه[1]

ومثل هذا المعنى نجده في بيت أبي الطيب المتنبي، قال:

و نذيمهم ، وبهم عرفنا فضله وبضدّها تتبين الأشياء[2]

وهكذا فإنّه لا تعرف قيمة الإنسان وحسن فضائله إلاّ إذا عاشرت من يعاكسه في كل شيء ؛فبالأضداد تعرف الأشياء والإنسان لا يمكن أن يحس بنعمة الفرحة إلاّ إذا ذاق الألم و الحزن ولا يمكنه أن يحس بنعمة الفرحة إلاّ إذا ذاق الألم والحزن،كما لا يمكنه أن يحس بطعم الحلاوة إلا إذا ذاق المر،فمثله الإنسان لا تعرف خصاله وفصاله إلاّ إذا صحبت إنسانا ينافيه في كل شيء.

ويقول المعري مقتبسا معنى آخر من المتنبي :

أرى ذوي الفضل و أضدادهم يجمعهم سليك في مدّه[3]

و في هذا المعنى يقول المتنبي :

يموت راعي الضّأن في جهله ميتة جالينوس في طبه

وربــما زاد على عمـــره وزاد في الأمن على سربه[4]

إضافة إلى تناص المعري من أشعار الشعراء؛الذي سمح له بأخذ معانيهم أو ألفاظهم وتراكيبهم نجده في مرات عديدة يستخدم أسماء الشعراء المعروفين في كل العصور ابتداء من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي،العصر الذي ولد فيه الشاعر،ومن ذلك قوله موظفا اسم امرؤ القيس:

---

(1)– أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص : 206.

(2)– أبو الطيب المتنبي:الديوان ،ج1، ص: 34.

(3)– أبو العلاء المعري:سقط الزند ، ص: 207.

(4)– أبو الطيب المتنبي:الديوان، ج1، ص: 220.

ويوجد الصّقر في الدرماء معتقدا رأى امرئ القيس في عمر بن درماء

و لستُ أحسب هذا كائنـا أبـــدا فابغ الورود لنفس ذات أظمـــأ[1]

فقد وظف امرؤ القيس وعمر بن درماء المعروفين في الجاهلية،كذا السليك ،والشنفري،وهذا ما يستشف من خلال قوله:

تذوب فإن وجدت خلسة فيا للسّليك أو الشنفرى[2]

و السّليك هو من بني سعد بن زيد مناة بن تميم، أما الشنفرة هو أحد شعراء الصعاليك جاهلي من عرب الأُزد صاحب لامية العرب المشهورة،أما (أبو تمام)و(البحتري)،فقد وردا اسمهما كثيرا عند المعري يقول:

مثل ُ وشي الوليد لانت و إن كا نت من الصنع مثل وشي الحبيب [3]

ركز المعري من خلال البيت على شخصيتين بارزتين ولهما فضل كبير في نسيج الشعر العربي وهما (البحتري)،وهو أبو عبادة الوليد بن عبير و(أبو تمام)،وهو حبيب بن أوس الطائي.

وقد ذكرهما في وصف الدّرع التي كانت تشبه شعر البحتري في اللّين،وفي الصنعة تشبه شعر أبو تمام،وهكذا فإنّ شعر المعري يكاد لا يخلو من ذكر لأسماء الشعراء والأدباء وهذا ما يظُهر جليا مدى اطلاعه على دواوين الشعراء السابقين له.

غير أنّه لم يكتف بذكر أسماء الشعراء وأشعارهم فقط، بل تعدى ذلك إلى ذكر أسماء الأدباء واللغويين أمثال (الخليل بن أحمد الفراهيدي) مؤسس علم العروض ، فقال :

أعْي سِوَار الدّهر كلّ مساور ورمى الخليل بأسهم الأسوار[4]

كما وظف اسم الخليل استطاع توظيف الأدب الذي جاء به الخليل، يقول:

---

(1)– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص :52.

(2)– المصدر نفسه:ص: 58.

(3)– أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 17 .

(4)–أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج1، ص :389.

إذا ابنا أبٍ واحد ألفيـــا جواداً وعْيرا فـلا تعجب

فإنّ الطويل نجيب القريض أخوه المديد و لـم ينجب

ويشجب كل امرئ في الزمان من آل عدنان أو يُشجب[1]

ويقول عن عروض الخليل:

تولّى الخليل إلى ربّه وخلّى العروض لأرباحها

فليس بذاكر أوتادها و لاُمرتج فضل أسبابها[2]

فهذه الأبيات التي يشرح فيها أهمية علم العروض في معرفة أوزان الشعر،ويبين فيها بعض الأوزان كالطويل والمديد وغيرهما،ما يلاحظ أنّ المعري قد حقق استفادة عظمة من وراء آداب القدماء، فأراد أن يفيد بها عن طريق شعره.

و استنادا إلى ما قدم من معطيات يتضح أن المعري قد اعتمد في تركيب شعره على الماضي متمثلا في أشعار القدماء من العصر الجاهلي إلى غاية العصر الذي نشأ فيه،فحاول اقتباس الألفاظ والتراكيب والمعاني للوصول إلى غرض ما مع تحوير خفيف في الألفاظ أو التراكيب وهذا ما يدل على البراعة الفنية للمعري التي تجعله يحسن استخدام تلك الأشعار وقولبتها ضمن سياق نصه الشعري.

ثالثـا: التـــــاريخ

يعد التاريخ مصدرا من المصادر الخصبة،فهو ينتمي إلى المصادر الثقافية إلى جانب شعر القدماء أو السّابقين.

ويدخل في دائرة التاريخ جميع الشخصيات التاريخية وأحداثه المتفرقة إلى جانب أيام العرب وحتى المكان.

---

(1)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :123.

(2)- المصدر نفسه: ص: 124.

<< فحضور التاريخ واستلهام حوادثه ومعطياته الدّلاليةفي السيّاق الشعري ينتج تمازجا ويخلق تداخلا بين الحركة الزمنية،حيث ينسكب الماضي بكل إشاراته و تحفزاته وأحداثه على الحاضر بكل ماله من طزاجة اللحظة الحاضرة ،فيما يشبه تواكبا تاريخيا يومئ الحاضر إلى الماضي >>[1].

فهذا التمازج والتداخل بين النص التاريخي،والنص الأصلي للقصيدة هو ما يعرف بالتناص التاريخي،والسبب في وصول تلك المعلومات المرتبطة بماضي الأمم وأخبارهم وأنسابهم وحوادثهم هو التدوين لكتب التاريخ والذي ظهر منذ القرن(3)ه،وبذلك لقيت كتب التاريخ اهتماما واضحا ولأسباب عديدة منها<<يعود بعضها إلى ما كان يقتضيه منهج المحدثين والمفسرين من اعتماد الشعر الجاهلي وأخباره حجة،ويعود بعضها الآخر إلى الصراعات الاجتماعية فيما بين العرب من جهة والمتعصبين عليهم من الشعوبية من جهة أخرى،فضلا عن نزعة البداوة التي ظهرت في وقت ما كرد فعل على الطابع الفارسي في الدولة الإسلامية>>[2].

وقد ولع أبو العلاء المعري بالتاريخ ولعا شديدا،فظهرت نصوصه الشعرية محملة بحوادث التاريخ المليئة بالدروس والعبر،وبإنجازاتهم وانتصاراتهم وأخيار الأمم السابقة،وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أنّ المعري مازال مرتبط بالماضي الذي يعيش في ذهنه فهو كثير الإطلاع على أخبار الماضيين،وخير ما يمثل صدق ذلك قوله في لزومياته:

ما كان في هذه الدّنيا بنو زمن إلاّ وعندي من أخبارهم طرفُ

يخبر العقل أنّ القوم ما كرمـــوا ولا أفادوا ولا طابوا ولا عرفـــوا

عاشوا قليلا وما جاوا في ضلالتهم ولا يفوزون إن جوزوا بما اقترفوا[3]

ويتضح من البيت الأول الذي أنشده المعري أنّه كثير الإطلاع على أخبار الأمم السابقة،لذا استلهم هذه الموضوعات التاريخية والشخصيات التاريخية وأيام العرب،ووظفها في شعره توظيفا يتلاءم

---

[1]– رجاء عيد : لغة الشعر العربي المعاصر، قراءة في الشعر العربي الحديث ، منشأة المعارف ، (د، ط ، د، ت)، الإسكندرية ، ص:201.

[2]– محمد عجينة: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية و دلالتها، ص :103 .

[3]– أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج2،ص:104.

مع نصه وموقفه وأفكاره خاصة الفلسفية،وهذا ما سيعرف عليه من خلال الدراسة التي سوف أجريها على ديواني المعري وهما سقط الزند واللزوميات بجزئيه والانتصارات التي جرت في ذلك اليوم،وقد بلغوا من الشدة والقوة والعزم،جعلهم نسورا في عين الشاعر قد جابوا سماء المعركة ممزقين ومقاتلين للأعداء.

فقد استمر الشاعر يوم النسار المليء بالمعاني والدلالات التي تخص الذود عن النفس والقوم والعزيمة الكبيرة،فمازجه مع شعره ليعبر به حدود الدائرة الاجتماعية التي تعني بالافتخار بالبطولات وتمجيد البطولات إلى دائرة أخرى أوسع تعنى بمصير الإنسان وفناءه.

فكأنه يقول مصير الإنسان وموته محسوم،فلا تغنيه تلك البطولات وأول تناص للمعري كان مع أيّام العرب،فقد استوعب الشاعر أيّام العرب وما تتضمنه من حروب وصراعات،فهي من دون شك رافدا من الروافد الثقافية المهمة.

فقد وجد المعري حوادث التاريخ القديم مادة خصبة له،لتشكيل نصوصه الشعرية فأكسبتها شعره حيوية،فأمدته بأساليب وإيحاءات متنوعة وأبعاد خاصة إذا تعانقت وتداخلت مع نسيج نصه الشعري.

فيرى الشاعر وهو يكثر من أيام العرب وحروبها،وما تتضمنه من مواقف وأبعاد مليئة بالدلالات و المواقف.

ومن تلك الأيّام التي تفسر الحوادث العظيمة التي جرت عبر التاريخ(يوم النّسار)،ذلك اليوم الذي يخص(ضبة و بني تميم).

يقول :

ما يفخر الأسديُّ بعد حمامه بنسور معركة و لا بنسار[1]

فقد رسم الشاعر بهذا البيت لوحة فنية بدلالات محكمة،فصور ذلك اليوم الذي سمي يوم (النسار)مفتخرا ببطولات المحققة وافتخار الأسدي بانتصاراته،لأنّ هذه البطولات والانتصارات لا تؤخر له الموت إذا جاءه،فالكل إلى المصير المحتوم.

[1]– أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1، ص: 396.

ومن هنا يكون المعري قد وظف لفظة (النسار) التي تعني اليوم الذي انتصر فيها الأسديون وحققوا فوزا عظيما على أعدائهم،ولكن قدرته العظيمة في التحوير والاستخدام جعلته يوظف ذلك اليوم؛ليعبر به عن غرض آخر بعيد عن الفخر والانتصار ألا وهو حتمية الموت والزوال،فرغم تلك الانتصارات والبطولات إلاّ أنها من دون فائدة أمام حتمية الموت.

ومنه يكون المعري قد أعاد بناء النص الذي ارتبط بالماضي (الغائب) وبناه بناء جديدا لتستوعب آراءه وأفكاره الفلسفية.

ويوم(جذيمة الأبرش والزباء)هو يوم من أيام العرب ارتبطبمسآة حقيقية لجـُذيمة الذي قتلته (الزباء)، فقد استوعب الشاعر هذا اليوم(جذيمة والزباء)،كما يدرك مصير الإنسان الذي يقبع تحت سطوة الدّهر وما يلمه من شرور وآلام،يقول:

والدّهر قصَّ قنا جذيمة(*) في الوغى وعصاه تنضو الخيل تحت قصير[1]

ومن هنا يتبين أنّ الشاعر أبدى مفارقة لطيفة مفادها أن الدّهر بشرور وآلامه وقبعه على نفس الإنسان كأنّه(الزباء)التي قتلت(جذيمة)،فالشاعر هنا واعي تمام الوعي بمصير الإنسان الذي هو الموت .

لذلك تجده قد استغل(يوم الزباء)وأضاف إليه بعض من أساليبه وابتكاراته،وهذا ما يعكس قدرته الحقيقية على ترويض اللغة وتحويرها واستبدالها بحسب منظوره،كما يعكس عمق وسعة ثقافته التي تمكنه من معرفة كل هذهالتفاصيل المرتبطة بالأيـّام والأحداث الخاصة بها.

ويقول في بيت ثاني مستشهدا بقصة(الزباء وجذيمة)وقصير خادم(جذيمة بن مالك الأبرش).

أمنَتها نفسي علّي فلم تُمـ سِ ، كذات الغوير أمنتْ قصيرا[2]

---

[1]– المصدر السابق:ص :402 .

[*]- جذيمة:هو الأبرش أحد ملوك الحيرة ويسمى الوضّاح لبرص كان به وعصاه: فرسه، وقصير: هو ابن سعد اللّخمي وزيره نجا عليها عندما أحس بغدر (الزباء) بجذيمة.

[2]– أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 335.

وقصّة الزّباء مع قصير معروفة،وذلك أنّه أراد أن ينتقم لصاحبه(جذيمة) فرفض الانصياع لأوامرها بعدما وجهته بالعير إلى العراق، فأحسّت الشر وقالت عسى الغوير أبؤسا،أي عساه أن يأتي بالبأس والشر.

ويرسم المعري لوحة فنية أخرى نابعة من تفاعلها مع يوم آخر من أيام العرب وهو(يوم الفجار) الذي التقت فيه قريش وكنانة في جانب مع فريق قبيلة(هوازن)في جانب آخر،ليواصل به رصد الموت وفقدان سيطرة النفس عليه إذا حل بها .

يقول:

فجرت قريشُ بالفجار وحربه ولكل نفس في الحياة فجّار

أُهجْر ولا تهجر وهجّر ثم لا تهجر فيذهب ماءك الاهجار[1]

فاستناد الشاعر واستفادته من (يوم الفجار) ومزجه مع نصه الشعري،يكون الشاعر قد فجر لنا صورة جميلة بطاقات تعبيرية و دلالات أكثر إيحاء ومعنى.

فقد رسم المعري لوحة غاية في الجمال،فصور قريش بمظهر المقاتل القوي يقطع الرؤوس ويفجر دم الضحايا،فيسيل الدم بقوة،وهو ما عبر عنه بلفظة(فجرت)،فمنح ذلك اليوم إحساسا بالخوف والرهيبة من سيوف قريش،وهو يوم الحزن والألم الذي نشرته قريش وأعوانها.

فالشاعر هنا قام بالتناص مع ذلك اليوم وما يحمله من خوف ورهبة وحزن وألم من قريش،ليعبر به عن هاجس الموت الحتمي،وهو ما يستدل به من قوله في الشطر الثاني البيت(ولكل نفس في الحياة فجار) .

فالتناص جاء من أجل تعظيم موقف الموت الحقيقي وما نشره هذه الحقيقة المرة من ألم وحزن في نفوس الناس،مثلما نشرت قريش وأعوانها الألم والحزن والذعر في ساحة المعركة.

و يعمد أبو العلاء المعري إلى توظيف إشارات تاريخية كثيرة تتصل اتصالا وثيقا بأيام العرب حوادثها ، وحروبها مع بعض،أو مع الفرس والروم<< و انفتاح الشاعر على هذا التاريخ لم يأت جُزافا

[1]– أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1، ص: 307.

أو سطحيا،بل نراه مقصودا لسبب ما كالحكمة،أو العبرة،أو العظة ، أو تقوية حُجّة الشاعر وما يذهب إليه>>[1].

ومن بين المعارك التي اقتبس منها المعري موضوعه ونصه الشعري معركة (ذي قار) وأحداثها حيث يقول:

كانت لقابوس بني منذرٍ إرثَ الملوك الشوس من جُرُهم [2]

ومعركة(ذي قار)هي معركة دارت معاركها بين كسرى ملك الفرس والمسلمين العرب، فوقعت بينهما،حين قتل(كسرى)ملك الفرس،النعمان بن منذر ملك الحيرة،فحشدت العرب جيوشها وصقلت سيوفها وهمّت للإطاحة بهذا الملك الجائر انتقاما للنعمان ولإعادة المجد الضائع.

والمعري هنا حاول توظيف انتصارات العرب في يوم (ذي قار) ضمن نصه الشعري بصياغة تتوافق مع أفكاره.

لذلك جاء نصه مشيرا إلى معركة (ذي قار) والدلالة عليه كانت باستعمال لفظة (بني منذر) وقد تجاوز به من مجرد الافتخار والانتصار بالمعركة إلى إطار آخر أظهره الشاعر في الشطر الثاني من البيت،حين قال(إرْثُ الملوك الشُوس من جُرهم)،ليعبر به من أن الدروع قديمة جدا ولها جذور تاريخية واضحة،فهي من عهد(بني منذر) الذين يعدون من الأقوام العربية القديمة.

فربط قدم قوم(بني منذر) بقدم الدّروع التي رأت هؤلاء الملوك الذين كانوا جزءا من حرب ومعركة(ذي قار)،ولكنهم ماتوا وبقيت الدروع حية شاهدة،فكأنه تراء له أن الدرع شهدت وقيعة ذي قار لعدمها.

ويكثر المعري في شعره من أيام العرب وما تحتويه من أحداث ومعارك أو حروب ومن تلك الأيّام،اليوم الذي حدثت فيه الحرب بين داحس والغبراء،وهو ما يسمى(بحرب البسوس)،فهي من أقدم الحروب القبلية وأشهرها،وقد استمرت بحسب الروايات التاريخية أربعين سنة،وكانت سبب

---

[1]– إبراهيم مصطفى محمد الدهون:التناص في شعر أبي العلاء المعري، ص: 190.

[2]– أبو العلاء المعري: سقط الزند ، ص :205.

الحرب ناقة(سراب) للبسوس قتلت من طرف كليب،فأشعل خال البسوس(جساس) الحرب حين قتل كليب،يقول المعري:

رأتها العيون الزُّرق في كيد وائل وعاينها، في حرب ذبيان، داحس[1]

فقد ذكر الشاعر (وائل) وهو كليب،ووظف المعري من خلال بيته ما يدل على حرب البسوس من خلال (كيد وائل)وأيضا (حرب ذبيان وداحس) والهدف لم يكن في وصف هذه الحرب وتذكرها،بل تجاوزها إلى وصف قوة الدرع ومتانتها وقدمها،حيث تراءى له أنها كانت شاهدا على حرب داحس والغبراء الضاربة في جذور التاريخ القديم.

فقد وظف المعري من خلال بيته لحادثة البسوس؛ليعبر بها عن قدم تلك الدروع ومتانتها واشتراكها في مثل هذه الحروب،وهو ما يعكسه،حين قال(وعاينها في حرب ذبيان وداحس)،فقد أظهر الشاعر من اقتباسه لحرب البسوس وتوظيفها،لتحقيق غرض يريده اطلاعا واسعا على أخبار السلف مع ذكاء حاد وقدرة في التعامل مع اللغة واستخدامها بما يتلاءم مع أغراضه وأفكاره التأملية الفلسفية.

كما استطاع أن يوظف الحروب الطويلة التي دارت بين تغلب وذبيان وبين أبناء أمته الواحدة وما انتشر فيها من فساد ومآس،يقول:

وتغلب كانت سيف بكر ورُمحها فأمست تُرامي عن حرائبها بكرا[2]

إنّ المتأمل في هذا البيت له أن يتصور كيف كانت(تغلب وبكر) قوة واحدة،فكلاهما مكمل للآخر،فتغلب تعد سيفا لبكر،وبكر هي بالنسبة لقبيلة تغلب رمحا يذرون به أثناء الشدة،وهذا ما يستشف من قوله (وتغلب كانت سيف بكر ورمحها)،ولكنهما باتا خصمين لدودين انتشر بينهما الحقد وشاع الاقتتال بينهما.

---

[1]– أبو العلاء المعري: سقط الزند : ص :380.

[2]– أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1، ص :326.

لذا يجد الشاعر هنا يربط بين شياعة الحرب وما خلفته من مآس وآلام وحقد في نفوس القبائل المتناحرة وبين أبناء أمته وما شاع فيها من فتن وتنافس واضمحلال للقيم وصراعات،وهذا ما ينطق على عصر المعري (العصر العباسي).

ومن هنا يلاحظ أنّ الشاعر استطاع بقدرته العجيبة ومخيلته وذاكرته القوية وأسلوبه المتين أن يستوعب أيّام العرب وما كان يدور بينهم من أحداث ومزاجها مع نصه للوصول بها إلى الغرض المنشود،كما أنه راوح في ذلك كل ماله علاقة بالعصر الجاهلي كحرب البسوس ويوم النسا،ويوم الزباء، والعصر الإسلامي كيوم الفجار ذي قار،وحتى العباسي.

كل هذا يؤكد براعة الشاعر في استلهام التاريخ بأيامه وأحداثه وتوظيفها ضمن سياق النص الشعري إلى جانب أيام العرب التي وظفها في شعره،يجده قد وظف نوعا آخر يدخل ضمن دائرة التاريخ،وهو تاريخ الأمم البائدة غير أنه قليل إذا ما قارناه مع قبله من مصادر.

فالمعري جاء بمقتطفات حول الأمم البائدة وتاريخهم العظيم،ومنها توظيف(ناقة صالح) عليه السلام وما حدث لقومه من هلاك لقتلهم إياها،يقول:

لم تَدرِ ناقة صالح لما عدت أنّ الرواح يُحم فيد قُـدار

هذي الشخوص من التراب كوائن فالمرء لولا أن يُحسّ جدار

وتضنُّ بالشيء القليل وكّل ما تُعطـــي وتملك ماله مقدار[1]

إنّ أبا العلاء المعري استغل حادثة قوم صالح وقتلهم للناقة ووظفها في سياقه الشعري من أجل الوصول بنا إلى نتائج تؤيد مذهبه في الحياة

و الوصول إلى حكم ومواعظ يستنبطها من خلال نصه،فهدف كان واضحا حين ضرب مثلا (بناقة صالح) التي قتلت فجزاهم الله بهلاك مبين ومثلها قوله :

أصحاب أيْكة أهلـــكوا بظهيـــرة حَميتْ وعاد بالرياح الصرصر

---

[1]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص: 305.

هوّن عليك أنلتَ نصرا في الوغى أم قال جلّك ، صادقا لا تُنصر

كسرى أصاب الكسرُ جابر ملكــه والقصر كرٌّ على تطاول قيصر[1]

(أصحاب أيْكة) هم قوم النبي شعيب الذي هلكوا في ظهيرة يوم حار ، شديد البرودة من خلال تركيبه (أصحاب أيكة أهلكوا بظهيرة حميت) وقوم عاد أهلكوا كذلك في يوم شديد البرودة، ويظهر ذلك في قوله (وعاد بالرياح الصرصر)،كما أهلكوا بنفس الطريقة قوم (كسرى) و(قيصر)، وهما ملكين على دولتين عظيمتين هما الروم وفارس ثم سقطتا على يد المسلمين أيّام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورضاه.

فقد أتى أبو العلاء بجملة من الأحداث التاريخية،فوظف هذه الألفاظ وهي مستوحاة من التاريخ القديم،مستعينا بأسلوب الأمر المدعم بالاستفهام (هوِّن) و(أنلتَ)؛ليؤكد الحكمة من وراء ذلك التوظيف، وهي أنّ الموت آتٍ لا محالة وأنه قضى على الملوك والعظماء أمثال كسرى وقيصر، وقوم صالح وشعيب،وكذا قوم عادٍ وثمود، فقد استغل هذه الأيّام الحالكة التي مر بها الأمم،فوظف حوادثها ليصل إلى مبتغاه؛فيؤكد بذلك عن حقيقة لا بد منها وهي الموت التي سعى إلى تأكيدها في أكثر من مرة،وهذا حسب الدراسة التي أجريت في مجال التاريخ،ومدى استنباط المعري منه نصوصه .

ومثلما نالت أيام العرب وبعض الأحداث التاريخية نصيبها من شعر المعري تراءى أنّه استخدم نوعا آخر ينتمي إلى دائرة التاريخ ألا وهو الشخصيات التاريخية؛حيث نالت اهتماما ملحوظا في شعر المعري،حيث استلهم شخصياته في نصوص شعرية تفي بغرضه المنشود، وقد نّوع المعري في استخدام شخصياته التاريخية،فمنها ما يكون رمزا للبطولة والفداء والتضحية،ومنها ما يكون رمزا للظلم والجبروت والقّوة،ومنها ما يكون رمزا للضعف والهوان،و لعّل شخصية (كسرى) تعكس رمز الظلم والطغيان على الأرض،فاستدعاها في شعره ليعبّر بها عن زوال الدنيا وفناءها، يقول :

ودِرعُ الفتى في حكمه دِرعُ غادةٍ وأبيات كسرى من بيوت العناكب[2]

---

[1]– المصدر السابق: ص: 305.

[2]– المصدر نفسه:ص :103.

والملاحظ لبيت المعري الذي استدعى فيه شخصية كسرى، ليعبّر به عن زوال المتع والدنيا والموت هو حقيقة لابد منها، فأقّر بأنّ الحصون المتينة التي لطالما كانت بيوتا ودرعا لكسرى،هي شبيهة ببيوت العناكب التي سرعان ما تزول أمام حتمية الموت،فلا قصور تمنع ولا حصون تحمي أمام سطوة الموت .

ويواصل الشاعر الوقوف عند شخصية كسرى الظالمة،ويواصل تأكيده على حقيقة الموت وإحكام قبضتها على البشرية جمعاء يقول :

عددنا من كتائبها المنايا وكم فتكت بجمع فرقته

قضت دين أبي آمنة وجازت بإيوان ابن هرمز فارتقته

طوت عنه النّسيم وقد حبته و حيّته بنور فاتّقته[1]

فقد استأثر المعري شخصية كسرى تحت تسمية(ابن هرمز)،فهذه الشخصية عنوان للنفوذ والقوة والارتقاء والجبروت.

وتلمس براعة الشاعر في بناءه الشعري؛حيث عمل على تكريس تلك المفارقة و التحسيس بها بين جبروت وظلم كسرى،وبين واقع الإنسان المر الذي ينتهي بموت.

هذا الأخير على حسب قول المعري في مقطوعته قد قضى على الكثير من الكتائب فرقت جمعا كثيرا،منها من ينتسب لدين الإسلام من خلال قوله(قضت دين ابن آمنة)،ولم يكتف بهذا الحد بل تعداه إلى ديوان كسرى،فأطبقت عليه الدنيا بعد ما كانت قد ارتقت به وحبته، ويقول أيضا:

أرى الحيرة[*] حارت قصورها خلاءً ولم تثبت لكسرى المدائن[2]

فقد استحضر الشاعر هنا أيضا شخصية كسرى التي ترمز للظلم والقوة والطغيان فبرغم قصورها المشيدة وارتقاءها في هذه الدنيا إلاّ أن مصيرها الموت والفناء،وقد عبّر عن إيمانه المطلق بهذه

---

(1)– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص :327.

(2)– المصدر نفسه: ص :346.

(*)– الحيرة : مذنبة بين العراق والشام ، والمدائن:مدائن كسرى.

الحقيقة المرة وهي حتمية الزوال والانتهاء،فاستعمل فعل(أرى) الذي يدل على التأكد والإقرار بهذه الحتمية.

ولأنه متأكد من حتمية الموت بالنسبة للبشر والفناء من هذه الدنيا ومن ثم الذهاب إما إلى الجنة أو النار،فأطبقها الشاعر على شخصية كسرى وقيصر ومن معهم،فرجح بأن يكون في النّار، للظلم الذي كان يمارس منهم والجبروت والطغيان،يقول:

أأصبح في الدنيا كما هو عالم وأدخل ناراً مثل قيصر أو كسـرى

وإنّي لأرجو منه يوم تجـاوز فيأمر بي ذات اليمين إلى اليسرى [1]

فشخصية كسرى لطالما كانت عنوانا للظلم والطغيان وارتكاب الجرائم خاصة بحق المسلمين، لذا وجدنا الشاعر ينوع في استخدامها تجسيدا لمضامينها السّلبية، وهي إلى جانب أنها رمزا للظلم،هي رمزا للكفر،وهذا ما بينه أبو العلاء المعري بقوله:

إذا الحرباء أظهر دينكسرى فصلّى و النّهار أخو صيام

وأذنت الجنادب في ضحاها أذانا غير منتظر الأمام [2]

فقد شبه(كسرى) بالحرباء التي تستقبل الشمس وتدور معها ، فهو يظهر من خلال البيت الأول بأن (كسرى) كافرا ،فهو من عبدة الشمس مثله مثل الحرباء الذي يدور معها في أي اتجاه.

وقد ذكر أيضا إلى جانب شخصية كسرى الظالمة شخصية أخرى ليست أقل منها في الظلم وهي شخصية (نفيل)، يقول:

عَن نفل[*]**أسألُ أو حنوةٍ سُؤال مُرجي فيله عن نُفيل** [3]

---

[1]- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص :62.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :223.

[3]- المصدر نفسه: ص :148.

[*]- النفل : ضرب من النبت ، زهره أبيض ووردي أو أصفر ، طيب الرائحة ، تسمن عليه الدواب، والحفوة :ضرب منه. ونفيل كان مع (أبرهة) لما غزا البيت الحرام بأفياله قبل الإسلام.

رسم أبو العلاء المعري من خلال التناص مع شخصية (نفيل) صورة لهذا الأخير تبرز فيها معالم الجبروت والقوة والحقد على المسلمين،خاصة أنه حاول تدمير الكعبة مع (أبرهة الأشرم)،إذ قصد مكة بالفيلة لتدميرها،وهذا ما يستشف من قوله (سؤال مُزجي فيله عن نفيل).

فانطوى البيت الذي نظمه المعري على مفارقة،مفادها أنّ (نفيل) قد استعمله (أبرهة الأشرم) كمرشد لمعرفة مكان العكبة، غير أنّ الشاعر نصّب نفسه مرشدا لمعرفة مكان كل من نبات (النفل والحنوة)،وهنا تكمن المفارقة بين البشر الذي يمثل (نفيل) والخير الذي يمثله المعري.

وقد استخدم مهارات في الأسلوب، فحّول لفظة (أسأل) الذي استعملها في الشطر الأّول بقوله (عن نفل أسأل أو حَنْوةٍ) إلى(سؤال مُزجي) في الشطر الثاني،وهذا يدل على حيوية النص الشعري ومرونته فقد طّوعه الشاعر بحسب الأسلوب الذي يشتهيه ويخدمه في موضوعه.

هذا إضافة إلى وجود شخصيات أخرى منها ما نسبتها إلى شخصيات إسلامية وأخرى أدبية و لغوية وهي كلها شخصيات تاريخية تمت معالجتها من قبل.

والشاعر لم يكتف بذكر أسماء بعض الشخصيات،بل عمد إلى ذكر حتى أسماء بعض القبائل ، وهذا دليل على اطلاعه الواسع وثقافته الكبيرة التي مكنته من معرفة الأيام والحوادث،منها قوله يتكلم فيه عن ثمود:

وإنّ ثموداً أتت بحرهم خطوب فما تركتْ من ثمد [1]

واستعمل اسم قبيلة (عدنان ومضر) ، فجعل للمنايا جيش من قبيلة عدنان أو مضر وهو مستعد لمقابلة العدو .

يقول:

وما القبائل إلاّ في مقابلة جيش المنية من عدنان أم مضرا[2]

وقال مواصلا:

---

[1]– أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1 ، ص :269.

[2]– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :88.

وباهت جمهرة عدنانا فقلت لها لولا القصيصي كان المجد في مضر[1]

يوُرى في قصيدة أخرى وهويوظف أسماء قبائل عدةعرفت في التاريخ،إذ يقول:

أنبأنا اللّب بلقيا الـــردى فالغوت من صحة ذاك النبأ

هل فارس والروم والتّرك أو ربيـــعة أو مضر أو ســبأ

ناجية في عزّ أملاكـــها أن يظهر الدهر لها ما خبأ[2]

فهنا قام بالتناص مع مجموعة من القبائل كفارس والروم والترك ومضر وسبأ،لكي يستدل لها عن حتمية الفناء والزوال،والدليل على ذلك هذه القبائل برغم العز والملك والقوة إلاّ أنّها أهلكت جميعا،ويقول :

لا كانت الدنيا فليس يسرنّي أنّي خليفتها و لا محمودها

وجهلتُ أمري غير أنّي سالك طُرقا وختها عادها وثمودها[3]

فالشاعر مؤمن بحقيقة الموت والزوال؛لذلك لا يسره إذا كان خليفة فيها(كمحمود الغزنوي) الملك،فهو لا محالة سوف يسلك طريق عاد وثمود التي أهلكت بالكامل ولم يبق منها شيء،كما اقتبس اسم (فارس)المشهور في التاريخ ووظفه في نصه الشعري على النّحو التالي:

مسيحية من قبلها موسويـــة حكتْ لك أخبارًا بعيدا ثبوتها

وفارس قد شبّت لها النار وادّعت لنيرانها أن لا يجوز خلوتها

فمـــا هذه الأيام إلاّ نظائـــر تساوت بها آحادها وسبوتها[4]

---

(1)– أبو العلاء المعري : سقط الزند،ص :88.

(2)– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص: 53.

(3)– المصدر نفسه :ص :227.

(4)- المصدر نفسه: ص:132

ففارس هي بلاد غير عربية تحمل ديانة مسيحية،وقد دخلت في حرب طويلة مع المسلمين العرب،وقد ادعت أنّ هذه الحرب لن تخمد نيرانها.

ولكن المعري قد جزم بأنّ الفرس قد نسيت بأنّ الأيام التي تداولها هي متساوية لا فرق بين آحادها وسبوتها،والنار التي أشعلتها مثلها مثل خمودها في هذه الدنيا؛فهو مؤمن بأنّ الإشعال أو الخمود للنار هي أيام متساوية لطالما النهاية في الموت والفناء. وواصل بتوظيف أسماء ملوك الفرس قائلا:

هل فاز بالجنة عمالهـــا وهل ثوى في النّار نوبخْت

والظلم إن تلزم ما قد جنى عليك بهرام وبيدخت[1]

فهنا تستقرأ النهاية المّرة و المصير المشئوم لملوك الفرس أمثال(نوبخت و بيدخت بهرام) نتيجة للظلم الممارس في حق الرعية أو البشر ، فقد نظم بيتاه بأسلوب الاستفهام (هل)،فهو يتساءل ما إذا كان قد دخل ملوك الفرس نتيجة أفعالهم إلى النار،ومفاده أنّ الظلم نهاتيه دخول جهنم وتذوق طعم النار فيها حاله ملوك الفرس.

وإضافة إلى استعمال أسماء الملوك، فهو يستنجد أيضا بأسماء العظماء في التاريخ حتى يكون في خطابه الشعري مقنعا أكثر،يقول :

كالذي قام يجمع الّزنج بالبحـ رة و القرمطي بالأجســـاد

فانفرد ما استطعت فالقائل الصا دق يضحى ثقلا على الجلساء[2]

فالذي قام بجمع الزنج بالبصرة،هو علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، و القرمطي من القرامطة وينتمي إلى علي بن أبي طالب قام بثورة أيام المكتفي سنة 287هـ.

---

[1]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص: 143.

[2]– المصدر نفسه :ص: 51.

وهي شخصيات لها صداها في التاريخ،وبعد هذه الرحلة في عالم المعري وقضية اقتباسه من التاريخ، يلاحظ أنّه ولعمق ثقافته واتساعها وذكائه،استطاع أن يستفيد من التاريخ بكل أشكاله سواء كانت أحداثه،أو شخصياته،أو أيامه،كل هذا وظفه المعري في شعره للإدلاء بهم عن آراءه الفلسفية وأغراضه المتنوعة،وهذا ما ينم عن ولهه ووعيه التام بالتراث العربي وقدرته على ربط أحداثه مع أحداث الحاضر وإحيائه بنمط جديد وأسلوب متزن ، وفكرة جديدة.

رابعا– الأمثال:

اعتبرت الأمثال مصدرا من المصادر الثقافية التي استقى منها المعري نصوصه الشعرية إلى جانب القرآن،والحديث النبوي الشريف،والشعر العربي القديم،والتاريخ.

و الأمثال كما هو معروف هي<< أقوال محكية سائرة يقصد منها تشبيه أحوال الذين حكيتْ فيهم بأحوال الذين قيلت فيهم>>[1].

فظلت الأمثال أصدق شيء يعبّر به الإنسان عن واقع الأمة وأخلاق شعوبها وتفكيرها وعاداتها،فهي تصور المجتمع وتعكس ضروب الحياة السياسية،والاجتماعية،والاقتصادية،والثقافية والدينية.

<<وكثير من الأمثال المعروفة قديمة الجذور،وهي بالطبع عربية المنشأ،وتمتاز الأمثال بإيجاز اللفظ وتركيزه وبإصابة المعنى ودقته وببعد مغزاها،فهي تعبّر عن المعنى باللفظ القليل،فخير الكلام ما قل ودل>>[2]،فقد ظهرت الكثير من الأمثال في كتب العرب أذكر بعض النماذج منها:<< الجار قبل الدار ،التقدم قبل التندم،التجلد ولا التلبد،الخلة تدعو إلى السلّة، العتاب قبل العقاب الليل أخفى للويل، المشاورة قبل المثاورة، الهوى من النوى، الهيبة من الخيبة، الواقية خير من الراقية >>[3].

وهناك الكثير من الأمثال العربية لا يتسع المقام لذكرها جميعا،وإنّما أردت ذكر البعض منها فقط على سبيل الاستشهاد.

---

[1]– سمير كاظم خليل: مجمع الأمثال دراسة في منهجه وطائفة من أمثلة، كلية التربية (د، ط، د، ت) ، ص: 31.

[2] – غادة محمد سعيد: الأمثال الشعبية .www.kotobarabia.com

[3]– أماني سليمان داود: الأمثال العربية ، دراسة أسلوبية سردية حضارية ، ط1 ،2009 ،الأردن ، ص :54.

وقد راح أبو العلاء المعري ينهل من الأمثال العربية ويركّب من خلاله نصوصا شعرية عديدة ومتباينة المصادر واقتباسه منها،لدليل على سعة اطلاعه على التراث وإلمامه بكل التفاصيل التي تخص المثل،كقائله والظروف المحيطة بالمثل،وجميع الأحداث المتعلقة به،فتناصه مع المثل له أهمية كبيرة؛لأنه يجعل النّص ذو أبعاد دلالية كثيرة.

لاشك أنّ أبا العلاء المعري قد استقصى من الأمثال ما استقى واستثمرها في تشكيل نصوصه بأبعاد ومعاني جديدة،فعزز كلمات شعره بها.

ولو فحص شعره لوجد قد أثراه بهذه المصادر الثقافية،وهذا يتضح من خلال تناصه واستعماله لأمثال كثيرة ومن أجل الوصول بها إلى أغراض عديدة ، مستعملا التضمين تارة و الإيحاء تارة أخرى ،وحتى التصريح المباشر في مرات عديدة، فقد شغل تفاعل المثل مع شعره مساحة واسعة <<فاحتلت الأمثال مكانة مرموقة،لاسيما الأمثال التي تحمل في طياتها قصصا عبّرت به عن واقع العرب وعاداتهم وتقاليدهم>>[1]،فنجده يتخذ من المثل الذي يرمز للتطير صورة له في شعره.

يقول:

إذا استبقت خيولالمجد ، يوماً جَرينَ بوارحاً وجرى سنيحًا[2]

لاشك أ نّ أبا العلاء المعري كّرس في البيت السابق كل الطاقات موظفا المثل،ليجسد به معنى وبعدا دلاليا،فهو ينهي الإنسان عن التطير؛لأنّ التطير لا خير فيه،وهو مثل يضرب به من يكره شيئا من صاحبه،فالمعري هنا أوصاه بعدم التشاؤم والتطير،لأنّه سوف يرى منه ما يرضيه مثلما رأى ما يكرهه وأصل المثل أنّه مّرت برجل ضياء بارحة فتطّير منها فقيل له: ستمر بك سانحة.

فقد وظف المثل توظيفا فيه دلالة صريحة عن عدم التطير،غير أنه اعتمد على طاقته الإبداعية، فحّور ألفاظ المثل مع ما يتماشى وغرضه،فتجده يستثمر لفظة البوارح قبل السوانح،عكس ما وجد في

---

[1]– إبراهيم مصطفى محمد الدهون : التناص في شعر ، ص :100.

[2]– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 60.

المثل،وما هذا التحوير والتبديل إلاّ دليل على القدرة العجيبة للمعري في اللعب باللغة وتليينها وتطويعها بحسب الغرض.

كما رسم صورة أخرى من خلال شعره وتمازجه مع المثل الذي يقول:(إنّك لا تجني من الشوك العنب) [1]،وذلك بقوله:

و لن يُحوى الثناء بغير جودٍ وهل يُجنى من اليبس الثمار [2]

كان غرض المعري هو الوصول إلى حقيقة مفادها أنّ الثناء لا يأتي إلاّ بالفعل الحسن والخلق الجميل، ولا ينمو إلاّ بالجود،لذلك استعمل قدراته الإبداعية للوصول إلى هذا المعنى.

وذلك بتوظيفه المثل السابق،فالإنسان لا يمكن أن يجني من الشجر اليابس ثمار إلاّ إذا سقيته وهو في ذلك مثل الثناء فلا يمكن الوصول إليه إلاّ إذا حرصت على الجود،فبالجود تصل إلى الثناء ، وبالسقي تصل إلى الثمر،ولا يمكن ذلك بأي حال من الأحوال أن تنتظر جنيا للعنب من الشوك، فالشوك لا يثمر إلاّ الشوك.

فهنا يلاحظ أنّ الشاعر أجرى بعض التغييرات على ألفاظ المثل،فغير لفظة الشوك في المثل إلى لفظة (اليبس) في نصه الشعري،وكذا بدل العنب بالثمار في شعره،وهي كلها تحويرات في ألفاظ المثل تشير إلى قدرة المعري في صياغة الألفاظ بطريقة جديدة مع احتفاظه بالمعنى العام للمثل.

كما وظف ألفاظا من المثل الذي يقول (أسمع بالمعيري خير من أن تراه) [3]،فيقول :

وقد يخلف الظّن المعيد إصابة كما أعون الدّجال في آل صائد[4]

---

[1]– فخر الدين الرازي :الأمثال والحكم ،تحقيق عبد الرزاق حسين ، دار النفائس، ط 1 ،2006 ، الأردن ، ص: 153.

[2]– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 69.

[3]– فخر الدين الرازي: الأمثال والحكم ، ص: 74.

[4]– أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1، ص: 243.

و في سياق آخر يأخذ المعري أصنافا أخرى من المثال التي تحمل جوانب إيجابية والقيم الإنسانية، كصفة الإيثار على النفس الذي تمثلها شخصية(كعب بن مامة الإيادي)،إذ مات من العطش ليسقي غيره يقول:

وَرِد القومُ بعد ما مات كعبٌ وارتوى بالنمير وفد ظماء

حيوان وجامد غير نام ونبات له بسقيا نمـــاء

ولوأنّ الأنام خافوا من العقبـ ى لما جارت المياه النّماء

أجدر الناس بالعواقب في الرح . مة قوم فيي يدهم رحماء

وغضبنا من قوم زاعم حق أنّنــا في أصولنا لؤماء[1]

فتظهر شخصية(كعب) من خلال نص المعري،وقد اشتهرت بالإيثار والجود فقد آثر على نفسه شرب الماء وأعطاه لصاحبه،وهو(النّمير)،فمات كعب ليحي النمير،ولم يكتف بهذا فقط بل راح يصور الشاعر مدى سخاء كعب الذي شمل كل شيء حتى الحيوان،والجماد،والنبات،سقاهم مثلما سقى (النّمير).

فقد اقتبس المعري مثله،2فوظف لفظة(كعب والنّمير) التي تتطلب من القارئ أن يكون واعيا لمحتوى هذه الألفاظ وذوا ثقافة واسعة حتى يستطيع الاستدلال بمعنى اللفظتين وهما (كعب والنّمير)، فجاء اقتباسه مع المثل بصورة غير مباشرة عن طريق إشارات تتطلب من القارئ إعمالا لفكره،ليفك شفرة كعب والنّمير.

ويقول موظفا بعض القيم كالكرم وما يقابلها من بخل،والفصاحة وما يقابلها من عي على نحو قوله :

إذا وصفَ الطائي، بالبخل، مادٌر و عْير قسّا ، بالفصاحة، باقل[2]

---

[1]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص: 46.

[2]– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :161.

فقد استثمر الشاعر أمثالا عديدة في نصه الشعري،وهي مفعمة بمختلف الدلالات والإيحاءات،صور من خلالها صورة المجتمع المتناقض وما يحمله من فساد في الرأي حتى انتشرت المخازي وأبيح استعمالها على خلاف الفضائل التي تراجع صيتها.،

أولها توظيف لفظة(الطائي)،وهو حاتم الطائي مضرب الأمثال في الجود،فلا أحد أجود من حاتم الطائي،ولكنه وظفه توظيفا مناقضا،فأصبح(حاتم) مثلا للبخل والشح وهذا التحول في المفاهيم ؛إنّما ناتج من تحّول في المجتمع وانحلال في الأخلاق وانتشار للفساد واستباحته،حتى صار الكريم في نظرهم بخيلا،وصار البخيل كريما،وهذا ما تفسره شخصية (مادر)،وهو اسم رجل عرف ببخله من قبيلة بني هلال بن عامر بن صعصعة .

وسمي بذلك الاسم؛لأنّه سقى إبله ثم سلح في فضلة بقيت في أسفل الحوض ومدره بها لتعافه إبل غيره فلا تدره.

فبرغم بخل مادر الذي عرف وشاع عنه إلاّ أنّه يتحّول في نص المعري إلى شخصية مفعمة بالجود والكرم ، لدرجة أن عاب على حاتم بخله.

و المثل الثالث استقاه من شخصية (قس بن ساعدة)،فهو أحد فصحاء العرب في الجاهلية ، فقس هو من حكماء العرب،وهو أول من كتب (من فلان إلى فلان) وأول من قال(أّما بعد) من العرب،فتحّولت هذه الشخصية المبدعة التي تعتبر مثالا للبلاغة والفصاحة والحكمة تتحّول في زمن المعري إلى أن أصبح أحمقا،وقد أصيب بالغي الذي كان يرمز في الأصل لباقل الذي ذكره أبو العلاء المعري في بيته الشعري و(باقل) هو رجل إيادي عرف ببلادته وغبائه، وركاكة كلامه وقد عيّروه بها؛ حين اشترى ظبيا بأحد عشر درهما،فسئل عن الثمن،فأشار بأصابعه بدون أن يتكلم،فشرك الظبي .

فهناك تناقض لمس من خلال كلام المعري يوحي بالتناقض الحاصل في المجتمع حين تحّول الكرم إلى بخل والفصيح إلى أحمق بليد وغبي.

فقد رسم أبو العلاء المعري من خلال هذا التناقض والخلط في المفاهيم إلى واقع مجتمعه في ذلك العصر،مما دل على إدراك حقيقي للشاعر على ما يجري في مجتمعه،وهذا ما جعله يستند إلى تلك الأمثال بأخذ معناها الكلي.

مشيرا إليها يأخذ بعض الألفاظ المفتاحية التي تدل على المثل،فقد أسس بنية شعرية مبنية على التناقض والتضاد بين مفهومين مختلفين؛الأولى عنوانا للجود والكرم يشخصه حاتم وعنوانا للإعجاب والإفصاح ممثلة في شخص(قس بن ساعدة)،والمفهوم الثاني الذي يناقض الأول يحمل عنوانا للشح،والبخل،والغي،والحمق،وهذا ما أظهره في شخصية (مادر وباقل).

ففساد المجتمع الذي أدى إلى فساد القيم وتناقضها،هذا ما أدى بالشاعر بتمني الموت؛لأنّ فيه خلاص من واقعه وتناقضاته التي رأيناها،فيتبع قوله الذي لمسناه سابقا بطلب الموت:

فيا موتُ زُ إنّ الحياة ذميمة و يا نفس جدي إنّ دهرك هازل[1]

و قد استشهد بمثل آخر عن العنقاء التي تكنى عن ذلك الطائر الوهمي،يقول:

أرى العنقاء تكبُر أن تُصاد فعائد من تطيق له عنادا

وما نَهْنَهْتُ عن طلب، لكن هي الأيّام لا تُعطي قيادا[2]

فالعنقاء مثل يضرب للقوم إذا هلكوا فلم يسبق منهم أحد، فأخذ لفظة(العنقاء)التي تدل على هذا المثل للدلالة به على أنّ الموت آت لا محالة وقد أكد هذه الحقيقة بتوظيف لفظة(أرى) التي تدل تأكده وتيقنه من أن الموت حقيقة ومصير مقدر على كل إنسان؛ولأنّ العنقاء طائر وهمي وهو لا مسمى له؛فإنه يرفض أن يصطاد،مثله مثل الموت يرفض أن تقتاده فله سطوة علينا،فنحن مجبرون أمامه على الانقياد ومن ثم الزوال والاندثار.

وقد مثل المعري مشهدا آخر من مشاهد معرفة الشيء صحيحا أم خاطئا،وظاهرا أم باطنا، فاقتبس نصه من المثل الذي يضرب لمعرفة الخبر الصحيح ، فقال:

طلبتُ يقينا من جُهينة عنهم ولن تخبرني ، يا جُهين سوى الظن[3]

---

(1)– أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص :162.

(2)– المصدر نفسه:ص :112.

(3)– المصدر نفسه:ص:185.

وأصله أنّ "حُصين بن عمرو بن معاوية الكلابي"خرج ومعه رجل من(جهينة) يدعي الأخنس،فقتل الجهيني الكلابي،فكانت أخته(صخرة) تبكيه دائما في المواسم .

فإذا كانت صخرة قد تأكدت من قتل أخيها على يد جهينة،فإن أبا العلاء لم يجد لتساؤلاته بعد جواب؛فهو يطلب اليقين من جهينة التي عندها الخبر عن مصير أهل القبور بعد الموت؟ ولكن جهينة لم تجبه عن تساؤه،فبقي ضحية لظنونه وشكوكه،وهو ما استدلّ به من خلال قوله في الشطر الثاني من البيت الأول؛حيث قال:(و لن تخبريني يا جُهين سوى الظن)،وهكذا التحم نص المعري مع المثل التحاما عميقا، فلما رأى نفسه حائرا حول مصير الإنسان ضّمن شعره بمثل جهينة حتى تعلمه ما عجز عن معرفته،بيد أنها هي أيضا لم تستطع الإجابة وقطع الشك باليقين وهي في هذا ظهرت خلافا لما عُرف عنها، وبذلك يكون المعري قد استفاد من ألفاظ المثل،فوظفه ضمن نصه الشعري لتتناسب مع حيرته.

ويتجلى نصا آخر ضمنه المعري مثلا آخر مفاده أنّ الأنفس البشرية مليئة بالعيوب ولا يوجد أحد فيها كامل،بل يعتريه النقصان وتعتريه علل قد تعيبه،وفي هذا المقام داَخل نصه مع المثل الذي يقوله العرب (لا تعدم الحسناء ذاما) [1]،فقال:

لابدْ للحسناء من ذام و لا ذام لنفسي غير شيء بَختها[2]

ومن خلال هذا البيت الذي وظف فيه المثل الذي يقول(لاتعدم الحسناء ذاما)فإنّه يظهر لنا أنّه مثلما لا تخلو المرأة الجميلة من العيوب،فكذلك هو لا يخلو من عيوب مثلها غير أن عيبه ليس في جماله كالمرأة،و إنّما في بخته أو سعده.

ومن هنا يمكن القول بأن المعري قد طابق بين المثل الذي يوحي بالذم والعيب والنقص وبين نصه الشعري.

---

[1]– عبد الملك الأصمعي: الأمثال ، جمع وتحقيق إياد عبد المجيد إبراهيم، دار الوراق ، ط1 ،2007، ص:167.

[2]– أبو العلاء المعري: سقط الزند ، ص :210.

كما حفلت لزوميات المعري بألفاظ كثيرة لها دلالات مختلفة نهلها من الموروث القديم خاصة وأنّها تمثل قيمة فنية طالما اعتز بها المعري ، وفي ذلك يقول " أبو الأنوار" ، << والأخذ من التراث كان أمراً ضروريا و فطريا في كثير من جوانبه الفنية في عملية الإبداع الشعري لدى عامة الشعراء ،لأنّ ثقافة الشعراء كانت تقوم على التشيّع ودراسته>>[1].

فجاءت ألفاظه ممثلة لإنعاش ثقافته على شعره،ففيها تلميحات على عقائد ووقائع مذكورة على نحو ما جاء في قوله :

إنْ رابنا الدهـر بأفعالـه فكلنا،بالدهر،مرتاب

فاعف،ولا تعتب عليه فكم أودى به عوف وعتاب[2]

ففي البيت الأخير يشير أبو العلاء إلى شخصيتين بارزتين وهما (عوف بن شيبان) و(عتاب) جد عمرو بن كلثوم؛فقصد بذكرهما ذلك المثل العظيم الذي يقول (أوفى من عوف)،ولعله بذكره هذا لتلك الشخصيتين أراد أن يوضع أهمية معرفة الشاعر لأجداده الأقدمين و كتراثه القديم ، وهو بهذا المثل يكون قد طابق نصه مع معنى المثل بالاعتماد على بعض الإشارات الدالة عليه(عوف، وعتاب)وحوادثه،فحتى وإن غدر بنا الزمان ورابنا بأفعاله،فلا يمكننا إلا الصفح والعفو،مثلما فعل عوف الذي يكون رمزا للوفاء والعفو .

وقد اتخذت العرب مثالا آخر هو رمز للقطيعة والشؤم والخراب،متمثلا في قول العرب(أشأم من ناقة البسوس) [3]،فجاء المعري ليضمنه في نصه الشعري.

يقول :

إياك و الخمر فهي خالبـــة غالبــة ،خاب ذلك الغلب

خابية الّراح نـــاقة حقلــت ليس لها غير باطل حلبُ

---

[1]– محمد أبو الأنوار: الشعر العباسي تطوره و قيمه الفنية ، دار المعارف ،(د ، ط ، د، ت) ، بيروت ، ص: 438.

[2]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج1 ، ص :78.

[3]– عبد الملك الأصمعي : الأمثال ، ص :37.

أشأم من ناقة البسوس على النار وإن ينـــل عنـــدها الطلب[1]

فلا شك أن المعري في أبياته هذه أراد أن يكرس بها بعد آخر،من خلال تلميحه في البيت الأول بأن الخمرة حظيرة وتجلب الشؤم لصاحبها،فهي بخطورتها تكون أشأم من البسوس التي اشتعلت بسببها الحرب ودامت أربعين سنة .

وهو هنا يكون قد طابق ألفاظ المثل مع نصه الشعري ، من أجل الوصول به إلى دلالة تنص على عدم احتساء الخمر،فهي مفسدة للعقل ومهلكة للبشر،فقد تكون سببا في فناء الإنسان مثلما فعلت ناقة البسوس في العباد؛حيث أهلكت قبيلتين بالكامل .

ولعل ما سبق ذكره دليل على اتجاهه الشعبي في اللغة،فكثرة استخدام الأمثال دليل على ميله إلى الاتجاه الشعبي،ومن ثمتُلمس شعبية اللغة لديه.

كما أشار إلى المثل الذي تقوله العرب(أغير من حمار)،وذلك من خلال قوله :

عجْبتُ للظبي منسوبا إلى أُسْدٍ وللمهاة التي تُعزى إلىالنّمر

في عالم غيرة الحمراء عادتهم وليس تُعرف فيهم غيرة الحمر [2]

فقد وظف المعري المثل الذي يقول (أغير من حمار)للدلالة به على أنّ اختلاط الأسباب وتداخل الأقوام مع بعض و نتلمس دلالات هذا المثل في الشطر الثاني من البيت الثاني من خلال تركيبة (غيرة الحمر) .

وهو بهذا يكون قد طابق المثل مع الشعر مطابقة تامة بدون تلميح أو تضمين ،غير أننا نجده يوظف في سياق آخر بصورة معكوسة أو مقلوبة،ويظهر ذلك في المثل الذي يقول (أشأم من منشم) و(أشأم من عطر منشم)،يقول :

عطْر لِمَنْ شمّ، ولكنه غير الذي جاءت به منشم[3]

---

[1]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص :87.

[2]– المصدر نفسه:ص: 363.

[3]– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 171.

ومنشم هي امرأة عطارة غمسوا أيديهم في عطرها،وتحالفوا بالاستماتة في الحرب وقيل كانت امرأة الحنوط وسموه عطرا لأنّه يطيب الموتى.

وقيل هو الشر بعينه مأخوذ من نشم في الشر إذا أخذ فيه،فدلالات لفظة(المنشم)التي استعملها أبو العلاء المعري كثيرة مثلما لوحظ سابقا،وهو هنا يدل على الشر والخراب والشؤم.

فوظفه المعري واستغل هذا الجانب السلبي فيه وغيره إلى جانب إيجابي؛حين أراد وصف رائحة ليل زفاف ممدوحه الطيبة،فأقر بأنّها رائحة زكية وجميلة ولكنها تختلف عن تلك الرائحة التي جاءت بها (منشم)،فأخذ مضمون هذا المثل وهو كلمة العطر وقد ربطه بمنشم التي تبيع هذا العطر،غير أنه أعطاه دلالة أخرى غير التي عرف بها، فحوّل دلالة الشأم والحزن والألم التي تشم من عطر المنشم إلى دلالة أخرى فيها الكثير من الفرح والسرور في ليلة زفاف ممدوحه،ولفظة (غير) أكثر الكلمات التي تدل على هذا التغير من السلبي إلى الإيجابي.

سبق أن لوحظ في بداية هذا المبحث الذي كان يتناول بعض المصادر الثقافية التي استقى منها المعري نصوص شعره، وقد تبيّن كيف أن الشاعر نهل من القرآن، والحديث، والشعر، والتاريخ إضافة إلى الأمثال العربية.

ولم يكتف الشاعر بهذه المصادر فقط،بل راح يأخذ بعض الأساطير وتوظيفها في ديوانيه من أجل الوصول إلى أغراضه تتفق مع قناعاته وأفكاره وراؤه.

فالأسطورة إذن هي رصيد ثقافي ذكرها العرب في أشعارها،وهي<< كلام بالمعنى اللساني الاصطلاحي وله إمّا الكلام الملفوظ،وهذا شأن الأساطير غير المدونة حتى الآن أو الأساطير قبل تدوينها وعند تناقلها مشافهة،أو هي سمة الكلام المكتوب وتكون عندها في شكل نصوص ضمن التراث والثقافة العامة >>[1] .

فهي إذن رصيد ثقافي مميز اهتم به العرب اهتماما بالغا،لذا تجدهم يذكرونها في أشعارهم دوما وللفكر الأسطوري منطقه الخاص،ومقولاته،وأشكاله التي يعبّر بها عن مختلف الدّلالات،وللأساطير

[1]– محمد عجينة : موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها ، ص: 75.

أنواع كثيرة منها ما يتعلق بالخلق والكون،ومنها ما يتعلق بمظاهر الطبيعة،ومنها ما يتعلق بأساطير الكائنات اللامرئية كالجن،والملائكة،والقول وعلاقته بالإنسان.

فقد عرفت هذه الأساطير منذ الجاهلية ودونت في كتب مخافة من التلاشي والاندثار؛لذا نجد العرب تحتفظ بنسب منها وتتذكر على سبيل المثال بعض الأساطير،كأسطورة الليل والنّهار؛حيث ذكر في كتب الأساطير<< أن الله تعالى خلق عند المشرق حجابا من الظلمة فوضعه على البحر السابع مقدار عدّة الليالي في الدنيا مذ خلقها الله تعالى إلى يوم تنصرف فإذا كان عند غروب الشمس أقبل ملك من الملائكة الذين قد وكلوا بالليل،فيقبض قبضة من ظلمة ذلك الحجاب ثم يستقبل المغرب،فلا تزال تلك الظلمة تخرج من خلال أصابعه قليلا قليلا، وهو يراعي الشفق، فإذا غاب الشفق أرسل الظلمة جميعا،ثم ينشر جناحيه فيبلغان أقطار الأرض وكنف السماء ويجاوزان ما شاء الله خارجا في الهواء،فيسوق ظلمة الليل بجناحيه بالتسبيح والتقديس حتى يبلغ المغرب على قدر ساعات الليل،فإذا بلغ المغرب أسفر الصبح من المشرق يضم جناحه ثم يضم الظلمة كلها بعضها إلى بعض فيقبضها بكفيه ثم يقبض عليها بكف واحد نحو قبضته التي تناولها من الحجاب بالمشرق ثم يضعها عند المغرب على البحر السابع،فمن هناك ظلمة اللّيل إذا ما نقل ذلك الحجاب إلى المشرق والمغرب،فإذا نفخ في الصّور انقضت أيّام الدنيا فنور النّهار من ضوء الشمس وظلمة اللّيل من قبل ذلك الحجاب ، فلا تزال الشمس والقمر كذلك من مطلعها إلى مغربها إلى ارتفاعهما إلى السماء السابعة إلى محبسها تحت العرش >>[1].

فمن خلال هذا النص الأسطوري الذي وصلعن ابن عباس تتبيّن حكمة الله في الكون ومعنى العدل الإلهي.

وقد وصلت إلى جانب هذه الأسطورة نصوص كثيرة تفسر واقع الأسطورة وأهميتها في التاريخ التراث العربي،والمعري من بين الشعراء الذين حاولوا الاستفادة من الأسطورة وإدخالها ضمن نصه الشعري،لإخراج نص متكامل يرمز به إلى دلالات مختلفة أرادها.

[1]– المرجع السابق: ص: 202.

فبالنظر إلى ديوان المعري نجده قد وظف مثل هذا النوع بالرغم من قلته في ديوانيه إذا ما قورن بالأمثال وغيرها من المصادر الثقافية،وهذا ما يفسر عدم اهتمام الشاعر بالأسطورة ورمزها وأنّ ثقافته محدودة في مجال الأساطير أو أنه لا يؤمن بها كثيرا؛لأنّها ضرب من الخيال ووهم،ورمز خرافي.

وبرغم قلة الأساطير التي تناصها المعري إلاّ أنها وجدت بنوعين أو أكثر ينتمي إلى الأساطير كقوله موظفا أسطورة (سُهيل):

وسُهْيل كوِجنة الحِب في اللّو ن نوز قلب المُحبّ في الخفقان

إلى أن يقول :

ضَرَّجْه دمًا سيوف الأعادي فبكت رحمةً له الشِّعريان

قدماه وراءه ، وهو في العجْ زِ كساع ، لبيت له قدمان[1]

فهو يشير إلى الأسطورة التي تقول أنّ(سهيلا) قتل،فبكيت عليه أختاه الشعريان الشعرى العبور و الشعرى الغميصاء، فالشّعرى العبور التي عبرت إليه المجرة،فهي تنظر إليه وفي عينها عبْرة.

و الشعرى الغميصاء التي غمصت من البكاء ؛أي كثر القذى في عينها ، ووراء سهيل نجمان يقال لهما(قدما سهيل) .

فإذن وظف الشاعر أسطورة سهيل،فوصفه وصفا جميلا؛حيث جعله كالإنسان العاشق الذي تحّم وجنتاه إذا أحب ويخفق قلبه بشدة،وقد قتل سهيل بسيوف الأعادي،فبكت عليه أختاه الشعريان رحمة ورأفة لحاله،وبما أنّه قتل فقد سقط على الأرض وسقطت قدماه التي كانت تقله وهما نجمان يقفان وراءه.

وتوظيفه لأسطورة سهيل لم تكن عشوائية،فقد وظفها مستفيدا منها للإدلاء بأحقية الموت ومرارته على نفوس الناس،وهو ما مثله بأختا سهيل؛حيث بكتا حرقة لفراقه وألما لفقدانه،حالهم كحال البشر لا يملكون إذا سقط الموت غير البكاء والتحسر والألم بالفجيعة،ونجده في سياق آخر يوظف أسطورة أخرى ،وهي أسطورة النمور ونسور لقمان يقول:

[1]– أبو العلاء المعري: سقط الزند ، ص: 95.

يـــا نفس آه لمْجر ُ ت َنـــزرِّ جرّبتــه فرجعت عين المخسر

أعلى ابن ادٍ يفترون كما افترتْ قدمًا على النمروز شأن الأنسر

سرٌّ سيعلن و الحياة ُ معــارة و لتقضين بها ديــون الُمعسر

كخبيء نِعَم و بئسَ يخبأ فيهما و يكــون ذاك إشــراط ُ هفّسر

أنا في إسَا ر اللّهر لَسْتُ بمطلق أبدًا فأسْرِ أخا الطلاقة أْو سر[1]

لقد وظف أسطورة النمروز و الأنسر<< وهي من الأساطير القديمة حيث اختلفوا على النمروز وأسطورة نسور لقمان،وارتبطت دلالة النسور على شعار الملك وطول البقاء أو العكس>> [2].

وقد وظف المعري أسطورة نسور لقمان المختلفة على النمروز كمثل يضربه عن اللّهر وما يعتريه من تناقضات وانتشار للقيم المنحلة التي يتيح الكذب والافتراء كما فعلوا مع النّمروز،ودلالة النص كلّها ترمز إلى أن الإنسان في هذا الدهر بتناقضاته وفساده لا يملك أن يغير فيه،فهو مجبر على ابتلاع تلك الإٍّام المرة وتجاوز المحن فيها؛لأنّه مأسور قابع تحت سطوة اللّهر،وهذا ما يفسره بقوله في البيت الأخير(أنا في إسار الدهر).

[1]– أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1 ، ص: 386.

[2]– محمد عجينة : موسوعة الأساطير، ص :342.

جدول إحصائي يبين المصادر الدينية والثقافية

		مقاطع من المصدر الديني		مقاطع من المصدر الثقافي		
الرقم التسلسلي	نوع الديوان	القرآن	الأحاديث النبوية	الشعر القديم	التاريخ	الأمثال والأساطير
1	سقط الزند	سورة نوح /الآية15	وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون	مضى الواقف الكندي والسقط عابر	امرؤ القيس	من لك بالسانح بعد البارح
2	سقط الزند	سورة الصافات /الآية 103		كأنني فوق روق الظبي منحذر	ابن الأبرص	إنك لا تجني من الشوك العنب
3	سقط الزند	سورة البقرة /الآية 102		بنازلة سقط العقيق بمثلها	النابغة الذبياني	
4	اللزوميات ج1	الناس/الآية 4،1	لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة	ولا أدعي للفرقدين بعزة	لبيد بن ربيعة	
5	سقط الزند	البقرة /الآية249		فهلا خلتهن به ذبالا	جرير بن عطية	
6	سقط الزند	المطففين /الآية 25		إن يكن عيدهم بغير هلال	أبو الطيب المتنبي	
7	اللزوميات ج1	سورة المسد/ الآية 1،6	رويدك بالقوارير	ألم ترى لامرئ القيس بن حجر....	السليك والشنفرة	اسمع بالمعيدي خير من أن تراه
8	سقط الزند	الرحمن		لغط القطا فأبان	أبو العتاهية	طارت بهم

		/الآية37		عن أنسابه		العنقاء
9	سقط الزند	سورةالقارعة/ الآية 5		أنت شمس الضحى عنك	أبو تمام	
10	سقط الزند	النمل /الآية18		إذا سقت السماء الأرض سجلا	الخليل بن أحمد الفراهيدي	عند جهينة الخبر اليقين
11	اللزوميات ج2		أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك أدناك أدناك	فيا للسليك أوالشنفري	...إلا وعندي من أخبارهم طرف	
12	اللزوميات ج1		إذا قتلتم أحسنوا القتلة	مثل ابن الأبرص لما عاد ملحوبا	يوم النسار	أوفى من عوف
13	اللزوميات ج1			وأسرة كسرى للمليك عبيد		
14	سقط الزند			...إلا إذا قيس إلى ضده		لا تعدم الحسناء ذاما
15	اللزوميات ج1			أبدى العتاهي نسكا..		أشأم من منشم
16	اللزوميات ج1			أصاح هي الدنيا تشابه ميتة		أغير من حمار
17	اللزوميات ج1			مثل وشي الوليد لانت وإن...		النمروز
18	اللزوميات ج1			ورمى الخليل بأسهم الأسوار		
19	اللزوميات ج1			بنسور معركة ولا بنسار		

20	اللزوميات ج1			والدهر قص قنا جذيمة في الوغى...	جذيمة	
21	سقط الزند			كذات الغوير أمنت قصيرا	قصة الزباء	أسطورة سهيل
22	اللزوميات ج1			فجرت قريش بالفجار وحربه	يوم الفجار	
23	سقط الزند			كانت لقابوس بنيمنذر	يوم ذي قار	
24	سقط الزند			رأتها العيون الزرق في كيد وائل	حرب ذبيان وداحس كيد وائل تغلب وبكر	
25	اللزوميات ج1			وعاينها في حرب ذبيان وداحس	ناقة صالح	
26	اللزوميات ج2			وأبيات كسرى من بيوت العنا	قوم كسرى بن هرمز	
27	اللزوميات ج1			بإيوان ابن هرمز فارتقته	نفيل	
28	سقط الزند			سؤال مزجي فيله عن نفيل	عدنان ومضر	
30	سقط الزند			جيش المنية من عدنان أو مضرا		

ومن خلال هذا الجدول الذي اعتمد على إحصاء لمختلف المصادر سواء كانت الدينية،ويتعلق الأمر مثلما كان ظاهرا في الجدول أعلاه بالقرآن والسنة النبوية ومدى اقتباس أبو العلاء المعري منهما وتوظيفهما كشواهد على اطلاعه ومعرفة الحقيقة بالدين.

تراءى أنه استعمل أيضا المصدر الثقافي الذي تمثل في توظيفه لشعر الشعراء القدامى،و كذا توظيف أسماءهم ومختلف الوقائع والأحداث غير المنسوبة إليهم عبر التاريخ إضافة على اطلاعه على الأمثال العربية السائدة آنذاك وبعض الأساطير.

وما بقي إلا الجدول الذي يوضح المجموع الكلي لمختلف هذه الصور المقتبسة من مصادر جمة ومنه أعتمد الآن إلى شرحه وتبيينه .

المصدر الديني		المصدر الثقافي		
القرآن	السنة النبوية الشريفة	الشعر	التاريخ	الأمثال والأساطير
10سور	06	30	30	10
المجموع الكلي	86 صورة			

إذن ما يلاحظ أن أبا العلاء المعري قد استعمل القرآن بنسبة (10) سور، ووظف معها(06) أحاديث نبوية،فبالرغم من عدم استعماله الواسع للدين وما يتعلق به،إلا أنه استعمله في أشعاره،هذا ما يوضح استفادته منه ومشيه على صراط الدين وهدي نبيه المختار.

أما الشعر القديم والتاريخ؛فقد أخذا حظا وافرا من نصيب أشعار أبي العلاء المعري،كما تمت استفادته من الأمثال والأساطير ولو كانت قليلة، فالمعري واحد من الشعراء المتميزين الذين حاربوا من أجل إعلاء كلمة الشعر التي يعبر بها عن مختلف آماله وآلامه وحزنه وتجربته في الحياة،وهذا ما جعل شعره ذا قيمة كبيرة.

القسم الثاني: المصادر العينية

تدخل المصادر العينية ضمن المصادر التجريبية التي« تعنى بما جربه الإنسان بحاسته بمقتضى ملازمته له،ووجوده في محيطه،وما يحتمل أو يرجح أنه بمقتضى معاصرته له ووجوده في بيئته،كذلك ما لم نتأكد من تجريب الشاعر إياه،أو نشك في تجربته،ونعتبره مع ذلك ممكن التجريب قابلا أن يقع في طريقه وتشترك الصور المتنوعة من المصادر التجريبية في شيء أخر هو حلولها في ذهن الشاعر»[1] بفضل الإنسان وثقافته وهذا ما نسميه بالمصدر العيني،الذي يشمل كل ماله صلة بالإنسان والآلات والأدوات كاللباس، والزينة، والطيب، والألعاب، والمطاعم،والمشارب،والصناعات والحرف، وآلات الحرب وسائر أدوات الكتابة والصناعة والحرف،والبحث في مثل هذه المصادر هو أمرا في بالغ الأهمية وضروريا يمكننا من كشف جماليات الفن لدى الشعراء وتفسيرها بما يتلاءم مع أغراضه المنوطة به، ويوفنا بمدى استغلال الشاعر لهذا المصدر ومدى إسهامه في ميدان الشعر والإبداع عموما.

وعليه إذا أعيد تتبع أشعار المعري الممثلة في سقط الزند و اللزوميات بجزئيه توجد مليئة بمثل هذه الصور التي حاكى فيها الإنسان واستطاع أن يخرج منه ومن أعضائه وأجناسه وعلاقاته مع من يحيطه صورا بديعة تعجز الإنسان في تركيبها ونسقها.

وهذا ما سوف يشرح في هذا المصدر عند أبي العلاء المعري،وأول صورة تمثلت من خلال شعر المعري هي:

الصور في هيئة الإنسان وأعضائه:

وهنا يصبح الإنسان بؤرة مركزية أو محورا ينسج الشاعر من خلاله صورا تكون مصدرا للتصوير،فيشبه الشاعر الأشياء،أو العباد،أو الكائنات إلى إنسان كامل أو تشبيهه إلى أعضاء إنسان كاليد واللسان والعقل وغيرها من التشبيهات التي تشكل صورا من هذا النوع .

والمعري نراه كثيرا التصوير على هذا المنوال،وهذا ما ظهر جليا من خلال دراسة ديوانيه سقط الزند و اللزوميات بجزئيه؛حيث يجعل الدهر شيخا هرما قد أصابه الكبر،فصار خرفا يقول:

---

[1]- محمد الدسوقي: البنية التكوينية للصورة الفنية ، درس تطبيقي في ضوء علم الأسلوب، ص:15، 16.

تمتع أبكار الزمان بأيـــده وجئنا بوهن بعدما خرف الدهر

فليت الفتى كالبدر جدد عمره يعود هلالا كلما فني الشهر[1]

ويقول أيضا في الجزء الثاني من اللزوميات:

إن خرف الدهر فهو شيخ يحق بالهتر والزمانـــه

أضحى سليما بغير داء لم تبد في شخصه ضمانه[2]

فالشاعر من خلال هذه الأبيات يبدوا ساخطا على هذا الدهر الذي أصابه الكبر،فهو يتمنى لو أنه يعود لمرحلة الشباب ويجدد عمره مثل البدر الذي يعود هلالا في نهاية كل شهر.

ومن خلال هذه الأبيات يظهر المعري مؤكدا على مرحلة الشيخوخة «التي هي من الأعراض التي تصيب الإنسان، وينفر منها لإصابته بالضعف وخور القوة ،فهي تمثل جانبا من جوانب الانتهاء والعكس والضمور والبعد عن الحياة ومعانيها»[3]، لذا وجد أبا العلاء المعري وهو يعرض لها في ديوانيه ساخطا على ما أصابه ويصيب الأمة جميعا.

يوُرى في مرات عديدة وهو يشخص هذا الدهر ويجعله في هيئة إنسان يبطش بيده،يقول:

إذا ما الأصل ألفي غير زاك فما تزكو يد الدهر الفروع[4]

ويقول جاعلا أيضا للدهر يد:

وأعجب ما تخشاه دعوة هاتف أتيتـم فهبوا يا نيام إلى الحشر

فيا ليتنا عشنا حيـاة بلا ردى يد الدهر أو متنا مماتا بلا نشر[5]

---

(1)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص: 277.

(2)- أبو العلاء المعري ، اللزوميات ،ج2 ، ص:363.

(3)- محمد الدسوقي: البنية التكوينية للصورة الفنية ، ص: 107.

(4)- أبو العلاء المعري: اللزوميات ، ج2 : ص91.

(5)- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1: ص355.

فما يلاحظ هنا أن أبا العلاء المعري قد أكثر من تشبيهه للدهر بعضو من أعضائه وهي اليد ، وذلك للدلالة على بطشها وسطوتها على البشر،حتى أن الإنسان مسير أمام إرادة الدهر ولا يمكن أن يغير ما فرضته عليه يد الدهر،فهي من تختار له أصوله وتفرض عليه تأدية واجباته وفروضه ، هذا ما وضحه في البيت الأول والثاني.

وفي البيت الآخر استعمل لفظة (يد الدهر) ضمن السياق الذي يتمنى فيه المعري لو أن الدهر يطول،فيعيش حياة بلا موت،أو يموت مماتا بلا نشر،حتى لا يتعذب خصوصا أنه لا يمللك دخلا أمام إرادة الدهر.

فيد الدهر التي يبطش بها،ولا يمكن للإنسان أن يغير ما فرضته عليه ، ما هي في نظر المعري إلا خادما يخدم الإله،يقول:

إذا قيل: غال الدهر شيئا فإنما يراد إله الدهر والدهر خادم

ومولد هذي الشمس أعيان حده وخبر لب أنه متقادم

وأيسر كون تحته كل عالم ولا تدرك الأكوان جرد صلادم[1]

ويظهر الدهر مرات عديدة في هيئه إنسان يصمت وهو أبلغ ناصح،يقول :

الدهر يصمت وهو أبلغ ناطق من موجز ندس ومن ثرثار

يمشي على قدميه من ظلمائه ونهاره ما همّتا بعثار

ضنت يداه وتلك منه سجية أن تجريا أحدا على الإيثار[2]

فمن خلال هذه المقطوعة التي نسج خيوطها المعري بإحكام،فأعطى صفة الإنسانية للدهر وشخصه أحسن تشخيص،فهو لم يكثف بتصوير يداه بل تعداه إلى أن جعله في هيئة إنسان كامل هادئ ومتزن يستطيع التكلم وفي الوقت المناسب،غير أنه اختار الصمت ولو اختار التكلم،فسيكون

---

[1]- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 278.

[2]- المصدر نفسه : ص: 398.

أبلغ ناطق ولكنه بخل عليهم بنصحه وأفكاره وتجاربه وبإعطاء حكمه حتى يستطيع الإنسان السير في هذه الدنيا بسلام،لكنه ببخله هذا جعل البشر يتخبطون في متاهات كثيرة يحيطهم الأذى من كل جهة،ويظهر الدهر ناصرا للقوم في أحيان كثيرة، كقوله:

والدهر إن ينصرك ينصر بعدها ذا إحنة فيصور كل محار[1]

ويشرب كالإنسان ، يقول:

وقد شرب الدهر صفو الأنام فلم يبق في الأرض إلا العكر

وما عند خلك غير النفاق وما خلة ناسيا فادكـــر[2]

فقد شرب صفو الأيام الحلوة ولم تبق إلا الأيام العكرة المليئة بالنفاق والغل والحقد وهنا شخَّص الدهر في هيئة إنسان يشرب شرابا زكيا.

وهكذا يظهر من خلال ما عرضت أن أبا العلاء المعري قد اتخذ من الإنسان وبعض أجزاءه مصدرا له يستقي منها نصوصه الشعرية،فنراه يشبهه بإنسان بليغ غير أنه عاجز عن التكلم مفضلا الصمت،مما يجعل البشر يتخبطون في هذه الحياة المتناقضة كما جعل له يدا يبطش بها ويفرض بها كل ما أملاه الله عنه،فهو بمثابة خادم يسطو على الناس بيده غير أنه لا يملك سلطة على خالقه،وهي كلها صور تبين مدى قسوة هذا الدهر وظلمه بالعباد، فالإنسان مسير من طرف إرادة الدهر وليس مخيرا،وهذا ما جعل المعري يتمنى حياة بلا موت أو موتا بلا عقاب مادام أنه ليس المسؤول على كل ما يحصل في هذه الدنيا،وهو لم يكتف بإلصاق يد الإنسان للدهر،بل تعدى في نصوص أخرى من ديوانيه إلى أن جعل للزمان كف،وللمنايا والليالي يد أيضا، يقول:

وما كتبته يد للزمان فعن يده مرة يمتحي[3]

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج 1، ص: 400.

[2]- المصدر نفسه : ص:415.

[3]- المصدر نفسه:ص: 201.

وللزمان كف ككف الإنسان ولكنهم للأسف يجهلون خطابه،وكأنه يتكلم معهم برموز غير مفهومة من مثل قوله:

و كأن في كف الزمان بنوره قطرا تُعم بنشره الأقطار

تقفون والفلك المسخر دائم ويقدرون فتضحك الأقدار[1]

ويقول:

زمان يخاطب أبنـــاءه جهارا، وقد جهلوا ما عنى

يبدل باليسر إعدامــه وتهدم أحداثه ما بنـــى

لقد فزت إن كنت تعطي الجنان بمكة إذ زرتها أو منى[2]

ويقول عن الأيام التي لها يد في نظره أيضا:

قل للمشيب يد الأيام دائبة تنقيك والمرء من جهل ينقيكا[3]

كما جعل للقدر يد ،يقول:

إلى الليثين ترسل باقتدار نوائبها يد القدر الهجوم [4]

وللردى أيدي ، يقول:

نعمل أسرانا بأيدي الردى ويد لج الليلة أسرنا[5]

وله يد يبطش بها، يقول:

فشم صارها واكز قناة فللردى يدهي أولى بالحمـــام وأدرب

---

[1]- المصدر السابق: ص: 305.

[2]- المصدر نفسه:ص: 61 .

[3]- المصدر نفسه: ص: 163.

[4]- المصدر نفسه : ص: 328.

[5]- المصدر نفسه:ص:220.

أفض لها مات وأرمي بأسهم وأطعن في قلب الخميس وأضرب[1]

وزاد في التشخيص،فجعل لسان يحكي به يقول:

كان الأسى فرضا لو أن الردى قال لنا أخذوه فلم نفده

هل هو إلا طالع للهدى سار من التراب إلى سعده[2]

وللمنايا يد كيد الإنسان ،يقول:

للمنايا حواجب لا تبالي أهشيما جرت لها، أم رطيبا

صرفت كأسها، فلم تسق شربا مرة، خالصا، وأخرى قطيبا[3]

فقد شخص المعري في البيتين الأخيرين،إذ جعل له يد تمد كأسها للشاربين،دون أن تميز المنية بينهم،فكلهم سيشربون منها دون أن تبالي أشيخا كبيرا قتلت أم طفلا صغيرا، ويقول أيضا في نفس السياق:

يد المنايا إذا تصافحها أعيا بها من يدني في رحم[4]

ويقول:

إن كسرتني يد المنايا فما الأطباء جابريا[5]

ويزيدها هنا في عمق التشخيص،لهذه الصورة،لما جعل لها (يد)، جعلك تصافحها واستعارة اليد للمنية هو امتداد لحشد القوة و الجبورت لها إكمالا لما مضى من صور كما ألحق به صفة الصوم التي يقوم بها الإنسان يقول:

---

(1)- أبو العلاء المعري:اللزوميات ،ج1، ص:67.

(2)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص:65.

(3)- المصدر نفسه: ص:95.

(4)- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص : 210.

(5)-أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص:450 .

أفطر وصم أو صم وأفطر خائفا صوم المنية ماله إفطار[1]

فصوم المنية يختلف عن صوم الإنسان، لأن هذا الأخير إذا صام،فهو متأكد من أنه سيفطر، ولكن المنية إذا حلت بالإنسان لن ترجعه إلى الحياة مرة أخرى، كما يفعل الصائم إذا أتم الصيام، فكأس المنية واجبة وتحل على البشر للشرب منها،وهذا ما يقوله المعري:

كأس المنية أولى به وأروح لـي مـن أن أكابـد إثـراء

لو لم تكن طرف هذا الموت موحشة مخشية لاعتراضا القوم إحواجا

في كل أرض صروف غيرهما زلـة يلعبن بالناس أفراد أو أزوجـا[2]

فالمعري متيقن من حقيقة حتمية الموت والفناء من هذه الدنيا، فهو مؤمن بها حتى أنه يتمناها في كثير من الأحيان لشدة الأحزان التي ألمت به والآلام التي شقت قلبه.

فالمنية هي كائن لابد للبشر وفي كل الأقطار أن يشربوا منه، فكأسه فرض علينا وبالرغم من أن الشاعر متأكد من حتمية الزوال إلا أنه يجهل وقوعها ووقتها، وهذا ما أكده بقوله:

ولى مورد بإناء المنون وكفى ميقاته ما أتى[3]

وقد فعل المعري نفس الشيء بالنسبة للزمان والقدر الردى؛حيث جعل لكل منهم يد يستعملها، فيد الزمان –على سبيل المثال– تبطش وتسطو، فتتغلب إرادته على إرادة الإنسان فيشوي الإنسان بحوادثه حتى يمل العيش فيه شاكيا منه ومن قسوته، يقول في ذلك:

مد الزمان و أشوتني حوادثه حتى مللت، وذمت نفسي العمرا[4]

فهنا ما يلاحظ من خلال هذا البيت أنّ الزمان وهو يبطش بيده التي صنعها المعري له في تلك الأبيات، فأشوت الشاعر كإنسان بحوادثه وأشبعته آلاما حتى مل العيش وسئم منه.

---

(1)– أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1، ص:61.

(2)– المصدر نفسه: ص:177.

(3)– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص:61.

(4)– أبو العلاء المعري: سقط الزند ، ص:315.

ويد القدر ليست أقل من يد الزمان لها سطوة على العباد،فتهاجم البشر بنوائبها وتقتنص فرائسها فحينها يكون الردى أو الموت الذي صوره المعري من خلال أبياته وأكد على أنه حتمية مفروضة على الإنسان لا يملك مخرجا منه، يرمي سهامه ويطعن بها بدون شفقة أو رحمة.

وفي مرات عديدة يكون للردى بعدا ورمزا واضحا يجسد القوة والتسلط والجبروت مثله مثل اليد في ذلك، والليل عنده يظهر أيضا بيد كيد الإنسان، يقول:

لا تصبحن يد الليالي فاجرا فالجار يؤخذ أن يعيب الجار

تمشي علينا الحادثات ووطؤها كسنا البوارق ليس فيه عثار[1]

ولكن يد الليالي التي تكلم عنها أبو العلاء المعري هي كالصاحب الفاجر لا يؤتمن جانبه، فقد تعاقبت علينا-بصفتنا بشر-حوادث كثيرة،وقد وطئتنا هذه الليالي برزاياها التي مرت علينا،كما يمر البرق في السماء بصورة خاطفة .

فهنا أراد الشاعر تصوير كثرة الرزايا التي جاءت بها الليالي،حتى أن الإنسان لم يعد يتذكرها، مثل البرق في السماء لا يكاد يخطفه بصرك.

والليالي عنده ترجو وتتمنى يقول:

رجا الليل أن يدم شبابه فلما راها شاب قبل احتلامه[2]

فهنا يقدم أبو العلاء صورته التي يشخص فيها الليل عن طريق التركيبات التالية (رجاء الليل) وقوله (يدوم شبابه) وأيضا قوله (شاب قبل احتلامه)، فبذلك يكون أبو العلاء قد جعل الليل يرجوا ويتمنى أن يدوم شبابه، كما جعله يشيب من كثر الهموم قبل الاحتلام أو المشيب.

«وواضح هنا ما استعاره له من الرجاء والتمني والشباب والشيب والاحتلام، لكن هذه الاستعارات جميعها التي نسبها أبو العلاء لليل، تبيح بحقده عليه وغله منه وشماتته فيه، إنه لثأر طويل بينه وبين الليل، وشوق كبير بينه وبين النهار، فها هو الليل الذي كان يتمناه المعري أن يبقى جاثما

---

(1)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج1، ص:307، 308.

(2)- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 229.

على هذه البلاد، يأتي إليها ممدوحه فيصيره نهارا وتزداد فرحة أبي العلاء، إنها لفرحة الشامت المغلوب على أمره والهارب من غلّه »[1].

ولكثرة الهموم شاب الليل، فأصبح كزنجي أسود شاب رأسه، كما شبه طول الليل بأيسر موثق لا يستطيع انتقالا، وهذا ما يظهر بقوله:

من الزنج كهل شاب مفرق رأسه وأوثق، حتى نهضه متثاقل

كأن الثريا، و الصبح يروعـها أخو سقطة، أو طالع متحامل[2]

فنراه يواصل تصويره للمشاهد المتعلقة بصورة الليل،حيث تظهر الثريا وهي خائفة من الصبح ، فيصورها وهي تتعثر في سيرها تروم الإسراع ولكنها لا تقدر،لأنها قد تعبت من طول السير أو كأنّ ضلعا أصابها،فهي تتخامل وتتكاسل.

وهي في مقام آخر تظهر في صورة إنسان يطوي ثيابه مثل الليالي تطوي نضارة الإنسان وشبابه ،يقول:

تطوي النضارة بالليالي، مثل ما يطوي بأيدي الصائنات إزار[3]

هنا صور الليالي التي تطوي شباب الإنسان كما تطوي المرأة ثيابها عند غسلها وهي هنا صورة حسية تبعث على التأمل بتلك الليالي والأيام التي تسحب من أعمارنا عمرا ؛فقد جاءت تلك الصورة مؤثرة،لأنها تذكرنا بمرور الأيام دون أن نفكر بمرورها أو العمل على استغلالها بشكل مفيد.

وفي جانب آخر يجعل لليل فكرا يعمل به ليعلم السر وخفايا الأمور.

يقول:

لعل نجوم الليل تعمل فكرها لتعلم سرا، فالعيون سواهد [4]

---

[1]- شعيب خلف: التشكيل الاستعاري ، ص :327.

[2]- أبو العلاء المعري: سقط الزند ، ص:110

[3]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1 ، ص :312.

[4]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 208.

فنجوم الليل كأنها إنسان يعمل فكره من أجل الوصول إلى الهدف،وهدف الليالي من إعمال فكرها هو تعلم خفايا الأمور والغيبيات التي لم تكد ترى بالعين،والليل صاحب له لسان ساكن وضمير سائر، قال:

تُورَّى عنك ألسنة الليالي كأنك في ضمائرها اعتقاد [1]

فقد جعل أبو العلاء المعري لليل ألسنة من خلال كلامه في الشطر الأول الذي قال فيه(تورى عنك ألسنة الليالي)على سبيل التشخيص،لما جعل لها ألسنة جعلها تورى وتستر ثم جعل لها ضمائر في كلامه (كأنك في ضمائرها اعتقاد).

كما اتخذ المعري من الناس مصدرا للتصوير إلى جانب أعضاء الإنسان وأحواله وصفاته،وقد مثله في جانبين:أحدهما يمثل إعجابه بممدوحه وتشبيهه بالإنسان في جوانب عديدة لكثرة استحسانه و الافتنان به.

والجانب الآخر يمثل النفور من هذا الواقع ، ومن بعض الصفات الموجودة في البشر كالنفاق والغل والغي والحسد ، وغيرها من الصفات المستهجنة.

وهي كلها صور أبدع فيها المعري،وهذا ما سوف يُوضح من خلال دراسة أشعار المعري فتمثيل الجانب الأول الذي يمثل الإعجاب،يظهر في قوله:

لعل كراها قد أراها جذابها ذوائب طلح، بالعقيق ضال

ومسرحها فيضل أحرى، كأنها إذا أظهرت فيه ذات حجال [2]

رسم أبو العلاء المعري صورة جميلة للإبل التي تستضل تحت ضلال الأشجار الوافدة ؛ لتريح بدنها من عناء السفر الطويل بغوان يرتدين حجالا أو ستارا يسترن بهن أنفسهن من أعين الرجال،وهو في هذا يكون قد قدم لوحة فنية استنبط معالمها من وحي تراثنا القديم ومن ديننا الحنيف.

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص:41.

[2]- المصدر نفسه : ص:238.

ومن هنا يكون الشاعر قد وظف هذه التعليمة في مجال الدين في نصه الشعري وهذا ما يدلنا على تشبثه بأصول الدين ومعرفته بأحكامه حتى تراءى له أن ينسج صورة تكون أحكام الدين مركزا لها.

ولم يقف المعري عند تشبيهه الإبل بالغوان،بل راح ينسج لنا صورة أخرى شبه فيها حاجياته النفسية بالغوان المقصورات في خذرهن وحاجات غيره شبهها بنساء ردائد ،يقول:

حوائج نفسي كالغوان قصائر وحاجات غيري كالنساء الردائد [1]

والقارئ لهذا البيت يستشف من كلام أبي العلاء المعري أنه في تشبيهه لحاجيات نفسه بغواني قصائر وهن النساء المحبوسات في خدورهن، لدليل قاطع على اعتزاله وانفراده عن المجتمع،فهو رهين بيته لا يخرج منه لأحد مثله مثل النساء المحبوسات ، واسترسل في تصويره في كلامه راسما صورة أخرى في نفس البيت مشبها حاجات غيره بنساء ردائد وهن المطلقات،وهذا دليل على أنه محب للانعزال دون غيره الذي أراد الحرية و الانعتاق كالمطلقة التي كانت تعاني من جبروت الزوج وقسوته ، ثم تحررت منه،فكانت تخرج لكل مكان،وفي ذلك عكس الغوان القصائر.

والمعري في بيته هذا يكون قد رسخ فكرة العزلة والاغتراب من المجتمع الذي لا يرحم خاصة بعدما عانى منه ومن حوادثه التي أشواه بها،لذا هو يفضل الانفراد الذي يعتبر حاجة من حوائج نفسه التي تكلم عنها في بداية البيت ؛حين قال(حوائج نفسي) والعقل عنده في هيئة إنسان يصحبه معه ؛ لأي مكان هو يستأنس بوجوده وصحبته .

يقول:

كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيرا في صبحه والمساء

فإذا ما أطعته جلب الرحمة عند المسير والإرســـاء

إنما هذه المذاهب أسبـــا ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص: 242.

غرض القوم متعة لا يرقو ن لدمع الشماء و الخنساء[1]

ما يُستنبط من أبيات أبي العلاء المعري هو جعله العقل كإنسان وزاد إلى أن جعله في رتبة إمام للناس يمكن الاطمئنان إليه،فالعقل وحده يميز بين الخير والشر وبين الظلم والعدل،بخلاف جميع السياسيون الذين لم ينشروا سوء الظلم والجبروت والآلام،عكس ما يقولوه ويقروه للفوز بالمنصب فكثيرا-على حد قول المعري- ما نراهم يرفعون من شعارات ترفع من معنويات الشعب؛فيعدونه بالعدل والمساواة وإعطاء الحقوق وتلبية كل المتطلبات وما أن يصلوا إلى الحكم حتى ينقلبوا،ولذلك ينصب المعري العقل كإمام لهم يسوسونه فيخبرهم، ففيه الرحمة هو خير أنيس للإنسان ينبئه بالحوادث و الأخبار، من بينها حادثة الردى(الموت).

يقول:

أنبأنا اللب بلقيا الردى فالغوث من صحة ذاك النبأ [2]

فالمعري متأكد من حقيقة الموت التي أنبأه بها عقله،فهو لا محالة زائل كغيره من البشر، و يقول أيضا:

ملكان لو أنني خيرت ملكهما وعود صلب أشار العقل بالعود[3]

فيظهر دور العقل هنا في الإشارة التي ربطها بالعود،أي أن العقل يتدبر أمره ويعود إلى صوابه حين يجد خطأ في وجهته.

وتجده في صورة أخرى يشبه السياسي الذي يتلاعب بمصير الشعوب يعدهم مرة ويخلف في مرات عدة،كحرباء تتلاون تجدها في كل مرة بشكل يختلف عما سبق،وهذه الحرباء هو ذلك الخطيب السياسي الذي يعتلي سدة المنبر،ليتكلم هو ولكنه لم يستطيع إفادة الناس،لأنه بدون صوت مثل الحرباء لا صوت لها وناب عنه الحندب الذي يصوت في الحر بصوت عال،وهذا كلهُ تلمس في قوله:

أوفي بها الحرباء عودي منبر للظهر إلا أنه لـــم يخطب

---

[1]- المصدر السابق: ص:51.

[2]- المصدر نفسه: ص:53.

[3]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص:252.

فكأنه رام الكــلام ومســـه عيّ ، فأسعده لسان الجندب [1]

فكثرة وعود الخطيب وهو يعتلي المنبر التي فيها الكثير من الكذب والنفاق،كأنه كان يتكلم بدون صوت مسموع ،وهنا إشارة إلى عدم جدوى كلامه، لذا شبهه بحرباء دون صوت، كما جعله يقول ويتحدث كإنسان بارع ويظهر ذلك في:

يقول لك العقل الذي بيّن الهدى إذا أنت لم تــدر أعدًوا فداره

وقبّل يد الجاني الذي لست واصلا إلى قطعها وانظر سقوط جداره[2]

كما قال:

إن العقول تقول مولية ليس الأنام كنابت البقل[3]

فهو هنا يواصل في تشخيص العقل،فيجعله يقول لصاحبه إذا أنت لم تستطع مجارات عدوك فداراه، هذا رأي فيه اتزان كبير، لكن ترى من هذا العدو الذي يمكن لرجل في جرأة أبي العلاء المعري وتمرده أن يداريه، أهي مصائب الدنيا أم هي نكبات الزمان أم هو الرأي وما يجلب على أصحابه من مشقة ومتاعب؟ أم هي كلها جميعا عدوا له، ولم يكتف المعري بأن جعل العقل صاحبا يتحدث ويشير،بل جعله يتعجب ويستفهم وينفر من الأشياء،يقول:

والعقل يعجب للشروع تمجس وتحنف وتهود وتنصر[4]

فما أثار أبو العلاء المعري هو ذلك الاختلاف في المذاهب والأصل أن تتفق الشرائع هنا على شيء واحد وعلى مذهب واحد،ولكن وجود مذاهب عدة مثلما ذكر المعري من دين مجوسي وحنيفي ويهودي ونصراني،هذا ما أثار المعري وجعله يتعجب،فالأصل الاتفاق وليس الاختلاف.

---

(1)- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص:231.

(2)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص: 395.

(3)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص: 252.

(4)- المصدر نفسه:ص: 159.

ومن هنا جعل العقل بعدما أدرك هذا الاختلاف في الرأي والدين ينفر من أي شيء لا يتناسب مع تفكيره وبنيته العقلية .

يقول في ذلك:

وينفر عقلي مغضبا إن تركته سدى واتبعت الشافعي ومالكا [1]

ونراه في أحيان كثير ينسج لنا صورا مصدرها طفل صغير،كأن يشبه البدر بطفل يقول:

فكأني ما قلت والبدر طفل وشاب الظلماء في عنفوان

ليلتي هذه عرسي من الزنج عليها قلائـــد جُمـــان[2]

ويقول أيضا:

طلعت عليهم واليوم طفل كأن على مشارفه جِسادا[3]

فقد قصد في هذين البيتين؛حين شبه البدر بطفل بأول الشهر قبل أن يكتمل البدر ويصبح هلالا،وهي إقرار منه على مرحلة الشباب هو ما فسرها في الشطر الثاني من البيت الأول؛حين قال(شباب الظلماء في عنفوان)ووضحها أكثر بذكره من خلال كلامه(ليلتي هذه عروس من الزنج)، فهي دلالة على سواد شعره الذي يدل على شبابه والذي ما فتئ أن تحول إلى قلائد من جماد غطت شعره الأسود، هي هنا دلالة على الشيب في الرأس ويشبه الحسام بطفل، يقول:

وضجيج طفلهم الحسام وإن ثَوِيَ منهم فتى، فمع المهنّد يقبر

فكأنهم يرجون لقيـــا ربـــهم بالبيض، تشفع عنده وتكفر[4]

ويقول مشبها حد السيف بالطفل:

---

(1)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص:159.

(2)- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص:241.

(3)- المصدر نفسه : ص: 90.

(4)- المصدر نفسه: ص: 229.

وتصرف أطفال السيوف كأنها أخو السن لم تقبل حكومة أطفال [1]

نراه يشبه روحه بطفل صغير يقول:

وشخص ورحي مثل طفل وأمه لتلك لهذا من يد الرب عاقد

يموتان مثل الناظرين تـواردا فلا هو مفقود ولا هي فاقـد[2]

فقد مثل المعري من خلال هذه البيتين صورة تكون فيها روح المعري شبيهة بطفل صغير ظل متعلقا بأمه وحنانها بيد أن الطفل الصغير وأمه يموتان فلا تحس الأم بأنها فقدت وليدها؛ لأنها فقدت الحياة فلم تعد لتحس به ولا يحس المولود بأنه فقد أمه وحنانها لأنه آل مثلها إلى التراب.

فتصويره هذا للعلاقة التي تربط الأم بولديها لهو تصوير صادق مفعم بالحنان والرأفة التي جعلت الولد يتعلق بأمه،وكم هو محزن حين تؤول كل من الأم والابن إلى التراب وهما في هذا المصير كغيرهم من الكائنات الحية تؤول إلى الزوال،وقول المعري فيه إشارة إلى حتمية الزوال والانتهاء .

كما يشبه الشمس بفتاة بلغت للاشتراك الحاصل بينهما في الجمال، يقول:

كم أهرم الفتيات وقت ذاهب والشمس تطلع كالفتاة المعصر[3]

فشبه الشمس وقت طلوعها وهي تتلاون بين الأصفر والأحمر بوجه فتاة معصور.

ما يلاحظ أن أبا العلاء المعري ذهب بعيدا بتشبيهه،فلم يكتف بتشبيه البدر بالطفل الصغير ،ليدل به على مرحلة من مراحل عمره،بل نراه يذهب بخياله بعيدا حين شبه الحسام بضجيج طفل الذي يخلقه وما يصدره من صوت من أثر الضربة وما يترك في نفوس الضحايا من ألم وصراخ وبكاء يعادله ضجيج الطفل الذي يصدره.

غير أن هذا الضجيج للحسام لا يكفي للقتل خاصة أنهم يرجون لقيا ربهم، وهذا ما جاء به في قوله (فكأنهم يرجون لقيا ربهم بالبيض) ولو أنه يستعمل المهند فسيقتله لا محالة بضربة قاضية لأنه

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص: 188.

[2]- المصدر نفسه : ص:209 .

[3]- المصدر نفسه:ص:385.

يتوفر على القوة والصلابة التي لم يتوفر عليها الحسام،إلا أن المهند برغم القوة والشدة والصلابة التي يتوفر عليها إلا أنه يشفع بقلب رحيم لهذا الفتى فلا يقتله والعالم صبي صغير عنده،يقول في ذلك:

وعالمنا المنتهي كالصبي قيل له في ابتداء تهج [1]

الدرع عنده هي أيضا رمزا للقتال والاستعداد كالسيف والرمح سابقا، لذا أولى المعري عناية بها ، فراح يصفها ويشبهها في أحيان كثيرة بصور تليق بها في سمكها وصلابتها وتارة أخرى في لينها مثل ما فعل المعري حين شبه الدرع بأغراس، يقول:

وتخال أغراس المنون أتت بها عند الحوادث، أمهات رباعها

ويرى ابن دأية أنها من ِغرقي الـ طير العكوف: ملوكها وسباعها[2]

ويقول في موقع آخر من ديوان سقط الزند:

يقُضب عنه أمراس المنايا لباس مثل أغراس النتاج [3]

والمتتبع لأبيات المعري المنسوجة يجده قد رسم صورة فنية شبه فيها الدرع بغرس مولود جديد ، وهو في تشبيهه هذا يريد أن الدرع في لينها ورقتها وملمسها كجلد طفل رقيق وناعم.

وشبهها لصفائها بماء رقيق يخرج أيضا مع الولد ساعة ولادته، يقول:

ذخيرة كهل من كهول، كأنهم إذا كان هيج، يلبسون السوابيـا

وقد ترجع السهم الأصم نضيه فينكص عنها، بعدما هم، حابيا [4]

فمن دون شك النضارة والصفاء الذي يملكه الطفل الصغير المرتسمة على محياه ولين ملمسه ورقة جلده لا يضاهيه فيها أحد؛ لذا أحسن المعري تشبيه درعه بطفل صغير في لينه ونظارته.

---

[1]- المصدر السابق: ص: 188.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص:388.

[3]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص: 324. والغرس:هو ذلك الجلد الرقيق الذي يخرج مع الولد من بطن أمه.

[4]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص:370.

وبعد هذه الدراسة التي حاول المعري فيها أن يشبه الأشياء بإنسان،كمظهر من مظاهر الإعجاب به كما لمس من خلال أشعاره؛حين شبه الإبل بحسان مستورات،وعزلته بالغواني المقصورات ، وزاد عليه صورا أخرى تخص السيف والدرع فشبهما بطفل صغير،وهي كلها صور تتم عن قدرت المعري العجيبة في الخيال والنسج،فلم يترك طفلا ولا امرأة ولا كبيرا إلا ونسج عليه صورة من خياله الخصب.

كما اعتمد أبو العلاء المعري إلى جانب الإعجاب بالإنسان وتشبيه كل ما يحيط به بالبشر، على مظهر آخر هو مظهر النفور من البشر،فقد عدها أيضا مصادرا للتصوير وقد تنوعت هذه المظاهر بين صفات خلقية متأصلة في بعض البشر،كالشر والنفاق،والخداع،والغي،والنميمة، وبين ما يصيب الإنسان من مكروه وهو خارج عن إرادته كالموت مثلا،و أول مظهر يجسد نفوره هو تشبيهه للدنيا بأم مخادعة غادرة.

يقول:

ولم تفتــأ الدنيا تغر خليلــها و تبدله من غمض أجفانها سهدا

تريه الدجى في هيئة النور خدعة و تطعمه صابـا فيحسبــه شهدا

وقد حملته فوق نعش وطالــمـا سرى فوق عنس أوعلا فرسا نهدا

و لم تتــرك من صلـــة لتفـره و لم يبق في إخلاصه حبها جهدا

ومن هوى الدنيا الكذوب فإنــه رهين بثوبـي ذلـــة وصغــار [1]

ويقول أيضا في أبيات متفرقة من الديوان:

يماحل في الدنيا الخؤون وإنما يؤمل تررا فانيـــا بمحالـــة

ومن يكتحل بالسهد في طلب العلا يجر أن يرى منهاجه باكتحاله [2]

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص: 234.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص: 228.

و يقول عن الدنيا الخائنة:

وخانتني الدنيا مرارا وإنما يجهز بالذم الغواني الخوائن[1]

وفي نفس السياق ،يقول :

وقال: أضرت بالصفاء وتخونته ومرت بالصفاء فرتقته[2]

والمتمعن في أبيات المعري السابقة يدرك كره المعري للدنيا؛لتوفرها على صفات دنيئة كالخيانة والكذب والغدر،وهذا ما فسره بأقواله، ففي أبياته الأولى يصور أبو العلاء المعري حقيقة الدنيا وهي تغر خليلها وتريه دجى الليل المظلم بسواد حوادثه على أنه صبح منير يشرق بطلة بهية وأيام حلوة ، وهي لا تكتفي بهذا الحد فقط،بل تصور له المر من الطعام على أنه عسل مصفى ومذاق حلو.

كما أن نهاية الدنيا موت واندثار،فهو لا محالة سوف يخرج من هذه الدنيا اللئيمة فوق نعش بعدما كان يهوى ركوب الجمال والأحصنة.

ويواصل المعري في تصوير الدنيا بمشهدها المظلم الذي ظهرت فيه مغرورة وخائفة حين أقر بأنها سوف تظل تمارس السحر على الناس وتخدعهم بألاعيبها.

ويتوصل الشاعر في نهاية المطاف إلى نهاية مؤلمة تظهر فيها الدنيا ، وهي تلبس لباس الخداع والكذب والمراوغة ومن يهواها في نظر المعري،فسيبقى رهين الذل والاحتقار والتصغير.

و لقد رأى الشاعر هذه الحقيقة في أكثر من سياق،ليؤكد أن الدنيا لم يتغير حالها وستبقى خائنة وفي كل الأوقات ، وهذا ما فسره بقوله (وخانتني الدنيا مرارا).

وهي في خيانتها شبيهة بامرأة خائنة لم تكتف بالكذب وخداع الناس الأباعد،بل نراها تمقت حتى أبنائها وتخونهم،وفي ذلك يقول:

هوت أم لنا غدرت وخانت ولم تشف الليل و لارقته

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص: 346.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص:419.

و قال: وكم أدت أمانته إليها أمين خونته وسرقتــه[1]

فقد استعار أبو العلاء للدنيا كل ما وجده من صفات الخيانة والغرور والكذب والغدر والخديعة، وبجوار خيانتها،فهي امرأة ماقتة لأبنائها وتحاصرهم وتضللهم عن طريقهم الصحيح على الرغم من أنهم يتمنون البقاء في هذه الدنيا المتعبة،لكن هيهات إنّ الإنسان بتمنيه البقاء فيها يكون قد تمنى أمرا مستحيلا لا يظفر به أحد مهما بلغ من درجات القرب لديها ويوضح هذا بقوله:

سألناها البقاء على أذاها فقالت عنكم حظر البقاء[2]

فقد شخص الدنيا وجعلها كإنسان،حين يقدم لها سؤال عن البقاء ثم تجيب هي عن سؤاله، وكأنها إنسان يتكلم؛لأن البقاء ممنوع ولا يجوز في هذه الدنيا ،حتى قال(فقالت عنكم حظر البقاء).

ثم أرفق بها الشرور وأبدى رغبته في إخماد هذه الشرور، إلا أنها أبت؛فقال:

أريد من الدنيا خمود شرورها فتوقد ما بين الجوانح نارها [3]

فقد منحها فعل الإيقاد وإشعال لهيب النار في أجساد بنيها غير آبهة بهم وبمصيرهم،كما صورها في هيئة إنسان مضل يتعمد إخفاء الطريق في الصحراء المقفرة، يقول:

تضللني في مهمة بعد مهمه عدمت بــه أنوارها و منــارها

وتظهر لي مقتا وأضمر حبها كأني جهول ما عرفت شنارها [4]

فقد زاد المعري في تشخيص الدنيا،فأبرز قوتها وجبروتها ومقتها على الرغم من إضمار الحب لها من الجميع،وتترجم مقتها في كثرة الرزايا التي ترسلها وتسقطها على البشر،يقول:

وما فتئت الفتى عن قسيها بكل الرزايا من جميع الأماكن [5]

---

(1)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ،ص: 420 ،421 .

(2)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص: 42.

(3)- المصدر نفسه :ص:334.

(4)- المصدر نفسه: ص: 334

(5)- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج2، ص:388.

فهنا أيضا شخص الرزايا التي ترمي الإنسان بأسهمها في كل صوب، ويقول:

أخوك معذب يا أم دفر أظلته الخطوب وأرهقته

ومازلت معاناة الرزايا على الإنسان حتى أزهقته

كأن حوادث الأيام أم تريق بجهلها ما أدهقته[1]

فهنا صور المعري معاناته في هذه الدنيا التي سماها بأم دفر وهي دلالة على قدراتها وهو ما ظهر في الشطر الأول من البيت؛حين قال (أخوك معذب يا أم دفر)،فكلامه فيه شكوى من أم دفر، فكأنه بقوله (أخوك معذب) يتوسل إليها بأن تكف بلاها عنه وتوقف رزاياها؛لأنه عانى كثيرا من كثر الابتلاءات والأحداث حتى أزهقت روحه،كما صور الدنيا بإنسان متردد متقلب لا يرسوا على فكر واضح على نحو قوله:

دنياك تشبه ناضحا مترددا من شأنها الإقبال والإدبار [2]

فيظهر من خلال توظيفي لمختلف الصور أن المعري،قد صور الدنيا في صورة سيئة تارة يشبهها بأم دفر لقذارتها ونتانتها،وتارة أخرى بأم مخادعة يعلوها الغرور والكبر وفي أحيان أخرى تظهر في صورة أم ماقتة لأبنائها تتعمد تضليل طريقهم ،وهنا أعطاها المعري دلالة على السطو والجبروت والتحكم في زمام الأمور،فهي المذنبة المخادعة الكاذبة،ولكنه في البيت الأخير تعمدا إخفاء بعض هذه المعالم؛حين صورها في صورة مقبل ومدبر فهي مترددة لا ترسوا على حدث معنى،قد تحزنك وفي نفس الوقت ترسل إليك ببشائر الخير وقد تفقدت أعز ما تملك،كما أنها قد تعطيك وتهبك مولودا جديدا،وهكذا فإن حال الدنيا يتغير من حال إلى حال،فهي مصدر الآلام والأحزان في أحيان كثيرة.

قد تصبح إذا صارت إنسانا كما فعل المعري بها مصدرا للشكوى والبوح بما عندها مثلها مثل الإنسان يشكو ويبوح ويشتكي،يقول:

---

[1]- أبو العلاء المعري ، اللزوميات ،ج2، ص:418.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص:309.

تبوح بفضلك الدنيا لتخطى بذاك وأنت تكره أن تبوحا [1]

فهي تشكو كإنسان ألمت به المصائب وحلت به البلايا من كل صوب،كمصيبة الموت الذي يتحول في شعر المعري إلى إنسان سارق لأرواح البشر،يقول:

والموت يسلب ما في الأنف من شمم تحت التراب، وما في الخد من صعر [2]

فالموت حتمية مقدرة على الكائنات جميعا والإنسان مبتلى بها في صغره أو كبره ووقع الموت على الناس قد يتفاوت من شخص لآخر،فمنه من تجده صابرا على هذا الحكم الإلهي مؤمن بوجوده وبمصير الشعوب التي سوف تؤول إليه،ومنهم من يحس لألم الفراق فيستمر بالنواح والبكاء كما فعلت الخنساء؛حين قتل أخوها صخر،فلم يجد المعري صورة أجمل من توظيف الخنساء في رثاء أخاها صخر مشبها لها بحمامة تنوح بصوتها، يقول:

وحمّاء العلاط، يضيق فوها بما في الصدر من صفة الغرام

تداعى مصعدا في الجيد وجدا فقال الطوف منها بانفصـــام

أشاعت قيلها، وبكت أخاهـــا فأضحت، وهي خنساء الحمام [3]

فقد شبه الشاعر في البيت الأخير الحمامة المغردة التي تنوح بصوتها الفياض بالخنساء بنت عمرو بن الشريد،تلك الشاعرة التي ناحت وبقيت تبكي أخاها من حرقة الفقد بقية عمرها، فحتمية الموت لابد منها قد صورها الشاعر في أكثر من سياق.

ما يلاحظ بعد هذه الدراسة التي ركزت فيها جهدي حول المصادر العينية التي استقى منها المعري صوره ونسجها بشكل يتلاءم مع غرضها المنوط بها،فتبين أن المعري قد استفاد من عنصر الإنسان بوصفه مصدرا عينيا،ووظفه في كثير من نصوصه الشعرية مستعيرا يداه وعيناه ولسانه،وفي

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 36.

[2]- أبو العلاء المعري اللزوميات ،ج1 ، ص :367.

[3]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 274.

بعض الأحيان يشخص الأشياء ممثلة في شخص الإنسان كاملا كما فعل مع حد السيف والحسام حين شبههما بطفل صغير، والبدر،والنفس البشرية قد أعطاها نفس التصوير.

كما وجدت صور كثيرة للدنيا مستعيرا في ذلك أحوال الإنسان وصفاته،فاستعار صفة الخيانة والغدر،والكذب،والنفاق،والكره وألحقها بالدنيا التي شبهها بامرأة فاتنة وتارة أخرى بعجوز شمطاء وبأم دفر وغيرها من الصور التي تنم عن مقدره المعري على التصوير وعلى الخلق والإبداع.

وقد أضاف المعري إلى الصور التي كان مصدرها هيئة الإنسان وأحواله صورا أخرى مصدرها الأدوات،وهذا ما سيتبن من خلال الدراسة.

ثانيا: صورا مصدرها الأدوات:

الدراسة في هذا المجال تقوم على ما يخص الإنسان وصناعاته،فتتخذ الآلات والأدوات المستعملة من الإنسان كمصدر من مصادر التصوير،وما تحله من معان خلفية،قد تمثل لدى كل شاعر معجما خاصا به،كما أنها تكشف عن القيم الجمالية التي يرتئيها الشاعر المبدع في مجال إبداعه، وفي فترة زمنية محددة.

خاصة وأنّ هذه الأدوات لها قيمة كبرى عند العربي،فأخذها مصدرا من مصادر شعره يستقي منها ما يناسبه ويلاءم بيئته البدوية،فأخذوا بذلك يتغنون بها ويتخذونها برموزها لتصوير وصف الأشياء،وهذا ما يدل على مكانتها عندهم خاصة أنّ توظيفها يحمل معان عديدة تختلف باختلاف المبدعين ومشاربهم.

والآلات منها ما يخص الحرب،فيرتبط بها ارتباطا كتوظيفه لمصطلح السيوف الحسام، الدروع وغيرها،ومنها ما يتصل بأدوات مستعملة في المنزل كالحبال والكؤوس والدلاء وغيرها من الصور المبتدعة.

ودراسة شعر المعري وبالضبط في هذا المجال هي ما تساعد على الكشف عن هذه المصادر المرتبطة ومدى ارتباطها بنصوص المعري الشعري،كما تكشف عن أهم أنواع الأدوات المستخدمة في نصوص المعري.

إذن وبالنظر إلى ديواني المعري حاولت البحث جاهدة عن هذه المصادر الأدواتية المجودة في شعر الشاعر،فوجدت العديد منها،فشعره لا يكاد يخلوا من اتخاذ الآلات والأدوات مصدرا في شعره.

وأول صورة وجدتها لها علاقة بالحرب وآلاته.

فالمعري من بين الشعراء الذين اتخذوا من أدوات الحرب منبعا خصبا ينهلون منه ألفاظهم لتكوين صور حسية لها علاقة بواقعنا المعاش، فقد استعمل الآلات الحربية،وأولما تطالعنا صورة بنيت على السيف،فكان الماء منها شبيها بالسيف على حد قوله:

والماء وردي، لا تزال نواجدي في منتضاه، سوابحا كأوزام [1]

سراب تنوفة لبياضه ولمعانه شبهه بالسيوف التي تعتبر أداة يستعملها الناس في الحرب،يقول:

ونسيت ما صنع الهوى بتنوفة عقم الجديل بها، وأعقب أخدر

سلّت سيوف سرابها لتروعني وسواي، عاذل من يراع ويذعر [2]

و يعقد صورة أخرى كانت السيوف والرماح التي هي أدوات تستعمل في الحرب مصدر لها ،وذلك بتشبيهه لأمشاط الرجال إليها، يقول:

وشعت، فلا أخشى المنايا وأتقي تدنس عرض، أو ذميم فعال [3]

ما يلحظ من هذا البيت أن أبا العلاء المعري كّون صورة جميلة شبه فيها أمشاط الأرجل بسيف حاد أو برمح،وذلك لاشتراكهما في الطول والرقة،ومنه تبدو صورة المعري واعتماده إلى الأدوات وللآلات،كمصدر في تشكيل لوحته صورة واضحة سهلة ومنمقة.

واستخدام المعري إلى جانب السيوف والرماح لفظة السهام،وهي وسيلة من وسائل الحرب لا يمكن الاستغناء عنها،حيث شبه الدهر بنوائبه وحوادثه التي يلقيها على الإنسان بسهام نازلة،يقول في ذلك:

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص: 281.

[2]- المصدر نفسه :ص:229.

[3]- المصدر نفسه: ص: 242.

وسهام دهرك لا تزال مصيبة صرفت بإذن له عن إخطائهما

إن المواهب كلها عاريـــة ومن السفاهة غبطة بعطائها[1]

فهذه السهام التي يلقي بها الدهر هي مصيبة تلقى على عاتق الإنسان الذي نزلت به الرزايا والمصائب، فقد رسم صورة واضحة جعل فيها الدهر وهو يلقي بحوادثه كسهم انطلق من رمح ليصيب به فريسته.

وقد تمادى المعري في رسم صوره المستوحاة من صلب الأشياء المادية الصلبة فشكل صورة جعل فيها للمنايا رماح تصيب به الهدف المنشود، يقول:

يقضب عنه أمراس المنايا لباس مثل أغراس النتاج [2]

وهذه الرماح سلسلة ولينة ورقيقة مثل أغراس النتاج وهي الجلدة الرقيقة للمولود.

والدرع من الوسائل الحربية اهتم به الشعراء منذ القديم نظرا لمكانته وأهميته فهو وسيلة لحماية الفرسان من ضربات العدو،لذا ارتداءه ووجوده في ساحة المعركة أمر ضروري.

والمعري من الشعراء الذين سارعوا لتوظيفه باعتباره مصدرا آليا،فشكل به صورة رائعة،يقول فيها:

مشى للوجه مجتابا قميصا كـــل أمة فارس، يرمي بـلام

كدرع، أحيحة الأوسي طالت عليه، فهي تسحب في الرغـام

نسيب المعاشر، ولدت عليهم دروعـهم، فصـارت كالـلزام

كدعوى مسلم ليزيد حمل الـ سوابغ، فـي التغاور والسلام

و تلقى عنهم، لكمال حـول كثيرات الخـروق من السمـام

على أرجائها نقط المنايـا ملمـعة بها تلميـع شـــام [3]

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات، ج1، ص: 52.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص:31.

[3]- المصدر نفسه: ص: 277.

فمن خلال هذه الأبيات يتبين أن المعري شكل صورة بتشبيهه لقنيص الحباب وجلود الحيات المرقطة بالدروع المليئة بالمسامير،وراح يتابع في وصف هذه الدرع التي تشبه الحباب والحياة وهي درع (أحيحة الأوسي) التي وقعت بسبب درعه الحرب بين عبس ذبيان،إلى أن يقول في البيت الأخير (على أرجائها نقط المنايا)،فجعل هذه الدرع المرصعة والمليئة بالمسامير التي تشبه نقطا للمنايا،وهي رمز للدم المتناثر هنا هناك،ورمز لقوة الفرسان الذين يلبسون هذه الدروع.

والإبل عنده ليست إبلا عادية هي شبيهة بالسفائن التي من المفروض تجوب البحار غير أن الإبل تجوب الفيافي، فقال:

أأبغي لها شرا، ولم أر مثلها سفائر ليل ،أو سفائن[1]

فقد رسم المعري صورة كانت الإبل فيها شبيهة بالسفينة،وهذا يدل على قوة وصلابة وصحة هذه الإبل، حيث إذا ركب فيها الإنسان لم يحس يوما أنه ركب جملا ،بل سفينة والشاعر استعار اسم السفينة للإبل،وهي من عادة العرب أن تسمي الإبل سفينة الصحراء،فهي تجوب الفيافي وتقطعها بدون كلل أو ملل.

2- صور تتصل بالحياة المنزلية:

إلى جانب الصور التي ترتبط بالآلات الحربية كالسهام والسيوف والرماح والدروع جُودت في ديوانيه بعض الصور المستقاة من الحياة المنزلية العادية .

ومن بين الألفاظ التي بنى عليها صوره نجده يكثر استعمال كلمة الحبائل أو الحبال وتارة أخرى الحبل،فهي اشتقاقات لمعنى واحد، طالما عهدناه في محيطنا.

ومن هذه الصور التي بنيت على هذا المنوال، جعله للعزم والنسك،والشمس،وللأيام ،والمنايا حبال، ويظهر ذلك بقوله:

أغرت لنا حبالات المنايا بما غزلت ذكاء من الحبال [2]

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص: 238.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص:239 .

ويقول جاعلا للعزم حبال فقال:

ألم ترني صرمت حبال عزمي كما صرم الخليط حبال فتر [1]

وللشمس حبال:

<<ما يوم وصلك وه أقصر من نفس بأطول عشية غالـي

علقت حبال الشمس منك يدي و جديدها في الضعف كاليالي

قال (ابن السيد) يقول: حبال وصلك التي تعلقت بها أضعف من حبال الشمس وهي شبه نسج العنكبوت ترى في الهواء في الحر الشديد ،وتسميه العرب خيط باطل ويسمونه لعاب الشمس وريق الشمس >>[2]، ويقول:

متى يضعفك أين أو كـــلال فليس عليك للزمن،ابتهال

وحبل الشمس مذ خلقت ضعيف وكم فنيت بقوته حبـــال [3]

وحبل الشمس يرى في الحر الشديد،كأنه خيوط عنكبوت في شعاع الشمس وتسميته العرب خيط باطل،وهذا البيت مثل ما تقدم،فأراد به أنّ أهل القوة والسلطان لا يقدرون على مغالبة أضعف أمور الزمان،كما أن حبال الشمس على ما يرى من ضعفها قد قطعت الحبال المبرمة،وهو يقول:

تخوّن أربعي ومضى بخمسي وأغلق في حبال الشمس عشري [4]

وقال:

ومدت حبال الشمس من قبل عصرنا علم أمم لم تترك لهم سلكا [5]

---

(1)- أبو العلاء المعري: اللزوميات ، ج1، ص: 372.

(2)- محمد بنشريفة: شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند ، مطبعة النجاح الجديدة ،ط1 ،2001 ،الدار البيضاء ، ص:245.

(3)- المرجع نفسه:ص: 419.

(4)- أبو العلاء المعري: اللزوميات ، ج1، ص:377.

(5)- المصدر نفسه : ص: 158.

ويقول أيضا جاعلا للنسك حبال، يقول:

تمسكوا بحبال النسك في زمن ولا ح نزر فخلوا ما به امتسكوا [1]

وللدنيا حبال يقول:

وحبائل الدنيا تزيد على الحصى وأقل أنفاسي أدق حبائلي[2]

وجعل للعيش حبل يقول:

وحبل العيش منتكث ضعيف ونعم الرأي أن لا تجذبوه[3]

والدرع شبهها في صفاتها بامرأة، والمرأة هي أداة منزلية تستعمل منذ القديم إلى حد الآن وجودها ضروري هي مثال للصفاء والنضارة والبهاء ،لذا شبه الدرع في جمالها بامرأة جميلة قال:

ماوية تهوى هوي الماء من دهماء، تُهدي عذبه لبقاعها

ترنو بأبصار سواهد لم تذق طعما لمسهدها ولا تهجاعها

غرق الدين في لجة، لو نملة درجت بها، لم يند بعض كراعها

تُلفى بها ثقة الحمائم، أنها في مربع، فتهيج في تسجاعها[4]

كما صور الحمام في أحسن تصوير، فجعل له كأسا يشرب منه كل البشر بدون استثناء ،حيث يقول:

و للموت كأس تكره النفس شربها و لا بد يوما أن تكون لها شربا

من السعد في دنياك أن يهلك الفتى بهيجاء يغشى أهلها الطعن والضربا

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص: 155.

[2]- المصدر نفسه: ص: 276.

[3]- المصدر نفسه :ص: 425.

[4]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص: 390.

فإن قبيحا بالمسـود ضجعـــة على فرشه يشكو إلى النفر الكربا[1]

ويقول:

كأس المنية أولى بي وأروح من أن أكابد ثراءا وإحواجا

في كل أرض صروف غير هازلة يلعبن بالناس أفرادا وأزواجا[2]

فهو يؤكد من خلال هذه المقطوعة البشرية أن يموت حق علينا جميعا ولابد يوما أن يشرب الإنسان من كأس الموت.

والعرب مثلما هو معروف كانوا يميلون إلى تقديس الإبل،فهي عنوان للصبر والجلد لذلك يوظفها الشاعر بكثرة في أشعاره ،فمرة يشبهها بسفينة،ومرة يشبهها بدلاء عظيمة في بئر لجلب الماء حيث يقول:

كأنهن غروب، ملؤها تعب فهن يمتحن بالأرسان تقويدا[3]

فهذه الإبل قد تعبت من كثر السير وثقل مشيها، فأخذ أصحابها يجذبونها بالأرسان؛لتمشي ،وهي في هذا شبيهة بدلاء تنتح من البئر،وعيونها تشبه قوارير المياه .

يقول:

تبين قرارات الميـاه، نواكـــزا قوارير، في هاماتـها لم تلفـــع

إذا قال صحبي: لاح مقدار مخبط من البرق فرى معوازا جذب موجع [4]

فأراد هنا بقوارير الموجودة في البيت الأول بعيون الإبل،أما البيت الثاني فقد صور فيه المعري صاحبه وهو يخبره بلموع البرق،وهو هنا يشير إلى أنه أعمى؛حيث لا يمكنه رؤية البرق إذا لاح في

---

(1)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص:81.

(2)- المصدر نفسه:ص: 177.

(3)- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 225.

(4)- المصدر نفسه: ص: 287.

السماء كغيره من المبصرين والبرق يرمز عنده إلى الحنين إلى الوطن والأم والصبية وإلى الوجع من شدة الشوق،وهذا ما يجعل المعري يشق ثيابه باكيا إذا لاح هذا البرق.

كما لُمحت مجموعة أخرى من المصادر التي لا تخرج عن المصادر العينية إضافة إلى المصادر التي تكون لها علاقة بالإنسان وهيئته وأحواله أو مثلما لوحظ الآن الصور التي مصدرها الآلات والأدوات،ووجد نوعا آخر سوف يتعرض إلى الدراسة والتحليل وهو:

3- صور مصدرها الحضارة:

المتتبع لديوان المعري سقط الزند و اللزوميات بجزئيه يلحظ أن أبا العلاء المعري قد استعمل صورا لها علاقة بالحضارة،حيث استنبط منها هذه الأخير الحضارة صورا ساعدته في تشكيل نصوص شعرية مختلفة.

وبالتالي ما لمح أنّ المعري لم يكتف بالصور التي استقاها من الدين والتاريخ والأمثال، مضيفا إليها الصور المستقاة من هيئة الإنسان وأدواته،بل وجدناه بشكل صورا أخرى تجسد مظهرا حضاريا رائعا، فراح يشبه الإنسان عادة والدنيا، والليل، والناقة بأشياء مستنبطة من الحضارة كالقصور،والديار والكتابة،والحروف والحبر،فهي كلها صور تعكس التطور الحاصل في عصر المعري،فتكالب الأمم في وقته على البناء والتشييد وتحصيل العلم كلها مجسدة في شعر الشاعر.

وعليه لقد تبين من خلال الدراسة التي أجريت على ديواني المعري أنه استعمل صور لها علاقة بالحضارة،ويتجسد ذلك في صور التي لها علاقة بالبناء،ويظهر ذلك من خلال قول المعري مشبه عمر الإنسان بالبناء:

وسرت وقيدي بالحوادث محكم كما سار بيت الشعر وهو مقيد

و ما عمر الإنسان إلا كالبناء فإن يزد على حده فهو الرفيع المشيد[1]

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص:208.

المتأمل في هذا البيت لا بد أن يتوقف،ليدقق النظر فيما وراء هذه الألفاظ التي شبه فيها المعري العمر ببناء مشيد،من دون شك عززت الفكرة التي يريد واستطاع الشاعر أن يؤدي المعنى المراد.

الشاعر بتشبيه لعمر الإنسان الذي ينتقص ببناء بيت الشعر يظل الإنسان يبنيه ويعدله بما يساير مستواه ولغته ،حتى يصل به إلى مستوى رفيع مثله عمر الإنسان،لكم هو مفرح لبنوا البشر، حين يروا أنفسهم يكبرون ويكبرون إلى أن يتقدموا في العمر، فكل مرحلة في العمر تنقضي من دون شك تنقص من أعمارنا،وهذا ما أراده المعري ولكن مصير الإنسان الفناء و السقوط،فعمر الإنسان مقيد بحوادث الدنيا مثل البيت الشعري مقيد بحركات وسواكن.

وشبه العمر في موقع آخر من ديوانه اللزوميات بشقة والدنيا بكعاب،يقول:

وكأنما عمر المرء شقة ظاعن تسرى بأنفاس له وتسار

وكأنما الدنيا كعاب أينـــا رجى لها صلة فذاك يسار[1]

فيسار هو اسم لعبد تعرض لبناة مولاه ، فتعرض لأشد عقوبة،مثل الإنسان الذي يثق بالدنيا ويؤمنها وتكون له صلة بها،فعقوبته سوف تكون وخيمة مثل اليسار الذي عوقب لأنه لم يعرف قدر بنات مولاه، فالإنسان أيضا إذا لم يعرف الدنيا ومكانتها وحقارتها فإنه سوف يعاقب وكأنها دعوة صريحة من المعري ؛لأنها بالتخلي عن الطموح في هذه الدنيا والزهد فيها، لأنها لاشيء خاصة أنها نهايتها موت وعمر المرء فيها محسوب ومقيد، كما يكون الإنسان الذي يكون في وسط شقة تحبس أنفاسه ، فهو يعد الأيام والليالي للخروج من هذه الشقة والخروج يعني الموت.

فالمعري أكد حقيقتين من خلال تشبيهه للعمر بشقة وللدنيا بكعاب،فقد أراد أن الموت حقيقة والعمر فان ،كما أنّ الدنيا زائلة ولا يصلح فيها غير الزهد والتعبد.

كما شبه الدنيا بدار،والدار هي مظهر من مظاهر الحضارة التي اقتبسها المعري من محيطه وعصره،يقول:

---

[1]- المصدر السابق : ص:302.

دنياك دار شرور لا سرور بها وليس يدري أخوها كيف يحترس

بنينا امرؤ يتوقى الذنب عن عرض أتاه ليث على العلات يفتـرس

ألا ترى هرمي وإن شمخـــا كلاهما بيقين سوف يندرس[1]

ويقول أيضا:

دنياك دار إن يكـــن شهادتها عقلاء لا يبكو على غيابـــها

قد أظهرت نوبا تزيد على الحصا عددا وكم في ضينها وعيابـــها

ما الظافرون بعزها ويسارهـــا إلا قريبـــو الحال من خيابـــها

أنياب جامعة الشمام فمر التي أطغت فخلت الراح في أنيابـــها[2]

فقد جعل المعري في الأبيات السابقة الدنيا، كدار تضم أجناسا مختلفة من البشر ولكن الميزة الغالية على هذه الدار هي الشرور و المأثم حتى حار الإنسان فيها من أين سيحترس ، وهذا ما أعقبه بقوله(وليس يدري أخواها كيف يحترس) أيتقي شر الذئاب التي هي رمز للغدر والخداع والمكر،أم يتقي شر الليث، الذي هو رمز للقوة والجبروت والتسلط كتسلط الحكام.

فبتوظيف لفظتي الذنب والليث يكن قد اقتصر شرورها ومثله في الخداع والمكر والكذب والمراوغة والقوة والجبروت للحكام،وهي كلها صفات مجسدة في أرض الواقع قد رآها المعري وتحسسها ببصيرته وبتعامله مع الناس.

لذا رأى المعري أنّ العاقل هو من يؤثر راحة الموت على البقاء في دار الدنيا المليئة بالشقاء والعناء،فيسعد لساعة الرحيل،فيرحب بملك الموت الذي يأتيه ليقبض روحه ويبتعد عن البكاء والحياة عنده ما هي إلا جسر نعبره، يقول:

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات، ج2، ص:22.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص:119.

حياة كجسر بين موتين أول وثان وفقد الشخص أن يعبر الجسر [1]

ففي البيت الأول يصف المعري الحياة،فيذكر حياة الدنيا وحياة الآخرة،وهذا ما بينه من خلال كلامه في الشطر الأول (حياة كجسر بين موتين أول وثان)،فهي كجسر يلزمنا تخطيه حتى نعبر إلى الجسر الثاني ففقد الشخص هو العقبة الأولى التي يتخطى بها الجسر الأول المتمثل في حياة الدنيا ، وهذا ما يستشف أكثر في بيته الذي قال فيه ذكرا الدنيا مشبها إياها بجسر:

ودنياي ألقى بطول الهوان هل هي إلا كجسر عبر [2]

فهنا يؤكد المعري على حقيقة الدنيا واصفا إياها بمحطة لابد من الوقوف عندها وتخطيها حتى يصل الإنسان إلى دار أخرى والعيش فيها مهما طال،فإنه سوف يتلاشى ويقضي بعبور الجسر، يقول:

و العيش جسر نال من هو جاسر أو كاد فيه وطاب من لم يجسر

و إذا قرنت بلام ملك مضمرا فتحت به فكأنها لم تكسر

و كأن من بلغ العلالم ينخفض و كأن من فقد الغنى لم يوسر

و يدلني أن الممات فضيلة كون الطريق إليه غير ميسر

لولا نفاسته لسهل نهجه كأذى الضعيف على اللئيم المكسر [3]

ومن نال عبور جسر العيش فقد فاز بعبوره ومن ثم الانتقال إلى دار الآخرة والتخلص من شرور الدنيا ومن معوقات العيش، من لم يحن وقته لعبور الجسر فقد طاب لآن البقاء للعيش في هذه الدنيا مر وفيه مآثم كثيرة،والممات على حد قوله فضيلة،عكس العيش والبقاء،فهو رذيلة،فالمعري يتأسف لأن الطريق إلى عبور الجسر ومن ثم الممات طويل فعبور جسر الدنيا،أو جسر الحياة والعيش

---

[1]- أبو العلاء المعري :اللزوميات ،ج1 ، 278 .

[2]- المصدر نفسه: ص :418.

[3]- المصدر نفسه :ص: 386.

هو طريق إلى الممات، غير أن للممات جسر ثان وعبوره طريق إلى حياة أخرى،وهذا ما يظهر من خلال قول الشاعر :

عشنا وجسر الموت قدامنا فشمر الآن لكي تعبـــره

والعز في الثروة والعيش في الحبرة والحرفة في المحبره[1]

فعبور جسر الحياة أو العيش أو الدنيا مثلما سماها المعري يؤدي بالإنسان إلى الممات والزوال من هذه الدنيا،غير أن هذا الأخير له جسر يتم عبوره للوصول إلى دار الخلود،فإما جنة وإما نار.

فمن خلال الدراسة التي أجريت حول المعري وطبيعة شعره،لوحظ أن الشاعر قد نهل من شعره وكّون صوره من المصدر الحضاري،فيشبه في شعره العمر بالبناء والوقت بالنظر،والدنيا أو الحياة والعيش وحتى الموت بجسر،لابد العبور عليه،والدنيا بدار.

فكل هذه الصور مستوحاة من عمق الحضارة الضاربة في تاريخ العرب متمثلة في البناء والتشييد.

إضافة إلى هذه الصور وجدت صور أخرى كمظهر من مظاهر الحضارة ؛تمثلت في الكتابة والحروف والحبر وغيرها،ولذلك كثيرا ما وجدت المعري يضرب صورا تخص السطور والكتابة، كقوله:

أمور دنياك سطر خطة قدر وحبها في السجايا أول السطر[2]

إن المتفحص في أشعار المعري يجده دائم الانشغال بالدنيا الزائلة التي خطت سطورها بقلم القدر، فتكلمت عن أمور عدة كالحياة،والممات،والعيش،والعمر والرزق وغيرها من الأمور التي خطها القدر.

والسطر في اللغة العربية عادة يتكون من حروف متصل بعضها ببعض؛لتكون نسيجا متكاملا ومنسقا يهدف به الكاتب إلى تكوين جملا مفيدة يصل بها إلى المعنى المراد، هكذا فعل المعري حين خط سطوره بحروف تلين تارة وتقسو تارة أخرى،يقول:

---

[1]- المصدر السابق:ص: 374 .

[2]- المصدر نفسه: ص:365.

لعبت به أيامه فكأنه حرف يلين في الكلام وينبر [1]

فقد صور المعري الإنسان الذي تتلاعب به الأيام فمرة تقسوا عليه حين تحزنه وتفرق بينه وبين أحبائه،أو تفقره،أو تشرده ومرة تلين معه، فتبشره وتسره وتعطيه ما يريد هو في مثل هذا كالحرف الذي تلينه تارة وتفخمه تارة أخرى،ومن بين الحروف التي استعملها الشاعر في تكوين صوره هو حرف النون ؛حين شبه الهلال به لنقوسه،يقول:

ولا ح هلال مثل النون، أجادها بجاري النضار، الكاتب ابن هلال [2]

وأيضا حين شبه الناقة الهزيلة به فقال:

وحرف كنون تحت راء، ولم يكن بدال، يؤم الرسم غيره النقط [3]

فقد رسم الشاعر صورة وصف فيها حالة الناقة وهيئتها،فهي تبدو هزيلة من كثرة الأسفار، فشبهها لهزلها بحرف النون؛لتقوسها واعوجاجها،وقد قرن حرف النون للتقوس بحرف الراء الذي قصد به أن اعوجاجها كان في منطقة جعلت فيها رجل سائقها التي تضرب رئتها، و يقول أيضا في نفس السياق:

أنا من أقام الحوف، وهي كأنها نون بدارك، المعالم أسطر [4]

فإذن الأسطر والكتابة والحروف كلها مظاهر للتحضر والتطور واقتباس الشاعر منها وتوظيفها في كتاباته،لدليل قاطع على تحضره فيذلك العصر،مما استدعاه بأن يخط أسطر للأيام بحروف قد تلين وتقسوا بحسب الأحوال.

ولم يجد المعري من حبر يكتب به أيامه ولياليه الحالكة غير الدجى خاطا بحبره ما بدا في قول المعري:

---

[1]- المصدر السابق :ص: 299.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 241.

[3]- المصدر نفسه: ص: 299.

[4]-أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 229.

كتبنا وأعربنا بحبر من الدجى سطور السرى في ظهر بيداء بلقع [1]

فقد جعل المعري كتاباته بحبر من الظلام،وهذا ما أقره بقوله (بحبر من الدجى) فهو يعكس الظلمة والوحشة والعزلة الحزن والأنين،نعم إنه الظلام فلا شك أن مسيرة أبي العلاء كانت بالليل، ومن هنا جعل لسراه سطورا وذلك من خلال استعارته(سطور السرى) .

وكما كان الدجى يمثل زمانه،فإن الصحراء المقفرة تمثل مكانه،ذلك من خلال شطر بيته الذي قال فيه موضحا ما ذكرت (سطور السرى في ظهر بيداء بلقع).

«لقد دلل أبو العلاء أن علاقته بالدجى علاقة أبدية، ومصاحبته سرمدية، لا تنتهي إلا بنهايته، ومن هنا ربط مفردات حياته بها ، فجعل من الدجى حبر تفكيره، كما جعل منه مداد كلماته ، فجاءت هذه الخطوط على ظهر حياة بائسة خالية كما رآها أبو العلاء» [2].

والمعري لم يجد أصدق وأنبل وأحسن من الردى ،فكتب عنه قائلا:

ليت الجياد غداة صادفها الردى ما أعقبت بنتائج الأمهار [3]

هذا الموت الذي صادف الجياد لن يحدث في نظر المعري إلا إذا تفرقت حروف الكلمة، فأصبحت لا معنى لها مثلها مثل بيت شعر متقطع لا تكاد تفهم معناه وتحل رموزه.

يقول:

تفي غروبهن الزرق عني، بلا كرب يعد، ولا عنـــــاج

فلو كان المثقف جملة اسم أبى الترخيم، صار حروف هاج

كنجـم الرجم صك به مريد فأبدع في انجدام وانعــراج [4]

---

[1]- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 229.

[2]- شعيب خلف: التشكيل الاستعاري ، ص :324.

[3]- أبو العلاء المعري: اللزوميات،ج1 ، ص: 391.

[4]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص: 325.

إذن فحروف الكلمة مهما كانت قوتها وصلابتها فإنها سوف تنكسر وتتفرق حروفها حتى لا تكاد تعني شيئا مثله مثل بيت شعر تقطع بعدما كان موحد،والشاعر حين ضرب لنا مثلا كهذا عن حروف الكلمة وتفرقها قصد بها،ذلك الرمح الذي طالما تغنى به مادحا إياه؛فهو يشير إلى أنه مهما بلغ هذا الرمح من صلابة وقوة،فإنه لابد أن يأتي يوم تتفرق أجزاء الرمح وينكسر مثل أجزاء الكلمة في بيت الشعر،وسوف يؤول إلى الفناء والاندثار كميت قد خطه الردى في سجل الموتى.

ومن هذه العجالة تبين أن المعري كتب حروف الردى بحبر من دجى، هي صور لها دلالة واحدة طالما أرقت المعري وهي الدنيا والأيام الحالكة فيها،فمهما زركشت بخطها فإنها لا تخط إلا السواد والأحزان،ويكفي أن سجل الموت مفتوح،وهي كلها صور مستوحاة من الحضارة لها هدف واحد هو تنفير المعري من الدنيا وزهده منها.

رابعا: صور مصدرها الزينة واللباس:

لقد عرف عن المعري صفتان التشاؤم والزهد، هذا الأخير الذي اتسم به حتى أصبح كطابع يطبعه ويميزه عن بقية البشر.

والإنسان الزاهد في الحياة هو من يترك متع الدنيا وملذاتها من أكل ولباس جميل فلا يحلو له شيء فيها ولا يزهو.

والمعري كان إنسانا زاهدا عابدا بعيدا عن صخب الدنيا وملذاتها بيد أنه وبرغم زهده الذي حرم عليه أكل لحم الحيوانات وفرض عليه لباس من صوف أو جلد غير مزركش إلا أنه لُمح من خلال أشعاره المستقاة من ديوانيه تلك النظرة الجميلة على الجمال ومدى ربطها بالتزين واللباس حتى وإن حرم نفسه منها وفرض على نفسه حياة التقشف والفقر والبؤس إلا أن الجمال بمعاييره بقي راسخا في ذهنه؛لذا عُهد الشاعر وهو يصور أبياتا استوحاها من صميم إعجابه بتلك الألفاظ التي لها علاقة بالزينة وباللباس.

فوجد في كثير من الأحيان وهو يشبه الأشياء بقماش وثوب،ويحب أن يزين شعره بوسائل الزينة كالذهب والفضة والنقوش والأقراط،فهي كلها صور وجدتها في ديوانيه مصدرها الزينة واللباس.

وأول تشبيه لمح هو جعله للحياة التي يعيش فيها ثوب كثوب الإنسان الذي يرتديه ويعكس مظهره الخارجي، يقول:

وكذلك أحكام الزمان وإنما ثوب الحياة وما يضم معار

الدهر عار لا يغادر ملبسا فالمجد مندرس به والعار [1]

الحياة عند المعري ونظرته إليها لا تختلف عن الدنيا؛ففيها الشرور والمآسي والمصائب التي قد تصيب الإنسان من كل حدب وصوب،فهذه الشرور كست الحياة بثوب من الأحزان والآلام،وقد سماه المعري بثوب معار، مثله مثل ثوب الدهر الذي يلبسه فكأنه عار ومن يكتسي به، فكأنه سوف يهان لطالما هو ثوب العار ملئ بالأحزان والتشاؤم والآلام.

وليست الحياة فقط من تكتسي ثوب العار،بل حتى جسد الشاعر كإنسان، قد كساه بقطعة قماش بالية وعند بلائها سوف تضم إلى الأرض لتصبح جزءا منها، يقول:

جسدي خرقة تخاط إلى الأر ض، فيا خائط العوالم خطني [2]

فهذا البيت يعكس صورة حسية تبعث على التأمل والتفكير بنهاية الإنسان التي تنتظره وهي حتما الموت والرجوع إلى الأرض التي خرج منها أول مرة، كما أنها تؤثر في النفس غاية التأثير.

ولم يكتف المعري بإلباس جسده خرقة بالية،بل راح يلبسه ثيابا تشبه الكفن الذي يلبسه الميت وهو يغادر الدنيا ، يقول:

ثيابي أكفاني ورمسي منزلي عيشي حمامي والمنية لي بعث[3]

ففي هذا البيت الذي شبه فيه ثيابه بكفن ميت إشارة إلى إيمانه المطلق بحقيقة الموت واستعداده له،وهو ما تجسد في عيشه،فربط الحمام بالعيش،والمنية بالبعث،والكفن بالثياب،والمنزل بالرمس، وهي كلها استعارات وضحت لنا حقيقة الموت وانتظاره التي ما غابت عن عين المعري لحظة

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج 1، ص: 316.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص:402.

[3]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص:165.

؛ فهو مستعد لها ومتأهب بل ينتظرها بفارغ الصبر خاصة بعد المعاناة التي كبدته فقد الأحباب،وفقد النظر،والاعتزال وغيرها من الأمور التي جعلت المعري كشخص ينفر من ملذات الحياة ويتمنى زوالها عنه؛لأنه مل العيش في أحضان الدنيا المؤلمة التي ألبسها بلباس أسود يبعث عن التشاؤم والحزن والسقم ، يقول:

لا تلبس الدنيا فإن لباسها سقم وعز الجسم من أثوابها

أنا خائف من شرها متقع إكابها لا تشرب من أكوابها

فلتفعل النفس الجميل لأنه خير وأحسن لا لأجل ثوابها[1]

فالثوب الذي ألبسه المعري للدنيا من دون شك هو لباس سقم وبلاء ،لذا نبه الشاعر الناس من تعرية أجسامهم من هذا الثوب؛لأنه لا يناسبهم وهذا ما نفسره بقوله (لا تلبس الدنيا فإن لباسها سقم).

ويستمر أبو العلاء في عرض رؤيته السوداوية التي اتخذها من الدنيا؛فجعل لباسها لباس سقم وجعل من الدجى قميصا سوداويا،كما جعل له من قبل شبابا وشيبا ، يقول:

مثل شيات في قميص الدجى زين بهن الفرس الأدهـــم

تخفـــي ولا تظهر إلا إذا أحرزها منزلـك الأعظـم

كأنها سر الإلـــــه الذي عندك دون الناس يستكتم[2]

فأبو العلاء يرى أن هذه الشيات في قميص الدجى هي زينة لذلك الفرس الأدهم الذي هو أبو العلاء المعري نفسه،والمنايا التي هي على جوانب الدروع كشامات تزينها،يقول:

على أرجائها نقط المنايا ملمعة بهما تلميع شام[3]

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص:165.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص: 206

[3]- المصدر نفسه: ص: 222.

ويقول:

والغي ثوب إذا لم يستلب رجلا بالرغم لم تحسر التقوى له ردنا

كالدر يمنع منه الطفل منتشرا ولم يجانبه من زهد، وقد شدنا[1]

فهنا تصوير لأفكار شتى، ولم يكن فيها عالم الفكرة مطابقا لعالم الواقع،وإن كان ثمة ما يشد إلى الأبيات و يجعل السامع يأنس بها،ففكرة الضلال الذي شبهه بالثوب إذا لم يخلع عن صاحبه قسرا لم تستمر التقوى.

إذن ما يستنتج هو أن أبا العلاء المعري قد استعار واستفاد من ألفاظ استوحاها من مصادر لها علاقة باللباس كجعله للحياة ثوب،وللدنيا لباس سقم وبلاء،إضافة إلى إلباسه للفتى كفنا،وأظهر الدجى بقميص سوداوي،فهي كلها صور شكل بها من عمق تجربته مع الحياة؛لذا طبعها بطابع سوداوي مأساوي مليء بالأحزان،فالكفن والقميص الأسود لليل ولباس سقم كلها رموز لحياة عقيمة مليئة بالأحزان شعر بها المعري وحاول الإشعار بحقيقتها المؤلمة.

وقد لمحت أبيات شعرية قد استوحى صورها من الزينة مثلما استوحى صورها سابقا من اللباس كتشبيه للشمس في سطوعها ولونها بالبر؛أي الذهب، والسراب بالفضة لبياضه، يقول:

وقلت: الشمس بالبيداء تبر ومثلك من تخيل ثم خالا

وفي ذوب اللجين طمعت، لما رأيت سرابها يغشى الرمالا [2]

و اتخاذ المعري لمثل هذه الصور التي يتخذ فيها هذه الأشياء الثمينة،إنما هو حاجة الإنسان ورغبته في خلود بعض مراداته،والرغبة في اقتنائها،فالشمس تبر،والسراب لجة وكذا الحق لؤلؤة ، وهذا ما صوره قائلا:

رأيت الحق لؤلؤة توارت بلج من ضلال الناس جم[3]

---

[1]- جهاد رضا :التصوير الفني في شعر العميان، ص: 180.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 22.

[3]-أبو العلاء المعري : اللزوميات،ج2 ، ص: 326.

من خلال هذا البيت يستشف كلام الشاعر عن الحق الذي شبهه بلؤلؤة غالية نفيسة وقد أكد قوله بتوظيف فعل(رأيت) التي زادت المعنى قوة وتأكيدا،لولا أنه توارى وكاد أن يتلاشى نهائيا في هذه الدنيا وانتشر في مكانه الباطل حتى كاد أن يهيمن،كما أن الثريا عند غروبها شبيهة بقرط:

قريطية الأخوال، ألمع قرطها فسر الثريا أنها، أبـــدا، قرط

إذا مشطتها قينة بعد فينـــة تضوع مسكا، من ذوائبها المشط

تقلد أعناق الحواطب، في الدج فريدا، فما في عنق ماهنه لـــط

ويرفع إعصار من الطيب، لا نرى عليه انتصار كلما سحب المرط [1]

فقد وصف المعري في هذه الأبيات الثريا،فشبهها في لمعانها في وسط الدجى بقرط تلبسه خادمة وهو فريد من نوعه،خاصة وأنه وسيلة من وسائل الزينة تلبسه النساء،فيضفي عليهن بهاء ما بعده بهاء.

وحتى البرق الذي طالما رمز في شعر المعري إلى الحنين والشوق، توجد له صورة في شعره؛ حيث جعله في تناقصه كقرط ثم تناقص أكثر،فأضحى كنقش خاتم.

يقول:

يمسي ويصبح كوزنا من فضة ملأت فم الصادي كسور دراهم

إلى أن يقول في نفس القصيدة:

ترك السيوف إلى السيوف، فلم يزل يضوى إلى أن قللت: نفس خاتم[2]

حيث يكون في أول وهلة قويا، فشبهه بالسيوف في القوة والصلابة وهو ما بينه بقوله (ترك السيوف) ثم ضعف إلى أن أصبح كالسيوف التي ذكرها في شعره وهي القرط ثم ازداد ضعفا إلى أن صار كنقش خاتم.

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص: 299.

[2]- المصدر نفسه:ص: 282.

والقرط والتبر والفضة هي كلها صور مستوحاة من مصادر الزينة،ونراه في سياق آخر يجمع هذه الصور تقريبا جميعها في أبيات واحدة،فاستعمل التبر والفضة والزبرجد، وقد وظفها لوصف الخيل وسرعته،فقد اتخذ لحافره زبرجدا ولجسمه تبرا ولخلاخله الموضوعة فيه لجينا.

يقول:

بريح أعيرت حـــافرا من زبرجد لها التبر جسم واللجين خلاخل

كأن الصبا ألقت إلي عنانـــها تخب بسرجي مـــرة وتناقـــــل

إذا اشتاقت الخيل المناهل أعرضت عن الماء فاشتاقت إليها المناهل[1]

وعليه بعد هذه الدراسة يتبين أن المعري استعمل المصادر التي لها علاقة بالإنسان فصور الأشياء بهيئة الإنسان وأعضائه وأحواله،كما أخذ صورا من أدواته وآلاته إضافة إلى المصادر الحضارية كالكتابة،والحروف،والسطور،والديار،والقصور،كما لم ينس الصور المستسقاة من مصادر لها علاقة بالزينة واللباس،وهي كلها مصادر عينية إنسانية يتبين من خلالها مدى علاقة الإنسان بها ومدى علاقة المعري بهذه المصادر التي لها علاقة بالبشر.

أما بخصوص الصور التي لها علاقة بالمطاعم والمشارب، فقد عولجت في الصور الذوقية؛لذا اتضح بعدم تكرارها في المصادر الإنسانية.

5- صور مصدرها العلاقات البشرية:

لقد استند إليه المعري في تكوين صورعن الدنيا حين شبهها بالرؤيا ورقدة ناعم يقول:

و كأنما دنياك رؤيا نائـــم بالعكس في عقبى الزمان تعبر

فإذا بكيت بها فتللك مسرة وإذا أضحكت فداك عين تعبـــر

سُرّ الفتى من جهله بزمانه وهو الأيسر ليوم قتل يصبر[2]

---

[1]- المصدر السابق: ص: 162.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص:299 .

ويقول في نفس السياق:

ولعل دنيــاك كرقدة حالـــم بالعكس فيما نحــن فيه تعبر

فالعين تبكي في المنام فتجتني فرحا، تضحك في الرقاد فتعبر[1]

فقد صور المعري حال الإنسان في هذه الدنيا التي تتوالى فيها الأيام والليالي وتضربه بسهامها ،كأنها رقدة حالم أو رؤية نائم رآها في منامه،وهنا إشارة إلى التسارع في الزمن وأنّ الدنيا مهما طالت فهي في دار الآخرة كأنها رقدة غفى فيها الإنسان وسكر،فهيهات أن يتذكر أيامها الحالكة وآلامه وكل شيء فيها معكوس ومقلوب،فالضحك الذي هو عنوان للسرور يكون فيها ألما وبكاء،والبكاء الذي يرمز إلى الحزن والألم هو فيها سرور وبشرى.

فهذا التناقض الحاصل في الدنيا في المفاهيم والانتشار الواضح لمختلف الشيم الفاسدة كالكذب والغي والبهتان والفساد،هي كلها عوامل ساعدت المعري على أن ينفر منها وينعتها بمختلف النعوت.

لذا لم يجد المعري ما يذكره فيها بمختلف الشيم الجميلة والقيم النبيلة التي تمت عن الترابط الواضح بين أفراد المجتمع،وهذا ما انعكس في شعره فلم تكد تجد له إلا أبيات قليلة ضمن موضوع العلاقات البشرية.

أما عن الوفاء، فيقول المعري:

وفيت وقد جزيت بمثل فعلى فها أنا لا أخون ولا أخان [2]

و التبريزي في شرحه للبيت يقول: جزيت بالوفاء، وفاء ولم أخن كما أنني ما أخنت.

كما أعطى صورا أخرى إضافة إلى الوفاء لها علاقة بالكرم والقناعة،هذه الأخيرة التي قال عنها:

أفوق البدر يوضع لي مهاد أم الجوزاء تحت يدي وساد

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات،ج1 ،ص: 301 .

[2]- البطليوسي وآخرون: شروح سقط الزند، ص: 177.

قنعت فضلت أنّ النجم دوني وسيّان التقنع والجهاد[1]

فالبطليوسي وهو يتكلم عن القناعة في هذا البيت يؤكد من خلال قول المعري أنّ الطمع يذل والقناعة تعز وقوله(وسيان التقنع والجهاد) يريد بها أنّ القناعة ، إنما تكون بمجاهدة الهوى ومنعه عما لا يجمل بذوي الحجا.

وإنما قال(التقنع) ولم يقل (القناعة) والوزن واحد؛لأن القناعة تكون طبعا،وتكون تكسبا وعادة ، والتقنع لا يكون إلا تكسبا [2].

كما لمح عنصرا آخر،قد استند عليه المعري في تكوين صوره، لها علاقة بالكرم والمكارم،ذلك من خلال قوله:

إذا ما الغيم لم يمطر بلادا فإن له على يدك اتكـــالا

ولو أن الرياح تهب غربا وقلت لها: هلا هبت شمالا[3]

يقول« التبريزي أنّ الممدوح يعم البلاد والعباد بجوده عموم المطر الجود، واستغنوا عن المطر، فإنما سيمسك السحاب القطر،لأنه واثق بفيض يديك» [4]،بالتأكيد هذا الممدوح له دلالة عن طريق وجهه الذي ينبئك عما وراءه من خير فيقول:

يبين بالبشر عن إحسان مصطنع كالسيف دل على التأثير بالأثر

فلا يغرنـــك بشر من سراه بداء ولو أنار، فكم نور بلا ثمـــر [5]

فهو كالسيف إذا رأيت أثر فرنده دلك على حسنه وعلى جوده.

---

(1)- أبو العلاء المعري: سقط الزند ، ص: 38.

(2)- البطليوسي وآخرون: شروح سقط الزند: ص 238.

(3)- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 170.

(4)- البطليوسي وآخرون: شروح سقط الزند ، ص: 93.

(5)- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 88.

و البطليوسي يقول في معنى البيت« إذا رأيت بشره علمت أنّ وراءه إحسانا وعطاء كما أنك إذا رأيت فرند السيف علمت أنّ له تأثيرا» [1].

ويواصل حديثه عن الممدوح وعن كرمه وشرفه الذي حتى وإن كان في زمان غير زمان أوائله إلا أنه يبقى مثلهم في الكرم،مثله مثل البدر الذي يطلع في أول الليل؛وهو الوهن والذي لا يختلف بدوره عن الذي يطلع في آخره،وهو السحر، وفي ذلك يقول:

وافقتهم في اختلاف من زمانكم والبدر في الوهن مثل البدر في السحر

الموقدون بنجد نار باديـــة لا يحضرون وفقد العــز في الحضر[2]

و يقول في موقع آخر:

وقاسم الجود في عال ومنخفض كقسمة الغش بين النجم والشجر [3]

فهو يوزع أعطياته على الناس لا يفرق بين سيد ووضيع،كما لا يفرق المطر بين ماله ساق من نبات وما ليس له ساق،وهو هنا دليل على كرم الشاعر.

ويقول في المكارم:

ستفديك المكارم راضيات وما منها بفديتك امتنان

إذا صالت فأنت لها يمين وإن نطقت فأنت لها لسان[4]

و البطليوسي في شرحه للبيت يقول:«المكارم تفديك من المكاره لجلالك، غير ممتنة عليك بذلك، وأنّ هذا الممدوح لا يحول عما عملت منه وعهدت، كما يفعل المتصنع الذي يتحمل في أول أمره ويتصنع،فإذا تطاولت الأيام عاد إلى خلقه الذي جبل عليه وضع» [5].

---

[1]- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند، ص: 139.

[2]- أبو العلاء المعري: سقط الزند ، ص: 88. وللاطلاع أكثر على شروح الأبيات أنظر شروح سقط الزند، ص: 14.

[3]- المصدر نفسه: ص: 39.

[4]- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص:236 .

[5]- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند، ص 223.

جدول إحصائي يبين المصادر العينية

		مقاطع من المصدر العيني					
الرقم	نوع المصدر	صور لها علاقة بالإنسان	صور مصدرها الأدوات	صور مصدرها الحضارة	صور مصدرها الزينة واللباس	صور العلاقات البشرية	المجموع الكلي
1	اللزوميات ج1	تمتع أبكار الزمان بأيده	وسهام دهرك لا تزال مصيبة	وما العمر إلا كالبناء فإن يزد	وإنما ثوب الحياة وما يضم معار		
2	اللزوميات ج2	إن خرف الهر فهو شيخ	ومدت حبال الشمس من قبل عصر	دنياك دار شرور لا سرور بها	جسدي خرقة تخاط إلى الأرض		
3	اللزوميات ج2	فما تزكو يد الدهر الفروع	تمسكوا بحبال النسك في زمن		رأيت الحق لؤلؤة توارت.....		
4	اللزوميات ج2	فذلك عبد من يد الدهر آبق	وحبائل الدنيا تزيد على الحصى				
5	اللزوميات ج1	يد الدهر أو متنا مماتا بلا نشر	أغرت لنا حبالات المنايا	دنياك دار إن يكن شهادها			
6	اللزوميات ج2	يراد له الدهر والدهر خادم	وحبل العيش منتكث ضعيف				
7	اللزوميات ج1	ظنت يداه وتلك منه	ألم تربي صرمت حبال عزمي	حياة كجسر بين موتين	ثياب أكفاني ورمسي منزلي		

		سجية		أول			
8	اللزوميات ج1	وقد شرب الدهر صفو الأنام	...وأغلق في حبال الشمس عشري	ودارا ساكن وحياة قوم	لا تلبس الدنيا فإن لباسها		
9	اللزوميات ج1	وما كتبته يد للزمان	وللموت كأس تكره النفس شربها	كجسر فوقه اتصل العبور			
10	اللزوميات ج1	وكأن في كف الزمان بنوره		...وهل هي كجسر عبر			
11	اللزوميات ج2	قل للمشيب يد الأيام دائبة					
12	اللزوميات ج2	...نوائبها يد القدر الهجوم					
13	اللزوميات ج2	نهمل أسرانا بأيدي الردى					
14	سقط الزند	يد المنايا إذا تصافحها...	والماء وردي لا تزال نواجدي	كتبنا وأعربنا بحبر من الدجى	ملمعة بهما تلميع شام	وفيت وقد جزيت بمثل فعلي.....	
15	اللزوميات ج2	إن كسرتني يد المنايا			يمسي ويصبح كوزن من فضة		
16	اللزوميات ج1	كأس المنية أولى به وأروح لي		والعيش جسر نال من هو جاسر			
17	اللزوميات ج1	ولي موارد بأرواح المنون		عشنا وجسر الموت قدامنا			

18	سقط الزند	مد الزمان وأشوتني حوادثه	سلت سيوف سرابها لتروعني	وهي كأنها نون بدارك ،والمعالم أسطر		يبنين بالبشر عن إحسان مصطنع	
19	اللزوميات ج1	تمشي علينا الحادثات ووطؤها		فكأنه حرف يلين في الكلام وينبر			
20	سقط الزند		كدرع الأوسي طالت				
21	سقط الزند	وتخال أغراس المنون أتت بها	ستائر ليل ، أو سفائن		لها التبر جسم واللجين خلاخل		
22	سقط الزند	يقضب عنه قضب المنايا	هاوية تهوى هوي الماء في		الموقدون بنجد نار بادية		
23	سقط الزند	رجا الليل أن يدوم شبابه	كأنهن غروب ملؤها تعب		ستفديك المكارم راضيات		
24	اللزوميات ج1	تطوى النضارة بالليالي ، مثل ما...					
25	سقط الزند	تورى عنك ألسنة الليالي	قوارير، في هاماتها لم تلفح				
26	اللزوميات ج1	حوائج نفسي كالغواني قصائر					
27	اللزوميات ج1	كذب الظن لا إمام سوى					

		العقل					
28	اللزوميات ج1	أنبأنا اللب بلقيا الردى					
29	اللزوميات ج2	وعود صلب أشار العقل بالعود					
30	سقط الزند	ليلتي هذه عروس من الزنج					
31	اللزوميات ج2	إن العقول تقول مولية					
32	اللزوميات ج2	يقول لك العقل					
33	سقط الزند	طلعت عليهم واليوم طفل	ولاح هلال مثل النون أجادها				
34	سقط الزند	وضجيج طفلهم الحسام وإن ثوي	وحرف كنون تحت راء ولم يكن				
35	اللزوميات ج1	وعالمنا المنتهي كالصبي					
36	سقط الزند	ذخيرة كهل من كهول كأنهم					
37	اللزوميات ج1	تضللني في مهمه بعد مهمه					
38	اللزوميات	دنياك تشبه					

	ج1	ناضجا مترددا					
المجموع لكل الصور		38	18	12	10	2	80

انطلاقا مما سبق يظهر أن أبا العلاء المعري قد استفاد من مصادر كثيرة غير القرآن والأحاديث وكتب التاريخ والأمثال،وهذا ما لمح من خلال إدراج ذلك الجدول الإحصائي الذي بُين مدى استفادة المعري من المصدر العيني الذي مثله بصور كثيرة منها ما لها علاقة بالإنسان فعمد إلى تشبيه الأشياء باليد واللسان،وكذا التشبيه بالمرأة،والطفل،والكهل،للأزمان والليالي والحوادث وغيرها مما فجع له المعري وأخرجه عن صمته وقد كانت هذه الصور بمجموع (38) صورة كلها لها صلة بالإنسان ، صغره، وشبابه،وكهولته.

أما الصور التي كانت لها علاقة بالأدوات، فقد تجسدت في شعره بمعدل (18) صورة كلها لها علاقة بالجمال،والسهام،والكؤوس وغيرها كثير.

إضافة إلى توظيف صور لها علاقة بالحضارة كأدوات الكتابة،والأحرف،والمعابر، والجسور، والبناء ؛فمثلت (12) صورة لم تخرج عن النطاق الذي كتبه المعري بجانبها (10) صور لها لها علاقة بالزينة واللباس؛فأحسن الشاعر توظيف التبر للشمس،واللجين للأوزان،والثياب واللؤلؤ وغيرها.

هذا كما لا تنسى تلك الصور المستعملة لمختلف العلاقات البشرية السائدة آنذاك،فكانت بمعدل(2) أو (3) صور.

وهي كلها تدخل في نطاق الاستعمال الواسع للشاعر لمثل هذه الصور التي مهما تنوعت مصادرها إلا أنها تبقى تابعة للمصادر العينية التي جسد بها المعري كل ما له علاقة بالواقع حتى يصل إلى الهدف المنشود له.

القسم الثالث : المصدر الطبيعـي

يعالج هذا القسم ما يسمى بالمصدر الطبيعي، هذا المصدر الذي يعتبر جزءا من المصادر التجريبية،تكون فيه الطبيعة محورا تدور حوله جميع الألفاظ والمعاني التي يستقيها الشاعر،فيوظفها في نصوصه الشعرية.

والطبيعة هي ذلك الجزء أو العالم الذي يعيش فيه الإنسان،فتحرك فيه إحساسا فنيا رائعا، وقد صنفها العرب القدامى<< طبقا لتصوراتهم للعالم الطبيعي وتقسيمهم إياه إلى حي وجامد أو إلى نام وغير نام حسب عبارة الجاحظ أو إلى عالم العناصر وعالم التكوين حسب ابن خلدون>>(1).

فالحي هو عالم الطيور والحشرات والحيوانات الأليفة و المفترسة<< ذلك العالم الذي يعد من لبنات القصيدة العربية الأساسية و الذي ساهم في إبداعية النص إلى درجة أننا لا نستطيع الولوج إلى باطن النص إلا بالوقوف على طبيعة هذا العالم و خصوصياته وعلاقة الشاعر به>>(2).

والجامد وهو عالم غير نام أو ما يسمى بالطبيعة الجامدة،فتظهر فيه صورا للأرض والسماء والتراب،والهواء،والماء،وغيرها من الأشياء التي ليس فيها شعور،<<وبذلك يكون الانتقال إلى العالم السفلي>> (3) الذي يجسد تلك المظاهر الكونية المشار إليها.

والمعري من بين الشعراء الذين استقوا ألفاظ ومعان من الطبيعة الجامدة والمتحركة؛فاتخذها مصدرا لكثير من صوره التي شكلها، وأول قسم سوف أعالجه هو:

أولا–الطبيعة الصامتة:

وتشمل مظاهر عديدة من الكون من الأرض وما عليها من جماد،ونبات،وماء،وكما تشمل صور ليسله علاقة بالأرض كالكواكب،والنجوم،والرياح،والهواء ،والسماء وغيرها.

(1)– محمد عجينة : موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية و دلالتها ، ص : 232.

(2)– محمد الدسوقي : البنية التكوينية للصورة الفنية ، ص :16.

(3)– Emil ddurkheim:les formes elentairs de la vie releigieuse 3°ed paris1935 p.50,52.

وإذا فحصت أشعار المعري وجدت وقد شكلت بالاستناد إلى المصادر التي لها علاقة بالطبيعة الجامدة،ومن هذا المنطلق وبعد التأمل في ديوانيه وتتبع أشعاره تمت محاولة ربطها بالمصادر الموجودة وتحليل معانيها المتعددة بتعدد سياقات الكلام فيها،فتبين أن أبا العلاء المعري قد اعتمد في تكوين نصوصه الشعرية على كل ما له علاقة بالجماد ، فاستعمل صورا مصدرها الجماد.

ومن هذه الصور ماله علاقة بالجبال التي<< يتضاءل الإنسان أمامها بطلعتها المهيبة وعظمتها وجلالها وارتفاعها في عنان السماء ، فلا يكاد يكون بالقياس إليها شيئا مذكورا سواء من حيث جرمه أو من حيث مروره العابر>>[1].

لذلك تراءى أن المعري استعار لفظه الجبال ووظفها في نصوص مختلفة منها قوله مشبها الجمال في علوها بالجبال.

وهن منيفات ، إذا جبن واديا توهمتنا ،منهن ، فوق جبال[2]

من خلال هذه الصورة يتضح أن أبا العلاء المعري قد استخدم كلمة الجبال لتصوير الإبل مشبها إياها بجبال شامخات.

فالمعري يصف في بيته هذا ركوب الإبل الذي يضاهي تسلق قمم الجبال، وذلك لارتفاع الإبل،وهذا ما يتضح من خلال توظيفه للفظة (منيفات) في شطره الأول التي عنى بها المشرفات المرتفعات،كما جعل للردى جبالا ،و ذلك بقوله :

وإذا وقرت جبال الردى جلـــ ت، فلم تندفع بجبل جبيل[3]

فهنا جعل للردى جبال تضاهي في عظمتها وشموخها جبل جبيل حتى أنها لوقارها لا يمكن أن تدفعها،فبذلك يكون المعري بصورته هذه التي استقاها من الجماد المتمثل في لفظة جبال قد أثر في

---

(1)– ميرسيا الياد:traite dhistoire des religions.188 et358 le sacre et he prifincgallimard.1965.p16-86

(2)– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 238.

(3)– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص: 255.

المعنى وأضاف إليه بتجسيده للردى جمالا ورونقا أخاذا،فتكون الجبال معادلة للعظمة والرزانة والشموخ ، وهذه السمات التي يصف بها الأشياء ليست مؤقتة من كل رائحة مستوحاة من عمق التاريخ.

ولم يكتف الشاعر بتجسيد الردى ولا بتشبيه الناقة بالجبال في علوها وشموخها، بل نسج صورة أخرى مستوحاة من مصدر الجماد؛حيث شبه أثافي القدر الثلاث بثلاثة جبال وذلك لعظمها ، وهي صورة اقتبسها من صميم البيئة البدوية آنذاك التي كانت تستعمل هذا النوع من القدر في الطهي،فنجده يقول:

دهماء راكبة ثلاثة أجبل عظما، و إن حسبت ثلاث أثاف[1]

فقد وصف المعري عن طريق هذا البيت المقتبس من الجماد القدر الكبيرة بلون أدهم وقد وضعت فوق ركائز.

أقل ما يقال عنها أنها ثلاث أثاف،ولكن المعري شبهها لعظمها بثلاث أجبل،وهنا يكون الشاعر قد أخذ لفظة الجبل مستخدما إياها؛لتحقيق المعنى المراد وهو تعظيم الشيء،فاستخدام المعري الجبل للدلالة به على العلو والشموخ والعظمة للشيء المشبه.

ومن المصادر التي استخدمها المعري ولها نفس السعة من الانتشار "السراب" فقد اتخذه في تصوير سيف الأمير،فقال:

إذا بصر الأمير، وقد نضاه بأعلى الجو، ظن عليه آلا [2]

فالواضح من خلال البيت أن المعري شبه سيف الأمير بالآل،فهو في يده كأنه سراب يظن من يراه بأنه يرى الماء،والسيف برونقه يحاكيه،وإنما قال (بأعلى الجو)،لأن الآل يرفع الشخوص ويزهيها.

و يشبه في أبيات أخرى الدنيا بالسراب، يقول:

دنياك مشبهة السراب ، فلا تزل برزين حلمك موشكا خدعاتها

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص: 258.

[2]– المصدر نفسه: ص:32.

رقشاء فيها ليلــها ونهـــارها تلك الضئيلة شأنها لسعادتها

وترث أغراض الشباب و ينطوي إبانها فتنيــب مرتـــدعاتـها

وينهنه الرجل الحصيف بسنــه أوطاره، فتضيق متسعـــاتها

وتظل حبـــات القلـوب زرائعا كالأرض والصهوات مرتدعاتها[1]

إن التأمل في هذه الأبيات التي نسجها المعري يوحي بحقيقة مؤلمة الناس عن الدنيا التي شبهها بسراب يخدع الناس بمنظره حتى يظن الناس أنه حقيقة.

يواصل واصفا الدنيا بالرقشاء للسواد المقترن بالليل والنهار،والسواد يرمز إلى الحزن والألم الذي قد تسببه الدنيا للبشر،فهم بمثابة ضحايا لهذا السراب،والسراب رمز للتخيل والوهم يدفعه الخداع والغش،يظل الإنسان رهين ذلك الوهم يتأمله ويطارده لعله يصبوا إليه فيحقق منه سعادة ولو أنّ المعري قد صبغ الدنيا بصبغة سوداوية مليئة بالأحزان والألم وشأن السعادة فيها ضئيل وقليل،وهذا من خلال قوله(تلك الضئيلة شأنها لسعادتها).

والسراب من المصادر التي اتخذها المعري للدلالة به على المخادعة،فقد ينخدع بصر الإنسان بالسراب حين يعكسه ضوء الشمس،فتبدوا الدنيا بحلة جميلة وأيام براقة عكس السواد الذي يميز لياليها ونهارها،وتنكشف مخادعة الدنيا للبشر بعد انطواء الشباب فيظهر منها ما يخيف من سواد وحزن وألم وفراق،فتضيق بالإنسان هذه الدنيا برغم وساعتها من كثرة الهموم التي تسببه؛حين يكشف حقيقتها المرة.

وقد استخدم المعري بعض التضاريس الأخرى، فجعلها مصدرا للتصوير منها استخدامه للجبال والسراب لم يعد كاف،بل تعداه إلى استخدام الرمل الخصب والسهل،فشبه درع الممدوح على، نحو قال فيه:

وتحل بالوادي الجديد ، كأنها ميثاء ،جد الغيث في إمراعها [2]

---

[1]– أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1 ، ص:142.

[2]– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :390.

فالمعري من خلال هذا البيت حاول وصف الدرع التي كانت دوما تعتبر وسيلة من وسائل الحرب وهي رمز للدفاع والتأهب، فمكانها حل بالواد الجديد وهي فيه كأنها رملة سهلة ويظهر بقوله (كأنها ميثاء)،فهنا الرمل معادل للسهولة والليونة والضعف.

كما وجد مصطلح النار كمصدر من مصادر التصوير التي استخدمها المعري لبناء شعره وحظها من صور الشاعر قليل،فتأتي في درجات دنيا إذا ما قارناها بصور أخرى استخدمها المعري كالجبال والسراب وغيرها من الصور،وهي مع ذلك موجودة في شعره.

لذا وضحت بوصفها عنصرا للنور،فأصلها واحد في اللغة، ونيران العرب كثيرة منها ما يستعمل للإدلاء بها على معنى،فتكون بمثابة الإشارة أو تكون ضمن الشعائر والطقوس رمزا مثقلا بالمعاني والدلالات.

ومن خصوصيات النار في شعر المعري ، أنها تعادل القوة والبأس والنور، يقول:

بدا، فدعا الفراش بناظريه كما تدعوه موقدتا ظلام

بناري قادحين ،قد استظلا إلى صرحين أو قدحي مدام

كأن اللحظ يصدر عن سهيل و آخر مثله ذاكي الضّرام[1]

فهنا المعري يصف الأسد وهو ملك الغابة بقوته وجبروته وسلطته،فيبدوا أنه أوقد عينيه اللتان شبههما بنار مشتعلة،لمن أظل طريقه المظلم،وهذا ما يظهر من خلال قوله(قد استظلا إلى صرحين أو قدحي مدام) و قال (موقدتا ظلام) ، ويقول في بيت ثان في سياق تشبيهه الناس بالنار:

تناقض في بني الدنيا كدهرهم يمضي المقيظ وتأتي بعده القزر

لله دُر شبـاب سار طاعتــه كورد مـن دموع الأســـف الدرر

و الناس كالنار كانوا في نشاء تهميس تضيئوا السقط منها ثم ينتشر[2]

---

[1]– أبو العلاء المعري : سقط الزند،ص: 275.

[2]– أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1 ، ص: 288.

فهي هنا رمز للنور الذي يستضاء به في طريق مظلم،فتشبيهه لعين الأسد بالنار التي أوقدها للذي يستهدى بها خاصة في الليالي المظلمة والباردة لم تأت صدفة وعرضا،بل تعتبر من مخلفات العرب التي طالما استخدمت صورا مثلها للنار كنار القرى مثلا <<التي توقد للضيف يستهدى بها خاصة في ليال الشتاء البرادة و هي محل فخر و اعتزاز>>[1].

فعين الأسد كنار مشتعلة،فهي إضافة إلى رمز النور نجدها رمز للقوة والبطش والشرارة التي تخرج من عين الأسد المتسلط.

وهكذا يكون المعري قد وظف صورا لمصادر شتى في شعره تتراوح بين الجبال في شموخها وعظمها وارتفاعها،وبين الرمل السهل الضعيف الذي سرعان ما يندثر بتناثر حبيباته،كما أنه استعمل مصطلح السراب؛للدلالة به على الوهم والخداع الحاصل من الدنيا،والنار عنده رمز للقوة والجبروت والنور الموقد،وهي كلها صور استخدمها المعري في نصوصه الشعرية لها علاقة بالجماد والتضاريس خاصة ، وظفها في سياقات مختلفة مرة عن الدرع ومرة عن الدنيا ، وأخرى لوصف الممدوح ، فتعددت معانيه وذلك بتعدد سياقاته وموضوعاته.

كما استخدم مصادر أخرى تعتبر من وحي وصميم الطبيعة الصامتة ليس لها علاقة بالأرض وتضاريسها،وإنما علاقتها بالسماء وما تحويه من نجوم،وكواكب،وشهاب،وهواء وغيرها من الصور التي افتعلها المعري لتحقيق مآرب جمة ، وتظهر أول صورة في تشبيه المعري للدرع بقطعة من السماء يقول:

كأنها كسف سماء هوى لحوبة ،خر بها من سهيل [2]

أعدها الشيخ معد لما يطرقه ، من لف خيل بخيل.

فهنا وصف الشاعر الدرع ،فاقتبس لها مصطلح (كسف السماء) استوحاها من القرآن حين

---

[1]- محمد عجينة : موسوعة أساطير العرب ، ص :260.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص: 376.

قال تعالى:﴿و إن يروا كِسْفًا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم ﴾ [1]،<< فإذا أراد الله أن يجعل آية دون آية وقع النصف منها أو الثلث أو الثلثات في الماء و يبقى سائر ذلك على العجلة وهو كسوف دون ابتلاء الشمس و القمر>>[2].

وهنا في هذه المقطوعة قد آخر المعري وقوع الكسوف الذي مس أجزاء من السماء فشبه الدرع به (وكسف السماء) هو رمز للتخويف واستعتاب من الله على عباده لارتكاب جرم أو خطأ أغضبه سبحانه.

كما رسم صورة للدرع التي تتناثر أجزاءها وتبقى قوية مستبسلة في صورة ملأها الرعب والخوف من هذه الدرع التي كشفت أجزاءها،ولكنها لم تتأثر بهذا الكسوف .

ويشبه الدروع في مواقع أخرى من ديوانيه بنجوم تملأ السماء، يقول:

من أنجم الدرعاء ، أو نابت ال فقعاء ، بل من زرد محكم

لاقى بها طالوت ،في حربه جالوت ،صدر الزمن الأقدم[3]

إنّ المتأمل في هذه الصورة التي شكلها المعري يكتشف الوصف الدائم للدرع ،وهذا ما ينم عن قيمة تلك الدروع وأهميتها عند العرب خاصة في ميدان الحرب؛ لذا يظهر المعري شغوفا بها يصفها في أكثر من موضع ،فتارة يشبهها بكسف من السماء، وتارة أخرى يشبهها بنجوم ساطعة في السماء ،وهذا دليل على أهمية الدرع وجمالها مما جعلها تسطع بنورها في ساحة المعركة،كما تسطع النجوم في السماء،فلمعانها ونورها إضافة إلى قدمها خاصة وأن الشاعر ربطها بعهد طالوت الذي استعملها في حربه مع جالوت ، كل هذه المعاني جعلت الدرع تتسيد ، فتغدوا كنجما لامعا في السماء ، ورمز المعري إلى الشعراء بالنجوم وذلك بقوله:

عز رب النجوم تس ري ولا تسأم الرجـــل

---

[1]– سورة الطور/الآية 44.

[2]– محمد عجينة : موسوعة أساطير العرب ، ص: 201.

[3]– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 328.

أينام السمـــاك أم هو بالغض ما اكتحل

جهل المشتري و إن كان في الخير ذا محل

أي ذنب أصابـــه قسما فوقـــه زحـــل[1]

فمن خلال هذه الأبيات يتضح لنا أن المعري رسم بها شخصيته المضطربة ونفسه الأبية التي تتطلع إلى العلياء .

فهو من دون شك شاعر من بين الشعراء الذين شبههم المعري بالنجوم ينتقلون من مكان إلى آخر، فيشبه نفسه بالمشتري في الحسن ومصدرا للخير،فيتساءل عن ذلك المصير المشئوم الذي أنزله وعلا بغيره ، وقد قصد به كوكب زحل الذي رمز به إلى من هم أول منه منزلة في الشعر.

فخطه العاثر في هذه الدنيا هو من جعله يعاني و يتألم ،وهذا ما جعله يطلب الرحيل عنها؛ لأن نجمه لا يعود عليه إلا بالنحس والشقاء ، يقول :

ربي متى أرحل عن هذه الدنيا فإنـــي قد أطلت المقـــام

لم أدر مـــا نجمي ولكنه في النحس مذ كان جرى واستقام

فلا صديق يترجـــى يدي و لا عدو يتخشـــى انتقـــام[2]

فقد يئس من حاله وسجنه لنفسه الذي قاده إلى الاكتئاب والقلق والدخول في الوحدة ومن ثم تفرده وتميزه،كتميز نجم سهيل عن بقية الكواكب ، يقول:

لا توحش الوحدة أصحابها إن سهيـــلا وحده فـــارد

وكم ترى في الأفق من كوكب يعظم أن يرمى به المارد

خبرتني أمرا فقـــل راشدا من أين هذا الخبر الشارد[3]

---

(1)– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص : 264.

(2)– المصدر نفسه:ص:339.

(3)– أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1 ، ص:233.

فإذن جاءت صوره انعكاسا على حياته وشعره واضطرابه تنم هذه الأبيات عن روح قلقه ومتشائمة وخيبة أمل كبيرة ورغبة عالية في الاعتزال والانفراد، وقد وجد في طبيعة النجوم والكواكب متنفسا في الكشف عن تلك الفلسفات والآراء والمفاهيم التي تخصه وتخص الحياة عموما.

كما يتخذ من النجوم دليل حكمة يبين من خلالها أنّ كل شيء هالك حتى هذه النجوم والكواكب زائلة ، يقول:

ومراث لو أنهن دمـــوع لمحون السطور في الإنشاد

زحل أشرف الكواكب دارا من لقاء الردى على ميعـاد

ولنار المريخ من حدثان الدهـ ر مطف وإن علت في اتقاد

والثريا رهينة بافتراق الـــ شمل حتى تعد في الأفـــراد

فليكن للمحسن الأجل الممدود رغما لأنـــف الحسّـــاد[1]

فكل شيء فان حتى هذه النجوم مآلها الزوال والاندثار،حتى وإن كان نجم السماك في حد ذاته ، يقول :

فما أذنب الدهر الذي أنت لائم ولكن بنو حواء جاروا وأذنبوا

سيدخل بيت الظالم الحتف هاجما ولو أنّه عند السماك مطنب[2]

إضافة إلى النجوم يستعمل الشمس التي باتت مظلمة سوداء من كثرة الظلم وأن البدر يحتقر للونه ،وذلك بقوله:

واهرب من الناس ما في قربهم شرف إن الفتى فإذا دانى الأنيس صقر

و الصقر يلبس إن طال المدى هرما حتى إذا مر بين الهاتفات تفـر

لو عاشت الشمس فينا أليست ظلما أو حاول البدر من حاجة الحقر

---

[1]– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :59.

[2]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص :63.

ولدت يا أم طفلا شـــب في عنت فليت كشفك عن ذاك الجنين بقر[1]

فالشمس تغدوا أشبه بالدينار الساقط على الأرض الذي فقد بريقه،وذلك بقوله:

يجل الملك عن نظم و نثـــر وعن خبـــر تحدثه بأثر

وتضؤل فيه هذي الشمس حتى تعود كأنـــــها دينار عتر

وكم دثرت مغان من أناس وقد ضاقت بذي الجب ودثر[2]

كما دعا إلى الزهد في الدنيا وعدم التكالب عليها ؛لأنها فانية كفناء البدر، إذ يقول:

بدر المال بـــــدر الدجى يمحق من بعد أن يتم ضروره

حجة إن أقمتها لضعيـــف حجـــة في حقوقها مبرورة

ما لباس التقوى على الناس لكن ثيابا على الخنا مزروره[3]

يقول :

أراك في الأرض سيارا إلى شرف كما شبيهك في الآفاق سيار

كأنك البدر، و الدنيا منازله فما تمسكك ، إلا ليلة دار[4]

فالممدوح بدر عند المعري وفيه من الوضوح والضياء ما في البدر من ضياء وجمال وما دونه مهمل و دوني،فهو رمز للسطوع والضياء،كما أنه رمز للشرف والأخلاق وهذا ما ظهر بقوله (أراك في الرض سيارا إلى شرف)،وهذا الشرف الذي هو سمة من سمات الممدوح يشابهه ما في الأفق ، فالممدوح في شرفه وضياءه كالبدر في السماء اكتسب شرفه من علوه وارتفاعه وزاده بضوئه .

---

(1)– أبو العلاء المعري ك اللزوميات ،ج1،ص: 408.

(2)– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص : 445.

(3)– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص:350.

(4)– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 413.

إن هذا البيت الشعري له معان جميلة أثرت في النفس وهي علامة على لغة المعري السليمة التي يحورها كيفما كان وفي أي سياق مما تبرز قدرته اللغوية.

ولفظ الهلال باعتباره مصدرا من مصادر السماء قد أخذ نصيبه في شعر المعري فظهر في أبيات منها قوله:

قدم الفتى ومضى بغير تئية كهلال أول ليلـــة من شهره

لقد استراح من الحياة معجل لو عاش كابد شدة من دهره[1]

المتتبع لبيت المعري يلاحظ أنه أخذ لفظه الهلال واستعملها في نصه الشعري للدلالة به على الظهور المبكر والسابق لأوانه.

فقد أوحى به عن موت الفتى الذي يسبقه الموت بدون تمهيد ويظهر قوله هذا في (قدم الفتى ومضى بغير تئية)،ومضى في تشبيه ذلك الشيء الذي قدم إلى الفتى بهلال يستهل به في أول الشهر.

المتمعن في هذا البيت لا يمكن له أن يفهمه إلا باتباعه بالبيت الذي تلاها مبينا فيه استراحة الفتى من الحياة وهذا ما يدلنا على الموت المعجل له،فهو كهلال سبق البدر في أول الشهر.

فالمعري متأكد من أنّ الحياة صعبة و المشاق فيها كثيرة،لذا جعل الفتى الذي سبقه القدر يموت معجل قد استراح من تعبها وشقائها.

فقد استخدم الهلال للدلالة به على التعجيل في الأمور،كما أنه يرمز في مواقع أخرى من ديوانه إلى الاعوجاج والتقوس،كما حدث حين شبه المعري مخالب الأسد بالهلال لتقوسها واعوجاجها.

قال:

وقال لعرسه ،بيني ثلاثـــا فما لك في العربية من مقام

وقد وطئ الحصى بيني بدور صغار،ما قربن من التمـــام

[1]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج1، ص : 368.

أمحتذي الأهلة غير زهـــو سلبت من الحلي شهور عام[1]

كما لم ينس أبو العلاء المعري أخذ صور من السحاب الذي هو مصدرا من مصادر السماء، فجعل الدرع سحاب أبيض بقوله:

قلعية، وكأن مشتى الأزد، فـــي أرض السراة،سحابها لقلاعها

بيضاء من مطر الشتاء، ولم نقل من صيف، والقرمك لفاعها[2]

فكثيرا ما يشبه الشاعر الدرع بالنجوم لسطوعها،ويكسف السماء للرهبة منها،ويشبهها بالأغراس لرقتها وليونتها،وبمرآة لصفائها.

وهو الآن يشبهها بسحاب أبيض لبياضها الذي اكتسبته من مطر الشتاء الذي كان كثيرا النزول عليها،حتى نظفها من كل الشوائب فعادت بيضاء كسحاب أبيض في السماء؛فهنا تشبه الدرع بسحاب أبيض رمزا للنظافة و التألق .

وصور السحاب في شعر المعري متداولة ،فحدث أن تراءى للمعري بأن جعل للمنايا أيدي وجيش،كما جعل السحاب في هيئة إنسان يناديه.

فقال:

فيا سحاب المنون سلتِ بنا هل لك أخرى الزمان إنجام

تلك بلاد النبات ما سقيت والقيم فوق الرمال سجام[3]

إن الشاعر هنا عمد إلى تشخيص السحاب وجعله كانسان حاول التكلم معه،ويظهر ذلك في مخاطبته مناديا (فيا سحاب المنون)،وقد ربط السحاب بالمنون للدلالة به عن العدد اللامتناهي من الموتى والقتلى في بلاده،فالسحابة لابد لها من أن تمطر مطرا ولكنها عند المعري تمطر الموتى،وهذا ما جعله يناديها بسحاب،فمضى يعاتبها حتى تبتعد هذه السحابة من أرضه التي امتلأت ساحاتها

---

[1]– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 276.

[2]– المصدر نفسه: ص: 390.

[3]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص: 239.

بالموتى،ويوصيها بالذهاب إلى بلاد أخرى أرضها عطشة لم ترو بعد،وقد شبهها بنبات تظل الغيمة فوقه بدون أن تمطر عليه ، فظل عطشا محتاجا إلى قطرة ماء حتى يسقى وهي دلالة على أن هذه الأرض تخلو من الموتى وجثثهم عكس بلاد المعري التي تعج بالقتلى ضحايا المنون ونفس المعنى نجده حين يتكلم عن الرزايا مجسد إياها ، فجعل لها سحاب يقول:

تعجلت إن لم أثن جهدي عليكم سحاب الرزايا وهي صائبة الوقع[1]

وهذا السحاب يمطر رزايا ومصائب بدل من الغيث والمطر،لذلك يرُى الشاعر في هذا البيت وهو يدعوا على نفسه بتعجيل سحاب الرزايا التي يثق به من خلال مصاحبته الطويلة له ،ومن هنا يتبين أنّ الشاعر واعي تماما إلى حجم المعاناة التي يتكبدها في حياته من جراء الألم والقسوة والحزن؛ لذلِ ُرى وهو يتمنى موته، والموت رزية من الرزايا التي تطلقها تلك السحابة العابرة،فكان يرجوها حتى تعجل به،ليستريح من هذه الحياة المؤلمة، وجعل للردى سحابا فقال :

سحائب للسقيا وسحب من الردى ونبت أناس مثل ما نبت القل[2]

والرياح أيضا نراه تأخذ قسطا من صور المعري باعتباره مصدرا سماويا من مصادر الطبيعة الجامدة<< وقد صنفها العرب قديما حسب مصدر هبوبها و به تسمى>>[3].

فنجد ريحا من جهة الجنوب تسمى جنوبية وأخرى تهب من جهة الشمال، فتسمى شمالية، وهناك ريح هادمة وريح باردة وغيرها من أنواع الرياح التي تصنف بحسب وجهتها.

والمعري قد ذكر الريح ولكنها بصبغة مغايرة،فلا هي جنوبية فتنسب إلى الجنوب ولا هي شمالية فتنسب إلى الشمال ، بل هي ريح الحمام أو الموت فمن دون شك هي صورة تركيبية تنمو عن القدرة العجيبة للشاعر في التصنيع والتحوير واستخدام اللغة فمثلها جعل للمنية سحابا استطاع بقدرته اللغوية أن يجعل للحمام ريح على حد قوله:

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص: 118.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص :181.

[3]- محمد عجينة : موسوعة أساطير العرب ، ص: 266.

حمام فاتك فهل انتصار وكسر دائم فمتى الجبور

وملك كالرياح جرت قبول فلم تلبث و أعقبت الدبور[1]

فهنا يتبين أن أبا العلاء المعري يصف الحمام ، فهي كالرياح القوية في سرعتها التي تفتك بهم مما دفعه بالتساؤل (هل من انتصار) هذه الريح القوية التي جاءت بالحمام خلقت ضحايا كثر ، فهو يتمنى أن تجبر الحياة وتعود إلى طبيعتها بعيدة عن الموت والحمام،التي شبهها في سرعتها برياح ملك سليمان؛حين قال(وملك كالرياح) ولم تكفه سرعة رياح سليمان النبي،بل أعقبها بلفظه (الدبور) التي تسمى أيضا << العاصف و الصرصر والعقيم ، فهي ريح بلا ماء معها تهدم البناء وتقلع الأشجار>>[2].

إذن فلك أن تتصور سرعة هذه الرياح التي تقتلع كل شيء وتهدم البيوت ،هذه الرياح هي رياح المنون أو الحمام ، فمن دون شك سوف تحرق الأخضر واليابس ، فتنشر الضحايا في كل أرجاء البلاء، لذا المعري يترجاها متمنيا أن تعفو عنه هذه الرياح .

وهنا يظهر تناقض الشاعر، فمرة يتمنى الموت لأنه راحة من الهموم والآلام ، فيفرح لاستقباله ويتمنى تعجيله مثلما فعل؛حين شبه بهلال،ولكنه في أحيانا أخرى يشكو من قسوته وتسلطه ،فيتمنى أن تبتعد سحابة المنون إلى بلاد أخرى متعطشة،فيصف سرعته ويتمنى معها أن ينتصر عليه لأنه مل الكسور فهل من جبور.

وعليه فإن الرياح التي تكلم عنها المعري لها خصوصية التخريب والتدمير، وهذا ما يستشف من خلال توظيفه لكلمة (الدبور)، ففهم النص الشعري والتمعن في ألفاظه المستعملة وقراءته قراءة واعية تبعد فيها عن الألفاظ المكتوبة وتتخطاها إلى قراءة ما وراء السطور يؤدي بك إلى الإبداع في النص المبَدع من طرف المعري.

---

[1]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص: 298.

[2]– المصدر نفسه: ص: 393.

فإذن إذا كانت الريح قوية تقتلع الأشجار وتهدم البناء كريح الحمام التي شبهها بريح الدبور في ملك سليمان التي ذكرها المعري في بيته السابق، تكون طوعا يمينه يفعل بها ما شاء.

أما إذا كانت ريحا خفيفة ، فتعد نسيما تدفع به بنفس جميل إلى الخلق فتكون هواء هذا الآخر هو أحد عناصر الطبيعة قد أخذ نصيبه في شعر المعري ، ومن ذلك ما نلمحه حين شبه المحبوبة في بعدها وحسنها بهواء ،قال :

أراك ، أراك الجزع ، أبدى لغامها جنى عشر، مثل السبيج الموضع[1]

فقد استند المعري على الهواء باعتباره نسيما ذكره بالحبيبة في حسنها وجمالها وبعدها بهواء مجزع؛حيث ظهرت فيه النجوم مختلفة الألوان، فبين كل نجمة وأخرى هواء أو مسافة شبه لها الحبيبة في بعدها على قدر المسافة الموجودة بين نجم ونجم في السماء.

وهكذا بعد هذه الدراسة حول الصور التي مصدرها السماء والجماد تبين لي أن المعري قد نهل من الطبيعة ما يناسبه مثلما نهل من الدين،والحديث،والشعر،والتاريخ،والأمثال ما يناسبه في شعره.

فاستعمل كثيرا ألفاظ الجماد،فحاكى الجبال،والرمال،والسراب،والنار،كما استعان بصور للسماء وما تحويه من أهلّة، وبدور، ونجوم،وسحاب، ورياح، وحتى هواء وهي كلها صور نابعة من وحي الطبيعة الجامدة عبّر بها المعري عن عمق استفادته من هذه الصور الموجودة في الأرض والسماء.

و لكن المعري لم يتوقف عند هذا الحد بل نسج صورا أخرى يحاكي فيها الطبيعة أخذ منها صورا لها صلة بالماء،وهي ما يعرف بالمصدر المائي وهو كل مصدر أصله من الماء كالبحار والأنهار والأمطار والعيون، وهي كثيرة جدا في شعر المعري حاولت قدر المستطاع إحصاءها وسوف أحاول جاهدة إلى توظيفها ضمن السياق.

ومصادر الماء كثيرة منها ما ينسب إلى البحار ومنها ما ينسب إلى الغدير وغيرها من الصور، أما ما اتصل بالبحار فمتنوع ،اعتمد المعري عليه اعتمادا ملحوظا في بناء صوره ، وأول ما يطالعنا عن البحر وعالمه فنجد منه ما يعادل الكرم ؛كقوله حين شبه المرثي ببحر لجودته وكرمه ، فقال:

---

[1]– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :286.

يا لابس الدّرع الذي هو تحتها بحرا ، تلفع في غدير صاف

بيضاء زرق السّمر واردة لها ورد الصّوادي الُورق زُرق نطاف[1]

فالممدوح في هاتين البيتين شبه ببحر،لكثرة عطاياه وكرمه وتلك ميزة من مزايا الشخصيات العربية في فترة من فترات وجودها،فنجد عندهم عطاء بلا حدود ، وكرما لا ينضب أبدا حتى أصبح بعض الأشخاص مضربا للأمثال عن الكرم والجود كحاتم الطائي ونجده تارة أخرى معادلا للكثرة ويظهر ذلك في قول المعري مشبها الجيش بالبحر :

رُبّ بحر، للبحر، في ليل هيجا ء أبا مقمرا ، فعدّ ثميرا[2]

والسيف يستخدمه المعري استخداما يتماشى مع طبيعة الصورة ، فجعل السيف بحرا وشفرته شبهها بشاطئ بحر ، فقال :

أقّل عموده شهري ربيع وقيضا للمنية في احتدام

خضمّ ، سيفه لُجّ الرزايا وصفحته من الموت الزؤام

وشفرته حذام ، فلا ارتياب بأنّ القول ما قالت حذام[3]

والواضح من خلال استقراء هذه الأبيات أنّ أبا العلاء المعري قد بدأ وصفه للسيف مشبها إياه في بادئ الأمر بخضم وهو الأكل اللين،كما أنه كثير الفرند وهنا شبهه بالبحر لكثرة ماءه، والفرند شبهه بالماء لذا شبه السيف بفرنده ببحر كثير الماء،كما أتبع تصويره لهذا السيف،فجعل شفرته كشاطئ بحر، كما جعل صفحته من الموت الزؤام، ومن هنا كان هذا السيف لجة وهذا ما بينه في بيته الثاني، والسراب بحر وذلك بقوله:

وهجيرة ،كالهجر، موج سرابها كالبحر،ليس لمائها من طحلب[4]

---

[1]– المصدر السابق: ص :253.

[2]– المصدر نفسه:ص: 339.

[3]– أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج2، ص: 181.

[4]– أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص: 231.

فهنا يشبه السراب لكثرته ببحر،إلا أنه ليس لهذا السراب من طحلب والطحالب دليل على الحياة ومادامت قد فقدت الطحالب،فيعني ذلك أنه ليس ماءا على الحقيقة خُيّل كذلك، وقد نجد البحر معادلا للقوة و التسلط و الجبروت .

يقول المعري:

وسيرة الدهر ما تنفك معجبة كالبحر تغرق في ضحضاحها السير[1]

ويقول :

كأن خطوب الدهر بحر فمن يمت بفرط صداه فهو في اللج يسبح[2]

يظهر من خلال بيتي المعري أنّ الدهر وخطوبه شبهه ببحر؛لكثرته وعظمته وقوته تغرق فيه باقي الأسيار الأخرى التي تحوي ماء يسيرا.

أما ما يتصل بالأنهار والغدران،فهي لا تقل أهمية عن المصادر المستقاة من البحار،وأول صورة أخذت من النهر تشبيهه للدرع بالنهر .

يقول:

عب سنان الرمح في مثل النهر مما يعد للمراس والقهر

ما بُذلت في دية ولا مهـــر فعاد نضوا كعلامة الشهر[3].

يحلف: لا عاد لها مدى الدهر

فلو قُرأ بما جاء به المعري لوحظ أنه قد شبه الدرع بنهر جاري،كما واصل قوله بأن هذه الدرع التي أصيب بستان الرمح المعوج أصبحت معوجة مثله وقد شبهها بهلال معوج ومنحني مثل الهلال،وهذا ما أشار إليه بقوله(فعاد نضوا كعلامة الشهر).

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص: 290.

[2]- المصدر نفسه: ص: 189 .

[3]– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 387.

كما أكثر أبو العلاء المعري من استعمال الغدير باعتباره مصدرا من مصادر الماء فنجده يشبه الدرع أيضا بغدير ، يقول في درعيته السادسة والعشرون:

من كل سابغة الديول، كأنهـــا نهُي تصفقه الرياح بقاعـها

سالت على العاري، وهالت وانطوت لينا، فكالتها الفتاة بصاعها

وكأنمـــا رعب السيول تسرعت فمضت،وقر الصفو من دفاعها[1]

إلى أن قال :

لو خُلِيت وذنوب الماء سائلٍ في مذنِب سبقته من إسراعها .

ويقول أيضا مواصلا تشبيهه للدرع بالغدير :

غدير ،نقت الخرصان فيه نقيق علاجم ، و الليل داج

أضاة ، لا يزال الزّعف منها كفيلا بالإضاءة في الدباجي[2]

ويقول :

رهنت قميصي عنده ، وهْو فضلة من المزْن ، يعلى ماؤها برماد[3]

ويقول :

رُميح أبي سعدر حملت ، و قد أرى وإنّـــي بلدن السمهري لرامح

وثوبي أضاة ، إن شكا الظمء تحتها كميٌّ هياج ،فهو ظمآن سابح

كمغتسـل ، أعلى جُمادى ببـــارد وما سَجلُ ماءحين يُفزع سائح

تشبث منـه كلُّ عضو بحظـــه من الماء ، إلاّ رأسه والمسائح

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 388.

[2]- المصدر نفسه:ص:34.

[3]- المصدر نفسه: ص: 321.

كأنّ الفتى ، سنت عليه بلبسها يداه ذنوبا ، ما استقته المواتح[1]

تجلى إبداع أبو العلاء المعري بصورة واضحة من خلال الصور التي رسمها والأفكار التي قدمها ، وذلك عن طريق درعياته التي استقيناها من ديوانه سقط الزند،فاستطاع في هذه المقطوعات أن يوظف ثقافته الواسعة وذكاءه الفطري وأسلوبه البارع في بناء صرح فني خاص به،يتكلم فيه عن الدروع ويتغنى بها مشبها إياها بالغدير ،والمنهل،والسراب،والماء ،وكثيرا ما يشبهها بالحياة وعيون الجراد ونبات الكحص وغيرها من التشبيهات التي يتم التفصيل في بعض منها،من خلال أشعاره .

ومن ذلك قوله:

غدير نقّت الخرصان فيه نقيق علاجم والليل داج

وليس لكر يوم الشر ناف سوى كر من الأدرع ساج[2]

فالفكرة التي تحتويها هذه الأبيات هي واحدة ؛حيث يظهر الدرع وهو شبيه بالغدير.

وقوله أيضا في نفس السياق:

تزاحم الزرق على وردها تزاحـــم الورد على زمزم

لا مرة الطعم ولا ملحه وكيف بالذوق ولم تعجم[3]

فقد شبهها بالغدير حتى تزاحمت على وردها السهام والرماح العطشى،لكن هذه الرماح التي تردها لا تنال هدفها،بل تتحطم قبل الوصول إليها، لذلك نراه يحذر السيوف بالابتعاد والنفور من هذا المورد، يقول:

فلينفر الهندي عن المورد منظره كاللجة العيلـــم

هازئة بالبيض أرجاؤهـــا ساخرة الأثناء بالأسهم

---

[1]– المصدر السابق: ص:369 .

[2]– المصدر نفسه: ص: 30، 32.

[3]– المصدر نفسه:ص:207.

لو أمسكت مازل عن سردها لأبصر الدارع كالشيهم [1]

فهو يوصيه بالابتعاد من الدروع؛لأن هذه الخيرة يجري فيها ماء يهلك الألسنة ،فيقول:

والسنان الذي يصاغ على صند في ردى من يمـــوج ولهيب

جاريا ماء الحتف من غير الدهر إليه كالماء في الأنبـــوب

راكبا يطلب المنـــون دار عشر ني لم يدر كيف معنى الركوب[2]

ونلمح صورا لها علاقة بالماء استخدمها المعري للتعبير به عن حاجياته وأغراضه يقول:

كأنما الخير ماء كان وارده أهل العصور فما أبقوا سوى العكر

وما تريك مرايا العين صادقة فـــاجعل لنفسك مرآة من الفكر[3]

فقد جمع الشاعر في بيته بين الخير والماء ،فالخير يظل يتفجر كينابيع من المياه تسيل وتتدفق لدعم البشرية،فقد وجد الشاعر في الماء الحياة الخصبة التي استفاد منها أهل العصور السابقة،لذا سعى إلى تشبيه الخير كفعل إنساني بماء.

فيكون بذلك الشاعر قد أخرج الشيء المعنوي في قالب نتحسسه في واقعنا،وهذا ما جعله يقر بأنّ أهل العصور قد وردوا هذا الخير الذي هو شبيه بالماء الجاري،وبالتالي يكون الشاعر قد أضفى على الأبيات روحا فيها ابتكار وإبداع وتجديد ينم عن القدرة اللغوية للمعري وتمكنه من تكوين ورسم صور بهذا الشكل،والعيش شبيه بماء أيضا وهو معادل للخوف ،وهذا ما يلحظ في قول المعري :

والعيش كالماء تغشاه حوائمنا فصادرون وقوم إثرهم وردوا[4]

ويقول مشبها القلب بالماء:

---

[1]– أبو العلاء المعري:سقط الزند، ص: 207.

[2]– المصدر نفسه:ص:18.

[3]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص:366.

[4]– المصدر نفسه: ص: 218.

والرمل يشبه في أداءه خطـــئ فمـــا أهم له يوما بإحصاء

القلب كالماء والأهواء طافيـــة عليه مثل حباب الماء في الماء

والقول كالخلق من سيء ومن حسن والناس كالدهر من نور وظلماء [1]

واستعمال الدرع في هذا السياق كثيرا،فمثلها استعمل النهر والغدير والماء في تشبيهه للدرع،وعادة تشبهه الدرع بالماء لبياضها وبريقها وصفائها،ويظهر ذلك في قول المعري:

وتوهم أني لا يجوز تيممي على قربها والأرض صاد جميعها[2]

من خلال هذا البيت استطاع أبو العلاء المعري أن يرسم صورة عن الدرع فوصف صفاءها وبياضها حتى تخيل أنها ماء،ومنه يلمح تطبيقها في بيته حين أقر بأنه لا يجوز التيمم للصلاة مادام الماء موجود،فالدرع لصفائها اعتبرت ماءا ، لذلك منع على نفسه التيمم،

ويقول :

إلى مضاعفها على مجتابها أن لا يمور له دم مسفوك

ويهل وفد البيت إن بصروا بها والحكم الا بالحصى متروك

كفراشة العذب المنير بدت لهم والحجر دون غماره وتبوك[3]

وقوله:

إذا نشرت فاضت وإن طويت أرت كأنـــك أدرجـــت السراب على الأكم

أتت كرداء العصب يدعوا بها الفتى ردى العضب رحب النشر محتقر الجرم[4]

ويقول في موضع ثان:

---

[1]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص :52.

[2]– أبو العلاء المعري: سقط الزند ، ص: 392.

[3]– المصدر نفسه: ص :143.

[4] – أبو العلاء المعري : سقط الزند،ص: 213.

بيضاء خضراء مثل طحلبة مرُّ الزمان وما في اللون من صدأ[1]

فهنا أراد الشاعر تشبيه الدرع بماء أبيض مع خضرة ضاربة فوقه وكأن عليه طحلب لم يتغير لونه وبقي كما هو على ممر الأزمان.

وقد أكثر المعري من تشبيه الدروع بالماء خاصة في درعياته وهي معادلة للموت والهلاك على نحو قال فيه:

غدا فوداي،كالفودين ، ثقلا وأضحى الشيب بينهما علاوة

وقد أهوت إلى درعي،لميس لتملأ من جوانبـــها الإداوة

كفلذ من سمـــاء الله ملقى يهـل بمثله ركـــب السماوة

يولي الحسل عنها مستجيرا ويكره ،قربها ضبّ البداوة

ترى الكلبي إذا عرضت عليهم حذارى يظهرون لها عداوة[2]

من خلال قراءة نص المعري تبين أن الشاعر حاول وصف الدرع وتشبيهها بالماء،وهذا ما يظهر بقوله (لتملأ من جوانبها الإداوة)؛فجانبي الدرع مليئة بالماء الموضوع في إناء مصنوع من جلد ، وهو ما يسمى بإداوة ،فلو قربها العدو لمات؛لذلك ضرب مثلا عن الذين لا يقربون الماء كالضب وابنه الحسل والمكلوب،فلا يشربون الماء أو يقربون منه إلى أن يموتوا،فكذلك الدرع كأنها ماء لا يقربها الأعداء وهي هنا رمز للقوة المدمرة ، لذا يسعى الأعداء للهروب منها.

ومن هنا تبين أن عنصر الماء هو علامة للتخصيب،ولكن في المفردات والمعاني تتحول دلالته، كما في الأبيات السابقة ليصبح دالا على الخصب أو الصفاء والبياض والبريق،وقد يكون رمزا للهلاك كما لوحظ سابقا.

---

[1]– أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص: 401.

[2]– المصدر نفسه:ص: 360.

وإلى جانب الماء،والبحر،والنهر،والغدير ينضم إليهم المطر كصورة لمصدر مائي وبرغم قلته في ديواني المعري مقارنة مع من سبق إلا أنه تم توضيحه من خلال قوله الذي شبه فيه وقوع السهام على الدرع بسقوط أمطار في غدير،يقول:

كأنها والنصال تأخذها أضاة حزن ، تجـــاد بالديم

أو منهل طاقت الحمام به فالريش طاف عليه لم يصم

ظن بها ربـــها لضننتها به، وكم ضنـــه من الكرم

تحسبها من رضاب غادية مجموعة، أو دموعها السُجُم[1]

فهنا حاول المعري تشبيه الدرع التي وقعت عليها السهام من كل جهة بسقوط الأمطار الذي يصدر أصوات قد ترعب سامعها ، لذا جاء توظيف المعري للمطر كرمز للقوة والرعب من أثر الصخب والصوت الذي تتركه السهام على الدروع ، هذا كما لمحت بعض الصور الأخرى القليلة في ديوانيه لها علاقة بالمصدر المائي ، كجعله للمنايا بماء يخاض يقول:

إذا ادَّ ارك البيُن السماك ظعنتم وخوضوا المنايا والسماك مقيم[2]

فيظهر أنّ المعري لم يكتف بتسخير المنايا كما لوحظ سابقا وجعلها كانسان له يد أو لسان أو إناء،بل نراه يعيد مصطلح المنايا الذي طالما راوده كثيرا مشبها،هذه المرة إياها بماء كمعادل للهلاك والموت،فكأنه يقول أنَ المنايا لها ماء وعلى الإنسان الاحتراس منه فيبتعد منه ولا يقربه أو يلمسه؛لأنه إذا فعل ذلك سيكون مصيره الهلاك.

وللردى حوض لا يتقاعس الأبطال عن ورود ماءه إذا لبسوا الدروع، يقول:

وما كان عن حوض الردى متقاعسا لو اجتابها يوم الهياج مقاعس[3]

كما جعل للحمام ضحضاح ، يقول:

---

[1]– المصدر السابق:ص: 352.

[2]– المصدر نفسه: ص: 199.

[3]– المصدر نفسه: ص: 95.

فإن عدَ ضحضـــاح صوارم عُددن بحورا للردى وغمارا

كأن تراب الأرض لم يرض عزَها فأصعد يبغي في السماء جوارا

بكلّ كميت مارعت خبط الحمى ولا شربت رسل اللقاح سمارا[1]

كما جعل للحياة فيما مضى ثوبا ،جعل لها حوضا يقول :

فهل تردن حوض الحياة مبادرا إذا حلئت عن النفوس الحوائم[2]

وعليه تبين أنّ المصادر المائية المستعملة في نصوص المعري كثيرة،وأغلبها متداول عند الشعراء كتشبيهه للممدوح بالبحر،لكرمه وعطاءه،وللدرع بنهر وغدير وحوض وغيرها من الصور التي لها علاقة بالماء بشتى أنواعه سواء كانت أنهارا أو بحارا أو غدرانا.

وهذا يدل على وساعة فكر المعري واستيعابه لمثل هذه الصور،وسوف توضح عبر جدول إحصائي لهذه الصور المستقاة من المصدر المائي.

إضافة إلى الصور التي مصدرها الجماد والصور التي مصدرها السماء والصور التي مصدرها الماء ،وما ينضوي تحته،يلمح مصدرا آخر يندرج ضمن المصادر التي لها علاقة بالطبيعة الصامتة أو الجامدة وهو المصدر النباتي الذي الذي ترسم صوره من النبات.

ومن بين الصور التي لمحتها أثناء تفحصي لديوانيه سقط الزند و اللزوميات بجزئيه هي تلك الصور التي لها علاقة بالناس المحيطين به في زمانه ، فشبههم بنبات .

يقول:

وما الناس إلا نبات الزما ن فليحصد القوم ما نبتوا[3]

---

[1]– أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص: 77.

[2]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص: 276.

[3] – أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص : 144.

فهنا يرسم المعري صورة مميزة عن الناس الذين شبههم بنبات قد غرسه الزمان ونتيجته تكون في جنيهم بما فعلت أيديهم وجادت نفوسهم ،فإذا زرع الإنسان الخير يجده أمامه و إذا زرع الشر،فلا يجني إلا الشوك والندامة.

وحوادث الأيام في هذا الزمان يديرها ملك،فيتعب في غرسها وإدارتها ويتصرف في أمرها،فهي كالنبات يأمرها المليك فتنبت .

يقول :

وحوادث الأيام مثل نباتها تَرعى و يأمرها المليك فتنبت[1]

فمن هنا تبين أن الإنسان كنبات تزرعه،فكل منا يحصد ما زرع،وكذا رمح الفارس أخضر كالنبتة الخضراء ، يقول:

من كَل من لولا تشُّع بأسه لا خضر في يمنى يديه الأسمر.

يذَكي تلَهب ذهنه أوقاتـــه فكأنمـــا هو بالغدّو مهجّر[2]

يتبين من قول المعري أنَه لولا تسعر وتوقد بأسهم في ميادين القتال لغدا اَلرمح في يد الفارس المغوار أخضر كنبتة ،لأن كل ما يحسونهم بأيديهم يخضر بكرمهم ،فاستعمال المعري للنبتة الخضراء وربطها بالرمح ، لدليل قاطع على كرم الفرسان.

كما شبه السيف بالروض(خضرته، ومهابته)وكثيرا ما يوصف السيف بالروض في شعرنا العربي وعند أبي العلاء المعري خاصة،ويضيف الشاعر الروض للمنايا،لكن هذا الروض من نوع خاص فتربته مصقولة حادة لامعة ، لا تقبل ماءا لريها بل دماء،فتصبغه هذه الدماء بصبغتها الحمراء فكأنها الزهور حيث قال :

روض المنايا على أنّ الدماء به وإن تخالفن أبدال من الزهر[3]

---

[1]–أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1،ص: 140.

[2]– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 228.

[3]– المصدر نفسه: ص: 90.

و في موضع آخر من اللزوميات يشبه الأجساد بنبات، يقول:

أرى الأشياء ليس لها ثبات وما أجسادنا إلا نبات [1]

فقد شبه أجساد الناس بنبات تغرسه،فإذا أردت الخير لها،فستسعى لغرس ما لذ وطاب من شيم وقيم جميلة وأخلاق فاضلة حتى يصلح جسدك ومعه روحك،أما إذا أنشأتها على قيم فاسدة فسوف يحدث العكس،مثله مثل النبات إذا حرصت عليه وغرسته ونزعت عشبه الضار وسقيته بانتظام،فإنك سوف تسر بهذه النبتة التي كانت من صنع يديك.

كما لم يخلو شعره من الدروع التي وجدتها حاضرة في كل صوره،فشبهها بنبات له حب أسود، يقول:

أرضعتها أم الشرار ، فمـــا تعْ رِف إلاَ أنيسة الليل ظيرا

كجنى الكحص،ما ترامى إليها النمل قصرا للحمل عيرا فعيرا[2]

وقال في نفس الديوان:

تريزَ زَ زَدِ الفَقْعاء خاط قتيره جنى الكحص مسقيا بعل وإنهال[3]

وعليه يظهر من خلال ما قدمت من نصوص شعرية أنَ المعري قد اعتمد على الصور التي مصدرها من نبات،فتراه شبه السيف بالروض لخضرته ومهابته والناس في هذا الزمان بنبات والأجساد والدروع ،والرماح كلها كانت عبارة عن صور استخدمت ضمن نصوصه الشعرية استقاها من النبات.

غير أنّ هذه الصور كانت قليلة مقارنة مع الصور المائية وصور السماء والجماد وغيرها من صور تابعة للطبيعة الجامدة.

---

[1]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1،ص :135.

[2]– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 335.

[3]– المصدر نفسه:ص: 345.

وخلاصة القول أنّ النبتة واقعا كانت أم رمزا هي صورة حية في الوجود، فهي كإنسان يحتاج الحياة تجتمع فيها عناصر كثيرة كالتربة والماء والهواء، وهذه العناصر ضرورية للحياة أو الموت والفناء ، لذا كثيرا ما نجد الشاعر يشبه الإنسان بها ، فيرعاها كما ترعى النبتة الأصلية.

ثانيا– الطبيعة المتحركة:

كانت تربط العرب قديما علاقة وثيقة بينها وبين العالم الحيواني باعتباره مصدرا للغذاء ووسيلة لطلب العيش وأداة تواصل يستعملها العرب في مجتمعهم.

<< فالحيوان سواء كان من الدواب والأنعام أو من الطير والحشرات والهوام حاضر في الواقع أو في الذهن أليفا داجنا كالكلب والحمار والديك،ومطية ورفيقا في السفر كالناقة والفرس،أو وحشيا في قُلل الجبال مستفردا كالنسر والعقاب والظبي والثور الوحشي والأتان والحية والعقرب والضب ، يرجى خيره فيطلب أو يخشى أذاه>>[1].

إذن عالم الحيوان، هو عالم رحب استمد الكثير من العرب القدامى منه تسميات فأطلقوها على أولادهم مشتقة من عالم الحيوان كالعقاب والصقر، وعكرمة(الحمامة) وأسامة(السبع) ،وحيدرة ، ومازن(بيض النمل) ، وهيثم (فرخ العقاب).

كما استمد الشعراء قدماء ومحدثين مصادره منه (عالم الحيوان) ؛ لأنه شارك الإنسان العربي حياته ومنذ القديم،لذا كانت له أهمية كبيرة ساعدت الشاعر فيرسم صورة الحيوان وطبعها في نصوصه الشعرية،فصنفوه ضمن منظومات كبرى،وهي الحيوانات الأليفة،والحيوانات الوحشية الأسطورية [2] .

وقراءتنا لعالم الحيوان وتمثله في النصوص الشعرية تبتعد كثيرا عن تلك القراءة التي تخصه بالنظر إلى صفاته وهيئاته الخارجية ، بل هي قراءة تأملية فلسفية لا تكتفي بالنظر إلى تلك الألفاظ التي يوظفها الشاعر،بل تتعداها إلى قراءة ما بعد السطور؛ لتصبح رسالة النص أكثر تفجرا ووضوحا ، فبذلك لا تضيع غايات وأهداف المبدع لها.

---

[1]– محمد عجينة : موسوعة أساطير العرب ، ص: 277.

[2]– Regis Blachire:contribution a letude de la littérature proveriable des arabe lepoque archaique in arabica 1 .1954 p.54

<< والشاعر وهو يرسم هيئات الحيوان وصفاته كان مشغولا برسم حدود أفعاله وتوجيه هذه الأفعال والخصوصيات نحو حاجيات الإنسان بصفة عامة،وحاجياته بصفة خاصة وعلى هذا اكتسب صور الحيوان الشعرية صفات وأحوالا بشرية حتى ليشعر المتلقي المحلل لهذا الشعر أنَ عالم الإنسان بأحواله ودوافعه وراء العالم الحيواني >>[1].

ومنه فشعر أبو العلاء المعري يمتاز بالتنوع في مصادره التي استقاها من عالم الحيوان، وذلك على النحو التالي:

1- صور مصدرها حيوانات داجنة :

والحيوانات الداجنة هي تلك الحيوانات الأليفة التي تكون باستطاعتها العيش مع البشر في محيط وبيئة واحدة، كالجمال،والنياق،والحمار،والظأن،والشاة،وغيرها من الحيوانات والمعري واحد من الشعراء الذين استعانوا بهذا الصنف من الحيوانات،فوظفه في شعره أحسن توظيف،وهذا ما لاحظته لوحظ من خلال تعقب ديوانا المعري،بالرغم من قلة استعمال هذا النوع.

وأول صورة لفتت الانتباه هي صورتهَ فيها نفسه بفرس جامح يحتاج إلى الترويض والمجاهدة؛حتى تستقر حاله وتتأقلم مع السجن المفروض عليها،فيقول:

قد رضت نفسي حتىذلّ جامحها فما أصاحب صعب النّفس ما ريضا[2]

المتأمل في البيت الذي نسجه أبو العلاء المعري يدرك المعنى الذي أراد إيصاله الشاعر،حيث شبه نفسه التي أبت أن تنصاع إلى أوامر الجسد ورغبته في إدخال هذه الروح المسكينة إلى سجن ذلك الجسد ، فيصبح بذلك رهينا وعبدا لها تأمره فينفذ ، وتناديه فيستجيب،وتطلبه فيلبي، شبهها بفرس أو خيل، لأنّ روحه هي ذلك الفرس الذي يرمز به للعزة والنخوة ، ولكن هذا الأخير يرفض أن يلبي أوامر مروضه.

---

[1]- محمد الّدسوقي: البنية التكوينية للصورة الفنية ، درس تطبيقي في علم الأسلوب ،ص: 62.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج2 ، ص: 67.

ولكنه في الأخير بعد ذلك الإصرار ومجاهدة النفس على الترويض استطاع أن يرذخ للجسد ، فأصبح رهينا عنده،وهو ما أكده في أبيات .

يقول:

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيـــث

لفقد ناظري ولزوم بيتـــي وكون النفس في الجسد الخبيث[1]

لذلك بات لا يصاحب إلا من هو مثله ، فقد رّوض نفسه وجاهدها خاصة أنّ هذه الحياة مليئة بالملذات بينه والفرس الجامح معادل للإقدام والإصرار والوصول إلى المراد.

وقد وجدتْ صورة أخرى كانت مصدرا من مصادر الطبيعة الصائتة،حيث اتخذ صورة الضأن ورسم بها لوحته الشعرية وهو معادل للذل والهوان وقلة الشأن يقول:

كأنما العالم ضأن غدت للرعي والموت أبو اجعدة

فهادج حامـــل عكازة وفـــارس معتقــل صعده

وآخر يدرك من قبلــه و يترك الدنيا لمـــن بعده[2]

والمتّأمل في أبيات المعري يراها حقا مؤثرة في النفس لمن يعرف مغزاها،فهنا يظهر أنّ أبا العلاء المعري قد رسم لوحته معتمدا على صورة استوحاها من الطبيعة بالضبط من صور الحيوانات الأليفة لها علاقة طبيعية مع البشر تعيش معهم وتتأقلم وهي صورة الضأن، فشبه به الناس المتواجدين في هذا العالم لحقارتهم وذلهم ؛لأنّ الضأن عادة ما يرمز إلى الذل وقلة الشأن والهوان، كيف لا يذل ويحتقر البشر؟ وهو الذي احتقر الدنيا التي تحويهم بكاملها.

---

[1]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص: 226.

[2]– المصدر نفسه: ص:241.

فإذلال الدنيا يعني إذلال للناس الذين يقدسونها ويعظمونها في أعينهم ،حيث تعجب المعري منهم وشبههم بضأن أطلق سراحه ليرعي والرعي هنا دليل على التمسك بالحياة الإصرار على البقاء حتى مع وجود الموت الذي يأخذ منهم الكثير.

وزاد في توضيح أمر الدنيا العجيب،فبنا أبياته على التناقض الواضح بين صورة ذلك الشيخ الضرير الذي يمسك بعكازته طالبا المزيد وبين الفارس المغوار الذي اعتقل فمنع من السير والصعود ، و بين الإنسان الذي عاش زمنا فأدرك من قبله ، وبين الإنسان الذي يموت فيترك من بعده .

إذن هناك تقابل بين الذل الذي أشار إليه في صورة شيخ يحمل عكازا و بين السيادة والعز والقوة الذي أشار إليه في صورة فارس معتقل.

فهو بين القوة والضعف وهذه التقابلات في النهاية نسقطها في شخص المعري ذليل النفس أمام إرادة الجسد في ترويضها والهيمنة عليها ولها معنى ثان يكون فيه الشاعر ذلك الشيخ الكبير والضرير الذي يرغب في الحياة لولا وجود الموت الذي يمثل السيادة والقوة فإرادته حالت دون بقاء المعري وأمثاله من الناس في هذه الدنيا وقد عزز فكرته هذه في بيته الثالث الذي رسم فيه تقابلات بين الموت والحياة التي شكلها في بيته الأخير،فكانت بين من عاش في هذا الزمن رمز على الإقبال وبين الإنسان الذي مات، فترك كل شيء وراءه وهو دليل على الإدبار والإعراض والخروج من هذه الدنيا.

وصورة الضأن ليست وحدها من اعتمدها الشاعر لتصوير الناس بإذلال وتصغيرهم وإنما نراه قد اعتمد على صورة أخرى استوحاها من أخفاف البعير، فقال:

تحامي الرزايا كل خف ومنسم و تلقى رداهَن الذرى والكواهل[1]

هنا رسم المعري لوحة شعرية اتخذ من أخفاف البعير أساسا لها،حيث شبه أصاغر الناس بخف بعير الذي عادل به على الذل والاحتقار والهوان، ولكنه حاول توضيح هذه الفكرة ؛حيث عمد إلى رسم تقابل بين أصاغر الناس الذين مثلهم بخف بعير وبين أكابر الناس الذين مثلهم بالذرى والكواهل

[1]– أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص :163.

فأقر بأنّ هذه الشدائد أو المصائب أو مثلما سماها (رزايا) لا تحلق بالصغار ؛لأنها تحتقرهم ولا تنظر إليهم نظرة إجلال وتعظيم،لذلك تتخطاهم إلى أكابر الناس،فتؤذيهم بمصائبها.

وهنا لعل الشاعر يرمز بأكابر الناس لنفسه، ففي هذا البيت تلُمح رؤية أبي العلاء لذله والاعتزاز به،وهذا ما يفسره قول(أكابر الناس) وربطها (بالكواهل)،و المعري كهل معتز بنفسه و الرزايا عظمته،لذلك رجمته بشدائدها كيف لا و قد غمرته منذ أن رأت عيناه الدنيا،فأصابته في عينه ففقد بصره وزادت حين أردت أمه ضحية من ضحايا الموت وكذا الكثير من الأحباب الذين فقدهم سواء بالموت أو بالهجر.

و يستخدم الحمار معادلا موضوعيا للتيه والغباء وعدم الفهم ،فيقول:

يغدو الفتى و الخيل ُطلكُ يمينه و كأنــهَ غاد بلــبٌّ حمــار

فإذا ملكت الأرض فاحم ترابها من غرسه شجرا بغير ثمــار

إن قلّت السمراء عندك برهـة فاجزأ بمحض مَرة و سمــار[1]

فصورة الحمار تقع في المرتبات الأخيرة،من حيث استلهام المعري إياها في بناء صوره، واستخدامها في تصوير الفتى بالحمار.

والحمار عادة لفظة تستخدم للدلالة عن قلة الشأن والخزي في زمن تسيدّ فيه الخيل والفحول،و استعماله هنا يقتصر على التيه والغباء وسوء الفهم رامزا به إلى القوة والضعف،فالقوة رسمها في محيا الخيل الذي رمز به إلى الأبطال الذين جابوا المعارك خرجوا منها منتصرين والأمجاد الذين صنعوا أنفسهم فجعلوا منها الطبيب،والمهندس،والمعلم بينما ذلك الفتى الضعيف،فهو رمز للذل والاحتقار جاء في هيئة حمار لبه لم يمكنه مما مكنت الأبطال،فهو متوقف وعاجز حتى على فهم أمور الحياة التي إذا أردت مواصلة الطريق فيها فعلى الأقل اغرس شجرا جميلا،لينبت ثمرا وهو هنا يدل على الذرية الصالحة المثمرة التي تحمي البلاد؛لذلك ولأن الإنسان كحمار عنده هو لا يتمنى أن ينجب أولادا حتى لا يعاقب المجتمع بهم فتراه كثيرا،ما يوصي بعدم الزواج والإنجاب وأسقطها حتى على نفسه

[1]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص:392.

حيث أقر بقوله (هذا ما جناه أبي علي)فهو ليس له ذنب في ضعفه وهوانه لطالما وجد أباه كذلك ، فلو كان بطلا فارسا لجاد بالفرسان والعكس بالعكس صحيح ، فكلامه في كثير من السخرية على القدر وأهله.

2- صور مصدرها الحيوانات المتوحشة:

من استقرائي للمصادر التي تنتمي إلى هذا النوع من الحيوانات وجدت صورة (الذئب) التي يعادل بها الخبث والمخاطر، فقال:

الأرض دارُ اهتضام و الأنام فيها مثل الذئاب فأحرز دونهم حملك[1]

و قال:

وليل كذئب القفر مكرا وحيلة أطل علـى سفْـر نجلـة أدرع

كتبنا وأعربنا بحبر من الدجى سطور السَرى في ظهر بيداء بلقع[2]

إن الشاعر يعرض من خلال بيته مدى البؤس الذي يحيط به،فيصور نفسه في أرض أقل ما فيها اهتضام للحقوق،والبشر فيها كذئاب لا يأمن نفسه منها،فهم مخادعون مراوغون يستعملون الحيل للوصول إلى مبتغاهم غير آبهين بمضرتك،ومعاناتك مثلهم مثل الذئاب في البراري ينقضون على أَي فريسة؛لإشباع جوعهم والنفاذ بأنفسهم من التهلكة، لذا المعري لا يأمن هؤلاء البشر من هذا الصنف،فنجده حريصا على الابتعاد عنهم وعدم الاختلاط بهم إلا الأحمق الذي لا يهابه ، وذلك بقوله (فأحرز دونهم حملك)، ويقول :

يغدو على خلَه الإنسان بظلمه كالذيب يأكل عنده الغرة الذيبا[3]

و يقول :

وُلاة العالمين ذئـــاب ختل تكون من الشقاء رعاة فزر

---

(1) - أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج2، ص :170.

(2) - أبو العلاء المعري: سقط الزند ، ص: 287.

(3)- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1، ص :90.

وما سمحت ليعربها الليالي وحيَّ نـــزارها إلا بنـــــزر

فإن بخلت عليك نجوم صد ق فقد مطرتك أنـــــواء بغُرز[1]

وإذا كان الذئب رمزا للبؤس والدهاء والمخاطر،فإن الأسد هو معادل على الإقدام في الحروب، فتكون الأسود فيها لها خصوصية القوة والانقضاض على العدو في ساحة المعركة ،وهذا ما وضحه المعري بقوله:

مكلَف خيله قنص الأعادي وجاعل غابه الأسل الطوالا

تكاد سيوفه ،من غير رام تمكن في قلوبهم النبـــالا

تكاد سيوفه من غير سل تجدُّ إلى رقابهم انسلالا[2]

يظهر من خلال هذه الأبيات أنّ أبا المعري صَور قوة الممدوح،فاستنجد بخيل الممدوح التي يركبها وسلك بها طريق الوغى،شبهها بأسود لها من القوة والقدرة ما يمكنها من اقتناص الأعادي وافتراسها.

ويستعين المعري بحيوان الظبي في تكوين صوره،فهو يسعى كأي حيوان إلى كسب طعامه فقط حتى أنه يخضع للقدر ويجهل مصيره ومصدره ، يقول:

يعيش الفتى ما عاش كالظبي لم يفد بدنياه إلا أن يعال و يكبـــرا

ولم يدْر لما أن أتاها ،و لا درى إلى أين يمضي ،فاستكان مدبرا[3]

ويقول:

في بلدة مثل ظهر الظبي بت بها كأنني فوق رَوْق الظبي منحذر[4]

---

(1)– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص :374.

(2)– أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص: 23.

(3)– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1،ص :331.

(4)– أبو العلاء المعري : سقط الزند ،ص :38.

فهو هنا يشير إلى أنه بات في بلدة استوائها وسهولتها ، كأنها ظهر ظبي، ولكنه من شدة قلقه وحذره كان فيها وكأنه فوق قرن ظبي.

و الممدوح نفسه ظهر في صورة أسد تكاد قسيّه بدون أن يرميها أن تصيب قلوب أعدائه، وتكاد سيوفه من دون أن يسلها من أغمادها أن تصل إلى رقابهم لتصيبهم .

وهو هنا يشير به إلى أنّ قوة الممدوح وإقدامه ، جعل العدو يرتعب منه ويخاف حتى من أن يسل سيفه أو يرمي بقسيّه عليهم.

وعادة الممدوح يكون الخليفة أو الملك وانقضاضه على الأعداء من السارقين الماكرين أو أعداء الدين ،فينقض عليهم انقضاضا ويذيقهم الويلات.

وهذا ما بينه في موضوع آخر بقوله:

فكم فريسة ضرغم ظفرت بها فحزتها ، وهي بين النّاب والظّفر

ما جن نمير فهاجت منك ذالبِدٍ والليث أفتك أفعـــالا من النّمر[1]

فلم يكتف المعري بتشبيه الممدوح بالأسد فقط كما فعل في الأبيات السابقة،بل زاد عليه حين أشار إلى صورة عدوه ومنافسه،وهو"النَمر"هذا المقاتل العنيف الذي وقف بالضد للأسد، وتلقيب العدو بألقاب يصف فيها عدوه بالبأس والقوة كان من عادة العرب قديما؛ليكون أدل على قوة الممدوح إذا غلب عدوه،واستعمل إضافة إلى لقب الأسد تسميات أخرى من فصيلته كالضرغام والليث،هذا الأخير الذي وجدته حاضرا في الديوان فهي كلها اشتقاقات لمصدر واحد وهو الأسد ؛ ذلك الحيوان المفترس ووصفه للممدوح وهو يجابه الأعداء ويفتك منهم النصر؛إنما هو في الحقيقة قد يكون وصفا لذاته التي تجابه الحياة بمشاقها و افتكاكه منها للنصر في وسط انتشر فيه الفشل وساد، و افتكاكه للأمان من وسط الخوف و الذعر من المجتمع.

[1]– أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص :42.

فهو الليث الذي يرعب النمر بأصواته،وقد يكون النمر الحياة بشرورها، أو الدنيا بمآسيها وافتكاك النصر منها.

وقد يكون النمر دلالة على الموت عدو الحياة، هذا العدو المَسلط بأيدي القدر على الإنسان يأخذ الابن والوالد والأم وكل حبيب،نعم: إنه الموت الذي ذكره المعري كثيرا في ديوانيه تحت أسماء كثيرة كالحتف والردى والحمام والمنية ،أو المنايا.

فمثلما جعل للمنايا سحابا ويدا ولسانا تحكي به كما ذكرنا سالفا، جعلها كأسد في البراري يحاول افتراس الأحياء، يقول:

و المنايا كالأسد تفترس الأح ياء جمعا و لا تعاف الكليبا

مثل ما قيل في جرير أفي القو ل يصيد الكركي والعندليبا[1]

فالمنايا في شراستها و انقضاضها على الأحياء كالأسد إذا هجم يلتهم كل الكائنات الحية بما فيهم النبات و الحيوان والبشر ولا يعاف شيئا كما يعاف المكلوب الماء ويهرب منه لأنَ في قربه ولمسه موت أكبر له، فرمز الأسد والليث لدليل قاطع على القوة والشراسة التي يطلقها، قد شبهها المعري لاحمرارها بنار موقدة ، يقول:

حكت وهي تُجلى ناظر السبع اجتلى مع الليل ،أكلى والرّكاب على السبع[2]

ويقول:

واهجم على جنح الدجى ولو أنه أسد يصول من الهلال بمخلب[3]

واستعمل صيغة أخرى للتعبير عن القوة والهجوم والاندفاع أخذها من سلاسة الأسد وهو الليث ؛ حيث قال:

و المرء مثل الليث ، يفرس دائما ولقد يخيب و تظفر الأظفار

---

[1]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص:95.

[2]– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص:262.

[3]– المصدر نفسه: ص:231.

ولطالما صابرتُ ليـــلا عاتمـــا فمتى يكون الصبح و الأسفار[1]

وسواء استعمل الأسد أو الضرغام أو الليث،فكلها صور مستوحاة من الحيوانات المفترسة تدل على القوة والشراسة،وهذا ما ظهر في شعر المعري ، فيفتك الحياة من يد الموت أو المنايا،ويفتك الصبر ومجاهدة النفس أمام إصرار الحياة على الأذية وغيرها من الأشياء التي يجاهد الإنسان ويستبسل للحصول عليها،كما صور الموت في أماكن أخرى بوحش مفترس فتاك، يقول:

ولي حاجة عند المنية فتكها بروحي و الأهواء مذكن أهوال[2]

فالمنية هي ذاك الوحش المفترس والحيوان الخرافي المخيف الذي يفتك من البشر أرواحهم، كما أن الجياد في الحقول هي أسراب وحش:

كأن جيادهم أسراب وحش أُصرعَهن من رُبد و أُ تن[3]

فالملاحظ أنَ أبا العلاء المعري قد شبه الجياد التي يرمز بها إلى الطيبة والليونة عند هذا النوع من البشر بأسراب وحش مفترسة،فهو يرى هؤلاء القوم الطيبون كأنهم وحوش قد تنقض عليه في أية لحظة،لذا هو لا يأمنهم و نجده دائم الحيطة والحذر منهم.

و هكذا فإن المعري لم يخرج عن إطاره المعهود في توظيف ألفاظ ومعان وصور اقتبسها من مصادر عدة كما لوحظ مؤخرا تلك المقتبسة من الحيوانات وسواء كانت حيوانات أليفة أو متوحشة إلاَ أنها تبقى مصادر اعتد بها المعري ورسم نصوصه منها.

3- صور مصدرها الطيور:

وعالم الطيور وما انتهى إليه يعتبر أيضا موضوع جدير بدراسته لذا بعد تقفيه في شعر أبي العلاء المعري خاصة أنها<< تملك دوما من الصفات ما يجعلها أقرب إلى عالم السماء منها إلى الأرض لما

---

(1)– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص: 313.

(2)– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص : 154 .

(3)– المصدر نفسه: ص: 319.

خصت به من أجنحة تمكنها من الطيران و الاتصال بالأفق الأعلى>>[1].

ولذلك نجد لكل طائر خصوصياته ومميزاته و دلالته الخاصة به الملازمة له بحكم صفاته وبحكم ما ترسخ في أذهان الناس عن الطيور.

لذا استلهم الشاعر بعض أنواع الطيور ووظفها في نصوصه الشعرية منها ما كان تحت تسمية الطيور أو الطائر، وهذا ما يتبين في قوله حين شبه نفسه بطائر سجين:

يا نفس يا طائرا في سجن مالكه لتصبحَن بحمد الله مسروحا[2]

لقد ظهر الشاعر وقد بدت عليه علامات الحزن مما أصابه،فقد سجن نفسه وكان بإمكانه أن يطلق سراحها، فهو يناديها باستعمال حرف النداء (يا) نفس،ثم شبهها بطائر وتوظيفه للطائر يدل به على السرعة في ملاقاة الخير،وخير الطائر في إطلاق سراحه حتى يمارس حياته بحرية،ولكن عند المعري الخير في الموت و إطلاق سراح نفسه.

فهذا البيت لدليل قاطع على أنَ نفس وروح المعري رهينة جسده فهي طائر في سجن مالكه لقد سجنها المعري بيديه،فابتعد بها عن الدنيا و صخبها،و ملذاتها و رضي بحياة الذل والهوان،ابتعد عن اللذة والمتعة التي يمارسها الكثير واكتفى بحياة بين الجدران،فأبى الانعتاق والخروج إلى ذلك العالم المؤلم وبقي رهين جدران بيته، فحرم على نفسه أكل اللحوم ولباس الصوف والحرير واعتزال الناس.

يا له من سجين، عذب نفسه الأبية وهو يعدها في آخر شطر البيت بأن يطلق سراحها،وفي هذا الشطر ما يدل على الموت،فهو متأكد من وقوع هذه الحقيقة المؤلمة في يوما ما،لذا وعد نفسه بها ، فالموت بالنسبة إلى الشاعر لذة ومتعة واستراحة له من معاناته في هذه الدنيا اللئيمة.

ولم يكتف بتشبيه نفسه بطائر، بل شبه جفنيه بجناح طائر.

يقول:

كأنَ جفني سقطا نافر ، فزع إذا أراد وقوعـــا ريح ، أوذيدا

---

[1]- محمد عجينة :موسوعة أساطير العرب ،ص :320.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :196.

ظَن الدجى فظة الأظفار كاسرة والصبح نسرا، فما ينفك مزؤودا[1]

فهنا رسم الشاعر لوحة جميلة حين شبه جفنيه بجناح طائر،فقال(كأَن جفني سقطا نافر)،فكأن جفونه التي تعودت أن ترى ما كانت تراه عينه من أحزان وبؤس وشقاء وأموات أرادت أن تطير بجناحاها،فتغير مكانها إلى حيث لا تحس بتلك الآلام،وترى تلك الأوضاع ولكنها لم تستطع،فكلما أرادت ذلك خافت أو منعت من ذلك،فكأن جفنيه تعودت الإحساس بما كانت تحس عيني المعري،أو خافت من الواقع المرير الذي يعيشه الشاعر، ويقول واصلا:

وروح الفتى أشبهت طائرا أُطير فما عاد لَمـــا نفر

هنيئا لجسمي إذا استقر وصار لعنصره في العفـــر

ولست أبالي إذا ما بليتُ من وطئي القبر أو من حفر[2]

فروح الإنسان كطائر محلق يأبى أن يعود إلى وكره بعد ما نفر روحه وخرج منها وهو يهيأ جسمه بعدما طارت روحه إلى خالقها وصار الإنسان في القبر، فهو لا يبالي إذا تعرض لبلايا في قبره.

وليله المعاش كعقاب انقض عليه بأظافره، فمزقه تمزيقا من أثر الاشتياق للأحبة وطول السَهر والسواد الذي أطبقه عليه حتى طلع النهار، ولكن هيهات إنَه صبح كاسر أيضا، فشبهه بنسر جارح لكي يمثل به على ذلك الجزاء الوخيم الذي حل بالمعري حتى صار قطعا ممزقة ، لذلك استلهمه ليرمز به على تلك القوة المدمرة وسرعة الانقضاض.

ولقد أعطى للدجى بعدا آخر له خصوصية الطيران والتحليق وله أظافر قوية ؛حين شبهه بعقاب كاسر، وذلك من خلال ألفاظه (فظة الأظافر كاسرة)،كما أعطى للصبح نفس المفهوم ؛ حين شبهه بنسر جارح.

فإذن أين المفر؟ لا ليل فيه رحمة من الفراق والشوق والأنين الذي يحسه ، ولا صبح ينفس به عن نفسه ، فهو كالنسر جارح، فجعله للصبح نسرا لدليل قوي على المعاناة التي يعانيها المعري ومن

---

[1]– أبو العلاء المعري ، سقط الزند ، ص :224.

[2]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص:415.

معه من ظلم الحكام والملوك ،لأنّ النّسر عادة يستعمل في خيال الإنسان الجاهلي في صورة ملك جائر جارح له من القوة و الحزم و العظمة ما يؤهله للانقضاض على رعاياه والملاحظ أنّ المعري قد عدّد من استعماله للنسر ، وهو معادل للبؤس الذي حلّ به.

فقال :

وُربَّ امرئ كالنّسر في العز و العلا هوى بسنان مثل قادمـــة النّسر

وهوّن ما نلقى من البـــؤس أنّنـــا بنو سفر أو عابرون على جسر[1]

لقد شبّه المعري الإنسان في عزّه وعلاه وعظمته بنسر قد اعتلى السماء وطار،ولكن هذا الإنسان قد رماه القدر بسنان رمحه،فأصابه بمختلف المصائب والبلايا حتى أسقطه أرضا.

فهنا الشاعر أراد نفسه الذي شبهها مفاخرا بها ومعتزا بنسر ملك السماء وعلا ولكن المعري قد أصابه القدر المحتوم بوابل من الزرايا كفقد بصره،وموت أمه، وفقدان جميع أحبائه، إضافة إلى تعرضه للغدر والخيانة واللؤم من طرف أصحابه وجيرانه ، هذا ما جعل المعري يسقط بعدما كان عظيما،لكن الشيء الذي هون عليه وأنساه بؤسه هو تذكره بأن الحياة التي حُرم فيها طعم النّوم وملذات السعادة لا محالة هي زائلة ، فموت الإنسان حتمية لابد منها ، وهذا ما أنساه همومه وهّون عليه بؤسه وتعاسته.

ونفس المعنى تقريبا وظفه المعري ؛ حين قال:

وبعض الناس في الدنيا كطير أوانف أن تلائمها الوكور

ذكور لا إناث لها و لكـــن قرائها المهنّدة الذكـــور

عرفتم بين حـــواء قِدْمـــا فكلكم أخو ضغن مكـــور

وما فيكم على الإحسان جاز ولا منكم على النعمى شكور[2]

---

[1]– أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 351.

[2]– المصدر نفسه: ص: 297.

فهنا أيضا شبه الناس بطيور تحلق بعيدا و تأبى أن تعود إلى أوكارها،والوكر عند المعري هو الجسد الذي طالما عذب النفس وسجنها فيه.

وهو يؤكد أنه يعلم بنو حواء فيصفهم بالمكر والخداع وهذه الصفة متجذرة فيهم،وهذا ما أقره حتى قال (عرفتكم قدما)،كما أنهم لم يسلكوا أبدا طريق الإحسان و لا يوجد أحد فيهم من شكر الله على النعم التي أعطاه إياها ،فالإنسان كطير وهو ما يعادل به على السرعة من أجل النجاة من الجسم الذي عذب روحه وحرمها من كل الملذات.

كما شبه قلب والده بطائر لا يستقر في عش ، فهو في طيران مستمر والطائر الذي غادر العش هو معادل للموت ،يقول :

لقد مسخت قلبي وفاتك طائرا فأقسم أن لا يستقر على وكــْن

يُقضي بقايا عيشه، وجناحه حثيث الدواعي في ا لإقامة و الضاعن

كأن دعاء الموت باسمك نكْزة فرت جسدي، والسم ينفث في أذني[1]

ونحن نرى أنّ النص الشعري الذي جاء به المعري ما هو إلاّ تكملة للصور التي رسمها بالاعتماد على صورة الطير المستوحاة من الطبيعة المتحركة.

فبعد ما شبه نفسه بالطير السجين الذي تأبى نفسه الابتعاد عنها،وشبه الناس بطيور تغادر أوكارها بدون عودة، هاهو الآن يضرب لنا مثلا عن بعض الناس الذين شبههم بالطير،فتحدث عن والده، الذي أقسم أن لا يستقر في أي عش،فبقي في طيران مستمر إلى أن دعاه الموت،وتلفظ باسمه ، فكانت موته أكبر مصيبة وقعت عليه .

ويشبه المعري حاله حين سمع ممات والده،فكأنّه سّم قاتل نفثوه؛حين أسمعوه ذلك الخبر، كما شبه جنحه بجناح غراب وهو يعادل به على الشؤم والهلاك والتخريب يقول:

أرى جنح الدّجى أو فى جناحا ومات غرابه الجون الُموب[2]

---

[1]– أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص: 187.

[2]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص :71.

فقد شبه جنح الدجى بجناح غراب يرمز به للهلاك الذي قد أصابه في هذا الليل الحالك وفي الشطر الثاني قال (و مات غرابه) غير أن هذا الغراب الذي شبه به الليل في السواد قد مات،وهو هنا يرمز إلى بزوغ الصبح ومعه متنفس جديد .

ويقول في بيت ثان نفس المعنى:

باللّه يا دهر أذق غرابها موتا من الصّبح بباز كّرز[1]

فبعد أن نادى أبو العلاء المعري الّدهر على سبيل الاستعارة متعجبا من سواد الليل الذي شبهه بغراب تتمنى من الدهر أن يضقه طعم الصباح الذي شبهه بباز،ولكن ذلك لا يمكن إلاّ بالقضاء عليه،فعليه المعري هنا يتمنى الموت والانقضاء لذلك الليل الذي رمز به على الدنيا بطبعها السيئ وشرورها حتى عادت سوداء في نظره،فتمنى زوالها ولا يكون ذلك إلاّ بالموت ، والنجوم عنده هي حمامات يعادل بها على خفتها ورشاقتها،فيقول:

وتبتسم الأشراط فجرا ، كأنّها ثلاث حمامات سدكن بموقع

وتعرضُ ذات العرشِ، باسطة لها إلى الغرب في تغويرها يد أقْطع[2]

يعني هنا بالنجوم الإنسان اللامع الذي يسعى دائما في تطوير نفسه والوصول إلى هدفه في هذه الحياة،فتكون سهلة لينة أمامه تذلل صعابه،بالرغم من وجود يد القدر التي تقطع كل المصائر بيدها،فالحمام رمز على مدى إصرار الإنسان وتبسمه،بالرغم من تلك الآلام والمصاعب،وآخر ما نختم به صور المصادر التي استقاها من الطيور،هو ذكره لمنقار فرخ القطا وتشبيهه النصل به في انتشائه يقول :

لاحت على غفلة ، كلائحة الـ ـُضِل تدنو إذا السراب نآى

كم فُرخي ثنته ، تحسبـــــه منقار فرخ القطاة حين صاى[3]

---

(1) – أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص: 93.

(2)– المصدر نفسه: ص: 288.

(3)– المصدر نفسه: ص: 399.

والقطا هو طائر استخدمه الشاعر للتعبير به عن نفسه ومدى المخاطر التي تعرض لها وواجهته في حياته على غفلة سقطت عليه بدون علمه ، فصرخ من شدة الهول الذي أصابه مثله تماما يفعل فرخ القطا بمنقاره حين يذعر.

4- صور مصدرها الحشرات و الزواحف:

أما فيما يخص الحشرات والّزواحف باعتبارها مصدرا للتصوير استند عليه المعري في ديوانيه سقط الزند واللزوميات بجزئيه،وكانت أكثر هذه الحشرات التي اعتمدت وباتت مصدرا مهما لتصوير الإنسان هو النّمل، يقول:

أيّها المرء إنّما أنـــت كالنّمـ لة تغدو لِ بُّرة مجرورة

يبعث الله في نهار و ليـــل بركات من رزقه مدروره

ما لباس التقوى على النّاس لكّن ثيابا على الخنا مزروره[1]

و الواضح من أبيات المعري السابقة أّنه سعى إلى الاستفادة من النملة، ذلك المخلوق الصغير الذي يدب في الأرض دبا سعيا للرزق،فهي مثال يحتذى به في المداومة والإصرار في طلب الرزق، ويظهر ذلك بقوله (تغدو لبُّرة مجرورة) .

لذا يأتي المعري بها كصورة شبه نفسه بها،فهو يسعى مثلها في طلب عيشه والاستماتة من أجل الوصول إليه والله يدر لعباده بركات من رزقه ،لأن الرزق أحد الأشياء التي تعرض للجنين الذي هو في بطن أمه،ولكن المطلوب مثلما أقر المعري هو السعي للوصول إلى هذا الرزق الذي كتبه الله لنا.

والشيء الملاحظ أنّ المعري قد استلهم صورة للنمل مصدرا لتصوير الإنسان في هيئة درع مزركشة شبيهةإلى حد ما بمدب النّمل، يقول :

و ذات حرابـــي ، أضّر قتيـــرها بذي النمل حتى عاد كالنجم نائيا

[1]– أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج 1 ، ص: 350.

تعدُّ سراب القيظ و الصيف و الضحى و جنح الدجى، لو انه كان جاريا[1]

فقد صور الشاعر من خلال هذان البيتان الدرع،وبالضبط رؤوس المسامير التي تكون عليها ؛ حين قال (وذات حرابي أضر قيترها)، فقد شبه هذهالرؤوس بدبيب النّمل فوق الرمال حتى عادت في زركشتها كنجم ثاقب قد علا وبعلوه صار بعيدا نائيا، وأبياته هذه هي جزء من قصيدته التي لم يقصد بها الدرع ومساميرها،بل قصد مخاطبا أبا القاسم أبي القاضي التنوخي مثنيا عليه وعلى آباؤه وأجداده الضاربين في أصالة الحسب والنسب منذ الجاهلية وفي إكرام الضيف والنّجدة والمروءة.

ويقول مواصلا تشبيهه لفرنده بالنمل في درعيته (دقت ومارقت):

ما صاحب السّيف ، سعى نمله من ربّه اللّمللج ، ذات النمل

لقد رآني لا بسا نثره أسحب منها ، في الوعى ، فضل ذيل[2]

يقول :

ودبّت فوقه حُمر المنايا و لكن بعدما مسخت نمالا

يذيب الرّعب منه كل عضب فلولا الغمد يمسكه لسالا[3]

فهنا يشير أبو العلاء المعري إلى أنّ دبيب الموت وهي تزحف إلى الأعداء،لكي يلقفهم شبيه بدبيب النمل على الرمل،وهنا قصد أبو العلاء المعري ممدوحه وهو الأمير بسيفه القاطع الذي لا يتوانى في قطع رؤوس الأعداء وتشبيه دبيب الموت الزاحف بدبيب النمل،لدلالة على الأثر الذي يتركه الأمير في نفوس الناس من رعب وذعر وهلع،كما شبه في موضع آخر أهل الحقارة و الذلة بالذر وذلك بقوله:

و غيّرت الخطوب عليه حتى تُريه الذّر يحملن الجبالا[4]

---

(1)– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص:370.

(2)– المصدر نفسه:ص:375.

(3)– المصدر نفسه : ص: 32.

(4)– المصدر نفسه: ص: 169 .

وبذلك يعادل (الذر) أهل الحقارة والازدراء والذّل وقلّة الشأن، ولكي يوضحها المعري أكثر ويقربها إلى الأذهان يأتي بالمقابل؛ لأنّ به تتضح الدلالة.

فأهل الحقارة والذّل شبيهون بالذر وهم صغار النمل لا تكاد تراهم و هم يمشون على وجه الأرض ومقابلهم أهل الصّفوة والعز،و قد شبههم بالجبال الشامخات لعظمتهم.

وهنا يأتي دور الخطوب ومصائب الدّهر التي تهوي بها على رأس الذليل الحقير الذي يشبه الذر، كما تهوي على العظيم الجليل الذي شبهه بالجبال.

فكل منهم معرض لتلك الأهوال أمام سلطة القدر وحتمية القضاء لا يوجد من يختار،فالكل مختار من قبضة قوية وسلطة جامحة وجبروت قاتل، إنها المصائب و الّرزايا تسقط على البشر،فقد تخطأ وقد تصيب مثلها مثل نبال السّهم أو الرمح في الوغى قد يخطأ بإصابته ولا يوقف، وهذا ما أشار إليه المعري بقوله:

كأنّما النّبَل في الهيجاء رجلٌ دبى طارت إليك وقد ظنتك من كـلأ

فصائب لم يوفق في إصابتـــه ومخطئ لك محروس على خطأ [1]

وظف الشاعر هنا الجراد الصغير والكثير للدلالة به على انتشار أهل الذل والاحتقار،فالنبل لدى الإنسان القديم تمثل العز والشجاعة لا يملكها إلا البطل المغوار الذي يدخل في المعركة بساهمه ليصيب بها أعداءه،ولكن هذه النبال ليست حقيقة تجسد واقع الإنسان الشجاع العظيم أو كملك أو سلطان مريب بل هي نبال من جراد صغير قد طارت من مكانها لتحط في مكان ليس بمكانها ظنا منها أنه كلأ.

ولكنها في الحقيقة تكون قد أخطأت بإصابتها ولم توفق ولا شك أنّ النبال تمثل الاحتقار والهوان ، وقد قصد بها نبال الدهر التي يرميها ليصيب بها العباد.

---

[1]– المصدر السابق: ص: 401.

ولكن هيهات وهذه السهام تحمل من حقارة وحقد على البشر ما يجعلهم يزدرونها ويكرمونها،وهي في رميها غير موفقة دائما فقد تصيب أماكن وأناسا بجمراتها فتكويهم وهم ليسوا أهلا لذلك.

ويقول في بيت آخر معبرا بها عن كثرة هذه النبال التي ترميهم بنوائب وخطوب كثيرة وهي شبيهة في ذلك بالجراد الكثير الذي يغزو في فصل الصيف، يقول:

كأنّ جراد الرّمي ، طار يريدها جرادَ مصيف وافق الروض مجحدا[1]

ومثلما شبّه أبو العلاء المعري النبال بجراد، فنراه يشبه الدروع أيضا بعيون الجراد وذلك في مواضع كثيرة من ديوانه سقط الزند الذي ركّز فيه على الدروع وأهميتها عند القدماء يقول:

و حرباؤها لم يوفِ عوداً ، و جندب أرت عينه لم يشدُ، والـيوم شامس

و نسّت إليها المرهفات، قضيـــــة فأبن ، وما فيهن إلاّ النسائـــس

إذا سفْنها أو سُفنها اضخُيـّـــا برغم ، وقد يُردى الشجاع المقامس

إذا أراد عيُر السّيف منها بروضــة تلقّاه من لحظ الجرادة فـــارس[2]

كما أنّ رؤوس مسامير حلق الدروع تشبه عيون الجراد ، يقول:

تُخيـّل أبصار الدبّى فمسّهد وُغْفٍ ، و شيء بين ذنيك ناعس

كأنّ سنانا رامها خط قادر عليه : بعيد من أذى القْرن يائس[3]

و يقول متابعا تشبيهه للدرع بعيون الجراد:

أتأكل دْرعي أن حسب قتيرها وقد أجدبت قيس عيـــون جراد

أكنت قطاة مرة فظننتـــــها جنى الكحص ملقى في سرارة واد؟

---

(1) – أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص : 372.

(2)– المصدر نفسه:ص: 97.

(3)– المصدر نفسه: ص: 98.

فليست بمحض ترتغيه مبادرا و لا بغدير تبتغيـــــه صوادي[1].

فقدشبّه هنا مسامير درعه بنبت له حب أسود وهو ما وظفه باسم (الكحص)،كما يشبه عيون الجراد الخاص بقبيلة (قيس) ،فهنا أراد الإشارة إلى قبيلة قيس بذكر(عيون الجراد المعروفة بها).

وشبهها في موضع آخر بالحية و بالجراد في آن واحد:

خُلّة الأيْم ، خُيّطت بعيـــون الجراد

خلتها ، و النّبال تهـ وي كرجل العراد[2]

فقد أعطى هنا النبال التي لا تهوي على الإنسان صبغة الجراد الذي مهما فعل،فإنّه لا يؤثر في الإنسان، ولكنه ذكر معها لفظة (الألم) للدلالة على الحية التي لها خصوصية الرّعب والذعر والموت، فالنبال هوت كرجل الجراد لا تفعل شيء و لكنها مع الحية تخلق الذعر وتؤدي إلى الموت بسمها القاتل الذي تلذغ به الإنسان فيموت وقد اتخذها مصدرا من مصادر استقى منها صوره للتعبير بها على الزواحف وأثرها لدى الإنسان ، يقول:

ما فعلتْ درع والدي ؟ أجرت في نهر، أم مشت على قـــدم

أم استعيرت من الأراقم(*) ، فار تلّت عواريـــها بنوا الرّقـــــم

أم بعتها تبتغيـــن مصلحـــــة في سنة ، و السماء لم تَغِم[3]

فهنا حاول المعري تشبيه الدرع بالحيات ، فوظف تسمية (الأرقم) للتدليل عليها .

و يقول مشبها الدّرع بجلد حية، فقال في قصيدته (أراني وضعت السّود عين):

إذا فني الشهر الحرام وجدتني وبُردُ هلال ملبسي يوم إهلال[4]

---

(1)– المصدر السابق:ص: 60.

(2)– المصدر نفسه: ص :348.

(*)– الأرقم من الحيات وهم قوم من ربيعة سموا بدلك تشبيها لعيونهم بعيون الأراقم.

(3)–المصدر نفسه:ص: 351.

(4)– المصدر نفسه:ص: 341.

فقد عنى بالهلال الحية التي سلخت و برد الهلال هنا هو الدرع، حيث جعل الدّرع الذي يلبسه مصنوع من جلد حية وهو معادل للذعر و الخوف، فما أن يروه يلبس هذا الدّرع المصنوع من جلد الحيّة حتى يخافوه، ويهابوه، ربما قصد الشاعر هنا أميرا في ساحة المعركة ما أن يصل حتى يذعر أعدائه للهيبة و العظمة و القوة التي يملكها ،والدرع كغطاء له يحميه من سهام الأعداء ويخوفهم ، ويقول أيضا:

كهلال الحياة، أو كميص لهلال الحيّات ،غير مجوب[1]

ما يظهر من خلال هذه الصورة التشبيهية أنّ المعري أراد وصف البلدة التي زارها فهي ليست من البلاد التي سلكها الناس،فالحيات تغمرها وتستوطنها وتنسلخ فيها عن جلودها وتطرحها عن نفسها، وهو هنا قد أشار بها إلىالدنيا التي يسكنها الناس وهم كالحيّات مخادعون ومنافقون سرعان ما يخلفون ما ألفوا عليه لمجرد انتهاء المصلحة.

وهو لم يكتف بتشهيها ببلاد خاوية مليئة بالحيّات،بل شبّه حطامها بجيفة والناس فيها بكلاب تريد أن تنهش تلك الجيفة النتنة،يقول:

أصاح هي الدنيا تشابه ميتة ونحن حواليها الكــلاب النوابح

فمن ظل منها آكلا فهو خاسر ومن عاد عنها ساغبا فهو راجح

ومن لم تبيته الخطوب فإنّــه سيصبحه من حادث الدهر صابح[2]

وقد أشاروا إليه فقذفوه بسهم كاذب ، يقول :

وقد نبحوني فما هجتهم كما نبح الكلب ضوء القمر[3]

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند،ص :361.

[2]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1، ص :190.

[3]- محمد بنشريفة : شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند ، ص : 201.

يقول (إبي السيّد) في إطار شرحه لبيت المعري : أنّ الكلب إذا رأى ضوء القمر توهّم أنه يدفئ كما يدفئ ضوء الشمس، فإذا رقد فيه لم يجد له دفء نبح كأنّه ضجر منه وغضب عليه ، كما ينبح نحو السّحاب إذا كثر مطره ضجرا لما يصبه من الضرر بكثرة المطر.

فالمعري أصابوه بسهامهم كاذبين ومنافقين ومخادعين لما ضجروا منه وتضرروا من أفكاره وآرائه التي لطالما نصحهم بها، فمن دون شك بعدما خبر أبو العلاء الدنيا هابها وخاف منها، يقول :

كأنّ الصّبا فيه تراقب كامنا يسور إليها من خلال إكامه

يمر به رأُد الضحى متنكرا مخافة أن يغتالـه بقتامـــه

نهار كأنّ البدر قاسي هجيره فعاد بلون شاحب من سهامه[1]

فالمكان يخّوف بالفعل يملأه الغبار حتى أظلمت أقطاره،فهابه كل من يمر به حتى الشمس لو اجتازت ذلك المكان لخافت أن يطمس ضوءها، كما أنّ أحوال الدهر تختلف عنده كاختلاف ريش النّسر، يقول :

شكوتُ من الأيام تبديل غادر بواف و نقلا من سرور إلى هـــم

وحالا كريش النّسر بينا رأيته جناحا لشهم آض ريشا على سهم[2]

فالمعري يشتكي من خلال نسجه لهذه الأبيات من الأيام وتبديلها، فمرة تّهمه فتجعله مهموما حزينا يائسا قانطا ، ومرة فرحا مسرورا.

وحاله فيها كحال النسر الذي يغبر ريشه في كل حين، وهنا تظهر قدرة أبو العلاء المعري في خلق و تصوير وابتكار ألفاظ من صنع خياله وبأسلوبه الخاص حتى يصل إلى المعنى الذي يريده وتلك الصور المعروضة خير دليل على القدرة اللغوية والمهارة الأدبية في النسج والتركيب للدلالة به على السواد الذي عرفت به هذه القبيلة ، ولعل المعري في تشبيهه للدرع بالحية لسوادها لم يكن يقصد بها إلا التساؤل على لسان رجل يسأل أمه عن درع أبيه و الأكيد أنّ هذا الحوار خصه هو مع أمه.

---

(1)– محمد بنشريفة : شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند ،ص: 61.

(2)– أبو العلاء المعري: سقط الزند ، ص: 216.

فإذن استعمال الحية الزاحفة و التدليل بها بلفظة (الأراقم) الموظفة في نصه الشعري تعادل ذلك الحافز النفسي الذي قوى الشاعر نحو المواجهة والتحدي للتساؤل عن مصير درع أبيه.

كما ضرب بأبيات يشبه فيها الدرع بجلد الحية ، يقول:

كم أرقمي من بين وائل موائل في حلّة الأرقم

كبردة الأيم العروس ابتغى بها جلاء الحيّة الأيّم[1]

كما وجدت صورة أخرى استوحاها من الزواحف وهي الحرباء كمعادل للتلون وتعدد الوجهات وعدم الثبات في رأس واحد ، فقال :

فكأنما حرباؤها عائـــم في لُجّـــة سالمة العُـــوم.

صلى إذا حارب شمس الظبي فعل مجوسي الضّحى، المسلم

لو سلكت أمُّ حبين بـــها لاستهلكت فيـــها، ولم تسْلم[2]

آخر ما استعمل أبو العلاء المعري من صور مستوحاة من الزواحف باعتبارها مصدرا من مصادر تكوين الشعر لديه هي صورة تلك الدويبة على خلقة حرباء ، عريضة الصدر عظيمة البطن وألغز بها على مسمار الدّرع ، فشبه الدرع لبياضه باللجة و كأن هذه الدرع (الحرباء) تعوم في لجة وهي سالمة، هذا الدرع قد يصطلي ويذوب بالسيوف كما تذوب الحرباء بشمس الضحى.

فهنا يأتي دورها في فهم آليات النص الشعري مثلما أقرها شكري عباد بقوله << إنّ الفنان ينبش في ركام اللغة بحثا عن جوهرها ...فعالم الفنان عالم حي ، دائم التغيير ذو أهواء لا تنقضي عجائبه ولا تؤمن بوادره>>[3].

وعلى ذلك نعاود تأملنا في النص السابق، حيث يظهر لنا تشبيه الدرع بحرباء فيذوب الدرع لمجرد ملامسته للسيوف، كما تذوب الحرباء إذا تعرضت لشمس الضحى.

---

[1]– أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص :328.

[2]– محمد الدسوقي: البنية التكوينية للصورة الفنية ، ص: 66.

[3]– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 329.

إضافة إلى تشبيه لسان الإنسان بعقرب يؤذي الناس به ، يقول:

لسانك عقرب فإذا أصابت سواك فأنت أول من تصيب

أثمت بما جنته فمن شكاها وفي لك من شكية نصيب [1]

وهنا يظهر أن المعري قصد بأبياته هذه تلك الحياة السياسية المضطربة وما ألمت من أحزاب سياسية و دينية وقد ركز على الديانة الإسلامية بذكره كلمة (المسلم) كما أشار إلى الديانة المجوسية التي تعبد الشمس، وذلك بذكره للحرباء التي تدور مع الشمس أينما دارت فكأنّها تعبدها.

ومادامت الحرباء رمز ومعادل للتلون وعدد الثبات في شيء واحد، يظهر ذلك على الناس أيضا في بيئة المعري وحالتهم الدينية والسياسية فهم يبتدعون الأحزاب التي تخدم مصالحهم ، فسرعان ما تندثر وتنجلي تلك الأحزاب؛ لانتهاء المصلحة لذا تجدهم يتلونون كالحرباء، ويغيرون وجهتهم ومعتقدهم ودينهم كما يدور الحرباء مع الشمس فهو يتبعها؛ لأنها تخدمه وما أن تدور حتى يدور معها متتبعا أثرها.

وهكذا بعد هذه الرحلة في أشعار المعري المقتبسة من ديوانيه سقط الزند و اللزوميات لوحظ أن الشاعر قد اقتبس ونهل صورا لها علاقة بالطبيعة سواء كانت صامتة متجسدة في الجماد والسماء والنبات،أو صورا مأخوذة من وحي الطبيعة المتحركة توظف فيها أسماء وهيئات وأفعال الحيوانات سواء كانت أليفة أو متحركة إلى أن وصل إلى الطيور كمصدر طبيعي وفي آخر المطاف ختمنا بصور للحشرات والزواحف التي استدل بها المعري على الاحتقار والنظرة الدونية والذل وقلة الشأن ، وعلى الزواحف كالحرباء التي اعتبرها معادلا للقوة و الموت و التلون وغيرها، وهذا كله يعكس لنا مدى اتساع ذاكرته وإلمامه بمختلف القضايا التي تخص الدنيا والحياة التي يعيش فيها مستعينا بتجارب الناس وهيئاتهم وعاداتهم وأمثالهم وتاريخهم. كما يعكس لنا بعد هذا الاطلاع الشامل القدرة العجيبة في تشكيل نصوصه الشعرية ممزوجة بألوان مختلفة من الصور تارة تخص الإنسان وأعضائه و آلاته وتارة أخرى تخص الحضارة و أخرى تخص الطبيعة الساكنة و المتحركة.

[1]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص: 74.

فإذن المعري هو أسطورة في مجال الإبداع لا تضاهيه أسطورة، قد عكس بنصوصه الشعرية ذكائه وفطنته وسرعته في التحرير والتبديل والتغيير لما يتلاءم مع غرضه وسياقه،فهل هناك إبداع كإبداع المعري؟.

جدول إحصائي يبين المصدر الطبيعي

الرقم التسلسلي	نوع الديوان	مقاطع من المصدر الطبيعي		المجموع
		الطبيعة الصامتة	الطبيعة الصائتة	
1	سقط الزند	.... توهمتنا منهن فوق جبال	... وتلقى رداهن الذرى و الكواهل	
2	اللزوميات ج2	و إذا وقرت جبال الردى جلت	... مثل الذئاب فأحرز دونهم حملك	
3	سقط الزند	دهماء راكبة ثلاثة أخيل	وليل كذئب القفر مكر وحيلة	
4	سقط الزند	.....بأعلى الجو ، ظن عليه آلا	مكلف خيله قنص الأعادي	
5	اللزوميات ج1	دنياك مشبهة السراب ، فلا تزل	كأنما العالم ضأن غدت	
6	سقط الزند	... ميثاء ، جد الغيث في إمراعها	و الليل أفتك أفعالا من النمر	
7	سقط الزند	بناري قادحين ، قد استضلا		
8	اللزوميات ج1	والناس كالنار كانوا في نشأتهم	...وكأنه غاد بلب حمار	
9	سقط الزند	كأنها كسف سماء هوى	والمرء مثل الليث يفرس دائما	
10	سقط الزند	زحل أشرف الكواكب دارا		
11	اللزوميات ج2	عز رب النجوم تسري	قد رضت نفسي حتى ذل جامحها	
12	اللزوميات ج1	لو عاشت الشمس فينا ألبست	...كالذيب يأكل عنده الغرة	

		ظلما	الذيبا
13	اللزوميات ج2	وتضؤل فيه هذي الشمس حتى	ولاة العالمين ذئاب ختل
14	اللزوميات ج1	ولو أنه عند السماك مطنب	يعيش الفتى ما عاش كالظبي لم يفد
15	اللزوميات ج1	بدر المال مثل بدر الدجى	كأن جيادهم أسراب وحش
16	سقط الزند	كأنك البدر ، والدنيا منازله	في بلدة مثل ظهر الظبي بت بها
17	اللزوميات ج1	... كهلال أول ليلة من شهره	يا نفس يا طائرا في سجن مالكه
18	سقط الزند	أمتخذي الأهلة غير زهو	كأن جفني سقطا نافر ، فزع
19	سقط الزند	... أرض السراة ، سحابها لقلاعها	منقار فرخ القطاة حين صاء
20	اللزوميات ج2	فيا سحاب المنون سلت بنا	
21	سقط الزند	... سبحان الرزايا وهي صائبة الوقع	
22	اللزوميات ج2	سحائب للسقيا وسحب من الردى	
23	اللزوميات ج1	وملك كالرياح جرت قبول	وروح الفتى أشبهت طائرا
24	اللزوميات ج1	تلقى الفتى كالريح إن أودعته	والمنايا كالأسد تفترس الأحياء
25	سقط الزند	أراك أراك الجزع أبدى لغامها	
26	سقط الزند	... بحر تلفع في غدير صاف	
27	اللزوميات ج2	خضم سيفه لج الرزايا	
28	سقط الزند	وعام أناس في بحور من الردى	
29	سقط الزند	... كالبحر ليس لمائها من طحلب	
30	اللزوميات ج1	... كالبحر تغرق في ضحضاحها	ورب امرئ كالنسر في العز والعلا

31	اللزوميات ج1	كأن خطوب الدهر بحر فمن ...	بعض الناس في الدنيا كطير
32	سقط الزند	عب سنان الرمح في مثل النهر...	لقد مسخت قلبي وفاتك طائرا
33	سقط الزند	لو خليت وذنوب الماء سائل	بالله يا دهر أذق غرابها
34	سقط الزند	غدير نقت الخرصان فيه	وذات حرابي أصر قتيرها
35	سقط الزند	...من المزن يعلي ماؤها برماد	ما صاحب السيف سقى نصله
36	سقط الزند	... من الماء الا رأسه والمسائح	كم أرقمي من بين وائل
37	سقط الزند	... تزاحم الورد على زمزم	ودبت فوقه حمر المنايا
38	سقط الزند	منظرة كاللجة العيلم	
39	اللزوميات ج1	كأنما الخير ماء كان وارده	... ومات غرابه الجون المرب
40	اللزوميات ج1	والعيش كالماء تغشاه حوائمنا	أيها المرء إنما أنت كالنملة
41	اللزوميات ج1	القلب كالماء والأهواء طافية	... ونحن حواليها الكلاب النوابح
42	سقط الزند	كفراشة العذب المنير بدت لهم	كأنما النبل في الهيجاء رجل رحب
43	سقط الزند	أو منهل طافت الحمام به	كأن جراد الرمي ، طار يريدها
44	سقط الزند	وما كان عن حوض الردى...	تخيل أبصار الدجى فمسهد
45	اللزوميات ج2	فهل تردن حوض الحياة مبادرا	
46	سقط الزند	فإن عد ضحضاء الحمام صوارم	... لهلال الحيات غير محوب
47	اللزوميات ج1	... وما أجسادنا إلا نبات	لسانك عقرب فإذا أصابت
48	اللزوميات ج1	روض المنايا على أن الدماء به	
49	سقط الزند	كجنى الكحص ، ما ترامى إليها	
المجموع	84	49 صورة	35 صورة

إذن انطلاقا مما سبق يلاحظ أن أبا العلاء المعري قد اعتمد على مصادر عدة منها الدينية التي استعملها بكثرة نتيجة تأثره بالقرآن ،فاستلهم مضامين بعض أشعاره منه مثلما لوحظ بتوظيف بعض الآيات من سورة البقرة وسورة الرحمن وسورة الفلق والإخلاص والمسد وغيرها من السور القرآنية التي تثبت استناد المعري عليها والرجوع إليها في تشكيل صوره كما عمد إلى توظيف بعض المصطلحات الدينية الخاصة بالصلاة ومختلف الأركان الأخرى ،هذا كما لم يغفل عن توظيف مختلف الأحاديث النبوية الخاصة بالجهاد والإحسان ومختلف الآداب الإسلامية ، وبالرغم من أهميته إلا أنه لا يعد المصدر الوحيد الذي يستند عليه الشاعر في بناء صوره فغيره كثير من مثل المصادر الثقافية المتمثلة في الشعر القديم كاستناده على شعر امرؤ القيس،وعبيد بن الأبرص،والنابغة الذبياني،ولبيد بن ربيعة إضافة إلى الاعتماد على أشعار جرير،والأخطل،والفرزدق،والمتنبي؛حيث كان الاقتباس في بعض الألفاظ وحتى في المعاني مثلما سبق تبيينه،إضافة إلى توظيف التاريخ القديم في شعره ،فيستثمر بذلك بعض الوقائع ،والمعارك،والأيام،التي لها معاني ودلالات؛فأكسب شعره دروسا وعبر كما كان الاقتباس من الأمثال والأساطير التي تخص التطير،والتفاؤل، والإيثار عن النفس،والبخل،والكرم وغيرها من الأمثال،وبذلك يكون الشاعر قد استعمل هذه المصادر بنسبة (86) صورة دينية وثقافية، أما عن المصادر الإنسانية فكانت عبارة عن صور في هيئة إنسان،حيث يتمثل الزمان،والدهر، والليل، والموت والحياة في شكل إنسان له يد ،ولسان وغيرها من التجسيمات في الشعر،كما جاءت أشعاره في هذا المصدر لها علاقة بالحضارة ،فكان تقوس الناقة في شكل حرف النون، والدنيا دار،والعيش عنده جسر،والعمر بناء مشيد وغيرها من الصور التي تعكس مظهرا من مظاهر الحضارة ،إضافة إلى الصور التي لها علاقة بالأدوات،كتصويره الماء في شكل سيف،والإبل عنده مجرد سفن،وصور لها علاقة بالخصال الحميدة كالكرم،والوفاء،والنبل وغيرها من العلاقات البشرية ومن الصور في هذا المجال قد وضحت بالتفصيل في فصول سابقة، فكانت مجموعها حوالي (80)صورة في مختلف الأصناف،وتبقى المصادر الطبيعية آخر مصدر اعتمده الشاعر في أشعاره،فاستعمل صورا يحاكي بها الطبيعية هذه الأخيرة الممثلة في الجدول أعلاه؛حيث تفاوت استعمالها بين (49) صورة في مجال الطبيعة الصامتة التي يحاكي فيها المعري الجماد،والنبات ،والسماء ،والأرض،والرمال،أما الطبيعة الصائتة التي كانت فيها الحيوانات والطيور مسرحا،فبذلك اعتمد على (35) صورة في هذا السياق .

الفصل الرابع

سمات الصورة الفنية لدى المعري

القسم الأول :السمات اللفظية لدى المعري

القسم الثاني :السمات المعنوية لدى المعري

القسم الأوّل : السمات اللّفظية

إنّ ديوانا المعري سقط الزند و اللزوميات بجزئيه يمثلان حقا ثروة حقيقية مليئة بأنواع من ضروب البيان و البديع وأسلوب زاخر بسمات وخصائص تميزه عن باقي الأساليب سواء من جهة اللفظ أو المعنى،وهذا ما سوف أتناوله مبينة سمات التغير في شعره المتجسدة في حسن الرصف وبلاغة التركيب و متانته والتكلف والإيغال فيه إضافة إلى السمات المعنوية ، المتمثلة في الوضوح والإبهام و التفنن في طرق التعبير الأخرى التي سوف أبينها بالتفصيل،وأوّل سمة لفظية تجسد تعبيره هو حسن الّوصف والتعليل؛حيث يمتاز أسلوب المعري بحسن الرصف، فتظهر ألفاظه متؤازرة فيما بينها ومكملة في كثير من الأحيان لبعض،و جمله جيدة محكمة دقيقة ينزلها المعري في منازلها اللائقة بها ؛ فألفاظه في الغالب مستقرة في مواضعها لا تمتاز بالقلق و التنافر ولا بالضعف و الهلهلة،لذلك كثيرا ما تجد القارئ يتبادر إلى ذهنه حين يسمع البيت الأول المقفى وخير دليل على ذلك ما جات به لزومياته بالضبط ، و منها قوله في الهمزة المضمومة مع الباء:

أولو الفضل في أوطانهم غرباء تشذ و تنأى عنهم القرباء

فما سبئوا الّراح الكميت للذة و لا كان منهم للخراد سباء

وحسب الفتى من ذلة العيش أنّه يروح بأدنى القوت وهوهباء

إذا ماخبت نار الشّبيبة ساءني ولو نُّص لي بين النجوم خباء

أرابيك في الواد الذي قد بذلته فأضعف إن أجدى لديك رجاء

و ما بعد مّر الخمس عشرة من صبا و لا بعد مّر الأربعين صباء

أجدّك لا ترضى العباءة ملبسا و لو بان ما تسديه قيل عباء

و في هذه الأرض الركود منابت فمنها علندي ساطع و تباء[1]

---

[1]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص: 35.

إلى آخر القصيدة التي نسجت على هذا المنوال طويلة ضمت حوالي (سبعة وثلاثون) بيتا منسوجة بدقة حول قافية واحدة و هي الهمزة المضمومة مع الباء،و أمثال هذه القطعة الشعرية كثيرة في ديوان اللزوميات بجزئيه،خاصة بعدما قسم أشعاره بحسب قوافيه إلى فصول،و هذا ما ينم على الدقة في الّصف والتقسيم المحكم لأبياته .

لذلك تظهر أمثال تلك المقطوعة التي أوردت سابقا كثيرة تقع أعينك عليها أينما حللت في ديوانه اللزوميات،فالدقة المفروضة والتقسيم المحكم للأبيات والقوافي يؤهل القارئ إلى التنبؤ بقوافي الأبيات الأخرى التي قيّدها الشاعر بأوزانها و بعض حروفها،وهذا ما يظهر في قوله أيضا في موقع آخر من الديوان في فصل الدال المضمومة مع اللاّم :

ألم تر أنّ الحر يكسبه الجحى طريفا و أنّ الشّر في الطبع متلّد

لقد رابني مغدى الفقير بجهله على العير ضربا ساء ما يتقلّد

يحمّله ما لا يطيق فإن ونى أحال على ذي فترة يتجلّد

تظاهر أبلاد الرزايا بظهره و كشحيه فاعذر عاجزا يتلبّد

لنا خالق لا يمتري العقل أنّه قديم فما هذا الحديث المولّد

وإن كان زند البّر لم يور طائلا فتلك زناد الغي راكبا و أصلد

وما سرنّي أني أصبت معاشرا بظلم و أني في النعم مخلّد[1]

فالقارئ لهذه الأبيات و غيرها يكاد يسبق الشاعر إلى قوافيه،وهذا دليل على دقته في التأليف و حسن رصفه للأبيات التي مهما بلغت من قوة و حسن إلاّ أنها ليست جميعها بهذا المستوى،فقد نجد أبيات ضعيفة ركيكة خاصة إذا علمنا أنّ الشاعر من بين الذين مالوا إلى الإيغال في التكلف، بالرغم من أنّ التصنع ميزته إلاّ أنه في كثير من الأحيان يفقد ذلك البريق في التأليف الجيد ويكسبه إيغالا في الألفاظ و تفردا بدل من الحسن والجمال،والأمثلة كثيرة حول تقسيمات المعري إلى أشعاره

[1]– المصدر السابق: ص: 207.

بحسب الفصول و القوافي والأوزان ، و لو تتبعناها جميعا لما اتسع لنا المقام لذكر أفكار أخرى تخص أسلوبه وسمات التعبير التي ميزته عن غيره.

لذلك تم الاكتفاء بهاتين المقطوعتين كدليل على الدقة و التنظيم و الرصف الجيد الذي يحدوه من أثر التهذيب الحسن و البراعة في التعليل بعلة أدبية طريفة تناسب غرضه المنشود الذي يقصده وهذا ما ظهر في قوله مثلا :

وما كُلفة البدر المنير قديمة و لكنها في وجهة أثُر اللّدم[1]

ثانيا – المتانة في التركيب :

إضافة إلى المتانة و الجزالة في التراكيب و هذا من أثر التنقيح و التهذيب في الأسلوب،و من ثم في القصائد عموما ، فبلاغة التركيب إذن هي الصفة الغالبة في أسلوب ديواني المعري خاصة اللزوميات بجزئيه.

وشواهد ذلك كثيرة و هذا ما أثبته سابقا في نماذج تخص جل الصور البيانية و البديعية و الحقيقية و الصور الحسية وغيرها من إبداعات المعري.

ولكن ما تجدر الإشارة إليه أنّ المعري لم يسلم كغيره من الوقوع في اضطراب التركيب وركاكة التعبير، و هذا ما يلاحظ في قوله:

افطر وصم أوصم و أفطر خائفا صوم المنية ماله إفطار[2]

فهنا ركاكة في تقديم المفعولين على الفاعل و ترديده لفعل الصيام والإفطار بدون مبرر كاف أكسب البيت ضعفا، و قوله أيضا في باب التجنيس:

خضبت بياضا بالصبيب صبابة بيضاء عدّتك البنان المخضب[3]

---

(1) – أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :218.

(2) – أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص: 304.

(3)– المصدر نفسه : ص :82 .

فالجناس الواقع بين (بياضا و بيضاء) و(خضبت و المخضب) و (الصبيب و صبابة) جعلت تعبيره ركيكا و عباراته مزعزعة و ضعيفة و تكراره إلى كلمات بعينها بقصد التجنيس قد يكسب العبارة ركاكة ووحشة مثلما فعل ؛ حين كرر لفظة (ابن الحارث)،فقال:

أكرهتَ أن يُدعى و ليُلك حارثا يا حارث ابن الحارث ابن الحارث[1]

فالصحيح أن يقول يا حارث (فيه كله) ،فتكراره هنا غير مأنوس ، أكسب البيت وحشة وركاكة و ضعفا في التأليف.

ثالثا –كثرة التكلف:

ما نلاحظه أنّ أبا العلاء المعري استطاع بفضل مقدرته اللغوية و حنكته و أسلوبه المميز أن يخرج من دائرة القدماء في قرض الشعر، فحرر نفسه من أغراضهم التي كانوا ينتهجونها كالمدح والفخر و الهجاء و الرثاء و الوصف و الغزل و غيرها من الأغراض المبتدعة في ذلك الوقت ، فخرج بذلك من الوقوف على الأطلال ووصف الرحلة و البناء على المحبوبة .

فهنا يكون المعري قد خطى خطوة نحو الأسلوب المنّمق فخرج بذلك عما توارثوه منذ القديم في قصائدهم و لكنه وقع في فخ التكلف و التصنع ، فقيد نفسه بقوافي وأوزان لم تعرف قبله قط .

فبرغم دقتها إلاّ أنها عقدت تركيبه و شوشت معانيه و المعري في ذلك لم يخرج عن نزعة عصره الذي اشتهرت به الصناعة و راجت في الأدب بنثره و شعره حتى كانت موضوعا للمبارزة بين الشعراء.

فالتكلف و التصنع في اللفظ و ابتكار غريبه سمة ميزت ديوانيه ، لذلك وجدناه يميل فيما بعد إلى شرح ذلك الشعر و تفسيره <<فأملى على مريديه فيما أملى من شروح كتنويره لما في ديوانه سقط

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص: 168.

الزنـد مـن إغـراب و شـرحه لمواضـع مـن حماسـة أبي تمـام نـاقلا بعـض الشـروح عـن ابـن جـني والمرزوقي>>[1]، و غيره كثير.

وقد تكلف المعري في تأليفاته ثلاث مرات، الأولى تظهر في نظمه بحسب حروف المعجم عن آخرها،فوصل بها إلى مائة و ثلاثة عشر فصلا ،فبدأ بحرف الهمزة مؤسسا قصائده بها،من مثل قوله :

تكرم أوصال الفتى بعد موته و هن إذا طال الزمان هباء

وأرواحنا كالراح إن طال حبسها فلا بد يوما أن تكون سباء

يعيـرنا لفظ المعرة أنّـــها من العّر قوم في العلا غرباء

فإن إباء الليث ماحـلّ أنفـــه بأن محلات الليوث أبـــاء[2]

إلى حرف الياء المضمومة و المفتوحة و المشددة ،من مثل قوله:

لعمري لقد بعنا الفناء نفوسنا بلا عوضٍ عند البياع و لا ثنيا

ولو بين دنيانا الدّنية خيـرت وبين سواها ما أرادت سوى الدنيا[3]

والثانية مجيء رويه بالحركات الثلاث و بالسكون بعد ذلك، وهو مما لم يسبق إليه و لم يجاره أحد فيه،ومن ذلك قوله الذي يظهر فيه ملتزما بحرف السين مع الباء و الياء والنون الساكنة ، ويظهر ذلك في قوله :

هل غدتِ النّحل إلى نورها ويحك يا نحل لمن تكسبين

يجيء مشتار بآلاتـــــ فيلسب الأريَ و لا تلبسين

أتحسبين العمر علما به لا بل تعيشين و لا تَحْسُبين

---

(1) – الطاهر حمروني: منهج أبي علي المرزوقي في شرح الشعر، المؤسسة الوطنية للكتاب ، (د، ط، د ، ت) ، ص: 236.

(2) – أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص: 37.

(3) – أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص:450.

هل لك بالآباء من خيرة كم والد في زمـــن تنسبين

أتحسبين الدّهر ذا غفلة هيهات ما الأمر كما تحسبين[1]

و يقول أيضا ملتزما بثلاثة حروف مع الروي :

إذا ما عراكم حادثُ فتحدثـــوا فإنّ حديث القوم ينسي المصائبا

وحيدوا عن الأشياء ضيفة غيّها فلم تجعل اللّذات إلاّ نصائبـــا

ومازالت الأيّام و هي غوافـــل تُسددّ سهما للمنية صائبـــــا[2]

فهنا نراه تكلف ملزما نفسه فضلا عن الروي وهو الباء حرف الهمزة و ألف التأسيس و الصاد وهذه الحروف قد إلتزمها أبو العلاء المعري في كل قصيدة لا في أبيات مقتطفة أو مختارة بعينها.

وثالث كلفة لزمها المعري هو لزوم حرف مع حرف الروي في جميع القصائد أو المقطوعات ،من ذلك قوله ملتزما حرفا مضعفا.

لقد رجّت الله نفوسُ لكشفه أموراً فأعطى أنفسا ما ترجّتِ

فان تنجك الخيل الُمعدّة للوغى فعن قدرٍ يأتي من الله نجّتِ

وشتان قتلي في التراب شجاجها ومقتولةً بين المجالس شُجّت[3]

فهنا يظهر الحرف المضعف وهو الجيم مع حرف الروي و كذلك نراه يلتزم حرفا مع الروي المشدد وهو الواو يقول :

لنا خفضُ المحلة و ا لدنايـــا و لله المكلوم و العُلـــوُ

إذا كان الهوى في النّفس طبعا فليس بغير ميتتها سُلُـــوّ

---

(1)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص: 410 ،411.

(2)- أبو العلاء المعري :اللزوميات ، ج1 ، ص: 38.

(3)- أبو العلاء المعري : اللزوميات، ج2 ، ص: 149.

و إن أهلت ديار من أ نـــــاس فسوف نميّـسها منهم خُلُو[1]

فإذن كلفته واضحة في التزامه بأشكال شتى من النظم و على جميع الحروف ووفق الحركات الثلاث و السكون إضافة إلى التزامه لحرف مع حرف الروي .

كل هذه الالتزامات هي قيوقيّد المعري بها نفسه دون سواه وهذا ما أشار إليه الشاعر بصورة غير مباشرة ؛ حيث قال :

كثير أن في حرفي أهبتُ له في الشتاء يلزم حرفًا ليس يلتزم[2]

و المرء يرفع أفعالا فتخفضه حتى إذا مات أضحى وهو متجزم

ولكن بالرغم من التزامه للقوافي و الروي و كثرة قيوده إلا أن معانيه لم تفسد و تتأثر وتراكيبه لم تتغير وتتبدل،فالقوافي مسبوكة سبكا جيدا حتى لا تحسسك بأنّها مقحمة في غير أماكنها.

وهذا دليل على براعة الشاعر و مقدرته اللّغوية في صياغة ألفاظ مقطوعاته و ذكائه وسعة خياله في استعمالها.

رابعا – البنية الإيقاعية في شعر أبي العلاء المعري:

يعد الإيقاع الموسيقي من أهم العناصر التي يرتكز عليها الشعر لارتباطه بالغناء ارتباطا وثيقا ويخضع خضوعا مباشرا لحالته النفسية التي يصدر عنها،ونستطيع تعريف الإيقاع لغة و اصطلاحا؛ فجاء لغة في لسان العرب لابن منظور في مادة وقع،قوله:<< التوقيع أي رمي قريب لا تباعده وكأنك تريد أن توقعه على شيء يعني الإصابة مثل إصابة المطر بعض الأرض و إخطاؤه بعض،و الإيقاع من إيقاع اللحن و الغناء و هو أن يوقع الألحان و يبينها>>[3].

---

[1]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص: 445.

[2] – المصدر نفسه:ص:283.

[3] – ابن منظور : لسان العرب ،دار صادر ، بيروت ، مادة (وقع).

كما ورد تعريفه لغة في المنجد في اللغة المعاصرة بأنّه :<< يعني تتابع أصوات أو حركات بانتظام و توازن>>[1].

أمّا اصطلاحا فنجد تعاريفه تتعدد عند كثير من النقاد منهم ابن طباطبا العلوي ، فهو أوّل من استعمله في كتابه "عيار الشعر" يقول عنه :<< و الشعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه و ما يرد عليه من حسن تركيبه و اعتدال أجزائه ، فإذا اجتمع للفهم مع صحة وزن الشعر و صحة المعنى وعذوبة اللّفظ فصفا مسموعة و معقولة من الكدر ثم قبوله واشتماله عليه ،و إن نقص جزء من أجزائه التي يعمل بها و هي: اعتدال الوزن ،و صواب المعنى وحسن الألفاظوكان إنكار الفهم إيّاه على قدر نقصان أجزائه>>[2].

و قد تعرض المحدثين و المعاصرين لمسألة الإيقاع ،فمثلا الدكتورة " خالدة سعيدة" يتجاوز عندها الإيقاع مجرد الوزن و القافية و تكرار الأصوات والمقاطع الصّوتية ، فالإيقاع أعم منهم فهو يشتملهم و يضمهم [3].

أمّا مفهومه عند " صلاح فضل" فينطلق فيه من المستوى الخارجي للأصوات فيقول: <<أما البنية الإيقاعية فهي أوّل المظاهر المادية المحسوسة للنّسج الشّعري الصوتي و تعلقاته الدلالية >>[4] ومنهم من تعرض له و لكن بصيغة مغايرة تماما مثلما فعل " إبراهيم أنيس" و " شكري عياد" حينما استعملا في مكان الإيقاع موسيقى الشّعر. [5]

و يدخل ضمن مصطلح الموسيقى العروضية أو الموسيقى الداخلية التي تكون إضافة إلى الخيال الصورة الأدبية ، فتكون العبارة الموسيقية بها ذو تأثير نفسي عميق لدى كل متذوق لهذا الفن

---

[1] – صبحي حموي : المنجد في اللغة المعاصرة ، دار المشرق ، ط1،2001 ، بيروت ،ص: 115.

[2]– عبد الرحمن تبرماسين : العروض و إيقاع الشعر العربي ، دار الفجر للنشر و التوزيع ،ط1،2003،ص :80 ،84.

[3]– ينظر المرجع نفسه : ص :84 ،85.

[4]– صلاح فضل : الأساليب الشعرية المعاصرة ، دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع ، (د، ط) ، 1998، ص :28.

[5]– ينظر عدنان قاسم : الأصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر، دراسة نقدية في أصالة الشعر، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان ،ط1،1980، ص:135.

القولي أو السمعي خاصة و أنه من خواص العبارة الموسيقية:<< جزالة الكلمة، وحسن جرسها، سلامتها من العيوب البلاغية كالتعقيد و التنافر، مع دقة في النظم و اختيار للفظ ، وحسن مطابقته للمعنى>> [1].

فإذن المصطلحات متنوعة وهي كثيرة و لكن المضمون – تقريبا – واحد و الأثر واحد في النفوس،وللإيقاع عناصر داخلية و خارجية،فالعناصر الداخلية لها دور في إحداث الإيقاع <<و هي كل ما يتعلق بالنغم الداخلي المنبعث من القصيدة >>[2].

و قد عنى " رجاء عيد<<قدرة الفنان الشاعر على إقامة بناء موسيقي يتكّون من نفسية تعلو أو تهبط ، تقسو أو ترف أو تتخذ لتكون في مجموعها لحنا منسقا أقرب إلى الإطار السمفوني>>[3].

كما يطلق عليها " السعيد الورقي" اسم الموسيقى التعبيرية و يرى بأنّها :<<ناتجة من كيفية التعبير و مرتبطة بالانفعالات السائدة ومهيأة لها في كثير من الأحيان ، بما تعطيه من إيحاءات انفعالية لنمو التجربة الفنية >>[4].

وتتمثل هذه العناصر الداخلية فيما يلي: أسلوب التكرار سواء كان تكرار الحرف أو الكلمة أو العبارة أو حتى المقطع إن وجد ، و طبيعة الكلمات المستعملة ،و علامات الوقف و الترقيم ، بالإضافة إلى الأصوات وهو ما سنأتي إلى شرحه فيما بعد.

فالوزن إذن في << الشعر هو ما يسمى بالبحور و نظام المقاطع و تتابعها و ترتيبها هو ما يسمى بالتفاعيل>>[5].

أّما القافية فشأنها عظيم في الشعر، فهي تزيد في موسيقاه ومن ثم تزيد في المتعة منه.

---

[1]– صلاح الدين عبد التواب : الصورة الأدبية في القرآن الكريم ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، ط1، 1995،ص: 74.

[2]– خليل مرسي: الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر، مطبعة الجمهور ، ط1،(د، ت) ، دمشق ، ص :93.

[3]– رجاء عيد: التجديد الموسيقي في الشعر العربي، دار النهضة العربية ، 1984 ، بيروت ، ص :10.

[4]– السعيد الورقي : لغة الشعر العربي الحديث ، دار النهضة العربية ، (د، ط) ، 1984 ، بيروت ، لبنان ، ص :160

[5]– أحمد أمين: النقد الأدبي ، تقديم محمد الطاهر مدور الأنيس ، تحت إشراف محمد بلقايد ،وزارة الثقافة، (د، ط)، 2007، ص: 178.

كما أنها تلعب دورا أساسيا في المحافظة على وحدة البيت بورودها في آخر البيت كعلامة على انتهاءه ،لذلك حظيت باهتمام النقاد فأولوا لها عناية خاصة و استفاضوا في الحديث عن لوازم القافية أحرفا و حركات سواء أكانت مما يلزم بعد الروي أو مما يلتزم قبله وتحدثوا عن لزوم ما لا يلزم و عما يصلح أن يكون رويا وما لا يصلح و عن أنواع القافية حسب حركاتها و حتى عيوبها فتحولت القافية إلى علم قائم بذاته كيف لا و هي عنصرا من العناصر التي عملت على تحطيم مسألة التوازي بين الصوت و المعنى،يقول " جون كوهن":<< هناك تشابه صوتي حيث لا وجود لتشابه معنوي : على مداليل تعرض باعتبارها مختلفة تجيب دوال تدرك كما لو كانت متشابهة >> [1].

و إذا أسقطناها على شعر المعري لوجدنا أنه << يدخل ضمنه كل ما يوفر الجانب الصوتي من وزن و تكرار ومحسنات بديعية>>[2]. .

ويقول "ابن رشيق القيرواني" عن الوزن :<<هو أعظم أركان حد الشعر وأولاها بها خصوصية، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة >>[3] أما ثاني عنصر خارجي هو القافية بنوعيها المطلقة و المقيدة، وهذا ما سوف أظهره لاحقا

إذن بعد هذه النقلة في مجال الإيقاع و التي سوف أتتبعها بالتفصيل لاكتشافها أنه يصادفني أول العناصر الخارجية للإيقاع وهما الوزن و القافية ، وذلك من خلال الطباق والمقابلة فلهما الدور البارز في تعميق المعنى و تقويته و توضيحه ،كما يساعد على إضفاء إيقاع خاص على القصيدة ، وهذا ما سأحاول معرفته من خلال شعر أبي العلاء المعري .

---

[1] – عبد الله راجع : القصيدة المغربية المعاصرة بنية الشهادة و الاستشهاد ، دار قرطبة ، منشورات عيون ، ط1 ، الدار البيضاء ، ج1، ص: 136.

[2] – عبد الرحمن تبرماسين و عائشة جباري: البنية الإيقاعية في المزدوجة،دار الكتب العلمية ، أبحاث في اللغة و الأدب الجزائري ، مجلة المخبر، ع2، 2005، بسكرة ، ص: 243 .

[3] – ابن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية ، ط1 ،2001، بيروت ،ج1 ، ص:121.

1- الوزن و القافية:

اتكأ أبو العلاء على الطباق في تشكيلاته الموسيقية إذ يعدّ ظاهرة إيقاعية ، فقال:

الحمد و الكير ضدّان اتفاقهما مثل اتفاق فتاء السن و الكبـــر

يجني تزايد هذا من تناقض ذا و اللّيل إن طال غال اليوم بالقصر[1]

فعلاوة عن الإيقاع الخفي الناتج عن تقابل الأضداد الواردة في البيت الأول و البيت الثاني، تتضافر معه عناصر موسيقية أخرى تكاملت فيما بينها ، لتساهم في تكوين بنية موسيقية، من بين هذه العناصر الوزن- مثلما تحدثنا سالفا- ونلاحظ أنّ هذه الطباقات جاءت على اتفاق فيه و ذلك مثل (الحمد ، الكبر) على وزن فَعْل و(تزايد، تناقص) جاءتا على وزن تفاعل و (طال، قصر) على وزن فعل أيضا.

وتفعيلة هذين البيتين هي تفعيلة بحر البسيط ،و هي كالتالي:

الحمد و الكبرضدان اتفاقهما مثل اتفاق فتاء السن و الكبر

0/// 0//0/0/ 0/// 0//0/0/ 0///0//0/0/0//0/ 0//0/0/

مستفعلن/فاعلن/مستفعلن/فعلن مستفعلن/ فعلن/مستفعلن/فعلن

يجني تزايد هذا من تناقض ذا والليل إن طال غال اليوم بالقصر

0/// 0//0/0/ 0/// 0//0/0/ 0/// 0//0/ 0/ 0//0/ 0//0/0/

وبحر البسيط هو من حيث الانتشار أقل من بحر الطويل والكامل الذي وجد بكثرة وتفعيلات بحر البسيط هي مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن،وعندما تقسم هذا الوزن إلى مقاطع تجده يتكّون من ثمانية و عشرون مقطعا طويلا و قصيرا في البيت الواحد.

---

[1]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص :45.

وموزعة بالتساوي بين الصّدر والعجز،بحيث يحتوي كل واحد منهما على عشرة مقاطع طويلة وأربع مقاطع قصيرة ، وذلك إذا اعتبرنا أنّ المقطع القصير يتكّون من حركة {|}والمقطع الطويل يتكّون من حركة و سكون {0|}،وانطلاقا من هذا التقسيم يتبيّن بأنّ البحر يمتاز بالثقل والبطء على اعتبار غلبة المقاطع الطويلة على المقاطع الصغيرة.

و قد ترددت نغمة موسيقية مع القافية التي كانت في الحقيقة تنتهي بسكونين تفصل بينهما حركتين و هي القافية المتداركة و لكن للضرورة الشعرية تحولت تفعيلة (فاعلن) في البحر البسيط إلى فعلن ، أي هي تفعيلة عبارة عن مقطعين قصيرين و مقطع طويل و لذلك نتيجة هذا التغير أصبحت القافية متراكبة و هي القافية المنتهية بسكونين مفصولين بثلاث حركات{|||0} .

كما نلمح نوعا آخر من الطباق وهو الذي يقول فيه :

يمسي و يصبح كوزنا من فضة ملأت فم الصادي كسور دراهم[1]

نلاحظ أنّ وجهي التطابق وهما(يمسي،يصبح) جاءا على وزن واحد وهو (فُعل) والقافية (راهم) ،و الروي هو حرف الميم وما قبله يعدّ دخيلا [*] وهو (ه) ، أما (الألف) فهي ألف تأسيس.

و يقول أيضا :

تعبٌ ما نحن فيه وهل يجلب الإيحاش إيناسا[2]

يتبين أن لفظتي (إيحاش، إيناسا) لهما وزن واحد ، هما على وزن (إفعال) و الروي هو (السين) و قبل الروي يوجد الردف المتمثل في (الألف) و قد يكون (واوا) أو (ياءا).

و للمقابلة أيضا قيمة موسيقية إلى جانب الطباق هذا ما نشاهدّه نا نقرأ ما يلي:

---

(1)- المصدر السابق: ص:465.

(*) - الدخيل: حرف واقع بين التأسيس و حرف الروي ، عبد الرحمن تبر ماسين : العروض و إيقاع الشعر العربي،ص: 39 ،41.

(2)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص :465.

فليت شباب قوم كان شْيا و ليت صباهم كان اكتهالا[1]

فيبدوا واضحا توافق و تساوي الكلمة منها مع ضدّها في الإيقاع و الترتيب،وهذا ما يظهر في (شباب ،شيبا) و (صباهم ، اكتهالا)،و يقول أيضا :

فأوصيكم إما قبيحا فجانبوا وإما جميلا من فعال فلا تقلوا

وصاحب نكربات يغدر بيننا و فاعل المعروف يلام و يعذل[2]

نلاحظ هنا انسجام وتوافق في الأوزان بين (قبيحا ،جميلا) و (جانبوا ، تقبلوا) و (صاحب نكر، فاعل معروف) و (يعذر، يعذل).

فهذا التوافق في الأوزان أضفى إيقاعا مميزا على البيت مما أكسبه رونقا و جمالا والبيت الأخير من بحر الطويل وهو الأول من حيث التنوع في ديواني المعري و تفعيلات الطويل الأصلية هي فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن و لكي نتبيّن حركاته يتم تقطيعه كالآتي:

فأوصيكموأمما قبيحن فجانبوا و أمما جميلن من فعالن فلا تقلوا

0//0// 0/0// 0/0/0// 0/0// 0/0/0// 0/0// 0/0/0// 0/0//

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

وعندما يقسم هذا الوزن إلى مقاطع يلاحظ يتكّون من(28) مقطعا طويلا و قصيرا فالمقاطع الطويلة أكثر من المقاطع الصغيرة ؛لأنّها تستحوذ على عشرين مقطعا طويلا والثمانية المتبقية هي مقاطع قصيرة، و القافية هنا مقيدة حركتها السكون ورويها النون.

---

[1]- أبو العلاء المعري: سقط الزند ، ص:29.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص :614.

2- التكـرار:

ومن الظواهر الصوتية البارزة في شعر أبي العلاء المعري " التكرار" الذي << يمثل بعدا فنيا ونفسيا و شعوريا و فكريا>>[1].

فهو ظاهرة إيقاعية تعمل على تقوية النغم وتأكيده،وقد يكون تكرار الحروف أو الكلمات (الألفاظ)،أو العبارات ومن الشواهد التي يمكن تقديمها كمثال على التكرار لبعض الحروف والأصوات الذي ينعكس جرسها على النّص الشعري، فتؤدي وظيفة إيقاعية تتناسب مع المعنى قوله:

أناس كقوم ذاهبين وجوههم و لكنهم في باطن الأمر نسناس

جزى اللّه عني مؤنسي بصدوده جميلا ففي الإيحاش ما هو إيناس

تخافين شيطانا من الجن ماردا و عندك شيطان من الإنس خناس [2]

فالملاحظ في هذه المقطوعة تكرار حرف السّين،سواء الذي يتكرر عن طريق حرف الروي، أو الذي يتخلل الأبيات بتكراره مرة فما فوق في كل بيت مما أدى إلى تجاوب الأحرف المكررة داخل الأبيات ممثلة في حرف السين مع حرف الروي ، فشكلت بناءا هندسيا منظما هيمن على موسيقى هذا المقطع، و انطلاقا من هذا القول يتبيّن أنّ حرف السّين تكرر (7) مرات في هذه المقطوعة ، ففي البيت الأول نجد إضافة إلى حرف السين كروي حرفين آخرين،أما في البيت الثاني فتكرر فيه حرف السّين مرتين و كذا بنفس الدرجة في البيت الثالث؛ أي تكرر مرتين.

كما لفت الانتباه إلى ظاهرة إيقاعية أخرى و هي التنوين بالضمة في (أناس) و التنوين بالفتحة في كل من (جميلا ،شيطانا، ماردا) والتنوين بالكسرة في (قوم)،فقد أضفى بدوره نغما وجرسا خاصا على الأبيات.

كما كرّر حرف (العين) في قوله أيضا:

---

[1] – الشوري مصطفى عبد الشافي: شعر الرثاء في العصر الجاهلي، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان ،(د، ط ، د،ت)، ص: 152.

[2] – أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص :484.

كم بلدة فارقتها و معـــــاشر يذرون ، من أسف علّي دموعا

وإذا أضاعتني الخطوب، فلن أرى لـــوداد إخوان الصفاء مضيعا

خاللت توديع الأصادق للنّــوى فمتى أودع خلــي التوديـــعا؟[1].

نلاحـظ مـن خـلال هـذه الأبيـات أنّ حـرف العـين مكـرر ثمـاني مرات،ففـي الشـطر الأوّل تكـرر(3) مـرات و تظهـر في كـل مـن (معاشـر، علـي، دموعـا) و في الشـطر الثـاني مـرتين في حـرف الروي (مضيعا) و أيضا في الشطر الأوّل من البيت الثالث و هي (أضاعتني).

كمـا يلحـظ في البيـت الثالـث تكـرار حـرف العـين (3) مـرات في كـل مـن(توديـع ، أودع أضـاعتني) إضـافة إلى كثـرة الشـدة و الـتي تظهـر في الحـروف التاليـة (نّ، دّ ،لّ، تّ) فهـي تنسـجم انسجاما مع غربته عن أهله و أصدقائه ، فتزيد بذلك المعنى تركيزا و تأكيدا.

ومن الأبيات التي اعتمد فيها الشاعر على تكرار بعض الحروف قوله :

طربن لضوء البارق المتعالـي ببغدادا ، وهنا ما لهن ومالي

سمت نحوه الأبصار حتى كأنّها بناريه من هنا و ثّم وصالي

إذا طال عنها سرها لو رؤوسها تمدّ إليه في رؤوس عوال[2]

ما يلاحظ في هذه الأبيات هو تميز كل بيت بخصيصة إيقاعية بارزة تتماشى والمعنى ، فالبيت الأول على سبيل المثال يشكل فيه تكرار حرف (الباء) ميزة خاصةإذ أنّـه تكرر (أربع مرات) ، عندما ينتقل إلى البيت الثاني يلاحظ حرف (الهاء) مكرر(4 مرات) وهو حرف هوائي،فبالرغم من انتشاره في كامل المقطوعة إلاّ أنّه انتشر أكثر في هذا البيت وقد اعتمد فيه على المد (ها) الذي يدل على تأوهه وتوجعه لفقد وطنه والبعد عنه والشطر الثالث يلحظ تكرار (حرف السين) ثلاث مرات وهو حرف مهموس.

---

[1] – أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 309.

[2] – المصدر نفسه:ص :237.

كما توجد مقطوعة أخرى يظهر فيها الشاعر حنينه إلى وطنه متلهفا إلى العودة للقاء أهله ووطنه،يقول :

تمنيتُ أنّ الخمر حلت لنشوة تجهلني كيف طمأنت بي لحال

فأذهل أني بالعراق على شفى زدي الأماني ، لا أنسى و لا مال

مقل من الأهلين سير وسيرة كفى حزنا بين مشت و إقــلال [1]

ففي البيت الأّول تكرار حرف (التاء) ست مرات،والبيت الثاني (الألف) تكررت أربع مرات،و البيت الثالث تكرر حرف (اللاّم) أربع مرات كذلك،و البيت الرابع تكررت (الياء) أربع مرات.

كما يلاحظ كثرة الحروف المهموسة و هي في الأبيات كالتالي (أ، ت ،س، ش، ق ك ،هـ، ط ،ح ،خ) و المهموسات تصلح للتعبير عما لا يرى بالعين المجردة،و يقول في قصيدة أخرى منوعا فيها للحروف أيضا :

ألا إنّما الدنيا نحوس لأهــلها فما في زمان أنت فيه سعود

يوصى الفتى عند الحمام كأنـّه يمّر فيقضي حاجــة و يعود

وما يئست من رجعة نفس ظاغن مضت ولها عند القضاء وعود

تسير بنا الأيام و هي حثيثــة و نحن قيام فوقــها وقعود [2]

فمن خلال هذه المقطوعة يتبيّن أنّ الحروف كانت فيها متنوعة و كل حرف تكرر أربع أو خمس مرات في البيت،و من هذه الحروف يتبين حرف (النون) في البيت الأّول تكرر (5) مرات، وفي البيت الثاني تكرر حرف (الياء) أربع مرات ،أما في البيت الثالث فتكرر حرف (العين) كذلك (4) مرات و البيت الأخير تكرر فيه حرف (القاف) (3) مرات،هذا عن بعض التكرارات للأصوات التي

---

[1] – المصدر السابق: ص :247 ،248.

[2]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص :211 ،212.

وجدت في شعر أبي العلاء المعري ،أما عن التكرارات التي تخص بعض الأدوات والحروف فتجد مثلا تكرار حروف العطف في أول كل بيت من المقطوعة - على الأغلب – على نحو ما يلاحظ في قوله:

و إذا تساوى في القبيح فعالنا فمن التقّي و أينـــا الكفّار؟

و الناس بين إقامة و تحـمـل و كأنّمـــا أيّـامهم أسفـــــار

و الحتف أنصف بينهم لم تمتنع منه ا لرئال ، و لا نجا الأغفار

و الذنب ، ما غفرانه بتصنّـع منّـا ، ولكن ربّـنـــا الغفـــار [1]

إنّ تكرار حرف العطف (و) في أوّل الأبيات السّابقة بشكل متتال و منسق يؤدي وظيفة نفسية بحتة ؛حيث كان بمثابة الزفرة الطويلة الأمد التي تخرج من صدر أبي العلاء لتكون المتنفس الوحيد المعّبر عن الحقيقة التي ينكرها أويتناساها بعض النّاس،وهي أنّ الموت آت لا محالة، وهو الحق و المنصف للناس أجمعين ، فالناس في هذه الحقيقة بين إقامة و سفر ، فمنهم من قضى حتفه ، ومنهم من ينتظر.

كما راح يكرر (آداة النداء) في البيت الواحد على نحو ما نرى في قوله:

فيا طائر ائمنّي، و يا ظبّي لا تخف شذايَ، فما بيني و بينكما فرق [2]

حيثاستعمل أبو العلاء المعري أداة النّـداء للبعيد (غير العاقل) و قد استخدمت للقريب (العاقل) ؛ ليؤكد حقيقة اندماجه مع حيوانات الأرض من طائر و ظبي كما تخلّل أسلوب النّهي (لا تخف) في محاولة منه لتبيين أنّ الحيوان يفهمه و يفهم قصده من وراء ندائه هذا، و أنّ المعري عطوف على تلك الحيوانات مشفق عليها ، لذلك فهو يطلب منها عدم الخوف من جبروته و قوته، لأنه لا فرق بينهما ، وكأنّه أراد في ذلك البيت إعلان حق الحياة للحيوان و الإنسان على حدّ سواء.

---

[1]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج1، ص: 312 ،313.

[2]– المصدر نفسه:ص :123.

كما نجد تكراره لـ (كم الخبرية) <<التي تفيد الإخبار أو الإفصاح عن حادث مثير يصحي حزنه أو ندما أو سخرية موجعة أو التعليق عن حالة حاضرة تؤلمه>> [1].

على نحو ما نرى في قوله:

كم صرف المولود ، عن والد خيرا ، وكم أم له لم يُمْن [2]

يبدوا لتكرار (كم) دور هام في تأكيد المعنى الذي لطالما صرح به أمام الجميع، وهو أنّ الآباء يتعبون كثيرا عن أبناءهم و لكنهم في نهاية تعبهم لا ينعمون إلاّ بالصدّ و الهجوم من قبل أولادهم الذين تذمروا عليهم في هذه الحياة، و كأنّه بهذا التكرار يريد التأكيد على بر الوالدين و طاعتهم،لا الصرف و الصدّ عنهم.

و لم يكتف المعري بمثل هذا التكرار في الأدوات و الحروف ؛بل راح يكرر في الألفاظ على نحو ما نرى في قوله :

أَدراك دهْرك عن تقاك بجهده فدراك ، من قبل الفوات دراك [3]

فتكرار لفظة (دراك) واضح و هور هام بالتأكيد جاء لتأكيد المعنى الذي يعكس عمق فكره وفلسفته في الحياة، و هي أنّ الدنيا بملذاتها ستبعد كل إنسان عن إيمانهمادام إيمانه ناقصا لذلك فإنّه يحذر بتكرار تلك اللّفظة ليؤكد مدى خطورة الموقف،مستخدما المجانسة لإضفاء إيقاع موسيقى على ذلك البيت،و بالإضافة إلى التكرار في الألفاظ و الأدوات و الحروف، نجده قد كرّر في الأفكار والمعاني على نحو ما نرى في قوله:

بني آدم بئس المعاشر أنتم، وما فيكم واف لمقت ، و حُبِّ [4]

و قوله:

---

[1]– نازك الملائكة : قضايا الشعر المعاصر ، دار العلم للملايين،(د، ط، د، ت) ، بيروت ، ص :287.

[2]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص :412.

[3]– المصدر نفسه: ص : 169.

[4] – أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج1، ص: 100.

فاحذر من الإنس أدناهم و أبعدهم و إن لقوك بتبجيل و تْرحاب [1]

و قوله :

ما أغدَر الإنس كم خشفٍ تربّيهم فغادروه أكيلاً بعد تربيب[2]

وهذا غيض من فيض، فالتكرار في تلك الدّلالات يؤكد فكرة المعري التي استقاها من تجاربه و خبراته في تلك الحياة و هي أنّ الفساد عّم البشرية أجمعين، و أنّ الإنس أصبحواأكثر فسادا وفُجرا لذلك أبى اعتزالهم و الابتعاد عنهم – بقدر الإمكان– إلاّ أنّ عزلته تلك كانت أشبه بأمنية ضائعة إذ أصبح مودا بل معلما و صرحا علميا و أدبيا لعامة النّاس وخاصتهم .

كما راح يكّرر الصور و التشبيهات، مثل تكرار صور الليل المحّملة بالأعباء والرزايا على نحو قوله:

ليل بلا نور جنّ بمهمه ، حبس الأدلة ، ليس فيه منار [3]

ففي مثل هذه الصورة المكررة في معظم لزومياته تأكيد على عمق الفاجعة التّي أصابته مذ كان صغيرا ، تلك الفاجعة التي أطفأت نور عينيه، وما خلّفته من ألم و حزن على نفسية أبي العلاء و فكره.

فالظلام أسدل ستاره و لم يعد يرى إلاّ ما يراه عقله، وراح يؤكد تعويضه عن البصر عن طريق إتيانه بتراكيب و عبارات تنحو منحى تعويضيا ، يؤكد فيه على أهمية العقل على نحو ما نرى في قوله:

سأتبُع من يدعو إلى الخير ، جاهدا و أرحل عنها ما إمامي سوى عقل [4]

لذلك عني أبو العلاء بتراكيب الإسقاطُ مسفها ومُحطا من شأن أمته التي أعطاها الله النّور وميزها العقل و الحلم .

---

[1] – أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص :110.

[2] – المصدر نفسه : ص:112 .

[3] – المصدر نفسه : ص :316.

[4]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص :224.

على نحو ما نرى في قوله :

يا أمّة من سفاه لا حلوم لها ما أنتِ إلاّ كضأن غاب راعيها

تدعي لخير فلا تصغي له أذنا فما ينادي لغير الشر داعيها[1]

و لعل هذا ما أوضحته الدكتورة " رسمية السّقطي"؛حين قالت :<<إنّنا نلمح التكرار خلال كثير من شعره ،حيث يستغل المعاني أعظم استغلال،و يعتمد عليه في تكرار الوصف على صور ، ونواح مختلفة>>[2].

3 – التصديــر :

ومن أصناف الإيقاع أيضا التي يستند إليها الشاعر التصدير الذي يقول عنه السكاكي : <<ومن جهات الحسن رد العجز عن الصدر،وهو أن يكون إحدى الكلمتين المكررتين أو المتجانستين أو الملحقين بالجناس في آخر البيت، والأخرى قبلها في أحد المواقع الخمسة من البيت،وهي:صدر المصراع الأوّل،و حشوه ،و آخره ،و صدر المصراع الثاني، وحشوه>>[3]، والتصدير هو من الحلل اللّفظية التي تزيد المعنى حسنا وجمالا، وانطلاقا من قول السكاكي يظهر التصدير الذي جاءت كلمته في صدر الأوّل ، وذلك في قوله:

بشاشة أيام مضت و شبيبة بشاشة خانت أهلها و بشاش[4]

و يقول :

أنوار مهلاكم ثوى من ربرب نور و لاحت في الدجى أنوار[5]

---

[1]– أبو العلاء المعري :اللزوميات ،ج1 ، ص :432.

[2]– رسمية السقطي: أثر كف البصر على الصورة عند المعري، مطبعة أسعد ،(د ، ط)1968 ، ص : 244.

[3]– يوسف بن أبي بكر السكاكي : مفتاح العلوم تحقيق نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية، ط 2 ،1987، بيروت، ص: 430 ،431.

[4] – أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص :419.

[5] – أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص :310.

فالتّصدير في البيتين هو (بشاشة و بشاش) في البيت الأّول ، أما في البيت الثاني فيكمن في (أنوار و أنوار)، ومن النوع الثاني، أي ما جاءت كلمته الأولى في حشو المصراع الأّول يوجد ممثلا :

إذا اشتاقت الخيل المناهل أعرضت عن الماء فاشتاقت إليها المناهل[1]

و يقول أيضا في هذا النوع :

لقد زارني طيف الخيل فهاجني فهل زار هذي الإبل طيف خيال؟

إن كان إبليس ذا جند يصول بهم فالنفس أكبر من يدعوه إبليس[2]

فالتّصدير في البيت الأّول بين (المناهل و المناهل) ، أّما في الأبيات الأخرى فنجده ماثلا في عبارة (طيف الخيال ، طيف الخيال)،أّما البيت الذي يليه، فنجده في(إبليس، إبليس)، أّما النوع الرابع.

فيظهر في قوله:

عداوة الحمق أعفى من صداقتهم فابعد من الناس تأمن شره النّاس[3]

فالتصدير يكمن في (الناس و الناس).

4-التّدويـــر :

كما استعمل الشاعر التدوير في قصائده وهو كثير فأغلب قصائده تحتوي على هذا النّوع << و البيت المدّور في تعريف العروضيين هو ذلك الذي اشترك شطراه في كلمة واحدة بأن يكون بعضها في الشطر الأّول و بعضها في الشطر الثاني>>[4]، و يظهر ذلك في قول المعري :

ثم شاب اللّجى ، و ضاق من المهجـ ـر ، فغطى المشيب بالزعفران

---

[1] – أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص : 109.

[2] – أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص :459.

[3] – المصدر نفسه : ص :475.

[4]– رمضان الصباغ : في نقد الشعر العربي المعاصر، دار الوفاء ، ط1، (د، ت) ، ص :232، 233.

و نضا فجره، على نسره الـــ ـواقع ، بين المهاة و السرحان[1]

إلى أن يقول :

و على الدّهر من دماء الشهيد يـ ـن علّي و نحله شاهدان

فما في أواخـــــر الليل فجـرا ن و في أولياته شفقـان

ثبتا،في قميصه ،ليجيء الحشـ ـر ، مستدعيا إلى الرحمن

كما يتبين التدوير بالإضافة إلى ما هو موجود في سقط الزند، في لزومياته حيث يقول:

إنّما نحن في ضلال و تعليـل فإن كنت ذا يقين فهذه.

ولُحبِّ الصحيح آثر الـــرّو م انتساب الفتى إلى أمهذه .

إلى أن يقول :

قد يجوز الخبُّ الشحيح جبا الما ء و لا يستحق نضح لهذه

وكثير لـــه إذا قيست الأشـياء عظم يرميه بعض طهذه

رئس الناس بالدهاء فما ينـ فك جيل ينقاد طوع دهذه [2]

و يقول في الجزء الثاني من لزومياته:

زعمالزاعمون و القول من مْيـ ن و صدق يُروى فعالي و عيفي.

إنّ شقا يلوح في باطن البُر ة قسم بيني و بين الضعيف[3]

ويقول :

أولا يبصر الفتى الذهب الأحـ ـمر تحذى به نعال السيوف

---

(1) – أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص:92.

(2) – أبو العلاء المعري : اللزوميات : ج1، ص :123.

(3)– أبو العلاء المعري : اللزوميات :ج2، ص : 119.

للحديد العُلا على سائر الجو هر ذُلّ العدا و عزّ الضيوف[1]

فالشيء الملاحظ أنّ التدوير أكسب الأبيات غنائية عذبة و انسيابا للألحان وليونة وذلك لأنّه يمده و يطيل نغماته.

5- التصريع:

و التصريع في الشعر بمنزلة السجع في الكلام المنثور له فوائد جمة،حيث أنه يساعد على معرفة قافية البيت قبل اكتماله، كما يدل على سعة القدرة والتصرف في الكلام،وقد ورد في كثير من مطالع القصائد منها قول النابغة:

كَليني لهم يا أميمة ناصب و ليل أقاسيه بطيء الكواكب

تطاول ص قلت ليس بمنقض وليس الطي يرعى النّجوم بآيب[2]

وصدر أراح الليل عازب همّه تضاعف فيه الحزن من كل جانب

وقوله:

يا دار مية بالعلياء فالسند أقْوتْ ، وطال عليها سالف الأبدِ[3]

و قد اعتمد عليه المعري و يظهر في قوله:

بقيت وما أدري بما هو غائب لعل الذي يمضي إلى الله أقرب

تود البقاء النفس من خيفة الردى وطول بقاء المرء سّم مجرب

على الموت يجتاز المعاشر كلّهم مقيم بأهليه ومن يتـغرب[4]

---

(1)– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص : 120.

(2)– النابغة الذبياني : الديوان ،إعداد علي نجيب عطوي ، دار الكتب العلمية ، ط1 ،1990 ، بيروت ، ص :273.

(3)– المصدر نفسه:ص :132.

(4) – أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :65.

و يقول:

لعمري لقد طال هذا السّفـر علّي و أصبحت أحدو النفر

أأخرج من تحت هذي السماء فكيف الإباق و أين المفر

وكم عشتُ من سنة في الزمان وجاوزت من رجب أو صفر[1]

وهكذا يبدو التصريع في الأبيات الأولى من هذه المقاطع ، فنجده في المقطوعة الأولى في حرف (الباء) المتواجد في نهاية الشّطر الأّول ،وكذا نهاية الشطر الثاني، أّما في الأبيات الأخرى من المقاطع فهو موجود مثلا في حرف (الهمزة) و(الياء) و (الراء) و هي كلّها تصريحات منحت هذه الأبيات حسنا ورونقا و أعطتها إيقاعا منتظما و متوازنا يستهوي السمع و ترتاح له الأذن.

و خلاصة القول أنّ أبا العلاء المعري كان يحاول دائما تفجير طاقاته في مجال اللغة من أجل التعبير،وذلك بتوظيف ألفاظ جيدة وقوية وصور منمقة و إيقاع متوازن وهدفه من ذلك هو نقل تجربته الحياتية وشعوره وحالته النّفسية،فجاءت معانيه بذلك عميقة وصوره ثرية وموسيقاه موحية.

القسم الثاني : السمات المعنوية لدى المعري

مما لاشك فيه أنّ الألفاظ و حسن ومتانة تركيبها له أهمية و قيمة كبرى أولاها النقاد و الأدباء لها.

فلا يمكن أن نغفل عن قيمة المعاني، فالفكرة تجول في خاطر الشاعر قبل الألفاظ ورصفها سمة من سمات الإبداع الذي يميز أهل الفن بعضه عن بعض ، ومن هذا المنطلق يحق لنا أن نقّر بأنّ << للمعاني قيمة كبرى في الأدب >>[2] تكبر بما تحتويه من عمق في المعاني و كثرة في الحقائق ، وهذا ما سوف أورده خاصة و أنّ أبا العلاء المعري قد تفنن في أداء معانيه ، فجاءت صوره الفنية من خلال ديوانيه متسمة بالوضوح ، فما هو يا ترى ؟

---

[1] – أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص :414.

[2]– أحمد أمين : النقد الأدبي ، مكتبة النهضة المصرية ، ط5 ، 1983، القاهرة ، ص: 65.

أولا– الوضوح والإبهام:

فالوضوح مستوحى من الإيضاح الذي يعني :<< أن ترى بكلامك لبسا لكونه موجها أو خفي الحكم ، فتعمده بكلام يوضحه و بين المراد كقول الشاعر:

يذكر نيك الخير و الشر كلّه و قيل الخنا و العلم و الحلم و الجهل

فألقاك عن مكروهها متنزها و ألقاك في محبوبها و لك الفصـــل>>[1]

فقد عمد الشاعر هنا إلى توضيح الخير و الشر ، عن طريق قوله في الشطر الثاني من البيت الأول وهم (الخنا و الجهل) وهما يمثلان الشر أما الخير فهي (العلم و الحلم).

وبيان الصّورة ومدى وضوحها لا يتحدد إلاّإذا اتضحت الرؤية للنّفس لأنّه << من الطبيعي ألاّ يكون هناك شعور ما نحو شيء مجهول تماما للنّفس، وأنّ ذلك الشعور سيكون شعورا مبهما إذا كانت الصورة مبهمة و إذا كانت الرؤية غير واضحة، و لكن هذا الشعور سيكون واضحا و يكون محددا إذا اتضحت الرؤية للنفس>>[2].

وحين تفحصت سمة الوضوح في الصورة عند المعري وجدته يبرز في مظاهر عدّة منها : استعانة المعري بالتشبيه للكشف به عن خبايا الصورة ، و ليزيد من جلاءها ، ومن ذلك قوله مشبها الدنيا بغول بدل العروس:

رأى الأقوام دنياهم عروسا وما لقيتهم إلاّ بغول

متى أنا راحل عنها لشأني فإنّي قد قضيت شغولي[3]

---

[1]– بدر الدين بن مالك : المصباح في المعاني والبيان والبديع ، ص: 205.

[2]– بدوي طبانة ، قضايا النقد الأدبي ، ص : 119.

[3]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص :245.

فهنا قامت الصورة على تشبيه الدنيا بغول يفترس المرء في نظر المعري على غرار ما يراه المرء من محاسن فيها ، فتصور له بعروس متجملة تخدعه بمظاهر الحسن والجمال فمضى المعري يائسا منها طالبا الرحيل و عدم البقاء لأنّه لم يستسغها.

و يقول مشبها الدنيا بعجوز أيضا راسما بذلك صورة واضحة لها مظهر من مظاهر التصوير البياني:

لحاك الله يا دنيا خُلوبـا فأنت الغادة البكُر العجوز

وجدناك الطريق إلى المنايا وقد طال المدى فمتى نجور

سئمنا من أذاك فنجزينـا فـ إنْ مُؤة الوعد النجوز[1]

فليس فيها شيئا يعجب به خاصة إذا ابتعد المرء فيها عن تعاليم الدين .

فيقول :

الدّين هجُر الفتى اللّذات عن يسر في صحة واقتدار منه ما عمرا

و الحلم صبُر أخي عزّ لظالمه حتى يقول أناس ذلّ أو قمرا[2]

فهذه الأبيات وغيرها كثير، قد وضحتها سابقا تحكي عن الدنيا و الدّهر و الزمان والموت وغيرها من الصور التي استراعت المعري، فكتب عنها بألوان من التصوير الفني.

وما ذكرته من مقطوعات إلاّ عيّنة على ما أقول في مجال الوضوح الذي يعتبر سمة من سماته المعنوية،وجاءت أيضا صوره جميعها مستوحاة من الحياة الإنسانية و من مظاهر الطبيعة فتجده يشبه الإنسان بمظاهر متعلقة به كالكتابة و الحضارة و اللباس و المرء و أعضاؤه.

إضافة إلى استقاؤه صورا من الطبيعة بنوعيها صامتة تجسدت مثلما رأينا في صور السماء والأرض والجماد والماء ، وصورا صائتة تمثلت في صور للحيوانات و الطيور بأشكالها.

---

[1]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج2، ص :4.

[2]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج1، ص: 339.

فإذن معرفة القارئ بالمورد الذي نهل منه الشاعر يساعده كثيرا في التعرف على الصورة ،فتأتي واضحة إن سلمت من عوارض رداءة الغموض،و هذا ما وضحته في الفصول السابقة.

ووضوحها يعني سلامتها من الغموض أو الإبهام الذي يعني << إيراد الكلام محتملا لوجهين متضادين>> [1].

فلا تعلم غرضه الحقيقي إذا كان مدحا أو هجاء ، وهذا ما يظهر في قول " محمد بن الحزم" الذي هنأ الحسن بن سهل باتصال ابنته (بوران) بالخليفة المأمون العباسي فكتب إليه بعدما حرمه وأثابهم إن أنت تماديت على حرماني قلت فيك بيتا لا يعرف أهو مدح أم ذم؟ لذلك قال له:

بارك اللّه للحسن و لبوران في الختن

يا إمام الهدى ظفر ته و لكن ببنت من؟[2]

فلم يدْر ببنت من ؟ أفي العظمة و علو الشأن ورفعة لمنزله أم في الدناءة و الخّسة ؟ فاستحسن الحسن من ذلك [3].

ونوضح بعد هذا الكلام عن الغموض ببيت آخر للمعري ، يقول فيه:

سَبِّح وصَلِّ وطُف بمكة زائرا سبعين لا سبعا فلست بناسك

جهل الديانة من إذا عرضت له أطماعلم يُلف بالمتماسك[4]

فالكلام هنا واضح بعيد عن الغموض، فقد حث المعري الالتزام بتعاليم الدين من تسبيح وصلاة وإقامة حج و هي كلّها فرائض أوصانا ديننا الحنيف بها، فالوضوح هنا كان << وليد ضعف وضحالة فكر>>[5]، فتعبيره كان بسيط و فكرته مباشرة تفهم من السياق لأول وهلة .

---

[1]– حفني ناصف وآخرون : دروس البلاغة ، ص :106.

[2]– المرجع نفسه: ص :106.

[3]– السيد أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة ، ص: 315.

[4]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج2 ، ص :169.

[5]– هيمن ستانلي: النقد الأدبي و مدارس الحدثية ، ترجمة إحسان عباس و محمد يوسف نجم ، ج2، ص :56.

و مثله قوله:

ادفع الشّر إذا جاء بشر وتواضع إنّما أنت بشر[1]

فافعل الخير وأّمل بغّه فهو الذُخر إذا اللّه حشر.

فهو يوصي بعمل الخير والتواضع الذي ينجيه في آخرته و الدفع بالشر،فجاء بذبك كرمه واضحا صريحا بعيدا عن أي تلميح أو إشارات قد تكسبه الغموض و الإبهام.

فإذن ما لمحته أنّ أكثر ما يميز شعر المعري في إتباعه لسمة الوضوح هو انتهاجه له في المواضيع الأخلاقية التي تصب في سياق الوعظ و الإرشاد و لتعاليم الدين مثلما رأينا و المواضع الاجتماعية كتحدثه عن الدنيا و غدر الناس فيها وصيانتها،فحدث أن شبهها بالعجوز و بالغول،لتقريب الصورة أكثر و إجلائها في أعين القراء و السّامعين.

و لكن انتهاجه للتوضيح من خلال أشعاره لا يعني أنّه قد افتقد إلى الغموض و الإبهام فقد نجده ماثلا في أشعاره يعمد به إلى التمويه و التعمية ، فيخاطب الخاصة بدل العامة من النّاس وأكثر ما وقع الإبهام فيه في المشاكل الغيبية و الإلهية الكبرى و الفلسفية والحسابية و العروضية و غيرها من الأمور التي كانت الصراحة و الوضوح فيها تعرضه إلى الأذى لذلك تعمد التمويه و الإشارة والغموض.

و الغموض لا يعد عيبا دائما وإنما هو مصطلح <<يحمل قيمة فنية و فكرة لا يقوى عليها التعبير المباشر أو البسيط في تجارب شعورية و مواقف غنية >>[2].

ويكون الغموض غير متعمد في كثير من الأحيان نتيجة عوامل أخرها إضافة إلى العامل الأول الذي يستدعي المعري من إخفاء معرض الحقائق ؛لأن المعاني إذا كانت خفية تترك النفس في تطلع دائم لإدراك ما يصبوا إليه الشاعر .

---

[1]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص :409.

[2]– جماليات الأسلوب : فايز الداية ، ص: 233.

<<لذلك وجد أصحاب المذهب الرمزي الذي يقوم على الإبهام و الغموض أنّ جمال الفن الأدبي كلّه يتمثل في ذلك الإبهام ففيه متعة للنفس و تنشيط للعقل و للتفكير الإنساني>>[1].

و خير دليل على ذلك الإبهام و عدم وضوح الدلالة في قوله:

ألا ليت شعري هل أدين ركائبا أمطّ بها حتى يطلحها المـــط

و هل ينشطني من عقالي إليكم رضى زمني أم كلّ شيمته سخط[2]

وهذا من الشعر المعيب عند نقاد الكلام،لأنّه أضمر اسم الممدوح و لم يصرح به فصار الشّعر مبهما لا يعلم فيمن قيل ، ومثل هذا الشعر لا يستحسنه من مدح به، وخير الشعر ما كان موسوما من قيل فيه، حتى لا يكون فيه شركة لغيره مدحا كان أم هجًوا[3] ؛لأنه إذا فهم الموضوع و الغرض الذي كتب عنه الشاعر فهم المناسبة و من ثم زال الغموض، وقد يكون سببه استعمال رمز أو إشارة تاريخية ، وهذا النوع كثير في شعر المعري ، فالذي لا يعرف المدلول التاريخي لم يفهم معنى الأبيات ومثال ذلك كثير أظهرته سابقا في المصادر الثقافية و الدينية التي استعملها المعري مقتبسا معانيها وألفاظه من القرآن و الحديث أو التاريخ القديم أو الأمثال و الحكم و الأساطير، وهذه بعض الشواهد التي أتبعها إلى ما سبق كدليل على الغموض و الإيهام ، يقول:

آليت أرغب في قميص ممـوّه فأكون شارب حنظل من حنظل

نجّى المعاشر من براثن صالح ربٌّ يفرج كلّ أمـــر معضل

ما كان لي فيها جناح بعوضة و اللّه ألبسهم جنـــاح تفضل[4]

---

[1] – بدوي طبانة : قضايا النقد الأدبي، ص: 129.

[2] – أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص : 109.

[3] – البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند، ص: 180.

[4] – أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج2 ، ص :247.

فالمتمعن في كلام المعري إذا لم يعد إلى الشروح لم يفهم معنى أبياته، عن أي صالح يتكلم؟وما هي براثنه،وما الفضل الذي تنصّل منه المعري؟والمتتبع لتلك الحادثة التاريخية يفهم ما قصده المعري وماذا أراد،ويقول في موضع آخر مستعملا الإشارة أو التلميح وهذا ما أكّد غموض ألفاظه :

لا خاب سعيكُ من خفاف أسحم كسحيم الأسدي أو كخفاف [1]

فالمتتبع لبيت المعري يكاد لا يفهم معناه من شدة الغموض الذي يعتريه ، فمن هو الخفاف و أسُحم؟ ومن هو سحيم الأسدي هذا ؟فلا تفهم معناه إلاّ إذا رجعت لبعض الشروح أو إلى تاريخ العرب القديم.

فتجد أنّ " أسحم و سحم" هو عبد من بني الحسحاس وهو مولى لبني أسد ، فخفاف الأولى في معنى خفيف ظن و خفاف الثانية هو خفاف بن ندبة الأسود أحد فرسان العرب وأغربها وهو من أصحاب رسول الله(ص).

كما أخذ من القرآن و المثل بعض الألفاظ ،يقول:

تخيّرتُ جُهدي لو وجدتُ خِيارا وطرتُ بعزمي لو أصبتُ مطارا

جهلت فلّما لم أَر الجَهل مغنيا حَلَمتُ فأوسعتُ الزمــان وقارا

إلى كم تشكاني إلى ركبائــي و تكثر عتبي خفيــة وجهــارا

أسير بها تحت المنايا وفوقها فيسقط بي شخص الحمام عثارا

و كُنّ إذا لا قيننـي ليردننـــي رجعن كما شاء الصديق حرارا [2].

فلا يمكنك فهم معناه إلاّ إذا تفحصته جيّدا و تمعنت في ألفاظه واحدة تلو الأخرى فتعمد إلى شرحها و الرجوع إلى بعض الشروحات والكتب التي قد تفيدك بفهم معناها؛ لذلك قال (ابن السيّد) أحد الشّراح لأقوال المعري<< المطار نقطة استعملها الشاعر كمصدر بمعنى الطّيران ويكون

---

[1]– محمد بنشريفة : شروح أندلسية ، ص: 353، 354.

[2]– أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص : 75.

الوضع الذي يطار فيه،وهكذا كقولهم في المثل (قد أُحزِم لو أعزم) فهما بيتان أعرب فيهما الشاعر عن تقلبه بين العزم و الجهل و الحلم .

أمّا الثاني مستوحى من القرآن الكريم لا يمكنك فهمه إلاّ بالرجوع إلى ذلك المصدر الديني،فقوله(جهلتُ) هي لفظة استوحاها من قوله تعالى﴿و أعرض عن الجاهليين ﴾[1].

وبقية الأبيات تكملة فقط للمقطوعة الشعريّة،كما نجد أبياتا كثيرة في لزومياته يسودها الغموض والتعقيد،فلا يستبين معناها إلاّ إذا شرحنا مفرداتها كلّها و ذلك إمّا لوجود تجنيس في البيت، كقوله:

لا يصبرون ، فقير تحت فاقته إنّ السباريت جابتها سباريت[2]

فهنا يعزّ على القارئ فهم معنى البيت الذي أراده المعري من خلال المجانسة بين لفظتي السباريت الأولى و السباريت الثانية،فكأنّه أراد بتلك المجانسة إظهار قدرته اللّغوية والفنية في تقليب وجوه المعاني.

ولم يكتف المعري بمثل هذه المجانسة لإظهار مقدرته الفنية،بل راح يجانس جناسا غريبا ونادرا بين القوافي وحشو البيت،وذلك نراه في قوله:

غد يري من الدنيا عرتني بظلمها فتمنحني قوتي لتأخذ قوتي

وجدتُ بها ديني دنيا فضربني وأضللت منها في مروت مروتي

أخوت كما خاتت عقاب لو أنّني قدرتُ على أمر فعدّ أخوتي[3]

فجانس بين حشو البيت (قوتي) الذي عني بها الطعام و القافية في (قوتي) بمعنى الشدة والبأس.

---

[1] – محمد بنشريفة : شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند، ص : 187.

[2] – أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص :134.

[3] – المصدر نفسه :ص :148.

وجانس في البيت الثاني بين (مُوت) التي تعنيالأرض القاحلة و (مّوتي) التي تعني الشدة والقوة، و بين (أخوت) و (أخواتي) أيضا نراه يجانس في البيت الثالث.

سواك أحقّ أن يلقى قذوفا بطيب القول طيّبة السّواك.

شواك منعته ذهبًا مصوغا مخافة ما يفوه به شواك.

نواك هي التي لا ريب فيها و للأيّـــام أقدار نواك

لواكِ الله عنا حين بتنا قريبا من صريمك أو لواك [1]

وقد أحدث المعري جناسا أشد صعوبة مما سبق من ضروب الجناس بين كلمة وحرف من كلمة أخرى،كأنّه أراد أن يخطو بسماء شعره خطوة جديدة في سبيل التعقيد والابتكار،ويتضح ذلك في قوله من نفس القصيدة حين ألف جناسه بين (ذووكا) (ذواك):

ذوى كالروض روضك يوم شبتْ جمارُ من لظى أسف ذواك

وما يتضح من خلال هذا المحسن البديعي أنّ أبا العلاء المعري قد أظهر سرا من أسراره اللغوية التي جعلت الباحثون دائمو الاهتمام بها،شغوفين بدراستها و تحليلها لتحري المعنى الصحيح الذي ينم عن وعورة ألفاظه و سعة ثقافته من جهة ثانية،مما مكنّه من انتهاج هذا المسلك اللّغوي.

كما اعتمد المعري في غموضه إلى استخدام أساليب خبرية على نحو ما نرى في قوله :

ترى الهّم لا شيء ،سوى الأكل ،همّه له جسدٌ ما اسطاع حرا و لا بردا

يقلُ العصا، مستثقل الظمر بعدهـا علا فرسا،واجتاب ماذيـة سـردا

و لا تترك الأيّام مردى لظبيـــة من الأدْم، تختار الكباث و لا المردا

ولم يلف منها فارد القمر مخلصـا وقد بلغت أحداثها القمر الفـــردا[2]

---

[1]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص :168.

[2]– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1،ص:235.

فقد استعمل المعري ألفاظا غريبة و غامضة كألفاظ (الهم ،الطمر، وماذية، ومردى ، والكباث و المردا و الأذم) مستخدما في ذلك الأساليب الإخبارية التي لم يكن هدفه فيها الإخبار بقدر ما كان هدفه التعبير عن أفكاره ورسم صورة لذلك الشيخ الغني الذي عبّر عنه بلفظة (الهم)، فكان همه الوحيد و شغله الشاغل هو الحصول على الأكل فقط وراح مسترسلا في وصفه بأنّ له جسد لم يقوى على البرد و الحر يلبس ثيابا بالية ودرعا منسوجة و يعتلي فرسا، فهنا نراه يوظف تلك الألفاظ الوموز للوصول إلى حقيقة الإنسان الهرم الذي يبلغ من العمر عتيّ ا، فتصبح حياته مثل موته لا فائدة منها.

كما يستعمل إضافة إلى الألفاظ الغريبة و التجنيس يستعمل تعابيرا حسابية زادت المعنى غموضا ، كقوله:

سما نفْر ضرب المئين ،و لم أزل بحمدك مثل الكسر يُضرب في الكسر[1]

فهنا يشير المعري إلى الزيادة و النقصان بالضرب و الكسر للمئات في المئات، ونراه في مرات أخرى يستعمل تعابير لا علاقة لها بالحساب ، بل بالعروض وأحكامه ويظهر ذلك في شعره كقوله :

و يُلفى المرء في الدنيا صحيحا كحرف لا يفارقه اعتلال

فأّما أنت، و الآمال شتى فلقياك السّعادة لو تنال[2]

فهو يظن أنّه صحيح و إنّما هو مطبوع على الاعتلالالمباينة طباعه و تناقصها كحرف يُني على الاعتلال في أصل وضعه.

وقوله في الروي و الوزن و هي أسماء عروضية تبنى عليها القصيدة

فاقتنع بالروي و الوزن مني فهمومي ثقيلة الأوزان[3]

---

(1) – أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص:351.

(2) – محمد بنشريفة : شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند ، ص :420.

(3) – أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص:157.

وقوله مستعينا بمصطلحات لغوية:

زعموا أنّ ما يذكّر إن قارن أُنثَى لا يُعلَم التغليبا

باطل ذاك إنّ لُبي إلى الدنيـ ـا قرين، و ما يزال سليبا[1]

فقد لمح إلى القاعدة الصرفية التي تقتضي تغليب المذكر على المؤنث،لكنّه حكم ببطلانها بدليل تسلط الدنيا التي تعتبر مؤنثة على العقل وذلك بقوله (لُبي) وهو مذكر.

و أيضا قوله مستعملا مصطلحات عروضية كالإقواء و الإيطاء و الإكفاء و غيرها على نحو قوله:

بُنيتُ على الإيطاء سالمة من الإ قواء و الإكفاء و الإصراف[2]

فقد استعمل مصطلح الإيطاء الذي يُعنى بترديد القافية ، أما الإقواء فهو بيت موضوع والآخر مخفوض ، فيجيء عند المعري سالما خاليا من كل العيوب وذكره للإكفاء الذي يعنى ذلك الاختلاف في حرف الروي ، فمرة بلام ومرة بنون ونحوها من الحروف المتقاربة أما الإصراف،فهو إقواء بالنصب.

إذن المعري حاول ذكر هذه المصطلحات العروضية للدلالة بها على حال الإنسان في هذه الدنيا الذي لا يختلف عن الإقواءفي رفعه و خفضه بين الأيام،وهو في نحيبه وحزنه كحزن الغراب على العيش و الفراق بترديده لصوته المعتاد الذي شبهه بإيطاء.

وهكذا باقي المصطلحات الأخرى التي عني بها المعري غرضا معينا.

كما لعب المجاز دورا كبيرا في إخفاء المعاني ، وهذا ما أكده المعري مرارا من خلال كلامه لاسيما وأنّه يتكون من عبارات مجازية لا يجوز فهمها بالمعنى الحرفي.

ويظهر ذلك من خلال قوله :

و ليس على الحقائق كل قولي و لكن فيه أصناف المجاز[3]

---

(1) – أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص:95.

(2)– محمد بنشريفة : شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند ، ص: 354، 355.

(3)– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص:08.

ويقول:

نقول على المجاز وقد علمنا بأنّ الأمر ليس كما نقول[1]

فالاحتمال وارد على أن يقع القارئ في تأويل خاطئ ، يقول :

لا تقتد علّي لفظي فإنـــي مثل غيري تكلمي بالمجـــاز[2]

تنسب الشهب من يماني و شا مي و يلغى انتسابها في الحجاز

ثانيا : المبالغة و التحليق بالمعاني:

إنّ المتتبع لشعري المعري من خلال دراسة ديوانيه يجد صوره الشعرية المستعملة مميزة بأضرب وألوان كالوضوح و الإبهام و المبالغة ، هذه الأخيرة التي عني بها أهل البلاغة على ممر الأزمان ، فتداولوها بالدراسة و التحليل كغيرها من المحسنات، فهي عندهم تعني :<< أنّ يدعي المتكلم لوصف بلوغه في الشدة و الضعف حدّا مستبعدا أو مستحيلا و تنحصر في ثلاثة أنواع في التبليغ>>[3].

كقوله تعالى: ﴿.... ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها..﴾[4]وفي << الإغراق إن كان فيه الإدعاء ممكنا عقلا لا عادة .

كقوله:

وتكرم جارنا مادام فينا ونُتبعه الكرامة حيث مالا [5]

والنوع الثالث الذي تنحصر فيه المبالغة هو الغلو<< الذي يكون فيه الإدعاء مستحيلا عقلا وعادة كقوله:

---

(1)– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص: 189.

(2)– المصدر نفسه : ص :10.

(3)– السيد أحمد الهاشمي :جواهر البلاغة ، ص: 312.

(4)– النور /الآية 40.

(5)– السيد أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ،ص: 313.

تكاد قسيّة من غير رام تمّكن في قلوبهم النّبالا>>[1]

وقد ظهرت المبالغة في شعر المعري قليلة يسيرة إلا أنني حاولت تبيينها من خلال قوله:

وهجرنا نشرب الكؤوس احتقارا و شربنا مسّرة بالدنان

أيّها الدّر إنّما فضت من بحر محلى الطريق للجريان

ولو طرب الجماد لكان أولى شروب الراح، بالطرب الدّنان

و لّما دالت العـرب اغتصابا و أضحت جـل طاعتها دهان

وعادت جاهليتـــها إليـــها فصارت لا تدين و لاتـــدان

سطوت ففي وظيف الصعب قيد بذاك ،و في وتيرته عران[2]

إلى أن يقول :

ولولا قولك : الخلاق ربي لكان لنا بطلعتك افتتان

فهنا أراد المعري وصف الممدوح و المبالغة في تعظيم شأنه و الثناء على استقامته وشجاعته وعلّو همته.

ويلاحظ الشاعر قد حلق في بعض لزومياته تحليقا لا بأس به ، فتحرر من القيود التقليدية داعيا إلى رسائل توجيهية و إصلاحية لها هدف تبليغي،والمعري مثلما فعل من قبل مع الزمان حين جعله شخصا يعظ النّاس و يهديهم إلى الطريق الصحيح نراه يحكي على لسان طفل يعظ و يبلغ حوادث الدنيا ويصور مصائبها حتى ينتهي إلى أنّ الموت هو النهاية الحتمية في هذه الدنيا وهو أهون و أيسر من العيش في كنف الحياة الشقية، يقول:

أيا طفل الشفيقة إنّ ربـي على ما شاء من أمـــر ميقت

---

[1] – أبو العلاء المعري :سقط الزند ، ص :166.

[2]– المصدر نفسه : ص :234.

تكلم بعد موتك باعتبـــار و قد أدعو بك النبـــأ المقيت

تقول حللت عاجلتي بكرهي فعشت، وكم لُددت وكم سُقيت

رقيتُ الحول شهرا بعد شهر فليتني في الأهلة مارقيـــتُ

تركت الدار خاوية لغيـــري و لـــو طال المقام بها شقيتُ

نقيتُ فماد نستُ ولو تمادت حيـــاة بي دنستُ فما نقيت

رقتني الراقيات وحُمّ يومـــي فغادرني كأنّـــي ما رُقيت

وما يدريك باكيتي عسانـــي لسكنى الفوز في الأخرى انتقيت

ومن صُنع المليك إلّي أنّـــي تعجلتُ الرحيل فمـــا بقيتُ[1]

ويقول في موضع آخر من ديوان سقط الزند مبالغا في وصف أجل الإنسان وبلوغ حتفه يقول:

يكادُ مُحيَّن لاقى المنايا بسيفك لا يكون له مَعاد[2]

فالمحين هو الذي حان حينه ؛ أي حتفه فقد بالغ في وصف ذلك ، ومن روائعه ما رسمه لنا من صورة بين حشا الأم و جنينها للوصول بها إلى غرضه المنشود ورأيه في الحياة التي أرقته و هي صورة تكن عن بلاغة جلية وقدرة عجيبة على التصوير، وفق هذا الأسلوب يقول :

نادى حشا الأم بالطفل الذي اشتملت عليه : ويحك لا تظهر ومت كمدا

فإن خرجت إلى الدنيا لقيـــت أذى من الحوادث بلة القيظ و العمدا

و ما تخلّص يوما من مكارهـــها وأنت لابُدّ فيها بالـــغ أمـــدا

وربّ مثلك وافـــاها علـى صغر حتى أسّن فلم يحمد ومـا حُمـدا

فإن أبيت قَبول النّصح معتديـا فاصنع جميلا وراع الواحد الصمدا

---

[1]– أبو العلاء المعري: اللزوميات ، ج1، ص :139، 140.

[2]– أبو العلاء المعري: سقط الزند ، ص:41.

فسوف تلقى بها الآمال واسعـة إذا أجزت مـــدى منها رأيت مـدا

وتركب اللج تبغي أن تفيد غنً ـى وتقطع الأرض لا تُلقي بها ثمـدا

وإن سعدت فما تنفك فـي تعب وإن شقيت فمن للجسم لو همدا

فلـو تكلم ذاك الطفل قالـــه له: إليك عني فما أنشئت معتمـــــدا

فكيف أحمل عتبا أن جـرى قدر علّي أدرك ذا جـــد ومن سمدا[1]

حقا هي صورة رائعة أنشأها المعري في شكل حوار بين حشا الأم الذي صوره في هيئة إنسان قد عانى من هذه الحياة ،فحكى مع الجنينفاعظا له ناصحا إيّ ـاه ، بأن لا يأتي إلى هذا الوجود، وقد زادها جمالا وبلاغة حين استعمل لفظة (ويحك) التي تنم عن الغفلة من الطفل،فكأنه دعا عليه مستهترا برأيه في الدنيا التي لا خير فيها ، وحوادثها أليمة خاصة إذا عاش فيها طويلافإنّـه سوف يطوله أذى منها ، وقوله (فإن أبيت قبول النصح معتديا)فكأنّـه يقول هذه نصيحتي،فإن رفضتها فإنّك سوف ترى مالا يسّرك فيها ،ونراه مبالغا أيضا في ذكر القطا.

حيث يقول :

تدوس أفاحيص القطا وهو هاجد فتمضي ولم تقطع عليه غرارا[2]

فالبيت مبني على المبالغة في ذكر القطا وزاده مبالغة بذكره للغرار ،حيث قال البطليوسي في هذا الصدد :<< وزاد المعنى مبالغة بذكر الغرار لأنّه نوم خفيف لا استغراق فيه>>[3].

فكانت بذلك عباراته جيدة ، ومعانيه شريفة عفيفة يهدف بها إلى النصح و الاتعاظ و خياله لطيف و ما زاد في جمالها أكثر هو قوله في آخر على لسان الطفل الذي قبل النصيحة من حشا أمه

---

(1)– أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج1، ص : 238.

(2)– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :77.

(3)– البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ، ص :633.

(إليك عني فما أنشئت معتمدا)فكأنّه آثر العدم و الفناء على البقاء و الوجود تخلصا من تلك الآلام التي سوف يتعرض لها الطفل.

ومن هنا يكون المعري قد حقق مراده بالوصول إلى أفكاره و إقناع المرء بها،ويلاحظ في سياق آخر يبالغ في المعرفة بالأمور و التحفظ عنها وذلك بقوله:

وسائل َمن تنطس في التوقى لآية علّة مات الجبــان

فإن تعاون الأملاك جهـــل على ملك بخالقه يُعــان

يّعير سيفه لفظ المنايا كما شرح الكلام الترجمـــان

ويسلك ُرمحه في كل بـــاغ كما سلك المضيق الأفعوان[1]

فمن بين الأمور التي سأل مستعجبا عنها مبالغا فيها هو تساؤله عن أي سبب يكون الإقدام علة لهلاك الشجاع و يكون الجبن علة و سببا لحياة الجبان في إشارة إلى قلب موازين الأمور في عصره.

وظل المعري ينشد قصائد هادفة استقصاها من الحياة التي عاشها و آلمته ومن حوادث الدنيا التي لعبت به ،ومن الدهر الذي أضناه بأيامه و لياليه .

فجادلنا بقصيدة هي من أروع القصائد التي قيلت في ديوانه خاطب فيها الديك الذي شبهه بالمؤذن في حرصه على دجاجاته و إيثاره لمن على نفسه بالزاد في إشارة منه إلى جعل الدّيك بأذانه كهادي يهدي الضالين الفاسقين الغافلين الذين تعرضوا له،وأذوه و لكنه مع ذلك آثرهم على نفسه و جعلهم في مصادف الأبرار المتقين ، مثلما يؤثر الدّيك القوت على نفسه و يعطيه لدجاجاته ، يقول :

عليك ثيابٌ خاطها الله قــادرا بها رئمتك العاطفات الروائم

وتاُجك معقود كأنّــك ِهمِــزٌ يباهي به أملاكـه ويوائـــم

[1]– محمد بنشريفة : شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند، ص: 87.

وعينك سقط ما خبا عند قُـرةٍ كلمعة برقٍ مالها الدّهر شائم

ورثت هد ى التذكار من قبل جرمُهم أوان ترقت في السماء النعائم

و مـا زلت للدّين القديم دعامـه إذا قلقتْ من حامليه الدعائم

ولو كنت لي ما أُرهفت لك ُمديـة ولا رام إفطـاراً باكلك صائـم

ولم يغل ماءٌ كي تمزّق حلّـــة صبْك باسناها العصور كقدائم

فإن كتب الله الجرائم ساخـــطا على الخلق لم تكتب عليك الجرائم[1]

فقد أجاد المعري ف وصف الدّيك مثيرا به إلى الإنسان الهادي فبرع فيه بألفاظ جيدة ومعاني جميلة و بلاغة واضحة في الوصف و التنميق و التحليق غالبا بتلك الأفكار والآراء التي استوحاها المعري من الحياة نفسها واحتكاكه بمن يحيطه فيها، ويقول مبالغا في وصف الفرس بجودة السّمع:

كأنّ أذنيه أعطت قلبه خبرا عن السّماء بما يلقى من الغير[2]

فالمراد هنا أنّ الفرس أعطته أذنه الأخبار المقضية في السماء،وهذه مبالغة في وصفه بجودة سمعه ، و هي إشارة إلى رأيه حول فكرة الغيب و إمكانية معرفة المرء بتلك الأمور الفنية المتعلقة به.

و يقول مبالغا في وصف الليل بالطول :

تأخّر عن جيش الصباح لضعفه فأوثقه جيش الظلام إسارا

ووافق رعانا للرعـــان كأنّمـــا تحادثها الشعري العبور سرارا

وبات غوي النوم يحسب أنّـــه أجـــدّ إلى أهل السماء مزارا[3]

---

[1]- أبو العلاء المعري :اللزوميات ،ج2، ص: 358.

[2]- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ، ص :146.

[3]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص : 76.

فالليل والنهار بمثابة جيشان قد التقيا في مواجهة مع بعض ، فهزم الليل جيش الصباح وأوثقه وصار النهار أسيرا.

فالمعنى المؤكد هو المبالغة في وصف الليل بالطول فغلب النهار بطوله،ويشير إلى المبالغة في موضع آخر أبلغ من الذي يسبقه، ويظهر ذلك في قوله حين جعل لنار الحقد تذوب كما يذوب الحديد.

يقول:

وقد ذابت بنار الحقد منها شكائمها فما زجت الّروالا

يُذقن بني العصاة اليتم صرْفا و يتركن الجآذر و السخالا

فما يرمين بالآجـــال إجلا و يرمين المقانب و الرعالا[1]

وقوله:

ولولا قولك الخلاق ربي لكان لنا بطلعتك افتتان

تخب بك الجياد كأنّ جونا على لباتهن الأرجوان[2]

فالافتتان هو مبالغة مفرطة حتى أصبحت بمثابة غلو و هذا ما أشار إليه البطليوسي بقوله في شرح لبيت << هذا غلو شديد نعوذ بالله منه ، و أشتات المنايا ما تفرق منها >>[3].

وهو هنا افتتان بالممدوح على ثناء استقامته و شجاعته و سمو مقامه و ثباته وتمسكه بالقيم والأخلاق العربية و الإسلامية ، فشغل بها مستشهدا عن تلك الآراء بهذه الأنواع من الصور، ومنه لاحظت أنّ بلاغة عبارات المعري كلّها كانت تخص تلك المواضيع الأخلاقية والاجتماعية و الدينية والفلسفية،وهذا ما ظهر جليا من خلال جل الصور المعروضة في هذا البحث.

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص: 127.

[2]- المصدر نفسه:ص: 234.

[3]- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ص: 199.

ولكن تبقى بلاغته محدودة بالرغم من توفر ديوانيه على جزء غير يسير من البلاغة خاصة بعدما قيّد نفسه بمختلف تلك القيود التي رأيناها والتي تخص الوزن والقافية و الروي و إلزامه لما لا يلزم.

لذلك جاءت بعض ألفاظه ومعانيه ركيكة ضعيفة تنم عن تقصير الشاعر في بعض الأحيان عن الوصول بالمعاني إلى العمق ، فتراه يحلق عاليا بضروب بيانية و بلاغية ويسف هاويا بمعانيه تارة أخرى ، وهذا شيء قليل من مثل قوله:

لله أيامنا المواضي لو أنّ شيئا مضى يعود[1]

فمعناه بسيط ليس فيه عمق، فهو يتكلم عن الأيّام التي مضت و يتمنى عودتها ولكن أسلوبه ركيك و ضعيف فيها.

ويقول أيضا مبتعدا عن العمق في المعاني:

عدَت دار الشرور ونحن فيها فمن يهدي إلى دار السّرور

لقد بُدلتُ حالا بعد حال فصرتُ إلى الغرور من الغرور

فصبرا إن أمرَّ عليك عيش فإنّك في المقام على المرور[2]

فالأبيات تحوي كلاما عاديا مفهوما ليس فيه أيّ نوع من الجودة العالية و الوصف الجميل والتركيب المتين،حيث يستطيع أي إنسان مهما كان مستواه فهمه بدون عناء،وهذا ما قلل من قيمة الأبيات بالرغم من أنّه يحوي حكمة كبيرة استوحاها المعري من الحياة وتجاربه فيها مفادها أنّ الإنسان سوف ينتقل من الدنيا إلى الآخرة وهو في تغيّر دائم و لابدّ من الصّبر على مرّ العيش الذي يلاقيه في دنياه ؛ لأنّ هذه الأخيرة ما هي إلاّ جسرا يمر عليه إلى دار أخرى و هي الآخرة.

---

(1)– أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص:41.

(2)– أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص:378.

إذن كلامه منطقي وينطوي على حكمة جميلة غير أنّ أسلوبه في التعبير جاء ضعيفا وألفاظه جاءت بسيطة جدا ومعانيه واضحة لا تستهوي القارئ و تجعله يحس بمتعة الشوق في تفسير أبياته للوصول إلى المعنى الغامض.

ويقول في موضع آخر من الديوان مفضلا العجوز عن المرأة الجميلة في صورة أقل ما نقول أنّها سيئة لا يمكن تقبلها،يقول:

إذا كانت لك امرأة عجوز فلا تأخذ بها أبدا كعابا

فإن كانت أقل بهاءً وجه فاجدر أن تكون أقّل عابا

وحسن الشمس في الأيّام باق وإن مجّت من الكبر الُلعابا [1]

ومن هنا يظهر أنّ المعري قد عرف صنوفا ميّزت معانيه عن ألفاظه و من ثم ميّزت شعره عموما عن باقي الأشعار الأخرى.

فجاءت صوره واضحة ، كما وجدت غامضة في كثير من الأحيان،كما لمحت صورا له مبالغ في وصفها سواء في شدتها وضعفها هادفا بها إلى الوصول بآرائه وأفكاره المستوحاة من هذه الحياة.

فلوحظ أنه قليلا ما ينزل من مستواه، فيضعف معناه وهو ليس عيبا و إنّما قد يكون تقصيرا منه و تهاونا في ذكر بعض الأبيات والأفكار خاصة إذا كانت هذه الأفكار قد كررت كثيرا،فالتكرار عنده قد يفقدها الجّدة و ينقص من قيمتها،فتأتي عنده الأبيات ضعيفة بسيطة يكاد معناها أن يزول بزوال الرغبة في الحديث عنها.

ثالثا :شعرية التعبير

المقصود بشعرية أو التفنن في التعبير هو براعة الشاعر في طرح المعاني و مرونته في عرضها،وهذا ما جعل أبو العلاء يستخدم أنواعا من البيان وضروبا من البديع و المجاز وديوانيه خير شاهد على

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ،ص:92. عابا: من العيب .و لعاب الشمس :شيء تراه كأنّه ينحدر من السماء مثل نسج العنكبوت إذا اشتدّ حّرها.

ذلك؛حيث تفنن فيهما و أبدع في ابتكار المعاني مثلما ابتكر الألفاظ و صاغها صياغة حسنة، لذا أردت جمع معاني المعري في أربعة أصناف:

1– المماثلة :

وقد عرفها أهل البلاغة واصطلح عليها بمفهوم واحد ، فهي تعني عندهم : << أن يتعدد أو يتوحد في البيت أو نحوه مماثلة في الوزن و التقفية،أو في الوزن فقط ، بين كلمتين متلاقيتين أو متوازيين ومن أمثلته ، قول الشاعر :

معتقة مصفقة عقّار شآمية إذا مزجت مروح>>[1].

وقول الله تعالى :﴿وما أدراك ما الطارق النّجم الثاقب إن كل لما عليها حافظ﴾ فالطارق والثاقب و حافظ متماثلان في الوزن دون التقفية [2].

وإذا تمعنا في شعر أبي العلاء المعري نجده قد استوعب هذا الصنف و مثّله، و خير دليل على ذلك ما وجدته متجسدا في أقواله ومن ذلك :

هموا فأّموا شارفوا وقفوا كوقفة العَير بيْن الوْرد و الصّدر [3]

استعمل المعري كل من لفظة (هموا ، فأموا) و(الورد ، الصدر) فلهما نفس الوزن ؛ حيث نرى المعري قد ماثل بين الألفاظ في الوزن من أجل الوصول به إلى غرضه المنشود كي يعبر به عن أنّ الأعلاج قد همّوا بلقاء ذلك الفارس و لكنهم حين قاربوه توقفوا متخوفين منه ، كما يفعل الحمار الوحشي أمام الماء إذا قرب منه توقف و تحّسس،فإذا وجد رائحة صائد أو سمع حسيسه انصرف لم يرد ، و إن لم ير شيئا به ورد و شرب [4].

---

[1]– بدر الدين بن مالك : المصباح في المعاني و البيان و البديع ، ص:172.

[2]– صفي الدين الحلي : شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع ، تحقيق نسيب نشاوي ، دار صادر ، ط2 ،1992، بيروت ، ص:195.

[3]– أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :89.

[4]– ينظر البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ، ص :153

و يقول :

معانٌ من أحبتنا معان تجيب الصّاهلات به القيّان[1]

فقد ماثل فيه المعري بين عدة ألفاظ و هي (معان ، معان، القيان) جاءت على وزن واحد ألا وهو (فعال)،وقد وظفها للدلالة به على أنّ النّاس يكثرون فيه، فيعاني بعضهم بعضا ، و لهذا قال بعض اللغويين في تفسيره لفظة (معان)هو المكان الكثير الخلق ومجازه في العربية أنّه (مفْعل) من عانه يعنيه إذ نظر إليه ؛لأنّمفعلا لا يشتق إلاّ من الفعل الثلاثي، لذا جاءت معان الأولى : تعني اسم موضع بعينه وهو معمور على حد قوله بأحبته، ويقول مخاطبا بعض العلويين و قد عرضت له شكوة منهم :

عظيم لعمري أن يلم عظيم بآل علّي و الأنام سليم[2]

فـ(عظيم ، عظيم و سليم) هي على وزن واحد،ويقول في نفس السياق:

متأنقين و في المكارم أرتعا متألقين بسؤدد وعفاف

قدرين في الإرداء بل مطرين في الـ إجداء بل قمرين في الإسداف[3]

فـ (متأنقين، ومتألقين) و (قدرين، قمرين) و(الإرداء ، الإجراء، الإسداف) على وزن الإفعال.

ومن هنا يلمح أنّ المعري قد ماثل بين الألفاظ في الوزن متفننا فيها وبألفاظها ومن ثم بمعانيها ، لأنّه كل تغير في الوزن تتغير معه مفاهيمها و مدلولاتها و هنا تبرز قدرة المعري اللّغوية و مدى تحكمه في المفردات و الأوزان ، ومن ثم مدى تحكمه في الألفاظ والمعاني.

---

(1)-البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ، ص :172.

(2)- محمد بنشريفة : شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند ، ص :205.

(3)- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص:134.

و أهم ملامح المماثلة التشبيه و التمثيل و الاستعارة و التوجيه و مراعاة النظير، لذا سوف أحاول عرض عنصر التشبيه باختصار شديد ، لأنني عرضته أكثر من مّرة في البحث محللة لألفاظه وتبيين معانيه ، و عليه إذا كان التشبيه لو ن من ألوان التعبير البلاغي الذي تهافت عليه البلغاء والشعراء و تقاضلوا فيه، فإنّه عند أبي العلاء المعري أيضا نمط من أنماط التصوير البياني و سمة بارزة تميز أسلوبه فتضفي على ألفاظه رونقا و تنميقا و على معانيه وضوحا و جلاء،لذا بعد الدراسة التي طالت ديوانا المعري سقط الزند واللزوميات بجزئيه جُودت الكثير من الصور التشبيهية التي عرضت في فصل خاص بها، وهذه بعض الصور الأخرى التي لم يتم التطرق إليها من قبل:

أنت كالشمس في الضياء و إن جاو زت كيوان في علّو المكان

وافق اسم ابن أحمد اسم رسول الله لّما توافق الغرضان[1]

فهنا المعري يشبه الممدوح في ضياءه بكيوان يهتدى به كما يهتدى برسول الله (ص)وقد قال مشبّها العمر بآية قرآنية و الموت بفاصلة ما يلي :

إنّ أعمارنا كآي أبينت و المنايا لهنّ مثل الفواصل[2]

أما المرء عنده فهو كبائع في السّوق يأخذ بدون أن يكون له رأي و نقد،وهذا ما وضحه بقوله:

و المرء كالبائع في سوقه يأخذ ما يُعطى و لا يُنتقد[3]

ومن لطائف تشبيهه أنّه جعل الأرض التي يمشي عليها الإنسان مثل المرء تأكل وتشرب وتنتظر الموت الذي شبّهه بهلال منحن قد أحناه الردى يطلع بطلوع فجر جديد وهو كسيف استله من غمده لتحقيق النّصر والبلوغ إلى المراد ، وهو الموت عند المعري وهذا ما أكده بصورته هذه التي قال فيها:

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص :243. كيوان : زحل وهو في الفلك السابع و الشمس في الرابع.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص:264.

[3]- المصدر نفسه: ص:268.

وما الأرض الاّ مثلنا الرزق تبتغي فتأكل من هذا الأنـام و تشرب

وقد كذبوا حتى على الشمس أنّها تُهان إذا حان الشروق و تغرب

كــأنّ هلالا لاح للطعن فيهـم حناه الردى وهو السنان المجرب

كأنّ ضياء الفجر سيف يسـله عليهم صـباح بالمنايــا مُدّب[1]

كمالشبّه سواد ليله بالهجر و ألمه ،لأنّ الهجر يوصف بالسواد و شبه الوصل بالبياض وهذه عادة العرب؛حيث كانت تقول لكل شيء حسن أبيض ، و لكل قبيح أسود ومن ذلك قوله:

كأنّ دجاه الهجُر و الصّبح موعد بَوصْل وضَوْء الفجر جبٌّ مما طل[2]

و الخيل عنده في سرعة الجري كالطير يقول:

ترى أعطافها من العرق وهو أبيض و عرق الخيل كأنّه اللبن[3]

والمعنى عند التبريزي أنّ هذا الخيل كالطير في جريه،فما ينتفض عن أعطافها من العرق وهو أبيض عرق الخيل كأنّه اللّبن من البياض يشبه ما يتناثر من ريش البُزاة عند الطيران ، فشبه عرقها بريش البزاة عند التناثر لبياضه.

وقال مشبها حظ الإنسان بنبذة يطلبها الفيل بخرطومه ، و لكنه سرعان ما يطردها إذا أقبل إليها بزفيره ، يقول:

رويدك لم تبلغ من الدّهر لذةً إذا لم تعش عيش الغبي المذّمم

وتسمع فيه ما يُصم ذوي النّهى فلا روح إلا بالحمـام المصمـّم

وحظك فيه نبذة الفيل إن دنـا إليها ، نأت عن أنفه بالتشّمم[4]

---

(1)-أبو العلاء المعري : اللزوميات، ج1، ص: 65، 66.

(2)- محمد بنشريفة : شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند ، ص:172.

(3)- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ، ص : 47.

(4)- أبو العلاء المعري :اللزوميات ،ج2، ص :311.

فهنا التشبيه اقترن بطرافة جسدها ، وذلك بتكوين صورة تشبيهية حول المرء و الفيل بخرطومه وزفيره، وحال الميت في قبره لا يبالي بذمه أو مدحه ، فالواحد منه في القبر كمجموعة موتى و حالة الباكين على الآباء و ذهابهم لا تختلف عن حال الباكين عن الأولاد ، يقول:

و لا يبالي الميت في قبره بذّمه شّيع أو حمده

والواحد المفرد في حتفه كالحاشد المكثر في حشده

و حالة الباكي لآبائه كحالة الباكي على ولده[1]

فهنا الشيء الملاحظ أنّ أبا العلاء المعري قد جسد ها الصورة حول الميت و حال الناس بعد فقدانه وهو من دون شك استوحاها من الحياة التي عاش فيها فخبر لياليها ، فأراد بذلك إيصال رأيه و أفكاره بهذهالصورة حتى يقرب الصور و يوضحها إلى النّاس، وهذا ما يظهر لنا من خلال أشعاره وصوره المبتكرة جميعها.

والمعري معروف عنه أنّه جاب البلاد من الشام إلى بغداد ، فخبر أراضيها و قفارها و أهاليها ، لذا يصف هنا بلدة قد زارها تختلف عن كل البلدان .

يقول:

إن نفخت فيه الصّبا رأيته مثَل عمود الذّهب الُمحزّز[2]

والتمثيل هو من ضروب المماثلة و يلحظ بكثرة في ديواني المعري،فقد برع في هذا الباب البلاغي مثلما برع في الأبواب الأخرى التي رأيناها سابقا، فجاءت تمثيلاته فاعلة جيّدة توفي بالغرض المنوط بها، ومن بين تمثيلاته قوله :

جمال المجد أن يثنى عليه ولو لا الشّمس ما عُرف النّهار[3]

---

[1]- محمد بنشريفة : شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند ، ص :282.

[2]- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ، ص: 418 ، 419.

[3]- محمد بنشريفة : شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند ، ص :450.

فنراه يرسم لنا صورة بلاغية جميلة ماثل فيها المجد في جماله بنور و ضياء الشمس فلولاه لما مدحوه مثل الشمس وجودها يضيء و يحجب سواد الليل ، فيطلع النّهار و تزهو الحياة.

وقد مثل على تعالي الجاهل بالغبار الذي تذريه الرياح وبوداعة العاقل و حكمته ورزانته بجبال عاتية صلبة لا تزعزعها العواصف ، وهو في هذا المجال يقول:

وخفَّ بالجهل أقوام فبلّغهم منازلاً بسناء العــزِّ تلتفـع

أما رأيت جبال الأرض لازمة قرارها ، و غبار الأرض يرتفع

ويقول :

قد يبعد الشيء من شيء يشابهه إنّ السماء ، نظير الماء في الزرق[1]

فالمعري يرسم لنا صورة تمثيلية لكي يصل إلى معنى مراد وهو أنّ الشيء قد يبتعد عن شيء آخر يشابهه في صفاته و مزاياه و تشبيههما ببعض لا يعني أنّهما ملتصقان وهما في ذلك كسماء تشابه الماء في زرقتها ، فتظهر بلونها الأزرق كأنّها ماء بالرغم من ذلك التباعد الموجود بين السماء وبين الماء الموجود في الأرض،مثله الأشياء وهو هنا تمثيل رائع وفاعل استطاع الشاعر أن يقرب به المفهوم ويوضحه أكثر خاصة بعدما استعمل أشياء نلمسها في الواقع كالماء و نراها بأعيننا كالسماء والزرقة و غيرها.

كما أنّه مثل على الصّداقة المغرضة التي تجلب المصائب بالماء الذي يشرب وهو صاف وما أن يتعكر و يتغير لونه ينبذ و ينفر منه ، فقال :

إذا ودّك الإنسان يوما لخلّــة فغيّرها مّر الزمان تنــكّرا

ويُشرب ماءُ الُمزن مادام صافيا ويزهد فيه واردٌ إن تعكّرا[2]

---

[1]- محمد بنشريفة :شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند ، ص:210.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص :332.

والصديق مهما كان ينبغي الحذر منه على حد رأي المعري فإّما رفيعا و إّما وضيعا فسيؤذيك حتما مثل الصل (السيف) يؤذي المرء برأسه أو ذنبه، يقول:

خَف دنيا كما تخاف شريفا صال ليثُ الثرى بظفر وناب

و الضّلال التي يُخاف رداها شرُّها في الرؤوس و الأذناب

هل جنابٌ نحله غيُر دنيا نا فإنّا منها بشرٍّ جناب[1]

فقد حذر من الإنسان الوضيع و من الشريف العظيم، فكلاهما يسببان الأذى، فقال ما يظهره الصديق من محبة وصداقة لا ينبغي الاغترار بها لأنّك قد تكون مخطئا في حكمك عليه بالصداقة وهو أشد الأعداء مثله مثل الهجاء الذي يبدأه الشاعر بالتغزل و التشبيب يقول:

فاهجر صديقك إن خفت الفساد به إنّ الهجاء لمبدوء بتشبيب

و الكف تُقطع إن خيف الهلاك بها على الِذراع بتقدير و تسبيب[2]

لذلك أوصى المعري في بيته الثاني بعد معرفة حقيقة الصديق،بالهجران وقد علّل الشاعر بصور تمثيلية رائعة فساد الطبع و اختلال الموازين التي تجعل من الإنسان يهاب صديقه فعدواه مثل عدوى التثاؤب سرعان ما ينتقل من شخص لآخر.

يقول:

تواصل حبل النّسل ما بين آدم و بيني، و لم يوصَلْ بلامي باءُ

تثائب عمرو ،إذ تثائب خالد بعدوى، فما أعدتني الثوبـــاء

وزّهدني في الخلق معرفتي بهم و علمي بأنّ العالمين هباء[3]

ففساد الخلق من فساد السلف الذي سبقه ، يقول:

---

(1)- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج1 ، ص:122.

(2)- المصدر نفسه : ص :112.

(3)- المصدر نفسه: ص:36 .

وما فسدت أخلاقنا باختيارنـــا ولكن بأمـر سببته المقـــادر

وفي الأصل غشُّ الفروع توابع وكيف وفاءُ النجل و الأبُ غادر

إذا اعتلت الأفعال جاءت عليلة كحالاتها أسماؤها و الصادر[1]

فالمسؤول عن فساد الأمة هو فساد أجدادهم و أسلافهم السابقة وقد مثله بالأصل المغشوش الذي يولد فروعا تابعة لها في كل شيء.

وهكذا لقد تبدّى أنّ أبا العلاء المعري قد مثل بصور جميلة براقة و فعالة أراد الوصول بها إلى إيصال قناعاته و آرائه و أفكاره في الحياة و النسل و الخلق و الدّهر وغيرها ،كما فعل مع الصور الأخرى البلاغية التي أنتجها كالتشبه و الاستعارة و المجاز.

تشابه الأطراف :

إنّا أبالعلاء المعري لم يترك صنفا بلاغيا إلاّ و عرج عليه مستعملا إيّاه في شعره فلم يكتف لتبيين أسلوبه بالوضوح و الإبهام و التحليق و التشبيه وحتى التمثيل، بل راح معرجا إلى نوع آخر وهو تشابه الأطراف الذي ارتأيت أن أدخله في مبحث واحد مع التشبيه و التمثيل للتقارب الموجود بينهم، ومنه فإنّ عنصر تشابه الأطراف قسمان معنوي و لفظي << فالمعنوي هو أنّ يختم المتكلم كلامه بما يناسب ابتداءه في المعنى كقول الشاعر:

ألذ من السّحر الحلال حديثه وأعذب من ماء الغمامة ريقه

فالريق يناسب اللّذة التي ذكرت في أول البيت >>، أما اللفظي فهو نوعان أيضا أوله يتمثل في إعادة الناظم أو الناشر إلى لفظة وقعت في آخر الجملة،فيبدأ بها في بداية الجملة الثانية كقول تعالى: ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح و المصباح في زجاجة الزجاجة كأنّها كوكب دّري﴾[2].

أما ثانيه أن يعيد الناظم لفظة القافية من كل بيت في أول البيت الذي يليه كقول الشاعر :

---

[1]- المصدر السابق : ص:281.

[2]-النّور/الآية 35.

رمْتي وسْتر الله بيني و بينهما عشية آرام الكناس رميم

رميم التّي قالت لجبران بيتها ضمنت لكم ألاّ يزال بهيم[1]

ومن خلال تتبع ديواني سقط الزند و اللزوميات بجزئيه تمت محاولة إسقاط هذا المفهوم على أشعاره ،فوجد ماثلا في بعض أشعاره و برغم قلته و عدم تواجده بكثرة في ديوانيه إلاّ أنه تم استخراجه و تبيينه مادام ذكر عنده، ومنه ظهر في أّول بيت يحوي تشابها في أطرافه من خلال معانيه وذلك بقوله:

يفوح إذا ما الريح هبّ نسيمها شآمية كالعنبر المتضّوع[2]

فالعنبر هنا يناسب الشم الذي عبّر عنه بلفظة (الفوح) المذكورة في بداية البيت وتارة أخرى يحصل تشابه في المعنى بين الفوح أو الشم في آخر البيت و بين المسك في أّوله .

يقول:

وما للمسك في أن فاح حظ و لكن حظنا في أن يفوحا[3]

فالمسك إذن ليس له حظ في نشره الذي يفوح به و يشم، و إنّما الحظ فيه لمن يستنشق و يشم و ربما قصد بهذا البيت معنى آخر في ذلك الإنسان الطيب الذي شبهّه بالمسك ، فهو ليس المسئول عن طيبته و حظه لا يكمن في طيبته و هدوئه و رزانته وإنّما الحظ يحصل لمن استفاد من طيبة ذلك المرء ، و ربما قصد به أن الدنيا تفضلك لأخلاقك علمك و أنت تكره أن تمجدك و قد ألّم بهذا المعنى في موضع آخر، حيث قال : <<لأنّك تعلم حقيقتها:

فلا وأبيك لا أخشى انتقاصا و لا وأبيك لا أرجو ازديادا>>[4]

وهناك تشابه يخص الألفاظ لا المعاني مثلما رأيناه سابقا ،و نجده متجسدا في قوله:

---

[1]- السيد أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة ، ص: 321.

[2]- محمد بنشريفة : شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند ،ص :403.

[3]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 36.

[4]- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ، ص :269.

نون الهوان من الهوى مسروقة فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وإذا هويت فقد تعبدك الهــوى فاخضع للإفك كائنا من كانا[1]

ومن خلال هذه الإطلالة السريعة حول تشابه الأطراف في شعر المعري وجدت أنّه قد استعمله و لكنه قليل يسير ، و لكن قلته هذه لم تمنعه من آداء معناه و تحقيق المراد مع التأثير في أذن السامع خاصة ما كان مرتبطا بالألفاظ.

الاستعارة:

أجاد المعري الاستعارة كثيرا كإجادته للتشبيه و المجاز و غيرهما من الضروب البلاغية التي عهدت عنه و عرجنا إليها من قبل.

ولم يشُأ التعريج إلى تعريف للاستعارة لأنه ذكر سابقا، لذا سوف يتم الدخول في استعارات المعري مباشرة التي استعملها و تفنن فيها،فهو لم يقف على الحدود المتعارضة التي وضعها القدماء للاستعارة بل راح يجدد ويولّد و يستنبط أنواع أخرى تدخل في سياقها.

ومنها قوله:

هرب النّوم عن جفوني فيها هرب الأمن عن فؤادي الجبان[2]

ويقول:

ثم شاب الدّجى وضاف من المهجـ ر فغطى المشيب بالزّعفران

ونضا فجــره على سره الســـر حان بين المهاة و السّرطان[3]

---

[1]- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ، ص :195.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :242.

[3]- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ،ص :438.

ففي البيت الأوّل حاول المعري تبيين حالته بالضبط سهره الطّويل في اللّيل فعبّر عنه بالهروب الذي استعاره للنّوم ، فجعله كشخص ينفر ويبتعد كما يبتعد النوم عن جفون العيون ، وهو هنا وصل المعري به إلى المعنى الجميل بلفظ جليل؛ ليؤكد به على طول السّهر الذي أرقه و حرم النوم من جفونه.

والبيت الثاني رسم من خلال صورة استعارية مفادها اللّجى أو الليل الطويل الذي يؤرقه ، فيقطع النوم عنه و يبيت به يقضانا حيرانا متأملا ، فحدث أن استعار له الشيب الذي طاله من شدة خوفه من الهجر لمحبيه فجعل خضابه الزعفران.

فالهجر والابتعاد عمن أحبهم المعري كانا سببا في رسم صور استعارية مثلما رأيناها الآن ويظل المعري متحيرا من ظلمة الليل و سواده الذي أرقه بطوله و هجره وآلامه،فيقول متعجبا في صورة استعارية من ضياءه المفتعل كالشمس ،غير أنه عكس ذلك سيما وأنّه دجوجي حالك السواد لا يمكن لتلك الغياهب من الظلام أن تفك بمجرد تعرضه لنور الشمس و ضياءها ، يقول :

وهل يدعي الليل الدّجوجي أنّه يضيء ضياء الشمس شُهب ظلاله[1]

وقال جاعلا الدنيا معاكسة لآمال المرء مخيبة له :

دنياك غادرة وإن صاَحت فتًى بالخلق ، فهي ذميمة لأخلاق

ستمطر الأغمار من لذاتها سخبا تلبخ بمومض ألاراق

لم تُلق و ابلها و لكن خِلتها خيلا مّسومة مع العلاّق

وإذا المتن فتحت رتاج معيشة بكرت عليه بمحكم الإغلاق[2]

فالمعري خير الدنيا مثلما خير الحياة فوجدها غادرة خائنة جانبها ، فهي ذميمة الأخلاق مثلما أقر في البيت، تعاكس المرء بعد أن تغرر به ، فتغلق باب الآمال عليه بإحكام.

---

[1]- محمد بنشريفة : شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند ، ص :157.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات، ج2 ، ص: 148.

فالمعري مصدوم من الدنيا و من خيبات الأمل فيها،فخضاتها زلزلت الشاعر وجعلته لا يؤتمن محاسنها،و لذلك نراه دائم التشكي منها راسما لها صورا بشعة و منفرة حتى يتفاداها و يتجنبها السّامع ، وكل هذه المعاني و الأغراض يحققها المعري بنسجه لصور تشبيهية وأخرى استعارية مثلما اتضح ،ولا شيء يعجبه في هذه الدنيا التي آلمته بحوادثها غير شبابه الذي مّر به ، فهو أحسن مرحلة مّر عليها الشاعر تذكره بفتوته و قوته و حيويته ، لذا يتذكره دوما و في تذكره سرور و إطراب يشابه الغناء الذي يطرب من سمعه، و في هذا يقول:

وأطربني الشباب غداة ولى فليت نسيه صوت سيعاد

و ليس صبا يفاد ،وراء شيب بأعوز من أخي ثقة يفاد[1]

ويقول :

ركبت الليل في كيد الأعادي وأعددت الصباح له صيوحا

وأعظم حادث فرس كريم يكون مليكُه رجلا شحيحا

تُريك له سماء فوق أرض فروج قوائم يددن لُوحا[2]

فهنا يرى البطليوسي أنّ المعري جعل لليل فرسا أدهم كان للممدوح و لما جعل الفرس ليلا لدهمته و سواده جعل صبوحه صباحا لبياضه، وذلك إكمالا للصنعة وتثمينا للمعنى[3].

و الحق عنده أيضا درة ثمينة يجب المحافظة عليها وطالبه كذلك الغواص الذي يتحرى الروية والفكر، يقول:

ولم يتناول ذّرالحق غائصٌ من النّاس، إلاّ بالروية و الفكر[4]

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص :38.

[2]- المصدر نفسه : ص :34.

[3]- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند، ص :250.

[4]- أبو العلاء المعري : اللزوميات، ج1، ص :353.

وقد استعار للرشاد و الهداية سيف الراح من غمده لتضرب به من يشريها ،يقول:

كم سلّتِ الراح من يمناك خادعةً سيف الرشاد، و أعطته لمن ختلك

قتلتها بمزاج فهي ثائـــــرة بما فعلت وكـــم مثل لها قتلـك

ركبت منها كُميتا خرّ فارسها ولـو ركبت سواها أشعبا حملك[1]

فهنا يرسم أبياته هذه في إشارة إلى السكر الذي يضر بالعباد لذا وجب الاستغناء عنه والابتعاد منه لطالما فيه الأذية و الضرر، و القوافي عنده كإنسان يمشي و الشعراء كأنّهم أمراء مسئولون عن قوله ، يقول:

أتمشي القوافي تحت غير لوائنا ونحن على قوّالها أمراء[2]

فالخوارزمي يقول في إطار شرحه للبيت أنّ العرب تسمي البيتمن الشعر قافية وربما سموا القصيدة قافية،فيقولون : رويت لفلان كذا و كذا قافية.

فإذن الاستعارة باب واسع وما عرضته الآن كان تكملة لما سبق ذكره في فصل سابق حتى أبين أهمية الاستعارةعند المعري و ميّزتها و أنماطها ومدى استيعابها لتلك المعاني التي أرادها الشاعر، فشكل ألفاظه في صورة استعارية حتى يتسنى له الوصول إلى أهدافه وآرائه و أفكاره.

مراعاة النظير والتوجيه:

و أوّل ما أبدأ به هو مراعاة النظير الذي يعد ضربا من ضروب البديع المعنوي << فهو الجمع بين أمرين أو أمور متناسبة لا على جهة التضاد و ذلك إمّا بين اثنين أو أكثر >>.[3]

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات، ج2، ص : 170.

[2]- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ، ص:398.

[3]- السيد أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة ، ص :304.

و يظهر في قوله تعالى: ﴿وهو السميع البصير﴾[1]ومن الأمثلة الشعرية الشاهدة على ذلك قول الشاعر : <<

إذا صدق الجدُّ افترى العمّ للفتى مكارم لا تخفى و إن كذب الخال

فهنا الشاعر يجمع بين الجد و العم و الخال ،و المراد الأّول بالجد هو الحظ وبالثاني العم وهو عامة النّاس ، وبالثالث (الخال) و يراد به الظن>>[2].

و يلحق بمراعاة النظير ما بني على المناسبة في المعنى بين طرفي الكلام كأن تختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى ،و مثال ذلك قوله تعالى :﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ [3].

<<فإن (اللّطيف) يناسب عدم إدراك الأبصار له، و(الخبير) يناسب إدراكه سبحانه تعالى للأبصار>>[4]،كما يبنى على المناسبة في اللفظ ، نحو قوله تعالى﴿ الشمس و القمر بحسبان والنجم و الشجر يسجدان﴾ [5].

فالنجم كوكب من الكواكب المعروفة الأخرى كالشمس و القمر وغيرهما وهو في الآية دل به على النبات و ليس على الكواكب،ولكن ربطه بما يناسبه وهما الشمس و القمر فأصبح النجم مناسبا لتلك الكواكب ليس في المعنى و لكن في اللفظ.

وانطلاقا من هذا التعريف المبسط لمراعاة النظير حاولت تقصيه كغيره من الفنون البديعية والبيانية الأخرى من خلال شعر أبي العلاء المعري ، فوجدت أنه قد أجاده أيما إجادة، فقد جمع به بين جمل عديدة في باب الاستعارة كأن يجمع بين الربح و الخسارة والتجارة .

---

[1]- الشورى /الآية11.

[2]- حفني ناصف وآخرون : دروس البلاغة ، ص :108.

[3]- الأنعام /الآية 103.

[4]- السيد أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة ، ص: 304.

[5]- الرحمن /الآية5 ، 6 .

يقول :

وما رِبحُ الدنيا بممكن تاجر على حالةٍ، بل كلّ أعمالها خُسُر[1]

ففي هذه الدنيا لؤم وشؤم و خسارة لا يمكن للمرء أن يتخيل نفسه رابحا فيها ؛لأن كل أعمالها خُسر، ومن أمثلة المعري الشعرية في هذا السياق أيضا قوله:

وحرف كنون تحت راء و لم يكن بدال يؤم الرّسم غيّره النّقط[2]

فهنا قد ناسب في جمعه بين حروف الهجاء،و إن كان قصده غيرها، لأنّ مراده بالحرف هو الناقة و الدلالة عليها هو تقوسها كحرف النون المذكور، وقصد بالراء الراكب الذي يضرب رئتها ، وبالدال الأفق بها ،و قصد بالرسم رسم المنزل ،و بالنقط المطر الذي ينزل [3].

فإذن المراعاة في هذه الألفاظ التي كونت البيت ظاهرة واضحة، كما نراه يراعي في جمعه بين ألوان من المتناظرات التي تدخل ضمن سياق الزراعة فيجمع بين الأبيض والأخضر والزرع وكل ما هو محصود ،يقول:

وا بيض ما اخضّر من نبت الزّمان بنا وكلّ زرعٍ إذا ما هاج محصود[4]

فقد استعار البيت للزمان ، فجعله كنبت يبيضّ و يخضّر؛ أي يتلون بتلون الحياة لكن هيهات مهما علا هذا النبت،فإنه لا بد من أنه سوف يجيء يوما يحصد فيه هذا الزرع أو النبات ، وربما يشير المعري من خلال هذا البيت إلى الإنسان في هذه الحياة ونهايته الأكيدة التي تنتهي بالموت أو الحصاد.

ويرى في موضع آخر يجعل الخلق أو الأنام كحيتان تسبح في لجة و في بحار مليئة بالأذى الذي يطول البشر، يقول:

الخَلْقُ حيتان لجةٍ لعبت و في بحار من الأذى سبحوا

---

[1]- أبو العلاء المعري :اللزوميات ،ج1، ص: 278.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 177.

[3]- ينظر صفي الدين حلي: شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع ، ص: 128.

[4]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج1، ص : 219.

لا تحفلن هجوهم ومدحهم فإنّما القـــوم أكلب نبـــع

ولا تقصب أسدهم إذا زرأواو قل تداعت تعالــب ضُــبع[1]

فإذن يبدو المعري من خلال مراعاته للنظير أنه استعمل الاستعارة و أجاد فيها، وذلك واضح من خلال تلك الأمثلة التي استنبطها من مصدر واحد اشتقت منه جميعا،فجمع بينها للاشتراك الحاصل في المصدر، وهذا ما يبين لنا لباقة المعري و حسن اختياره للصور و براعته في التأليف والجمع بين الألفاظ المتنافرة التي تشترك في معنى واحد و تدخل ضمن سياق واحد.

و يجمع بين الأقمار؛لأن أصلها واحد لذلك يقول :

فلا تحسبن الأقمار خلقا كثيرة فُجملتها من نير متردد[2]

وربما كان قصد المعري بالأقمار هو تلك الأعلام البارزة في المجتمع كالعلماء والأئمة وكل من له شأن ، و بفضل نصيحته و إرشاده ينور العقول و يضيء الدروب مثلهم مثل الأقمار أو الكواكب في السماء وظيفتها تقتصر على الضياء.

التـوجيــه:

فهو من أبرز أنواع المماثلة في شعر أبي العلاء المعري و يعني عند أهل البلاغة والنقد بأنه <<إفادة معنى بألفاظ موضوعة له و لكنها أسماء لناس أو لغيرهم كقول بعضهم يصف نهرا:

إذا فاخرته الرّيح ولّت عليلــة بأذيال كثبان الثـــرى تبعثـــر

به الفضل يبدوا و الربيع وكم غدا به الروض يحي وهو لاشك جعفر>>[3]

فالفضل و الربيع و يحي و جعفر هم أسماء ناس، ومن الأمثلة المستنبطة من شعر المعري التي تحاكي المثال الأّول نراه يوظف هذا الضرب بقوله :

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :51.

[2]- حفني ناصف وآخرون : دروس البلاغة ، ص: 106.

[3]- المرجع نفسه:ص: 106.

سألن فقلت : مقصدنا سعيد فكان اسم الأمير لهن فالا

مكلف خيلِه قبض الأعادي وجاعلُ غابه الأسل الطوالا[1]

فهنا يستعمل اسما مستحسنا وهو اسم سعيد و الأمير يتفاءل به من يسمعه ويتطيروا بعكسه ؛لأنه يكرهه كاسم (العبدوس) ؛ حين قال عنه المعري:

سمّتك أمك عبد وقد صدقت وكلِ ف يُفلح من نصف اسمه بوس[2]

ويقول بعد(عبدوس)

باهت بمهرة عدنانا فقلت لها لولا الفصيصي كان المجد في مضر[3]

فلولا المهري الذي هو من قضاعة والفصيصي الذي هو من تنوخ ،ولولا العدناني لكان هذا كلّه في مضر و في (باهت) ضمير يعود على الوجناء والمراد أنّه لم يكن لأحد مجد إلاّ لهم[4]،فهو هنا يمدح شجاعة وجودة وإحسان الفصيص بالتنوخي، ويقول أيضا في موضع آخر مستعملا أسماء أشخاص للدلالة به على معان أرادها من مثل:

رعيتها أكرم عود عودا الصِّلّ و الّصفصل و العضيدا

والخاز باز الشم المجودا بحيث يدعو عامر مسعودا[5]

فهنا يدعو (عامر ومسعود) و هما راعيان، فينبه عن كثرة النبات في هذا الموضع بحيث إذا غاب أحدهما عن صاحبه لا يعرف موضعه إلاّ أن يناديه،فإذا سمع صوته عرف مكانه،وقد أكثر المعري استعاراته فجاء بها فيما يخص النحو والصّرف والبيان والعروض هذا الأخير استعمله ، بقوله:

وفٌر هذا الفتى مدير بسيط وافٌر كاملٌ خفيفٌ طويلٌ

---

(1)- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :166.

(2)- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ، ص :12.

(3)- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :88.

(4)- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ،ص :134.

(5)- المرجع نفسه : ص :12.

ستة فيه من نعوت القوافي ما لها شُجّة تأويـــــــل.

سوّلت لي نفسي أمورا وهيـ هات لقد خاب ذلك التسويل

واتهامي بالمال كلّف أن يط لب مني ما يقتضي التّمويل

ويقول الغـواة خوّلـك الله كذبتـم لغيـري التخويـل [1]

هنا نرى المعري قد اقتبس من العروض أسماء بحوره للدلالة به إلى أنّه قد اتهم بوفرة المال والبخل، غير أنه يؤكد عكس ذلك موظفا في ذلك ستة أبحر منها المدير و البسيط و الوافر و الكامل و الخفيف و الطويل،وقال متمثلا بأشعاره عن الأوزان:

فاقتنع بالرّوي و الوزن مني فهمومي ثقيلة الأوزان [2]

فالمعري رسم بيتا استعار فيه الروي و الوزن اللذان يبنيان القصيدة كاملة و هما اسمان عروضيان للدلالة به على الهموم التي أرقته و بنت جسدهالنّحيف، فأثقلت وزنه ،والمعري لم يكتف بذكر الأوزان، بل نراه يفاضل فيما بينهما ، يقول:

لا تُمسين على من ماتَ ملتهفا فالناشئات إذا طال المدى عجز

قصّرتَ أن تدرك العلياء في شرف إنّ القصائد لم يلحق بها الّرجز [3]

فمن يملك وزنا عاليا في هذه الدنيا معناه أنّه هو وحده من يملك الشرف، بل هناك من هو أشرف و أوزن منه مثله مثل القصائد التي تقدم على الأراجيز.

ونراه يذكر الحروف الصحيحة و المعتلة حتى يتوصل به إلىأنّه قد يتبادر إلى الأذهان أنّ المرء صحيح ليس به علة ، و إنّما هو مطبوع على الاعتلال لمباينة طباعه وتناقصها ، وهو في ذلك يصور حاله كحرف بني على الاعتلال في أصل وضعه فظن أنّه صحيح ،ويظهر ذلك بقوله:

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص :201.

[2]- أبو العلاء المعري ، سقط الزند ، ص :244.

[3]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص:3.

وحالي خيُر حالٍ كنت يوما عليها، و هي صبٌر و اعتزال

و يُلقى المرء في الدنيا صحيحا كحرف لا يفارقه اعتلال[1]

ويقول:

جسم الفتى مثل قام فعل مذ كان ما فارق اعتلالا[2]

فالمرءيظن أنّه سليم في هذه الدنيا خال من العيوب،بيد أنه مريض ومعتل بأنواع من العلل والهموم، وهذا ما وضحه المعري من خلال بيته الذي استقى معناه من دنياه التي عاش فيها،فجمع عن طريقها آراء كثيرة حاول توصيلها إلى الإنسان في قالب شعري نوعه و أبدع فيه، فتارة يشبه وتارة يستعير، و أخرى يماثل ويوجه ، وهذا ما ظهر من خلال أشعاره و هذا لدليل واضح على قدرته وطلاقة فكره و حريته في التعبير و رغبته في إبداء رأيه في الدنيا وحوادثها و في هذه الحياة وما يلم بها.

كما أبدى رأيه عن الزواج بالمرأة مشبها ذلك بعامل الخفض و الجر، يقول:

لا تدنون من النســـــ ـا ءِ فان عقْب الأُمِي ُمُّ

و الباء مثلُ الباء تخفضُ للدناءة أو تجـــر[3]

فهو هنا يوصي بعدم الاقتراب من النساء و الابتعاد عن الزواج الذي اصطلح عليه بالباء الأولى أما الثانية فهي حرف الجر، فلابد من خفضه وإسقاطه للدناءة الحاصلة منه على حد رأيه.

ويظهر وهو يستسيغ الزحاف فيستعمله في هذا الضرب للدلالة به على الرديء المنافق الذي يكرمه على عيوبهلبلى من نصحه و إرشاده ليزداد غيّا،وهو في ذلك كقريض أو شعر بني على الزحاف لطارئ ما فانشر وراج،يقول:

لقد نفق الرديء وُبّ ُمٍّ من الأقوات يُجَعل في الصّحاف

---

[1]-أبو العلاء المعري : سقط الزند ،ص :157.

[2]-أبو العلاء المعري :اللزوميات ،ج2، ص :210.

[3]-أبو العلاء المعري ،اللزوميات ،ج1، ص :220.

و أكرمني على عيبي رجالٌ كما ُويَّ القريض على الزحاف

ومن يركب إلى الهيجاء خيلاً فإنّ سواه يُقدمُ وهو حافي[1]

وهكذا يظهرلمعري موظفا لفن التوجيه مستعملا إيّاه في شعره للدلالة به على معان جمة استقاها من الحياة ، فأراد أن يوصلها عن طريق ذلك النسيج المتكامل من الشعر.

2- الإجمال و التفصيل:

لقد أبدع الشاعر في هذا النوع ،فكان يجمع و يفرق و يلف و ينشر،لافتا بهم إلى صور عامة ظاهرة للعيان ، موضحا بهم أهم أجزاءهم ومزاياهم ،لذلك أحاول أن أدرج بعض أنواعه منها:

الجمع والتفريق:فالجمع << هو أن تجمع بين شيئين فصاعدا في شيء واحد كقول الشاعر :

إنّ الشباب و الفراغ و الجدّه مفسدة للّرأي أي مفسدة>>[2]

فقد جمع الشباب و الفراغ و الجدّة و خصّهم بميزة واحدة و هي إفساد الرأي ،أّما التفريق هو <<أن يعمد المتكلم إلى شيئين من نوع واحد ، فيوقع بينهما تباينا و تفريقا بذكر ما يفيد معنى زائد فيما هو بصدده من مدح أو ذم أو سب أو غير ذلك من الأغراض>>[3].

نحو قول الشاعر:

ما نوال الغمام وقت ربيع كنوال الأمير يوم سخاه !

فنوال الأمير بدرة عين ونوال الغمام قطرة ماء[4]

وكقول شاعر آخر في هذا النوع :

من قاس جَدواكَ يومًا بالسُّحبِ أخطأ مدحك

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص :220.

[2]- بدر الدين بن مالك : المصباح في المعاني والبيان والبديع ، ص :247.

[3]- السيد أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة ، ص:311.

[4]- بدر الدين بن مالك : المصباح في المعاني والبيان والبديع ، ص :247.

السّحب تُعطي و تبكي وأنت تعطي و تضحك[1]

و للمعري أبيات جميلة في هذا الفن منها قوله :

والعيش ضدٌّ القول يُحمد طوله ويُذَم هادي القوم في الإكثار

قتلتكم الدنيا فهل من قائـم في أُمكم يرضى بمطلب ثار[2]

فأن تعيش في هذه الدنيا عيقةصامتة تسكت عن حقك الذي يُهدم و ترى الباطل بدون أن تحرك ساكنا تكن محمودا تُشكر على سكوتك و تذم إذا حاولت هداية القوم وتبصيرهم إلى النّور.

و المعري هنا يقصد نفسه التي أبَت إلاّ أن تنصح و تهْدي و تنشر أفكارها و آرائها حول هذه الحياة التي شبّهها بنار أوّلها و آخرها رماد و اندثار،يقول:

وكالنّار الحياة فمن رماد أواخرها و أولها دخان[3]

يقول " التبريزي" أثناء شرحه للبيت: أنّ أوّل ما يظهر من النار الدخان إذا طرح عليها الوقود ولا ينتفع به و آخرها رماد لا نفع فيه و إنّما ينتفع بما هو وسطها بين الدخان والرماد، فهنا المعري قد أشار به إلى العيش الذي ينتفع بأوّله فلا قيمة للطفولة، و لا بآخره لأن فيه عجز و شيب، وإنّما ينتفع بأيّام الشبيبة و الصِّبا تلك الأيّام أحرقت قلب المعري فظلّ يناشدها دوما بأشعاره يتمنى رجوعها حتى يحسّ بمتعة الحياة التي فقدها بفقدانه .

والحياة عنده قد ترزقك شرا أو خيرا،فهي مليئة بالأرزاق وسوف تظل تغدق عليك بشّها وخيرها .

يقول:

لم تنصفي ،غُذيت أطيب مطعم وغذاؤهن الشت و الطباق

هل أنتِ إلاّ بعضهن و إنّمـا خير الحياة و شرها أرزاق

---

(1)- السيد أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة ، ص:311.

(2)- أبو العلاء المعري : اللزوميات، ج1، ص :398.

(3)- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ، ص :178.

حقّ عليها أن تحنَّ لمنــزل غذيت به اللّذات وهي حقاق [1]

و القصد من البيت ليس في الحديث عن الحياة و إنّما بالوصول إلى معنى جليل يريد إيصاله حول المرأة و قيمتها خاصة و أنّه خاطبها بقوله مستفهما (هل أنت) بمعنى أنك لا تختلفين عن أخريات مثلما وجد فيك الخير لابدّ من وجود الشر، فهو متأصل فيك كتأصله في الحياة.

وللحياة عنده وجوه، وهذا ما وضحه بقوله:

ليل بلا نور أَجَنّ بَمهمــه حبس الأدلة ليس فيها مثار

و هي الحياة : فعفة أو فتنة ثم الممات ، فجنة أونار[2]

والمعري لأنّه ضاق لوعة الفراق و ألمه ، يدرك تماما هذا الشعور، لذا نجده يعبر عنه ضاربا به صورة استوحاها من صميم تجربته ، فجمع بين التغرب والنوى و التفارق وجعل لها حكما واحدا ألا وهو الشرارة الملتهبة من النّوى و البعد وأثر الهجر وهذا ما حاول قوله متأثرا به:

مثل الفتى عند التغرب و النّوى مثل الشرارة ، إن تفارق نارها

إن صادفت أرضا أرتك خمودها أو وافقت أكلا أرتك منـــارها [3]

والجود عنده يقّسم نائله إلى غنى و فقر، كقسمة المطر بين النبات والشجر ،يقول موضحا ذلك عبر هذا الفن :

وقاسم الجود في عال ومنخفض كقسمة الغيث بين النّجم و الشجر[4]

وقد جمع أيّام الدّهر في ثلاثة وفرقهم ، فبيّن الأمس الذي مضى و اليوم الذي نحن فيه و الغد الذي نأمل أن نصله ونواصل عيشنا فيه ،و البدر واحد بنوره و لكنه يغيب ويحي ، يقول:

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص : 138.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص :316.

[3]- المصدر نفسه : ص:347.

[4]- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ، ص :138.

ثلاثة أيام هي الدّهر كلّه وما هنّ غير الأمس واليوم والغد

وما البدرإلاّ واحد، غير أنّه يغيب و يأتي بالضياء المجدد[1]

فبنوالبشر أّولهم مثل آخرهم في هذه الحياة ، فقد شبّههم ببدر واحد موجود في هذه الحياة يغيب مخلفا ظلمة ووحشة و يأتي بالضياء ينير من جديد وهذه سنة الحياة.

ويقول أيضا مفرقا بين الديانات عن طريق الأيام :

ثلاثة أيّـــام لأهل تنافـــر ولكنّ قول المسلمين هو النّبت

يرى الأحد النصري عبدا لأهله و جمعتنا عيد لنا و لك السّبت

وما النّاس إلاّ خالف بعد سالف كذلك نبت الأرض يخلفه النّبت

إذا افتكر الإنسان في أمر دينه بـــدا نبأ يثني الحجى وبه كبتُ

فهل خبر عن أنفس بان وفدها إلى الله معمور بأجسامها الخْبتُ [2]

فإذن المعري لاحظ تعدد الديانات والشرائع ،لذا قسّمهاإلى أيّام و فرقهين تلك الأيّام بحسب المذاهب والديانات،وهذا ما أكده أكثر في قوله أيضا:

ومتى ركبت إلى الديانة غالها فكّر على حسن الضمير دسائس

والعقل يعجبُ و الشرائع كلّها خبر يُقلد لـــتم يقسه قـــائس

متمجسون ، و مسلمون و معشر متنصرون ، و هائد ونر سائس

وبيوت نـــيران تـزُار تعبـــدًا ومساجد معمورة و كنـــائس[3]

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :51.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص: 131 ،132 .

[3]- أبو العلاء المعري :اللزوميات، ج2، ص :28 ،29 .

فالمعري هنا من خلال هذه اللوحة الفنية التي رسمها وجسدها في شعره حاول جمع الشرائع جميعا التي لها حكم واحد وما على الإنسان المتتبع لمذهب من مذاهب إلاّ التقليد والإتباع.

وواصل إلى أن فرق بين هذه الجموع فذكر أصحاب الديانة المجوسية و المسلمون والنصارى واليهود،فهي كلها تنظّم تحت لواء الشرائع و الديانات.

فيكون هنا المعري قد وصل إلى مبتغاه و هو التعريف بهذه الشرائع ؛ حتى يتقي الإنسان شر المذاهب الأخرى، فكأنه يوصيه بإتباع الإسلام دون سواه.

و المعري قد خبّر الناس مثل خبرته بالحياة فعلم بوجود الخسيس و الجاهل و الكريم والبخيل ،فقال جامعا إياهم كلهم في هذه الحياة مفرقا بين شيمهم :

توافقنا على شيم ٍخساسٍ فما بالُ الجهول يُسِرُّ كبرا

فهذا يسأل البخلاء نيلا وهذا يُضرب الكرماء هبرا

جلوس المرء في وبر مليكا نظير طلوعه في الهضب وبرا

ودعواك الطبيب الخير عضو أخف عليك من دعواك جبرا[1]

والإنسان عنده روح وجسد تصعد الأولى إلى السماء، فيهبط الجسد إلى التراب وهذا ما بينه في جمعه و تفريقه ،يقول:

سْوان ضدّان من روح ومن جسد هذا هبوط وهذا فيه إصعاد

أخذُ المنايا سوانا و هي تاركة قبيلنا عظة منها و إيعاد[2]

ومثلما تلقي النساء دررها وحليها من شدة الخوف إذا أصابها مكروه ، فإن الرجال في ساحة المعركة يلقون دروعهم من شدة الجزع و الرهبة من العدو، كل هذا صّوره المعري في بيت ساوى فيه المعري بين النساء و الرجال في الجزع، يقول :

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج1، ص :343.

[2]- المصدر نفسه: ص :222.

تُلقى الغوائي حفيظ الدُّر من جزع عنها و تلقى الرجال السّود من خور[1]

وهكذا يظهر من خلال هذه الأبيات التي انتقيتها من شعر المعري للتدليل بها على هذا النوع من البديع المعنوي أنّ المعري قد استعمله جامعا وجاملا لأشياء عديدة تقع تحت سياق واحد ويحكمها حكم واحد للوصول بها إلى هدفه المنشود،كما أنّه أضفى جمالا على الأبيات و رونقا خاصا ، فهو كغيره من الضروب يدفع بالقارئ إلى إتباعه والشوق إلى معرفة الأشياء التي خصّها بالجمع و بالتفريق،وهذا ما يساعدك على الإحساس بتلك النشوة و أنت تقرأ و تتبع هذه المواضيع الشيقة من خلال أشعار المعري المتجسدة في ديوانيه سقط الزند و اللزوميات بجزئيه.

اللّف و النشر:

وقد ظهر هذا الضرب كسمة ميزت أسلوب ومعاني المعري وهو يعني عند أهل اللغة والبلاغة بأنّ << تلف شيئين في الذكر أو أكثر ثم يتبعهما متعلقات يهما، إمّا على الترتيب في اللف و إما على العكس >>[2].

والمثال على الترتيب في اللف و الطي يظهر من خلال قوله تعالى:﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل و النهار لتسكنوا فيه و تبتغوا من فضله﴾[3]، فهنا يجمع بين الليل و النهار، ثم ذكر متعلقات الليل و النهار على الترتيب ووفق تتابع واضح، ويجوز أن يكون على خلاف الترتيب ،فيذكر شيء ثم يذكر متعلقات بهما و لكن ليس على الترتيب كقوله:

ولحظة و محياه وقامته بدْر الدّجى و قضيب البان الرّاح[4]

فالملاحظ هنا أنّ بدر الدجى راجع إلى المحيا، وهو الوجه وقضيب البان راجع إلى القامة والراح راجع إلى اللحظ ،وهنا لف و نشر بدون تتابع و ترتيب.

---

[1]- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ، ص:154.

[2]- بدر الدين بن مالك : المصباح في المعاني والبيان والبديع ، ص :246.

[3]- القصص /الآية 73.

[4]- السيد أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة ، ص :310.

وإذا تتبعت شعر المعري لوجدت أنه قد استعمله في أشعاره لافتا به الأنظار على أمور معينة موضحا أجزاءه واحدا واحدا ومن ذلك قوله:

فيا أحلم السّادات من غير ذلة و يا أجود الأجواد من غير موعد

وطئت صروف الدّهر وطأة ثائر فأتلفت منها نفس مالم تعقد

وعلمته منك التأني فانثنى إذا رام أمرا رامه بتأيّد[1]

والبطليوسي يؤكد في شرحه للبيت معقبا على قوله (من غير ذلة) لكي يتمم به معنى قد بدأه عن الحلم لأنّ الحلم إنّما يستحسن إذا كان عن قدرة و لم تعد منه مذلة على صاحبه فإذا كان فيه مذلة عليه كان الجهل خيرا منه [2].

وقد لف الأيّام مع بعض ،فجعلها ممتعة و مؤنسة ثم رجع و نشر ذلك الحكم، فإذا هي آل وحال و علياء وعمر يقول:

فاسعد بمجد ويوم إذ سلمت لنا فما يزيد على أيامنا الأخُر

ولا تزل لك الأيّام ممتعة بالآل و الحال و العلياء و العمر [3]

فهنا يلحظ أنّ المعري جعل من الأيّام كلها أعيادا وهذا ما أكده بقوله في البيت الأول (فما يزيد على أيامنا الأخر)،فهي ممتعة ومؤنسة لأنها تزين حالك و تسمو بك إلى العلياء و تزيد من عمرك و هي كآل يبدو ماء فتغرك بمظهرها،كل هذه المعاني شرحها المعري متتابعة للدلالة بها على تلك الأيّام التي كفها مع بعض ثم نثرها في آخر أبياته معقبا عنها.

و لطالما أشوى الزمان المعري بحوادثه فلف معانيه في صدر البيت و لكنه عاد ونشرها معقبا عنها في عجز بيته يقول:

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :52.

[2]- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ،ص : 356.

[3]- محمد بنشريفة : شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند ، ص: 80.

أظن زماني: كونه وفساده وليدا بترب الأرض يلهو و يعبث [1]

يرسم هنا صورة عن الزمان الذي طواه و لف معانيه بما يحمله من آلام وأحداث ، ثم نشر هذا المفهوم ، فركز على كونه و فساده الذي يلهو و يعبث به وهو على حد رأيه كان وليدا بترب الأرض خلقت مزاياه معه مذ خلق الزمان وذكر على ممر العصور.

والليالي في هذا الزمان تكلفنا الكثير من الأقوال التي تروعنا و تبهرنا بأحداثها، حتى تتطلب منا القول و الشعر نتيجة تأثرنا بها و بما خلفته في نفوسنا من أحداث مؤلمة وحزينة، ولذلك يرى المعري المرء في ذلك كصانع القريض الذي له معان وأوّل تابع لمعنى القريض كان ذلك الفكر الذي يهتم به حتى يتوصل عن طريقه إلى هدف معين، وهذا ما أكده بقوله الذي جسّد فيه الكف و النشر:

ولولا تكلفنا اللّيـــالي لطال القول و اتصل الروي

ولكن القريض له معان وأولاها به الفكر الخلـي[2]

و الشر عنده متأصل في العالمين ، فطواه بذلك في صدر البيت و نشره في عجزه حين أقر بأن أهل الوهود و أهل الذرا هم أهل الشر ،أما أناس الخير فهم النساك وأهل التقوى، يقول:

هو البشر قد عمّ في العالمين أهل الوهود و أهل الذرا

ليفتن في صمته نـــاسك إذا فتّن فيما يقول الورى[3]

فالعالم مليء بالشر وهو ابن قد أخذ ونهل شره من الدّهر الذي عدّه والده وهذا ما أكده في بيت له ؛ حين عمد إلى اللف والنشر .

يقول :

والعالم ابـــن و الدّهر والـــده نجل غويٌّ ووالـد غـدر

---

[1]- أبو العلاء المعري :اللزوميات،ج1 ، ص:166.

[2]- محمد بنشريفة : شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند ،ص : 364.

[3]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص :58.

وفي التـرب و الصّخر و الثمار وفي الماء نفوس يصوغها القدر

فصـــــــادر ورود يدركـــــه و وارد لا ينـــــاله صـدر

إن سلم المـــرء من عواقبـــه فكل رُزْء يصيبـــه هـــدر[1]

و الّسيف عنده تتفاضل الأرواح و تتغير حتى تصل إليه لتنال شرف الموت على يده، فالأرواح كلها آيلة على يديه إلى الموت، و لكنه نشر هذا المفهوم في عجز بيته مركزا أرواحه على الضراغم والفرسان و الجزر، وهذا ما يؤكده قوله:

تغايرت فيه أرواح تموت به من الضراغم و الفرسان و الُجزر[2]

فإذا كانت تلك الروح روح إنسان غارت من روح إنسان آخر شرف بقتله على يد ذلك الّسيف ،و السيف هنا يرمز له إلى الممدوح و ربما الممدوح هو المعري نفسه.

فإذا كانت تلك الروح لبي يروح إنسان فقد تكون روح ضرغام ضخم أو فرسان أو إبلا تلحقها هي الأخرى الغيرة حتى كأنّها تّود أن تقتل به (السن) لتنال الشرف بذلك.

أما إذا كانت تلك الروح ليست بروح إنسان،فقد تكون روح ضرغام ضخم أو فرسان أو إبلا تلحقها هي الأخرى الغيرة حتى أنها تود أن تقتل بذلك السيف لتنال الشرف، ففي هذا البيت و غيره تشويق ناتج من استعماله لعنصر اللّف و النشر.

و القول عند المعري يشبهه بخلق إنسان قد يكون سيئا قبيحا أو يكون جميلا حسنا والنّاس أيضا مثل الّدهر الذي يشع نورا و بهاء ،كما يبعث بسواده و ظلمائه أيضا ، وهذا ما أظهره في بيته مستعملا الطي و النشر، يقول:

و القول كالخلق من سيء ومن حسن و النّاس كالّدهر من نور و ظلماء[3]

---

(1)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1،ص : 324.

(2)- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ، ص: 157. الجزر: جمع جزر و هي الناقة.

(3)- أبو العلاء المعري : اللزوميات، ج1، ص :52.

فإضافة إلى المعنى الذي أراده المعري بالوصول إلى حقيقة النّاس أضفى تشويقا خاصا للسامع خاصة ، و يظهر ذلك جليا حين أراد لفت انتباه القارئ بالحديث عن القول والناس ثم عمد إلى توضيح تلك الأجزاء وفق تتابع منطقي ، فأعقب كلامه عن الخلق بقوله (سيء و حسن) و تلاه بالتحدث عن الدهر الذيميّزه بنوره و ظلمائه في الشطر الثاني وهذا من حسن الكلام الذي دلّنا به المعري.

والممدوح يتقي بخيله كل أمر عظيم ، ومن بين الأمور العظيمة التي يهابها ذلك الممدوح هو جيش عرمرم، وهنا يكون المعري قد لف ثم وضحه بنشره ذلك الأمر الذي خصصه بالدراسة وهو العظمة فجعل الجيش بعظمته جزءا منه يقول:

المتقي بالخيل كل عظيمـــة و المستبيح بهن كلّ عرمرم

و مزيرها الغور الذي لو سلمت ريح على أرجاءها لم تسلم[1]

أمّا بنات الخيل التي رمز بها إلى البلدان فقد لف ما يتعلق بها وخصها لرجل كان يغزو تلك الأماكن ثم حاول شرحها يتعلق بها موضحا إيّاها بذكر أسماء أماكن معينة كدلوك وصارخة وآلس واللقان وهي كبها مواضع في بلد الروم،يقول موضحا ذلك:

بنات الخيل تعرفها دلوك وصارخة و آلس و اللّقان[2]

فما يستنتج أنّ أبا العلاء المعري استعان بهذا الضرب من البديع الذي يخص المعنى ألا وهو اللف والنشر، فكانت له جاذبية خاصة لما يتركه من أثر في النفوس وتشويق دائم يلفت به نظر السامع أو القارئ إلى أمر ما أراده المعري وتوضيحه بترتيب أو بغير ترتيب.

لذا تظهر براعته و إجادته فيه مثلما برع في الأصناف الأخرى التي تناولتها من قبل وخصصته بالدراسة و التحليل.

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص : 213.

[2]- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ، ص :202.

التّوشيـح:

و التوشيح أيضا يعد ضربا من ضروب البلاغة التي لقيت صدى عند أهلها، فاهتموا به مركزين على تحديد مفهومه الذي اقتصر عندهم في كونه<< أن يكون معنى أوّل الكلام دالاّ على لفظ آخره فينزل منزلة الوشاح>> [1].

ومعناه أن يأتي باللفظ مثنى مع بعض مطويا إمّا في صدر البيت أو في عجزه ثم يفسر وينشر الأجزاء للوصول إلى المعنى المراد.

وبالرغم من قلته إلاّ أنه تمت محاولة تتبعه و استخراجه من ديوانيه ومن ذلك قوله:

إنّ اللّطيفين : من دهر و أمكنة لا يفتئان بلا حس و لا زجـل

إن كان نقلي عن الدنيا يكون إلي خير و أرحب فانقلني على عجل

و إن علمت مآلي عند آخرتـي شرا و أضيق فان أرب في الأجل[2]

فقد أراد المعري عن طريق التوشيح ذكر الدّهر الذي يعني الزمان و الأمكنة التي تدل على المكان، فطواهما مع بعض فهما اللّطيفين و يحملان معا حقيقة عدت كوشاح يلبسانه مع بعض آلمت المعري، كيف لا وقد أشواه هذا الزمان وآلمته الفرقة و الغربة في جل الأمكنة التي زارها، فهو لا يمانع إذا انتقل من هذه الدنيا لا سيما إذا كان فيه راحة له أما إذا كان فيه شر ، فهو يدعوا ببطء الأجل و الدّهر عند إنسان يمشي على قدمين قد طواهما مع بعض ثم نشرهما ،فوضع القدمين وهما الظلمة و النهار؛أي النور وهذا ما يلمح في قوله:

يمشي على قدمين من ظلمائه و نهاره ما همّتـــا بعثــار

ضنّت يداه و تلك منه سجية إن تجريا الليل أحدا على الإيثار[3]

---

[1]- صفي الدين الحلي : شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع ، ص: 74

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص : 234، 235.

[3]- أبو العلاء المعري : اللزوميات، ج1، ص :398.

فقد مثل المعري الدهر بظلمائه الذي يعكس السواد المتروك في نفوس البشر جراء الرزايا والمصائب التي يبلى بها العباد ، و النهار الذي يعكس النور فيحجب غياهيب الظلام الذي تركه الليل من أثر الوحشة و الألم و الحزن و الفراق و الهجر.

والحياة عنده دارين أولى وهي دار الدنيا و ثانية وهي دار الآخرة التي ينقل الله عباده إليها متى شاء يقول:

لله داران : فالأولى و ثانية أخرى متى شاء في سلطانه تفلك[1]

فهنا طوى الحياة على مفهومين دنيا و آخرة و عمد إلى شرح رحيل الإنسان من الأولى إلى الثانية وهي الآخرة أما الدنيا فمثل الدّهر يحجبها السواد و يخيّم عليها حتى لا يرى في اللون إلا الظلام ،لذا تراه يصورها في هذا السياق مطبقا التوشيح فجعل لها بردين وهما الدجنة و الضحى يقول:

لم ألف كالثقفي بل عرسي هي السـ وداء ما جهزتـــها بطلاق

عجبا لبرديها : الدجنة و الضحى ووشاحها من نجمها المقلاق

كم أخلق العصران مهجة معصر وهما على أمن من الإخلاق[2]

فالدجنة تمثل السواد الذي وضحه في صورة المرأة التي يمقتها المعري، فيطلقها بعد الزواج بها لسوادها والمعنى الثاني الذي طواه مع الدجنة هو الضحى الذي يجسد النهار والنور.

ومن هنا يتضح أنّ المعري قد استعمل أوشحة متعددة للدلالة بها على الدنيا و الدّهر و الحياة و المرأة و غيرها و هي تقريبا جل المواضيع التي استحوذت على شعره دائما.

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات، ج2، ص :172.

[2]- المصدر نفسه: ص : 148. العصران : الليل و النهار ، و المعصر:ا لتي بلغت أحسن شبابها.

3- الإضمار و التلميح:

إنّ المتتبع لشعر أبي العلاء المعريلحظ أنّه تفنن في باب الإضمار والتلميح كتفننه في المماثلة و الإجمال و التفصيل؛و لأنّ هذا الأخير له جاذبية خاصّة يمارس شعره على القارئ ،فيترك لكي يتصور الأغراض والأهداف الخفية التي حاول الشاعر الوصول إليها باستعمال الإشارات و الرموز والألوان و غيرها ويجتهد في فتح معالمها القارئ أو السامع.

و باب الإضمار و التلميح يدخل في سياقه ضروب عدة منها التورية ،و التلميح والألغاز والتذبيج و الاكتفاء .

وأوّل تلك المحسنات المعنوية التورية في اللغة وهي<< من مصدر وّريت الخبر تورية إذا سترته ، وأظهرت غيره>>[1].

أمّا من الناحية الاصطلاحية فقد اجتهد أهل البلاغة في تحديد و ضبط مفهومها فكانت تعني عندهم :<< أن يأتي المتكلم بلفظة مشتركة بين معنيين قريب و بعيد فيذكر لفظا يوهم القريب إلى أن يجيء بقرينة يظهر بها أنّ مراده بعيد>>[2]،و الشواهد كثيرة على هذا النوع من المحسنات المعنوية و من ذلك ما ظهر في قول الشاعر:

يا سيّدا حاز لطفا لـه البرايا عبيد

أنت الحسين و لكن جفاك فينا يزيد[3]

فالمعنى القريب لـ (يزيد)هو أنّه علم ،أمّا معناه البعيد المقصود فيظهر في كونه فعل مضارع من زاد ، و كقول سرج الدين الوّراق :

أصون أديم و جمعي عن أناس لقاءُ الموت عندهم الأديب

---

[1]- السيد أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة ، ص :300.

[2]- صفي الدين الحلي : شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع ، ص :135.

[3]- حفني ناصف وآخرون : دروس البلاغة ، ص :105.

وربّ الشّعر عندهم بغيض ولو وافى به لهـم حبيب[1]

فإذن بالنّظر إلى مفهوم الإضمار والتلميح و محاولة إسقاطه على شعر أبي العلاء المعري من خلال ديوانيه سقط الزند و اللزوميات بجزئيه جُودت بعض الشواهد الشعرية التي تدل على وجود هذا الفن البديعي، ومن ذلك قوله في الّزمان:

فإن يكن الزمان يريد معنى فإنّك ذلك المعنى المراد[2]

فإذا كانت التورية هي ستر الشيء وإخفاؤه ،فهي هنا تظهر جلية واضحة من خلال بيت المعري الذي اختص الزمان واصطفاك لنفسه، فهو يوري عنك بسواك ، فكأنك اعتقاد في فؤاده قد سكن إليه، وقوله :

واحذر دعاء ظليم في نعامته فربّ دعوة داع تخرق الحُجُبا[3]

فإذا تتبعت قول المعري تراء أنّه يتكلم عن النعامة وذكرها الذي يسمى بالظليم ولكنه كان يقصد معنى خفي مستتر من وراء ذلك ألا وهو التحذير و التخويف من دعاء ذلك المظلوم الذي عبر عنه بلفظه (ظليم) في نعامته ؛أي في ليله فدعوته أكيد ستخرق الحجبا و يستجيب له الله دعاءه من جراء ظلمه.

ويوظف المعري تورية بعيدة يستتر فيها عن معنى خفي مفاده انقطاع حبل النسل لديه لعدم زواجه و إنجابه فالزواج و الإنجاب فيه ضرر وهو شر و مفسدة ،يقول:

تواصل حبل النّسل ما بين آدم و بيني ، ولم يوصل بلامي باء

و زهدني في الخلق معرفتي بهم و علمي بأنّ العالمين هبـــاء[4]

---

(1)- السيد أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة ، ص :301.

(2)- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ، ص :325.

(3)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص :84.

(4)- المصدر نفسه:ص :36. الظليم : هو ذكر النعامة وهو حيوان مركب من خلقه الطير و الجمل كناية عن الظليم بمعنى مظلوم و بالنعامة عن ظلمه الليل.

فما يتبادر إلى الذهن أنّ أبا العلاء المعري قصد باللام والباء حروف انتقاها من كمة (حبل) التي وظفها في بيته و لكنه رمى بسهامه بعيدا حين أراد باللام الشخص وهو يقصد نفسه ، وبالباء الزواج الذي أنكره على نفسه ، فعاش وحيدا لا زواج و لا أولاد .

و يقول موريا على الخمرة:

ركبت منها كميتا خرّ فارسها ولو ركبت سواها أشهبا حملك[1]

فالمتأمل لقول المعري الذي استعمله موريا مخفيا لبعض الحقائق التي لا تظهر إلاّ بالتركيز على الألفاظ والاجتهاد في فهمها حتى تظهر الغايات البعيدة التي أرادها الشاعر.

يتبادر أنّـه يتكلم عن الفرس الذي أورده في قوله باسم (الكميت) خاصة أنه أكمل قوله بفارسها و لكنه في حقيقة الأمر كان يرمي بالكميت إلى الخمرة الحمراء ، كما رمى بلفظة الأشهب بالماء الذي يضاف إلى الراح ولم يقصد بها البعير كما هو مصطلح عليه ؛ لذلك ومن شدة سكر هذا الفارس و شربه للخمرة الحمراء خرس مغميا عليه.

وهنا يلمح إلى عدم الشرب و الابتعاد عن الخمر؛ لأنّ فيه مفسدة للعقل و تهلكة للجسد ، فهذه المعان أخفاها موريا عنها ببعض الإشارات و التلميحات لا يستطيع فهمها إلاّ من غاص في معانيه محللا ودارسا ، وهنا تظهر قدرة الشاعر في التلميح و الإخفاء التي في كثير من الأحيان تكون مقصودة لتفادي الحرج أو للتمويه عن فكرة ما و غيرها، ويقول موريا عن الخمار :

خُمرت من الخمار وذاك نحس وأما من خمارك فهو سعد[2]

فهنا رسم أبا العلاء المعري صورة يحكي فيها عن الخمار الذي أصله من الخمر و السل وهو نحس للمرأة و في شطر الثاني عاد ففسر بالضبط قولهحين ركز على الخمار الذي يفرق عن الخُمار وهو الشراب ، أما الثانية فهو ستر و الستر سعد للمرأة و هناء.

---

[1]-أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ،ص:170.

[2]- المصدر نفسه: ص:225.

فالمعري هنا ورى عن معنى الخمر الذي هو نحس ثم عاد،ففسرره بنقيضه وهو الستر الذي يعد سعدا للمرأة في إشارة إلى عدم خلع المرأة للحجاب ؛لأنه ستر لها فلو خلعته فكأنّها في نظره ارتكبت جرما كجرم شرب الخمر ومن ثم وقعت في الحرام.

وإذن فالمعري استعمل شواهد شعرية ورى فيها عن معان خفية لغرض معين يعلمه هو ثم حاول تفسير هذه المعاني المستترة وتوضيحها، ومن هنا يكون قد أزاح ذلك الغموض الذي تركه من خلال توظيفه للتورية وأذهب عنصر التشويق الذي يحدوا القارئ ويدفعه إلى محاولة الوصول إلى الغرض المقصود ، ومن ثم يكون قد أذهبه البريق ا لسحري والرونق كانت الذي كانت تتميز به التورية كضرب بلاغي .

أما التذبيجفقد استعمله أيضا المعري وهو نوع من الكتابة وقد عرفه أهل البلاغة بأنّه : << تقابل بين ألفاظ الألوان>>[1].

أي أنّ الشاعر يستعمل للوصول إلى المعنى المقصود رمزا لا يتم إلاّ بواسطة الألوان، فتكون هذه الألوان لقصد الكناية أو التورية،فمن تدبيج الكناية قول أبي تمام:

ترّدى ثياب الموت حُمرا فما أتى لها اللّيل إلاّ و هي من سند بن خُضر [2]

أما ما يخص تدبيج التورية فيظهر ذلك في قول الحريري:<< فمذ أزور المحبوب الأصفر، وأغير العيش الأخضر ، أسود يرمي الأبيض و أبيض فودي الأسود حتى رثى لي العدو الأزرق فيا حبذا الموت الأحمر>>[3].

فتذبيج التورية يظهر في لفظ الأصفر في ذلك القول، وإذا حاولت تتبعه في ديواني المعري لوجدت منه ما يستفاد منه و يكون كشاهد على استعماله لهذا النّوع، ومن الشواهد الشعرية على استعمال التدبيج قوله:

---

[1]- حفني ناصف وآخرون: دروس البلاغة ، ص:107.

[2]- المرجع نفسه: ص :107.

[3]- بدر الدين بن مالك : المصباح في المعاني و البيان و البديع ، ص :196.

إذا ما اهتاج أحمر مستطيرا حسبت اللّيل زنجيا جريحا

أقوبل لصاحبي ، إذ هام وجدا ببرق، ليس يثبته نزوحـــا[1]

فهنا يلمح مستعملا التذبيج بالألوان ،فاستعمل الأحمر الذي يدل به على الشوق والحنين والزنجي على السواد،فكان معنى البيت أنّه قد اهتاج و تحرك شوقه إلى من يحب،أو إلى بلده في وسط الليل الأسود القاتم الذي عدّ جريحا من كثرة التأوهات والآلام التي أصابته من فرط الشّوق.

ويقول :

دُهما توافينا السنــو ن ، و لم يكن فيهن غرّ

و الدّرع لا تنجي الفتى و كأنّها في العين كرُّ[2]

فسنين المعري التي أمضاها في حياته هي سوداء دهماء ليس فيها ما هو أبيض خصب، فقد عانى من الدهر الذي أرقه بألوانه فوقع ضحية بين البياض و السواد وتارة أخرى بين الأخضر والأحمر، يقول:

كم أعاني للدّهر بيضا وسودا بين خضر من السنين وحُمر

كيف لي بالفلاة تنضي المطايا بضمير يكسو جلابيب ضمر[3]

فالمعري عانى من تقلبات الدّهر الذي رمز إليه بلون (البيض و السود)، فأمضى سنينه فيها بين الخير و الشر الذي رمز إليه (بالخضر و الحمر) .

فمعاناته كانت كبيرة حتى أصبح يتمنى لو كانت بياض عينه صبح يطرد به ذلك السواد الذي يحيط يه فيمنعه من مجاراته و صحبته يقول ذلك في صورة تذبيجية جميلة:

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :34.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص : 321. كّر: بضم الكاف: غدير الماء.

[3]- المصدر نفسه:ص :401. البيض : الأيام ، و السود: الليالي، والخضر يدل على الخير لأنها سنة خصبة و الحمراء سنة مجدبة.

لو أنّ بياض عين المرء صبح هنالك ما أضاء به السّواد[1]

كيف لا و قد أشواه بحوادثه حتى مّل العيش فيه، فأورده دما يرمز به إلى الشر الذي جناه من الدهر وهو كالمدام الأحمر .

يقول:

ولا يشوي حساب اللّهر وردٌ له وردٌ من اللّم كالمدام[2]

والفارس المغوار عنده إذا ركب فرسه و دخل المعركة خاض في اللّماء فاختضبت حوافره بالدم الأحمر بعدما كان أخضر،و الأخضر دليل على الحياة بينما الأحمر هو لون الدم الذي يلمح به إلى الموت و القتل.

فمازج بين الألوان و بالضبط بين اللون الأخضر و اللون الأحمر فكان زبرجدا عقيقا وهو ما يظهر في قوله:

وقد يُلقى زبرجده عقيقا إذا شهد الأمير به قتالا[3]

والفارس ليس وحده في المعركة بل معه كتيبة خضراء مسّجة بحديد يتراوح لونها بين السواد والخضرة ،يقول:

بأخضر مثل البحر ليس اخضراره من الماء لكن من حديد مسّود [4]

و الدّرع عنده كأنّها غدير امتزجت فيه الألوان، يقول:.

بيضاء زُرْقٌ السّمر واردة لها وِرْدَ الصوادي الورق زرق نطاق[5]

---

[1]- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ، ص : 315.

[2]- محمد بنشريفة : شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند ،ص :387.

[3]- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ، ص: 90.

[4]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :52.

[5]- محمد بنشريفة : شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند ،ص :35.

فبيضاء وزرق وسمر كلها رموز استعملها المعري للوصول بها إلى حقيقة الدرع وأهميتها عندهم، فبقدر التعب و الجهد الذي يبذله القارئ أو المتتبع لشعر المعري إلا أن حقيقة المعرفة بهذه الأضرب البديعية و اتباعها في شعر المعري توصل إلى المتعة والشوق والطرافة في سبيل الوصول إلى المعنى المراد.

التلميح :

إنّ التلميح عنصر من العناصر البلاغية اخترعه " ابن المعتز" ووافق عليه " قدامة بن جعفر" ومن تبعه، فقالوا فيه<<هو أن يضّمن المتكلم كلامه كلمة أو كلمات من آية ، أو بيت شعر، أو فقرة ، أو مثل سائر، أو معنى مجّرد من كلام أو حكمة>>[1].

وانطلاقا من هذا القول يتبيّن أنّه ذلك الكلام الذي يقتبس فيه الشاعر من التاريخ أو الدين وغيرها من المصادر الأخرى التي يضمنها في شكل إشارات لا تفهم إلاّ بالرجوع إلى مصادرها الأصلية ؛لأنّ الشاعر يكتفي بالتلميح فقط أو التلويح مثلما سماه الإمام " فخر الدين الرازي" في كتابه (نهاية الإعجاز)، ويظهر ذلك في قول الشاعر:

لعمرو مع الرّمضاء و النّار تلتظي أرق و أحفى منك في ساحة الكرب

فقد ضمن كلامه كلمات من البيت المشهور له الذي يقول فيه:

المستجير بعمرو عندكثربته كالمستجير من الرمضاء بالنّار[2]

و التلميح قد أثبته في فصل المصادر التي استقى المعري منها ألفاظه،فوجدت أنّه قد نهل من القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف و بعض الأمثال و الأبيات الشعرية إضافة إلى توظيف بعض الوقائع التاريخية التي جرت عبر عصور التاريخ.

---

[1]- صفي الدين حلي : شرح الكافية البديعية في علو البلاغة ومحاسن البديع ، ص : 328.

[2]- المرجع نفسه:ص :329.

وما أوردته الآن ما هو إلا إضافة إلىما تفضلت به سابقا حتى أبيّن هذا النّوع كسمة من السمات المعنوية التي خصّ بها أسلوب المعري، لذلك تراء لي أن أضيف شواهد أخرى لم أذكرها سابقا منها قوله ملمحا فقال:

وخوف الردى آوى إلى الكهف أهله و علم نوحا وابنه عمل السفن

وما استعذبته روح موسى وآدم وقد وُعِدا من بعد جنتي عدن[1]

فهو هنا وظف في أبياته سورة الكهف التي انتهلها من القرآن و كذا لمح بتوظيفه لأسماء بعض الأبيات (كنوح و موسى وآدم) و هي أسماء دينية معروفة على ممر العصور.

ويقول موظفا النبي صالح ملمحا إليه بقوله:

نَجّى المعاشر من براثن صالح ربُّ يفرّج كلّ امرُ هفضل

ما كان لي فيها جناُح بعوضة و الله ألبسهم جناح تفضّل[2]

إذن المتأمل في بيتي المعري لم يفهم ما المقصود به إلاّ إذا رجع إلى قصة صالح حتى يتبيّن فضله الذي تنصل منه المعري في بيته.

و يلمح إلى موسى كليم الله في سياق وحده دون الأنبياء يقول:

يا ابن المحسّن ما انسبتَ مكرمه فاذكر مودتنا غنْ كنت أُنسينا

لسْت الكليم و في دار مباركة حللتَ و الجانب الغربي نوديتا[3]

فالمعري يقصد بتوظيف اسم (موسى) الذي استوحاه من الدين بأنّ هذا الممدوح لم يكن كموسى،فقد حللت في دار مباركة كما حل و نوديت من الجانب الغربي كما نودي وإنما قال هذا لأنّه كان يسكن في الجانب الغربي من بغداد.

---

[1]- محمد بنشريفة : شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند ، ص :254.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص :247.

[3]- محمد بنشريفة : شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند، ص :414.

إذن المعري قال قوله هذا مستفيدا من الدّين و تعاليمه لتبيين قيمة الإنسان ، فهو لا يبلغ ما بلغه موسى بالنسبة من مكانة عند الله حتى ناداه و كلّمه.

ويقول في بيت آخر:

فلو صحّ التناسخ كنت موسى وكان أبوك إسحـاق الذّبيحا

ويوشع ردّ يوحى بعض يوم و أنت متى سفرت رددت يوحى[1]

فهنا يستعمل لفظ (موسى) و (اسحاق) و (يوشع)و(يوح) استوحاهم من الدين فالبطبيوسي يقول: هو يوشع بن نون، وجاء في الخبر أنّ موسى وهو ابن أخته قد وجهه إلى أريحا، فقتل الجبابرة وبقيت منهم بقية ،فخشي أن يحول بينه و بين الليل فدعا الله أن يحبس عليه الشمس ففعل.

أما يوح هو اسم من أسماء الشمس وقد اختلف فيه النّاس فقال الكثير من اللغويين (بوح) بباء معجمة [2]،ويقول:

فكن فبي الملك يا خير البرايا سليمانا و كن في العمر نوحا[3]

فالممـدوح ذا علـم و ديانـة حيـث شبّهه أولا بالحسـين ثم بعلـي رضـي الله عنـه، ثم بموسـى ثم بيوشع،ثم بسليمان ثم بنوح صلوات الله عليهم [4].

فإضافة إلى استعمال أسماء الأنبياء التي استوحاها من الدين نلاحظ أنّـه نهل من تعاليم الدين ،فتكلم عن الصلاة التي هي ركن من أركان الإسلام وربطها بقصة سليمان يقول:

مثلُ ما فاتت الصّلاة سليـ مان فانحنى على رقاب الجياد

وهْو من سخرت له الجن و الإ نس بمـــا صح من شهادة صاد

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :37.

[2]- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ، ص :278.

[3]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :37.

[4]- البطليوسي وآخرون: شروح سقط الزند ، ص :280.

خاف غدْر الأيام فاستودع الّريـ ح سليـــلا تغـ ـدوه دُّر العهـــاد[1]

فقد جعل فوت الصلاة لسليمان عليه السلام ثكلا وحزنا أخرجه عن معهود احتماله وكانت فاتته العصر، فغضب عليها و عقرها ، وقد بناه على رواية جاءت عن بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى:﴿ و لقد فتنا سليمان و ألقينا على كرسيه جسدا ﴾.

وقال عنها أيضا:

و صلّى ثم أذنّ مستقيلا و قبل صلاته وجب الآذان[2]

فالمعري كان يقصد بتوظيف كلمة(آذان) و (الصلاة)التي استوحاها من تعاليم الدين بأنّه أحبّ لك مدّة في قلبه ثم أخبرك بحبّه ، فمثله كمن صلى ثم أردف صلاته بالآذان و يقول مشيرا إلى التاريخ القديم ،فيوظف أسماء قبائل عربية:(كإرم وعاد وقريش):

أغرُّ نمته من غسان عُرٌّ تدين لعزّهـــم إرم وعاد

بنو أملاك جفنة قّربتهم إلى الّروم اللجاجة و العناد

أرادت أن تقيّدهم قريش وكانـوا لا ينـال لهم قياد[3]

ففي المقطع الأخير يتابع المدح فيهدمه بشرف النسب ؛لأنه من (غسان) و آباؤه من(آل جفنة) من علية الملوك ،و إرم وعاد من قبائل العرب البائدة.

فهو هنا يشير إلى الصلة الوثيقة بين آل جفنة و الروم ، صلة فرضها نفور(آل جفنه) من ظلم العرب خاصة من قريش التي أرادت أن تقيّدهم بالإذلال ؛لأنه ليس لهم قياد.

ويقول عن الدّرع موظفا تاريخها العريق:

---

[1]- محمد بنشريفة : شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند ، ص :273.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص :233.

[3]- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند، ص: 190.

كدرع أُحَيحة الأوسي طالت عليه فهي تُسحب في الرغام[1]

هنا رجع المعري في سياق حديثه عن الدّرع إلى قصيص تاريخية قديمة مفادها أنّ هذه الدرع تعود إلى " أحيحة بن الجلاح" الذي <<كان من سادات الأوس وكانت عنده درع من ذخائر الملوك تسمى الموشاة فاشتراها منه " قيس بن زهير العبسي" و انصرف بها فمّر "بالربيع بن زياد العبسي" وكان صهره فقرضها له، فقال الربيع: إن كانت هذه الدرع مما يصلح للباس فليس للعرب مثلها فلبسها الربيع وكان طويلا مفرط الطول فأصابت ذيولها الأرض ، لذلك قال أبو العلاء المعري في بيته (فهي تسحب في الرغام)فقال له الربيع إنها درعي سرقت مني منذ مدّة و أخذها منه فاحتربت بسببها القبيلتان (عبس و ذبيان) مدة من الدهر>>[2].

إذن استعماله في وصف الدرع لأحيحة الأوسي استدعى منا الرجوع إلى التاريخ القديم لشرح هذا البيت وفهم معناه الذي كان مفاده أن هذه الدرع قديمة وقيمة ، كما أنّها طويلة والدرع الطويلة سمة من سمات الجمالالتي تستهوي النّاس للبسها وشراءها.

إضافة إلى توظيف أسماء قبائل أخرى كقضاعة و المناذرة و ملوك حمير و كسرى يقول:

لتذكر قضاعة أيّامها وتزه بأملاكها حمير

فعامل كسرى على قرية من الطّفّ سيّدها المنذر[3]

فالمعري من خلال أشعاره كثير الاقتباس لأسماء قبائل عربية قد أبيدت بالكامل تعرضت لحوادث بقيت خالدة في التاريخ كقبائل عاد و ثمود و إرم و قضاعة و المناذرة إضافة إلى ملوك حمير وكسرى،وقد استعان بهم المعري عارضا لمثل هذه الأسماء مع حوادثها من أجل إيراد المثل و الوصول بالقارئ إلى أخذ العبرة لا من باب العرض التاريخي فقط.

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 212.

[2]- محمد بنشريفة : شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند، ص :390.

[3]- المرجع نفسه: ص:303.

لذا دائما يسعى المعري إلى توظيف إشارات تعود إلى التاريخ يحث بها على الاعتبار بالماضين ممن أبيدوا بعد الغزو و المجد الذي كانوا فيه ، كقوم قضاعة و المناذرة الذين استشهد بهم في الأبيات السابقة، إضافة إلى ملوك أخرى ككسرى وملوك حمير وغيرها من القبائل البائدة و الملوك التي عصف بها لظلمها وجبروتها،فمصير البشر عند المعري كمصير هؤلاء القوم ؛ لذا على الإنسان أن يعتبر لمثل هذه الحوادث.

ومثلما نهل المعري من الدين و قصص التاريخ هو هنا ينهل من الشعر القديم ؛فيوظف بعض ألفاظه و معانيه، يقول:

و الذئب يسألنا الشراك ودونه يطّان أشعث كالفقير البائس[1]

وقد ترددت هذه المعاني التي تجعل من القوم يشركون الذئب في طعامهم، فتجسّد ذلك في قول المركش الأكبر ،يقول:

و لّما أضانا النار عند نزولنا عرانا عليها أطلس اللّون بائس

نبذت إليه فلذة من شرائنا حياء وما فُحشي على من أجالس

فآض بها جدلان ينفض رأسه كما آض بالنّهب الكمي المجالس[2]

يقول مستعملا الشعر القديم في وصفه للسيف:

ولا ظننتُ صغار النّمل يمكنها مشْي على اللّج أوسعي على السّعُر[3]

لقد شبه المعري هنا الفرند بأثر النّمل ؛لأنّ السيف إذا وصف قيل كأنّ في صفحه مدّب النّمل ، لجماله، وقد ذكر هذا الوصف عند مجموعة من الشعراء أخذ منهم المعري بعض ألفاظه ومعانيه كقول أبي الطيب :

---

[1]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 41.

[2]- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ، ص: 410.

[3]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 90.

وخضرة ثوب العيش في الخضرة التي أرتك احمرارا الموات في مدرج النمل[1]

فالملاحظ هنا أنّ أبا العلاء المعري قد أخذ معنى بيته من قول الشاعر مع زيادات طفيفة وأمور مستظرفة ليصل إلى مغزاه.

و يستعمل إضافة إلى الشعر القديم أسماء شعراء لهم وزنهم في التاريخ ،كقوله:

وفقيها أفكاره شدن للنعمان ما لم يشدّه شعر زياد[2]

فقد ذكر النعمان الفقيه وزياد الشاعر، ويقول أيضا:

تذود عُلاك شُّراد المعاني إلّي فمن زهير أو زياد

إذا ما صدّتها قالت وجال ألم تكن الكواكب لا تُضاد[3]

فهنا قصد المعري من خلال أبياته الأخيرة أن شعره هو يفوق أشعار هؤلاء المتقدمين الموصوفين بالسبق في حسن الشعر أمثال زهير بن أبي سلمى وزياد بن معاوية.

أّما (امرؤ القيس) فقد أخذ نصيبه في التلميح إليه ذاكرا اسمه يقول:

ما امرؤ القيس بالمصلى إذا جا راه النّظم بل سكيت الرهان[4]

فقد ذكر امرؤ القيس بن حجر أحد شعراء العصر الجاهلي.

وبعد هذه الإطلالة السريعة حول شعر أبي العلاء المعري،نلاحظ أنّه استعمل التلميح من خلال اقتباسه لبعض الألفاظ المستهلة في الدين و الحديث و الشعر و التاريخ القديم إضافة إلى اقتباسه من الأمثال و الحكم و هي كلها أشرت إليها سابقا في سياق الحديث عن استلهامه من المصادر الثقافية و الدينية.

---

(1)- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ، ص :160.

(2)- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص :57.

(3)- المصدر نفسه: ص :57.

(4)- المصدر نفسه: ص:244.

الإلغــاز:

لقد تعددت ضروب التلميح و الإضمار، فوجدت التورية و التدبيج و التلميح بالاستناد إلى المصادر الثقافية و التاريخية و الأدبية ، إضافة إلى الإلغاز الذي يعتبر من أشد ضروب التلميح غموضا.

لذلك جدير بي أن أبين مفهومه وأحدد تعريفه كما فعلت مع الأنواع الأخرى خاصةوأنّه هو الآخر كان عرضة للدراسة ومحل اهتمام من قبل الدارسين،وقد سمي أيضا بالتعمية، فهو إذن:<< أن يجيء المتكلم بعدة أوصاف في ألفاظ مشتركة من غير ذكر الموصوف و يشير بها إلى مقصود مجهول ، أو باسم حروفه قابلة للتغيير أو التوجيه، فإذا أراد الاسلموصوف نبّه عليه بتصحيف شيء من حروف الهجاء ، أو تبديلها في اسمه أو نقص شيء منها أو زيادة أو وجه من غير هذه الوجوه>>[1].

و الأمثلة كثيرة عليه من ذلك قول بعضهم في الميزان:

وقاضي قضاة يفصل الحق ساكنا و بالحق يقضي لا يبوح فينطق

قضى بلسان لا يميل و إن يمل على احد الخصمين فهو المصدق[2].

و للمعري في هذا الفن شيء يسير و يظهر ذلك في قوله:

فلا تكُ زيرا للنّساء ،و إن تمل لهنّ فلا تأذن لزير و لا صنج

ولا تدن للصّهياء بنت ا لأبيض ولا تقرب الحمراء من ولد زنج[3]

فقد ألغز بتوظيفه للفظة (بنتا لأبيض) و المراد بها الخمر الأبيض المعتصرة من العنب الأبيض ،و كذا ألغز على الخمر الأسود بتوظيفه للفظة (ولد زنج)،فهي حمراء من العنب الأسود.

ويقول أيضا رامزا إلى عيشه في هذه الحياة لمدة أربعين سنة بشرورها وسرورها يقول:

---

[1]- صفي الدين الحلي : شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع ، ص :212.

[2]- المرجع نفسه:ص:213.

[3]- أبو العلاء المعري : اللزوميات، ج1، ص :178.

خبر الحياة شرورهما و سرورهما من عاش عدّة أول المتقارب

وافى بذاك الأربعين فمـــا لـــه عذرٌ إذا أمسى قليل تجـــارب[1]

فقد رمز إلى الأربعين سنة التي اجتازها المعري من حياته بقوله(عدة أول المتقارب) والمعروف عن بحر المتقارب أنه يتكون من ثمانية تفاعيل تبتدئ بتفعيلة فعولن التي تتكون من خمسة حروف، فمادامت الجملة عبارة عن خمسة حروف مضروبة في ثمانية تفاعيل لبحر المتقارب تعطينا أربعين التي ذكرها في البيت الثاني بلفظها الصريح، فيقول لأنّ الذي بلغ الأربعين يكون قد خبر الحياة بشرورها وخيراتها وماله عذر إذا أقر عكس ذلك .

كما أنه خبر الدنيا كخبرته للحياة ، فأدرك أنّها لا تعني عند البشر إلاّ الطعام والزواج فقال بذلك ملغزا عن النكاح بلفظة الباء يقول:

دنياك ماوية لها نُـوبٌ شتى سماوية و أنبـــاء

فٌ لها جلٌّ ما يفيد بها من فاز فيها الطعام و الباء [2]

فالباء الأولى النكاح و الباء الثانية قصد بها حرف جر.

و لما كان العبد يتساوى في حقه مع الحر كتب ملغزا عنهما ، فقال:

إذا ما دعيُّ القوم ضاهى صريحهُم فلا تنكرنْ واعدده آخر عبدل

أليس كباقي أحرف الوزن لامـه وما فصّلت من لام سهل و اهدل[3]

فإذن الذي يظهر من كلام المعري الذي ألغز به من أنّ اللام الزائدة في لفظة (عبدل) تساوي اللام الأصلية الموجودة في لفظة (سهل) (و اهدل) فتساوي اللام في الألفاظ سواء كانت أصلية أو زائدة هو نفسه تساوي الحر مع العبد في حقوقه وواجباته.

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :119.

[2]- المصدر نفسه : ص: 44.

[3]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص :227. عبدل:لعله أراد به عبد شمس بن عبد المناف.

ومن هنا يظهر لنا أن المعري استعمل الألغاز للتعبير به عن معنى يريده بنوع من التشويق والمتعة التي تضفي جمالا خاصا على الأبيات و أنت تقرأها.

4-المغايــرة:

تعتبر المغايرة ضرب من ضروب البلاغة و هي <<مدح الشيء بعد ذمه أو عكسه كقول الحرير في مدح الدنيا:

أكرِمْ به أصفر راقـت صفرته

جاء هذا الشطر بعد ذمه لها في قوله:

تبّـاله من خــادع ممـارق>> [1]

وعليه انطلاقا من هذا القول تظهر المغايرة في مدح الدنيا بعد ذمها ، فذكر المدح بجانب الذم يجسم ويزيد من جانب المدح ، فلم تعرف قيمته الحقيقية إلاّ بعد ذكر نقيضه وهو الذّم.

ومن هنا يلاحظ أنّها قد بلغت أهمية و مكانة كبيرة كغيرها من الأنواع الأخرى التي عهدت في البلاغة كالمماثلة والإضمار والتلميح و غيرها .

لذلك وجدت عند أبي العلاء المعري أشعار بالمستوى المطلوب وقد تمثلت عنده في الطباق والمقابلة و العكس.

ولأنه تم تناول في فصل خاص بالصور البديعية الطباق و المقابلة و بشكل موسع سوف تكون الإشارة هنا في هذا الجزء إلى بعض الأبيات الأخرى، كإضافة فقط لما ورد من قبل.

و عليه فالطباق هو نوع من الأنواع و الأصناف البديعية التي لاقت رواجا كثيرا واهتماما بليغا ، فراحوا يحددون مفاهيمه و تعاريفه ضاربين له أمثالا كثيرة في الشعر العربي القديم ، و لكن الذين أجادوا فيه و أكثروا منه هم قليلون كالمعري ، فتفنن فيه ومن روائع صوره الطباقية التي كانت دائما تعكس آلامه و تناقضاته في الحياة و الدنيا و الدهر هو قوله:

---

[1]- السيد أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة ، ص: 313.

ومن صحب الدّنيا طويلا تقلبتْ على عينه حتى يرى صدقها كذْبا[1]

وهنا يحاول المعري إظهار حقيقته عن الدنيا التي توصل إليها بحكم تجربته و خبرته في الحياة ،فالأمور في الدنيا مقلوبة فإذا صحبتها ترى الصدق كذب و الكذب صدق، حتى وجد أنه من الغباء أن تسمي الكذوب صادق ، يقول:

ومن البلية أن يسمى صادقا من وصفه الأولى كذوب فار[2]

فحال الإنسان في الدنيا تتراوح بين السعيد و الشقي ،يقول:

و تنقل منها فالسعيد مكّرم بما هو لاق و الشقي مشذب [3]

أما الإساءة شر يطابقها الخير الذي تجسد في الإحسان، يقول:

إن الإساءة شر ما وقعتْ من بعدِ إحسان و إجمال[4]

و يقول في هذا المضمار :

وقد أساء رجال أحسنوا فقلوا و أجملوا فإذا الأعداء أحباب

فانفع أخاك على ضعف تحسّ له إنّ النّسيم ينفع الروح هبّاب[5]

و يطابق في سياق آخر بين الإمام الذي يتمنى مجيئه ليحكم بالعقل، فينطق بالحق في كتيبة خرساء ليبدل به ما جاء الزمان به، فينعموا بعد البؤس والشقاء.

يقول:

يرتجي النّاس أن يقوم إمام ناطق في الكتيبة الخرساء

---

[1]- البطليوسي وآخرون: شروح سقط الزند ، ص: 83.

[2]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص: 396.

[3]- المصدر نفسه : ص: 64.

[4]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 177.

[5]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ، ص :69.

يقال إنّ زمانا يستقيد لهم حتى يبدّل من بؤس بنعماء[1]

وكم تمنى المعري أن يمدح الزمان و لكنه للأسف شغل بذمه على ما سواه ، فقد أشواه بحوادثه و لياليه وهو الذي كان يأمل الخير منه يقول مطابقا:

كم أردنا ذاك الزمان بمدح فشُغلنا بذّم هذا الزمان[2]

كما طابق بين الغنى و الفقر الذي لمسه في الواقع ، يقول:

نقضيوقتنا بغنى و عُدم و ننفق لفظنا همسًا و نْرا

إلى الخلاق أبرأ من لسان تعوّد أن يـروع الناس أبرا

ومن يبدع طويا في سهول فـلا يترك مع الطارين زبرا

كأنّ في مجار من خطوب وليس يرى لها الرؤان عبرا[3]

و الغنى ليس غنى المال فقط،بل غنى النفس و ادخار الكلام و القناعة و الفقر نقيضه يقول:

بأنّ علياّ ، كل من فاز بالغنى فقير ، إذا لم يدخر من كلامه [4]

وهو غنى العقل يقول:

وإنّ الغنى و الفقر ، في مذهب النهنى لسيان ، بل أعفى من الثروة العُدم[5]

وطابق في صورة أخرى بين الغناء و البكاء من شدة تأثيره بحوادث الّدهر .

يقول:

حملت على الأولى الحمام فلم أقل يغني و لكن قلت يبكي و يندب

---

(1)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1 ،ص: 51.

(2)- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 241.

(3)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص: 343

(4)- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 105.

(5)- المصدر نفسه: ص: 262.

و ذلك أنّ الحادثات كثيرة و غالبهن الفظ لا المتحدب[1]

و الدّهر مثل الدنيا بلاياه وصروفه قد تبغضك منه وقد تحببك يقول:

أما رأيت صروف الدّهر غادية على القلوب يتغيض و تحبيب [2]

و الملاحظ أن أبا العلاء المعري قد سيطر على شعره الطباق ، وهذا ما يظهر في كثرته في ديوانيه لدرجة عدم التحكم فيه ، فالكثير منه أوردته فيفصل سابق وما هذه إلى عينات وشواهد لم أذكرهلم قبل حاولت ذكرها كسمة من السمات التي ميّزت شعره في إطار المغايرة التي تعد ضربا بديعيا معنويا.

فاتسمت بذلك طباقاته بالعفوية و السهولة ، فهي مفهومة واضحة تعكس خبراته وتجاربه الأليمة التي تجمعها المتناقضات ، فكان طباقه في الشعر صورة عاكسة على تناقضه في الفكر و الرأي و الفلسفة و الحياة.

المقابلة:

فأكثر ما يلمح أيضا إلى جانب الطباق المقابلة ، فهي ثنائيات قائمة على عناصر متقابلة ليكشف بها عن علاقات خفية يقيمها الشاعر بين طيات الصورة أو عناصرها ، لذا وجدت هي الأخرى بكثرة في ديواني المعري حتى يعكس بها مواقفه وآراءه الفلسفية حول المذاهب و الديانات وغيرها.

وقد عولجت كما عولج الطباق في فصل سابق، وما هذه الشواهد القليلة التي سوف أقدمها الآن إلا عينات على وجود المقابلة و تصنيفها في إطار المغايرة، فأوّل صورة تقابلية تلمح في شعر أبي العلاء المعري هي:

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص: 64.

[2]- المصدر نفسه: ص: 112.

أمّا الحياة ففقر لا غنى معه و الموت يغني فسبحان الذي قدرا[1]

فقد جعل فقر الحياة في مقابل مع غنى الموت ، الذي يريحه من التعب فيها.

و القناعة في النفس من حسن الغنى يقابلها الفقر الذي تمثل عنده في سوء الحرص يقول:

وإنّ اقتناع النّفس من أحسن الغنى كما أنّ سوء الحرص من أقبح الفقر[2]

وطبيعي عند المعري أنيرى النّاس في هذه الدنيا في صورة سيئة بعد ما جرى له حتى بات يرى الصدق مفقود و الكذب موجود و الهدى و الوفاء قد زال ومات و الغدر والضلال قد استحسن وانتشر.

وهو هنا حاول تكوين ما رآه في الدنيا ،فجسده في أبيات شعرية قابل فيها بين هذه الموازين المختلة ، يقول:

قد فُقد الصدق ومات الهدى و استحسن الغدر وقل الوفاء[3]

لذلك مل العيش فيها طالبا الرحيل و لكنه في بعض الأحيان كان يحدوه أمل طفيف يدعوه إلى الاستمرار ، يقول:

يُمسي وقد مَلَّ البقاء ، و يغتدي وله رجاء فيه ليس يملّه

فأحفظ أخاك و إنتبيّن أنّه بالي الوداد ضعيفة مختلة[4]

فلئيم النفس الذي زين خلقته بلباس جميل يقابل ذلك الكريم السخي الذي يلبس لباسا رثة بالية ، يقول:

أمّا اللئيم فعنده حلـلٌ وغدا الكريم وثوبه طِمْر

---

(1)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج1، ص: 338.

(2)- المصدر نفسه: ص: 355.

(3)- المصدر نفسه: ص :55.

(4)- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص: 194.

طمر الجهول إلى مراتبه ثم انثنى و حباؤه طَمْر[1]

ومن هنا بعد هذهالإطلالة السريعة حول تقابلات المعري نلحظ أنّه وظفها توظيفا حسنا في شعره بجعله النقيض بجوار النقيض ، حتى يتسنى له توضيح الصورة الحسنة وتقبيح الصورة السيئة التي رآها في مجتمعه ، فيبدي بذلك آراء مناقضة متقابلة لها تأثير ووقع على النفس لا يختلف عن الطباق و باقي البديع.

العكـس :

و العكس أيضا من الأنواع البديعية المعنوية التي كانت محل اهتمام من طرف النقاد و البلغاء فمعناه عندهم << هو أن تقدم في الكلام جزءا ثم تعكس بأنّ تقدم ما أخرت وتؤخر ما قدمت>>[2] وهو أنواع منها ما يقع بين أحد طرفي جملة، كقول أحدهم: <<كلام الأمير أمير الكلام >>[3].

أو أن يقع بين متعلقين فعلين في جملتين كقوله تعالى:﴿ يخرج الحي من الميت و يخرج الميت من الحي...﴾[4]، كما يمكن أن يقع العكس بين لفظين في طرفي الجملتين كقوله تعالى ﴿.. لا هنّ حل لهم ولا هم يحلّون لهن...﴾[5].

وهناك نوع آخر يمكن أن يستدل به على العكس إذا وقع بين طرفي الجملتين ،كقول الشاعر:<<

طويتُ بإحراز الفنون و نيلها رداء شباب و الجنون فنون

---

[1]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2، ص: 318.

[2]- السيد أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة ، ص:321.

[3]- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : البلاغة العربية أسسها و علومها و فنونها وصور من تطبيقاتها بهيكل جديد من طريف وتليد ، دار القلم ودار الشامية ، ط 1، 1992، بيروت ،ج2، ص : 440.

[4]- الروم /الآية 19.

[5]- الممتحنة/الآية 10.

فحين تعاطيتُ الفنون وحظها تبيّن لي أنّ الفنون جنون

أو يكون بترديد مصراع البيت معكوس كقوله :

إنّ للوجد في فؤادي تراكـــم ليتَ عيني قبل الممات تراكم

في هواكم يا سادتي مِتُّ وَجداً متَّ وجدا يا سادتي في هواكم[1]

ويدل على العكس قوله:

ورائي أمام و الأمام وراء إذا أنالم تُكبرني الكبــراء

بأي لسان ذا مني متجاهل علّي، وخفق الريح في ثناء

فكم بالقول المضلل حاسد و كلّ كلام الحاسدين هراء[2]

ومعناه يظهر في شرح البطليوسي له، فيقول أنّه إذا الكبراء لم يوفوني حقي، ولم يعلموا لي مكانتي من الفضل ، فارقتهم مجملا ،و أدبرت عنهم مرتجلا بعد أن كنت مقبلا فصار بذلك أمامي وراء ، ووراءي أمام ويقول في الدهر وغدره :

و يعبس وجه الدهر والمرء ضاحك ويضحك هزءا والوجوه عوابس[3]

ويقول في الزمان الذي يقلبك كيفما شاء:

رُبَّ خفض من بعد بأس ـــاء وبؤس لقيته غبَّ خفض[4]

هنا يخفض من الإنسان من بعد شدة و يجعله شديدا قويا عازما بعد الخفض و قلة الشأن.

---

[1]- السيد أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة ، ص: 322.

[2]- أبو العلاء المعري : سقط الزند ، ص: 11.

[3]- البطليوسي وآخرون : شروح سقط الزند ، ص: 392.

[4]- أبو العلاء المعري : اللزوميات ،ج2 ، ص:70.

ويقول في أولو الفضل وأولو النّقص :

فواعجبًا كم يدعي الفضل ناقص و وا أسفاكم يُظهر النقص فاضل [1]

فهنا رسم أبو العلاء المعري صورة عكسية متعجبا من النّاس الذين يدعون الفضل وهو بعيدون عنه، و يتأسف على أهل الفضل الذين ينقصون من شأنهم، وهو هنا يكون قد قام بعكس ما قدمه في البيت الأوّل و جعله في الشطر الثاني.

و اللّيل و النهار ثنائية قد حازت على نصيب من شعر المعري مثلها مثل الزمان والدّهر والدنيا و الحياة ، لذا تجده كثير التكلم عنه، ومنه قوله موظفا الوجه البلاغي (العكس) ، فيقول:

هل اليوم إلاّ شارق ثم غاربٌ أو الليل إلاّ غارب ثم شارف[2]

فاحتكاكه بالكون و فهم بعض الظواهر فيه هو ما مكنّه من معرفة حقيقة الليل والنهار التي لم يجدها منحصرة إلا في الشروق و الغروب ، فالنّهار (اليوم) تشرق شمسه وتغرب،و اللّيل أيضا يغرب بدره أو هلاله ثم يشرق من جديد،فهو شارق وغارب،و قد عمد إلى عكس هذا المفهوم في الشطر الثاني للبيت هذا ما جعله يضفي تشويقا خاصا عليه و طرافة ومتعة ، إضافة إلى الأثر الذي يتركه في النفوس الذي يتحقق بفهم البيت.

إذن ما يظهر أنّ (العكس) مثل الطباق و المقابلة ؛فهو وجه من وجوه البلاغة استعمله المعري في شعره ولو كان قليلا إلاّ أنّه استطاع أن يضفي به متعة و طرافة و أثرا كغيره من الفنون.

وعليه ما يستنتج هو أن أبا العلاء المعري استعمل الصور الفنية ونوع فيها،فلا تكاد ترى نوعا إلاّ وهو ماثلا في شعره الذي حاول التعبير به عن جل ما يشغل فكره من الحياة بتناقضاتها والدنيا والدهر والليالي والموت والمصائب وغيرها من الصور التي شكلها المعري سواء كانت صور بلاغية، فيشبه ويستعير ويكني ويستعمل المجاز أو البديع كالطباق والمقابلة والجناس وغيرها من الصور المستعملة في شعره، إضافة إلى مختلف الأساليب اللفظية التي استعملها في شعره ،فجاءت بذلك

---

[1]- محمد بنشريفة : شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند ، ص :169.

[2]- أبو العلاء المعري: اللزوميات ،ج2، ص :126.

أغلب صوره حسنة الرصف والتعليل،فتظهر بذلك ألفاظه متلاحمة فيما بينها ومكملة لبعضها البعض،مستقرة في مواضعها دقيقة في تأليفها متينة في تركيبها،وهذا ما أثبتته جل الصور البيانية والبديعية والحقيقية والحسية في ديواني المعري ،وهي لا تمتاز بالتنافر ولا بالضعف بالرغم من وجود بعض التكلف والإيغال الذي أظهره في نظمه بحسب حروف المعجم، هذا الأخير برغم مزاياه إلا أنه في بعض الأحيان يفُقده ذلك البريق في التأليف الجيد،كما كان الإيقاع في شعر أبي العلاء المعري من بين أهم العناصر التي يبنى عليها شعره لارتباطه بنفسيته وبالغناء،لذلك اتكأ المعري على مختلف الصور التي من شأنها أن تحدث وزنا ونغما خاصا في القصيدة،إضافة إلى بعض الحلل اللفظية الأخرى المرتبطة بالإيقاع كتكرار الحروف والكلمات والمقاطع الذي من شأنه أن يورد نغما خاصا وأثرا جميلا.

كما كان للتدوير أهمية و للتصريع فوائد جمة تساعد على معرفة قافية البيت قبل اكتماله كما يدل على سعة القدرة والتصرف في الكلام ،وللتصدير في شعره قيمة كبرى لأنه يزيد المعنى حسنا وجمالا .

أما السمات المعنوية فقد أخذت قسطا وافرا من أشعار أبي العلاء المعري ؛فجاءت صوره من خلال ديوانيه متسمة بالوضوح ، فعمد الشاعر إلى توظيف التشبيه للكشف به عن خبايا الصورة كأن جعل الدنيا شبيهة بغول يفترس المرء ووصى بعمل الخير والتواضع وحث على الالتزام بتعاليم الدين وهي كلها تعتمد على الأسلوب الواضح الصريح ،غير أن هذا لا يعني أنه التزم به في كامل أشعاره ،فقد يعتمد الغموض والإبهام في المعاني؛فإخفاء بعض الحقائق قد تترك في النفس متعة وتساهم في تنشيط العقل البشري الذي يبقى دوما في تطلع دائم لإدراك ما خفي عليه.

و راح إلى أبعد من ذلك حين فنن في طرق تعبيره عن آراءه وأفكاره و تجاربه فاستعمل المماثلة في الوزن والقافية أو في الوزن فقط بين كلمتين متوازيين كـ(هموا وأموا) و(الورد والصدر) و(العظيم والسليم) و(الإرداء والإجراء)وغيرها من الكلمات التي التي لها نفس الوزن وأهم ملامح المماثلة التشبيه والتمثيل والاستعارة والتوجيه ومراعاة النظير،إضافة إلى الإضمار والتلميح الذي يدخل في سياقه ضروبا عدة منها التورية التي يستر بها عن المعنى المراد كالتكلم عن النعامة بلفظة الظليم ،ولكنه قصد بها التحذير من دعاء المظلوم،و تظهر من خلال الحديث عن الفرس الذي أورده بلفظة

الكميت ولكنه في حقيقة الأمر كان يرمي بها عن الخمرة الحمراء،وغيرها من الأمثلة المستعملة في شعر المعري .

كما يدخل في ضروبه إضافة إلى التورية التلميح للأشياء المقتبسة من القرآن أو السنة أو الشعر القديم والتاريخ والأمثال والأساطير وهي كلها مصادر يضمنها الشاعر في شكل إشارات لا تفهم إلا بالرجوع إلى مصادرها الأصلية وهي تنم عن ثقافة الإطلاع الواسعة للشاعر ، والمغايرة والعكس والإلغاز التي كانت محل اهتمام من طرف الشاعر وغيرها من الضروب المستعملة التي تبين القدرة اللغوية للمعري في تشكيل المعاني و الألفاظ ومدى اطلاعه على فنون وأوجه البلاغة من بيان و بديع و مجاز.

خاتمة

خاتمـــة :

أفرز البحث جملة من النتائج وهي كالآتي:

– أن الصورة موضوعها قديم ظهر في الشعر العربي ومنذ العصر الجاهلي إلى غاية العصر الحالي،تناوله أهل البلاغة بالدراسة والتحليل حتى امتلأت المكتبات العربية بأمهات الكتب النفيسة التي خصصت وقتها لمثل هذا الموضوع بالذات.

– والمعري واحد من بين الذين طرقوا هذا الجانب وبينوه،وهذا ما تم توضيحه في هذا البحث عن طريق تلك الأشعار التي تعدّ المادة الخام الأولية للموضوع المستوحى من ديوانيه سقط الزند واللزوميات بجزئيه.

– تتعدد أنماط الصورة في الشعر، ومن بين أنماطها المعروفة الصور التي لها علاقة بالقالب الفني.

– من بين أنواع الصور التي تتشكل بحسب القالب الفني الصور البيانية والصور البديعية والصور الحقيقية.

– تتشكل الصور البيانية من التشبيه الذي حاز على أكبر مساحة في شعر المعري؛حيث بلغت مجموع صوره نسبة(48) ومن الاستعارة،حيث استحوذت على نسبة (31) من مجموع الصور المستعملة في ديواني أبي العلاء المعري،والكناية التي تجسدت في أشعار المعري بنسبة (35)، إضافة إلى الصور المجازية التي استعملت في شعر المعري،فكانت في حدود (7) صور فقط .

– هذا عن الصور البيانية أما عن الصور البديعية التي تكون بحسب القالب الفني،حيث بلغ استعمال الشاعر لها في أشعاره بنسبة(57) صورة كان يمثلها الطباق بنسبة(23) صورة.

– أما المقابلة فأخذت مكانها كنمط من أنماط الصور البديعية في ديواني المعري بنسبة(8) صور.

–كما تتكون الصور البديعية من التجانسات المكونة في الشعر،فقد ظهرت بمعدل(26) صورة في ديواني المعري سقط الزند واللزوميات بجزئيه.

– وقد لقيت الصور الحقيقية التي تبتعد عن الصنعة والتكلف حظا وافرا في شعر المعري،فقدرت بحوالي(49) صورة ،كانت متفاوتة بين صور داخلية وصور خارجية.

– أما النمط الثاني للصورة يكون بحسب الحواس كلها والتي ظهرت بمعدل(122) صورة في شعر أبي العلاء المعري،فقد تشترك جميعها في تكوين صورة واحدة وقد يكون العكس.

– أول نوع في الصور الحسية يتجسد في الصور البصرية التي تلعب فيها حاسة الإبصار الدور الأول في الإمداد بالصور،وقد جاءت بمعدل(52) صورة ،تتراوح بين الصور البصرية الساكنة والمتحركة والملونة .

–برغم استعمال المعري للصور البصرية بأنواعها إلا أن حظ الصور السمعية كان أكثر منها؛لأن السمع في نظره هو كبديل لحاسة البصر المفقودة عنده، فكان للصوت جاذبية عنده ، حيث وجدت بنسبة (20) من مجموع الصور الحسية المستعملة.

–كما وجدت حاسة الذوق في شعر أبي العلاء المعري كغيرها من الصور الحسية،حيث أدرك فيها الشاعر مختلف الأذواق ،وقد تجسدت في ديوانيه بمعدل (17) صورة .

– وقد ظهرت صورة حسية أخرى من خلال تقصي ديوانيه ألا وهي الصور اللمسية التي كانت بمجموع (12) صورة اعتمد فيها المعري على حاسة اللمس.

– أما آخر نوع من الصور الحسية فقد تجسد في الصور الشمية المرتبطة بحاسة الشم ،فجاءت بنسبة (18) صورة.

–إنّ الأحداث التي عايشها أبو العلاء المعري والنوائب التي مر بها في عصره جعلت من الشاعر يسخط على المجتمع وينعتهم بمختلف النعوت،ومعرفته التامة بهم والتأكد من حقيقتهم جعلت منه يبتعد عنهم وينفر،وهذا ما جعل الشاعر يغترب عن الناس؛لأنهم في نظره سبب المشاكل والآفات الاجتماعية،لذا وجب مقاطعتهم ،ومن ثم اعتبر الاغتراب عموما سواء الاغتراب الزماني أو المكاني أو الاجتماعي موضوعا رئيسيا تشكلت منه مختلف الصور عند الشاعر،وقد تجسد هذا الموضوع بنسب متفاوتة في ديواني المعري سقط الزند واللزوميات بجزئيه.

– يعد الزمان هو الآخر موضوعا مهما عانى منه المعري و أشواه بحوادثه وأذاقه مرارة العيش،لذا تم استعماله بكثرة في الشعر

– معاناة وتعب المعري من الحياة هو ما جعل فكرة الموت تراود فكر الشاعر؛لأنه في نظره هو الوحيد من يخلصه من هذه المعاناة ويساعد على الوصول به إلى أحبائه ممن فارقوه سابقا، لذلك تجسد الموت كموضوع رئيسي في شعره بنسبة (120).

– تشكّلت صوره من مصادر كثيرة،منها ما استمد فيها مادته اللغوية من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وهو ما يسمى بالمصدر الديني، استند فيه على الاقتباس من السور القرآنية ؛حيث

بلغت نسبت استعماله في ديواني أبي العلاء المعري (10) سور، هذا إضافة إلى استناده على مختلف الأحاديث النبوية المقتبسة من المفسرين ،فبلغت نسبة استفادته من الأحاديث النبوية (06) صور .

– واستند فيها أيضا على الشعر العربي القديم؛فهو أحسن ديوان جامع لأخبار العرب وأيامهم وأنسابهم وأعرافهم،حيث بلغت نسبة استعماله في شعر المعري (30) صورة ظهر فيها الاهتمام الكبير من الشاعر وانصبابه على الشعر القديم.

– كما استند على التاريخ الإسلامي والعام الذي تمثل في شعره بنسبة(30) صورة وظف فيها المعري بعض الشخصيات التاريخية .

– قد أخذت الأمثال والحكم والأساطير نصيبها أيضا من شعر أبي العلاء المعري،حيث بلغت نسبة استفادته منها وتوظيفها في شعره (10) صور تدخل كلها في هذا الإطار الذي يعكس به عن معاني كثيرة وجليلة.

– لم يستفد الشاعر من المصدر الديني والثقافي فقط،بل استثمر من مصادر أخرى كالمصدر العيني الذي كان الإنسان وكل ما يخصه من أعضاء،وأجناس،وعلاقات مع من يحيطه مركزا له،حيث ظهرت بمعدل (80) صورة.

– تدخل في إطار المصدر العيني كل الصور التي لها بالأدوات والحياة المنزلية،فظهرت في ديوانيه بمعدل(18)صورة.

– بلغ توظيف الصور التي لها علاقة بالحضارة في ديوانيه بنسبة(12) صورة كانت الدنيا،والليل والناقة من أهم مواضيعها.

– هناك صور أخرى لها علاقة بذات المصدر تخص الزينة واللباس وظفت في شعر المعري بمعدل ((10) صور.

– لم يغفل الشاعر عن بعض الصور المستنبطة من العلاقات البشرية ولو كانت قليلة كالكرم والوفاء ،حيث ظهرت بنسبة (2) صور.

– كما كان للمصدر الطبيعي أثر في ديواني أبي العلاء المعري؛حيث كانت الطبيعة محورا تدور حوله جميع الألفاظ والمعاني التي استقاها المعري منها ووظفها في شعره ،فكانت بارزة فيه بنسبة (84)صورة.

– شكل الشاعر صوره من الطبيعة الصامتة التي يحاكي فيها المعري الجماد،والنبات،والأرض والرمال،فظهرت في شعره بمعدل(49) صورة.

– كما استعان بالصور التي لها علاقة بالطبيعة المتحركة،حيث كانت الحيوانات المتوحشة والمفترسة والطيور،والحشرات مواضيع لها،وهذا ما عكس مدى استفادة الشاعر من هذه المصادر سواء كانت دينية أو تاريخية أو عينية أو طبيعية،وهو ما كان مبينا بالتفصيل في ديوانيه سقط الزند واللزوميات بجزئيه.

–لم يكتف الشاعر بالمواضيع التي أخذها من تلك المصادر فحسب،بل تعرض إلى بعض القضايا السياسية وشكل منها موضوعا مركزيا لصوره،فجاهر بآرائه اتّجاه السياسيين،وأمر بالعدل وعدم الظلم الذي تفشى كثيرا في المجتمع من طرف الحكام،وتمنى مجيء إمام عادل يحكم بعقله ليميز بين الخير والشر،وبين الظلم والعدل وغيرها من القيم التي حاول الشاعر إيصالها إلى الناس عن طريق الشعر..

– بالرغم من عاهة العمى التي لازمت الشاعر منذ صغره إلا أنّها لم تستطع إيقافه ولم تقف عائقا في طريقه الذي رسمه؛فما زادته إلا افتخارا بنفسه وببصيرته التي حباه الله بها بالرغم من حرمانه من البصر،لذلكعُ هد فيلسوفا متأملا وخبيرا بحال الدنيا والبشر فيها،لذا جاءت جل مواضيعه تحاكي الواقع المعاش ممزوجة بمواعظ وحكم جمة.

– ظهور النزعة التشاؤمية والسوداوية لدى الشاعر المكتسبة من الواقع المعاش الذي أرقه بأحداثه ومشاكله .

– التأكد من حتمية الزوال والفناء من هذه الدنيا وهذا ما عزز فكرة الزهد عنده وقواها في نظره حتى بات يطلبها في كل حين ويتمناها؛لأنها –في نظره –كأفضل حل ينسيه همومه ويبعده عن هذه الحياة المتعبة إضافة إلى كونه هو السبيل الوحيد للالتقاء بأحبائه ممن سبقوه إلى القبر.

– لعبت العزلة أيضا دورا مهما في التخفيف من حدة الاغتراب إلى جانب الزهد،فعمد إلى الانكباب على الدرس،والتأليف،والعبادة.

– تميزت صوره بخصائص إضافة إلى تنوع مادته التي استقاها من القرآن الكريم والتاريخ والشعر العربي القديم ومن الأمثال والحكم والطبيعة،فقد امتاز بالثراء وتعدد أساليبه وتوظيفه لأدوات الاستفهام التي أخذ ت أشكالا متعددة ومعاني مختلفة كالنفي،والتمني،والتحسر وغيرها.

– وكذا اتسم شعر المعري بسمات لفظية تمثلت في حسن الرصف،والتعليل، كثرة التكلف والتصنع .

–كما ظهرت خصيصة إيقاعية في شعره،وهي التكرار الذي يشمل بعض الحروف في قصيدة واحدة،أو تكرار حرف واحد في أبيات عديدة،فهذه التكرارات ساهمت في بناء الإيقاع الداخلي .

– كما لعب الوزن الذي استعمله الشاعر دورا هاما في تشكيل موسيقاه وغالبا ما كان بحره الطويل،والكامل،والبسيط،وقد أدخل فيها بعض التعديلات وذلك للضرورة الشعرية.

– هذا عن السمات اللفظية أما عن السمات المعنوية،فاتسم بالوضوح،كما اتسم بالمبالغة ،فبرغم قلة هذه الأخيرة إلا أنها موجودة في أشعار المعري كمبالغته في وصف الممدوح وهو يحارب في ساحات الحرب،ومبالغته في وصف سرعة وقوة الفرس الذي يركبه المحارب،و مبالغته في وصف أجل الإنسان وبلوغ حتفه وغيرها من المبالغات الرائعة في شعر أبي العلاء المعري.

– إضافة إلى تفننه في التعبير عن مختلف التأملات والأفكار والتجارب والخبرات التي اكتسبها في حياته وأراد توصيلها إلى السامع،وقد تمثلت تلك الطرق في المماثلة،والمغايرة ،والإجمال،والتفصيل والإضمار،والتلميح وهي كلها ميزات اتسم بها شعره شرحت بالتفصيل فيها في البحث.

– لهذا يعدّ المعري من بين الشعراء المهمين الذي يليق الاهتمام به وبأشعاره التي كانت خير ترجمان على كوامن نفسه وخبايا عقله ،فالرجاء من الله التوفيق والسداد في رسم صورة واضحة عن هذا الموضوع وفي شعره الذي عجز كثير من الناس عن فهمه لطبيعته الحساسة وحسّه المرهف وحدسه الدقيق،والله الموفق وهو المستعان،وهو الهادي إلى طريق الرشاد، والحمد للّه رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أبو العلاء المعري:
- سقط الزند : الديوان،شرحه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1،1990، بيروت، لبنان.
-شرح ديوان سقط الزند:شرح وتعليق،ن،رضا،منشورات دار مكتبة الحياة،1987،بيروت، لبنان.
- اللزوميات: حققه وأشرف على طباعته جماعة من الأخصائيين ، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ،(د، ط)، 2001، بيروت، لبنان، ج1.
- اللزوميات :علق عليه شرحا عزيز زند،دار المعارف للطباعة والنشر(د،ط،د، ت) ،تونس ،ج2.

المصـــادر:

1- ابن رشيق:العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق عبد الحميد هنداوي،دار المكتبة العلمية، العصرية، ط1، 2001.

2- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، طبعة جديدة، بيروت.

3- أبو الطيب المتنبي:الديوان،ضبطه وصححه مصطفى السقا وآخرون،دار المعرفة،1978،بيروت ،ج3.

4-أبو العباس محمد بن يزيد المبرد : الكامل في اللغة والأدب، مؤسسة المعارف،(د،ط،د،ت)،بيروت ،ج2.

- أبو عبد الله بن زكريا القزويني:

5- الإيضاح في علوم البلاغة ،دار إحياء العلوم ،ط4 ،1998، بيروت ،ج.1

6- التلخيص في علوم البلاغة:حققه وشرحه عبد الحميد هنداوي،دار الكتب العلمية(د،ط)، ،1971، بيروت.

7- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، دار إحياء التراث ،(د،ط، د ، ت).

8-أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ : الحيوان،تحقيق عبد السلام هارون ،المجتمع العلمي العربي الإسلامي،1963،بيروت.

9-أبو محمد حسين بن مسعود البغوي: شرح السنة ، المكتب الإسلامي، ط2 ،1983 .

10- أبو هلال العسكري: الصناعتين، الكتابة والشعر،تحقيق محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ، ط1 ،1952.
11- أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي:شرح ديوان الحماسة ،نشره عبدالسلام هارون وأحمد أمين ،دار الكتب العلمية،ط2 ،1967،القاهرة ،ج1.
12- أدونيس: مقدمة للشعر العربي ، دار العودة (د ، ط) ، بيروت.
13- إسماعيل بن كثير: تفسير القرآن العظيم ، دار المعارف ،(د، ط، د، ت) ،ج1 .
14- امرؤ القيس:الديوان، دار الآداب، ط1 ،1992 ، بيروت.
15- جرير بن عطية: الديوان، تحقيق نعمان محمد أمين طه، دار المعارف،1969 ، القاهرة ،ج1.
16- حاتم الطائي:الديوان،شرحه وقدم له أحمد رشاد،دار الكتب العلميةط1986،1،بيروت، لبنان.
17- حازم القرطاجني:منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية ، (د ، ط)،1966، تونس.
18- الراغب الأصفهاني : المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة،(د، ط،د ،ت)،بيروت.
- عبد القاهر الجرجاني :
19- دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ،ط3 ،1992 ،القاهرة.
20- الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح أبو الفضل إبراهيم علي البيجاوي، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، (د، ط،د،ت) ، بيروت.
21- عبد الملك الأصمعي:الأمثال،جمع وتحقيق عبد المجيد إبراهيم ، دار الوراق ،ط1 ، 2007.
22- عبيد بن الأبرص :الديوان ،شرح أشرف أحمد عدرة ،دار الكتاب العربي، ط1 ،1994 ، بيروت.
- فخر الدين الرازي:
23- الأمثال والحكم ،تحقيق عبد الرزاق حسين ،دار النفائس ،ط1 ،2006، الأردن.
24- مختار الصحاح،تحقيق وشرح وضبط سعيد محمود عقيل،دار الجيل ،(د،ط)، 2002 ،بيروت.

25- قدامة بن جعفر: نقد الشعر، دار الكتب العلمية، تحقيق كمال مصطفى،(د ، ط) ،1948 ،القاهرة.
26- لبيد بن ربيعة:الديوان،شرح الطوسي،تقديم حنا نصر الحتي،دار الكتاب العربي،ط1 ،1993 ، بيروت.
27-محمد بن طباطبا العلوي:عيار الشعر،تحقيق عباس عبد الستار،دار الكتب العلمية،ط1،1982 ،لبنان.
28- محمد ناصر الدين الألباني:غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام ،المكتب الإسلامي، ط3 ،1985.
محمود بن عمر الزمخشري:
29- أساس البلاغة ،دار الكتب العلمية ،ط1 ،1998،بيروت ،لبنان.
30- الكشاف ،(د ،ط، د،ت) ،ج.4
31- مسلم بن الحجاج ، صحيح مسلم ،دار قرطبة ،(د ،ط ،د ،ت).
32- النابغة الذبياني: الديوان،إعداد نجيب عطوي،دار الكتب العلمية ، ط1،1990 ،بيروت.
33- يوسف بن أبي بكر السكاكي:مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور،دار الكتب العلمية ، ط2،1987، بيروت.

المراجع:

34-إبراهيم بن عبد الرحمن الغنيم :الصورة الفنية في الشعر العربي مثال ونقد، الشركة العربية للنشر والتوزيع ،(د، ط ، د، ت).
35- إبراهيم رماني: الغموض في الشعر العربي، ديوان المطبوعات الجامعية (د، ط ، د، ت) ، الجزائر.
36- إبراهيم مصطفى الدهون: التناص في شعر أبي العلاء المعري، عالم الكتب الحديث ،2011 ، الأردن.
37- ابن العديم: أبو العلاء المعري، دار سعد للطباعة والنشر، (د،ط)، 1945، مصر.
38 -أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم،تحقيق عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة ،ج2.

39-أبو عبدالله فيصل بن عبده قائد الحشدي: تسهيل البلاغة، دار القمة و دار الإيمان ،(د، ط ، د ، ت) .

- إحسان عباس :

40- إتجاهات الشعر العربي المعاصر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، 1988.

41- فن الشعر، دار بيروت ،(د ، ط) ،1955.

42- أحمد أمين: النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية ، ط5 ،1983 ، القاهرة.

43-أحمد محمد عبد الخالق: قلق الموت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،سلسلة عالم المعرفة، 1998، الكويت.

44-أحمد مطلوب و حسن البصير: البلاغة و التطبيق، جمهورية العراق ، ط2 ،1999.

45-أشرف علي الدعدور:الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة، دار نهضة الشرق ، ط1 ،2002 ،جامعة القاهرة.

46- أماني سليمان داود: الأمثال العربية ، دراسة أسلوبية سردية حضارية ، ط1 ،2009، الأردن.

47-إيليا الحاوي:في النقد والأدب،مقدمات جماعية عامة مقطوعات من العصر الإسلامي،دار الكتاب اللبناني، ط2 ،1986 ، بيروت .

48- بدر الدين بن مالك : المصباح في المعاني و البيان و البديع ، حققه وشرحه حسن عبد الجليل يوسف، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميزت، المطبعة النموذجية ،(د، ط، د، ت).

49- بسيوني عبد الفتاح :علم البيان،دراسة تحليلية لمسائل البيان، مؤسسة المختار،دار المعالم الثقافية ، ط2 ،2004 ،القاهرة.

50- البطليوسي وآخرون:شروح سقط الزند،إشراف طه حسين،تحقيق جماعة من الأساتذة،ط3 ،1996،جامعة الكويت .

51- جابر عصفور:الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب،المركز الثقافي العربي،ط3، 1992،بيروت.

52- جعفر خرسباني: أبو العلاء المعري رهين المحبسين،دار الكتب العلمية ،ط1، 1990،بيروت، لبنان.
53- جميل عبد المجيد : البديع بين البلاغة العربية و اللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب،(د، ط ، د ، ت) .
54- جهاد رضا: التصوير الفني في شعر العميان،سلسلة الدراسات، منشورات اتحاد كتاب العرب ،2011 ، دمشق.
55- حامد عبد القادر:فلسفة أبي العلاء مستقاة من شعره،مطبعة لجنة البيان العربي،(د، ط،د، ت).
56- حامد عبد المجيد:شرح المختار من لزوميات المعري، شرحه البطليوسي وآخرون،الهيئة المصرية العامة، طبعة مزيدة،1911، القاهرة.
57- حمدان حجاجي:حياة وآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط2 ،1982، الجزائر.
58- حمزة مختار:سيكولوجية المرضى وذوي العاهات، دار المعارف،1956، القاهرة.
59- حنا الفاخوري:منتخبات الأدب العربي،منشورات المكتبة البوليسية ، ط5 ،1970، بيروت.
60- حنا نصر الحتي: شعراؤنا ديوان الحطيئة ، برواية وشرح السكيت، دار الكتاب العربي ،2004 ، بيروت.
61-خليل شرف الدين:في سبيل موسوعة فلسفية،أبو العلاء المعري،دار مكتبة الهلال،(د،ط) ،1995.
62- خليل مرسي:الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر، مطبعة الجمهور،ط4، (د، ت) ، دمشق.
63- دلال هاشم كريم الكناني:الصورة الشعرية في الغزل العذاري، دار الحوار، ط1 ،2011 .
64-رابح بن خوية:جماليات القصيدة الإسلامية المعاصرة، الصورة، الرمز، التناص، عالم الكتب الحديث ، 2013، إربد ، الأردن.
رجاء عيد:
65- التجديد الموسيقي في الشعر العربي، دار النهضة العربية،(د،ط)، 1984، بيروت.

66- لغة الشعر العربي المعاصر، قراءة في الشعر العربي الحديث، منشأة المعارف ،(د ،ط، د،ت) ، الإسكندرية.
67- فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، منشأة المعارف المصرية ،(د، ط، د، ت).
68- رسمية القسطي: أثر كف البصر على الصورة عند المعري ،مطبعة أسعد ،1968، بغداد.
69-رمضان الصبّاغ :في نقد الشعر العربي المعاصر، دار الوفاء، ط1 ،(د، ت).
70-ريتا عوض:بنية القصيدة الجاهلية،الصورة الشعرية لدى امرئ القيس،دار الآداب،ط1،1992 ،بيروت.
71-زبير دراقي وعبداللطيف شريفي:الإحاطة في علوم البلاغة، ديوان المطبوعات الجامعية،(د،ط،د ، ت)،الجزائر.
72- زهير بن أبي سلمى حياته وشعره:إعداد محمد يوسف فران، دار الكتب العلمية،ط1 ،1990 ، بيروت.
73- سعد الدين التفتازي: مختصر المعاني، مؤسسة التاريخ العربي ،(د ، ط) ،2004.
74- سعد سليمان حمودة : البلاغة العربية، دار المعرفة الجامعية ،(د ، ط) ،1969 ،مصر.
75- السعيد الورقي:لغة الشعر العربي الحديث، دار النهضة العربية ، 1984، لبنان ،بيروت.
76- سميرة سلامي:الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، دار الينابيع، ط1، 2000، دمشق.
77- سمير كاظم خليل:مجمع الأمثال دراسة في منهجه وطائفة من الأمثلة، كلية التربية،(د، ط،د، ت).
78- سناء خضر:النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين، دار الوفاء،ط1،(د، ت)، الإسكندرية.
79-السيد أحمد الهاشمي:جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، المكتبة العصرية ، ط1.
سيد قطب :
80- التصوير الفني في القرآن ، دار المعارف ، ط10 ،(د ، ت).
81- النقد الأدبي ، أصوله ومناهجه ،دار الشرق ،ط5 ،1983 ، بيروت.

82- شعيب خلف: التشكيل الإستعاري في شعر أبي العلاء المعري، دراسة أسلوبية إحصائية ،دار الإعلام والإيمان، ط1 ،2009.

83- الشوري مصطفى عبد الشافي:شعر الرثاء في العصر الجاهلي، مكتبة لبنان،الشركة المصرية العالمية،(د ،ط،د ،ت).

84- شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، دار المعارف، الطبعة الثالثة، (د، ت) .

85- صاحب إبراهيم خليل: الصورة السمعية في الشعر العربي قبل الإسلام، دراسة من منشورات اتحاد كتاب العرب ،.2000

86- صالح أبو إصبح : ثقافة الصورة في الأدب والنقد ،مؤتمر فيلادفيا الدولي، 12منشورات جامعة فيلادفيا.

87- صالح بلعيد :نظرية النظم ،دار هومة ،(د ، ت) ،2004.

88- صالح زامل: تحول المثال دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1، 2003، بيروت.

89- صبحي حموي: المنجد في اللغة المعاصرة، دار المشرق ، ط1، 2001، بيروت.

90- صفي الدين الحلي:شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع ،تحقيق نسيب نشاوي ، دار صادر، ط1 ،1982 ، بيروت.

91- صلاح الدين صفدي:جناس الجناس في علم البديع،مطبعة الجوانب،ط1،1299 ،قسطنطينة.

92- صلاح الدين عبد التواب: الصورة الأدبية في القرآن الكريم ،الشركة المصرية العالمية للنشر ،ط1 ،1995.

93- صلاح الدين عبد الفتاح:نظرية التصوير الفني عند السيد قطب، المؤسسة الوطنية للفنون الطبيعية ،(د ،ط)،1988، الجزائر.

94- صلاح فضل: الأساليب الشعرية في اللّغة المعاصرة،دار الآداب ، ط1، 2000، بيروت.

95- الطاهر حمروني:منهج أبي علي المرزوقي في شرح الشعر،المؤسسة الوطنية للكتاب،(د،ط،د، ت).

طه حسين:

96-أبو العلاء المعري ،حياته وشعره، دار النفس للنشر (د، ت، د ، ط).

97-المجموعة الكاملة، أبو العلاء المعري، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، ط2، 1983.
98- تعريف القدماء بأبي العلاء،الدار القومية للطباعة والنّشر، 1965، القاهرة.
99- مع أبي العلاء في سجنه ، دار المعارف ، ط10 ، مصر.
100-عائشة عبد الرحمن: مع أبي العلاء في رحلة حياته،دار الكتاب العربي، ط1، 1972،لبنان ، بيروت.
101- عبد الجليل مرتاض: التناص، ديوان المطبوعات الجامعية ،2011.
102- عبد الحميد جيدة:الإتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة نوفل،بيروت، ط1، 1980.
103- عبد الحميد هيمة: الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري،إتحاد كتاب الجزائريين، ديدوش مراد، ط1،2003 ، الجزائر.
104- عبد الرؤوف دقاق: أمراء الشعر العربي أبو العلاء المعري، مراجعة محمد كمال ،(د ،ط ، د ، ت) ، سوريا.
105- عبد الرحمن تبرماسين:العروض وإيقاع الشعر العربي،دار الفجر للنشر والتوزيع،ط1، 2003.
106- عبد الرحمن حسن حنبكة: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها وصور من تطبيقاتها بهيكل جديد ،دار القلم ودار الشامية ،ط1 ،1992 ،بيروت ،ج2.
107- عبد الرزاق قسوم: مفهوم الزمان في فلسفة بن رشد، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، الجزائر.
108- عبد الفتاح كيلوطو: أبو العلاء المعري أو متاهات القول ، دار بوقال للنشر، ط1 ،2000.
109- عبد القادر حسن :القرآن والصور البيانية ، عالم الكتب ، ط2 ،1985 ، بيروت.
عبد القادر الرباعي :
110- الصورة الفنية في النقد الشعري، دراسة في النظرية والتطبيق ،ط1،2009.
111- في تشكل الخطاب النقدي، مقاربات منهجية، منشورات الأهلية ،ط1،1998، لبنان.
112- عبد القادر زيدان: قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري، دار الوفاء، ط1، 2004.
113- عبد القادر عبد الحميد زيدان:التمرد والغربة في الشعر الجاهلي،دار الوفاء،ط1، 2003.
114- عبد القادر محمد مايو:معالم اللغة العربية، دار القلم العربي ،(د، ط)،2000.

115- عبد الكريم حسن:المنهج الموضوعي نظرية وتطبيق،شراع للدراسات والنشر والتوزيع،ط2، 1996، دمشق.
116- عبد الله التطاوي، القصيدة العباسية قضايا واتجاهات، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، (د، ت، د،ط) ، القاهرة .
117- عبد الله راجع :القصيدة المغربية المعاصرة ،بنية الشهادة والاستشهاد ،دار قرطبة ،منشورات عيون ، ط1، الدار البيضاء،ج1.
118- عبد المالك مرتاض:الأدب الجزائري القديم،دراسة في الجذور، دار هومة ، (د، ت)، 2005.
119- عبد المتعالي الصعيدي :البلاغة العالية،علم البيان،مكتبة الآداب ،ط1،2000.
120- عبده بدوي: الغربة والاغتراب والشعر، دار قبا للطباعة والنشر والتوزيع ،1998، القاهرة.
121- عبده عبد العزيز قلقيلة:البلاغة الاصطلاحية، دار الفكر العربي،جامعة طنطا، ط3، 1992 ،القاهرة.
122- عدنان خالد عبد الله:النقد التطبيقي التحليلي، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية ،ط1 ،1986،بغداد.
123- عدنان قاسم: الأصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر،دراسة نقدية في أصالة الشعر، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1980.
124- عروة عمر: الشعر العباسي وابرز إتجاهاته وأعلامه،دروس،ديوان المطبوعات الجامعية ،(د،ط) ، الجزائر.
125- عزّت حجازي:الشباب العربي ومشكلاته،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،سلسلة عالم المعرفة، 1985، الكويت.
126- عزيز السيد جاسم: الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضى، دار الأندلس، ط1، 1986، ، بيروت، لبنان
127- علي جميل سلوم وحسن نور الدين:الدليل إلى البلاغة وعلم العروض،دار العلوم العربية، ط1 ،1990، بيروت.
128- علي شلق: الشم في الشعر العربي ، دار الأندلس ،(د ، ط ، د ، ت).

129- عماد علي الخطيب:الصورة الفنية أسطوريا،دراسة في نقد وتحليل الشعر الجاهلي، تقديم عبد القادر الرباعي، دار جهينة للنشر والتوزيع ،2006.
130- عمر بوقرورة:الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث(1945- 1962)، منشورات جامعة باتنة ، (د، ط ، د ، ت).
131- عمر الفروخ :حكيم المعرة ،دار لبنان ،(د، ط، د، ت)، بيروت، لبنان.
132- عيسى علي العاكوب وعلي سعد الشتيوي: الكافي في علوم البلاغة العربية، دار الهناء، ط1 ،1933.
133- فايز الداية:جماليات الأسلوب،الصورة الفنية في الأدب العربي،دراسات أسلوبية،دار الفكر، ط2 ، 2003 ، دمشق.
134-كامل حسن البصير:بناء الصورة الفنية ،مطبعة المجمع العلمي العراقي،(د ،ت)،1987 ،بغداد.
135-كريم زكي حسام الدين:الزمان الدلالي، دراسة لغوية لمفهوم الزمن وألفاظه، في الثقافة العربية ، دار غريب، (د،ت)، ط2، القاهرة.
136- مجموعة من الباحثين : قضايا النقد بين النظرية والتطبيق ،ندوة الصورة والخطاب،إشراف محمد القاسمي والحسن السعدي ،عالم الكتب الحديث ،2009،جامعة سيدي محمد بن عبدالله فاس.
137- محمد أبو الأنوار:الشعر العباسي تطوره وقيمه الفنية ،دار المعارف (د،ط،د ،ت) ،بيروت.
138- محمد أبو موسى: التصوير البياني،دراسة تحليلية لمسائل البيان ،جامعة الأزهر،مكتبة وهبة ،ط3 ،1993.
139- محمد بدري عبد الجليل:المجاز وأثره في الدرس اللغوي،دار النهضة العربية ،(د ،ط) ،1986.
140- محمد بنشريفة:شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند،مطبعة النجاح الجديدة ،الدار البيضاء.
141- محمد تحريشي:النقد و الإعجاز ، منشورات اتحاد كتاب العرب ،(د ،ط) ،2004 ،دمشق.
142- محمد الحبيب حمادي :المعري وجوانب من اللزوميات ، الدار التونسية للنشر ،1984.
143- محمد حسين عبد الله:الصورة والبناء الشعري،دار المعارف،مكتبة الدراسات،1981، القاهرة.

144- محمد الدسوقي:البنية التكوينية للصورة الفنية ،درس تطبيقي في ضوء علم الأسلوب ،دار العلم للنشر، جامعة طنطا ،كلية الآداب ،2009.
145- محمد رضا مروة :أبو تمام،عصره ،حياته ، شعره ، دار الكتب العلمية ،(د،ط،د ،ت).
146- محمد سليم الجندي :الجامع في أخبار أبي العلاء المعري ،(د ،ط ،د ،ت) ،ج1.
147- محمد الطاهر بين عاشور : ديوان بشار بن برد ،ج1 ،ج4.
148- محمد عجينة:موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها، دار محمد علي للنشر ،ط1،1994.
149- محمد القاسمي: الصورة الشعرية ، دراسة في شعر أبي تمام، مطبعة آنفو ط1 ،2005، فاس.
150- محمد محمد بركات :البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل،دار النشر ،ط1 ،1992،عمان الأردن.
151- محمد مختار: سيكولوجية المرضى وذوي العاهات ،دار المعارف ،1956 ،القاهرة.
152- محمد مصطفى أبو شوارب:جماليات النص الشعري قراءة في أمالي القالي،دار الوفاء،ط1، 2005 ،الإسكندرية.
153- مصطفى أمين وعلي الجازم: البلاغة الواضحة، دار المعرف، ط16.
154- مصطفى البشير قط: قراءات في النقد والأدب، مكتبة الآداب ،ط1، 2008، القاهرة.
155- مصطفى صادق الجويني: البيان فن الصورة ،(د ،ط ، د، ت).
156- مصطفى صادق الرافعي :تاريخ آداب العرب ،دار بن الجوزي ،ط1،2009 ،القاهرة ،ج1.
157- مصطفى فهمي: مجالات علم النفس، دار مصر للطباعة ،(د ،ت).
158- منير سلطان:الصورة الفنية في شعر المتنبي،الكنايةوالتعريض، منشأة المعارف،2002 ، الاسكندرية.
159- نازك الملائكة :قضايا الشعر المعاصر ،دار العلم للملايين ،(د ،ط ،د ،ت) ،بيروت.
160- ناصف وآخرون :دروس البلاغة ، دار ابن حزم ،ط1 ،2012.
161- نجيب عطوي:بشار بن برد ،حياته وشعره ،دار الكتب العلمية ،ط1،1990،بيروت ،ج 1.
162- نعيم الباقي كمقدمة لدراسة الصور البيانية ، منشورات ،وزارة الثقافة، 1982،دمشق.

163- هادي العلوي:أبو العلاء المعري ،المنتخب من اللزوميات،نقد الدولة والدين والناس،دار المدى للثقافة والنشر ،ط1، 1990،الأعمال الكاملة (10).
164- هشام القلفاط :المتغير الأدبي في شروح سقط الزند لأبي العلاء المعري ،عالم الكتب الحديث ،ط1 ،2009 ،إربد ، الأردن.
165- الوصيف هلال الوصيف: التصوير البياني في شعر المتنبي ، مكتبة وهبة ،2006
166- يحي العبد الله:الاغتراب دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،ط1، 2005 ، بيروت.
167- يسرى سلامة: النقد الأجتماعي في آثار أبي العلاء، دار المعرفة،(د،ط،د ،ت) ،الاسكندرية.
168- يوسف فرحات: كتاب الموسوعة الفلسفة الإسلامية وأعلامها،دار النفائس، ط1، 1986.
169- يوسف وغليسي:محاضرات النّقد الأدبي المعاصر،منشورات جامعة قسنطينة،2004.

المراجع الأجنبية:

170 - (Regis Blacher)contribution a letude de la littératur proverbiale des arabes a lepoque archaique arabica 1.1954.
171- (Emil durkheim) : les firmes elemontaire de la vai religieuse3° ed paris 1935.
172- warren shibles analysis of metaphor in the light of .w.m.urbans,s theories .
173- M.i traite dhistoire des religions le sacre et heprifine gallimard.1965.

الكتب المترجمة:

174- جاك شورون :الموت في الفكر العربي ، ترجمة كامل يوسف حسين ،مراجعة إمام عبد الفتاح ، سلسلة عالم المعرفة ،يناير 1978 ، الكويت.
175- ريتشارد شاخت :مستقبل الإغتراب مع دراسة المشروع الفلسفي عند ريتشارد شاخت ،ترجمة وهيبة طلعت أبو العلا ، منشأة المعارف ،(د ،ط ،د ،ت).

176- سيسيل دي لويس :الصورة الشعرية ، ترجمة أحمد نصيف الجناني ومالك الميري ، مراجعة عناد غزوات إسماعيل ،دار الرشيد ،1982،سلسلة الكتب المترجمة ،ع121.
177- فرانسوا مورو: البلاغة المدخل لدراسة الصورة البيانية، ترجمة الولي محمد وحرير عائشة ،أفريقيا الشرق ، 2003.
178- مجموعة من المفكرين المتخصصين:فكرة الزمان عبر التاريخ ، ترجمة فؤاد كامل، مراجعة شوقي جلال، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة عالم المعرفة،يناير 1978 ، الكويت
179- هيمن ستانلي :النقد الأدبي ومدارس الحدثية ،ترجمة إحسان عباس ومحمد يوسف نجم ،ج2.

الرسائل والأطروحات:

180- رمضان محمود كريم:شعر المعري من منظور القراءة والتأويل، إشراف عباس مصطفى الصالحي، أطروحة مجلس ابن رشد ،جامعة بغداد.
181- زيد غانم الجهيني :الصورة الفنية في المفضليات ،الجامعة الإسلامية ،رسالة دكتوراه ،ط1 ،1465 ،المملكة العربية السعودية.

المجلات واللّوريات:

182 - أودو كلترمان تورت باد :فن أسرار الألوان ،مجلة فكر ،ع 19،14،1969.
183- بلقاسم حمام:الكناية هروب من اللغة هروب من الذات هروب من الآخر،مجلة الأثر،ع5 ،2006 ،جامعة قاصدي مرباح ،ورقلة.
184- حسن محمد حسن حماد:الإغتراب عند أبي، حيان التوحيدي،دراسة فلسفية من خلال الفكر الوجودي ، مجلة فصول ،ع خريف 1995،القاهرة ، بسكرة.
185- زياد محمود مقدادي :من الصورة الفنية عند العرب ،مجلة القدس ،ع6983 ،2011.
186- سعود فطيمة وسعود مريم :أنماط الصورة الفنية في قصة القميص، سورة يوسف ،مجلة دراسات ، العدد ب ،13 مارس 2013 ،جامعة الأغواط.
187- صبار نور الدين الاغتراب بين القيمة المعرفية والقيمة الجمالية، مجلة الموقف الأدبي،إتحاد كتاب العرب ،ع 355، 23 سبتمبر 2003، دمشق.
188- عبد الرحمن تبرماسين وعائشة جباري:البنية الإيقاعية في المزدوجة ،دار الكتب العلمية أبحاث في اللغة والأدب الجزائري ،مجلة المخبر ،ع2 ،2005 ، بسكرة.

189- عبد المالك مرتاض:الصورة الفنية في شعر عبد العزيز، مجلة الثقافة ،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ،(د ،ت) ،ع90 ،الجزائر.
190- علي البطل:الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها ، مجلة فصول ،المجلد 4، ع4 ،1984.
191- فاروق شوشة: لزوميات المعري، صوت احتجاج و إدانة،مجلة العربي، ع534، مايو،2003، الكويت .
192- فاطمة دحية:قراءات في جماليات الصورة الشعرية في القصيدة القديمة ،مجلة المخبر، ع10 ،2010.
193- قيس النوري: الاغتراب اصطلاحا ومفهوما، مجلة عالم الفكر ،ع1، 1979، الكويت.
194- محمد مذبوحي:الأبعاد الكلامية في الدرس المجازي عند ابن جني،مجلة كلية الآداب، ع5 ،2004 ،جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان.

المواقع الإلكترونية:

195-إبراهيم أمين الزرزموني:مفهوم الصورة الفنية بين القديم والحديث ، منتدى النقد التطبيقي والدراسات النقدية ،أفريل 2006 ،ج1. Hema @ Hotmail.com
196- غسّان السيد: الاغتراب في أدب زكريا ثامر، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، ع 352، 23 سبتمبر 2003. www.awu.dam.or g
197- محمّد راضي جعفر، الاغتراب في الشعر العراقي، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب، **www.awu** .dam .or g

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

العنـــــــــــوان	الصفحة
مقدمـــة	أ
المدخل: ماهية الصورة الفنية ووظيفتها في إبداع الشعر	
أولا: مفهوم الصورة الفنية	09
1-مفهوم الصورة لغة	10
2- مفهوم الصورة اصطلاحا	13
2-1-الصورة الفنية عند النقاد العرب والغربيين	13
2-2-الصورة الفنية عند المحدثين	17
ثانيا: أنواع الصورة الفنية	22
1- الصورة البيانية	23
2– الصورة البديعية	32
3- الصورة الحقيقية	39
ثالثا: أهمية الصورة الفنية	41
الفصل الأول: أنماط الصورة الفنية في شعر أبي العلاء المعري	
القسم الأول: أنماط الصورة حسب قالبها الفني	44
أولا : الصورة البيانية	44
1– الصورة التشبيهية	47
2– الصورة الاستعارية	68
3– الصورة الكنائية	80
4– الصورة المجازية	91
ثانيا : الصورة البديعية	104
1– الصورة الطباقية	105
2– الصورة التقابلية	119
3– الصورة الجناسية	123
ثالثا : الصورة الحقيقية	140
1–صور خارجية	140

2- صور داخلية 151
القسم الثاني : أنماط الصورة حسب الحواس 167
أولا : الصور البصرية 169
1- الصورة البصرية الساكنة 170
2- الصورة البصرية المتحركة 175
3- الصورة البصرية الملونة 184
ثانيا : الصور السمعية 193
ثالثا : الصور الذوقية 206
رابعا : الصور اللمسية 213
خامسا : الصور ا لشمية 217
الفصل الثاني: موضوعات الصورة و العوامل التي أثرت في المعري لإخراجها
القسم الأول: موضوعات الصورة لدى المعري 232
أولا : الاغتراب 232
ثانيا : الزمان 245
ثالثا : الموت 254
القسم الثاني :العوامل التي أثرت وساهمت في تشكيل صور المعري 265
أولا: فقدان بصره 265
ثانيا : الزهد في الحياة 271
ثالثا :اعتزال الناس 280
الفصل الثالث : مصادر الصورة الفنية لدى المعري
القسم الأول :المصدر الديني والثقافي 287
أولا : القرآن والحديث النبوي الشريف 289
ثانيا : الشعر القديم 306
ثالثا : التاريخ 317
رابعا : الأمثال والحكم 331
القسم الثاني : المصدر العيني 348
أولا : صور في هيئة إنسان وأعضائه 348
ثانيا :صور مصدرها الأدوات 369
ثالثا :صور مصدرها الحضارة 376
رابعا : صور مصدرها الزينة واللباس 383
خامسا: صور مصدرها العلاقات البشرية 388

القسم الثالث : المصدر الطبيعي 397
أولا : الطبيعة الصامتة..... 397
ثانيا : الطبيعة المتحركة 423
1- صور مصدرها حيوانات داجنة..... 424
2- صور مصدرها حيوانات متوحشة..... 428
3- صور مصدرها الطيور..... 432
4- صور مصدرها الزواحف والحشرات..... 438
الفصل الرابع : سمات الصورة الفنية لدى المعري.....
القسم الأول : السمات اللفظية..... 452
أولا :حسن الرصف والتعليل..... 452
ثانيا : متانة التركيب..... 454
ثالثا : كثرة التكلف..... 455
رابعا: البنية الإيقاعية..... 458
1- الوزن والقافية..... 462
2- التكرار..... 465
3- التصدير..... 471
4- التدوير..... 472
5- التصريع..... 474
القسم الثاني :السمات المعنوية لدى المعري..... 475
أولا : الوضوح والإبهام..... 476
ثانيا :المبالغة..... 486
ثالثا: شعرية التعبير..... 494
1- المماثلة..... 495
2- الإجمال والتفصيل..... 514
3- الإضمار والتلميح..... 526
4- المغايرة..... 541
خاتمة..... 552
قائمة المصادر والمراجع..... 558
فهرس المحتويات..... 573
الملخص..... 576

الملخص بالعربية:

يعتبر موضوع الصورة الفنية من بين الموضوعات المهمة التي تحتاج إلى الدراسة والتحليل، خاصة إذا كانت تخص شاعر مميز مثل أبو العلاء المعري، هذا الشاعر الذي أبهر بأسلوبه ومهارته كل من سمعه.

لذلك أجريت الدراسة حوله وفق منهج إحصائي تحليلي يساعد على الكشف عن مختلف الصور الموجودة في ديواني أبي العلاء المعري وهما سقط الزند واللزوميات بجزئيه، وكأي دراسة تحتاج قبل الخوض والتفصيل فيها إلى تمهيد يخص الموضوع المعالج، وهذا ما تبين في الفصل التمهيدي الذي حوى ماهية الصورة ووظيفتها في إبداع الشعر، وكان التطرق فيه إلى أنماط الصورة حسب قالبها الفني من صور بيانية، وبديعية وحقيقية، كما تم التطرق إلى الأنواع المرتبطة بالصورة و لكن بحسب الحواس في الشق الثاني من الفصل، وهذا ما أظهر في هذا الفصل ووضح أكثر في الفصل الأول؛ حيث تجلت من خلاله بعض الصور منها البصرية المتحركة والساكنة إضافة إلى الصور البصرية الملونة أما الصور الأخرى فكانت تخص السمع والبصر والذوق واللمس.

أما الفصل الثاني فانصبت الدراسة حول بعض المواضيع التي تداولت بكثرة في شعر المعري ومدى تأثيرها في شعره، وهذا ما بين موضوع الغربة والزمان والموت وغيرها من المواضيع التي شكلت صور المعري وكان لها كبير الأثر لإخراجها، كما أن أبا العلاء المعري لم يبخل على نفسه الاستفادة من بعض المصادر سواء كانت مصادر دينية تخص القرآن والسنة النبوية أو مصادر ثقافية يهتم فيها الشاعر بالشعر القديم والشعراء إضافة إلى التاريخ وبعض الأمثال والأساطير فتم توظيفها في شعره.

أما بقية المصادر فكانت مقتبسة من الطبيعة واحتكاكه بها، فعمد بذلك إلى توظيف الطيور والحيوانات ومختلف الجمادات من ماء، وسماء، وأرض، وجبال وغيرها.

إضافة إلى المصدر الإنساني الذي عرف العديد من الصور المستوحاة من الإنسان والحضارة والآلات ومختلف العلاقات البشرية، وفي الأخير خصت الدراسة حول بعض السمات الظاهرة في شعره لفظية ومعنوية كحسن الرصف ومتانة التركيب وبلاغة ووضوح وتكلف وغيرها من السمات التي عرف بها شعر المعري وهكذا يكون البحث قد اكتمل وقد خص جوانب عديدة عرفت مثلما هو ملاحظ في فصول عديدة ناقشت وعقبت وحللت ديواني المعري.

الكلمات المفتاحية: الغدر، الخيانة، القلق، التشبيه، الاستعارة، الكناية، المجاز، اللمس، البصر، الشم، الذوق، الشر، الزمان، الغربة، الموت، تعطيل الزواج، الحزن، الاكتئاب، الدنيا، الهجرة، الأسى، الألم، الفساد، اللغو.

Résumé en francais:

Le sujet de l'image éloquence est une question importante qui doivent être étudiées et analysées, en particulier si elle traite un tel éminent poète Abu Ala AlMaarri qui séduit par son style et sa compétences.

Par conséquent, l'étude a été menée selon une approche analytique statistique qui permet de détecter des images différentes dans ses deux livres Sakato Azzand et Alluzumiat.And comme toute étude, vous aurez besoin avant tous, d'une préface détaillée ce qui a été trouvé dans le chapitre introductif, qui englobe les images et les fonctions dans la créativité du poète, etde mentionnerles motifs d'image en termes de rhétorique, de la créativité et de la réalité, qui y sont selon les sens dans la deuxième partie de la chapitre – plus claire dans le chapitre: 1– où certains mobiles et des images visuelles et statistiques se manifestent à travers, ainsi que des images decouleur visuel, d'autres images traitant de l'ouïe et la vue, le goût et le toucher.

Le chapitre: 2 se concentre sur des sujets qui existaient dans les poèmes de MAARI et leur impact, et qui montrent le sujet de l'aliénation, du temps , la mort et d'autres sujets qui ont formé les images du MAARI qui ont eu un impact significatif tout clair.

Abu Ala AlMaarri a bénéficié de certaines sources, que religieux appartenant au Coran et à la Sunnah ou ceux culturels qui montre que le poète est profondément intéressé par la poésie contemporaine, ainsi que de l'histoire ancienne et quelques proverbes et mythes qui sont employés dans ses écrits .

Le reste des sources concerne la nature et un contact par inadvertance avec eux, donc il a eu recours à utiliser divers oiseaux, des animaux et des objets inanimés: l'eau, le ciel, les montagnes et ainsi.

Il y avaiten plus d'autres sources humanitaires, l'homme et la civilisation, les machines et diverses relations humaines qui ont inspiré Almaarri.

En fin, l'étude a fait remarquer que certaines fonctions de phénomène dans sa poésie verbale et morale aussi bon pavé de la durabilité, l'installation, l'éloquence et la clarté, le sable de l'exagération d'autres caractéristiques qui ont été remarquées dans ses textes .Ainsi,pour terminer , la recherche pourrait montrer analiser plusieurs aspects que les livres de Al maarri contenus.

Mots–clés: traitrise – trihison – anxiété – comparaison – métaphore – métaniymie – trope – toucher – vue – odeur – gout – aliénation – temps –mort – mariage desactiver – la trytesse – depression – mal – monde – potin.

Abstract in English :

The subject of the image eloquen ceisan important issue that need to be studied and analysed ,especially if it deals with such a distinguished poet **Abu Ala AlMaarri** whow owed by his style and skills.

Therefore, the study was conducted around according to a statistic analytical approach which helps to detect different pictures in his two books **Sakato Azzand** and **Alluzumiat**.And like any study,you need before you go into the detailed preface and this is what was found in the introduct ory chapter, whichen compassed what Images and functions in the poet creativity, and talk about the image patterns in terms of rethoric, creativity and reality, that is according to the senses in the second part of the capter which is more clear in **Chapter :1**where some moving and static visual images are manifested through. In addition to the visual color images ,other images deal ing with hearing and sight, taste and touch.

The **chapter :2**focuses on topics that existed in **Maari**'s poems and their impact, and that shows the subject of alienation, time and death and other topics that formed the **Maari**'images which had a significant impact while remove them. **Abu Ala Al Maarri** be nefited from some sources, whether rreligiou sones be longing to the **Koran** and the **Sunnah** or cultur al ones which shows that the poet is deeply interested in the ancient poetry and poets as well as history and some proverbs and my that are employed in his writings.

The rest of the sources were quoted from nature and inadvertent contact with them, sohe has resorted to use various birds, animals and in animate objects : water ,the sky, the mountains and so.

In addition to humanitarian source ;human and civilization images ,machinery and various human relation ships which inspired Al maarri.In the end, the study pointed out to some phenomenon features in hispoetry verbal and moral as good pavement of durability , installation, eloquence and clarity,exaggeration sand other features that have been noticed in his texts. Thus, the search has been completed and could sort out several aspects that the books of Al maarri contained.

Key words: treachery – treason – anaxiety – smelling – simile – metaphor – metonymy – trope – touché –sight – smelling – taste – urckedness – time – alienation – the death – sadness – world – exile – immigration – disable marriages – sarrow – pain – perversity – depression.

تم بحمد الله